الأخلاق الإسلامية

وأسسها

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

الأخلاق الإسلامية

وأسسها

الطبعة الخامسة
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العظمى وله الكمال كله، وسبحان الله المنزّه عن كل صفة من صفات النقصان.

وصلى الله وسلم على محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين؛ من جاء وصفه في الكتاب العزيز بقول الله له في سورة (القلم ٦٨):

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وصلى الله وسلم على سائر الأنبياء والمرسلين، الذين امتازوا بفضائل الأخلاق ومحاسن الشيم، فكانوا للناس أئمة يُقتدى بهم ويُهتدى بهديهم.

ورضي الله عن الصحابة السابقين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا سِفْر في الأخلاق، جمعت فيه دراسات جديدة اقتبستها بالتأمل المتجرد من القرآن والسُنّة؛ وأنا مدفوع بدافع الأمل في أن أصل إلى معرفة الأسس العامة لمفردات الأخلاق في مفاهيم الإسلام وتعاليمه الربّانية، بالإضافة إلى جمع أهم هذه المفردات، وبيان قيمها وفوائدها وثمراتها.

وحين قمت بهذه الدراسة حاولت أن أبعد عن تصوّري كلّ دراسة للأخلاق قرأتها من قبل، للفلاسفة الإسلاميين ولغيرهم ممن سبقهم أو جاء بعدهم؛ رجاء أن لا أقع فريسة لوجهات نظرٍ معينة، فأعمل من حيث لا أشعر على

تطويع النصوص الإسلامية الأصلية لتحمل وجهات النظر هذه ولتدلّ عليها، ورجاء أن يكون بصري في فهم حقيقة معاني النصوص الإسلامية أقرب إلى السلامة وأكثر نفاذاً وإدراكاً، وأبعد عن المشوِّشات التي قد تفسد الرؤية، أو تغشي على جوانبها. هذا مع أني قد أفَدتُ من دراساتي الطويلة لما كتب الكثيرون في الأخلاق من إسلاميين وغيرهم ـ متقدمين ومتأخرين ـ فكان ذلك لديَّ أساساً لبدء عملية التدبر المباشر من كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولم أعمد إلى استعراض مذاهب الناس وآرائهم في الأخلاق، وإنما عمدت إلى ما تحصّل لديّ من المفاهيم المقتبسة من الإسلام فأثبتّه.

ولعل القارىء المنصف يجد في هذه الدراسة عملاً فذّاً، لم أنقله عن واحد أو جمعٍ ممّن سبق من العلماء الباحثين، ولعلّه يجد فيها القواعد المهمة لبناء علم الأخلاق الإسلامي؛ الذي لم يتأثر بفكر يوناني، ولا بفكر غربي حديث، ولا بمذهب من مذاهب الناس، وإنما اهتدى بهدي مفاهيم القرآن الكريم، وسُنّة الرسول العظيم، والتزم بضوابط الفكر السليم.

والله أسأل أن يسدّدني، ويبعدني عن الزلل، ويرزقني والقارىء حسن الخلق، وأن ينفع بهذا السفر ويجعله ذخراً لي يربو ما انتفع به منتفع لآخرته أو لدنياه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة في ١ رجب ١٣٩٨هـ

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الباب الأوّل

مقدِّماتٌ وأسُسٌ عامَّة

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

تعريفات

١ ـ تعريف الأخلاق.
٢ ـ أنواع السلوك الإرادي للإنسان.
٣ ـ دلالة السلوك الأخلاقي على الخلق الثابت في النفس.
٤ ـ الحكمة ومكارم الأخلاق والذكاء.

الفصل الأول

تعريفات

ـ ١ ـ

تعريف الأخلاق

يقتضينا البحث أولاً أن نميز الأخلاق عن غيرها من الصفات الإنسانية، وأن نميز أنواع السلوك التي هي آثار خلقية عن أنواع السلوك التي ليست آثاراً خلقية؛ حتى نعرف موضوع البحث الذي نحن في صدده، فلا يختلط علينا ما ليس من قبيل الأخلاق بما هو منها، وما ليس سلوكاً أخلاقياً بما هو سلوك أخلاقي.

ولدى التأمل وإمعان النظر يتبين لنا أن الخلق صفة مستقرة في النفس ـ فطرية أو مكتسبة ـ ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة.

فالخلق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم. والإسلام يدعو إلى محمود الأخلاق، وينهى عن مذمومها.

ونستطيع أن نقيس مستوى الخلق النفسي عن طريق قياس آثاره في سلوك الإنسان: فالصفة الخلقية المستقرة في النفس إذا كانت حميدة كانت آثارها حميدة، وإذا كانت ذميمة كانت آثارها ذميمة، وعلى قدر قيمة الخلق في النفس تكون ـ بحسب العادة ـ آثاره في السلوك، إلاّ أن توجد أسباب معوقة أو صوارف صادة عن ظهور آثار الخلق في السلوك.

وليست كلّ الصفات المستقرة في النفس من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز

ودوافع لا صلة لها بالخلق، ولكنّ الذي يفصل الأخلاق ويميزها عن جنس هذه الصفات كون آثارها في السلوك قابلة للحمد أو للذمّ، فبذلك يتميز الخلق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الإنسان الفطرية.

إنّ الغريزة المعتدلة ذات آثار في السلوك، إلا أنّ هذه الآثار ليست مما يحمد الإنسان أو يذم عليه.

فالأكل عند الجوع بدافع الغريزة ليس مما يُحمد أو يذمّ في باب السلوك الأخلاقي؛ لكنّ الشره الزائد عن حاجات الغريزة العضوية أمرٌ مذموم، لأنه أثر لخلق في النفس مذموم، هو الطمع المفرط، وعكس ذلك أثر لخلق في النفس محمود، هو القناعة.

والحذر من وقوع مكروه أثر من آثار غريزة حبّ البقاء، وليس محلاًّ للمدح أو الذم في باب السلوك الأخلاقي؛ لكن الخوف الزائد عن حاجات هذه الغريزة أثرٌ لخلق في النفس مذموم، هو الجبن، أما الإقدام الذي لا يصل إلى حدّ التهوّر فهو أثر لخلق في النفس محمود، هو الشجاعة.

وهكذا سائر الغرائز والدوافع النفسية التي لا تدخل في باب الأخلاق، إنما يميزها عن الأخلاق كون آثارها في السلوك أموراً طبيعية ليست مما تُحمد إرادة الإنسان عليه أو تذمّ.

ـ ٢ ـ
أنواع السلوك الإرادي للإنسان

ولدى التدبّر في السلوك الإرادي للإنسان، نلاحظ أنه ينقسم إلى أنواع شتى:

١ ـ فمنه ما هو أثر من آثار خلق في النفس محمود أو مذموم: كالعطاء عن جود، والإمساك عن شح، والإقدام عن شجاعة، والفرار عن جبن، والإقبال عن طمع، والكفّ عن عفّة، والاعتراف عن حب للحق، والإنكار عن كبر وإفراطٍ في الأنانية، والإغضاء عن حلم، والتحمل عن صبر، وهكذا.

٢ ــ ومنه ما هو استجابة لغريزةٍ من غرائز الجسد أو النفس الفطرية، ضمن حدود الحاجات الطبيعية لها: كالأكل المباح عن جوع، والشرب المباح عن ظمأ، ومعاشرة الزوجة عن طلب لذلك، والنوم عن حاجة إليه، والسعي في اكتساب الرزق تلبية لداعي الفطرة، والاستمتاع المباح بالجمال تلبية لطلب النفس، والترويح عن النفس بشيء من مباحات اللهو واللعب، وأمثال ذلك.

٣ ــ ومنه ما هو استجابة إرادية لترجيح فكري: كأن يرى الفكر مصلحة أو منفعة في سلوك ما، فتتوجه الإرادة لممارسته، أصاب الفكر في ذلك أو أخطأ، كمعظم أعمال الناس اليومية في وجوه الكسب وغيره.

وقد يرجع هذا في جذوره إلى تلبية دافع من دوافع الغرائز الجسدية أو النفسية، أو إلى دافع أخلاقي، أو إلى غير ذلك.

٤ ــ ومنه ما هو من قبيل الآداب الشخصية أو الاجتماعية: كآداب الطعام والشراب، واللباس والمشي، والنظافة والنظام، والآداب المتعلقة بالأناقة وإصلاح مظاهر الجسد؛ كتنظيف الشعر وترجيله، وتقليم الأظافر، وإزالة شعر الإبطين والعانة، وإبداء كلّ حَسَنٍ وجميل احتراماً لأذواق الناس، وتكريماً لهم، واسترضاءً لمشاعرهم.

وربما يكون التزام بعض هذه الآداب أثراً من آثار خلق في النفس محمود، وربما يكون إهمالها أثراً من آثار خلق في النفس مذموم.

٥ ــ ومنه ما هو طاعة للأوامر والتكاليف الربانية أو غير الربانية: وقد تكون هذه الأوامر والتكاليف ملزمة بسلوك أخلاقي، أو ملزمة بأعمال هي من قبيل العبادات المحضة، أو بأعمال هي من قبيل الآداب، أو ملزمة بأعمال تحقق المصالح والمنافع للناس، أو غير ذلك مما يخالف ما سبق أو يناقضه.

ومن هذا النوع أوامر الشرائع ونواهيها، وأوامر السلطات الحاكمة ونواهيها؛ ونحو ذلك من الأوامر والنواهي.

٦ ــ ومنه ما هو من قبيل العادات التي تتأصل في السلوك: وقد ترجع

هذه العادات إلى موجه أخلاقي، أو موجه غرزي، أو موجه تكليفي، أو موجه اجتماعي، أو نحو ذلك. وقد لا تكون أكثر من ممارسات عبث استحكمت بالعادة.

٧ ـ ومنه ما هو من قبيل التقاليد الاجتماعية، التي تسري في سلوك الأفراد بعامل التقليد المحض، أو بقوة التأثير الاجتماعي. وقد تكون هذه التقاليد حسنة، وقد تكون سيئة.

وحين تكون قوة التأثير الاجتماعي هي العامل في ممارسة السلوك، فإن السلوك حينئذٍ يرجع إلى نوع الطاعة للمجتمع، في أوامر وتكاليف غير منصوصٍ عليها في العبارة.

وهكذا تبين لنا أن السلوك الإرادي الإنساني له أنواع شتى، فليس كل سلوك مظهراً من مظاهر الأخلاق في النفس الإنسانية.

يضاف إلى ذلك أنه ربما يكون المظهر السلوكي الواحد أثراً لموجه أخلاقيٍ تارة، وأثراً لغير ذلك تارة أخرى.

ويخلط بعض الناس مختلف مظاهر السلوك الإنساني فيجعلها من قبيل السلوك الأخلاقي؛ وهذا يرجع إلى أنهم لا يملكون تحديداً واضحاً للأخلاق، أو يرجع إلى أن رؤيتهم لحقيقة السلوك غير واضحة.

وحشر أنواع السلوك الإنساني تحت عنوان الأخلاق خطأ فادح، يوقع في أخطاء أخرى أكثر وأكبر منه، والذي أوقع كثيراً من الباحثين في موضوعات الأخلاق في أخطاء جوهرية عدم تمييزهم بين أنواع السلوك الإنساني.

إن الأصل في السلوك الإنساني أنه يهدف إلى تحقيق مطالب جسدية أو نفسية أو فكرية أو روحية، سواء أكان ذلك لصالح الفرد أو لصالح الجماعة، وأي سلوك لتحقيق مطلب من هذه المطالب إما أن يكون سلوكاً خلقياً، وإما أن يكون سلوكاً لا علاقة له بالأخلاق إيجاباً ولا سلباً.

فقد يجوع الإنسان فيأكل ملبياً حاجة عضوية لديه، وهنا نقول: إن تناوله

للطعام بتأثير دافع الجوع سلوك لا علاقة له بميدان الأخلاق إيجاباً ولا سلباً، ولكن شرهه فيه الزائد عن الحاجة والموقع له في المضرة سلوك ناتج عن خلق غير محمود، أما قناعته فيه والتزامه بمقدار الحاجة ـ وذلك بضبط نفسه عن دوافع الشره ـ فهو سلوك أخلاقي كريم، ناشىء عن قوة إرادته العاقلة التي تمنعه عن مواقع الضرر. فالشره في الطعام والقناعة فيه لهما أحكام أخلاقية، أما أصل الطعام الناشىء عن حاجة عضوية فهو سلوك فطري طبيعي، وإن وضعت له أحكام غير حكم الإباحة فهي أحكام دينية، أو صحية، أو ذوقية جمالية، أو أحكام تفرضها التقاليد والعادات؛ وهذه الأحكام سواء أكانت مصيبة أو مخطئة فإن مبرراتها ليست من ميدان الأخلاق.

ونستطيع أن نقول في حدود هذا المثال نفسه: إن هذا الذي دفعه الجوع إلى تناول الطعام، إذا اختار أن يأكل طعام غيره ظلماً وعدواناً دون أن يكون له فيه حقٌّ ولا شبهة حق؛ فإن سلوكه هذا سلوك ناتج عن خلق غير محمود، نظراً إلى أنه تضمن عدواناً على حقّ لغيره. أما إذا اختار أن يأكل طعاماً له حق في أن يأكله، وكف نفسه بإرادته عما ليس له به حق، مع تطلع نفسه إليه؛ فهو سلوك ناتج عن خلق محمود، لأنه تضمن ضبطاً للنفس عن هوىً من أهوائها أو شهوة من شهواتها، لتحقيق فضيلة من الفضائل، وهي فضيلة التزام الحق والبعد عن العدوان والظلم.

ونستطيع أن نقول أيضاً في حدود هذا المثال نفسه: إن هذا الذي دفعه الجوع إلى تناول الطعام، إذا اختار أن يأكله نظيفاً محفوفاً بالأناقة والذوق الرفيع والجمال؛ فإن سلوكه هذا سلوك يلبي فيه حاجة نفسية إلى التمتع بالجمال، ولا علاقة له بميدان الأخلاق إيجاباً ولا سلباً، ولكن له حكماً جمالياً قد يدخل تحت عنوان الآداب. وهذا السلوك نفسه إذا فعله ليمتع غيره بصورة جمالية، فإنه بهذه الغاية يكون سلوكاً أخلاقياً حسناً، أما إذا تركه استهانة بمشاعر الآخرين، وعدم اكتراث بآلامهم الناشئة عن نفورهم من القذارة والقباحة، فإنه حينئذٍ يكون سلوكاً مجانباً لفضيلة خلقية.

ونستطيع أن نقول أيضاً في حدود هذا المثال نفسه: إن هذا الذي دفعه الجوع إلى تناول الطعام، إذا اختار أن يأكل من الأطعمة ما حرّمه الدين لغاية من الغايات الدينية أو الصحية، فإن سلوكه هذا سلوك مخالف لحكم ديني، وربما لا يكون منافياً للأخلاق، إذا قسناه بمقياس الأخلاق، ولكن مخالفة الله الخالق الرازق في أمرٍ من أوامره أو نهي من نواهيه سلوك منافٍ للخلق الكريم، لأن الفضيلة الخلقية توجب طاعة الله، وتحرم معصيته. فتناول الطعام المحرم دينيّاً لا علاقة له بالأخلاق من حيث ذاته، ولكن معصية الأحكام الدينية الربانية بوجه عام سلوك منافٍ لما توجبه الأسس الأخلاقية، وطاعتها سلوك مطابق لما توجبه الأسس الأخلاقية.

أما إذا كانت أحكام مثل هذه الأحكام ناشئةً عن عادات، أو تقاليد، أو طقوس ذات طابع ديني، ولكنها من أوضاع البشر لا من أحكام الله، فإن مخالفتها حينئذٍ لا تكون سلوكاً منافياً لما توجبه الأسس الأخلاقية، لأن المفاهيم الأخلاقية لا توجبها من حيث ذاتها، كما أنها لا توجب طاعة العادات أو التقاليد أو الطقوس التي هي من أوضاع البشر؛ إذ لا حقّ لهذه الأمور على الإنسان حتى تستوجب منه الطاعة، وإن جرى في أعراف الناس خلاف ذلك، فليس كل ما في أعراف الناس وتقاليدهم ومفاهيمهم حقاً.

من خلال مثالٍ واحد استطعنا أن نكتشف الفروق ما بين أنواع السلوك، والفروق بين أحكامها، وظهر لنا أن بعضها أحكام أخلاقية، وبعضها أحكام ذوقية جمالية، يمكن أن تدخل تحت عنوان الآداب، وبعضها أحكام دينية بحتة: فما كان منها منزّلاً في شريعة ربانية صحيحة وجب التزامه طاعة لله وعبودية له، وما كان منها من أوضاع البشر وملصقاً بالدين إلصاقاً دون مستندٍ صحيح من شريعة صحيحة، فلا حقّ له في طاعة ولا التزام، وما كان منها من أحكام فرضتها العادات والتقاليد ــ وهذه أمور تدخل فيها خرافات كثيرة ونقائص يدعو الكمال إلى نبذها ــ فلا تعتبر مخالفتها منافية لمكارم الأخلاق، كما أنه ليس للتقاليد والعادات حقٌّ في طاعة والتزام، حتى تعتبر مخالفة هذا الحق سلوكاً منافياً للخلق الحميد.

وينبغي أن لا يغيب عن بالنا أن كثيراً من الأحكام الدينية هي أحكام أخلاقية، لأنّ الدين الحقّ يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن رذائلها، كما أن كثيراً من أحكام العادات والتقاليد هي أحكام أخلاقية أيضاً، كما أنّ كثيراً من السلوك الأخلاقي مشمول أيضاً بأحكام ذوقية جمالية، فهو من جهة ارتباطه بالأخلاق له حكم أخلاقي، ومن جهةارتباطه بالجمال لـه حكم جمالي يـدخله في باب الآداب. وهكذا تتشابك الجوانب، وتلتقي على سلوك واحد؛ وهذا التشابك هو الذي يلبّس الأمر على الباحثين، ومن أجل ذلك كان التمييز بحاجة إلى بصر علميٍّ نفّاذ، وتحرٍّ دقيق لكل مسألة على حدة، ولكن الذي يهدي سبيل الباحث هو رجوعه إلى الأسس العامة التي تستند إليها مكارم الأخلاق.

فالخلق المحمود: صفة ثابتة في النفس فطرية أو مكتسبة تدفع إلى سلوكٍ إراديّ محمود عند العقلاء. كالأخذ بالحقّ أو الخير أو الجمال وإن خالف الهوى، وترك الباطل والشرّ والقبح وإن وافق الهوى أو الشهوة.

ويمكن تمييـز الأخلاق الحميـدة عن غيرهـا بـأنّها كـلُّ سلوك فـرديّ أو اجتماعي تلتقي النفوس البشرية على استحسانـه، مهما اختلفت أديـانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها. ويلحق به ما كان أثراً من آثاره، أو فرعاً من فروعه.

والخلق المذموم: صفة ثابتة في النفس فطريّة أو مكتسبة تدفع إلى سلوك إرادي مذموم عند العقلاء. كالأخذ بالباطل أو الشرّ أو القبح، وترك الحق أو الخير أو الجمال، اتباعاً للهوى أو الشهوة.

ويمكن تمييز الأخلاق الذميمة عن غيرها بأنها كلّ سلوك فردي واجتماعي تلتقي النفوس البشرية على استقباحه واستنكاره، مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان أثراً من آثاره، أو فرعاً من فروعه.

ـ ٣ ـ

دلالة السلوك الأخلاقي على الخلق الثابت في النفس

ولا بدّ أن نعلم أنّ دلالة السلوك الأخلاقي على الخلق الأصيل الثابت في قرارة النفس دلالة ظنية، وليست دلالة قطعية، فقد لا يكون السلوك الأخلاقي صادراً عن خلق أصيل ثابت في قرارة النفس، إذ ربما يكون صادراً عن تكلُّف وتصنّع، أو عن خوف وطمع، وعندئذ فقد يكون من قبيل الرياء، وقد يكون من قبيل النفاق، وقد يكون صاحبه مخلصاً يريد تطويع نفسه وترويضها، حتى تكتسب الخلق الكريم، ولو لم يكن ذلك من أصل طبعها.

فالخلق في حقيقته تكوين خاصّ ثابت في النفس فطريٌّ أو مكتسب له ظواهر في السلوك، ولكن لا يشترط أن تكون هذه الظواهر دالّة دلالة قطعية على وجود الخلق في النفس، لأنّ باستطاعة الإنسان أن يمارس من ظواهر السلوك ما ليس في خلقه ولا في طبيعة نفسه، إنه يستطيع أن يتصنّع ما لا ترتاح نفسه إليه، ويستطيع لغرض ما أن يتكلّف ما ليس في خلقه النفسي ولا في طبيعته الأصلية، فقد يجود الشحيح لغاية في نفسه، فنسمي العمل عطاءً كريماً، ولكن يظلّ صاحب هذا العطاء الكريم غير متصف بخلق الجود، لأن خلقه الأصيل في نفسه هو خلق الشحّ، ويظلّ كذلك حتى يتحوّل بالتدريب والعادة فيكون جواداً في نفسه، وحتى يكسب خلق الجود، فيحلّ محل خلق الشح، أو يصرفه ويوجّهه لشيء آخر غير الحرص على الدنيا وما فيها من مالٍ ومتاع.

ـ ٤ ـ

الحكمة ومكارم الأخلاق والذكاء

١ ـ نتساءل عن العلاقة بين الحكمة وبين التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها؟

فنلاحظ أن الحكمة هي ضبط السلوك وتوجيهه وفق مقتضى العقل السليم والدين القويم.

ففي الحكمة عنصران:

الأول: عنصر الضبط الذي فيه المنع عن الانطلاق والكفّ عن الانحراف.

الثاني: عنصر التوجيه الذي فيه تحديد الاتجاه، والدفع إلى السعي نحوه.

أما مصدر بيان ما ينبغي أن يكون الضبط والتوجيه على وفقه فالعقل السليم والدين القويم، وهذان المصدران لا يختلفان في بيان الحقيقة، ولكن بشرط سلامة العقل من الخلل، أو من الوقوع تحت أي مؤثّر من مؤثرات النفس وأهوائها وشهواتها، أو أي مؤثّر آخر، وبشرط صحة الدين، وصحة ما ورد عن الدين، وصحة فهم النصّ الصحيح الوارد عن الدين.

فالحكمة قد تتناول كلَّ أنواع السلوك الإنساني، سواءٌ أكان من قبيل الأخلاق، أو من قبيل الآداب، أو من قبيل العبادات أو العادات أو التقاليد أو من قبيل تلبية المطالب الطبيعية الجسدية أو النفسية.

أما التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها فهو نوع من أنواع السلوك الحكيم، وبهذا يتبيّن لنا أن الحكمة مقسم عام يتفرع إلى فروع، وأنّ أحد هذه الفروع هو السلوك الأخلاقي الحكيم.

وإذا كان لنا أن نقسّم الحكمة إلى حكمة نفسية وحكمة ظاهرة في السلوك، كان لنا أن نجعل الخلق الكريم الثابت في النفس قسماً من أقسام الحكمة النفسية.

وعلى هذا فالحكمة النفسية من فروعها الأخلاق النفسية الكريمة، والحكمة في السلوك الظاهر من فروعها السلوك الأخلاقي الكريم.

وبهذا التحليل نصل إلى أنّ الحكمة بوجه عام أمرٌ كليٌّ شامل، ولهذا الأمر الكليّ فروع وأقسام، ومن أقسامه وفروعه الحكمة في السلوك النفسيّ، والحكمة في السلوك الظاهر، ومن فروع الحكمة في السلوك النفسي الأخلاق الكريمة الفاضلة، ومن فروع الحكمة في السلوك الظاهر السلوك الأخلاقي الكريم.

٢ ــ ونتساءل عن العلاقة بين الحكمة والذكاء؟

فنلاحظ أنّ الحكمة قد تحتاج إلى قدر جيد من الذكاء لمعرفة وجه الحق، ولكن كثيراً ما يوجد الذكاء ولا توجد الحكمة.

يعرّف بعضهم الذكاء بأنه حسن التكيف والتلاؤم مع البيئة ومع الأحوال والأحداث الطارئة.

وظاهر أنّ مثل هذا التعريف لا يصلح لأن تفسّر به الحكمة، وذلك لأن التكيّف والتلاؤم مع البيئة والأحوال والأحداث الطارئة قد يكون ذكاءً حكيماً، وقد يكون ذكاءً غير حكيم، فالمنافق قد يرى نفسه يتكيّف تكيفاً ذكيّاً، فيتلاءم مع البيئة وينافق لها، ولكنّ من ينافق في الدين الحقّ غير حكيم، لأنه يقذف بنفسه إلى الدرك الأسفل من النار. والذي يجد نفسه في بيئة فاسدة منحرفة عن سواء السبيل فيتكيّف معها، ويجاريها في أعمالها، قد يرى أنه يتكيّف تكيّفاً ذكيّاً، فيتلاءم مع البيئة ويسايرها، ولكنه في ذكائه هذا غير حكيم. واللّصوص والمجرمون قد يكونون أذكياء جدّاً، ولكنهم ليسوا بحكماء.

فالذكاء إذن شيء والحكمة شيء آخر، ولكن قد يكون الذكاء مادّة أو وسيلة للتعرف على وجوه الحكمة.

ولذلك مجّدت النصوص الإسلامية الحكمة تمجيداً عظيماً:

(أ) فجاء في القرآن الكريم وصف الخالق سبحانه بأنه حكيم في نيف وتسعين موضعاً.

(ب) وجاءت الحكمة عنواناً للتعاليم الربانية للناس، فقال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ . . . ﴿٦٣﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الجمعة ٦٢):

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ .

(ج) وأرشد الله إلى استعمال الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله، فقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

(د) ومجّد الله الحكمة في السلوك الإنساني، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ... ﴿٢٦٩﴾ ﴾ .

* * *

الفصل الثاني

١ ـ مدارك الأخلاق وأسسها.

٢ ـ تقسيم ما جاءت به الشريعة الإسلامية من وصايا وأحكام إلى كليّات عامّة.

٣ ـ ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية.

٤ ـ عناية الإسلام بتزكية النفس وتهذيبها وحرصه على تقويم الأخلاق.

٥ ـ تمجيد الإسلام الخلق الحسن وحثه عليه.

٦ ـ الكليّات العامة التي تنضوي تحتها مفردات مكارم الأخلاق.

٧ ـ شمول الأخلاق.

٨ ـ تقسيم الأخلاق باعتبار علاقاتها.

٩ ـ تقسيم السلوك الخلقي إلى بسيط ومركب.

الفصل الثاني

ـ ١ ـ

مدارك الأخلاق وأسسها

لدى التحليل يتبيّن لنا أنّ مدارك الأخلاق فكرية علميـة، وفطريـة وجدانية، وإيمانية تدعو إلى الأخذ بها القاعدة الإيمانية في الإسلام، لكل ذلك فهي ربّانية، لأنّ الله تبارك وتعالى هو الذي منح العقول موازين إدراكاتها، وأودع في الفطر الوجدانية أحاسيسها ومشاعرها، وهو الذي أنزل على رسله قواعد الإيمان وأحكام التشريع.

أما كونها فكرية علمية: فلأنّ مكارم الأخلاق يؤيدها الفكر العلمي ويستحسنها، ويحثّ عليها، ويوجب ما يوجب منها. ولأن رذائل الأخلاق يؤيّد العقل اجتنابها، ويستقبحها، ويحث على البعد عنها، ويحرّم ما يحرّم منها.

وأمّا كونها فطرية وجدانية: فلأنّ في فطر الناس الوجدانية ميلاً إلى مكارم الأخلاق، ورغبة داخليّة بالتزامها وممارسة كلّ سلوك تدفع إليه، ولأنّ في فطر الناس الوجدانية نفوراً واشمئزازاً من رذائل الأخلاق، ورغبة داخلية باجتنابها واجتناب كل سلوك هو من آثارها.

وأمّا كونها إيمانية: فلأنّ القاعدة الإيمانية في الإسلام تلزم بطاعة الله في أوامره ونواهيه، وترغّب بالعمل بوصاياه. وقد اشتملت أوامر الله ونواهيه

ووصاياه على التوجيه للعمل بمكارم الأخلاق واجتناب رذائلها، وقرنت ذلك بالوعد بالثواب لمن أطاع، والوعيد بالعقاب لمن عصى.

على أنه يوجد تشابك جذريّ بين أسس الأخلاق وأسس الإيمان.

فالفضيلة الخلقية التي يدركها الفكر العلمي ويستحسنها، وتميل الفطر الوجدانية السليمة إلى ممارستها، توجب الاعتراف بعناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام، وتوجب الإذعان لها والعمل بما تقتضيه، وتنفر وتشمئزّ من الجحود والاستكبار والتمرّد، وذلك لأنّ عناصر القاعدة الإيمانية عناصر حقّ كبرى، والفضيلة الخلقية توجب الإيمان بالحقّ والإذعان له والعمل بمقتضاه، وتنفر وتشمئزّ من جحود الحقّ، والاستكبار عليه، والتمرّد على العمل بما يقتضيه.

وكذلك عناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام، فهي تدفع المؤمنين بها إلى أن يتحلَّوا بالفضائل الخلقية، وأن يتخلّوا عن الرذائل الخلقية، وأن يلتزموا في حياتهم كل سلوك خلقي تدعو إليه مكارم الأخلاق، وتعد على ذلك بالظفر برضوان الله واغتنام الأجر العظيم عنده، وتحذّر من مغبّة ممارسة الرذائل الخلقية المحظورة، وممارسة ظواهرها في السلوك، وتنذر بسخط الله وبالعقاب الأليم عنده. ولذلك جعل الرسول صلى الله عليه وسلم الحياء شعبة من الإيمان وهو من مكارم الأخلاق، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وهكذا فالإيمان بالإسلام سلوكٌ إرادي توجبه فضائل الأخلاق التي تدركها الأفكار العلمية وتستحسنها، كما تستقبح أضدادها، وتميل الفطر الوجدانية السليمة إلى ممارستها، وتنفر وتشمئزّ من أضدادها.

وفضائل الأخلاق وما تقتضيه من سلوك أمور يوجبها أو يرغّب بها الإيمان بالإسلام ويحث عليها.

ولذلك جاء في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً

أحسنُهم خلُقاً، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم» رواه الترمذي عن أبـي هريرة وقال: حديث حسن صحيح.

فالرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث يبيّن الترابط بين الإيمان وحُسْنِ الخلُق.

وحين نتدبر في حقيقة الإيمان نجده يستلزم في درجاته المرتقية كل الفضائل الإنسانية، لأنّ الله الذي هو الحقيقة الكبرى التي ترتبط بها جميع أركان الإيمان وفروعه، يأمر بكل الفضائل، ومنها الفضائل الخلقية، وينهى عن كل الرذائل، ومن ضمنها الرذائل الخلقية، والمؤمن يجد نفسه ملزماً باتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، وللإيمان من التأثير على الإنسان ما ليس لأية قوة أخرى داخلة في النفس أو خارجة عنها.

ومن شواهد هذه الحقيقة قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عيينة بن حصن.

روى البخاري عن ابن عبّاس قال: «قدم عُيينة بن حصن، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان الحرّ بن قيس من النفر الذين يدنيهم عمر في خلافته رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته ــ كهولاً كانوا أو شبّاناً ــ فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، فاستأذن له، فأذن له عمر، فلما دخل عُيينة قال: هِيْ يا ابنَ الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل. فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحرّ بن قيس: يا أمير المؤمنين، إنّ الله تعالى قال لنبيّه صلى الله عليه وسلم:

﴿خُذِ العفوَ، وأمُرْ بالعرف، وأعرضْ عن الجاهلين﴾ وإنَّ هذا من الجاهلين.

قال ابن عبّاس: والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله تعالى»!!

هذا هو أثر الإيمان في قلب عمر، وهذا هو أثر التزامه أوامر الله. ولولا الإيمان في قلب عمر، لبطش بعيينة على وقاحته وافترائه.

وهكذا ظهر لنا بالتحليل وجود التشابك الجذري بين الأخلاق والقاعدة الإيمانية في الإسلام، وعليه نستطيع أن نقول:

إنّ أسس الأخلاق هي أسس فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وإيمانية، كما أنّ أسس القاعدة الإيمانية في الإسلام هي أسس فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وأخلاقية.

— ٢ —
تقسيم ما جاءت به الشريعة الإسلامية من وصايا وأحكام إلى كليّات عامّة

الإسلام وحدة كلية متشابكة مترابطة لا انفصال بين أجزائها وعناصرها في الواقع، ولكن باستطاعتنا من الناحية النظرية الفكرية التعليمية، أن نقسم ما جاء فيه إلى فئات تتجمع كل فئة منها تحت كلية من الكليات، وتتميز الأخلاق بواحدة منها.

عنوان العبادة يشمل كلّ أوامر الشريعة ونواهيها:

حين نلاحظ أن الشريعة الإسلامية تنزيل من عند خالق العباد، وأن لله على عباده حق الطاعة، وهو حق طبيعيٌ عقليٌ بدهي، لأن من له الخلق، ومنه العطاء، وبيده المنع، وهو على كل شيءٍ قدير، فمن الطبيعي العقلي البدهي أن يكون من حقه على عباده أن يعترفوا له بالربوبية وبالألوهية، ويدينوا له بالطاعة، وهذا ما أشار إليه قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

فالتزام حدود الشريعة في أوامرها ونواهيها بهذا المعنى العامّ هو عبادة لله تعالى، ولذلك قال الله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ .

ولكن نقول مع ذلك: إنّ من أحكام الشريعة الإسلامية تكاليف غايتها عبادة محضة لله تعالى، ومنها تكاليف غايتها تحقيق مصالح العباد وجلب الخير لهم في الحياة الدنيا، إضافة إلى الخير العظيم الذي يظفرون به يوم القيامة بسبب طاعتهم لربهم فيها. ومصالح العباد: منها مصالح للأفراد، ومنها مصالح للجماعة. ومصالح الأفراد هي حقوق شخصية، أي: إن على الإنسان لنفسه حقوقاً يجب عليه تأديتها أو يحسن، حتى يجلب السعادة لنفسه، ويدفع عنها الآلام والمتاعب والشقاء، وهذه الحقوق الشخصية هي حقوق لله على عبده الذي وهبه الوجود والحياة والإرادة والعقل وسائر الخصائص الإنسانية، فهي في الأصل ملك لله، وذوات السلطة في داخل الإنسان مولّاة بالتولية الربانية على مملكة ذاته. ومصالح الجماعة هي حقوق جماعية منحها الله في أصل الخلق للجماعة، وعلى الأفراد أن يرعوها حق رعايتها ولا يفرطوا فيها، وذلك ضمن خطة توفيقية عادلة بينها وبين سائر الحقوق، حتى لا يطغى بعض هذه الحقوق على بعض، وهذه الحقوق الجماعية هي أيضاً بالمعنى العام حقوق لله على عباده.

تقسيم أولي إجمالي:

فنستطيع بتقسيم أولي إجمالي أن نقسم أحكام الشريعة الإسلامية وتكاليفها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: حقوق إلهية محضة.

الثاني: حقوق شخصية.

الثالث: حقوق جماعية.

ونمثل للحقوق الإلهية المحضة بما يجب علينا من الإيمان بالله، والخضوع لجلاله، وعبادته على ما يرضيه، وطاعته في أوامره ونواهيه.

ونمثل للحقوق الشخصية بحقوق التملك، وبحقوق التصرف ضمن حدود الخير، وبحقوق إدارة مملكة النفس وفق مصالحها العاجلة والآجلة،

وبالحقوق التي توجب على الإنسان أن يعمل لنفسه ما يكسب به السعادة الخالدة لها.

ونمثل للحقوق الجماعية بحقوق التعاون، وحقوق الدعوة والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقوق العدل وإقامة السلطان الصالح العادل، وحقوق ضبط المعاملات، وحقوق إيجاد وسائل ضمان الأمن والاستقرار والنظام، ويدخل في الحقوق الجماعية حق الزكاة والصدقة، وحق الجهاد في سبيل الله.

تقسيم تفصيلي:

ونستطيع بشكل تفصيلي أن نقسم أحكام الشريعة الإسلامية وتكاليفها إلى ثمانية أقسام:

القسم الأول: أحكام اعتقادية، وهي ما كانت الغاية منها ابتلاء إرادة الإنسان في أمور علمية اعتقادية، يرافقها اعتراف وتسليم.

القسم الثاني: أحكام تعبدية، وهي ما كانت الغاية منها ابتلاء إرادة الإنسان في مجال العبادة المحضة.

القسم الثالث: أحكام المعاملات المالية، وهي ما كانت الغاية منها ابتلاء إرادة الإنسان في مجال المعاملات المالية.

القسم الرابع: أحكام العلاقات الاجتماعية، وهي ما كانت الغاية منها تنظيم العلاقات الاجتماعية، وابتلاء إرادة الإنسان في هذا المجال، كأحكام العلاقة بين أركان الأسرة وأحكام العلاقة بين الراعي والرعية، ونحو ذلك.

القسم الخامس: أحكام الأحوال الشخصية، وهي ما كانت الغاية منها تنظيم الأحوال الشخصية للإنسان، وابتلاء إرادته في هذا المجال، ويدخل في أحكام الأحوال الشخصية أحكام الزواج والطلاق ونحو ذلك، وأحكام الزنى ونحوه، وأحكام المطاعم والمشارب، وأشباه ذلك.

القسم السادس: أحكام تنظيم العقود، وهي ما كانت الغاية منها ضبط

العقود التي تجري بين الناس على اختلافها، ولهذه صفة التنظيمات الشكلية التي تضمن بها الحقوق.

القسم السابع: أحكام الأخلاق، وهي ما كانت الغاية منها ابتلاء إرادة الإنسان في مجال الأخلاق.

القسم الثامن: أحكام الآداب، وهي ما كانت الغاية منها تهذيب السلوك الإنساني في مجال الآداب الشخصية والاجتماعية، ودوافعها ذوقية جمالية.

وعلى الرغم من هذا التقسيم النظري، فإننا نلاحظ كثيراً من التداخل والتشابك فيما بين الأقسام، وهي كما سبق يمكن إدراجها جميعاً تحت عنوان العبادة.

* * *

ارتباط معظم أحكام الشريعة الإسلامية بالأخلاق:

أما الأخلاق فإن معظم أحكام هذه الأقسام يمكن إدراجها تحت عنوانها، ولو باعتبار من الاعتبارات، لأن دوافعها قد ترجع من قريب أو من بعيد إلى دوافع الأسس الأخلاقية.

١ ـ فلنأخذ قسم الأحكام الاعتقادية باحثين عن وجه ارتباطه بالأسس الأخلاقية.

إن العقائد الإسلامية هي في حقيقة ذاتها حقائق علمية، وهذه الحقائق العلمية منها ما هو متصل بوجود الخالق وبصفاته، ومنها ما هو متصل بالرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله بالوحي إليهم، ومنها ما هو متصل بالكتب الإلهية التي أنزلها الله ليبين فيها لعباده طريق سعادتهم ونجاتهم، ومنها ما هو متصل بحقائق من المغيبات أخبر الله عنها.

والإذعان للحقائق العلمية فضيلة خلقية يدفع إليها أحد الأسس الأخلاقية الجذرية، ألا وهو حب الحق وإيثاره، لا سيما إذا كانت الحقائق العلمية متصلة بصاحب حق فيها، وجحود الحقائق العلمية وإنكارها رذيلة خلقية يدفع إليها كراهية الحق، تحت تأثير دافع من دوافع النفس الجانحة المستكبرة.

فمن يتمتع بخلق حب الحق وإيثاره، فإن خلقه هذا يدفعه إلى الإذعان للحق، والاعتراف لصاحب الحق بحقه، ولذي الفضيلة والميزة بفضيلته وميزته. أما المحروم من هذا الخلق الكريم، الواقع تحت تأثير جنوح خلقي قبيح، كالاستكبار من غير حق والعجب بالنفس بالباطل، فإنه لا يذعن للحق، ولا يعترف لصاحب الحق بحقه، ولا لذي الفضيلة والميزة بفضيلته وميزته.

ومن هذا يتضح لنا أن العقائد الباطلة الشائعة عند كثير من الناس، خرافات تدفع الأسس الأخلاقية إلى نبذها وبيان بطلانها، خدمة للحق وإعلاء له، وتعريفاً بالباطل وإزهاقاً له.

٢ ــ ولنأخذ قسم الأحكام التعبدية باحثين عن وجه ارتباطه بالأسس الأخلاقية.

إن العبادة في الشريعة الإسلامية لا تكون إلا لله تبارك وتعالى، وموجب العبادة لله طاعة أمره، وشكره على نعمه بإعلان الخضوع له، والتقرب إليه، والتحبب إلى جلاله.

أما طاعة من تجب طاعته، فهي ظاهرة خلقية، يدفع إليها أساس أوليٌّ من الأسس الأخلاقية، وهو حب الحق وإيثاره؛ لأن من تجب طاعته فحقه أن يطاع، ومن يتمتع بخلق حب الحق وإيثاره فإن خلقه هذا يدفعه إلى تأدية هذا الحق لمستحقه، فهو إذن يؤدي حق الطاعة لمستحقها، فيعبد الله تبارك وتعالى حسب أمره، وعلى ما يرضيه.

وأما شكر المنعم على نعمه، فهو أيضاً ظاهرة خلقية يدفع إليها حب الحق وإيثاره، لأن المنعم من حقه أن يشكر، ومن يتمتع بخلق حب الحق فلا بد أن يدفعه خلقه هذا إلى شكر من أنعم عليه.

فالذين يستنكفون عن عبادة الله تعالى محرومون من فضيلة خلقية عظيمة، ولذلك نبه القرآن على أن الاستنكاف عن عبادة الله تعالى استكبار موجب للعذاب الأليم، فقال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾.

ومن أجل ذلك وصف الله الملائكة بأنهم لا يستكبرون عن عبادته، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

٣ ـ ولنأخذ قسم أحكام المعاملات المالية، باحثين عن وجه ارتباطه بالأسس الأخلاقية.

إن المعاملات المالية قائمة على أساس الحق والعدل، ومعلوم أن حب الحق أحد الأسس الأخلاقية العامة، فمن كان يتمتع بخلق حب الحق فإنه لا بد أن يجد نفسه مدفوعاً بعامل خلقي للالتزام بأحكام المعاملات المالية التي جاء بها الإسلام، لأنها قائمة على الحق والعدل، والعدل يرجع في حقيقته إلى مبدأ الحق، فأحكام المعاملات المالية التي تفرضها تنظيمات الشريعة الإسلامية تستوجب الالتزام بها أسس الأخلاق العامة.

لا سيما إذا لاحظنا أن في تجاوز حدودهما ظلماً لحقوق الآخرين، والظلم انحراف خلقي أساسه كراهية الحق عند معارضته هوىً من أهواء النفس.

٤ ـ ولنأخذ قسم أحكام العلاقات الاجتماعية، باحثين عن وجه ارتباطه بالأسس الأخلاقية.

إن الأصل في المعاملات الاجتماعية أن تكون ذات ارتباط وثيق بأسس الأخلاق.

فإذا أخذنا من المعاملات الاجتماعية أحكام نظام الأسرة وحقوق أفرادها، وواجباتهم، فإننا نلاحظ أنها قائمة على مبدأ التعاون بين أفرادها، وتوزيع المسؤوليات وفق مصالح الجماعة التي تتوزع بالتالي على الأفراد، كلٌّ بحسب استحقاقه، وبحسب وظيفته الطبيعية. والتعاون مبدأ أخلاقي يدفع إليه الشعور بالحب تجاه الآخرين وكذلك الدافع الجماعي الذي يخفف من غلواء الأنانية الشخصية، وكلا الأمرين من الأسس الأخلاقية العامة.

ويضاف إلى ذلك أن قيام كل فرد بمسؤولياته وواجباته تجاه الجماعة، أو تجاه أي فرد من أفرادها، يدفع إليه حب الحق وإيثاره، ويدفع إليه حب العطاء، ومعلوم أن النظم الجماعية قائمة على تبادل الحقوق من جهة، وعلى الإحسان والتسامح من جهة أخرى، وهذه يدفع إليها حب الحق وإيثاره، وحب العطاء، والشعور بالمحبة تجاه الآخرين، وسماحة النفس، والدافع الجماعي الذي يعتبر التعاون ظاهرة من ظواهره، وهذه جميعها من الأسس الأخلاقية العامة.

ونظير أحكام نظام الأسرة أحكام النظام الجماعي العام الذي يوزع مسؤوليات الأعمال الجماعية بين الرعاة والرعية، ويحدد حقوق الأفراد وواجباتهم، فهي أيضاً ترجع إلى الأسس الأخلاقية التي ترجع إليها أحكام نظام الأسرة.

٥ ـ ولنأخذ قسم أحكام الأحوال الشخصية، باحثين عن وجه ارتباطه بأسس الأخلاق.

إن أحكام الأحوال الشخصية هي التي تنظم أحوال الزواج والطلاق والنفقة والميراث وما إلى ذلك.

ونستطيع أن ندخل تحت عنوانها أيضاً أنواع السلوك الشخصي البحت، كأحكام المطاعم والمشارب والألبسة ونحوها.

هذه الأحوال ترجع إلى فئات: فمنها تنظيمات اجتماعية، ودوافعها

الأخلاقية ما سبق ذكره في شأن نظام الأسرة. ومنها تنظيمات لضبط الحقوق المادية، وهذه يدفع إليها من الأسس الأخلاقية العامة حب الحق وإيثاره. ومنها أمور تعبدية بحتة، وهذه شأنها كشأن سائر العبادات، لا تعدو أنها من قبيل تأدية حق الله على عباده، ويدفع إليها حب الحق. ومنها ما يرجع إلى حق الإنسان على نفسه في أن يعمل ما يسعدها، ويتجنب ما يؤذيها ويضرها، إن عاجلًا أو آجلًا. ومنها ما يرجع إلى حق الجماعة على الفرد في أن لا يعمل ما يسبب أذىً أو ضرراً للجماعة أو لأي فرد من أفرادها، وهذه كلها ذات دوافع أخلاقية ظاهرة.

٦ ــ ولنأخذ قسم أحكام تنظيم العقود، باحثين عن وجه ارتباطه بأسس الأخلاق.

إن أحكام هذا القسم هدفها خدمة الغايات التي تقوم من أجلها المعاملات التي تُضبط بالعقود، وما دامت أحكام هذه المعاملات ذات دوافع أخلاقية بالإضافة إلى كونها تنظيمات شرعية وتعاليم ربانية، فإن كل تنظيم شكلي من شأنه أن يخدم غايتها لا بد أن نجده مرتبطاً عن طريق التسلسل بالأسس الأخلاقية، وإن كانت الشكليات من حيث ذاتها ضعيفة الارتباط بالأسس الأخلاقية.

والأصل في تنظيم شكليات العقود والمعاملات أنه يهدف إلى ضمان الحقوق لأهلها، وعدم تسرّب الظلم والجور إليها، وذلك على قدر الإمكان الذي لا حرج فيه على الناس، ثم تأتي بعد ذلك محاسبة كل إنسان نفسه، ضمن أسس الأخلاق العامة، وضمن تعاليم الشريعة التي يعاقب مخالفها بالعقوبات الإلهية، ويثاب الملتزم بها بالأجر العظيم عند الله.

٧ ــ ولنأخذ قسم أحكام الآداب، باحثين عن وجه ارتباطه بأسس الأخلاق.

إن الآداب الإسلامية بالإضافة إلى كونها لوناً من ألوان الحكمة في السلوك الشخصي، الذي يمتع الإنسان بما فيه من جمال وذوق رفيع، فيها احترام وتقدير

للآخرين وحسن تعامل معهم، وفيها ابتعاد عن كل ما يجرح مشاعرهم التي تألف الجمال وتميل إليه، وتنفر من القبح وتتأذى منه.

ومعلوم أن الإسلام يدعو إلى التجمل للناس والإحسان إلى مشاعرهم التي يمتعها الذوق الرفيع، وينهى عن كل القبائح التي ينفرون ويتقززون منها، بشرط أن لا يكون في التجمل الزائد مضرة اجتماعية أو دينية، كالتجمل المثير للغرائز والشهوات في الأحوال التي تكون تلبيتها عملاً محرماً.

وحين نبحث عن الأساس الخلقي، الذي يدفع الإنسان إلى التجمل للناس، والتعامل معهم بالآداب المحبَّبَة إلى نفوسهم، نستطيع أن نشير إلى حب العطاء بوصفه أحد الأسس الأخلاقية العامة، فمن يحب العطاء يُحسن إلى الناس بآدابه، فيتجمل لهم، ويتأدب معهم بالآداب الرفيعة. ونستطيع أيضاً أن نشير إلى خلق الشعور بالمحبة للآخرين، فالشعور بالمحبة يدفع إلى تقديم ما يسر المحبوب والابتعاد عما يؤذيه. ونستطيع أن نشير أيضاً إلى خلق علو الهمة، إذ يدفع هذا الأساس الخلقي إلى الكمال. ونستطيع أن نشير أيضاً إلى حب الحق، لأن من حق الجماعة على الفرد أن لا يؤذيهم بأية قباحة من القباحات المؤذية، سواء أكان ذلك في السلوك، أو في المنظر، أو في الرائحة الكريهة، أو في الكلمة النابية أو في الصوت المزعج، أو في العمل المنفر، أو في القذارة المؤذية للنفوس. والعدوان على هذا الحق ظلم لا يفعله من خلقه حب الحق وإيثاره.

ـ ٣ ـ
ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية

إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة.

ولو فرضنا احتمالاً أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى فإنه لا بد لسلامة هذا المجتمع من خُلُقَيْ الثقة والأمانة على أقل التقادير.

فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لا بد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار.

من الممكن أن تتخيل مجتمعاً من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق كيف يكون هذا المجتمع؟.

كيف تكون الثقة بالعلوم والمعارف والأخبار وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟!.

كيف يكون التعايش بين الناس في أمن واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة، لولا فضيلة الأمانة؟.

كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخي والتعاون والمحبة والإيثار؟

كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجدٍ عظيم لولا فضيلة الشجاعة في رد عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتي هي أحسن؟

كيف يكون إنسان مؤهلاً لارتقاء مراتب الكمال الإنساني إذا كانت أنانيته مسيطرة عليه، صارفة له عن كل عطاء وتضحية وإيثار؟

لقد دلت التجربات الإنسانية، والأحداث التاريخية، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأن انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائماً، صاعدين وهابطين.

وذلك لأن الأخلاق الفاضلة في أفراد الأمم والشعوب تمثل المعاقد الثابتة التي تعقد بها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه المعاقد أو انكسرت في

الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكاناً تنعقد عليه، ومتى فُقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط، لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيها بأساً فيما بينها، مضافاً إلى قوة عدوها.

وإذا كانت الأخلاق في أفراد الأمم تمثل معاقد الترابط فيما بينهم فإن النظم الإسلامية الاجتماعية تمثل الأربطة التي تشد المعاقد إلى المعاقد، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية، التي لا تهون ولا تستخذي.

وإذا أردنا أن نُوضِّح بالأمثلة حقيقة كون الأخلاق تمثل المعاقد التي تعقد بها الروابط الاجتماعية تواردت علينا أمثلة كثيرة جداً.

١ ــ فلنأخذ فضيلة الصدق مثلاً من أمثلة مكارم الأخلاق:

إن الصدق بوصفه خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم معقد من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة المجتمع بما يُحدّث به ويخبر عنه في مجال التاريخ والأخبار، وفي مجال العلوم المختلفة، وفي مجال المعاملات المادية والأدبية، وفي مجال العهود والوعود والمواثيق، وغير ذلك من مجالات.

ونستطيع أن نبني على هذه المقدمة أنه متى انهارت في الفرد فضيلة الصدق انقطعت ما بينه وبين مجتمعه رابطة عظمى، وغدا الناس لا يصدقونه فيما يقول، ولا يثقون به فيما يحدّث به أو فيما يَعد، فلا يكلون إليه أمراً، ولا يعقدون بينهم وبينه عهداً، ولا يواسونه إذا اشتكى لهم من شدة، لأنهم يُرجّحون في كل ذلك كذبه، بعد أن أمست رذيلة الكذب هي الخلق الذي خبروه فيه، ويحدث معه ما حدث مع كذّاب القرية.

يحكى أن رجلاً معروفاً بالمزاح، قام من الليل ظامئاً، فلم يجد ماء يشربه، فصعد إلى سطح داره ونادى أهل القرية قائلاً: حريقٌ أيها القوم، أسعفوني بماء، فتسارع أهل القرية لنجدته، ومعهم الأواني المملوءة ماءً، فلما وصلوا إليه قالوا: أين النار؟ فقال لهم ضاحكاً: نار الظمأ قد أحرقت بطني، ولم أجد ماءً أشربه في داري فناديتكم، فمنهم من ضحك لمزاحه، ومنهم من لامه، ثم انصرفوا عنه.

ثم كرَّر هذا العمل مرة أخرى، فأسرع بعض القوم لنجدته وتخلف آخرون، وانصرف جميع القوم عنه في المرة الثانية لائمين.

لكنه بعد حين شبت النار فعلاً في داره، فنادى القوم لنجدته، إلا أنه لم يستجب لندائه أحد، ووقعت به كارثة الحريق، وذلك لأنه قطع بينه وبين مجتمعه رابطة الثقة به، إذ كسر معقد خلق الصدق عنده.

٢ ــ ولنأخذ فضيلة الأمانة مثلاً من أمثلة مكارم الأخلاق:

إن الأمانة بوصفها خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم معقد آخر من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة الناس بما يضعون بين يديه من مالٍ أو سلطان، وبما يمنحونه من وجاهة وتقديم، وبما يكلون إليه من أمور عامةٍ أو خاصة.

ونستطيع أن نبني على هذه المقدمة، أنه متى انهارت في الإنسان فضيلة الأمانة انقطعت ما بينه وبين مجتمعه رابطة من الروابط الاجتماعية، وغدا الناس لا يأمنونه على أي شيء ذي قيمة معتبرة لديهم، خاصاً كان ذلك أو عاماً، لأنهم يقدرون أنه سوف يسطو عليه لنفسه، بعد أن أمست رذيلة الخيانة هي الخلق الذي خبروه فيه.

٣ ــ ولنأخذ فضيلة العفة مثلاً من أمثلة مكارم الأخلاق:

إن العفة بوصفها خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم معقد من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة الناس به في أعراضهم، وبهذه الثقة تأمنه الأسرة على عرضها إذا غابت، ويأمنه الجار على عرضه إذا ترك منزله، وتأمنه الزوجة إذا خرج إلى عمله أن لا يختان نفسه، والمرأة العفيفة كذلك تكون موضعاً للثقة بها عند الغيبة عنها.

ومتى انهارت في الإنسان فضيلة العفة لم يأمنه الناس على أعراضهم، ولم يأمنوه على بلادهم ومصالحهم العامة، لأنهم يقدرون أن أعداءهم سوف يسهل عليهم صيده من مغمز عفته المنهارة، ثم تسخيره في خدمة أغراضهم، وبذلك تنقطع ما بينه وبين مجتمعه رابطة من الروابط الاجتماعية.

وهكذا نستطيع أن نقيس على هذه الأمثلة سائـر مكارم الأخـلاق، كالعدل، والجود، والوفاء بالعهد والوعد، والإحسان، والعطف على الناس، وغير ذلك من فضائل الأخلاق.

وانهيار كل خلق من مكارم الأخلاق يقابله دائماً انقطاع رابطة من الروابط الاجتماعية، وبانهيارها جميعاً تنهار جميع المعاقد الخلقية في الأفراد، وبذلك تنقطع جميع الروابط الاجتماعية، ويمسي المجتمع مفككاً منحلاً.

* * *

موقف أعداء المسلمين من الأخلاق الإسلامية:

وقد أدرك أعداء المسلمين هذه الحقائق عن مكارم الأخلاق، فعملوا على إفساد أخلاق المسلمين بكل ما أوتوا من مكر ودهاء، وبكل ما أوتوا من وسائل مادية وشياطين إغواء، ليبعثروا قواهم المتماسكة بالأخلاق الإسلامية العظيمة، وليفتتوا وحدتهم التي كانت مثل الجبل الراسخ الصلب قوة، ومثل الجنة الوارفة المثمرة خضرة وبهاءً وثمراً وماءً.

إن أعداء المسلمين قد عرفوا أن الأخلاق الإسلامية في أفراد المسلمين تمثل معاقد القوة، فجندوا لغزو هذه المعاقد وكسرها جيوش الفساد والفتنة.

ولقد كان غزوهم للأخلاق الإسلامية من عدة جبهات:

١ ــ لقد عرفوا أنّ النبع الأساسي الذي يزود الإنسان المسلم بالأخلاق الإسلامية العظيمة، إنما هو الإيمان بالله واليوم الآخر، فصمموا على أن يكسروا مجاري هذا النبع العظيم، ويسدوا عيونه، ويقطعوا شرايينه.

٢ ــ وعرفوا أن تفهُّم مصادر الشريعة الإسلامية تفهماً سليماً هو الذي يمد نبع الإيمان بما يتطلبه من معارف، فمكروا بالعلوم الإسلامية، وبالدراسات المتعلقة بها مكراً بالغاً، وذلك ما بين حجب لها تارة، وتلاعب بمفاهيمها أخرى، وتشويه لها أو جحود ومضايقة لروادها ومبلغيها، كل ذلك في حرب مستمرة لا تعرف كللاً ولا مللاً.

٣ ــ وعرفوا قيمة الإفساد العملي التطبيقي، فوجهوا جنودهم لغمس أبناء المسلمين في بيئات مشحونة بالانحلال الخلقي، بغية إصابتهم بالرذائل الخلقية عن طريق العدوى، وسراية الفساد بقوة تأثير البيئة، واستمراء الشهوات المرتبطة برذائل الأخلاق.

٤ ــ وعرفوا قيمة إفساد المفاهيم والأفكار، فجندوا جيوش المضللين الفكريين، الذين يحملون إلى أبناء المسلمين الأفكار والمفاهيم والفلسفات الباطلة، ضمن واردات المعارف المادية الصحيحة، ذات المنجزات الحضارية المدهشة، وعن طريق هذا الغزو الفكري الخطير يدخلون السم في الدسم.

من أقوال أعداء الإسلام والمسلمين[١]:

١ ــ جاء في خطاب الدكتور (صموئيل زويمر) رئيس إرسالية التبشير في البحرين منذ أوائل القرن العشرين الميلادي، الذي خطبه في مؤتمر القدس التبشيري، الذي انعقد برئاسته سنة (١٩٣٥م) ما يلي:

«. . . ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً كل التهنئة. . .»!!.

٢ ــ وجاء في نشرة المشرق الأعظم الماسوني الفرنسي لسنة (١٩٢٣) ما يلي:

«. . . وبغية التفريق بين الفرد وأسرته عليكم أن تنتزعوا الأخلاق من أسسها، لأن النفوس تميل إلى قطع روابط الأسرة والاقتراب من الأمور المحرمة، لأنها تفضل الثرثرة في المقاهي على القيام بتبعات الأسرة. . .».

---

(١) انظر كتاب «أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها» وكتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» للمؤلف.

٣ ـ وجاء في البروتوكول الثاني من المقررات اليهودية السرية ما يلي:

«. . . إن الطبقات المتعلمة ستختال زهواً أمام أنفسها بعلمها، وستأخذ جزافاً في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه إليها وكلاؤنا، رغبة في تربية عقولهم حسب الاتجاه الذي توخيناه.

لا تتصوروا أن كلماتنا جوفاء، ولاحظوا هنا أن نجاح (دارون) و(ماركس) و(نيتشه) والأثر غير الأخلاقي لاتجاه هذه العلوم في الفكر الأممي ـ أي عند غير اليهود ـ سيكون واضحاً لنا على التأكيد»!!.

٤ ـ وجاء في البيان الشيوعي الذي أصدره معلم الشيوعية الأول اليهودي (كارل ماركس) ورفيقه (انجلز) ما يلي:

«إن القوانين والقواعد الأخلاقية والأديان أوهام بورجوازية تتستر خلفها مصالح بورجوازية»!!.

ـ ٤ ـ
عناية الإسلام بتزكية النفس وتهذيبها وحرصه على تقويم الأخلاق

لما كان الأصل في السلوك الظاهر أن يكون مظهراً تعبيرياً لأحوال النفس وحركاتها، ولما كان السلوك الظاهر عرضة لدوافع النفاق والرياء أو مؤثرات العادة التي لا تعبر عن صدق في الاتجاه القلبي والنفسي.

لما كان كل ذلك كانت عناية الإسلام موجهة بالدرجة الأولى لتزكية النفس وتهذيبها، والمراد من تزكية النفس تطهيرها من نزغات الشر والإثم، وإزالة حظ الشيطان منها، وتنمية فطرة الخير فيها، ومتى حصلت في النفس هذه التزكية غدت صالحة لغرس فضائل الأخلاق فيها، وتهذيب طباعها تهذيباً مصلحاً ومقوماً وكابحاً وموجهاً، وبتهذيب طباع النفس يتهيأ المناخ النفسي الصالح لتفجر منابع الخير.

وطبيعي أنه متى تزكت النفس وتهذبت طباعها استقام السلوك الداخلي والخارجي لا محالة.

بخلاف توجيه العناية إلى تقويم السلوك الظاهر فقط، فإنه بناء على غير أساس، وكل بناء على غير أساس عرضة للانهيار، يضاف إلى ذلك أن السلوك الظاهر قد لا يكون معبراً تعبيراً صادقاً عن أحوال النفس الداخلية.

ولذلك كان نظر الله تبارك وتعالى في مراقبته لأعمال عباده موجهاً لما في قلوبهم ونفوسهم.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».

ولذلك كانت قيمة الأعمال في تقرير الجزاء عند الله على قدر قيمة نيات العاملين لها؛ ففي الحديث الصحيح المشهور: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى».

وأشار الرسول صلوات الله عليه إلى أن القلب هو مكان التقوى.

وأبان القرآن أن من زكى نفسه فقد أفلح، وأن من دسّى نفسه ـ أي غمسها في أدناس الكفر والمعصية ـ فقد خاب، فربط الفلاح بتزكية النفس بالإيمان والتقوى، وربط الخيبة بتدنيس النفس بالكفر والعصيان، قال الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾.

وإذ أبان الله أنه قد ألهم كل نفس معرفة طريق فجورها وطريق تقواها؛ علمنا أن تزكية النفس إنما تكون بالتقوى، وأن غمسها في الأدناس إنما يكون بالفجور.

وقال تبارك وتعالى في سورة (الأعلى ٨٧):

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾.

وحينما يكون العمل تعبيراً صادقاً عما في النفس يكون ممارسة صادقة من ممارسات تزكية النفس، قال الله تعالى في سورة (الليل ٩٢):

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

فهذا يؤتي ماله مخلصاً، جاهداً في تزكية نفسه وتطهيرها من حظ الشيطان.

وقد يكون صدق العمل في بعض الطاعات سبباً في تزكية النفس وتطهيرها من ممارسات أخرى فيها دنس، ولذلك جعل الله من وسائل مداواة الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم، أخذ قسط من أموالهم على سبيل الصدقة لتطهيرهم وتزكيتهم، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وللتربية أثر عظيم في تزكية النفس، ولذلك كانت من مهمات الرسول التربوية تزكية نفوس أصحابه، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

ـ ٥ ـ

تمجيد الإسلام الخلق الحسن وحثه عليه

ولما كانت ثمرات الخلق القويم للسلوك الديني وللسلوك الشخصي عظيمة جداً، وكانت لدى المقارنة أجل من الثمرات التي تحققها المبالغة في أداء كثير من العبادات المحضة.

ولما كانت سلامة النفس من المساوىء الخلقية أهم من سلامة السلوك الظاهر من طائفة من المعاصي والذنوب الظاهرة، وكان ما يتحقق بحسن الخلق من رضوان الله تعالى أكثر مما يتحقق بالاستكثار من نوافل العبادات المحضة، كالصلاة والصيام والأذكار اللسانية.

لما كان كل ذلك وجدنا النصوص الإسلامية توجه الاهتمام العظيم والعناية الكبرى لقيمة حسن الخلق في الإسلام، وتذكر الخلق الحسن بتمجيد كبير، فمنها النصوص التالية:

أولاً: روى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

وفي حديث عمرو بن عبسة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الإيمان أفضل؟ قال: «حسن الخلق» رواه أحمد.

فربط الرسول صلى الله عليه وسلم الارتقاء في مراتب الكمال الإيماني بالارتقاء في درجات حسن الخلق، وذلك لأن السلوك الأخلاقي النابع من المنابع الأساسية للخلق النفسي في الإنسان، موصول هو والإيمان وظواهره وآثاره في السلوك ببواعث نفسية واحدة.

فصدق العبادة لله تعالى عملٌ أخلاقيٌ كريم، لأنه وفاء بحق الله على عبيده.

وحسن المعاملة مع الناس وفاءٌ بحقوق الناس المادية والأدبية، فهي بهذا الاعتبار من الأعمال الأخلاقية الكريمة.

فإذا تعمقنا أكثر من ذلك فكشفنا أن الإيمان إذعان للحق واعتراف به، رأينا أن الإيمان أيضاً هو عملٌ أخلاقي كريم، بخلاف الكفر بالحق فهو دناءة خلقية.

فإذا ضممنا هذه المفاهيم إلى المفهوم الإسلامي العام، الذي يوضح لنا أن كل أنواع السلوك الإنساني الفاضل فروع من فروع الإسلام، والإسلام التطبيقي آثار للإيمان وثمرات عملية له.

إذا جمعنا كل هذه المفاهيم وجدنا أن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

فأحسن الناس خُلقاً لا بد أن يكون أصدقهم إيماناً وأخلصهم نية، وأكثرهم التزاماً بما يجب على العباد نحو ربهم من عبادة وحسن توجه له وصلةٍ به، وأكثرهم التزاماً بحقوق الناس المادية والأدبية.

ومن المستبعد جداً أن يكون الإنسان ذا خلق كريم مع الناس، محباً للحق، معطاءً، متواضعاً، صبوراً عليهم، رحيماً بهم، ودوداً لهم، متسامح النفس معهم، ثم لا يكون ذا خلق كريم مع ربه، فلا يؤمن بحق ربوبيته وألوهيته، ولا يذعن له بذلك، ولا يؤدي واجب العبادة له.

كما أنه ليس من المعقول أن يكون ذا خلق كريم مع الناس، وهو يأكل

حقوقهم ويعتدي عليهم، ويتجاوز حدود الواجب الأدبي الذي توصي به الآداب الاجتماعية الإسلامية، فهذا منافٍ لما توجبه فضائل الأخلاق، لو كان حقاً ذا خلق كريم.

فالأسس الأخلاقية والأسس الإيمانية ذات أصولٍ نفسية واحدة، وإن كانت بعض التطبيقات العملية التي يطالب بها الإسلام المستند إلى الإيمان قد لا تستدعيها الأسس الأخلاقية وحدها منفصلة عن الإيمان، فلا يظهر بذلك ارتباطها بها، فهي أحكام شرعية، يقتضي الإيمان العمل بها، نظراً إلى أنها أوامر ربانية، والأوامر الربانية توجب الأسس الأخلاقية طاعتها، بوصف كونها طاعةً لمن تجب طاعته، لا بوصف كون المطلوب بها ظاهرة لأساس خلقي. فحينما يأمرنا الله تعالى بعبادة خاصة على وجه مخصوص كصلاة ركعات معينة محددة بصفات خاصة وشروط خاصة، فليس من اللازم أن تكون هذه الصلاة بصفاتها الخاصة ظاهرة من ظواهر السلوك الأخلاقي، وذات صلة مباشرة بالأسس الأخلاقية العامة، إذ لله تعالى أن يختار لعبادته أي عمل من الأعمال، وعلى أي شكل من الأشكال، سواءٌ أكان ذلك مما يتصل بالأسس الأخلاقية العامة أو لا يتصل بها. ومع ذلك نقول: إن الفضيلة الخلقية توجب القيام بهذه الطاعة من جهة أن الله أمر بها، إذ الفضيلة الخلقية توجب طاعة الله لأنه الخالق المنعم المالك.

ونظير هذا نقول في طاعة الوالدين وبرهما، وفي طاعة أولي الأمر من المسلمين المؤمنين، وهكذا.

أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: «وخياركم خياركم لنسائهم» فيكشف الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أدق الموازين والكواشف التي تكشف عن حقيقة خلق الإنسان، فأحسن الناس خُلقاً في معاملة ومعاشرة النساء هم أحسنهم خلقاً، فهم بسبب ذلك خيارهم، لأن خير الناس هم أحسنهم خلقاً.

ومن المعروف أن الإنسان قادر على أن يتصنع التظاهر بمكارم الأخلاق

وفضائل السلوك إلى فترة معينة، ومع بعض الناس، أما أن يتصنع ذلك في كل الأوقات ومع كل الناس فذلك من غير الممكن ما لم يكن فعلاً ذا خلق كريم.

والمحك الذي يمتحن فيه الإنسان امتحاناً صحيحاً ودقيقاً لمعرفة حقيقة خلقه الثابت، هو المجتمع الذي يكون له عليه سلطة ما، وله معه معاشرة دائمة، ومعاملة مادية وأدبية.

فإرادة التصنع تضعف حينما يشعر الإنسان بأن له سلطة ونفوذاً، ثم تشتد ضعفاً حينما تطول معاشرته لمن له عليه سلطة، ثم تتلاشى هذه الإرادة حينما تتدخل المعاملة المادية والأدبية، فإذا ظل الإنسان محافظاً على كماله الخلقي في مجتمع له عليه سلطة، وله معه معاشرة دائمة، ومعاملة مادية وأدبية، فذلك هو من خيار الناس أخلاقاً.

وأبرز أمثلة هذا المجتمع الذي تتوافر فيه هذه الشروط هو مجتمع أسرة الإنسان، وما له من سلطان فيه على نسائه، وهن الضعيفات بالنسبة إليه. يضاف إلى ذلك أن النساء قد تبدو منهن تصرفات أو مطالب تخرج الحليم عن حلمه، والرصين عن رصانته، والسمح عن سماحته، والصدوق عن التزام الصدق، فإذا ثبت الإنسان على خلقه الفاضل رغم وطأة محرجاتهنّ التي يتبعن فيها أهواءهن، فإنه من خيار الناس خلقاً.

وكم يظهر الإنسان أنه حسن الخلق، فإذا سافرت معه أو عاملته بالدرهم والدينار انكشف عن صاحب خلق سيء.

ثانياً: وروى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي الدرداء، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء».

أي يبغض الذي يفعل الفحش ويقول الفحش، ويتكلم ببذيء الكلام، وهو رديئه وقبيحه، الذي يتحدث عن العوارت والرذائل وما ينبغي من الأشياء والأعمال ستره.

وفي هذا الحديث يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن أثقل الفضائل في ميزان المؤمن يوم القيامة الخلق الحسن.

وقد يُشكل هذا على بعض الناس فيقول: إن الإيمان بالله وحسن الصلة به أفضل الأعمال، وكذلك توحيد الله والإخلاص له في العبادة، وإذا كانت هذه أفضل الأعمال فهي أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة؛ فكيف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق»؟!

ولكن هذا الإشكال لا يلبث أن ينحل إذا عرفنا أن الإيمان وعبادة الله مما توجبه الأسس الأخلاقية، ومن أولى الواجبات التي تفرضها مكارم الأخلاق. وأن الكفر بالله ورفض عبادته وطاعته من أقبح رذائل الأخلاق ــ كما سبق بيانه في شرح الحديث السابق ــ لأنه إنكار للحق من عدة وجوه: فهو إنكار لربوبية الله ــ مع أن كون الله رب كل شيء وخالق كل شيء، حقيقة تفرض نفسها على كل منصف محب للحق ــ وهو جحود لألوهية الله واستكبار عن عبادته، وهو تمرد على حق الله تجاه عباده في أن يعبدوه ويطيعوه، مع أنه المنعم عليهم بالنعم الكثيرة التي لا يحصونها، وظاهر أن جحود النعمة وعدم القيام بواجب الشكر عليها من أقبح رذائل الأخلاق.

فالإيمان الذي هو أثقل الفضائل عند الله تعالى هو مظهر من مظاهر الكمال الخلقي في الإنسان، وإذا تتبعنا الأعمال وجدنا العبادات أيضاً من مظاهر الكمال الخلقي في الإنسان.

وعندئذ يتضح لنا بجلاء أن أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن خلقه، لأن صدق إيمانه وسلامة يقينه وإخلاص نيته، كل ذلك من ثمرات فضائله الخلقية.

ولما كان الفحش والبذاءة من مظاهر الرذائل الخلقية النفسية كان الفاحش البذيء من الذين يبغضهم الله عز وجل.

ثالثاً: وروى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال:

«تقوى الله وحسن الخلق».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال:

«الفم والفرج».

فتقوى الله وحسن الخلق من أحب الأعمال إلى الله، فهما أكثر ما يدخل الناس الجنة.

وفي كون الفم والفرج أكثر ما يدخل الناس النار إشارة إلى عناصر متصلة بسوء الخلق، إذ جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم في مقابل التقوى وحسن الخلق.

والمراد من الفم والفرج ما يعمل الإنسان بهما من أعمال محرمة، فالفم يصدر عنه الكفر بالله، والكذب، وشهادة الزور، والغيبة، والنميمة، والطعن، والتعيير، والتنقيص، واللمز، والتنابز بالألقاب، والدعوة إلى الباطل، ونشر الباطل، والحكم بغير الحق، وغير ذلك من أمور كثيرة، تنافي التقوى وتنافي مكارم الأخلاق. والفرج يصدر عنه أعمال محرمة أخرى تنافي التقوى وتنافي مكارم الأخلاق.

رابعاً: وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول:

«إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً».

وروى الترمذي بإسناد حسن عن جابر بن عبدالله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون».

قالوا: يا رسول الله قد علمنا «الثرثارون والمتشدقون» فما المتفيقهون؟ قال: «المتكبرون».

الثرثارون: هم الذين يكثرون الكلام ويتكلفونه.

المشتدقون: هم الذين يتكلمون بملء أفواههم، ويتصنعون القول تصنعاً مع التعاظم به والتعالي به على الناس.

خامساً: وروى أبو داود عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

ويظهر أن السبب في هذا أن من يلتزم التقيد بالأخلاق الحسنة ابتغاء مرضاة الله، لا بد أن يتعرض في حياته الاجتماعية إلى ما يستدعي منه أخلاقاً حسنة في معظم أوقاته، وهذا يجعله في حالة عبادة دائمة، يغالب فيها نفسه بالصبر وتحمل مشقة مخالفة الهوى، لذلك فهو يدرك بحسن خلقه درجة الصائم الذي لا يفطر، ودرجة القائم الذي لا يفتر.

يضاف إلى هذا أن حسن الخلق عبادة ذات آثارٍ اجتماعية تنفع خلق الله، وتوحد كلمتهم، وتبعد عنهم عوامل الفرقة والخلاف، أما الصيام والقيام فهما عبادتان قد لا تنتج عنهما بشكل مباشر آثار اجتماعية تنفع عباد الله، وقد يكون أمرهما قاصراً على فاعلهما، وصلة خاصة يتوجه بها الإنسان إلى ربه، ولا يخفى أن عبادة لله ذات أثرين أعلى من عبادةٍ ذات أثر واحد.

على أن حسن الخلق لا يغني عن فروض العبادات، وكذلك كل الفروض الإسلامية لا يغني بعضها عن بعض، فالصلاة المفروضة لا تغني عن الصيام المفروض، وأداء الصلاة والصيام المفروضين لا يغني عن أداء الزكاة، ولا عن أداء فريضة الحج، وكل هذه الفروض لا تغني عن فريضة الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سادساً: وروى أبو داود بإسناد صحيح عن أبـي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه».

زعيم: أي كفيل. ربض الجنة: ربض المكان نواحيه وما حـوله من خارجه، كحريم المسجد، وكالأبنية التي تكون حول المدن، وهي الأمكنة التي تربض فيها الأنعام.

فمن ترك المراء ـ أي الجدل في أمور الدنيا ولحظ النفس ـ بنى الله له بيتاً في ربض الجنة، أي استحق دخول الجنة لهذا العمل الذي يخالف فيه هوى نفسه.

ومن ترك الكذب في كل الأحوال ومنها حالات المزاح بنى الله له بيتاً في وسط الجنة، لأن من يحفظ لسانه من كل الكذب ابتغاء مرضاة الله هو ذو مرتبة عالية في الأخلاق الحميدة وفي تقوى الله وأعمال البر، إذ ترك الكذب والتزام الصدق مجمع لجملة كبيرة من الفضائل الخلقية، والمصالح الاجتماعية العلمية والعملية.

أما جماع الفضائل كلها فهو حسن الخلق بوجه عام.

سابعاً: وروى مسلم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال:

«البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

البر: هو جماع أفعال الخير، وقد عرفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه حُسن الخُلق، فهذا يدل على أن حسن الخلق يشتمل على جماع أفعال الخير، والاتساع فيما يقرب إلى الله تعالى ويرضيه سبحانه.

أما كون الإثم ما حاك في نفس الإنسان وكره أن يطلع عليه الناس، ففيه إشارة إلى الضمير الأخلاقي الذي فطر الله الناس عليه، وهذا الضمير يحس بالفضيلة الخلقية كما يحس بالإثم، وحينما يحس بالإثم يلامس نفسه شعور خاص به، وحينما يحدث هذا الشعور في النفس يقدر الإنسان أن ما أحس به من شأنه أن يحس به كل إنسان آخر إذا اطلع عليه، لأن الناس يشتركون معه في القدرة على الإحساس بالإثم، لذلك فهو يكره أن يطلع عليه الناس، لئلا يخسر مكانته في نفوسهم حينما يعلمون أنه امرؤٌ آثم.

وهذا المقياس النبوي مقياسٌ صحيح دقيق عند ذوي القلوب المؤمنة، التي لم تفسد موازينها الفطرية بارتكاب القبائح والآثام.

ثامناً: وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن أبغض الرجال إلى الله الألَدُّ الخصِمُ».

الألدّ: هو شديد الخصومة. الخَصِم: هو كثير الخصومة، المولع بها حتى تصير الخصومة عادة له.

وظاهر أن الخصم الألدّ سيءُ الخلق من درجة شديدة القبح، وقد أبان الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أبغض الرجال إلى الله.

تاسعاً: وروى الترمذي بإسناد حسن عن أبي ذر وعن معاذ بن جبل، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«اتقِ الله حيثما كنت، وأتبعِ السيئةَ الحسنة تمحُها، وخالقِ الناسَ بخلق حسنٍ».

ففي هذا الحديث إرشاد إلى قواعد السلوك الكبرى، التي من التزمها فقد أخذ سبيله لارتقاء مراتب المجد والكمال الإنساني.

وهذه القواعد ترشد إلى المنهج الخلقي العام، الشامل لجانبي علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بالناس.

أما ما يدعو إليه الواجب الأخلاقي بالنسبة إلى علاقة الإنسان بربه، فهو تقوى الله في أي مكان ظاهر أو خفي يكون فيه الإنسان، وذلك لأن الواجب الأخلاقي يفرض على الإنسان طاعة من خلقه فسواه فعدله، فأنعم عليه بالنعم التي لا يستطيع إحصاءها، ويفرض عليه أيضاً حمده وشكره وعبادته، وكل هذه الواجبات يجمعها تقوى الله في السر والعلن، وهذا ما دلت عليه القاعدة الأولى: «اتق الله حيثما كنت». وحينما يتقي الإنسان ربه في كل أحواله الظاهرة والباطنة فلا بد أن يكون مخلصاً لله في تقواه، وفي هذا تكمن الروح الأخلاقية السامية البعيدة عن النفاق والرياء والسمعة وطلب الثناء من الناس، أو اجتلاب المصالح النفسية أو المادية منهم.

هذه هي القاعدة الأولى.

وأما القاعدة الثانية وهي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» ففيها إرشاد إلى منهج الإصلاح والتقويم، وتدارك النهوض بالنفس بعد سقوطها بارتكاب السيئة، وهذا المنهج ترسمه هذه القاعدة أضبط رسم. فمن سقط بارتكابه السيئة في حالة من حالات الضعف الإنساني فعليه أن يتبع هذه السيئة حسنة مستمدة من منابع الضمير الأخلاقي، فإن للحسنات قوة سبقٍ عجيبة بفضل الله، إذ تمر على السيئات التي كانت قد انطلقت قبلها فتردها وتمحو أثرها عند الله، وتعود نفس المؤمن بالله إلى براءتها ونقائها الخلقي، بعد أن أصابها ما أصابها من أدناس السيئات.

وهذه القاعدة مستمدة من قول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

وأما القاعدة الثالثة وهي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «وخالق الناس بخلق حسن»: فهي تحدد المنهج العام الذي يجب على الإنسان أن يسلكه

في علاقاته بالناس، وعنوان هذا المنهج أن يخالق الناس بخلق حسن، أي أن يعاملهم في كل علاقاته معهم بالخلق الحسن.

عاشراً: ولما كان حسن الخلق يحتل هذه القيمة العظيمة في الإسلام؛ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال:

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً».

واختار الله للثناء على رسوله من دون سائر صفاته العظيمة ما يتحلى به من خلق حسن عظيم، إذ خاطبه بقوله له: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

وصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بعثت لأتمم حسن الخلق».

رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة، ورواه الإمام مالك في الموطأ.

وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال» رواه في شرح السنة.

— ٦ —
الكليات العامة التي تنضوي تحتها مفردات مكارم الأخلاق

حين يبحث الباحثون في مكارم الأخلاق فإنهم يعددون أفرادها؛ فيذكرون مثلاً من مكارم الأخلاق: الصدق، والأمانة، والعفة، والشجاعة، والجود، والاعتراف لصاحب الحق بحقه وعدم غمطه، والاعتراف لكل ذي ميزة بميزته، والإحسان، والتضحية في سبيل الواجب، والبذل للآخرين، والقناعة، وطهارة القلب من أمراض الحسد والحقد واللؤم وحب الاستيلاء على حقوق الآخرين والعدوان عليهم، إلى غير ذلك من أخلاق.

ولكن أفلا يمكن إرجاع مكارم الأخلاق هذه ونظائرها إلى أصول عامة

تنضوي تحتها، وبذلك يمكن إدراك أي خلق كريم متى اندرج تحت أصل من هذه الأصول؟

وبالتأمل نستطيع اكتشاف عدة أصول وكليات عامة ترجع إليها مفردات مكارم الأخلاق.

الأصل الأول:

كل دافع ذاتي في الإنسان سواء أكان فطرياً أو مكتسباً، يدفعه حتى يعترف لغيره بما له من صفات كمال، أو بما له من حق ــ ولو كان في ذلك الاعتراف مساس بما يشتهي الإنسان لنفسه، من كمال، أو مجد، أو أي حظ من حظوظ النفس أو الجسد ــ هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة.

ونقيض هذا الأصل أحد أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

فكل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى يجحد ما لغيره من كمالٍ أو حق، ابتغاء وجه الشيطان، أو استجابة لعامل الكبر في نفسه، أو لما يشتهي لنفسه من كمالٍ أو مجد، أو استجابة لأي حظ من حظوظ النفس أو الجسد، ضمن المؤثرات الأنانية، هو من أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

وتفريعاً على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله، نستطيع أن نعتبر الاعتراف للخالق العظيم بكمال ربوبيته وألوهيته، والإذعان لذلك بدافع ذاتي في الإنسان، من بدهيات أمثلة الكمال الخلقي فيه. أما الإلحاد بالله، وجحود ربوبيته وألوهيته، بعد قيام الأدلة على ذلك في فكر الإنسان وشعوره، فذلك من أبرز أمثلة الانحطاط الخلقي، ومن أخس دركاته.

وتفريعاً على هذا الأصل العام أيضاً نستطيع أن ندخل في أمثلة مكارم الأخلاق ما يلي:

الاعتراف للوالدين بفضلهما، والاعتراف للمعلم ولكل ذي فضل بفضله، والاعتراف لكل ذي مزية علمية أو فكرية أو إدارية أو عملية أو جسدية

بمزيته وعدم غمطه حقه، والاعتراف لكل ذي حق بحقه، مهما كانت العوامل النفسية محرضة على الغمط والجحود.

ونستطيع أن ندخل في أمثلة رذائل الأخلاق ما يلي:

جحود فضل ذوي الفضل، وإنكار مزايا ذوي المـزايا، وغمط الحق لأصحابه، استجابة لدافع من دوافع النفس الأنانية، أو لشهوة من شهواتها، ونحو ذلك من رذائل.

الأصل الثاني:

كل دافع ذاتي في الإنسان سواء أكان فطرياً أو مكتسباً يدفعه حتى يؤدي الحقوق التي عليه كاملة، أو حتى يُنعم على غيره بعطاء من علمه، أو من قدرته، أو من جاهه، أو من ماله، متجاوزاً في ذلك عوامل نفسه الأنانية، هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة.

ونقيض هذا الأصل أحد أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

فكل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى يعتدي على ما ليس له به حق، بغية حيازته لنفسه، أو يدفعه حتى يبخل بعطاء ينفع آخذه ولا يضر باذله، أو يبخل بما يدفع الضرورة الملحة عن غيره، مع عدم اضطراره إليه، أو مع عدم حاجته إليه، إلا حاجة الاستجابة للطمع أو الشره وشهوة الاستئثار، أو الاستجابة للرغبة بالاستزادة من الرفاهية المفرطة، هو من أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

وتفريعاً على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله، نستطيع أن نسرد جملة كبيرة من مكارم الأخلاق، ثم جملة كبيرة مما يقابلها من رذائل الأخلاق.

الأصل الثالث:

كل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى ينظر إلى المنح التي يختص الله بها عباده، ويوزعها بينهم، إنما هي مظاهر حكمة الله وعدله، فهو ينظر إلى ما لديه منها بعين القناعة والرضا، دون أن تمتد إلى ما وهب الله

غيره منها امتداد اعتراض أوحسد، هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة.

ونقيض هذا الأصل أحد أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

فكل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى يعترض على حكمة الله، أو يحسد الآخرين على ما وهبهم الله من فضله؛ هو من أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

وتفريعاً على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله نستطيع أن نسرد عدداً من مكارم الأخلاق، ثم عدداً من رذائل الأخلاق.

ــ ٧ ــ
شمول الأخلاق

دخول الأخلاق في كل القطاعات الإنسانية:

لكل قطاع من القطاعات الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية أخلاق، للفكر أخلاق، وللاعتقاد أخلاق، وللقلب أخلاق، وللنفس أخلاق، وللسلوك الظاهر أخلاق.

١ ــ فمن فضائل أخلاق الفكر تحري الحقيقة بإنصاف وتجرد وحياد، والصبر على التفكر والتدبر، والبحث عن كل نافع مفيد من الأفكار والمعارف والعلوم، والبعد عن سفاسف الأفكار وتوافهها، والاشتغال بتذكر كل صالح مفيد، ونسيان الأحداث المثيرة للأحقاد والضغائن أو الباعثة على الغضب والانفعالات غير الحسنة، وعدم التطلع إلى مثيرات الحسد، أو مثيرات الشهوات والأهواء المحرمة، إلى غير ذلك من فضائل.

ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الفكر نقائص ورذائل يجب على الإنسان اجتنابها أو يحسن به اجتنابها؛ ليظفر بالارتقاء في سلم الكمال الخلقي في مجال أخلاق الفكر.

٢ ــ ومن فضائل أخلاق الاعتقاد أن لا يسمح الإنسان لنفسه بأن يتتبع

الأوهام والظنون الضعيفة، فيحلها في مراكز عقائده الثابتة الراسخة، وأن لا يجعل مركز عقائده فريسة للتقليد الأعمى، والضلالات الشائعة، أو فريسة لما تمليه الأهواء والشهوات من أفكار ومذاهب، أو فريسة لما يمليه القادة المضلون والشياطين الموسوسون من الإنس والجن، إلى غير ذلك.

ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الاعتقاد نقائص ورذائل يجب على الإنسان اجتنابها، أو يحسن به اجتنابها، ليظفر بالارتقاء في سلم الكمال الخلقي في مجال أخلاق الاعتقاد.

٣ ـ ومن فضائل أخلاق القلب حب الحق وحب الخير، وكراهية الباطل والشر، وعدم تحمل الأحقاد والضغائن، والشجاعة، إلى غير ذلك من أمور.

ويقابل فضائل أخلاق القلب نقائص ورذائل خلقية يطالب الإنسان باجتنابها والبعد عنها.

٤ ـ ومن فضائل أخلاق النفس الصبر والعفة، ومجانبة الحسد، والترفُّع عن سفاسف الأمور، والنظر إلى معاليها، وعلو الهمة، وجود النفس، وتسامحها وعفوها عن إساءة المسيء، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

٥ ـ أما فضائل أخلاق السلوك الظاهر فكثيرة، وهي في حقيقتها الصادقة تعبير عما في داخل الإنسان من أخلاق.

ويقابلها نقائص ورذائل خلقية يطالب الإنسان باجتنابها والبعد عنها.

وبهذا تبين لنا شمول الأخلاق الإسلامية لكل قطاع من القطاعات الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية.

* * *

تناول الأخلاق لجانبي السلوك الفردي والسلوك الاجتماعي:

والأخلاق تتناول جانب السلوك الفردي، وجانب السلوك الاجتماعي.

١ ـ فمن الأخلاق التي تتناول جانب السلوك الفردي: القناعة الذاتية،

والزهد المحمود، والأناة في العمل، وبعض حالات الصبر والإتقان والنظام والحزم والتفاؤل.

٢ ـ ومن الأخلاق التي تتناول جانب السلوك الاجتماعي: الحلم، والصدق، والأمانة، والصبر على أذى الآخرين، والعفة، والتسامح، والعفو، وحب العطاء، والشجاعة، والتواضع، ولين الجانب، والوفاء.

وقاعدة الأخلاق الاجتماعية الكبرى تتلخص بأن يعامل الإنسان الآخرين بما يحب أن يعاملوه به، إنه يحب أن يعاملوه بالعفو إذا أساء فليكن عفوّاً عن إساءاتهم، ويحب أن يكونوا معه أمناء فليكن معهم أميناً، ويحب أن يصدقوه ولا يكذبوه فليصدقهم ولا يكذبهم، ويحب منهم العفة عن محارمه فليكن عفيفاً عن محارمهم، وهكذا.

ويكره منهم أضداد هذه الأمور فلا يعاملهم بما يكره أن يعاملوه به.

وقد أبان الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القاعدة للأخلاق الاجتماعية بقوله: «فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» رواه مسلم عن ابن عمرو[١].

وقد بلغت الأخلاق الاجتماعية في الإسلام مبلغاً من الرقي العظيم، جعلها في مركز القمة، بما اشتملت عليه من تفصيلات موثقةٍ للروابط الاجتماعية بين الأفراد، ومؤثرةٍ تأثيراً عميقاً في تغذية وحدة الجماعة الإسلامية، وتنمية روابط المودة والإخاء بين المسلمين.

وحسبنا أن نذكر في هذا المقام فضائل العفو، والإحسان، والتعاون، والتضحية والإيثار، وإكرام الضيف، وإكرام الجار، والتواضع، ولين الجانب، وحسن المعاشرة، والتزاور في الله وعيادة المرضى، والتهادي والقرض الحسن، ونحو ذلك.

---

(١) انظر رياض الصالحين، رقم الحديث ٦٦٦.

— ٨ —

تقسيم الأخلاق باعتبار علاقاتها

لدى تصنيف مفردات الأخلاق باعتبار علاقاتها نلاحظ أنها تنقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: ما يتعلق بوجوه الصلة القائمة بين الإنسان وخالقه، أي بين الإنسان وهو من عالم المادة وبين القوة المهيمنة من وراء المادة، التي أبدعت الإنسان وكرمته وجعلته في أحسن تقويم، وأمدته بأنواع من النعم التي لا يستطيع إحصاءها.

والفضيلة الخلقية في حدود هذا القسم تفرض على الإنسان أنواعاً كثيرة من السلوك الأخلاقي: منها الإيمان به لأنه حق، ومنها الاعتراف له بكمال الصفات والأفعال، ومنها شكره على نعمه التي لا تحصى، ومنها طاعته في أوامره ونواهيه، وتقبل نصائحه ووصاياه، والاستجابة له فيما يدعو الناس إليه، لأن له الخلق والأمر، ومنها تصديقه فيما يخبرنا به، لأن من حق الصادق تصديقه، ومنها التسليم التام لما يحكم علينا به، لأنه هو صاحب الحق في أن يحكم علينا بما يشاء.

فكل هذه الأنواع من السلوك أمور تدعو إليها الفضيلة الخلقية.

أما دواعي الكفر بالخالق بعد وضوح الأدلة على وجوده فهي حتماً دواعٍ تستند إلى مجموعة من رذائل الأخلاق، منها الكبر، ومنها ابتغاء الخروج على طاعة من تجب طاعته، استجابة لأهواء الأنفس وشهواتها، ومنها نكران الجميل وجحود الحق.

وقد نبه القرآن على رذيلة خلق الكبر الدافعة إلى إنكار الآخرة وعدم الإيمان بها، فقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

لقد استكبروا على طاعة الله، فلزم من ذلك أن لا يؤمنوا بالآخرة، فغدت قلوبهم منكرة، لا تتقبل الأنباء الصادقة التي تحدثهم عن يوم الجزاء الأكبر.

ونبه القرآن على رذيلة إرادة الفجور، الدافعة إلى جحود قانون الجزاء الرباني، وإنكار يوم القيامة، فقال الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾.

والفجور: هو التدفق الوقح إلى فعل الشرور والآثام، وهو لا محالة من قبائح رذائل الأخلاق.

القسم الثاني: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان وبين الناس الآخرين.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم معروفة وظاهرة: منها الصدق، والأمانة، والعفة، والعدل، والإحسان، والعفو، وحسن المعاشرة، وأداء الواجب، والاعتراف لذي الحق بحقه، والاعتراف لذي المزية بمزيته والمواساة والمعونة، والجود، وهكذا إلى آخر جدول فضائل الأخلاق التي يتعدى نفعها إلى الآخرين من الناس.

أما صور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم فهي أيضاً معروفة وظاهرة: منها الكذب، والخيانة، والظلم، والعدوان، والشح، وسوء المعاشرة، وعدم أداء الواجب، ونكران الجميل، وعدم الاعتراف لذي الحق بحقه، وهكذا إلى آخر جدول رذائل الأخلاق التي يتعدى ضررها إلى الآخرين من الناس.

القسم الثالث: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان ونفسه.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم كثيرة: منها الصبر على المصائب، ومنها الأناة في الأمور، ومنها النظام والإتقان في العمل، ومنها عدم استعجال الأمور قبل أوانها، وكل ذلك يدخل في حسن إدارة الإنسان لنفسه، وحكمته في تصريف الأمور المتعلقة بذاته.

وصور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم تأتي على نقيض صور السلوك الأخلاقي الحميد.

القسم الرابع: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان والأحياء غير العاقلة.

ويكفي أن نتصور من السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم، الرحمة بها، والرفق في معاملتها، وتأدية حقوقها الواجبة. أما الظلم والقسوة وحرمانها من حقوقها؛ فهي من قبائح الأخلاق، وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر: «عُذِّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[1].

خشاش الأرض: هوامها وحشراتها.

ولا بد من ملاحظة أن كثيراً من الأخلاق لها عدد من الارتباطات والتعلقات، ولذلك فقد تدخل في عدد من هذه الأقسام في وقت واحد، إذ قد تكون لفائدة الإنسان نفسه، وتكون في الوقت نفسه لفائدة الآخرين، وتكون مع ذلك محققة مرضاة الله تعالى.

— ٩ —
تقسيم السلوك الخلقي إلى بسيط ومركب

حين يكون الدافع إلى السلوك الإنساني دافعاً واحداً فإن السلوك حينئذ سلوك بسيط، أما حين يكون السلوك ثمرة عدة دوافع فهو سلوك مركب.

ويظهر لنا في المثال التالي الفرق بين السلوك البسيط والسلوك المركب:

إنسان شديد الجوع، يسير في فلاة، فتبعه أسد يريد افتراسه، ففر منه، فوجد شجرة، فتسلقها، فنجا. إن من الواضح في هذا السلوك أنه مظهر من مظاهر الخوف، فالدافع إليه الخوف من الأسد، فهو سلوك بسيط.

أما لو وجد شجرتين إحداهما غير مثمرة، والأخرى مثمرة، فاختار أن

---

(١) رياض الصالحين، الحديث ١٥٩٧، وفي المشكاة بمثله عن ابن عمر وأبي هريرة، الحديث ١٩٠٣.

يتسلق الشجرة المثمرة، لينجو من الأسد، وليأكل من ثمرها، فيسد جوعه. فسلوكه حينئذ مدفوع بدافعين هما الخوف والجوع، فهو حينئذ سلوك مركب من حركتين نفسيتين.

فلو أنه لاحظ في الشجرة المثمرة سواراً من ذهب معلقاً فيها، فطمع أيضاً بالحصول عليه، فسلوكه حينئذ مدفوع بثلاثة دوافع، هي الخوف والجوع والطمع، فهو سلوك مركب من ثلاث حركات نفسية.

ونجد نظير ذلك في السلوك الخلقي، وقد يكون من القليل النادر العثور على سلوك خلقي بسيط، إذ الغالب في حال الإنسان أن يكون سلوكه الخلقي سلوكاً مركباً.

ونقول على سبيل المثال: إن عطف الأم على ولدها يرجع إلى خلق الرحمة، ومساعدة إنسان لآخر ذي ضرورة يرجع إلى خلق الرحمة، وتحمل الإنسان آلام مصيبة من المصائب يرجع إلى خلق الصبر، وإكرام الضيف بسخاء ظاهرة محمودة ترجع إلى خلق الجود. فإذا لم يكن لهؤلاء أية دوافع أخرى، فسلوكهم الخلقي هذا من نوع السلوك الخلقي البسيط.

ونأخذ العفو مثلاً بوصفه ظاهرة خلقية، فنلاحظ أنه قد يرجع إلى أكثر من أساس خلقي: فإذا كان عفواً عن حق مالي استطعنا أن نرجعه إلى أساسين خلقيين هما الجود والرحمة، وإذا كان عفواً عن إساءة أو مظلمة، استطعنا أن نرجعه إلى أساسَيْ الرحمة والصبر، فهو سلوك خلقي مركب.

ونأخذ الشجاعة بوصفها ظاهرة خلقية، فنلاحظ أنها قد ترجع أيضاً إلى أكثر من أساس خلقي: فإذا كانت شجاعة أدبية استطعنا أن نرجعها إلى مجموعة من الأسس الخلقية الدافعة لها، هي: الصبر، وحب الحق، وعلو الهمة، وقوة الإرادة. وإذا كانت شجاعة مادية، استطعنا أن نرجعها إلى الصبر، وحب العطاء، وعلو الهمة، وقوة الإرادة، فهي سلوك خلقي مركب.

وقد تختلف أسس الظاهرة الخلقية من شخص لآخر في نوعها وفي مقدارها.

وحينما يكون السلوك الخلقي مدفوعاً بدافع ابتغاء مرضاة الله تعالى فقط، فهو سلوك خلقي بسيط، وحينما يكون مدفوعاً به وبالدافع الخلقي في نفسه، فهو سلوك خلقي مركب.

فمن الملاحظ أن الإنسان قد يفعل الفضيلة الخلقية ابتغاء مرضاة الله، ولو لم يشعر بالدافع الخلقي الخاص بها في نفسه، وقد يفعل الفضيلة الخلقية وهو يشعر بالدافع الخلقي الخاص بها في نفسه، وبابتغاء مرضاة الله منها مع ذلك. وهنا نرى أن صاحب الخلق النفسي الرفيع يكون أعلى مقاماً إذا استطاع أن يلاحظ من عمله ابتغاء مرضاة الله تعالى، لأنه يتحلى بالكمال الخلقي النفسي من جهة، وبارتقاء درجة الإيمان من جهة أخرى، والإيمان الصادق ثمرة من ثمرات عدة فضائل خلقية.

قد لا تكون الظاهرة الخلقية نابعة من أساس خلقي:

ولكن لا بد أن نلاحظ أن الظاهرة الخلقية قد لا تكون نابعة من أساس خلقي، فكثير من الناس لا تعبر ظواهر سلوكهم عما في نفوسهم.

وفي هذه الحالة تكون الظاهرة السلوكية غير صادقة الدلالة على ما تنطوي عليه النفس، فهي إما من باب النفاق، أو من باب الرياء، أو من باب المجاملة والمداراة، أو من باب التجارة المادية أو المعنوية لتحقيق مغنم من المغانم، أو غير ذلك.

وكثيراً ما تكون الظاهرة الخلقية غير نابعة من مظانها الخلقية: فالعطاء مثلاً قد يكون بدافع الطمع بمغنم أكبر، أو بدافع الحذر، لا بدافع الجود، ولا بدافع الرحمة. والثبات مثلاً قد لا يكون بدافع الصبر، وإنما بدافع العجز عن الهرب. والزهد قد لا يكون بدافع القناعة والعفة، وإنما يكون بدافع العجز عن المطمع، أو يكون تظاهراً للوصول إلى مطمع أكبر، فالزهد أو التزهد المصطنع في مثل هذا وسيلة للصيد، والصياد المتزهد هنا يترقب عن طريق التزهد الصيد الأثمن.

* * *

الفصل الثالث

١ ـ الحكم الأخلاقي وأسسه.

٢ ـ درجات الحكم الأخلاقي وأنواعه ومصدره وأنواع أصحاب الحقوق.

٣ ـ الحس الأخلاقي أو الضمير الأخلاقي.

٤ ـ الغاية من التزام قواعد الأخلاق.

٥ ـ تفنيد مزاعم الماديين الذين يقولون بنسبية الأخلاق.

الفصل الثالث

ـ ١ ـ

الحكم الأخلاقي وأسسه

يظهر لنا بالتأمل أن الحكم الأخلاقي على اختلاف درجاته ــ إلزاماً أو ترغيباً ــ وعلى اختلاف نوعه ــ فعلاً أو تركاً ــ يستند إلى ما في العمل من حق أو باطل، أو ما فيه من خير أو شر، أو ما فيه من جمال أو قبح.

على أنه لا يلزم أن يكون كل حق أو خير أو جمال مستنداً وأساساً لفضيلة خلقية، ولا يلزم أن يكون كل باطل أو شر أو قبح مستنداً وأساساً لرذيلة خلقية.

لكن الفضيلة الخلقية لا بد أن يكون لها مستند من الحق أو الخير أو الجمال، والرذيلة الخلقية لا بد أن يكون لها مستند من الباطل أو الشر أو القبح.

فهذه الأسس أمور عامة، يكون منها مستندات للأحكام الأخلاقية، ويكون منها مستندات للأحكام الأخرى.

أمثلة:

(أ) إقامة العدل، سلوك أخلاقي كريم، أساسه التزام جانب الحق، وهو من الخير، وهو مظهر لفضيلة خلقية.

(ب) الإحسان، أداء اختياري فوق الواجب، وهو من الخير، وهو مظهر لفضيلة خلقية.

(ج) أداء الواجب، سلوك أخلاقي كريم، أساسه إعطاء كل ذي حق حقه، وهو من الخير، لأن فيه مقاومة هوى النفس، التي قد تميل إلى هضم حقوق الآخرين، وهو مظهر لفضيلة خلقية.

(د) التطهر وتنظيف الجسد والثوب والمكان من الأنجاس والأدناس والقذارات، سلوك أخلاقي كريم، أساسه مراعاة ما يوجبه الجمال، وهو من الخير، وهو مظهر لفضيلة خلقية.

(هـ) الجور، سلوك أخلاقي ذميم، أساسه تجاوز حدود الحق، وهو من الشر، وهو مظهر لرذيلة خلقية.

(و) الشح، سلوك أخلاقي ذميم، أساسه عدم بذل ما يوجب الحق بذله، وهو من الشر، وهو مظهر لرذيلة خلقية.

(ز) فعل ما هو مستقبح مستهجن عند الناس، من غير أن تدعو الضرورة إليه، سلوك أخلاقي ذميم، أساسه عدم مراعاة ما يوجبه الجمال، وهو من الشر، وهو مظهر لرذيلة خلقية.

وهكذا إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة.

وقد نلاحظ حقاً وخيراً وجمالاً، دون أن تكون هذه أسساً لفضائل خلقية.

فمطالبة صاحب الحق بحقه سلوك إنساني لا يعتبر فضيلة ولا رذيلة خلقية من حيث ذاته، ولكن قد يعتبر فضيلة خلقية إذا كان باستطاعته أن يطالب بأكثر من حقه فلم يفعل، التزاماً بجانب الحق، أو كان الدافع إليه رغبة بأداء حق عليه لا يملك وفاءه إلا عن طريق استيفاء الحق الذي له، ونحو ذلك.

واستمتاع الإنسان بما يشتهي من مباح، دون أن يلاحظ تقيده بالمباح وبعده عما يشتهي من محرم، ودون أن يلاحظ غرضاً حسناً تدعو إليه فضائل الأخلاق، ويمكن تحصيله عن طريق الاستمتاع بالمباح، سلوك إنساني لا يعتبر فضيلة ولا رذيلة خلقية، بل هو سلوك محايد، مع أن صاحب هذا السلوك لم يتجاوز حدود الحق.

لكنه قد يكون سلوكاً أخلاقياً إذا استطاع صاحبه أن يجعل غرضه منه أمراً تدعو إليه فضائل الأخلاق، أو إذا استطاع أن يلاحظ به في أدنى الحدود إعفاف نفسه وكفها عن محارم الله ورذائل الأخلاق.

وتزيين الإنسان بناءه أو أثاثه بأنواع الزينات الجميلة، سلوك إنساني دافعه حب الجمال والرغبة بالاستمتاع به، وهو ما دام في حدود المباح الذي لا شر فيه لا يعتبر فضيلة ولا رذيلة خلقية، بل هو سلوك محايد، مع أن الأساس الدافع إليه هو الجمال وحب الاستمتاع به.

وهكذا نجد أمثلة كثيرة أساسها الحق والخير والجمال، دون أن تكون داخلة في ميدان الأخلاق، فضائلها أو رذائلها.

ـ ٢ ـ
درجات الحكم الأخلاقي وأنواعه ومصدره وأنواع أصحاب الحقوق

تبعاً لاختلاف نسب وجود الحق أو الخير أو الجمال ـ من الناحيتين الكمية والكيفية ـ في القضايا الأخلاقية، يكون الحكم الأخلاقي في الإسلام، وتكون نسبته إلزاماً أو ترغيباً بالفعل أو بالترك.

فبعض القضايا الأخلاقية ترتفع نسبة وجود الأسس فيها إلى مرتبة إيجاب الفعل والإلزام به، وبعضها تنزل فيها هذه النسبة إلى ما دون الوجوب، وتتفاوت درجات الترغيب بالفعل. وبعض القضايا الأخلاقية ترتفع نسبة وجود الأسس فيها إلى مرتبة التحريم والإلزام بالترك، وبعضها تنزل فيها هذه النسبة إلى ما دون التحريم، وتتفاوت درجات الترغيب بالترك.

وقد تتعارض مقتضيات الفعل والترك في القضية الأخلاقية، ويكون لبعضها رجحان على بعض، وتبعاً لذلك تكون نسبة الحكم الأخلاقي ونوعه.

وحين تتكافأ مقتضيات الفعل والترك تكافؤاً تاماً، من غير ترجيح لأحد

الطرفين على الآخر، أو حين لا يوجد أي مقتضٍ أخلاقي للفعل ولا للترك، فإن مستوى القضية حينئذ يكون صفراً، والحق المطلق حينئذ يكون لحرية الإنسان الشخصية، ومتى كان الحق كله للحرية الشخصية كان الحكم هو حكم الإباحة المطلقة، وعلى الآخرين حينئذ احترام هذا الحق، وعدم التعرض إليه بعدوان أو حَجْر، وفي هذا المجال تنطلق الحريات الشخصية انطلاقاً تاماً، دون أي إلزام أو ترغيب.

أمثلـــة:

(أ) فشكر المنعم بالوجود والحياة والعقل واجب أخلاقي متحتم، وعدم شكره كفر ورذيلة أخلاقية شنيعة، وهنا نلاحظ أن ارتقاء نسبة الحكم الأخلاقي في هذه القضية الأخلاقية تابع لارتقاء نسبة الحق فيها، إذ كمية الحق فيها كمية كبيرة، وكيفية الحق فيها كيفية عظيمة، والشعور بحق المنعم شعور تدركه العقول والنفوس بالبداهة، وهذا الحق في هذه القضية مسلط على إرادة المخلوق تسليطاً قوياً، لذلك كان جحوده والتمرد عليه كفراً.

(ب) بخلاف الصبر على المصيبة، فإن الحق الأخلاقي في هذه القضية ليس مسلطاً على إرادة الإنسان بمثل القوة التي يتمتع بها الحق الملزم بشكر الخالق، لما فيها من حق المصاب بإعلان الألم. ولذلك لم يكن للصبر على المصيبة من الحكم الأخلاقي مثل ما لشكر الخالق من حكم، وهنا يقتصر الحكم الأخلاقي على مستوى الترغيب بمقدار الاستطاعة، والإلزام بترك ما لا تدعو حاجة النفس إليه من لطم خدود وشق جيوب.

(ج) ومن أجل ذلك نلاحظ أن إعطاء الزكاة والنفقة الواجبة سلوك أخلاقي وديني مطلوب بصفة إلزامية، أما إعطاء الصدقة العامة والهدية ونحو ذلك فهو سلوك أخلاقي ديني مطلوب بصفة غير إلزامية؛ لأن حق المجتمع في الأول حق ضروري، أما حقه في الثاني فحق استحساني يدخل في باب ترفيه الآخرين، ويقف في مواجهته حق صاحب الكسب بأن يستمتع بماله استمتاعاً هو من باب الرفاهية، لا من باب الضرورة.

وحين تتعارض مقتضيات الأحكام الأخلاقية، كتعارض الحقوق، فإن الحكمة تقضي بالتوفيق بينها، وبعدم إلغائها أو إلغاء شيء منها إلغاءً كلياً، ما لم تقض الضرورة ذلك.

وإنما تقضي الحكمة بالتوفيق لأن قيمة كل حق من الحقوق المتعارضة تتناقص بسبب التعارض، وبذلك تنخفض قوة مطالبتها بأداء الحق، ويكون التوفيق بإعطاء كل حق منها مقداراً من مساحة الأداء يناسب مداه في عدالة التوزيع.

وقد نبه الرسول صلوات الله عليه على التوفيق الذي تقضي به الحكمة، في الحديث الصحيح الذي رواه عبدالله بن عمرو بن العاص، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغه أن عبدالله حلف أن يصوم النهار ويقوم الليل ما عاش، فقال له: «صم وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزَوْرك عليك حقاً» وفي رواية: «وإن لولدك عليك حقاً»[1].

وأقر الرسول مقالة سلمان لأبي الدرداء، وصدّقه بها، إذ قال سلمان: «إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه» فأتى أبو الدرداء النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال: «صدق سلمان». من حديث رواه البخاري عن أبي جحيفة.

وهنا نلاحظ أن من الطبيعي أن تتعارض في حياة الإنسان هذه الحقوق، بمعنى أن كل حق منها يتطلب تفريغ الزمن لحسابه، واستنفاد الطاقة لحسابه، ولكن هذا يضيع الحقوق الأخرى، فكان لا بد من التوفيق، وذلك بإجراء القسمة العادلة، فيعطى لكل منها من الزمن ومن الطاقة على مقدار قوته بالنسبة إلى الحقوق الأخرى.

---

(١) قال النووي في رياض الصالحين ــ بعد أن ساق الحديث برواياته ــ: كل هذه الروايات صحيحة، معظمها في الصحيحين، وقليل منها في أحدهما.
الباب الرابع عشر، الاقتصاد في العبادة رقم الحديث ١٥٠.

وحينما يقوى حق الإنسان على نفسه ـ وهو الحق الشخصي ـ تقل قيمة حق غيره عليه في موضوع الحق نفسه، فمن أمثلة ذلك: لو كان الإنسان في حالة ظمأ شديد يخشى منه الهلاك، وأخوه إلى جنبه مثله في ذلك، ثم جاءته شربة ماء تنقذه من الهلاك، إنه في هذه الحالة بين حقين متعارضين: حق نفسه عليه، وحق أخيه عليه، فإذا أمكنه التوفيق بين الأمرين، وذلك بأن يشرب ويسقي أخاه، ويكون بذلك نجاتهما، فهذا هو الواجب عليه، وقد قلل بهذا التوفيق من قيمة حق نفسه عليه، ومن قيمة حق أخيه عليه، فلم يعط هذا ولا هذا كل ما يطلب. وإذا لم يمكنه التوفيق بين الأمرين، كان له أن يقدم حق نفسه على حق أخيه، وفي هذه الحالة لم يُلغِ حق أخيه عليه، إلا أن قيمته قد ضعفت بسبب التعارض، إلى أن وصلت إلى مرتبة الاستحسان لا الوجوب، والاستحسان يرجح جانب الإيثار على الجانب الآخر، فالحكم الأخلاقي في هذا نزل من مرتبة الوجوب إلى مرتبة الاستحسان، وسبب ذلك طبيعة التعارض.

فإذا فرضنا أن نجاة صاحب الحق الشخصي أنفع للجماعة الإسلامية من نجاة أخيه، فإن الحق يكون في جانبه أقوى وأرجح من وجهين:

الأول: حق نفسه عليه.

الثاني: حق الجماعة المسلمة عليه.

وظاهر أن حقين يتواطآن على موضوع واحد أقوى من حق واحد، وقد يصل إلى منع الإيثار في مثل هذه الحالة.

أما إذا كان بقاء أخيه ونجاته أنفع للإسلام والمسلمين من بقائه هو ونجاته، فإن الأمر ينعكس عندئذ، فيقوى جانب الإيثار، وقد يصل إلى درجة وجوب التضحية بالنفس، محافظة على ما هو أرجح من حق نفسه عليه، وذلك لأن حق أخيه وحق الجماعة الإسلامية، وحق الله في تأييد الدين، أقوى بكثير من حق نفسه عليه. وعند التعارض ينبغي التضحية بالحق الأقل، رعاية للحق الأكثر، وفي مثل هذه الحالة تقل قيمة حق نفس الإنسان عليه، بالنظر إلى

الحقوق الأخرى المعارضة له، إلى حد أن يكون هذا الحق كالأمر الملغى، لأنه لم يمكن التوفيق.

وبهذا نلاحظ كيف يكون الحكم الأخلاقي تابعاً لقيمة موجبه من حق أو خير أو جمال في القضية الأخلاقية، وكيف أن هذه القيمة قد تكون عرضة للارتفاع والانخفاض تبعاً لحساب تعارض الحقوق، أو تعارض المصالح والمنافع التي هي من قبيل الخير أو الجمال.

ولكن تحليل نسبة وجود مقتضيات الحكم الأخلاقي في كل قضية أخلاقية يحتاج إلى نظر دقيق، وبحث عميق، وقد تشتبه الأمور، ويختلط بعضها في بعض، فلا يعلم حقيقتها إلا قليل من الناس، والله تبارك وتعالى قد كفانا بالإسلام المهمة، فأنزل لنا الأحكام الأخلاقية جاهزة، مستوفية كل ما تحتاج إليه من بصر ونظر، وموافقة لما هي عليه في واقع الحال، إلا أنه لم ينص لنا على فروق كبيرة في أحكام الأخلاق، غير ما يقع في المراتب التي أوضحناها في مراتب أحكام الأخلاق، تيسيراً على الناس وتبسيطاً على الأفهام.

فالحكم الأخلاقي على اختلاف درجاته معادل لما في القضية الأخلاقية من نسبة الحق والخير والجمال فيها إيجاباً أو سلباً.

ونسبة الثواب أو العقاب عند الله ملائمة لدرجة الحكم الإسلامي في العمل الأخلاقي، وملائمة لوزن العمل من الناحيتين الكمية والكيفية، ولمقدار مغالبة النفس فيه.

والسلوك الأخلاقي المطلوب فيه القيام بعمل ما، منه ما هو واجب شديد الوجوب، ومنه ما هو دون ذلك، حتى أول درجة المباح، وتتفاوت المحرمات وما دونها قوة وضعفاً تفاوتاً ظاهراً.

والسلوك الأخلاقي المطلوب فيه الكف عن عمل ما، منه ما هو محظور شديد الحظر، ومنه ما هو دون ذلك حتى أول درجة المباح، وتتفاوت المحرمات وما دونها تفاوتاً ظاهراً.

وعند مستوى درجة المباح يأتي حق الحرية المطلقة للإرادة الشخصية في أن تختار ما تشاء.

ونظراً إلى التفاوت بين الواجبات وبين ما دونها، وبين المحرمات وبين ما دونها، وجدنا في أحكام الشريعة الإسلامية أن من الواجبات ما تركه كفر، ومنها ما تركه كبيرة، ومنها ما تركه صغيرة، وأن ما دون الواجبات منها ما فعله سنة مؤكدة، ومنها ما فعله سنة غير مؤكدة، ومنها ما هو مستحب. ونظير ذلك نلاحظ في المحرمات وفيما دون المحرمات، على أن التفاوت لا تحده مصطلحات لفظية، فهو أكثر من ذلك في واقع الحال.

وكلٌّ من السلوك الأخلاقي ــ سواءٌ أكان فعلاً أو تركاً ــ حق مسلط على إرادة الإنسان بنسب متفاوتة، فإذا وصلنا إلى درجة المباح جاء حق حرية الإرادة المطلقة في أن تختار ما تشاء، وهذا الحق حينئذ مسلط على الآخرين، إذ يطلب منهم عندئذ أن يحترموه، فيمنحوا الفرد حقه هذا، دون معارضة ولا حجز للحرية.

* * *

مصدر اكتساب الحق:

أما مانح هذه الحقوق فهو الله الخالق تبارك وتعالى، وقد جعل الله في فطر الناس الوجدانية وفي فطرهم الفكرية ما يدركون به هذه الحقوق، إذا كانت هذه الفطر في الأفراد سليمة من العوارض والأمراض، وسليمة مما يغشي عليها.

وتبياناً لهذه الحقوق أنزل الله في شريعته للناس الأحكام الكفيلة بضمانها، وذلك بما بين في النصوص، وبما وضع معها من دلائل وأمارات. وهذه رحمة من الله بعباده حتى لا يضلوا ولا يختلفوا، وعن طريق الشرائع الربانية تصحح أخطاء الأفكار إذا هي أخطأت، وتصحح أخطاء الضمائر إذا اختلط عليها الأمر.

* * *

أنواع أصحاب الحقوق:

إذا كان السلوك الأخلاقي حقاً مسلطاً على إرادة الإنسان بصفة إلزامية أو ترغيبية استحسانية، وكان هذا الحق منحة من الله لصاحب الحق، فإن

صاحب الحق إما أن يكون شيئاً داخلاً في كيان الإنسان، وعندئذ يكون حق ذاته عليه، أي يكون حق ما تحت سلطة إرادته على إرادته نفسها، وإما أن يكون شيئاً خارجاً عن كيان الإنسان، وعندئذ يكون حق غيره عليه وفي هذه الحالة: إما أن يكون حق الله المطلق، وإما أن يكون حق أفراد من الناس عليه، وإما أن يكون حق الجماعة الإنسانية، وإما أن يكون حق غير أولئك من الشركاء في الحياة ذوي الحقوق على الإنسان.

وأما حق الإرادة في أن تختار ما تشاء ــ وهذا الحق هو أيضاً منحة من الله للإرادة ــ فيظهر بشكل مطلق في مجال المباحات، ويظهر بشكل مقيد في مجال ما دون الواجب وما دون المحظور، فلها الخيرة في أن تختار الناقص فيها على الكامل، إلا أنها تحرم نفسها من خير كثير في هذا الاختيار، وحق الإرادة ينبغي أن يحترم من قبل الآخرين.

على أن حرية الإرادة لا تلغى في مجالي الواجبات والمحظورات، إلا أنها تكون ملزمة بتكليف، ومسؤولة عن مخالفته، والمسؤولية تستتبع الجزاء من قبل جهة التكليف.

ــ ٣ ــ

الحسّ الأخلاقي أو الضمير الأخلاقي

لقد أودع الخالق العظيم في مدارك الأفكار وفي مشاعر الوجدان الفطرية ما تدرك به فضائل الأخلاق ورذائلها، ونستطيع أن نسمي ذلك «الحس الأخلاقي».

وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح العمل القبيح وينفرون منه، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون إليه، وبذلك يمدحون فاعل الخير، ويذمون فاعل الشر.

وقد أرشدت النصوص الإسلامية إلى وجود هذا الحس الأخلاقي في

الضمائر الإنسانية، وأحالت المسلم المؤمن إلى استفتاء قلبه في حكم السلوك الذي قد تميل نفسه إلى ممارسته.

ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

زكّاها: نمّاها وارتقىٰ بها. وعكسُ ذلك **دسَّاها**: أي دَفَنَها وهبطَ بها.

فالنفس الإنسانية منذ تكوينها وتسويتها ألهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها وطريق تقواها، وهذا هو الحس الفطري الذي تدرك به الخير والشر، ولذلك كان على الإنسان أن يزكي نفسه ويطهرها من الإثم حتى يظفر بالفلاح وإلا خاب سعيه.

ويقول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

فالإنسان لديه بصيرة يستطيع أن يحاسب بها نفسه محاسبة أخلاقية، على أعماله ومقاصده منها، ولو حاول في الجدل اللساني الدفاع عن نفسه وإلقاء معاذيره.

ويقول الله تعالى في سورة (البلد ٩٠):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾.

لبداً: أي كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض.

فالإنسان كما لديه أدوات الحس الظاهر، لديه حس باطن يدرك به طريقي الخير والشر، وهما النجدان الممتدان في أرض حياته الدنيا، يختار منهما

لسلوكه ما يشاء، وعليه بعد ذلك أن يتحمل نتائج عمله، ونتائج اختياره.

وهذا الحس الباطن يشمل ما تدركه الأفكار السليمة بموازينها التي فطرها الله عليها، ويشمل ما تحس به الضمائر بمشاعرها الوجدانية التي فطرها الله عليها، ومن ذلك يتكون في الإنسان حسه الأخلاقي.

وروى الإمام مسلم عن النواس بن سمعان، عن النبـي صلى الله عليه وسلم قال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

فهذا الحديث يدل على أن في النفس الإنسانية حساً خلقياً بالإثم، ولذلك يكره فاعل الإثم أن يطلع عليه الناس، لأنه يعلم أنهم يشعرون بمثل ما يشعر، وذلك بحس أخلاقي موجود في أعماق نفوسهم، وهـذا الحس الأخلاقي هو ما اكتشفه الباحثون الأخلاقيون من الفلاسفة، وأسموه (الضمير).

وروى الإمام أحمد والدارمي بإسناد حسن عن وابصة بن معبد قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «جئت تسأل عن البر؟» قلت: نعم. فقال: «استفتِ قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

ففي هذا الحديث تبيان واضح للحس الأخلاقي، ولا مانع من أن نسميه الضمير الأخلاقي، وهذا الضمير إذا كان نقياً سليماً من العلل والأمراض، فإنه يستطيع أن يحس بفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك، وأن يحس برذائل الأخلاق ومساوىء السلوك، وأن يميز بين الصنفين، وقد جمع الرسول صلوات الله عليه فضائل الأخلاق تحت عنوان (البر) وجمع رذائل الأخلاق تحت عنوان (الإثم).

وفي هذا الحديث أيضاً إشارة إلى مواقع الحس الأخلاقي داخل النفس الإنسانية وهو ما قد يطلق عليه اسم الضمير، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في الحديث: «البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب». وهذا يدل على أن في النفس الإنسانية قدرة على الإحساس بالبر، أو حاسة خاصة تحس به، ومثل ذلك يوجد في القلب أيضاً، بل القلب أحرى بمثل هذه

الحاسة وأجدر بها، فالضمير أو الحس الأخلاقي موجود في النفس وموجود في القلب، أو آثاره تظهر فيهما.

وقد نتساءل: هل يوجد انفصال بين النفس والقلب؟.

ونجيب بأنه قد يكون الجهاز العام واحداً غير أن منافذ الإحساس متعددة، ولكل منها خصائصه: فالنفس يغلب عليها أنها مجمع الغرائز والأهواء والشهوات والمخاوف والمطامع، والقلب مجمع التفكير والعواطف الثابتة. وفي الباب الثاني من هذا الكتاب تفصيل المفاهيم الإسلامية المتعلقة بالنفس والقلب والصدر وغيرها.

وعلى الرغم من أنّ النفس هي مجمع الغرائز والأهواء والشهوات والمخاوف والمطامع، فإنها تستحسن محاسن الأخلاق، وتستقبح مساويها، وهي بطبيعتها تميل إلى أن تعامل من قبل الآخرين بالخلق الحسن، وتنفر من أن تُعامل بالخلق القبيح، فلديها إحساس بهما، إذا كانت نفساً سليمة من العلل، بريئة من الأمراض، سواء أكانت هذه أصيلة فيها أو طارئة عليها، وأما القلب الذي هو مركز التفكير مع العواطف أو مجمعهما أو آثارهما تتجمع فيه، فمن الطبيعي فيه أن يكون لديه هذا الإحساس، لأن عمدته الفكر السليم والفطرة الصافية، وحين نرجع إلى ضمائرنا نشعر بذلك.

فالبرّ المفسّر في كلام الرسول بأنه حسن الخلق يفعله الإنسان السوي وهو مطمئن القلب، ومطمئن النفس، أمّا الإثم فإنَّ الإنسان السويّ لا يقدم عليه إلّا وفي نفسه قلق منه، وفي صدره تردّد واضطراب.

والطمأنينة في النفس والقلب علامة على أنّ العمل هو من أعمال البرّ، والتردّد والاضطراب فيهما وخوف اطلاع الناس على العمل أو على الغرض منه علامة على أنه من أعمال الإثم.

ولكن قد يختلط الأمر في بعض الأعمال على العقل والضمير، ويلتبس عليهما وجه الحق، فيكونان حينئذٍ بحاجة إلى هداية وتبصير، وقد تطغى عليهما الأهواء والشهوات أو العادات والتقاليد، أو يؤثر عليهما القادة المضلّون،

أو الشياطين الموسوسون من الجنّ والإنس. وفي هاتين الحالتين تقف الشريعة الربّانية فيها هداية وتبصير، فتدلّ بنصوصها أو بأماراتها على نوع الحكم الأخلاقي وعلى درجته.

وسبب اختلاط الأمر والتباسه على الحسّ الأخلاقي في الإنسان، قد يكون راجعاً إلى اشتباه القضية الأخلاقية، وغموض مدرك الحكم فيها، وعدم ظهور وجه الحقّ والخير.

وطريقة المسلم في هذه الحالة هي اتقاء الشبهات، فإذا كان اتقاء الشبهات في جانب الترك ـ لأن الأمر مشتبه بين الحلال والحرام ـ كان الأفضل والخير للمسلم أن يترك العمل المشتبه فيه، خشية الوقوع في الحرام، وإذا كان اتقاء الشبهات في جانب الفعل ـ لأن الأمر مشتبه بين الحلال والواجب ـ كان الأفضل والخير للمسلم أن يأتي بالعمل المشتبه فيه، خشية الوقوع في ترك الواجب، أي خشية الوقوع في الحرام، لأن ترك الواجب حرام.

والدليل على هذه الطريقة التي ينبغي للمسلم أن يتبعها، ما رواه البخاري ومسلم من عدة طرق، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الحلال بيّن، وإنّ الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات، لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإنّ لكلّ ملكٍ حمىً، ألا وإنّ حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب».

فهذا الحديث يحدّد ويصور بمنتهى الروعة والدقة واقع حال إدراك الناس للخير والشر، والحقّ والباطل، فمن ذلك ما هو واضح لا غموض فيه، ومنه ما هو مشتبه يخفى واقع حاله على كثير من الناس، وهنا يقع الخلاف، ويقع الالتباس، والأفضل للمسلم دائماً اتقاء الشبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه عند الله، واستبرأ لعرضه عند الناس، وسيأتي شرح موسّع لهذا الحديث إن شاء الله.

ويدلّ عليه أيضاً ما رواه الترمذي عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«دَعْ ما يَريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الصدق طمأنينة والكذب ريبة»: قال الترمذي: حديث صحيح.

أي دع ما يحدث في قلبك الاضطراب والقلق والشكّ بسوء العاقبة والوقوع في الشرّ والإثم، إلى ما لا يحدث في قلبك شيئاً من ذلك، بل يحدث في قلبك الطمأنينة والراحة والأمن.

ثمّ مثل الرسول صلى الله عليه وسلم لما يحدث الطمأنينة بالصدق، ومثّل لما يحدث الريبة بالكذب، فالكاذب مرتاب قلق، والصادق مطمئنّ النفس آمن.

وفي هذا إشارة إلى أن التزام الفضيلة الخلقية ممّا يورث في النفس سعادة الطمأنينة، بخلاف القلق الذي ينشأ عن الريبة فهو عذاب للنفس، وألم ممضّ مقضٌّ للمضاجع.

وظاهر في هذا الحديث التنبيه على الحسّ الأخلاقي الموجود في ضمير الإنسان، وهذا الحسّ الأخلاقي يتمثل في بعض أحواله بالشكّ والتردّد، وحينما يوجد هذا الريب المقلق للنفس فالحكمة تقضي بالبعد عمّا يحدث الريب، والأخذ في الطريق الذي لا ريب فيه، ما دام يوجد أمام الإنسان طريق فيه طمأنينة وراحة للنفس وأمن.

ولّما كان الإنسان مزوداً في فطرته بحسّ أخلاقي كافٍ لإدراك الخير والشرّ والحقّ والباطل، كان قادراً على أن يحاسب نفسه على عمله حساباً دقيقاً، ولذلك يقال له يوم القيامة عند تسليمه كتاب عمله الذي عمله في الحياة الدنيا:

﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾.

فيحال على محكمة الضمير ليعرف بنفسه ما له وما عليه؛ قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

طائره: أي عمله الذي يصدر عنه وينطلق فلا يستطاع إرجاعه.

ثمّ تجري محاسبته بعد ذلك ليرى أنّ محكمة العدل الربّانية محكمة لا تظلم أحداً.

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحسّ الأخلاقي الموجود في قلب كل مسلم بالحديث الذي رواه رزين والآجريّ والحاكم ــ وقال صحيح على شرط مسلم ــ عن ابن مسعود، ورواه أحمد والترمذي والنسائي عن النواس بن سمعان، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاة، وعند رأس الصراط داعٍ يقول: استقيموا على الصراط ولا تعوجّوا، وفوق ذلك داعٍ يدعو كلّما همّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنّك إن تفتحه تَلِجْهُ».

ثمّ فسّره فأخبر: «أنّ الصراط هو الإسلام، وأنّ الأبواب المفتحة محارم الله، وأنّ الستور المرخاة حدود الله، وأنّ الداعي على رأس الصراط هو القرآن، وأنّ الداعي من فوقه واعظ الله في قلب كلّ مؤمن».

فهذا الوعظ الذي في قلب كلّ مؤمن هو الحسّ الأخلاقي.

* * *

تربية الضمير الأخلاقي:

يخضع الضمير الأخلاقي الفطري لأصول التربية وقواعدها، إذ هو قابل للتنمية بممارسة عواطف الخير، وبدراسة كمال فضائل الأخلاق، وما تعطيه من ثمرات فردية واجتماعية ــ عاجلة وآجلة ــ وبمواعظ الهداية الدينية والنصائح والوصايا الربّانية، وبوسائل الترغيب والترهيب، والقدوة الحسنة، وقصص البطولات الأخلاقية، وغير ذلك من وسائل تربوية.

وخير ضابط له، وأفضل قائد وموجّه، التزام طاعة الله، وخير صيانة له صيانته لتقوى الله وخوف عقابه ورجاء ثوابه.

وإهمال تربية الضمير الأخلاقي ممّا يضعفه، ويجعله يضمر ويتناقص حتى يفقد الحسّ النبيل، ثم يموت. وقد يفسد ويتحول بوسائل التربية المفسدة، حتى يكون جندياً من جنود شيطان الإنسان، ومؤازراً له في وساوسه ونزغاته.

* * *

قواعد لهداية البصيرة الأخلاقية:

إضافة إلى الأسس العامة الموجودة في فطرة النفس الإنسانية فكراً وإحساساً داخلياً ووجداناً، والتي عبّر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «الحلال بيّن والحرام بيّن» توجد قواعد هادية للبصيرة الأخلاقية، نبّه عليها الرسول صلى الله عليه وسلم، منها ما يلي:

القاعدة الأولى: حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره.

القاعدة الثانية: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به.

القاعدة الثالثة: فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه.

(أ) فالقاعدة الأولى جاءت فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره».

وفي رواية لمسلم:

«حُفَّت النار بالشهوات، وحفّت الجنة بالمكاره».

وقد اشتمل هذا البيان النبوي على قاعدة أساسية مرشدة للبصيرة الأخلاقية لدى الإنسان، فإذا عُـمِّي أمر السلوك الأخلاقي على هذه البصيرة، هل هو إلى جانب الخير أو إلى جانب الشرّ، استطاعت هذه القاعدة أن تساعد على معرفة الحقيقة. فإذا كان السلوك من الشهوات التي تلذّها الأنفس، كان ذلك مرجّحاً لجانب المنع على جانب الإباحة لأنّ النار حفّت بالشهوات.

وإذا كان السلوك من الأمور الثقيلة على الأنفس والمكروهة لها، لأنه يخالف هوى من أهوائها أو شهوة من شهواتها، كان ذلك مرجّحاً لجانب الخير، لأنّ الجنة حفّت بالمكاره.

وقلّما يفعل الإنسان الفضيلة حتى يقتحم عقبة من عقبات نفسه، وهذا ما أشار إليه القرآن في وصف الإنسان، بقول الله تعالى في سورة (البلد ٩٠):

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾.

مسغبة: مجاعة. مقربة: قرابة. متربة: فقر ملصق بالتراب.

وعقبات النفس كثيرة، منها عقبة الشحّ التي تمنع الإنسان عن البذل، واقتحامها يكون بمغالبة النفس، وإلزامها بالبذل في سبيل الله، كالبذل في عتق الرقاب، وإطعام الأيتام والمساكين في الأيام التي تكون الحاجة فيها شديدة إلى الطعام. ومنها عقبة المكاره أو المصائب أو المؤلمات، وعقبة الجهاد في سبيل الله، وعقبة ترك المحرمات، وعقبة القيام بالواجبات، واقتحام هذه العقبات إنما يكون بالصبر وسعة الصدر وقوة الإرادة. ومنها عقبة الأنانية المفرطة، واقتحامها يكون بمغالبة النفس وتغذيتها بمشاعر المرحمة.

وكلّ ذلك من قبيل المكاره التي تتحملها النفوس على غير هواها، وعلى غير ما تشتهي، وتحمُّلها من مكارم الأخلاق يتحلّى بها الإنسان. على أنّ الحدّ الفاصل بين الخير والشرّ قد يكون في بعض الأحوال دقيقاً جدّاً، فإمّا أن ينحرف الإنسان فيكون من أهل النار، وإمّا أن يستقيم فيكون من أهل الجنة.

وانزلاق الإنسان إلى مواقع النار قد يكون بخطوة واحدة، وارتقاء الإنسان إلى مراتب الجنة قد يكون بخطوة واحدة. روى البخاري عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراكِ نعله، والنار مثل ذلك».

(ب) وأمّاة القاعدة الثانية، وهي: عامل الناس بما تحبّ أن يعاملوك به، فقد جاء معناها في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث طويل رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

«فمن أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحبّ أن يُـؤتَى إليه»(١).

وهذه القاعدة تشتمل على ميزان دقيق يهدي البصيرة الأخلاقية إلى فضائل السلوك الأخلاقي، كلّما اشتبه على الإنسان أمر السلوك، وفي تطبيق هذه القاعدة ينبغي للإنسان أن يضع نفسه في مكان الآخرين، ويفترض أنّ الأمر كان معكوساً، فالأمر الذي يستحسنه لنفسه من الآخرين مـمّا لا معصية لله فيه، هو الأمر الذي تدعو إليه الفضيلة الخلقية، أو يدعو إليه السلوك الأحسن في معاملة الناس.

وعلى المؤمن بناءً على هذا أن يحبّ لأخيه المؤمن ما يحبّ لنفسه، وهذا ما جاء بيانه في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

روى البخاري ومسلم عن أنس أنّ النبـيّ صلى الله عليه وسلم قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه».

يشتمل هذا الحديث على قاعدة تصلح لأن تكون من كبريات القواعد الهادية للبصيرة الخلقية، فلدى التأمّل يتبينّ لنا أنّ معظم الأخلاق الاجتماعية الكريمة تعتمد على هذه القاعدة، وهي أن يحبّ المرء لأخيه ما يحبّ لنفسه، ومن لاحظ هذه القاعدة والتزم مضمونها في سلوكه الاجتماعي استقام سلوكه، وكان سلوكاً أخلاقياً رفيعاً.

إنّ من يعامل الناس على أساس أن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه تماماً فإنه

---

(١) أول الحديث: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلاً. وأول كلام الرسول فيه: إنّه لم يكن نبـي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم. انظر: رياض الصالحين، رقم الحديث ٦٦٦.

سيعاملهم حتماً بكل خلق رفيع، لأن هذا هو ما يحبّ أن يعامله الناس به إذ يحبّه لنفسه، وحين يحبّ الإنسان لغيره ما يحبّ لنفسه يعامله كأنه يعامل نفساً ثانية له. ومن هنا تنبع معظم فضائل الأخلاق الاجتماعية، ومن هنا يندفع المسلم إلى أن يكون صادقاً مع أخيه، لأنه يحبّ أن يصدقه الناس ويكره أن يكذبوه. ويندفع إلى أن يكون أميناً على مال أخيه وعرضه وشرفه، لأنه يحب أن يعامله الناس بأمانة على ماله وعرضه وشرفه، ويكره أن يخونوه في شيء من ذلك. ويندفع إلى مساعدة أخيه ومعاونته في مال، أو علم، أو جاه، أو خدمة جسدية، أو نصيحة طيبة، أو دعوة صالحة، أو شفاعة حسنة، لأنه يحب لنفسه مثل ذلك من إخوانه، ويكره منهم أن يضنّوا عليه بمعونة أو مساعدة في شيء من ذلك. ويندفع إلى دعوة أخيه إلى الإيمان الصادق والعمل الصالح، لأنه قد أحبّ لنفسه هذا فهو يحبّ لأخيه ما أحبّ لنفسه.

ومن هنا يجد المسلم نفسه مدفوعاً إلى الصبر على أخيه المسلم كلّما دعت ظروف التعامل إلى الصبر، لأنه يحبّ من الناس أن يصبروا عليه، كلّما بدر منه ما لا يقبله الناس منه إلاّ بصبر. ويجد المسلم نفسه مدفوعاً إلى العفو والصفح والمسامحة والإغضاء عن الهفوات والسيئات، كلّما وجد من إخوانه ما يسوؤه من تصرفاتهم معه، لأنه يحبّ من الناس أن يعاملوه بالصفح والعفو والمسامحة والإغضاء عن الهفوات والسيئات، كلّما بدر منه من تصرفات تسوء إخوانه. ويجد نفسه مدفوعاً إلى ستر عيوب إخوانه وعدم نشرها بين الناس وعدم فضيحتهم بها، فهو إذن يكفّ عن غيبتهم، والحديث عنهم بما يكرهون، ويحاول جاهداً ستر عيوبهم، ويحرص على أن ينصحهم سراً ما وجد إلى ذلك سبيلاً، لا أن ينصحهم علناً بين الناس، كاشفاً عيوبهم، لأنّ ذلك فضيحة لا نصيحة، وهو يعاملهم بهذا لأنه يحبّ لنفسه من إخوانه مثل ذلك. ويكره منهم أن ينشروا معايبه، ويغتابوه بما يكره، وهو يكره أيضاً منهم أن يوجّهوا له نصائح علنية بترك بعض العيوب التي فيه، لأنّه يرى ذلك فضيحة له، وهو يكره الفضيحة.

وهكذا نلاحظ بالتتبع تدفّق كثير من الفضائل الخلقية الاجتماعية من منبع هذه القاعدة الخلقية: أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.

ففي هذا الحديث تأصيل لقاعدة عظيمة من قواعد التربية الخلقية، والهادية للبصيرة الأخلاقية إلى كثير من فضائل الأخلاق.

وربط الحديث هذه القاعدة بالإيمان، لأنّ الإيمان هو المنبع الأساسي الأمثل لكل فضيلة في السلوك، سواء أكان سلوكاً يدخل في باب الأخلاق، أو في باب الآداب، أو في أي باب آخر من أبواب السلوك، وسواء أكان سلوكاً فردياً أو سلوكاً اجتماعياً.

الإيمان الصحيح الكامل طاقة عظيمة مقوّمة لسلوك الإنسان، ومن أجل ذلك اهتم الإسلام في الدرجة الأولى بغرس الإيمان في قلوب المسلمين، وجعله الأساس الأول الذي تبنى عليه كلّ التعاليم الإسلامية، وربط به كلّ الفضائل.

وفي ربط كل سلوك المسلم بالقاعدة الإيمانية توحيد للمنطلق النفسي وللمنطلق الفكري في كيان الإنسان، وفي هذا بُعْدٌ عن التعقيد، ولجوء إلى البساطة الفطرية، التي تناسب واقع حال الإنسان، ومع هذه البساطة الفطرية التي لا تعقيد فيها تتجلّى الحقيقة بكلّ إشراقها ونقائها، وبكلّ نورها وصفائها.

وماذا يطلب الباحث الحصيف غير الحقيقة البسيطة المنسجمة مع أفضل ما يُصلح الإنسان كلَّ الإنسان فكراً ونفساً وقلباً وسلوكاً؟.

وهذا ما يسعى للوصول إليه كلّ المخلصين من العلماء والباحثين الإنسانيين، من الفلاسفة، وعلماء الأخلاق، وعلماء الاجتماع، ولكن يصل إليه من يهتدي بهدي الإسلام، أو يسترشد بنور الفكر المشرق بنور الله، ويضلّ عنه من يخوض في متاهات الأهواء، ويتبع خطوات الشياطين، وينخدع بفلسفات المضلين.

الإيمان هو أعظم جوهرة في الوجود تنزّلت من السماء، فتلقّفتها قلوب المؤمنين، فاحتفظت بها كنزاً ثميناً، فأشرقت في حياتهم عملاً صالحاً، وخلقاً كريماً.

والإيمان أعظم عنصر مسعد في حياة الإنسان، لا يعرف قيمته إلاّ من ذاق

حلاوته، وللإيمان حلاوة عجيبة يذوقها المؤمنون حينما يعملون أعمالاً يقتضيها الإيمان، وحينما يستجيبون لندائه في عمل من أعماله، أو ظاهرة من ظواهره، يعرف هذا من جرّبه، ويجهله من جهله.

(ج) وأمّا القاعدة الثالثة، وهي: «فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه».

فقد سبق بيانها، وفيما يلي شرح الحديث المشتمل عليها شرحاً موسعاً.

قاعدة السلوك الديني والأخلاقي بالنسبة إلى المشتبهات:

روى البخاري ومسلم من عدّة طرق عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إنّ الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإنّ لكلّ ملكٍ حمىً، ألا وإنّ حِمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب».

هذا الحديث من الأحاديث الأصول الجوامع، وفيه كليات عظيمة تتصل بأمهاتٍ سلوكية وأخلاقية أوصى بها الإسلام.

وهو يشتمل على قاعدة التقسيم الثلاثي للأحكام الدينية والأخلاقية:

القسم الأول: قسم الحلال، والحلال الصرف الذي لم تخالطه شبهة بيّن واضح، لا يختلف فيه الناس، ولا تتأثم منه النفوس ولا تتحرج، وكل إنسان يأتيه وهو مرتاح الضمير مطمئن الفؤاد، لا يخشى أن يطلع عليه الناس وهو ملتبس به.

ومجالات الحلال في الحياة كثيرة، والنفوس بفطرتها تعرفها وتحس بها، ويهديها إليها الحس الأخلاقي الذي أودعه الخالق العظيم في فطر النفوس.

وهذا القسم هو مادل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: «إنّ الحلال بيّن».

القسم الثاني: قسم الحرام، والحرام الصرف هو أيضاً بيّن واضح، لا يختلف فيه عقلاء الناس ومفكروهم وأصحاء البصيرة الأخلاقية منهم، ولا يفعله الفاعل منهم إلاّ وفي نفسه من فعله حرجٌ وشعورٌ بالإثم، وكل سليم البصيرة يأتيه إذا أتاه وهو يشعر بوخز في الضمير، وقلق في الفؤاد، وخوف من سوء المصير ومن سوء العقاب بالعدل.

ومجالات الحرام في الحياة كثيرة، والنفوس بفطرتها تعرفها وتحسّ بها، ويهديها إليها الحس الأخلاقي الذي أودعه الله الخالق العظيم في فطر النفوس.

وهذا القسم هو ما دل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: «وإنّ الحرام بيّن».

القسم الثالث: هو ما بين الحلال والحرام، وتدخل هنا أمور مشتبهات الأحكام، لها شبه من الحلال ولها شبه من الحرام. وهذه الأمور تختلط على كثير من الناس فلا يميزون أحكامها، ولا يعلمون وجوه حلالها من وجوه حرامها، لاختلاط العناصر فيها اختلاطاً يصعب معه التميز فيها بينها عند كثير من الناس؛ وهذه قد سماها الرسول صلى الله عليه وسلم مشتبهات، هكذا بصيغة الجمع لا بصيغة الإفراد، إشارة إلى أن هذا الوسط يقع في درجات، فمشتبه من الدرجة الدنيا القريبة من الحلال البيّن، ومشتبه من الدرجة العليا القريبة من الحرام البيّن، ومتوسطات بين هاتين الدرجتين.

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطي قاعدة السلوك بالنسبة إلى هذه المشتبهات وهي البعد عن كل ما فيه شبهة.

والشبهة في الأمر هو الالتباس فيه، من جراء اختلاط عناصر مختلفة الأصول اختلاطاً متداخلاً من غير تمييز، والأمر المختلط العناصر المتباينة يعطي شبهاً من كل منها، فتارة يراه الناظر إليه مشبهاً أحد المتباينين، وأخرى يراه مشبهاً الآخر، فيلتبس عليه الأمر، هل يُلْحقه بهذا أو بهذا.

ومن أجل هذا يقال لغة: أمور مشتبهة، أي مشكلة يشبه بعضها بعضاً. والأسلم للإنسان أن يترك ما اشتبه عليه ويعمل ما لا شبهة فيه، وهذا ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» أي طلب البُرء والسلامة من الإثم لدينه، ومن العيب لعرضه.

والمشتبهات أمور مشكوك في حلها مرتاب في حرمتها، والأسلم الأبرأ للإنسان أن يتركها ولا يأتيها، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» رواه الترمذي عن الحسن بن علي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وعن عطية بن عروة السعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس».

رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وما دام الأمر متموجاً بين الحلال والحرام غير بيّن الوجه، فإنّ الواقع فيه مجازف بنفسه، واقع في الحرام لا محالة، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: أن يكون في الأمر عناصر محرمة قطعاً، فهو يقع فيها مع خليط الحلال، وترك الحلال من أجل المخالط الحرام هو الواجب للسلامة وبراءة الذمة من الإثم والنقيصة.

الوجه الثاني: أن تكون الشبهة آتية من مجاورة حدود الحرام مجاورة تُلقي ظلال الحرام على المباح، وحينما يقع الإنسان بالمباح المختلط بظلال الحرام يهون عليه القرب من الحرام والدخول في حدوده شيئاً فشيئاً، ثم اجتناء ثمرته الخبيثة، وهذا ما أوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث بقوله: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه».

وبعد أن وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدة السلوك الديني

والأخلاقي بالنسبة إلى المشتبهات قال: «ألا وإن لكل ملكٍ حمىً، ألا وإن حمى الله محارمه» الحمى: هو ما يُحْمى ويحفظ من أي داخل إليه.

وفي هذا كشف لخطورة مواقع الحرام، إن مواقع الحرام هي حمى الله، واقتحام حمى الله أمرٌ خطير، وليس باليسير.

إذا كان الناس يخشون حمى ملوكهم، ويحذرون اقتحام حدودها، لأن هؤلاء الملوك يملكون القدرة على العقاب والانتقام، فكيف بمن يقتحم حمى ملك الملوك الذي بيده ملكوت السماوات والأرض والقادر على كل شيء؟!. ألا وإن حمى الله محارمه.

أما الوسيلة الجذرية العميقة لتقويم السلوك وضبط النفس دون حدود حمى الله التي هي محارمه، فهي وسيلة إصلاح أعمق ما في الإنسان، ألا وهو قلبه، المضغة الصغيرة في الجسد التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، فالعناية كلها ينبغي أن تتوجه لإصلاح القلب. إنه نواة الإنسان، وبذرة شجرته كلها، والعناية بالظاهر دون القلب لا تغني، وكم من الناس مَنْ تشغلهم الظواهر ويهملون أمر القلوب.

فهذا الحديث من جوامع كلمِ الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أنه اقتصر على جناح الحرام، ولم يذكر جناح الواجب، وباستطاعتنا أن نقيس جناح الواجب على جناح الحرام، في كل ما جاء فيه، أو نُدْخل جناح الواجب في عموم جناح الحرام باعتبار أن الواجب حرام تركه، فنعمم الحرام ونجعله شاملاً لما هو حرام الفعل وحرام الترك.

وهذا من بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن إيجازه، ومن جوامع كلمِه.

— ٤ —

الغاية من التزام قواعد الأخلاق

لدى التأمل في النصوص الإسلامية والمفاهيم العامة المقتبسة منها: نلاحظ أن الغاية من التزام فضائل الأخلاق والابتعاد عن رذائلها تنقسم إلى عنصرين:

العنصر الأول:

اكتساب مرضاة الله تعالى الخالق الرازق المنعم المحيي المميت، الذي يجازي على الحسنة بأضعافها، ويجازي على السيئة بمثلها، فإنه سبحانه يحب فعل الخير، ويكره فعل الشر، ومن استطاع أن يرضي الله تعالى بعمله الصالح ظفر بمقدار عظيم من سعادة الحياة الدنيا في دار الابتلاء، وظفر بمقدار أجل وأعظم من سعادة الآخرة في دار الجزاء.

والتزام مكارم الأخلاق التي أمر بها الإسلام أو رغب بفعلها، واجتناب نقائص الأخلاق التي نهى عنها الإسلام أو رغب بتركها، من الأعمال الصالحات التي يظفر عاملوها بنسب من مرضاة الله تعالى ملائمة لمقادير أعمالهم ونياتهم، ولذلك يكون نصيبهم من سعادة القلب وسعادة الجزاء المعجّل في الحياة الدنيا؛ على مقدار ما حققوا بأعمالهم ونياتهم من مرضاة الله تعالى، ويكون نصيبهم المضاعف من السعادة العظمى في الآخرة ملائماً لما حققوه بأعمالهم ونياتهم من مرضاة الله جل وعلا.

وباكتساب مرضاة الله تعالى تتحقق النجاة من الشقاوة والتعاسة، التي يجلبها الإنسان لنفسه بإسخاط ربه، فيما يقوم به من أعمال سيئات.

وهذا الجزاء المسعد لا يظفر به إلا من ابتغى مرضاة الله فأخلص له النية فيما يقوم به من صالح العمل.

هذا العنصر يتلخص:

أولاً: بالظفر بسعادة معجلة دنيا، وسعادة مؤجلة أبدية خالدة، وهاتان السعادتان تأتيان جزاءً على أعمال صالحة ابتغي بها وجه الله تبارك وتعالى، وذلك لا يكون إلا مع الإيمان بالله.

ثانياً: بالنجاة من شقاوة يجلبها الإنسان لنفسه، بإسخاط ربه فيما يقوم به من أعمال سيئة، يخالف بها أوامر ربه ونواهيه.

العنصر الثاني:

تحقيق أقساط من السعادة المستطاعة التحقيق في ظروف الحياة الدنيا، وهي أنواع السعادة التي تمنحها سنن الله في كونه، الشاملة لجميع خلقه، من آمن به منهم ومن كفر به، والنجاة من أقساط من الشقاوة التي تجلبها الجرائم والجنايات وفق سنن الله في كونه، الشاملة لجميع خلقه، من آمن به منهم ومن كفر به.

والتزام قواعد الأخلاق الإسلامية كفيل بتحقيق أكبر نسبة من هذه السعادة للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، ثم لسائر الشركاء في الحياة على هذه الأرض وذلك بطريقة بارعة جداً يتم فيها التوفيق بالنسب المستطاعة بين حاجات ومطالب الفرد من جهة، وحاجات ومطالب الجماعة من جهة أخرى، ويتم فيها إعطاء كل ذي حق حقه، أو قسطاً من حقه وفق نسبة عادلة اقتضاها التوزيع العام المحفوف بالحق والعدل.

فمن الواضح في هذا العنصر أن أسس الأخلاق الإسلامية لم تهمل ابتغاء سعادة الفرد الذي يمارس فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها، ولم تهمل ابتغاء سعادة الجماعة التي تتعامل فيما بينها بفضائل الأخلاق مبتعدة عن رذائلها.

وروعة الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام، تظهر فيما اشتملت عليه من التوفيق العجيب بين المطالب المختلفة للفرد من جهة، وللجماعة من جهة أخرى، وتظهر فيما تحققه من وحدات السعادة الجزئية في ظروف الحياة الدنيا، بقدر ما تسمح به سنن الكون الدائمة الثابتة، التي تشمل جميع العاملين، مؤمنين بالله أو كافرين، أخلصوا له النية أو لم يخلصوا.

بخلاف العنصر الأول فإنه لا يتحقق إلا لمن آمن بالله وأخلص له في العمل.

عناصر السعادة:

وحين نتساءل عن العناصر التي يشعر الإنسان فيها بالسعادة نجد أن أهم هذه العناصر مشاعر اللذات، ومشاعر الخلو من الآلام.

ولذات الجسد وآلام الجسد أهون اللذات والآلام قيمة، ولكنها تدخل ضمن الوحدات الجزئية التي تمنح الإنسان قسطاً من السعادة، كرذاذ سريع الجفاف ولا يملأ ساحة النفس والقلب والروح.

وفوقها تأتي لذات النفس وآلامها، فهي أعمق وأشمل، ومدة بقائها أطول.

وفوقهما تأتي لذات الروح وآلامها، فهي أعمق منهما؛ وأشمل منهما، وأبقى منهما.

وقد تطغى لذة النفس على ألم الجسد فلا يشعر الإنسان بألم الجسد، وقد تطغى لذة الروح على ألم النفس فلا يشعر الإنسان بألم النفس.

فمغانم السعادة تأتي على مقدار قيمتها الحقيقية.

وقد تطغى آلام النفس على لذات الجسد، فلا تكون للذات الجسد أية قيمة، وقد تطغى آلام الروح على لذات النفس، فلا تكون للذات النفس أية قيمة، فمصائب التعاسة والشقاء تأتي على مقدار قيمتها الحقيقية أيضاً.

فأعلى أنواع السعادة ما يأتي عن طريق لذات الروح، وينبع من داخل كيان الإنسان. وأشد أنواع التعاسة والشقاء ما يأتي عن طريق آلام الروح، وينبع من داخل كيان الإنسان، ولا يأتيه من خارج عنه. ودون ما يأتي عن طريق الروح ما يأتي عن طريق النفس، ودونهما ما يأتي عن طريق الجسد.

وهذا الذي نبهت عليه النصوص الإسلامية، هو ما انتهى إليه معظم عقلاء الفلاسفة والأخلاقيين والمفكرين المنصفين.

ومما لا ريب فيه أن أنواع اللذات كلها قد تساهم مساهمة ما في اغتنام

أقساط من السعادة، ما لم تعارضها آلام أشد منها وأقوى وأدخل في أعماق الإنسان. كما أن أنواع الآلام كلها قد تساهم مساهمة ما في الإصابة بأقساط من التعاسة والشقاء، ما لم تعارضها لذات أشد منها وأقوى وأدخل في أعماق كيان الإنسان.

والإسلام لم يهمل أي نوع من أنواع اللذات والآلام، ولكنه قد أدخلها جميعاً في حسابه، ثم أقام قواعد التوفيق الأخلاقي على هذا الأساس.

وبالإضافة إلى ملاحظة اللذات والآلام لاغتنام أكبر قسط مستطاع من السعادة للفرد والمجتمع، أدخلت الأخلاق الإسلامية في حسابها ـ الذي أقامت عليه قواعد الأخلاق ـ المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، العاجل من كل ذاك والآجل للفرد وللجماعة، وأجرت بين المتعارضات منها موازنات وتوفيقات عجيبة، كفيلة بجلب أعظم نسبة مستطاعة من الخير، ودفع أكبر نسبة يستطاع دفعها من الشر، مع المحافظة على العدل بين ذوي الحقوق، ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا.

وفي الشريعة الإسلامية وفرة من النصوص المشيرة إلى السعادة بوصفها غاية منشودة، وإلى اللذة بوصفها أمراً قد توجد به أو معه السعادة.

ووفرة أيضاً من النصوص المشيرة إلى الشقاء الذي يدخل الحذر منه واتخاذ الوسائل لتفاديه ضمن الغاية المنشودة، ومن النصوص المشيرة إلى الألم بوصفه أمراً قد يوجد به أو معه الشقاء.

فمن هذه النصوص ما يلي:

(أ) يقول الله تبارك وتعالى في معرض الحديث عن يوم القيامة في سورة (هود ١١):

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني بيان للغاية العظمى التي ينشدها المؤمنون الذين يعملون الصالحات، ألا وهو نيل السعادة الخالدة والنجاة من الشقاء. وفيه أيضاً بيان أن الناس في النتيجة ينقسمون إلى فريقين:

١ ــ فريق شقي.

٢ ــ وفريق سعيد.

أما الفريق الشقي فهو الفريق الذي جحد وكفر وعمل عملاً سيئاً، استجابة لأهوائه وشهواته الأنانية، واتباعاً لخطوات الشيطان.

وأما الفريق السعيد فهو الفريق الذي آمن وأطاع واتقى وعمل عملاً صالحاً، استجابة لله وللرسول، وتلبية لدعوة الخير التي فيها حياة ناعمة سعيدة لمن استجاب لها.

(ب) ويقول الله تعالى في وصف الجنة في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

تُحْبرون: تتنعمون وتسعدون.

ففي هذا النص بيان لأنواع من اللذات المسعدة، ومنها لذات النظر، إذ قال تعالى: ﴿وتلذ الأعين﴾.

واللذة إحساس مسعد تشعر به النفس، وقد يكون طريقه إحدى الحواس الجسدية الظاهرة.

(ج) ويقول الله تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ففي هذا النص تنويه باللذة التي تأتي عن طريق الفم.

(د) واستعمل القرآن تعبيراً أعم وأشمل من لفظ اللذة، هو التعبير بكلمة النعيم، للدلالة على أنواع من السعادة.

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الانفطار ٨٢):

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الطور ٥٢):

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فاكهين: يتفكهون بأصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناكح وغير ذلك.

ومن أجل ذلك تكرر في القرآن تسمية الجنة بأنها جنة النعيم، وتسمية الجنات بأنها جنات النعيم، إشعاراً بأن النعيم فيها من العناصر المسعدة لأصحابها المنعمين فيها.

(هـ) ولكن في الجنة ما هو أكبر من نعيمها، مما يحقق لأهلها سعادة أعظم، ألا وهو رضوان من الله، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

فهذا الرضوان يمنح المؤمنين في الجنة سعادة أكبر من السعادة التي يمنحها النعيم وأنواع اللذات المادية والمعنوية المختلفة.

(و) وجاء التعبير عن الآلام المشقية لأهل الشقاء بعدة ألفاظ، منها الألم، ومنها العذاب، والآلام منها آلام حسية، ومنها آلام نفسية، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾.

وفي العذاب المعنوي يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

فالإهانة تتضمن عذاباً معنوياً شديد الألم، وربما يكون العذاب المعنوي أشد إيلاماً من العذاب المادي الحسي.

وبدهي أن أنواع العذاب متفاوتة، ولذلك قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وكذلك تتفاوت أنواع النعيم ودرجات اللذات.

وبهذا البيان يظهر لنا أن الغاية التي يرشد إليها الإسلام من التزام قواعد الأخلاق الإسلامية تقع في مركز القمة.

أما بحوث الباحثين الأخلاقيين المخلصين في البحث العلمي فإنها ـ ما لم تطابق ما جاء في الإسلام ـ تظل من دون القمة التي ارتقت إليها المفاهيم الإسلامية.

* * *

لمحة عن نظرات الفلاسفة والباحثين في علم الأخلاق:

بحث الفلاسفة القدماء، والفلاسفة المتوسطون، وفلاسفة المدنية الحديثة عن الغاية من التزام قواعد الأخلاق، فاتجه معظمهم إلى أن السعادة هي الغاية من التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها، ولكنهم جميعاً عدا أهل الإيمان لم يدركوا غير العنصر الدنيوي الذي تقتضيه سنن الكون الثابتة، وتقتضيه ـ بحسب نظرهم ـ طبيعة هذه الحياة، ولم يفتهم أن يلاحظوا أثر اللذات والخلو من الآلام في مشاعر السعادة، ولقد دارت جميع بحوثهم في هذا المدار.

ثم إن أكثرهم عقلاً وبصراً في الأمور قـرروا أن السعادة المنشودة لا تأتي من خارج النفس الإنسانية، كالمال والجاه والبنين والشهوات ومتع الجسد ونحو ذلك، ولكنها تأتي من داخل النفس الإنسانية، كلذات القناعة، والرضا، وتحصيل المعارف الكبرى، ولذات فعل الخير وإرضاء الضمير.

وسيطرت الماديات على بعضهم فرأوا أن السعادة إنما تجلبها اللذات المادية، فانطلقوا في المفاهيم الأخلاقية ضمن حدود اللذات المادية، فانحرفوا انحرافاً كبيراً، وكان من بين هؤلاء فريق لم يؤمن بأن للأخلاق غاية تقصد، فدعا إلى إطلاق العنان للأهواء والشهوات، ودعا إلى إنماء الأنانيات الفردية في هذا المجال، وعمل على تهديم الأبنية الأخلاقية السائدة في المجتمعات البشرية.

واستطاع أحسنهم بصراً أن يلاحظ الجماعة ولكن من خلال مشاعر السعادة التي يشعر بها الفرد، وتأتي هذه المشاعر عن طريق مشاعر الإيثار أو المشاركة الوجدانية المعارضة لمشاعر الأنانية، وعن طريق مشاعر الضمير الذي يحس بالخير والشر، وقرروا أن الإنسان يسعد عند شعوره بسعادة الآخرين، ويتألم لآلامهم، وهذا ما يدفعه إلى فعل الخير لأجل الآخرين، ومن هنا تتفجر منابع أخلاق كريمة كثيرة؛ أما سعادة الضمير بفعل الخير وترك الشر، فهي سعادة تتفجر منها فضائل خلقية كثيرة أيضاً.

فالفرد الإنساني في نظرهم يلتزم فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها لأنه يشعر بالسعادة الذاتية إذا هو فعل ذلك، وهذا أسمى ما انتهى عقلاؤهم إليه.

وأفرط بعضهم كالفيلسوف (كانْتْ) فرأى أنه يجب على الإنسان أن يفعل الخير للخير، دون أن يلاحظ شيئاً من الثواب على فعله، حتى ولا مشاعر السعادة الذاتية التي يشعر بها من يفعل الخير، ورأى أن الفضيلة الخلقية ينبغي أن تكون مجردة عن المصلحة الذاتية مطلقاً، وهذا خروج بالإنسانية عن الواقعية إلى أمور خيالية نظرية لا مثال لها في الواقع الإنساني، وإن وجد لها بعض الأمثلة في بعض الأحوال فذلك شذوذ عن الطبيعة الإنسانية العامة. والفضائل ليست لهذا الصنف وحده المتميز عن طبيعة الناس، وإنما هي لجميع الناس، والغرض منها سعادة البشرية بوجه عام، وإصلاح سلوك الناس كل الناس.

فأحسن ما وصل إليه الباحثون في علم الأخلاق، حول موضوع الغاية من التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها، هو ما ذكروه من الشعور بالسعادة الذاتية التي يحققها لنفسه الملتزم.

ولكن تبدو لنا في حدود هذا الرأي الناقص مشكلة إصلاح الذين لا يتحسسون بمشاعر السعادة الذاتية عند فعل الخير، ولا يتحسسون بالآلام الذاتية عند فعل الشر، وليس لديهم مشاركة وجدانية لغيرهم في سعادة أو ألم، لأنهم أنانيون مفرطون في أنانياتهم، وكيف يأمن المجتمع شرور هؤلاء، وكيف يظفر المجتمع بأخوّتهم الصحيحة وبالتعاون معهم، وهم في حدود مشاعرهم وأحاسيسهم الذاتية لم يعكروا صفو سعادتهم، وإنما فعلوا ما رأوا فيه سعادة أنفسهم؟!.

لقد قصّرت ههنا وكَبَتْ الفلسفة الإنسانية التي لم تسترشد بتعاليم السماء، ولم تهدها أنوار الإيمان بالله واليوم الآخر، فظهر نقصها وعجزها، إذ لم تستطع أن تأتي بما يضمن إصلاح النسبة العظمى من المجتمع البشري. كما يظهر أيضاً نقصها وعجزها في حدود سعادة الفرد نفسه، وذلك حينما تطغى عليه شهوة من الشهوات، أو يسيطر عليه هوىً من الأهواء، فيرى أن سعادته إنما تتحقق بأن ينال لذات شهوته أو هواه، فتجني عليه هذه اللذات المؤقتة جنايات كبرى، تدفع به إلى جحيم من التعاسة والشقاء والآلام الدائمة.

إن الإنسان وحده من دون إرشادات الوحي وتعاليم الدين الصحيح، لا يكفي لإدراك ما يشقيه ويشقي المجتمع الإنساني، ومن أجل ذلك كان بحاجة شديدة إلى دليل يدله، وعاصم يعصمه عن الانحراف والخطأ. وبحاجة شديدة أيضاً إلى زاجر يزجره، ويساعده على أهواء نفسه وشهواتها، ومرغب يرغبه بالخير، فيساعده بذلك على أهواء نفسه وشهواتها.

أما مشاعر الإيثار والمشاركة الوجدانية والضمير والسعادة الذاتية بفعل الخير، فهي مساعادت تساعد الإنسان على الالتزام بالخير والابتعاد عن الشر، والتقيد بالتعاليم التي أرشد الله إليها عباده، وهي من نعم الله على عبده، حتى يشعر بلذة فعل الخير إذا هو فعله، ويشعر بالنفور من فعل الشر إذا مالت نفسه وأهواؤه إلى فعله.

وتظل الفلسفة الإسلامية في مركز القمة.

ـ ٥ ـ

تفنيد مزاعم الماديين
الذين يقولـــون بنسبية الأخلاق

في خطة خبيثة لهدم أبنية الأخلاق، أخذ فريق من الماديين الملحدين ينشرون فكرة شيطانية، يزعمون فيها أن الأخلاق أمور اعتبارية نسبية لا ثبات لها، فهي تختلف من شعب إلى شعب، ومن أمة إلى أمة، ومن زمان إلى زمان. فبعض الأمور تعتبر منافية لمكارم الأخلاق عند شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، في حين أنها غير منافية لمكارم الأخلاق عند شعب آخر أو أمة أخرى، وبعض الأمور كانت في زمان مضى أموراً منافية لمكارم الأخلاق، ثم صارت بعد ذلك أموراً غير منافية لها؛ وهذا يدل على أن الأخلاق مفاهيم اعتبارية تتواضع عليها الأمم والشعوب، وليس لها ثبات في حقيقتها، وليس لمقاييسها ثبات.

وحين يتبصر الباحث في أقوال هؤلاء، يستطيع أن يكتشف عناصر المغالطات التي يلتجئون إليها، للتضليل بأفكارهم؛ وهذه المغالطات ترجع إلى مَدّ عنوان الأخلاق مدّاً يشمل التقاليد والعادات والآداب وبعض الأحكام

الدينية التي لا علاقة لها بموضوع الأخلاق من حيث ذاتها، ومفاهيم بعض الناس للأخلاق ولأسسها، مع أنها مفاهيم غير صحيحة، إلى غير ذلك من أمور ليست هي من الأخلاق أصلاً.

والغرض من ذلك استغلال أمثلة تخضع للتغير والتبدل من هذه الأمور؛ لنقض حقيقة ثبات الأخلاق بها، ثم لنقض الأخلاق نقضاً كلياً، ونقض الأسس الأخلاقية، والإقناع بأن الأخلاق أمور اعتبارية نسبية تتواضع عليها الأمم، وليس لها ثبات في واقع حالها.

وبذلك يسهل على هؤلاء المضلين إفساد الأجيال، حتى تتمرد على جميع الضوابط الأخلاقية التي تمثل في الأمم قوى ترابطها وتماسكها، وعناصر ارتقائها الإنساني.

ومنشأ المشكلة يرجع إلى الخطأ في تحديد مفهوم الأخلاق، وتحديد دوافعها وغاياتها، وتحديد مستوياتها، من قبل كثير من الناس، بما فيهم كثير من الباحثين في علم الأخلاق، من فلاسفة ومفكرين؛ هذا هو الذي يفتح الثغرة الفكرية التي يعبر منها الخبثاء الماكرون، ليهدموا الأبنية الأخلاقية الحصينة التي تتمتع بها الشعوب العريقة بأمجادها، لا سيما المسلمون الذين سبق أن رفعتهم الأخلاق العظيمة إلى قمة مجد لم يطاولهم فيها أحد.

وحين يتبصر الباحث بالأسس الأخلاقية، التي تم فيها تحديد مفهوم الأخلاق وتحديد دوافعها وغاياتها، وتحديد مستوياتها، وفق المفاهيم المقتبسة من التعاليم الإسلامية، يتبين له بوضوح تساقط أقوال الذين يزعمون أن الأخلاق نسبية أو اعتبارية تتواضع عليها الأمم، وليس لها حقائق ثابتة، وذلك لأنه يستطيع أن يكتشف بسرعة عناصر المغالطة التي يصطنعها هؤلاء المضللون، إذ يأتون بأمثلة جزئية يزعمون أنها من الأخلاق، ثم يثبتون أنها أمور اعتبارية أو نسبية تتواضع عليها الأمم، وليس لها حقائق ثابتة في ذاتها، ثم ينقضون بها ثبات الأخلاق نقضاً كلياً، بطريقة تعميمية لا يقبل بها العلم، حتى ولو كانت هذه الأمثلة من الأخلاق فعلاً، لأنه لا يجوز الحكم على النوع من خلال الحكم

على بعض أفراده، ما لم يثبت أن سائر الأفراد مشتركة بمثل الصفة التي كانت علة صدور الحكم على بعض الأفراد.

ومغالطتهم هذه تشبه مغالطة من يأتي بمجموعة من القرود، ويلبسها لباس البشر، ويدخلها بين مجموعاتهم، ثم يقول: إن الناس جميعهم لهم صفات القرود، بدليل أن هذا الإنسان ــ ويشير إلى بعض قروده ــ له صفات القرود، وهذا الإنسان ــ ويشير إلى فرد آخر من هذه المجموعة ــ له صفات القرود؛ وهكذا يأتي بأمثلة متعددة من هذا العنصر الدخيل، ثم يصدر حكمه التعميمي في مغالطة أخرى فيقول: ومن هذا يتبين لنا أن جميع الناس لهم صفات القرود.

إن هذه العملية قد تضمنت مغالطة مركبة تمت على مرحلتين:

المرحلة الأولى: إدخال عنصر ليس من البشر تحت عنوان البشر.

المرحلة الثانية: تعميم الحكم الذي يصدر على هذا العنصر الدخيل، وجعله شاملاً للناس جميعاً.

هذا مثال مطابق تماماً لمغالطتهم في موضوع الأخلاق، إن عمليتهم هناك قد تضمنت أيضاً مغالطة مركبة تمت على مرحلتين:

المرحلة الأولى: إدخال ما ليس من أفراد الأخلاق تحت عنوان الأخلاق.

المرحلة الثانية: تعميم حكمهم على هذه الأفراد الدخيلة، وجعله شاملاً لجميع أفراد الأخلاق الحقيقية.

ولهؤلاء المضللين مغالطة أخرى حول الموضوع نفسه، وهي اعتمادهم على مفاهيم بعض الناس للأخلاق، واعتبار هذه المفاهيم جزءاً من حقيقة الأخلاق، مع أن مفاهيم الناس قد تصدق وقد تكذب، فهي لا تمثل جزءاً من حقيقة الشيء الذي هو موضوع البحث، وإنما تمثل مقدار إدراك أصحابها لحقيقة الشيء، فقد يكون هذا الإدراك مطابقاً، وقد يكون مخالفاً، وقد يكون كاملاً وقد يكون ناقصاً، وهو لا يؤثر بحال من الأحوال على حقيقة الشيء.

لقد كان للفلاسفة القدماء مفاهيم عن السماء، وهذه المفاهيم مخالفة لواقع

حال السماء، ومع ذلك فلا يقبل العقل اعتبار هذه المفاهيم جزءاً من حقيقة السماء.

وللناس مفاهيم كثيرة باطلة عن الخالق، ولا يجوز أن تكون هذه المفاهيم جزءاً من حقيقة الخالق.

وينكر كروية الأرض منكرون، ولكن مفاهيمهم هذه لا يمكن أن تجعل الأرض في واقع حالها غير كروية.

وهكذا يُدخِل فريق من الناس في الأخلاق ما هو ليس من الأخلاق؛ كتقاليد وعادات وأحكام وضعية. ويجحد فريق من الناس بعض ما هو من الأخلاق، فيزعم أنه لا داعي للتقيد بقواعد الأخلاق فيها، فلا يؤثر هؤلاء ولا هؤلاء على الحقيقة المطلقة للأخلاق، فليست مفاهيم الناس هي التي تصنع الحقائق، وإنما وظيفتها أن تعمل على إدراك الحقائق، حتى تكون صورة مطابقة لها.

قال المغالطون ـ الذين زعموا أن الأخلاق نسبية اعتبارية، وليس لها حقيقة مطلقة ثابتة، وهي قابلة للتغير والتبدل من زمان إلى زمان، ومن أمة إلى أمة ـ : إن مما يدل على ذلك أن بعض الشعوب ترى خروج النساء بدون حجاب عملاً منافياً للأخلاق بينما ترى شعوب أخرى أن هذا العمل أمر طبيعي لا ينافي ضوابط الأخلاق بحال من الأحوال.

ويدل على ذلك أيضاً أن بعض الأمم تحرم أكل بعض أنواع من اللحوم، وتحرم شرب بعض أنواع من الأشربة، وتعتبر مخالفة ذلك عملاً منافياً للأخلاق، بينما ترى أمم أخرى أنه لا شيء من ذلك محرم أو منافٍ للأخلاق.

ويأتون أيضاً بمثال تعدد الزوجات وإباحته عند أمة وتحريمه عند أمة أخرى، وبأمثلة الطقوس السائدة في البلاد الأوقيانوسية، ومنها تحريمهم الطعام تحت سقف والمكث في المسكن إذا كان الإنسان مريضاً، وتحريمهم استعمال الأيدي في تناول الغذاء بعد فراغ الإنسان من حلق شعره، أو بعد فراغه من صنع زورق، ويقولون: هذه أمور منافية للأخلاق عندهم، مع أنها عند غيرهم أمور عادية لا تنافي الأخلاق مطلقاً.

أليس عجيباً جداً أن يدخلوا مثل هذه الأمثلة في باب الأخلاق مع أنها في جوهرها من أبواب غير باب الأخلاق، فهي إما أحكام دينية، أو طقوس وعادات وتقاليد!! وإدخالها في باب الأخلاق خطأ فادح يجر إلى خطأ آخر أكبر منه بكثير، إنه خطأ يجعل الأخلاق أموراً نسبية اعتبارية تتواضع عليها الأمم، وليس لها حقيقة ثابتة في ذاتها!!.

وما قيمة مفاهيم الناس حول حقيقة من الحقائق، ولنفرض أن بعض الناس استحسنوا رذائل الأخلاق، ولم يجدوا أي رادع من ضمائرهم يردعهم عنها، فمارسوا الظلم بمثل الجرأة التي يمارسون بها العدل، ومارسوا الخيانة بمثل الجرأة التي يمارسون بها الأمانة، ومارسوا قسوة القلب بمثل الجرأة التي يمارسون بها الشفقة والرحمة، ومارسوا الكذب الضار بمثل الجرأة التي يمارسون بها الصدق النافع؛ أفيغير ذلك واقع حال الرذائل فيجعلها من قبيل الفضائل؟!.

كم نشاهد من شعوب تألف القذارات وتعيش فيها ولا تشعر بأنها تعمل عملاً غير مستحسن أو غير جميل، فهل تغير مفاهيمهم من واقع حال القذارة القبيح شيئاً؟!.

إن فساد مفاهيم الناس حول حقيقة من حقائق المعرفة لا يغير من واقع حال هذه الحقيقة شيئاً، وجميع حقائق المعرفة تتعرض لمشكلة فساد مفاهيم الناس عنها، وفساد تصور الناس لها.

إن موضوع حجاب المرأة وسفورها، أمر لا علاقة له بالأخلاق من حيث ذاته، إنما هو في حدوده الشرعية حكم ديني يهدف إلى تحقيق مصالح دينية واجتماعية يقصدها الشارع، فإدخالهم هذا الحكم في موضوع الأخلاق جزء من عناصر المغالطة أو من عناصر الغلط إذا حسنّا الظن.

وكذلك موضوع الأطعمة والأشربة، فهو غير ذي علاقة بالأخلاق، وأحكام الأطعمة والأشربة أحكام دينية تهدف إلى تحقيق مصالح دينية وصحية يقصدها الشارع، فإدخالهم هذه الأحكام في موضوع الأخلاق جزء من عناصر المغالطة، أو من عناصر الغلط إذا حسنّا الظن.

ونظير ذلك سائر الأمثلة التي أوردوها لنقض ثبات الأخلاق، إنها أمثلة من العادات والتقاليد الاجتماعية، أو من الظواهر الجمالية الأدبية، أو من الأحكام المدنية، أو من الأحكام الدينية لدين صحيح أو لدين وضعي من وضع البشر، ونحو ذلك، وليست في حقيقة ذاتها من الأخلاق.

ويوجد سبب ثالث للخطأ الذي يقع فيه الباحثون في علم الأخلاق، هو اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجعلها المقياس الوحيد الذي تقاس به الأخلاق، ونسبوا إلى هذا المقياس العصمة عن الخطأ، مع أنه مقياس غير كاف وحده، فقد يخطىء، وقد يُصاب عند بعض الناس بعلة من العلل المَرَضية، فيعشى أو يعمى أو تختل عنده الرؤية فيصدر أحكاماً فاسدة.

ومما سبق يتضح لنا أن أسباب الغلط أو المغالطة عند أصحاب فكرة نسبية الأخلاق، ترجع إلى ثلاثة:

الأول: تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الإنساني، فلم يميزوا الظواهر الخلقية، عن الظواهر الجمالية والأدبية، وعن العادات والتقاليد الاجتماعية، وعن التعاليم والأحكام المدنية أو الدينية البحتة، فحشروا مفردات كل هذه الأمور تحت عنوان الأخلاق، فأفضى ذلك بهم إلى الخطأ الأكبر، وهو حكمهم على الأخلاق بأنها أمور اعتبارية نسبية.

الثاني: أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدراً يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، مع أن في كثير من هذه المفاهيم أخطاءً فادحة، وفساداً كبيراً، يرجع إلى تحكم الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد فيها، ويرجع أيضاً إلى أمور أخرى غير ذلك، والتحري العلمي يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة، حيث توجد الحقيقة، لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها، فكل الحقائق عرضة لأن يثبتها مثبتون، وينكرها منكرون، ويتشكك فيها متشككون، ويتلاعب فيها متلاعبون، ومع ذلك تبقى على ثباتها، لا تؤثر عليها آراء الناس فيها.

الثالث: اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجعلها المقياس الوحيد الذي تقاس به الأخلاق.

أما مفاهيم الإسلام فإنها ـ كما قد علمنا ـ قد ميزت الأخلاق عما سواها، وميزت السلوك الأخلاقي عن سائر أنواع السلوك الإنساني، فلم تعمم تعميماً فاسداً، ولم تدخل في مفردات الأخلاق ما ليس منها، وهي أيضاً لم تعتمد على مفاهيم الناس المختلفة، ولم تتخذها مصدراً يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، وأما العقل والضمير فإنها لم تهملهما وإنما قرنتهما بعاصم يردهما إلى الصواب كلما أخطأا سبيل الحق والهداية والرشاد، وهذا العاصم هو الوحي الذي نزل بدين الله لعباده، وشرائعه لخلقه، وتعاليمه التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها تنزيل من عزيز حكيم، وقد بلغها رسله. أما صورتها المثلى المحفوظة من التغيير فهي ما ثبت في نصوص الشريعة الإسلامية، المنزلة على رسول الله محمد صلوات الله وسلاماته عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

فمن تبصر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، وتبصر بأن الأخلاق الإسلامية مقترنة بالوصايا والأوامر والنواهي الربانية، وتبصر بأن هذه الوصايا والأوامر والنواهي محفوفة بقانون الجزاء الإلهي بالثواب أو بالعقاب، فإنه لا بد أن يظهر له بجلاء أن الأخلاق الإسلامية هي حقائق في ذاتها، وهي ثابتة ما دام نظام الكون ونظام الحياة ونظام الخير والشر أموراً مستمرة ثابتة، وهي ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغير ولا للتبدل من شعب إلى شعب، ولا من زمان إلى زمان.

أما الأمة الإسلامية فهي أمة واحدة، وهي لا تتواضع فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التي بينها الإسلام، والتي أوضحها في شرائعه ووصاياه.

وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية وجدنا أن كل واحدة منها ـ ضمن شروطها وقيودها وضوابطها ـ ذات حقيقة ثابتة، وهي غير قابلة في المنطق السليم للتحول من حسن إلى قبيح، أو من قبيح إلى حسن. إن حَسَنها حَسَنٌ في كل زمان، وقبيحها قبيح في كل زمان ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأمم على تقبيح الحسن منها، أو تحسين القبيح، تأثراً بالأهواء، أو بالشهوات، أو بالتقاليد العمياء.

إن الإسلام يقرر أن حب الحق وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أن كراهية الحق وحب الباطل رذيلة خلقية، فهل يشك أحد سويّ عاقل في أن هذه الحقيقة حقيقة ثابتة غير قابلة للتحول ولا للتغير، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء؟! وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية.

أما طريقة دهاة التضليل لهدم الأبنية الأخلاقية فهي تتلخص بما يلي:

١ ـ أن يقنعوا الأجيال بأن الأخلاق نسبية اعتبارية لا ثبات لها، وليس لها حقائق ثابتة في ذاتها، فهي خاضعة للتبدل والتغير.

٢ ـ أن يستغلوا بخبث بعض النظريات الفلسفية التي من شأنها تقليل قيمة الأخلاق في نفوس الناس، إذ تقيمها على أسس واهنة ضعيفة، أو على شفا جرف هار!! ومتى قامت في نفوس الناس على مثل ذلك تداعت الأبنية الأخلاقية التقليدية، ثم انهارت، وحلت محلها أنانيات فوضوية، تعتمد على القوة والحيلة، والإباحية المطلقة لكل شيء مستطاع، فلا خير إلا ما تدعمه القوة، ولا شر إلا ما تضعف القوة عن تحقيقه.

٣ ـ أن يلفقوا من عند أنفسهم نظريات فلسفية يخدعون بها الناس، لا سيما الناشئون منهم، ويستغلون فيهم رغبات المراهقة بالتمرد على الحق والواجب، تطلعاً لمجد موهوم، وقد تطول فترة المراهقة عند بعض الناشئين، حتى تكتسح عمر الشباب منهم، وجزءاً من عمر الكهولة، وسبب ذلك الاستسلام التام لعواصف طور المراهقة، ووجود المغذيات الشيطانية الخبيثة، وضعف التربية الإسلامية أو انعدامها. ومتى وجدت هذه الظروف المواتية لنمو الشر، فليس من البعيد أن يصير الإنسان شيخاً في سنه وجسمه ويبقى مراهقاً في عقله ونفسه.

٤ ـ اتخاذ الوسائل العملية التطبيقية لإفساد أخلاق الأمم، وأهمها الغمس في بيئات موبوءة بالأخلاق الفاسدة، حتى تكون الانحرافات عادات مستطابات.

* * *

الفصل الرابع

١ ـ مستويات توجه النفس إلى العمل الإرادي ومواقع المسؤولية.

٢ ـ المسؤولية عن السلوك الأخلاقي.

٣ ـ الحرية وحدودها.

٤ ـ الخطيئة والغفران.

٥ ـ الشيطان ومدى تأثيره في حياة الإنسان.

الفَصْـل الـرّابع

ـ ١ ـ
مستويات تــوجُّه النفس إلى العمل الإرادي ومواقع المسؤولية

مما ندركه ونشعر به في أنفسنا أن رغبتنا أو نزوعنا إلى عمل ما، لا يصل إلى مستوى الإرادة الجازمة، حتى يمر بمستويات دون ذلك.

وقد يقف النزوع عند درجة من الدرجات الدنيا، التي هي تحت مستوى الإرادة الجازمة، وتسير المراحل في النفس وفق ما يلي:

١ ـ توجه النفس:

وتبدأ الحركة النفسية بتـوجه النفس إلى العمـل توجهـاً غير فـاعل، فهو كالالتفات الجسدي إلى الشيء للنظر إليه، والبحث فيه، والتأمل، وهذا أمر خال من المسؤولية تماماً.

وبعد هذا التوجه قد يحدث الإعراض، وقد تتحرك النفس بميل ما إلى العمل[١].

٢ ـ الرغبة:

ومع الميل النفسي قد تأتي أحاديث النفس ووساوسها، وهذا مستوىً أعلى

---

(١) قبل توجه النفس يأتي الإدراك، ولكن بحثه ليس من الموضوع الذي نعالجه الآن.

وأقوى من مستوى توجه النفس المجرد. وقد تفضل الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتجاوز عنها أحاديث الصدور ووساوس النفوس، التي لا يكون لها أثر عملي داخلي أو خارجي.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل به أو تتكلم».

وهذا الميل النفسي وما يصاحبه من وساوس، إذا لم يصل إلى مستوى حركة النفس للتنفيذ فهو الرغبة، وللرغبة درجات.

وقد جاء استعمال الرغبة في القرآن الكريم للدلالة على ميل النفس إلى الشيء دون الهم بتحقيق المرغوب، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ . . . ﴿١٢٧﴾ ﴾.

٣ ـ الهـمّ:

وفوق مستوى الرغبة المجردة يأتي مستوى الهم بالتنفيذ، ونفهم من الهم أنه أول الحركة النفسية لتقرير تنفيذ ما اتجهت الرغبة له، ويبدو أنه دون مستوى القرار الإرادي الجازم، فهو وسط بين الرغبة وتوجه الإرادة الجازمة، والاستعمالات القرآنية للهم تشعر بذلك، ففي الاستعمالات القرآنية للهم ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ . . . ﴿١١﴾ ﴾.

وفي بيان حادثة هذا الهم ذكر المفسرون عدة أقوال، منها محاولة اليهود اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم حين قدم إليهم ليشاركوا حسب المعاهدة المتفق عليها في دية قتيلين مشركين من بني عامر قتلهما أحد المسلمين واسمه عمرو بن أمية، ومعهما عقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو.

وقيل نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين هموا أن يغدروا بمحمد وأصحابه في دار كعب بن الأشرف.

(ب) وقول الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

هذا النص يشير إلى موقعة أحد كما ذكر جمهور المفسرين. أما الطائفتان اللتان همتا بالفشل، فقد روى البخاري عن عمر قال: سمعت جابر بن عبدالله يقول: فينا نزلت: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا. . .﴾ الآية. قال: نحن الطائفتان (بنو حارثة) و(بنو سلمة) وما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿والله وليهما﴾.

فهاتان الطائفتان همتا أن تفشلا؛ أي: همتا بعمل ما من شأنه أن يؤدي إلى الفشل، ولكن همهما لم يصل إلى مستوى القرار الإرادي الجازم، فلم يتخلَّ الله عن ولايتهما.

(ج) وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ . . . ﴿٥﴾﴾.

مع أن هم الأمم بأخذ رسولهم وقتله لم يصل إلى مستوى القرار الجازم

إلا في أمثلة محدودة ومن قبل بعض الأفراد، ولكنه كان نزوعاً قوياً بلغ درجة أول الحركات النفسية المتجهة لتحقيق ما رغبوا به.

(د) وقول الله تعالى في شأن مشركي مكة في سورة (التوبة ٩):

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ . . . ﴿١٣﴾ ﴾.

والمعروف أن فريقاً من مشركي مكة دبروا مكيدة قتل الرسول، لكن معظم المشركين قد حصل في نفوسهم هم بـإخراجـه من مكة ولم يفعلوا، إذ لم يكن منهم توجيه مباشر لإخراجه، فكان خروجه صلى الله عليه وسلم في الليلة التي حاول فيها مدبرو قتله تنفيذ مكيدتهم.

(هـ) وقوله تعالى في شأن سيدنا يوسف عليه السلام وامرأة العزيز في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴿٢٤﴾ ﴾.

إن إرادة الفاحشة من امرأة العزيز قد كانت قراراً جازماً حاولت تنفيذه بالمراودة وتغليق الأبواب، وإن إرادة العفة من يوسف عليه السلام قد كانت قراراً جازماً ظهر أثره بقوله: «معاذ الله إنه ربـي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون».

ثم جاء بعد ذلك هم به من قِبَلها، وهم بها من قِبله، وينبغي أن يكون متعلق الهم هنا موضوعاً آخر غير الموضوع الأول، ويظهر أنها همت بضربه فلحقت به لتطويعه أو ثأراً لكرامتها، وأنه هم بأن يقابلها بالمثل لصدها عنه ودفاعاً عن نفسه، لولا أن رأى برهان ربه، لكنه لما رأى برهان ربه آثر الهرب من مقابلتها فلحقت به فقدّت ثوبه من دبر.

من كل هذه النصوص يظهر لنا أن المراد من الهم حركة النفس التي

ارتقت عن مستوى الرغبة، وأعطت شيئاً من الدفع، ولكنها لم تصل إلى مستوى الإرادة الجازمة التي تدفع طاقة العمل المعتادة للتنفيذ.

وهذا المستوى من حركة النفس إذا كان في اتجاه الخير كان مأجوراً، وإذا كان في اتجاه الشر لم يترتب عليه الجزاء، حتى يصل إلى مستوى التنفيذ، سواء أكان من الأعمال الداخلية في الإنسان أو الأعمال الخارجية. وحين يقف هذا الهم عن التنفيذ بصارف إرادي يلاحظ فيه ابتغاء مرضاة الله، يكتب الله لصاحبه حسنة بسبب كفه عن سيئةٍ همَّ بها فلم يفعلها طاعة لله. هذا ما دل عليه الحديث التالي:

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس، عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل، قال:

«إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

وهذا من فضل الله على عباده.

٤ ـ الإرادة الجازمة:

وفوق مستوى الهم بالأمر تأتي الإرادة الجازمة، وهي بلوغ الاتجاه النفسي نحو الشيء ذروة الجزم به.

وحين يبلغ الاتجاه النفسي نحو عمل ما ذروة الجزم به فالنتيجة الطبيعية هي العمل على تنفيذ المراد، باستخدام القوى المعتادة من مستوى الدرجة الدنيا والوسائل التي ليس فيها مشقات زائدة، فإذا ظهرت صعوبات زائدة فقد تفلّ حد الإرادة، وتوقف طاقة العمل عن متابعة التنفيذ.

فهذا المستوى من الإرادة قد لا يملك القدرة على توجيه دفع لتنفيذ العمل المراد أكثر من دفع القوى العادية، القادرة على مغالبة بعض الصعوبات.

ويظهر أن الإرادة الجازمة هذه ذات درجتين:

فالدنيا منهما قادرة بأدنى توجيه على تنفيذ ما تميل إليه النفوس.

وفوقها الإرادة القادرة على تنفيذ ما فيه تكليف عادي وصعوبات وسطى.

وقد استعملت الإرادة في القرآن الكريم للدلالة على بلوغ الاتجاه النفسي نحو عمل ما مستوى الجزم به، ولا يشترط في هذا الجزم أن يقترن به رغبة شديدة أو إصرار وعزم. ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.

فمريد العاجلة ـ وهي الحياة الدنيا وزينتها ـ يجد سبله إليها ميسورة، إذ لا تقف في نفسه عقبات صادة، نظراً إلى أن حب العاجلة متأصل في نفسه، فهو إذن يعمل للوصول إلى ما يريد ببذل طاقات التنفيذ العادية، فيعجل الله له من الدنيا ما تقضي به مشيئته وفق سنته.

ولكن من أراد الآخرة فلا بد أن يسعى لها سعيها مع شرط الإيمان حتى ينال جزاءه، وكان لا بد من بيان هذا السعي للآخرة، لأن الإرادة وحدها، وما تستخدمه من طاقات التنفيذ العادية، قد لا تكفي للتغلُّب على عقبات النفس المعارضة، بل تحتاج إلى طاقات زائدة نسبياً على مستوى طاقات التنفيذ العادية. فالقضية هنا فيها مصارعة ومغالبة لأهواء النفس وشهواتها، ولا تشحن هذه الطاقات الزائدة ما لم ترق نسبة قوة الإرادة عن المستوى العادي للتنفيذ، ولو بمقدار يسير.

ومن الأمثلة أيضاً قول شعيب لموسى عليهما السلام: إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين، وقد حكى الله ذلك بقوله في سورة (القصص ٢٨):

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ

﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

فإرادة شعيب عليه السلام قد زادت على مستوى الرغبة المجردة، حتى وصلت إلى القدر الذي جعله يعلن عرضه وشرطه، وينتظر موافقة الطرف الآخر التي لا يملكها هو.

ومعنى الإرادة يساوي معنى المشيئة، ولذلك استعملا بالتساوي في جانب المشيئة الربانية، إذ لا يحتاج الخالق في خلقه أكثر من مستوى إرادته للشيء، لأنه سبحانه إذا إراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، قال الله تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾.

ومسؤولية الإنسان ضمن مستوى الإرادة مسؤولية تامة، في فعل ما أُمر بفعله وفي ترك ما نهي عن فعله، ما دام الأمر في حدود استطاعته.

٥ ـ العقـل:

ويأتي فوق مستوى الإرادة الجازمة العادية مستوى العقل، وهو مستوىً عالٍ من الإرادة الجازمة القوية الكافية لعقل الإنسان وحجزه عن الاندفاع وراء أهوائه وشهواته، والانزلاق إلى مواطن هلكته العاجلة أو الآجلة.

وقد تكررت في القرآن الكريم مادة (عقل ـ يعقل ـ نعقل) للدلالة على هذا المستوى من قوة الإرادة في عدة نصوص، وللدلالة على فهم المعاني فهماً عميقاً صحيحاً مع تثبيت هذا الفهم وعقله في القوة العاقلة للمعاني في نصوص أخرى.

فمن الأول قول الله تعالى لعلماء اليهود في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

فهم لا ينقصهم الفهم إنما لا يملكون قوة إرادة تضبطهم وتعقلهم عن اتباع الهوى.

ومن الثاني قول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

فالعقل هنا يراد منه الفهم العميق الصحيح مع تثبيته في الحافظة.

إذن فالمراد من العقل على المعنى الأول الإرادة الجازمة القوية القادرة على عقل النفس وأهوائها وشهواتها، وضبطها في حدود الخير، مع استنادها إلى معرفة الأمور، وبصيرة بما فيها من خير أو شر.

والعقل على هذا شيء غير الذكاء، لأن الذكاء مجرد طاقة فكرية يستطاع بها معرفة الأمور على حقيقتها، سواء اقترن به عقل النفس عن أهوائها وشهواتها الضارة أو لم يقترن، فكم من ذكي حاد الذكاء ولكن لا عقل له، فهو يعرف الشر حق المعرفة، ولكنه لا يستطيع عقل نفسه عنه، لأن أهواءه وشهواته مندفعة إليه.

ولذلك خاطب الله علماء بني إسرائيل بقوله: ﴿أفلا تعلقون؟!﴾؛ مع أنهم علماء، لا ينقصهم ذكاء يعرفون به حقائق الأمور، ولكنهم لا عقل لهم يعقلهم ويحبس نفوسهم ويردها عن اتباع الهوى، إنهم يأمرون الناس بالبر ولكنهم لا يعملون به.

والعاقل في اللغة: هو الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها.

وسيأتي إن شاء الله مزيد تفصيلٍ في الفصل الثامن من الباب الثاني.

٦ ـ العـــزم:

ويأتي فوق مستوى العقل العادي القادر على ضبط طائفة من أهواء النفس وشهواتها، مستوى العزم. والعزم هو اتجاه نفسي جازم ذو نسبة عالية في القدرة على التصدي للعقبات والصعوبات، ومقارعتها ومغالبتها، فهو بسبب ارتقاء

نسبته قادر على أن يدفع من طاقات التنفيذ شحنات زائدة على مستوى الطاقات العادية، التي تدفعها الإرادة الجازمة بحسب العادة للأمور التكليفية التي يقوم بها معظم الناس.

وللعزم درجات كثيرة، وأولو العزم يتفاوتون فيما بينهم، وقد يصل العزم في درجاته العليا إلى تنفيذ المراد ولو اقترن به تحمل أشد الصعوبات وأعظم الآلام.

ولما كانت القضايا الكبرى التي ينفذها قائد الأمة قضايا تقف أمامها عقبات كثيرة، وتحيط بها مشكلات خطيرة، وتحتاج مستوى من الإرادة أعلى من مستوى التصرفات الشخصية المعتادة ـ سواء أكانت من محاب النفوس أو من التكاليف التي فيها مشقات كبيرة ـ أمر الله رسوله في هذه القضايا بالمشاورة، ثم أبان له أن إرادته إذ وصلت إلى مستوى العزم فلينفذ ما عزم عليه، متوكلاً على الله. وفي ذلك يقول الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

ولما كان الصبر والتقوى، والصبر على إساءة المسيء ومقابلته بالمغفرة، والصبر على ما ينزل بالإنسان من مصائب، أموراً تحتاج إلى إرادة عالية من مستوى العزم؛ قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال لقمان لابنه ما قصه الله علينا في سورة (لقمان ٣١):

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾.

وأولو العزم من الرسل هم الذين ارتقت قوة إراداتهم في سبيل الله إلى مستوى العزم، الذي يستطيعون به تنفيذ ما يريدون مما يرضي الله تعالى، وهم يقارعون ويصارعون العقبات الصلدة، ويتحملون الشدائد الكبرى بصبر وجلد، ولا يدخل الوهن إلى قلوبهم، ولو تعرضوا للآلام التي لا تطاق، ولو استقبلوا من أجله مصارعهم.

ولذلك قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ . . . ﴿٣٥﴾ ﴾.

ولما لم تقوَ إرادة أبينا آدم عليه السلام على تنفيذ كل العهد الذي عهد الله له به، قال تعالى في شأنه في سورة (طه ٢٠):

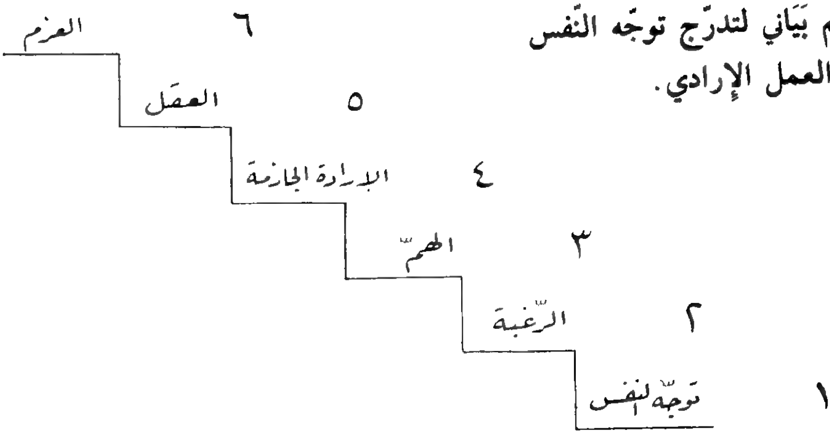
﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

فالعزم إذن مستوى من الإرادة قوي جداً، إذ يقدر على دفع طاقات احتياطية في الإنسان، لا تقدر الإرادة العادية على دفعها.

وهذا المعنى الذي دلّت عليه النصوص القرآنية، قد يلتقي مع ما ذكرته معاجم اللغة من معنى العزم، ففيها أن العزم هو الجد، وعزم الرجل على الأمر يعزم عزماً أراد فعله وعقد عليه قلبه.

والعزم من الدرجات العليا قد يكلف بتوجيهه كبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن الدرجات الدنيا قد يكلف بتوجيهه المؤمنون العاديون، وكذلك بعض العزم من الدرجات الوسطى، ومنه التكليف بالقتال في سبيل الله، والإسلام في هذا واقعي يعامل كل إنسان بحسب الهبة التي وهبه الله إياها في فطرته.

رسْم بيَاني لتدرّج توجّه النّفس إلى العمل الإرادي.



ـ ٢ ـ
المسؤولية عن السلوك الأخلاقي

السلوك الأخلاقي كسائر أنواع السلوك الإنساني الإرادي من جهة المسؤولية لا فرق بينه وبينها.

(أ)

شروط ترتب المسؤولية:

ومسؤولية الإنسان الحقيقية عن عمله منوطة باستيفاء شروط ستة:

الشرط الأول: أن يكون صاحب العمل أهلاً لتحمل المسؤولية.

الشرط الثاني: أن يكون العمل عملاً إرادياً.

الشرط الثالث: أن تتوافر في العمل النية والقصد لما ينجم عنه من نتائج خير أو شر.

الشرط الرابع: العلم بالعمل، وبما يؤدي إليه العمل من خير أو شر، وبحكم العمل الأخلاقي أو الشرعي.

الشرط الخامس: كون العمل مستطاع الفعل والترك.

الشرط السادس: أن يكون صاحب العمل متمتعاً بحريته عند أداء العمل، غير مكره عليه.

ولهذه الشروط العامة تفصيلات وتحديدات وبعض قيود، يقتضي منا البحث معالجة أهم ما فيها، فلنعالج ذلك بمقدار.

(أ) شرح الشرط الأول:

وهو أن يكون صاحب العمل أهلاً لتحمل المسؤولية.

وقد حدد الشارع أهلية تحمل المسؤولية الدينية ذات العقاب الأخروي، بالعقل والبلوغ، أما فاقد العقل فلا مسؤولية عليه طبعاً، ولا اعتبار لأي عمل من أعماله، وأما غير البالغ فقد أعفاه الخالق من المسؤولية الأخروية في رأي جمهور الفقهاء وإن كان مميزاً، دون أن يحرمه من ثواب عمله الصالح، وذلك لتكون فترة ما قبل البلوغ فترة تربية وتعليم وإنضاج فكري ونفسي، وخفف مسؤوليته الدنيوية إلى مستوى المسؤولية التربوية التي يتولاها أولياؤه المربون له، فيؤدبونه بمختلف وسائل التأديب التي أذن بها الشارع، ومنها بعض أنواع العقاب المادي كالضرب والحرمان ونحوهما، ومنها بعض المؤاخذات الجزائية المالية، وتختلف وسائل التربية والتأديب باختلاف حال غير البالغ، مميزاً كان أو غير مميز، قارب سن البلوغ أو لم يقاربه.

وفي رفع المسؤولية عن المجنون وعمن كان دون البلوغ جاء في الحديث الصحيح:

«رُفع القلم عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يدرك، وعن النائم حتى يستيقظ».

وقد تعددت طرق هذا الحديث ما بين مرفوع وموقوف، دون أن يبلغ المرفوع منها درجة الصحة، وقال ابن حجر: وللمرفوع شاهد من حديث أبي إدريس الخولاني: أخبرني غير واحد من الصحابة ــ منهم شداد بن أوس، وثوبان ــ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«رفع القلم في الحد عن الصغير حتى يكبر، وعن النائم حتى يستقيظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن المعتوه الهالك»(١). وقد أخذ الفقهاء بمضمون هذا الحديث.

والمراد من رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ رفع قلم المؤاخذة عنه، أما قلم الثواب فلا يرتفع، وذلك فضل من الله ورحمة، فيكتب لمن هم دون البلوغ ثواب أعمالهم الصالحة، إذا فعلوها بإراداتهم على وجهها، ولذلك كلف الشارع أولياء الصغار بأن يأمروهم بالصلاة وفعل الخيرات، وينهوهم عن المعاصي والآثام.

روى الإمام أحمد وأبو داود بإسناد حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع».

وقال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ . . . (٥٨) ﴾.

* * *

(ب) شرح الشرط الثاني:

وهو أن يكون العمل عملاً إرادياً.

أي: صادراً عن إرادة صاحب العمل، ومتى اختل هذا الشرط سقطت المسؤولية. وبناء على ذلك فإن الأعمال التي لا تكون إرادة الإنسان الحرة ذات وساطة ما في وجودها، لا يكون الإنسان مسؤولاً عنها، كالرعشات، وكحركة النائم، وكتصرفات المجنون الذي فقد إرادته العاقلة، وكالمُلجَأ إلى الأمر إلجاءً،

---

(١) انظر فتح الباري عند شرح الحديثين ٦٨١٥ و ٦٨١٦، «باب لا يرجم المجنون والمجنونة».

مثل المقذوف مكرهاً يقع على إنسان فيقتله، أو على شيء فيتلفه. فالأعمال الصادرة في هذه الحالات وأمثالها أعمال لا مسؤولية فيها على من صدرت عنه، لأنها في الحقيقة حاصلة فيه لا حاصلة منه، ثم كان لها آثار في غيره دون أن يكون لإرادته تسبب فيها.

والعمل الإرادي ينقسم إلى قسمين:

١ ـ قسم إيجابي.
٢ ـ قسم سلبي.

فالقسم الإيجابي هو ما يصدر به عن الإنسان عمل ظاهر، كإنفاق في الخير، وجهاد في سبيل الله، ومعونة بطاقة جسدية، وشفاعة حسنة، وتعليم الجاهلين ما ينفعهم في دينهم، وما ينفعهم في دنياهم من غير شر، ونحو ذلك.

والقسم السلبي هو ما يتعمد فيه الإنسان ترك العمل مع قدرته عليه، ولذلك يثابُ الإنسان على ترك المحرمات، إذا تركها بإرادته ناوياً طاعة الله في ذلك، مع أنه لم يفعل شيئاً ظاهراً، إنما فعل فعلاً سلبياً، ويعاقب على ترك الواجبات، لأن هذا الترك عمل سلبي تجاه أمر واجب التنفيذ.

وبناءً على ذلك فمن رأى إنساناً غافلاً يمشي إلى هاوية فلم ينبهه، ولم يعمل أي شيء يرده عن السقوط، مع قدرته على ذلك، وتركه حتى سقط، فإنه يعتبر في مفاهيم الشرع جانياً، ومسؤولاً عن عمله السلبي الذي عمله، ويعاقب عند الله على ذلك.

ولذلك كان الساكت عن الحق في نظر الشرع شيطاناً أخرس، لأنه كتم ما يجب عليه بيانه.

وقال الله تعالى في شأن من يكتم الشهادة في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

فجعل كتم الشهادة من قبيل العمل الذي تأثم به القلوب، مع أنه سلوك سلبـي تجاه عمل كان يجب عليه أن يقوم به.

والمسؤولية عن الأعمال السلبية ملاحظ فيها أن الإرادة الإنسانية ذات وساطة ما في وجودها، فمن استطاع أن يكف شرّاً فلم يفعل فإن لإرادته وساطة ما في وقوع الشر.

* * *

(ج) شرح الشرط الثالث:

وهو أن تكون نية الإنسان وغايته المقصودة له من عمله الإيجابي أو السلبـي ما ينتج عن العمل فعلاً من خيرٍ أو شر.

فإذا كان لصاحب العمل نية أو غاية أخرى غير ذلك؛ فإن المسؤولية الحقيقية عند الله تكون وفق نيته وغايته، دون ظاهر السلوك وما نجم عنه، وأما السلوك الظاهر فيكون عندئذٍ من قبيل العمل الملغى، وتكون نتائجه من قبيل القضاء والقدر المحض.

ولذلك تلغى عند الله أعمال المرائين والمنافقين، مهما كان مظهرها مظهر صلاح وخير ويحاسبون على نياتهم وغاياتهم التي كانوا يضمرونها في قلوبهم، ويتجاوز الله عن أعمال المسيئين، إذا كانت نياتهم التي يضمرونها في قلوبهم نيات صالحة، بشرط أن يكونوا معذورين في أخطائهم بممارسة الأعمال السيئة.

وقد دلنا الله على هذه الحقيقة بعدة نصوص، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة ١):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

ولما كانت دوافع الأعمال ما تكنّه الصدور من نيات؛ كان الابتلاء موجهاً لما في الصدور، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

ولما كان الخطأ خالياً من القصد القلبي، كان من مقتضى العدل الرباني رفع الجناح عنه، قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

هذا عند الله لأن الله يعلم ما في قلوب عباده من نيات ومقاصد، ولذلك كانت النيات عنده هي مناط المسؤولية، ومناط ترتيب الجزاء.

والنص الكلي الجامع في هذا الباب هو ما جاء في الحديث الصحيح الذي يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فالأعمال تُحدَّد قيمتها الحقيقية بقيمة النيات الباعثة عليها، أما مظاهر الأعمال المادية فلا قيمة لها وحدها، لكن إذا استوت النيات فإنه ينظر بعد ذلك إلى قيم الأعمال المتفاوتة، والله تعالى لا يضيع مثقال ذرة من عمل يبتغى به وجهه.

أما بالنسبة إلى الناس وأحكامهم الجزائية، فبما أن النيات خفيات عليهم غير ظاهرات؛ فإنهم مضطرون أن يحكموا على أعمال الناس بحسب ما يظهر

منها، ومما يظهر منها ما يكون قرينة مرجحة دالة على النية، فتؤخذ حينئذٍ بعين الاعتبار، وذلك لأن ظاهرة العمل دليل مادي على الغرض منه. فإذا رافق هذه الظاهرة قرائن تدل على أن الغرض شيءٌ آخر كانت هذه القرائن أدلة مادية أخرى معارضة، وعند تعارض الأدلة يلجأ القاضي إلى الترجيح، أو إلى أخذ كلٍّ من الدليلين بعين الاعتبار، فيصدر أحكاماً توفيقية، لا أحكاماً مائلة ميلاً كاملاً إلى أحد الطرفين.

فمن أمثلة ذلك: ما لو سدد صياد سهمه ليصيد به صيداً مباحاً، ثم أطلقه فأصاب إنساناً، أما الله تبارك وتعالى فإنه يعلم نيته حتماً فيحاسبه يوم القيامة عليها، سواء أكان غرضه من هذا السلوك إصابة الصيد المباح أو قتل الإنسان ظلماً وعدواناً. لكن حكم الناس عليه مقيد بالأدلة المادية الظاهرة، فحادثة القتل للإنسان دليل مادي ظاهر، والأصل فيه أن يدل على إرادة القاتل أن يقتله، إلا أن هذا الدليل قد اقترن به أدلة وقرائن أخرى، تدل على أن القاتل لم يكن يريد أن يقتل الإنسان، وإنما كان يريد أن يصيد صيداً مباحاً، فالزمان والمكان وطبيعة السلوك وقرائن الأحوال تفيد ذلك، لكن هذه القرائن لا تكفي لإعطاء اليقين بأنه لم يكن يريد قتل الإنسان قطعاً، لاحتمال أن يكون قد رتب بمكرٍ كل هذه القرائن، أو رآها موجودة فاستغلها. فمن الطبيعي والحالة هذه أن نلجأ إلى التوفيق والتوسط، فنعفي القاتل من القصاص، رعاية لاحتمال براءة النية من إرادة الجريمة، مع وجود القرائن التي تفيد ذلك، ونلزمه بالدية والكفارة رعاية لاحتمال إدانة النية بإرادة الجريمة. يضاف إلى ذلك أن الخطأ الذي قد يفضي إلى قتل بريء من الناس أمر تحيط به الملاحظات التالية:

١ ــ أنه أمر جسيم يتعلق بحياة الناس.

٢ ــ احتمال ادعاء الخطأ على سبيل الكذب فراراً من القصاص، وإسقاطاً لحق أولياء القتيل.

٣ ــ احتمال وقوع تهاون وتقصير أفضيا إلى القتل الخطأ.

ونظراً إلى هذه الملاحظات المرافقة للقتل على سبيل الخطأ رفع الله عن

القاتل خطأً حكم القصاص، عملاً بأصل القاعدة التي تتضمن رفع المسؤولية، وألزم القاتل بالكفارة، لتشتد حيطة الناس في مثل هذا الأمر الجسيم، وليبالغوا في البعد عن كل مظان الخطأ الذي قد يفضي إلى قتل البرآء. وألزم بالدية صيانة لحق أولياء القتيل، ومراعاة لاحتمال أن يكون ادعاء الخطأ ادعاء كاذباً، مهما كانت القرائن مؤيدة صدق الادعاء، لأن التعمد الحقيقي عمل من أعمال القلوب، فربما يوجد دون أن تدل عليه أمارة ظاهرة. قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ . . . ﴿٩٢﴾ ﴾.

ورفقاً بحال القاتل خطأً جعل الإسلام الدية تكليفاً تعاونياً تلزم به العاقلة (العاقلة: أقرباء القاتل خطأً، أو قبيلته).

النية من غير عمل:

ظهر لنا أن النية من العمل هي المناط المحجوب الذي لا يعلمه إلاّ علاّم الغيوب، ومن ارتضى من ملك أو رسول.

ولكن لو وجدت النية وحدها، دون أن تترجم إلى عمل مادي، فهل تكون مناطاً للمسؤولية التي يُبنى عليها الحساب والجزاء عند الله؟.

لدينا عدة نصوص شرعية، والبحث العلمي السليم يفرض علينا أن نجمع بينها بطريقة توضح لنا الحقيقة الإسلامية، دون أن ننساق وراء بادىء الرأي الذي يخطر لنا من واحد منها فقط، وإلا وقعنا في مفاهيم خاطئة، انسياقاً وراء ما يظهر لنا من بعض النصوص، ونحن غافلون عما تدل عليه النصوص الأخرى، أو جاهلون به.

فمن النصوص التي لدينا في هذا الموضوع ما يلي:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قال أبو بكرة: قلت: يا رسول الله: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«يقول الله تعالى: إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة فلم يعملها لم أكتب عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة».

٣ ــ وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنّ الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها، ما لم تعمل به أو تتكلم»، وعند مسلم:

«إنّ الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به».

٤ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال:

«إنّ الله تعالى كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

٥ ــ وروى البخاري عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إذا مرض العبد أو سافر كُتب له بمثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً».

٦ ــ وروى الإمام مسلم عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال:

«إن بالمدينة لرَجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض» وفي رواية:

«إلا شركوكم في الأجر».

٧ ـ وروى الإمام البخاري عن أنس قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

«إن أقواماً خلفنا في المدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حبسهم العذر».

٨ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».

٩ ـ وروى الدارمي بإسناد ضعيف عن المهاجر بن حبيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«قال الله تعالى إني لست كل كلام الحكيم أتقبل ولكني أتقبل همَّه وهواه، فإن كان همُّه وهواه في طاعتي جعلت صمته حمداً لي ووقاراً وإنْ لم يتكلم».

١٠ ـ وسوّى الرسول صلى الله عليه وسلم بين عبدين: أحدهما رزقه الله علماً ومالاً فعمل صالحاً، والآخر رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فقال: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

«فهو نيته فأجرهما سواء» وكذلك سوى بين مقابليهما[١].

فمن جملة هذه النصوص نستطيع أن نستخلص عدة مفاهيم إسلامية، ونجمع بينها في نسق فكري متكامل، يُظهِر كمال العدل الرباني، وكمال الفضل في موضوع الأعمال والنيات الباعثة عليها.

(أ) فمن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» ومن جوابه لأبي بكرة في تعليل عذاب المقتول مثل عذاب القاتل بقوله: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»؛ نستدل على أن سبب مؤاخذة المقتول نيته التي كان مصمماً على تنفيذها، وحريصاً عليه، ولو لم يظهر لنيته أثرٌ مادي، إذ عاجله أجله، فمنعه من التنفيذ، ولو تمكن من ذلك لم يقصر.

---

(١) من حديث طويل رواه الترمذي بإسناد صحيح عن أبي كبشة، أوّله «ثلاثة أقسم عليهن». انظر الباب الخامس من هذا الكتاب الفقرة ٤.

فمسؤوليته نيطت بنيته الجازمة التي لم يصرفها بنية أخرى، مع أن هذه النية لم تترجم في الواقع إلى عمل ذي أثر. أما التلاقي بالسيوف على سبيل التهديد ومن غير أن يكون القتل غايته؛ فليس جزاؤه مثل جزاء القتل، إلّا أن تساوي القاتل والمقتول في العقوبة يشعر بأن تساويهما في النية هو السبب في ذلك. وفي قول الرسول: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» إفصاح كافٍ عن المناط الذي تعلق بسببه الجزاء، وهو الحرص على القتل، والحرص على القتل هو النية المصحوبة بإرادة وتصميم ومحاولة للتنفيذ، ثم كان المانع من التنفيذ أمراً خارجاً عن إرادة صاحب هذا الحرص.

هذا في جانب المؤاخذة، ونظير ذلك يقال في جانب الثواب: فالنية الصالحة الجازمة المصحوبة بإرادة وتصميم ـ وهي التي يكون المانع من تنفيذها أمراً خارجاً عن إرادة صاحبها، وكذلك التي يكون المانع من تنفيذها عذراً طارئاً يبرر عدم تنفيذها في نظر الشارع ـ كافية في ترتب الثواب كله، كما لو تم معها تنفيذ العمل، ويدل على ذلك حديث: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له بمثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً» وحديث: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض» وحديث: «إن أقواماً خلفنا في المدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حبسهم العذر».

وهذا ما ذهب إليه عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين.

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم، عند شرحه لحديث: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»:

(مذهب القاضي أبي بكر بن الطيب أن من عزم على المعصية بقلبه، ووطن نفسه عليها أَثِم في اعتقاده وعزمه، ويحمل ما وقع في هذه الأحاديث وأمثالها على أن ذلك فيمن لم يوطن نفسه على المعصية وإنما مر ذلك بفكره من غير استقرار، ويسمى هذا هماً، ويفرّق بين الهم والعزم. . .

قال القاضي عياض، رحمه الله: عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء

والمحدثين على ما ذهب إليه القاضي أبو بكر، للأحاديث الدالة على المؤاخذة بأعمال القلوب).

ثم قال النووي تعقيباً على ما ذكره القاضي عياض:

(هذا آخر كلام القاضي، وهو ظاهر حسن لا مزيد عليه، وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقر، ومن ذلك قوله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . ﴿١٩﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

والآيات في هذا كثيرة، وقد تظاهرت نصوص الشرع وإجماع العلماء على تحريم الحسد، واحتقار المسلمين، وإرادة المكروه بهم، وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها، والله أعلم).

انتهى كلام النووي رحمه الله تعالى.

(ب) أما إذا ضعفت النية عن التنفيذ بسبب تناقص مستوى الإرادة الجازمة، أو بعارض داخلي ثبط الهمة لكسل أو مشاغل: فإذا كانت نية حسنة كتبت له بمعدل حسنة واحدة من غير مضاعفة، بخلاف التي ترقى إلى مستوى التنفيذ فإنها تضاعف إلى عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة حسب مقتضيات الفضل الإلهي، وذلك لأن الصارف لم يكن أمراً خارجاً عن إرادة الإنسان، ولا عذر يبرره. وإذا كانت نية سيئة لم تكتب عليه مطلقاً، لأنها لم ترق إلى مستوى التنفيذ، حتى تكتب عليه بمعدل سيئة واحدة، حسب مقتضيات العدل الإلهي.

ويدل على ذلك حديث: «إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له

حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتب عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة».

فالهمُّ الذي لم يرق إلى مستوى التنفيذ الفعلي، نيةٌ اقترنت بحركة نفسية لم تصل إلى حد التغلب على العوارض الداخلية في الإنسان، فلم يكن لها مستوى العمل الكامل، لذلك فإن فضل الله يشملها بالثواب على قدرها إذا كانت حسنة، وبالعفو عنها إذا كانت سيئة، تشجيعاً على ممارسة النيات الصالحات، والتراجع عن النيات السيئات، والهمُّ يسهل صرف السيء منه بملاحظة الخوف من الله، وابتغاء مرضاته، وطلب ثوابه، ومراقبة برهانه، ويسهل انصراف الحَسَنِ منه بالكسل أو بأي مثبط آخر من مثبطات النفس.

(ج) وأما إذا كان صرف النية الجازمة عن التنفيذ قد تم بنية مضادة: فإذا كانت الأولى نية حسنة كتبت له بمعدل حسنة واحدة من غير مضاعفة، لأنه قد شغل كيانه الداخلي بعمل من أعمال الخير فترة من الزمن، فالله لا يضيع له هذا العمل، فضلاً منه وكرماً، ولو أوقفه عن التنفيذ بإرادته ونيته الثانية المضادة. وإذا كانت الأولى نية سيئة كتبت له بمعدل حسنة كاملة، لأنه نسخ هذه النية السيئة بنية أخرى مضادة وهذه النية الأخرى المضادة ناسخ حسن، فيعطى ثوابه بقوة نية حسنة.

ويدل على ذلك حديث: «إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

وجمعاً بين حديث أبي هريرة وحديث عبدالله بن عباس رأينا أن الهمَّ في حديث عبدالله بن عباس قد جاءت نية أخرى تنسخه، لذلك يكتب الهمّ السيء الذي لم يتم تنفيذه حسنة كاملة، نظراً إلى الصارف الحسن الذي جاء عقبه. بخلاف الهمّ الذي ورد في حديث أبي هريرة فإنه همّ لم يرق من ذاته إلى

مستوى التنفيذ ومغالبة العوارض، لذلك فإن السيء منه يقف عند حدّ عدم كتابته، ولا يرقى عدم تنفيذه إلى أن يكون بقوة نية حسنة، أما الحسن منه فإنه يكتب بقوة نية حسنة فضلاً من الله وكرماً.

(د) وأما أحاديث النفس ووساوسها التي تظل في حدود الخواطر، ولا ترقى إلى مستوى الهمّ فالإرادةِ الجازمة، فهي أمور تجاوز الله عنها، لأنها أحاديث لم تقترن بإرادة ما، فليست من قبيل النيات حتى ترتبط بها مسؤولية، ويفتح لها حساب.

ويدل على ذلك حديث: «إن الله تعالى تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها، ما لم تعمل به أو تتكلم».

الخـــلاصـــة:

من خلال البحوث السابقة حول النيات الباعثة على الأعمال، نستطيع أن نقدم الخلاصة التالية:

١ ــ إن الأعمال لا ينظر إليها عند الله إلا من خلال النيات الباعثة عنها، وبحسب هذه النيات يجري الحساب والجزاء على الأعمال عند الله تبارك وتعالى.

٢ ــ إذا كانت النيات مخالفة ظواهر الأعمال، ألغيت الأعمال وجرى الحساب والجزاء على النيات فقط، كأعمال المنافقين والمرائين.

٣ ــ إذا وجدت النيات الجازمات، ولم يقف دون تنفيذ الأعمال إلا عقبات أو أعذار خارجة عن إرادة الإنسان، فإن مناط المسؤولية حينئذ هي النيات وحدها، ويجري الحساب عليها كما لو تم تنفيذ الأعمال التي تقتضيها.

٤ ــ إذا وجدت النيات الجازمات، ولكن لم يتم التنفيذ للأعمال التي تقتضيها بسبب يرجع إلى الإنسان نفسه، فإن سيئاتها لا تكتب عليه، ويتجاوز الله عنها. فإذا كان ذلك خوفاً من الله وابتغاء مرضاته، فإن الله يكتب له بذلك حسنة، وأما حسناتها فتكتب له في صحيفته على مقدارها دون مضاعفة، بخلاف ما لو فعلها فإنها تضاعف له أضعافاً كثيرة فضلاً من الله وكرماً.

٥ ــ الخواطر والوساوس معفو عنها ولا تدخل في حدود العمل المراد ما لم تصل إلى مستوى النيات المقترنة بالإرادة الجازمة، ولكن قد يثاب الإنسان على خواطر الخير إذا كانت ثمرة توجه إرادته.

٦ ــ الهم بالعمل، إذا كان هماً بفعل حسنة فالله يثيب عليه من غير مضاعفة إذا لم يتم تنفيذه، ومع المضاعفة الكثيرة إذا تم تنفيذه. وإذا كان هماً بفعل سيئة فله حكم الوساوس والخواطر المعفو عنها، فالله يتجاوز عنه ولا يسجله على صاحبه فضلاً منه وكرماً.

* * *

(د) **شرح الشرط الرابع:**

وهو العلم بالعمل، وبما يؤدي إليه العمل من خير أو شر، وبحكم العمل الأخلاقي أو الشرعي.

فمن الظاهر في مفاهيم الشريعة أنه لا مسؤولية مع الجهالة التي يعذر بها صاحبها.

وللمعرفة بفضائل الأخلاق ورذائلها طريقان:

الطريق الأول: ما أودع الخالق في فطر العقول من موازين ذاتية تدرك بها جملة من الفضائل والرذائل، وما أودع في فطر القلوب والنفوس من مشاعر داخلية تحس فيها بطائفة من فضائل الأخلاق ورذائلها.

أما ما يلتقي الناس على إدراكه من ذلك فيعتبر معلوماً بالفطرة، لذلك فإن العدالة الربانية تتولى الجزاء عليه، إن عاجلاً وإن آجلاً، وتعتبر المسؤولية بالنسبة إليه مسؤولية تامة.

فمن أمثلة ذلك الظلم الذي يلتقي جميع الناس على إدراكه كما تدركه أمم من البهائم غير العاقلة؛ ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يفرض على جميع الظالمين يوم القيامة أن يؤدوا الحقوق إلى أهلها، سواء أبلغهم تشريع رباني أو لم يبلغهم ذلك، لأن أحداً لا يجهل قبح الظلم مهما ضعفت مداركه، إلا أن يكون ذا جنون مطبق.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء ــ أي: التي لا قرون لها ــ من الشاة القرناء».

وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلَّلْه منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه».

الطريق الثاني: الإعلام المباشر أو بوساطة المبلغين.

١ء ــ وقد علم الله أن معظم عباده سيظلون غافلين عن قضايا الإيمان، وعن كثير من قواعد التشريع والأخلاق، فألزم نفسه بتبليغ عباده شرائعه لهم، عن طريق رسله الذين يصطفيهم للقيام بمهمات التبليغ، وما يتعلق به من وظائف. ولم يتركهم لما أودع في فطرهم من أنوار يستطيعون بها أن يعرفوا الخير والشر والحق والباطل، لأن الاستطاعة الفطرية قد تظل راكدة نائمة، فهي بحاجة إلى من يحركها ويوقظها ويبصرها، ويهديها إلى سبيل كمالها.

ولو لم ينزل الله الشرائع لكان للناس أن يحتجوا بجهلهم أو بغفلتهم وعدم انتباههم، ولكان احتجاجهم هذا مقبولاً في محكمة العدل الربانية.

وفي بيان ما ألزم الله به نفسه من إعلام عباده شرائعه لهم؛ يقول تبارك وتعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

ويقول سبحانه في سورة (التوبة ٩):

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

ويقول في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

في أمها: أي في نحو عاصمتها التي هي المركز الرئيسي لها، وسائر القرى تابعة لها.

ويقول في سورة (الأنعام ٦):

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

وفي بيان قطع أعذار الناس حتى لا يعتذروا بالجهل، أو بالغفلة، أو بمواريث البيئة، يقول الله تبارك وتعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾.

وفي معرض بيان جذور الإيمان الأولى في فطر الناس، وما جاء من تأكيدها ببلاغات الدين المنزّلة، يقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

٢ ــ ولما كان النسيان الذي يعذر به صاحبه حالة من حالات الجهالة، لأن الناسي قد ارتفع علمه بالتكليف وقت نسيانه، كان سبباً من أسباب ارتفاع المسؤولية عنه.

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(١).

أما النسيان الذي لا يعذر به صاحبه فلا ترفع المؤاخذة بسببه، كالنسيان

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي، وهو حديث صحيح لطرقه.

الناشىء عن الإهمال والتهاون والتقصير، وكنسيان الحقائق الكبرى التي تقترن بالمذكرات الدائمة[1].

٣ ـ لا يقال باستطاعة الإنسان إذن أن يتهرب من المعرفة، ويبقى في الجهل، ليعفي نفسه من المسؤولية؛ لأن الإنسان مسؤولٌ أولاً عن تعلم ما يجب عليه التزامه من سلوك حسن، ومسؤول عن تعلم ما يجب عليه اجتنابه من سلوك قبيح، ومسؤول ثانياً عن تطبيق العلم بالعمل.

وقد أنزل الله الشرائع، وأرسل الرسل، فعرفوا الناس، ولفتوا أنظارهم إلى ما يجب عليهم أن يعرفوه ويعملوا به، فلا عذر بعد ذلك للهارب من المعرفة، زاعماً بذلك أنه يعتصم بالجهل الذي يجعله بريء الذمة، إنه سيسأل مرتين: لِمَ لم يتعلم؟ ولِمَ لم يعمل؟ وقد كان باستطاعته أن يتخلص من الجهل، ويعرف ما يجب عليه أن يعمله، وما يجب عليه أن يجتنبه، وهذا مما هو مسؤول عنه، ومكلف به، وقد لفت نظره إليه.

لكنه إذا سعى وراء المعرفة فلم يصل إليها، أو لم يتسع وقته للوصول إليها، فإن جهله حينئذ غير ناشىء عن تقصير منه، فيعذر به، وترتفع عنه بسببه المسؤولية.

لذلك فلا يعذر عامة المسلمين، إذا تركوا واجباتهم الدينية أو وقعوا في المحرمات الدينية، متعللين بجهلهم بأحكام الشريعة لأنه كان يجب عليهم أن يتعلموا، وقد قصروا بهذا الواجب، فعليهم أن يتحملوا تبعات تقصيرهم.

أما المعذور فعلاً بالجهل، كالذي لم يلفت نظره إلى المعرفة أحد، أو لم يتهيأ له ظروف التعلم مع سعيه إليه، فإن الله يرفع عنه حينئذ المؤاخذة، لعدم مسؤوليته بفقد شرط العلم.

* * *

---

(١) انظر بحث النسيان في كتاب «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها» للمؤلف.

(هـ) **شرح الشرط الخامس:**

وهو كون العمل مستطاع الفعل والترك.

فلا مسؤولية عن العمل مع العجز، سواء أكان عجزاً عن الفعل، أو كان عجزاً عن الترك، وبداهة العقول تقضي بأن الاستطاعة شرط لترتب المسؤولية.

أما نصوص الشريعة الدالة على ذلك فمتعددة، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿١٥٢﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾.

فعلى مقدار الهبة الربانية للإنسان تكون درجة التكليف والمسؤولية، وما لا قدرة للإنسان عليه ـ حتى ولو كان من حركات نفسه ـ هو خارج عن دائرة مسؤوليته، كالخواطر التي لا يستدعيها بإرادته، وكالهم النفسي بشهوة من الشهوات التي لا يتعمد إثارتها، ولا يتخذ بإرادته أسبابها، وكالحب الذي لا يملك الإنسان جلبه ولا دفعه ولا رفعه، إلى غير ذلك مما هو خارج عن دائرة استطاعة الإنسان، وليس خاضعاً لسلطان إرادته.

لذلك فإننا نستطيع أن نقول في باب الأخلاق: إن المفطور على سرعة الانفعال حتى لا يستطيع أن يملك نفسه ملكاً تاماً، تخف مسؤوليته في مجال خلق الحلم إلى المقدار الذي يملكه من نفسه بإرادته، بخلاف المفطور على بطء الانفعال، فإن مسؤوليته في مجال خلق الحلم تكون أكبر وأعظم، فإذا هو أسرع بالغضب مع قدرته على ضبط نفسه، فإنه يلام بنسبة أكبر من النسبة التي يلام بها المفطور على سرعة الانفعال، نظراً إلى أنه أقدر على ضبط نفسه منه.

ونظير ذلك المفطور على نسبة عالية من الشح أو الجبن: إن مسؤوليته في مجال الجود أو الإقدام أخف من مسؤولية المفطور على نسبة عالية من الكرم أو الشجاعة وكل منهما تقف مسؤوليته عند حدود استطاعته مغالبة نفسه، فمتى وصل إلى المستوى الذي لا يستطيعه فإن مسؤوليته عندئذ ترتفع، إذ ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ و ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾.

ولكن لا ترتفع المسؤولية في تكليف عام لاحظَ فيه الشارع حدود الاستطاعة الموجودة لدى مختلف طبائع الناس، كالزكاة والنفقة الواجبة في باب البذل، وكالخروج إلى الجهاد في سبيل الله عند النفير العام في باب الشجاعة، باستثناء أحوال العذر كالعمى والعرج والمرض بالنسبة إلى الجهاد، وكذلك كل أصحاب الأعذار الذين أعفاهم الشارع أو خفف عنهم من بعض التكاليف.

* * *

(و) شرح الشرط السادس:

وهو أن يكون صاحب العمل متمتعاً بحريته عند أداء العمل، غير مكره عليه.

والإكراه: هو الإلزام على سبيل القهر والغلبة بالقيام بعمل من الأعمال المادية الظاهرة، تحت تأثير قوة ملجئة، أو تهديد بانتقام أشد ضرراً وشراً من الضرر أو الشر اللذين يفضي إليهما العمل المكره عليه، والملزم بالقيام بالعمل كاره له، مقهور عليه، مغلوب على أمره فيه.

ومن المعلوم أن الإرادة لا تكون تامة الحرية في حالة الإكراه، بل هي مغلوبة مستكرهة، لذلك نلاحظ أن الأحكام الإسلامية قررت رفع مسؤولية الإنسان عن الأعمال المادية التي يستكره على فعلها، وذلك ضمن شروط وتفصيلات مبينة في كتب الفقه.

روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه والبيهقي، وهو حديث صحيح لطرقه.

أي: إن الله تجاوز عن مؤاخذة الإنسان على عمله في كل منها، ضمن شروط الإعفاء من المسؤولية المبينة تفصيلاتها في أحكام الشريعة الإسلامية.

ومن أول الشروط في رفع المسؤولية عن المكره ألا تتفق إرادته القلبية مع إرادة من استكرهه على العمل، أو ألا تكون إرادته القلبية موافقة على القيام بالعمل لذاته بعيداً عن ملاحظة حالة الإكراه الضاغطة عليه.

ومن أمثلة ذلك إكراه أولياء الإماء إماءهم على البغاء بسلطان الولاية، قال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: غفور لهن رحيم بهن، لأنهن كن مكرهات على ما فعلن كارهات له.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن يُكرَه المؤمن على إعلان الكفر بتهديده وتوعده بالقتل الذي لا يستطيع دفعه، أو بالعذاب الشديد الذي لا يستطيع تحمله. وهنا يوازن المؤمن بين إعلانه الكفر أمام الكافرين وبين قتله وتعذيبه، فقد يرى أن هذا الإعلان أخف شراً وضراً من القتل والتعذيب، فينجي نفسه من ذلك بما يرضي عدوه من قول أو فعل، وقلبه مطمئن بالإيمان، أو لا تقوى نفسه على تحمل ما هدد به، فيفعل ذلك وقلبه مطمئن بالإيمان، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

وذلك لأن الإكراه لا يستطيع أن يصل إلى تحويل القلوب عن إيمانها مهما كان شأنه، إلا أن تتخذ فيه وسائل تسلب معها إرادة الإنسان سلباً تاماً،

وعندئذ ترتفع المسؤولية بسلب الإرادة لا بالإكراه. ويقف مدى تأثير الإكراه عند الإلزام بأعمال مادية ظاهرة فقط، كإعلان الكفر باللسان، فهذا الذي يتجاوز الله عنه في حالة الإكراه. ولا يشمل هذا الحكم فيما نرى من إذا أعلن الكفر ولو على سبيل الإكراه كفر من ورائه ناس مقتدون به كفراً حقيقياً، وذلك لأن الشر الذي ينجم عن إعلانه هذا أشد بكثير من الضر الذي يناله بالموت شهيداً في سبيل الله، أو بالتعذيب والإيلام.

ومن أجل ذلك لم يأذن الله لحملة رسالاته للناس بمثل هذا الإعلان مهما نالهم من ضرٍ وأذى، فهذا الإذن خاص بالأفراد العاديين الذين لا يتأثر غيرهم بما يظهر منهم.

ورفع المسؤولية عمن يعلن الكفر تحت تأثير الإكراه وقلبه مطمئن الإيمان، يعني رفع المسؤولية الإلزامية، لا رفع المسؤولية مطلقاً، فالمسؤولية الاستحسانية تظل قائمة؛ فالأفضل للمؤمن أن يصبر، ولو أفضى به الأمر إلى التضحية بنفسه في سبيل الثبات على دينه. وقد استطاع كثير من صادقي الإيمان واليقين بالله أن يصبروا، ويتحدوا إكراه المكرهين، ويتحملوا ألوان العذاب التي لم ترفع عنهم حتى لاقوا حتفهم، ولو أنهم تنازلوا فتفوهوا ببعض كلمات الكفر لنجوا، ولكنهم آثروا الصبر والشهادة على التظاهر بالكفر؛ وهذا هو سبيل المحسنين.

ولقد صبر فريق من المستضعفين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صبراً عظيماً على ألوان البلاء التي كان المشركون ينزلونها بهم، دون أن يتفوه هؤلاء المستضعفون بما يريد المشركون أن يقولوه من ألفاظ الكفر. وقد أثنى الرسول صلوات الله عليه عليهم وعظّم صبرهم، ولم ينههم عما فعلوا. وممن صبروا بلال وخباب وياسر وسمية رضي الله عنهم، وكان ياسر وسمية أول قتيلين استشهدا في الإسلام، بسبب صبرهما وعدم تفوههما بألفاظ الكفر.

وعن خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال:

«قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه» رواه البخاري.

وكل إكراه يمكن التخلص منه بوسيلة لا ضرر فيها، أو بوسيلة ضررها أخف من ضرر ما حصل عليه الإكراه، ويستطيع المستكره مباشرتها، فإنه إكراه لا ترتفع معه المسؤولية، ولا يكون مناطاً للاعتذار به في استحقاق العفو.

وليس من الإكراه حمل الإنسان على ارتكاب إثم كبير وجرم خطير عن طريق تهديده بإنزال ضرر فيه دون الضرر الذي يتحقق بذلك الجرم. ومن أمثلة ذلك حمل الجندي على قتل إنسان بريء غير مدان في القضاء الشرعي بالقتل، فإن لم يفعل ما أمر به سرح من عمله، أو سجن، أو حسم من راتبه مبلغ من المال؛ فإنه في مثل هذا غير مكره أصلاً، لأنه آثر أن يرتكب جريمة القتل خشية أن يسرح من عمله أو يسجن أو يحسم من راتبه مبلغ من المال، ولن يجد لنفسه عذراً عند الله بأنه كان مكرهاً على العمل، ولكنه سيلاقي جزاءه، فهو من شركاء الظالمين وأعوانهم.

ومن روائع أمثلة إيثار العذاب على الوقوع في معصية الله ما كان من يوسف عليه السلام، فإنه لما سمع تهديد امرأة العزيز له إذ قالت: ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين﴾، قال: ﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾.

ونأخذ من كلام فقهاء الشريعة أن العمل الذي قد يحصل فيه الإكراه تعتوره الأحكام الخمسة: فقد يكون بالإكراه مباحاً، وقد يكون واجباً، وقد يكون حراماً، وقد يكون مندوباً إليه وقد يكون مكروهاً.

فمن أكره بالقتل على شرب الخمر مثلاً وجب عليه أن يشربها حماية لنفسه من القتل، لأن ضرر شربها أخف من ضرر التعرض للقتل.

ومن أكره بالقتل على قتل إنسان آخر حرم عليه أن يقتله، لأن عملية القتل ستتم على كل حال، ولكنه إذا قتل بسبب الإكراه فقد أضاف إلى جريمة

القتل إرادته قتل غيره لينجي نفسه، أما لو لم يفعل فإن جريمة القتل انفردت بها إرادة المكره.

ومن أكره بالقتل على إعلان الكفر جاز له أن يعلن الكفر لينجي نفسه من القتل، ولكن الأفضل له أن يصبر، ما لم ير أن نجاته قد تكون أنفع للإسلام والمسلمين فإن إعلانه الكفر في هذه الحالة هو الأفضل.

(ب)

المسؤولية ذات طابع شخصي:

من الواضح في المفاهيم الإسلامية، وقواعد العدل الربانية، أن المسؤولية عن السلوك مسؤولية شخصية، لا تحمل مواريث الأصول الأقربين والأجداد والآباء الأولين، ولا تتحمل نصيباً من سلوك الأهل والأقارب والعشيرة المعاصرين، ولا تورِّث تبعاتها للذراري القادمين، والنصوص الإسلامية الدالة على ذلك كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ . . . ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ

مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (النجم ٥٣):

﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

فهذه النصوص القرآنية ونظائرها تقرر بوضوح تام أن المسؤولية عن السلوك مسؤولية شخصية، فلا يتحمل أحد وزراً من عمل غيره، دون أن يكون له فيه كسب ما، ولا ينال ثواباً من عمل غيره، دون أن يكون له فيه كسب ما.

ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم للأقربين من عشيرته: «اعملوا

لأنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً» ونادى بذلك جملة من صفوة أقاربه حتى بلغ إلى ابنته فاطمة فقال لها: «يا فاطمة بنت محمد اعملي لنفسك لا أغني عنكم من الله شيئاً».

وقال صلوات الله عليه: «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

فالجزاء عند الله بالثواب أو بالعقاب لا تحويل فيه، ولا امتداد، ولا اشتراك، مهما تدانت القرابة. وتأتي مسؤولية الآباء والأجداد عن صور القدوة والتربية التي قدّموها لأبنائهم وأحفادهم، وتأتي مسؤولية الأبناء والأحفاد عن التقليد الأعمى أو البصير لآبائهم وأجدادهم في عاداتهم ومفاهيمهم وطرائق سلوكهم.

والله تعالى يقول في سورة (البقرة ٢):

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

فلا مجال في العدل الرباني لتصور خطيئة موروثة، ولا لأخذ البريء بخطيئة المذنب، بل كل فرد مسؤول وحده عن عمله. وقد يبدو أن قاعدة العدل هذه تتعرض لبعض الاستثناءات، إلا أن التأمل الدقيق يكشف مواطن الشبه، ويدفعها بالحلول المنطقية المقبولة، فمن ذلك ما يلي:

(أ) أما مخاطبة أحفاد اليهود بذنوب آبائهم وأجدادهم فلأن هؤلاء الأحفاد لم يغيروا في حياتهم من خلائق آبائهم وأجدادهم شيئاً، وفي مفاهيمهم الحاضرة تبرير أعمال الأولين، ولو أنهم وجدوا في مثل ظروفهم لفعلوا مثل فعلهم، فمسؤوليتهم إذن عما هم عليه في واقع حالهم.

(ب) وأما مسؤولية الأمة بعامة عن أعمالها الجماعية، فإنها ترجع في حقيقتها إلى المسؤولية الشخصية، لأن كل واحد من الجماعة يتحمل قسطه من

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم عن أبي هريرة، أوله: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا». انظر الباب الخامس من هذا الكتاب، الفقرة (٧).

المسؤولية على مقداره من الجماعة، وينال من الجزاء على مقدار كسبه الشخصي، سواء أكان كسباً إيجابياً أو كسباً سلبياً.

(ج) وأما النصوص التي تثبت أن بعض المسيئين يتحملون أوزاراً من أوزار غيرهم من الناس، فإنما يتحملونها لأنهم كانوا أصحاب كسب ما في وجودها، باعتبار أنهم قادة مضلون، أو دعاة إلى الشر، أو سانّون سنة سيئة في الناس فاتبعهم من ورائهم مقلدون لهم في الشر، ونحو ذلك.

وفي مقابل هذه النصوص وردت نصوص أخرى تثبت أن بعض المحسنين ينالون ثواب أعمالهم، وثواباً آخر مماثلاً لثواب أعمال أناس آخرين، والسبب في ذلك أنهم كانوا أصحاب كسب ما في وجودها، باعتبار أنهم قادة مصلحون، أو دعاة إلى الخير، أو سانّون سنّة حسنة في الناس فاتبعهم من ورائهم مقلدون لهم في الخير، ونحو ذلك.

والسر في تحقيق هذه النتائج أن الإنسان مسؤول عن عمله الإرادي، وعن كل ما ينجم أو ينتج عن عمله الإرادي من آثار، فليس الأمر مقتصراً على ذات العمل، أو على مجرد نتائجه المباشرة، ولكنه يشمل ذات العمل ونتائجه المباشرة وآثاره القريبة والبعيدة، حتى إن الإنسان ليموت وتظل صحيفة أعماله مفتوحة، يسجل فيها كل أثر يتجدد من آثار أعماله التي كان قد عملها في الدنيا وهو حي مكلف مسؤول.

وهي حقيقة مخيفة جداً، ولكنها مطمعة جداً بفعل الخير، وهي منسجمة مع سنّة الله في كونه، فإن الإنسان قد يفعل في الحياة المادية عملاً صالحاً يسيراً، فينتج عنه خير كثير. إنه قد يزرع بزرة طيبة واحدة في أرض خصبة، فتمر السنون فنشاهد أن هذه الأرض قد امتلأت بالنبات الطيب، وغدا الجم الغفير من الناس ينتفعون من هذه البزرة الواحدة التي بذرها، مع أنها لم تأخذ منه إلا جهداً يسيراً. وإن الإنسان قد يفعل في الحياة المادية عملاً خبيثاً قليلاً، فينتج عنه شرٌّ مستطير، إنه قد يقذف بمقدار بزرة الزرع جراثيم وبائية في ماء مدينة من المدن، فتتكاثر هذه الجراثيم الوبائية، حتى يعم الوباء المدينة، ويتسبب بقتل

وتعذيب الجم الغفير من أهلها. فمن العدل أن يجني الأول ثمرة العمل الصالح الذي عمله على قدر آثاره، مهما نتج عنه من آثار حسنة، وأن يتحمل الثاني جريرة العمل الخبيث الذي عمله على قدر آثاره، مهما نجم عنه من آثار سيئة، وذلك ما تقضي به قواعد الجزاء الربانية.

وقد تكاثرت النصوص الشرعية التي تؤكد هذه الحقيقة، فمنها النصوص التالية:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فالمضلون يتحملون آثامهم وآثاماً مماثلة لآثام الذين تأثروا بهم فاستجابوا لإضلالهم؛ دون أن ينقص هذا من مسؤولية أتباعهم شيئاً.

٢ ــ ويحكي الله لنا مقالة بعض أهل النار يوم القيامة فيقول في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

٣ ــ وجاء في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل: «أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين».

فقد بين الرسول له أنه إذا أسلم آتاه الله أجره مرتين، وذلك لأن لإسلامه أثراً في توجيه أتباعه ومقلديه إلى الحق، وإن تولى تحمل إثم كفره وإثم كفر الأريسيين(١)، وهم من لهم صفة التبعية لأمرائهم ورؤسائهم.

---

(١) حقق الشيخ أبو الحسن الندوي أنهم أتباع «أريويس» من النصارى، وأريويس كان صاحب مذهب في النصرانية ينكر فيه ألوهية عيسى عليه السلام ويثبت أنه عبد الله ورسوله، انظر كتابه «السيرة النبوية».

٤ ــ وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

ففي هذا الحديث تصريح جلي بأن الإنسان ينال ثواب عمله الصالح، وثواب كل الآثار التي تنتج عن عمله الصالح، فمن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه في دعوته، وهذا يشمل كل من يتبعه إلى يوم القيامة، ولكلٍ من التابعين أجورهم على أعمالهم، لا ينقص منها شيء، أي: لا يقتطع منها لصالح من دعاهم شيء، ولكن الله يعطي الجميع من فضله. وفي هذا الحديث تصريح جلي بأن الإنسان يتحمل جزاء عمله، وجزاء كل الآثار التي تنجم عن عمله، فمن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه في ضلالته، وهذا يشمل أيضاً كل من يتبعه إلى يوم القيامة، وعلى كل واحد من التابعين جزاء عمله، لا ينقص منه شيء بسبب تحمل من كان السبب في إضلالهم مثل أوزارهم.

٥ ــ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

(باب الحث على الصدقة)

٦ ــ وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سنّ القتل».

أي: إلا كان عليه نصيب من دمها، لأن قتله لأخيه صار في الناس سنة سيئة متبعة من بعده.

ومن هذا نعلم أن آثار عمل الإنسان لا تخرج عن حدود عمله، إلا أن من الآثار ما هو مباشر، ومنها ما هو غير مباشر، وربما يأتي الأثر بعد زمن بعيد جداً، فهو كالمتفجرة الموقوتة.

وفق هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

فإذا مات ابن آدم انقطع عمله لانتهاء فترة ابتلائه، ولكن تبقى آثار عمله تضاف إلى صحيفته. والإنسان مسؤول عن آثار كسبه الإرادي ومحاسب عليها، ولو كان ظهور هذه الآثار بعد أمدٍ بعيد، وتظل التبعة تلاحقه، فهو يجني من ثمرات أعمال الذين كان له تسبب ما في ممارستهم لأعمالهم، حسنة كانت أو سيئة.

(د) وأما النصوص التي تثبت أن المقصرين في بعض الأعمال الصالحات قد يلحقون في مراتب الجنة بالسابقين في أعمالهم، فذلك يرجع إلى إكرام الله للسابقين الذين يحبون أن يلحق بهم في الأجر من كانوا يحبون في الدنيا من أهليهم وذرياتهم وغيرهم، أو يرجع إلى أعمال قلبية خفية كفيلة بأن تلحقهم بالسابقين بمقتضى فضل الله وجوده العظيم.

فمن الأول قول الله تعالى في سورة (الطور ٥٢):

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾.

فشرط هذا الإلحاق أن يكون المُلْحَقون مؤمنين، وسببه إكرام السابقين، ولكن هذا لا يؤثر على السابقين بنقص من درجة استحقاقهم لصالح الذين ألحقوا بهم، وإنما هو فضلٌ من الله، ولذلك قال تعالى في الآية: ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ أي ما نقصناهم من عملهم من شيء.

ومنه قول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

ومن الثاني ما جاء في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من إلحاق المحبين في الله المقصرين بالمحبوبين في الله السابقين، ومنه ما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ (أي: في صالح العمل) فقال: «المرء مع من أحب».

فالحب في الله فضيلة تلحِقُ بجود الله المسبوق بالسابق.

(هـ) وأما الشفاعة فأعظم ما فيها الدعاء بالعفو والغفران، ضمن قواعد المغفرة التي وضعها الله لعباده المذنبين، وهي لا تكون إلا بالإذن، ولا يتحقق المرجو فيها إلا بإرادة الله، ووفق حكمته فيما يعطي عباده من جوده وفضله.

(ج)

قطاعات الكسب الإرادي باعتبار موقع السلوك:

لا ينحصر الكسب الإرادي ـ الذي هو مناط الابتلاء والتكليف ـ بالكسب الجسدي؛ بل هو شامل للكسب الجسدي، والكسب النفسي، والكسب القلبي، والكسب الفكري، وكل أنواع الكسب هذه خاضعة للتكليف والمسؤولية، بشرط أن تكون خاضعة لسلطان الإرادة الحرة في الإنسان.

فكل ما يملكه الإنسان بإرادته من ذاته هو محل للابتلاء والتكليف والمسؤولية.

أمثلـة:

(أ) فمن أمثلة الكسب الجسدي الإيجابي أو السلبي ما يلي:

بذل المعروف، وهو كسب جسدي إيجابي. الكف عن أكل أموال الناس بالباطل، وهو كسب جسدي سلبي. وهذان الكسبان من أمثلة فعل الخير.

العدوان على حياة الآخرين أو أجسامهم بالقتل أو الأذى، وهو كسب إيجابي جسدي. الامتناع عن تأدية الحقوق المادية لأربابها، وهو كسب سلبي جسدي. وهذان الكسبان من أمثلة فعل الشر.

(ب) على الرغم من وجود أمور نفسية كثيرة تخرج عن مدى استطاعتنا وما تملكه إراداتنا ـ فلا نعتبر مسؤولين عنها لأنها واردات غير خاضعة للإرادات ـ فإنها توجد حركات نفسية أخرى يملكها الإنسان بإرادته، أو يملك أسبابها ومقدماتها، ويشعر الإنسان معها بأنه يسيء إذا مارس منها ما هو إثم، ويحسن إذا مارس منها ما هو بر، لأنه يملك صرف ما هو منها إثم عن نفسه، باتخاذ الوسائل لذلك، ويملك اجتلاب ما هو منها بر إلى نفسه، باتخاذ الوسائل لذلك.

فمن تشهّى في نفسه ما لا حقّ له به ـ وقد ورد هذا التشهي بسبب لم يجلبه بإرادته ـ فإنه قد يستطيع أن يعمل على صرف هذا التشهي عن نفسه، بتذكر ما يجب عليه، ومراقبة الله، والتبصر بالحق، وبذلك يكسب كسباً نفسياً مبروراً يثاب عليه عند الله. ومهما صرف عن نفسه هذا التشهي الذي لا حق له فيه كان له كسباً نفسياً مبروراً، أما إذا لم يعمل على صرفه وكان باستطاعته ذلك، بل ترك نفسه تنطلق في تشهي ما لا حق له فيه، ثم أخذ هذا التشهي ينمو في نفسه بسبب من إرادته، حتى صار بعض القبائح النفسية المقيمة لديه، فإنه من دون شك يعتبر كاسباً في نفسه كسباً إرادياً آثماً يؤاخذ عليه عند ربه. وقد يكون الإسهام في الكسب النفسي بصفة إيجابية، وقد يكون بصفة سلبية.

ومثل التشهيات الممنوعة أهواء النفوس الجانحة عن سبيل الخير.

وقد توجد تشهيات وأهواء نفسية خيرة، تخضع هي أو أسبابها لسلطان الإرادة، فيكون دعمها وتنميتها بإرادة الإنسان، واتخاذ الوسائل لذلك من الكسب المبرور الذي يثاب عليه.

ولذلك كان حب الإنسان للحق والفضيلة والخير، الذي ينمو في ظل دعم الإرادة وتربيتها، عملاً من الأعمال المبرورة التي لها حظ عظيم من الأجر عند الله، وظاهر أن هذا العمل من الكسب الذي تمارسه النفوس.

أما كراهية الإنسان للحق والخير والفضيلة النامية في ظل دعم الإرادة وتربيتها؛ فإنها عمل نفسي من الأعمال الآثمة التي لها نصيب كبير من المؤاخذة.

(ج) وفي تصوير الكسب القلبي قد لا نستطيع أن نحدد فروقاً واضحة بينه وبين الكسب النفسي، وقد تختلط علينا أمثلة هذا بأمثلة ذاك، لأننا لا نستطيع إدراك مواقع الحركات التي تجري داخل ذواتنا. لكننا نقول: إن من أمثلة ما تكسبه القلوب والنفوس من غير أن نميز ما لهذه مما لتلك: الكبر والعجب، والحسد، وشدة التعلق بالشهوات المحرمة، والافتتان بالأهواء الجانحة الضارة، والميل العنيف إلى الفجور، ومحبة الظلم والبغي والعدوان، وكل هذه الأمثلة من أمثلة الكسب القبيح الآثم. ومن أمثلة الكسب الحسن المبرور: التواضع، ومعرفة الإنسان حدود نفسه وربط مشاعره بذلك، والرضا بالقضاء والقدر ومجانبة الحسد، وتعلق النفس والقلب بالطاعات، وميلهما الشديد إلى خير الناس وإسعادهم ومرضاة الرب جل وعلا وكراهية الظلم والبغي والعدوان.

إلى غير ذلك من أمور نفسية وقلبية كثيرة، باستطاعة الإرادة أن تتحكم بها، أو بأسبابها الجالبة أو الصارفة.

(د) وفي تصوير الكسب الفكري قد يسهل علينا تمييزه عن الكسبين النفسي والقلبي.

إنها تمر في أذهاننا خواطر كثيرة، وهذه الخواطر لا تقع تحت سلطة إراداتنا، إلا أننا قد نملك بإراداتنا صرفها، عن طريق الاستعاذة بالله، وقد نملك بإراداتنا اجتلاب كثير منها بالتأمل والتفكر وحصر الهمة لذلك.

ومما نملكه بإراداتنا من أفكار ما هو خير، ومنها ما هو شر.

فمن أمثلة الكسب الفكري المبرور: إعمال الفكر في تدبر آيات الله وآلائه، والبحث عن دلائل وجوده وكمال صفاته في آثاره، وابتكار ما فيه خدمة الحق والخير والفضيلة، والتخطيط الفكري لنشر الخير وقمع الشر.

ومن أمثلة الكسب الفكري الآثم: إعمال الفكر في وسائل نشر الشر، وفي ابتكار ما فيه خطط الأذى والضر بخلق الله، وإعمال الفكر في تلفيق الأدلة المزوّرة لجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، خدمة لأهواء النفس وشهواتها، إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة تدخل في أعمال الفكر الإرادية.

ومن هذه الأعمال ما هو إيجابي، ومنها ما هو سلبي؛ فمن الأعمال الفكرية السلبية: ترك ما يجب على الإنسان التفكير والتأمل فيه، وهذا كسب فكري سلبي يؤاخذ الإنسان عليه، ومنها أن يترك بإرادته ما ينبغي له أن يتركه من أفكار جهنمية شريرة، حتى لا تؤثر في نفسه، وهذا كسب فكري سلبي يثاب عليه.

فمن أطلق نفسه بإرادته في كسب نفسي أو قلبي أو فكري سيء، فانطلقت في ذلك، حتى وصل إلى مرحلة لا يستطيع معها رد نفسه عن الشر، وصارت واردات الشر ترد على نفسه من غير إرادته، أو رغم إرادته؛ فالذي يظهر أن ما وصل إليه يعتبر من كسبه المسؤول عنه، لأن مقدماته الأولى قد كانت بسبب منه، فعليه إذن أن يتحمل تبعات النتائج.

فهو في هذا كمن بدأ بتعاطي المخدرات أو المسكرات، حتى تمكنت من جملته العصبية، وأمسى أسيرها، وغير قادر على التخلص منها.

(د)

ما يسأل عنه الإنسان يوم الحساب:

دلت النصوص على أن الإنسان يسأل عن كل الأشياء التي جعل الله له سلطاناً عليها، أو قدرة على التصرف فيها ولو من وجه من الوجوه، أو قدرة تأثير بقول أو عمل أو تفكير.

ومسؤولية الإنسان في ذلك تنحصر في حدود استطاعته وقدرته على التصرف أو التأثير: فمن كان باستطاعته العمل والواجب الديني يُلزِمه بالعمل فهو مسؤول عنه، ومن كان باستطاعته القول والواجب يُلزِمه بالقول فهو مسؤول عنه، ومن كان باستطاعته إبداء الرأي والفكر والواجب يُلزِمه بذلك فهو مسؤول عنه. وهذه المسؤولية تلاحقه منذ يبدأ تكليفه حتى يوافيه أجله، ما لم يسقط التكليف لانعدام شرط من شروطه، وتزداد مسؤوليته كلما ازدادت منح الله له، وتنخفض مسؤوليته بمقدار انخفاض منح الله له.

فمن النصوص المبيّنة لمسؤولية الإنسان، قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي لا تتبع أيها الإنسان في أي أمر من أمورك في حياتك ما ليس لك به علم، إذ لديك من أدوات المعرفة ما تستطيع به التبصر في الأمور، فإذا اتبعت ما ليس لك به علم فقد عطلت أدوات المعرفة التي لديك. لذلك فلا بد أن تكون هذه الأدوات مسؤولة عن تأدية وظائفها الفطرية، أي لا بد أن تكون أنت المسؤول عنها أيها الإنسان، لأن هذه الأدوات جزء من كيانك.

ومن النصوص ما رواه الترمذي ــ وقال فيه: حديث حسن صحيح ــ عن نَضْلة بن عبيد الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن عمله فيم فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟».

فهذه الأربعة: العمر، والجسم، والعلم، والمال، طاقات وضعها الله تحت يد الإنسان يستطيع بها أن يفعل خيراً وأن يترك شراً، وأن يؤدي واجباً، وأن يكف عن محرم، فهو يسأل عنها بمقدار ما وهبه الله منها، وعلى مقدار استطاعته العمل أو الكف عن العمل.

ومجال نشاط هذه الأربعة ما يحيط بالإنسان في هذه الدنيا، مما يستطيع التصرف فيه، أو تسخيره أو توجيهه، من أشياء وأحياء، مما هو داخل في ذاته أو هو خارج عن ذاته.

ومن النصوص ما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

فأبان الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث مسؤولية الرعاية المنوطة بكل راع، عظمت دائرة رعايته أو صغرت، ومسؤوليته تكون على مقدار دائرة رعايته ومقدار سلطته فيها.

ـ ٣ ـ
الحرية وحدودها

لا توجد حرية مطلقة لمخلوق، والحديث عنها خرافة من الخرافات، وطلبها وهم من الأوهام المستحيلة الوقوع، ولا ينخدع بطلبها إلا ناقصو العقل من المراهقين الذين يسبحون في أحلام اليقظة، ويعيشون في دائرة أوهام أنفسهم فقط، أما الواقع في الحياة فمخالف مخالفة تامة لأحلامهم وأوهامهم.

إن الحرية المطلقة ليست إلا لمن بيده الخلق والأمر، وهو على كل شيء قدير، ومع ذلك فهو بحكمته لا يفعل إلا ما فيه الخير، ولا يختار بإرادته ذات الحرية المطلقة إلا ما فيه الخير. وقد كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، وألزم نفسه بأمور كثيرة تجاه عباده، مع أنه لا حق لمخلوق على خالقه، ولكنه تبارك وتعالى رتب على نفسه حقوقاً لعباده.

فمن النصوص التي تثبت طائفة من الالتزامات الربانية ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٣ ــ وجاء في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم عن أبـي ذر عن النبـي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... الخ».

فمن أين للإنسان أن يكون له حرية مطلقة؟ إن حرية الإنسان لتحقيق ما يريد أو يهوى أو يشتهي مقيدة بواقع الضعف والعجز الذي هو مكبل به. قد تتوجه مثلاً إرادة الإنسان الحرة في أن يكون أول السابقين، ولكن يقصر به العجز عن تحقيق السبق لنفسه، فيظهر له بالتجربة الواقعية أنه لم يكن حراً في تحقيق ما أراد، وقد يعجز عن إبداء أية محاولة فيها شيء من الحرية. يتمنى الساقط من مكان شاهق أن يكون لديه القدرة على الطيران ليسلم، ويريد ذلك، ولكنه لا يجد أنه حر في أن يفعل ما يريد، إنه كالمكبل بالأغلال مشدود الوثاق فاقد الحرية. يتمنى الإنسان أن يكون واسع الثراء عظيم الجاه قوي السلطان، ويريد ذلك لنفسه، ولكنه لا يجد أنه حر في أن يصل إلى ما يريد، فحريته مقيدة غير مطلقة، وكذلك كثير من الأماني.

هل نملك الحرية المطلقة في أن نطير طيران النسر؟ أو نغوص غوص الحوت؟ أو نعرج عروج الملائكة؟.

هل ملكنا الحرية المطلقة حينما ولدنا؟ وهل نملك الحرية في أن ندفع عن أنفسنا الموت متى انتهت آجالنا؟

إن قدرات الإنسان ـ مهما كانت فائقة ـ لا تتسع لتحقيق كل مطالبه الخيالية، ولو خلا له مجال الحياة، وتهيأت له كل الفرص المواتية لانطلاق حريته الشخصية. فحق الحرية الشخصية مقيد تقييداً طبيعياً، شاء الإنسان أم أبى.

إن حق حرية الإرادة معارض بحقوق كثيرة، منها حقوق شخصية، تدخل في ذلك الإنسان صاحب الإرادة، ومنها حقوق اجتماعية، ومنها حقوق ربانية.

وهذه الحقوق لا تنال جميعها، إلا على طريقة التوفيق بينها، وذلك بأن يعطى لكل منها نسبته الصالحة النافعة ضمن التوزيع العام العادل، جلباً لأقصى ما يمكن جلبه من الخير، ودفعاً لأقصى ما يمكن دفعه من الشر. والأصل في الإرادة الحرة في الإنسان أن تكون حاكمة عادلة، تعطي كل ذي حق حقه بالعدل، فإن استخدمت حريتها في غير ذلك كانت جائرة، غير صالحة لأن تكون حاكمة في كيان الإنسان، وغير مؤهلة لهذا السلطان العظيم النادر في الوجود، سلطان حرية اختيار ما تشاء، ضمن دوائر الاستطاعة. وحينما يعطى للحاكم سلطة الحكم المطلقة، فليس معنى ذلك إعطاؤه حقاً في أن يظلم، ويجور ويهضم حقوق الناس، لمجرد أن يثبت سلطته، ويطلق فيها إرادته العمياء تفعل ما تشاء.

فمن الحقوق الشخصية: حق تكميل الفكر بالمعرفة، وحق جلب السعادة والطمأنينة للقلب والنفس. ومنها حقوق الجسد على الإنسان: كحقه في الغذاء من غير إسراف، وحقه في الدواء النافع، وحقه في الاستمتاع بالراحة واللذات المباحة من غير إسراف ولا تقتير، وحقه في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره.

فهل من حق حرية الإرادة الشخصية أن يقتل الإنسان نفسه ليرضي شهوته؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يُمرِض الإنسان جسمه ليرضي نهمته؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يخرب الإنسان طاقته الفكرية وقوته العقلية ليرضي هواه في عادة استحكمت فيه، وتمكنت من نفسه؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يدمن الإنسان المسكرات، أو المخدرات، ويقذف بنفسه في مصائب عواقبها مؤلمة؟!.

هذا أمر لا يقبل به ذو عقل.

أما الحقوق الاجتماعية فكثيرة: منها أن لا يتعرض الإنسان من أجل إثبات حريته الشخصية إلى شيء من حقوق الآخرين بظلم أو عدوان، ومنها أن يشترك مع المجتمع في تكافل اجتماعي يتبادل فيه أفراد المجتمع الأخذ والعطاء، ضمن قواعد العدل والإحسان والواجب. ما دام الإنسان كائناً اجتماعياً فلن يكون ذا حريه مطلقة، إن شركاءه في الهيئة الاجتماعية سيحدّون من حريته، لأن لهم مصالح مثلما له مصالح، ولأن لهم مطالب مثلما له مطالب، ولن تتسع حياة الجماعة لجميع المطالب الخيالية التي يصبو إليها الأفراد.

فهل من حق الحرية الشخصية أن يقتل الإنسان غيره ليثبت حريته؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يرضي الإنسان شهوة من شهواته في حين أنه ينجم عنها آلام آخرين وعذابهم؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يدمن الإنسان المسكرات ويخلف ذرية ترث عنه العاهات والأمراض الخطيرة بسبب إدمانه؟ إنه بإدمانه المسكرات لا يجني على نفسه فقط وإنما يجني على نفسه وعلى ذريته، وعلى المجتمع الذي يعيش فيه، لما يجلب له من متاعب، وما يحمله من أعباء. هل من حق الحرية الشخصية أن يقذّر الإنسان في طريق عام، ويعرض الآخرين للأذى، ويعرض صحتهم للأمراض والأوبئة؟ إنه لا يملك أن يفعل مثل هذا في بيته الخاص به، إذا كان لفعله أضرار وآثار تتعدى للآخرين. ولو أنه كان مريضاً بمرض معدٍ يسري بحسب سنن الله الكونية إلى الآخرين، لم يكن من حق حريته الشخصية أن يجتمع بالناس، لئلا يسبب لهم العدوى، وعليه أن يفرض على نفسه حجراً صحياً. هل من حق الحرية الشخصية أن يسلب الإنسان مال غيره بالباطل؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يعلن الإنسان جحوده بالحقائق الثابتة، ويعمل على إضلال الناس؟ إنه يجب أن يعاقب ويحجز ويمنع من ذلك، لا سيما إذا كانت هذه الحقائق تتصل بمصالح الناس وأنظمتهم، وضوابط هيئتهم الاجتماعية.

وأما الحقوق الربانية، فهي حقوق الخالق المالك على عباده، وليس من

حق الإنسان أن يستخدم ما أعطاه الله من الحرّيّة الشخصية في العدوان على حقوق مانح هذه الحرية، وأن يتجاوز بها الحدود التي حدها له، وكان باستطاعة الخالق المالك وما يزال باستطاعته أن يسلبه حريته وحياته وكل ما أعطاه.

إن مما لا شك فيه أن الحقوق لها حدود، وأن كل حق متى تجاوز حده خرج عن دائرته فكان عدواناً وظلماً.

فدعوى حق الحرية الشخصية المطلقة لا تقوم إلا على أساس واحد، هو إلغاء كل الحقوق إلا حق الحرية، وهذه الحرية الشخصية هي في الأساس خادمة للحقوق الأخرى، ومنظمة لها، وليس لها مطالب ذاتية، غير الشعور باستقلال الذات.

إن الذين يزعمون أنهم يعطون أنفسهم حرياتها الشخصية يقعون فريسة للأهواء والشهوات والشياطين، وعندئذ لا تكون لهم حريات شخصية، وإنما تكون لهم إرادات مستعبدة مذلة بين أيدي الأهواء والشهوات والشياطين.

إن الذي يستطيع أن يظفر بأكبر قسط من الحرية الشخصية هو الذي يكون عبداً لله حقاً، فمن تحقق بعبوديته لله تبارك وتعالى ملك هذا الحظ الأوفر، فاستطاع بحرية تامة أن يدير شؤون نفسه إدارة حكيمة عاقلة، غير واقعة في إسار جمهور أهواء النفس الجامحة، والشهوات الجانحة، وحمى نفسه من أن يكون عرضة لاستحواذ شياطين الإنس والجن عليه، لأن من كان عبداً لله حقاً تحرر من أسر كل ما عداه.

فالعبودية لله تعالى تصون وتحمي، وتعلي وترفع، وتسدد الطريق، وتحمل الإنسان على سفينة النجاة، في خضم بحر الحياة المتلاطم، وتأخذ بيده إلى السعادة العاجلة، ثم إلى السعادة الخالدة.

ومن ترك العبودية لله تعالى منخدعاً بزخرف أوهام الحرية الشخصية قذف بنفسه في أودية الهلاك والدمار، ودفع بها إلى أقبح أنواع الاستعباد والإسار، إذ تتخطفه الأيدي المختلفة، وتجتاله الشياطين، وتجعله عبداً ذليلاً لها، وتمزقه شر ممزق، وعندئذ يذوق آلام الشقاء في حياته الدنيا ثم في حياته الأخرى.

نعوذ بك اللهم من ضلال الرأي، ونعوذ بك اللهم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ويحمل بعض المراهقين أقوال الفوضويين في الحرية الشخصية بغباء، ويرددونها بدون عقل ولا بصيرة، زاعمين أن طريق الظفر بالسعادة في الحياة إنما يكون في إطلاق حريات الأفراد، في أن يفعل كل منهم ما يريد، دون أن يكون له رادع يردعه، أو حاجز يحجزه، من سلطة إدارية، أو هيئة اجتماعية، أو دين أو أخلاق أو قوانين، وزاعمين أن الحرية الشخصية المطلقة دون أي قيد حق طبيعي فطري من حقوق الإنسان، ولا يصح أن ينزع منه.

ويستغل المفسدون في الأرض هذه الفكرة المدمرة لهدم كيان الجماعات، وتبديد طاقاتها، دون أن يخسروا في ذلك شيئاً من رجالهم، أو أموالهم، أو عتادهم، وذلك إذ ينطلق مراهقو الشعوب بدافع من هذه الفكرة الخبيثة، وهم يحلمون بأمجاد وهمية، ويظلم عليهم الليل وهم مندفعون، ثم لا يجدون أنفسهم ولا يجدون شعوبهم إلا ضحايا وأسارى في أيدي أعدائهم الشياطين.

قصة الحكيم الرباني وداعي الحرية المطلقة التي ليس لها حدود:

التقى الحكيم الرباني بداعي الحرية المطلقة، فأخذ داعي الحرية المطلقة يبشر بمذهبه الشيطاني، ويقدم أنواعاً من زخرف القول، يصعّد فيه مرة ويصوّب فيه أخرى، دون أن يستند في أقواله إلى أسس منطقية سليمة، ودون أن يلتزم بقواعد المناظرة الصحيحة. وكان الهراء الفكري في كلامه كثيراً، إلا أنه مصنّع مزخرف يخدع صغار العقول، ومن ليس لديهم خبرات طويلة، ولا تجارب متنوعة في الحياة.

زعم داعي الحرية المطلقة أن الحرية الشخصية حق طبيعي فطري من حقوق الإنسان، وأنه لا يصح بحال من الأحوال أن ينزع منه.

قال الحكيم الرباني: ما دام الإنسان لا يعيش وحده في الوجود، بل يعيش مع آخرين، فإن حريته المطلقة التي تزعم أنها حق طبيعي له، لا بد أن تتعارض

وتتصادم مع حريات الآخرين بصورة حتمية؛ أليس الآخرون كما تزعم أصحاب حرية مطلقة، وهي لهم حق طبيعي أيضاً؟.

قال داعي الحرية المطلقة: كل يستعمل حريته، وينتصر من ينتصر من الفرقاء وينهزم من ينهزم.

قال الحكيم الرباني: فهل بقي للمنهزم حرية مطلقة، أم أن حريته أمست أسيرة سجينة، أو صريعة قتيلة، في يد حرية المنتصر؟.

قال داعي الحرية المطلقة: الذنب ذنب المنهزم، لأنه لم يستطع أن يحمي حرية نفسه.

قال الحكيم الرباني: وممن يطلب حريته بعد أن سلبت منه بضعفه وانهزامه؟.

قال داعي الحرية المطلقة: يعبىء قوة جديدة يستعيد فيها حريته المطلقة ويصارع حتى ينتصر.

قال الحكيم الرباني: إذن تظل مطالب الناس في أيدي الأقوياء الذين يرضون حرياتهم الخاصة على حساب استعباد أو قتل حريات الآخرين الضعفاء، وهؤلاء لا يستطيعون أن يتمتعوا بحرياتهم، وحينما تكون القوة في يد القلة فإن الكثرة هي التي تكون محرومة من الحرية، وعندئذ يكون القانون السائد هو قانون القوة، لا قانون الحريات، ويكون الحق الطبيعي عندئذ للقوة لا للحرية، فمن حيث تريد خدمة الحرية تدفع بها إلى شر أنواع الأسْر والقيد والاستعباد.

قال داعي الحرية المطلقة: أنا لا أقبل بديلاً عن مذهب الحرية المطلقة، لأنها في نظري هي العنصر الوحيد لتحقيق الذات، وبها يتحقق الشعور بالسعادة، وهذا ما أصر عليه ولا أتنازل عنه.

قال الحكيم الرباني: لكن أية نظرية لا يصح اعتبارها من المسلمات حتى تمتحن بالواقع التجريبي، فإما أن يظهر الواقع صحتها، وإما أن يظهر الواقع فسادها.

قال داعي الحرية المطلقة: قبلت بمبدأ امتحان الحرية المطلقة بالواقع التجريبي.

قال الحكيم الرباني: هلم إذن فلنخرج معاً إلى صحراء نائية، وليس مع أحد منا إلا زاده وشرابه، وليأخذ كل منا هنالك حريته التامة، لنمتحن بصورة عملية واقعية، نظريتك في إطلاق الحرية الشخصية من كل القيود الأخلاقية والدينية والقانونية والاجتماعية.

واتفقا، وخرجا، وسارا حتى وصلا إلى صحراء موحشة منقطعة، وكَلَّ داعي الحرية من طول المشي، فأراد أن يجلس ليأخذ قسطه من الراحة، هنالك جد الحكيم الرباني في المسير.

قال داعي الحرية المطلقة: يا هذا كيف تتركني في هذا المكان المنقطع الموحش إني أخاف أن تأكلني السباع.

قال الحكيم الرباني: إنها حريتي المطلقة، أفعل بها ما أشاء، ولا تستطيع بعجزك عن مسايرتي أن تقيد حريتي.

فتوسل إليه داعي الحرية فأبى، ثم قال له الحكيم: اختر حلاً آخر غير بقائي، فلعله يصادف هواي، فتتفق حريتي مع حريتك.

قال داعي الحرية المطلقة: وماذا عسى أن يكون هذا الحل الآخر؟ إنه لا يوجد حل آخر يوافقني إلا أن تحملني.

قال الحكيم الرباني: أوافق على هذا الحل.

وحمل الحكيم داعي الحرية بعد أن قيده بإرادته، وسار به مفازة، حتى وصلا إلى بئر شديدة العمق، قال الحكيم: إني الآن أشتهي أن أرميك في هذه البئر، فأخذ المغرور يبكي ويقول: لماذا تريد أن تلقيني بالبئر، أتريد أن تقتلني وتتخلص مني؟.

قال الحكيم الرباني: هذا شأن حريتي المطلقة، ولا علاقة لك بها، وأنا

قادر الآن على أن أنفذ فيك ما أريد بحرية تامة، وأما أنت فاستعمل كامل حريتك حسب قدرتك.

قال داعي الحرية المطلقة: لكنك شددت الوثاق علي فأنت أقوى مني الآن.

قال الحكيم الرباني: لقد شددته عليك وأنت بذلك راض، وقد كنت حراً في أن لا أشده عليك، إلا أنك آثرت أن أحملك ولو أوثقتك على البقاء في الصحراء الموحشة لأنياب السباع.

فتوسل داعي الحرية إليه أن لا يرميه في البئر، فأبى الحكيم، وتظاهر بأنه يريد أن يرميه فعلاً في البئر الشّديدة العمق، فاستولى الهلع على الرجل المغرور، وخاف من الهلاك على يد الحكيم عندئذ.

قال داعي الحرية: أيها الحكيم أليس عندك أخلاق؟ كيف تقتلني بغير حق؟.

قال الحكيم الرباني: أنت من دعاة الحرية المطلقة، ولا تؤمن بالأخلاق وفضائلها، وقد اتفقنا على تطبيق مبدئك في الحرية.

قال داعي الحرية: اتركني يا حكيم، أما تخاف الله؟.

عندئذ استغل الحكيم الرباني الموقف، فقال له: ما تقول في نظريتك؟ هل ما زلت مستمسكاً بها؟ أم أصبحت تعتقد أن الحرية المطلقة خرافة من الخرافات، وأن الحرية ينبغي أن تكون مقيدة بقيود الأخلاق والدين؟.

قال داعي الحرية: لقد تنازلت عن بعض نظريتي، فالحرية الشخصية يجب أن تقيد بالأخلاق الاجتماعية.

عندئذ فك الحكيم الرباني وثاقه وأطلقه.

قال الحكيم الرباني: هل تصاحبني إذن على أن يلتزم كل منا بقيود الأخلاق الاجتماعية، ويكون كل منا حراً في سلوكه الشخصي البحت، الذي

لا يضر أحد منا فيه رفيقه، ولا يقصر فيه مع رفيقه بمعونة أو حماية أو أي واجب من الواجبات الاجتماعية؟.

أما طعام كلٍ منا وشرابه فهو يتبع الحرية الشخصية.

قال داعي الحرية: نعم، فإما أن تقنعني بعد ذلك بنظريتك، فأسلم معك بأن طلب الحرية المطلقة طلب باطل، وإما أن أقنعك بنظريتي. أما علاقاتنا الاجتماعية فمصونة بحدود الأخلاق الاجتماعية، فلن أتعرض منك بعد اليوم إلى ما يؤذيني، ولن تتعرض مني إلى ما يؤذيك، وسيساعد كل منا صاحبه، في غير ما هو من دائرة الحرية الشخصية التي اتفقنا عليها.

وسارا ملتزمين بقيود الأخلاق الاجتماعية فقط، واحتفظ كل منهما بحريته الشخصية في قضية طعامه وشرابه.

فأخذ داعي الحرية يسرف ويبذر فيما يحمل من طعام وشراب حتى نفد ما عنده، وكان الحكيم يعظه بعدم التبذير التزاماً بقيود الأخلاق الاجتماعية، ويقول له داعي الحرية: هذا طعامي وشرابي، وأنا حرٌ في تصرفاتي الشخصية، إياك أن تتدخل في شؤوني الخاصة.

ولما نفد ما لديه، وعضّ عليه الجوع والعطش، ألجأته الضرورة إلى الحكيم يلتمس منه فضل ما عنده من زاد وشراب.

قال الحكيم: يا رفيقي أما اتفقنا على أن الطعام والشراب من دائرة الحرية الشخصية، أما أنت فبذّرت، وكان بأستطاعتك أن تقتصد مثلي، ولكنك لم تفعل، ولم تستجب لنصحي، فتحمل أنت نتائج تصرفاتك.

عندئذ تنازل داعي الحرية عن قسم آخر من مذهبه في الحرية، وأعلن ذلك للحكيم، فقرر الحكيم مساعدته ببعض طعامه وشرابه، بشرط أن يحجر عليه، ولا يدعه يبذر، وفرض عليه أن لا يعطيه من الطعام والشراب إلا ما يتفق مع الحكمة.

وأراد الحكيم أن يعمق اقتناع داعي الحرية بضرورة تقييد الحريات

الشخصية؛ حتى فيما يتعلق بخصوصيات الإنسان نفسه، فتابع معه الرحلة حتى مرا بقرية، فوجدا فيها إنساناً مشوه الخلقة، مصاباً بأمراض عصبية شنيعة، قد شدّ وثاق شيخ كبير، وجعل يضربه ضرباً شديداً والشيخ الكبير يصيح من الألم، ولا يستطيع الناس إنقاذ هذا الشيخ الكبير من هذا الوقح القبيح، فسألا عنهما، فقال الناس: هذا المشوه ابن هذا الشيخ.

قال داعي الحرية: هذه جريمة من أعجب العجب، ولماذا يضرب أباه كل هذا الضرب؟.

فأقبل الحكيم على الضارب ــ وكان الحكيم رجلاً قوياً ــ فأمسك به فأعجزه، وأنقذ منه أباه، ثم أجلسهما بين يديه في مجلس قضاء ومحاكمة، وآزره على ذلك داعي الحرية.

قال الحكيم للابن الجاني: أما تخشى الله يا رجل؟ أما تشعر بوخز الضمير؟ أما تستحيي من نفسك أن تضرب أباك؟.

قال الابن الجاني: هذا أبي هو الذي جنى علي، هو الذي تسبب لي بهذا البلاء والعذاب الذي ترونني فيه، تشوه في الخلقة، وأمراض عصبية مؤلمة، لو بقيت أضربه فترة طويلة من الزمن لم يعادل ذلك ما أنا فيه من بلاء وعذاب ملازمين لي مدى حياتي، لقد كان ذلك بسببه.

إن أبي هذا قد كان مدمن خمر، وصاحب فسق، فجئت بسبب إدمانه وفسقه مكبلاً بهذا البلاء.

فسأل الحكيم الأب عن ذنبه فأقره، وقال: لقد وعظني الحكماء كثيراً أن أترك الخمر والفسق حتى لا أجني على ذريتي، فكنت أقول لهم: هذا شأني الخاص، وهذه حريتي الخاصة، ولا دخل لأحد في خصوصياتي، ولم أقبل نصح ناصح منهم. لقد كانت شهوتي وأهواء نفسي أقوى من إرادتي، ويا ليت المجتمع يومئذ حجز حريتي، ومنعني من كل هذه التصرفات التي جنيت بها على نفسي وعلى ولدي، وثقوا أن آلامي من أجل ولدي أعظم من آلام إهانته وضربه لي.

عندئذ بكى الولد، وعانق أباه.

وقال داعي الحرية: إذا ضعفت إرادة الفرد فعلى المجتمع أن يكون رقيباً عليه، حارساً له، مانعاً من أن يفعل ما يضره أو يضر غيره، حاجزاً لحريته.

قال الحكيم الرباني: لو كان مجتمعه مجتمعاً إسلامياً ما وصل هو ولا ولده إلى هذا البلاء، لأن المجتمع حينئذ يحجر عليه، ويعاقبه من أول الطريق فيردعه.

ثم خرجا من القرية وسارا إلى مدينة من المدن الكبرى، فقصد الحكيم ومعه صاحبه أحد المستشفيات الخاصة بمعالجة المصابين بداء تعاطي المخدرات، فوجدا أناساً يتخبطون كالمجانين، ويصيحون ألماً.

فسأل الحكيم صاحياً منهم في نوبة من نوبات هدوئه: ما بالك؟ فأجابه بأنه يتمنى الموت، ويفضله على حياته التي يعيشها، وصار يلعن مجتمعه الذي لم يساعده على نفسه، فيكفه من أول الأمر عن الانطلاق في طريق الحرية الشخصية، التي انزلقت به إلى هذا العذاب الذي يعاني منه.

قال له الحكيم: أين كان عقلك يومئذ؟.

قال صاحب البلاء: كنت يومئذ مراهقاً ناقص العقل، فوسوس إلي رفقاء السوء بنزغة التحرر من القيود الأخلاقية والدينية، فحلا هذا الأمر في نفسي، فانطلقت معهم، ولم أجد من المجتمع حولي من يصدني عن هذا السبيل الشيطاني الخبيث، حتى تمكن مني الداء، فصرت إذا صحوت عقلت ما أنا فيه، وتمنيت لو أن المجتمع عاقبني ألف عقاب، ليكفني عن سبيل الشر، إنه لو فعل ذلك لكان خيراً لي مما أنا فيه اليوم من بلاء ألف مرة، لأنني كل يوم أذوق عقابي الذي هو نتيجة أعمالي مضاعفاً عما لو عاقبني المجتمع، إن كل هؤلاء المصابين يتمنون مثلما أتمنى وأكثر!!.

وأخذ يلعن دعوة الحرية الشخصية المطلقة، ويلعن دعاتها الذي يريدون تهديم الأبنية الأخلاقية الفردية والاجتماعية وإطلاق الناس يفعلون الشرور على ما يشتهون.

فدعا الحكيم له بالعافية، وانصرف هو وصاحبه.

قال الحكيم لصاحبه: لو كان المجتمع الذي يعيش فيه هذا الرجل وأمثاله مجتمعاً إسلامياً صحيحاً، لما وصل إلى ما هو فيه من بلاء، لأن المجتمع يكون حينئذ رقيباً محاسباً، وسنداً وعوناً للإرادة الخيرة عند الإنسان، وعندئذ تقوى دوافع الخير في الفرد على نوازغ الشر في نفسه، وتقوى على نزغات الشياطين الداعية إلى التحرر من القيود، فتثقل الإرادة الخيرة، وتكون هي صاحبة الرجحان، فيفعل الإنسان الخير، ويبتعد عن الشر.

إن المجتمع الصالح يقف دون نزغات التحرر من القيود في نفس الفرد، ناصحاً حيناً، ومؤنباً حيناً آخر، ومهدداً بالعقاب، ثم معاقباً إذ لزم الأمر، وبذلك تصان الأفراد، وتصان المجتمعات، من شرور أهوائها وشهواتها، ومن شرور نفوسها، ومن شرور الشياطين الموسوسين لها.

فالغاية من القيود والضوابط التي تقيد حريات الأفراد عن الانطلاق الأرعن إلى الموبقات، إنما هي الحفاظ على سلامة الأفراد وسلامة المجتمعات، من أنواع البلايا والشرور التي تجلبها هذه الحريات الرعناء، التي تمسي أداة طيعة في أيدي الأهواء العمياء.

والمجتمع الإسلامي المتقيد بتعاليم الإسلام خير حارسٍ أمين، وأفضل مجتمع يأخذ بأيدي أفراده إلى قمم السعادة العظمى والمجد الرفيع.

قال صاحبه: إذن فالضرورة تدعو إلى إقامة مجتمع إسلامي واعٍ حذر، يقيد من حريات أفراده، ضمن حدود الخير والفضيلة.

قال الحكيم: نعم، هذه حقيقة من حقائق الاجتماع البشري، وإنها لتعتبر أساساً أولياً من أسس إقامة المجتمعات الفاضلة، وإن للأفراد حقاً على مجتمعاتهم بأن تكون هذه المجتمعات عوناً للأفراد على أنفسها، حتى يتقيدوا بحدود الحق والخير والفضيلة لهم ولمجتمعاتهم، لاغتنام أكبر قسط مستطاع من السعادة، ولو لزم من ذلك معاقبة الأفراد، على نزغات الشرور التي تظهر فقاعاتها على سطح السلوك الفردي أو الاجتماعي بين حين وآخر.

قال صاحبه: فأين إذن يكون موقع انطلاق الحرية الشخصية في المفاهيم الإسلامية يا حكيم؟.

قال الحكيم: نجد في المفاهيم الإسلامية موقعين تنطلق في حدودهما الحرية الشخصية:

الموقع الأول: مجال المباحات المطلقة. فللحرية الشخصية أن تثبت ذاتها في اختيار ما تشاء ضمن هذا المجال، وأفراد هذا المجال في الوجود أكثر عدداً من أفراد أي مجال آخر، إنه مجال يماثل المجال الذي أطلقه الله لآدم في الجنة، إذ قال له كما جاء في سورة (البقرة ٢):

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا . ﴿٣٥﴾﴾.

أما مجال المحرمات والواجبات فهو مجال يجب فيه تقييد الحريات الشخصية بالإرادة، التزاماً بحدود الحق والخير والفضيلة، وهو مجال أفراده قليلة ليست بالكثيرة، وهو شبيه بالمجال الضيق الذي حرم الله فيه على آدم أن يأكل من شجرة معينة، إذ قال له ولزوجه في تمام القول السابق:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

الموقع الثاني: هو مجال التنافس والتسابق في الخيرات. وهذا المجال تقع فيه أمور يحسن فعلها، من غير أن تكون واجبات يلزم الإنسان بفعلها، وأمور يحسن تركها، من غير أن تكون محرمات يلزم الإنسان إلزاماً جازماً باجتنابها.

فهذا المجال مجال تستطيع فيه الحرية الشخصية أن تثبت ذاتها، من غير قيود ملزمة، ولكن الإرادة تتطوع فيها بفعل الخير منافسة أقرانها، ومسابقة إلى مراتب المجد والكمال، وحسب المقصر فيها حرمانه من ارتقاء هذه المراتب، وحرمانه من الأجر العظيم عند الله.

وهذا المجال واسعٌ جداً.

قال صاحبه: إذن فلم يبق بعد هذين الموقعين إلا موقع صغير تقيد دونه الحرية.

قال الحكيم: نعم، ومع صغر هذا الموقع وضيق مجاله تحاول الحريات الإنسانية الشاذة أن تتجاوز حدوده، وتخرج فيه عن الطوق!!.

قال صاحبه: يجزيك الله خيراً يا حكيم، أنا منذ الآن داعٍ من دعاة الالتزام بضوابط الأخلاق الإسلامية، فهي الكفيلة بأن تمنح السعادة للأفراد والمجتمعات، وهي الكفيلة بتكوين العالم الفاضل السعيد. وأنا منذ الآن حربٌ على مذهبي الأول، وعلى دعاته، مذهب إطلاق الحريات من غير ضوابط ولا حدود.

قال الحكيم: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ـ ٤ ـ
الخطيئـة والغفـران

فطر الله الإنسان، وجعل إرادته ذات سلطان، بين كفتي ميزان، هذه من ذات اليمين تميل به إلى ما يرضي الرحمن، وفعل الخير والإحسان، وهذه من ذات الشمال تنزع به إلى الفسوق والعصيان، واتباع خطوات الشيطان.

أما التي من ذات اليمين: فدوافع خيرة، تحب الحق وتهفو إليه، وتميل إلى فعل الخير وتشعر بالطمأنينة إليه. يضاف إلى ذلك عقلٌ مرشد إلى الصواب، يدرك الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة. ويضاف إليه أيضاً لـمّة ملك من ملائكة الرحمن، يأمره بالخير من داخل نفسه ويحثه عليه، وشريعة الله للناس، وما فيها من مواعظ ووصايا، ووعد ووعيد، ثم عظات التجارب الإنسانية العامة، والتجارب الشخصية، ومساعداتٌ أخرى من الذين يدعون إلى الخير من الناس.

وأما التي من ذات الشمال: فنوازع فطرية إلى الاستقلال الذاتي وحب الخروج عن الطاعة والتبعية في بعض أموره، وأهواء تلح بالمطالب التي لا تتم تلبيتها إلا بالانحراف عن صراط الهداية، وبارتكاب السيئات والآثام، وشهوات

قد لا تقنع بما هو ميسور على طريق الاستقامة، ونفس رعناء نزّاعة إلى الشر وأمارة بالسوء. ويضاف إلى ذلك شيطان يوسوس من داخل النفس، يأمر بالفحشاء والمنكر، ويدلي بغرور إلى مواقع الخطيئة والإثم، ثم ضلالات شياطين الإنس القولية والعملية، المقرونة ببعض لذائذ الجسد، وأهواء الأنفس وشهواتها.

وخلق الإنسان ضعيفاً بين هذه التي من ذات اليمين، وهذه التي من ذات الشمال فهو عرضة للكبوات، والعثرات، والخطيئات.

كذلك هو واقع حال الإنسان المشهود، وواقع حاله الذي كشفت عنه نصوص القرآن المجيد والسنة المطهرة.

ولما كان الإنسان عرضة للكبوات ـ بسبب الضعف الإرادي الذي فطر عليه ـ تجاه مؤثرات الأهواء والشهوات ومختلف الدوافع النفسية، كان من الحكمة التربوية له أن تهيأ له فرص من الطاعات والعبادات والاستغفارات المقرونة بالتوبة والندم والعزم على الاستقامة، حتى تكون له بمثابة تطهير، يغسله من قذارات الإثم التي علقت به، كما تغسل الثياب من أدرانها وما يعلق بها من أوساخ. ولولا فضل الله ورحمته بعباده ما زكا من الناس من أحد، إلا من عصمهم الله بعصمته، وهذا ما بينه الله بقوله تعالى في سورة (النور ٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: لولا فضل الله عليكم بالحفظ ورحمته لكم بالعفو والغفران ما صلح أحد منكم، ولا طهر أحد منكم من أدناس ذنوبه ومعاصيه؛ وذلك لأن الإنسان خطاء مذنب.

روى الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«كلُّ بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». إسناده حسن وصححه الحاكم وابن القطان.

وروى مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِجْل زناها الخُطى، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك ويكذبه».

وجاء في الحديث القدسي الصحيح: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً».

«ولكن الله يزكي من يشاء»: فهو الذي يطهر بالعفو والغفران من يشاء من عباده، ومشيئته تعالى موافقة لحكمته، فمن سمع منه توبته، وعلم إخلاصه وصدقه فيها ورغبته بإصلاح حاله، غفر له وعفا عنه، فكان زكياً طاهراً نقي الصفحة، كأنه لم يكن من المذنبين «والله سميع عليم».

وفي هذا يتبين لنا جانب من جوانب الواقعية في الإسلام: فكما أن الإسلام واقعي في أحكامه وتعاليمه، وفي تربيته للناس، وفي دعوتهم إلى الحق، وفي محاسبتهم على أعمالهم، هو واقعي أيضاً في تقدير ظروف الإنسان، وملاحظة واقع حال الضعف البشري الذي قد ينزلق به إلى الوقوع في الخطيئة وارتكاب المعصية والإثم، ففتح له أبواب التوبة والاستغفار، وأطمعه بالعفو والغفران ليقيل عثرته.

إن واقع حال الضعف البشري هذا يستدعي واقعية تربوية، وواقعية جزائية، وواقعية إصلاحية، لذلك فتح الرحمن للإنسان باب الغفران، وهيأ له بذلك أهون الوسائل وأكرمها، كيما يتخلص من الإثم، ويلقي عن كاهله أثقال الأوزار، ويقوّم ما اعوج منه، ويرد نفسه إلى صراط الحق، ويتابع مسيرته في الحياة مهدياً، سالكاً سواء السبيل، حتى يظفر بالنجاح حينما تنتهي فترة ابتلائه في هذه الحياة الدنيا.

وتختلف عند الناس نسبة ضعف الإرادة الواقعة بين قوى متباينة، تتجاذبها من ذات اليمين ومن ذات الشمال، وهذه الإرادة التي تمثل الحكم صاحب السلطان بين القوى المتباينة، لا بد أن تضعف في بعض أحوالها، فتجرب الاستجابة لبعض القوى التي تجذبها من ذات الشمال، وعندئذٍ يجد الإنسان نفسه ساقطاً في الخطيئة.

وتختلف هذه الاستجابة عند الناس شدة وضعفاً، وكثرة وقلة: فمنهم السابقون في الخيرات، وهم الذين تقوى إراداتهم، فتكثر صالحاتهم، وتندر فلتات مخالفاتهم وسيئاتهم. ومنهم المتأرجحون بين الاستقامة والانحراف، وهم الذين يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ومنهم الظالمون لأنفسهم، وهم الذين ضعفت إراداتهم ضعفاً فاحشاً، فانغمسوا في الموبقات الكثيرات، وزادوا في الانحراف عن الصراط السوي، بما يكتسبون من خطايا.

وتبياناً لهذا الواقع الإنساني المفطور على الضعف، يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

وقد جاء التخفيف في مقابل الضعف الإنساني بفتح باب العفو والغفران، واستئناف فرص التجربة والامتحان، ما دام أمام الإنسان فسحة من أجله في ظروف هذه الحياة الدنيا.

وفي قصة الخطيئة الأولى في حياة الإنسان، وذكر الله لها في القرآن إشعار بالواقع الإنساني، وبالواقعية الدينية المشمولة برحمة الله وبحكمته.

لقد أثبت الله لنا في هذه القصة أولى المخالفات لأول إنسانين خلقهما، لقد نهاهما عن أن يأكلا من شجرة معينة، بعد أن أباح لهما أن يأكلا من كل ما في الجنة سواها، فأكلا منها، وعصيا ربهما، متأثرين في ضعفهما البشري بوساوس الشيطان، وكذبه عليهما، إذ قاسمهما بأنه ناصح لهما غير غاش. فأخرجهما الله من الجنة، وأهبطهما إلى الأرض، وبيّن لذريتهما أن الدوافع إلى المعصية منتقلة إليهم بالوراثة، وأن عداوة الشيطان لهم تلاحقهم بالوساوس والإغواء، لتحجب عنهم الجنة التي تدعوهم إلى نفسها من طريق طاعة الله، وذلك بحسب وعد الله ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾.

ولكن الله تدارك الإنسان بحكمته ورحمته، فأعلن أن من أخرجته الخطيئة

عن طريق الجنة أعادته إليه أسباب التوبة الصادقة المخلصة، المقرونة بالندم والاستغفار، وشمله الله بغفرانه وعفوه.

وينادي الله عباده كما جاء في الحديث القدسي الصحيح الذي أخرجه مسلم: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً».

وروى مسلم عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقومٍ يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم».

ويتجلى الله على عباده التائبين المستغفرين المعترفين بذنوبهم، والمعتذرين بضعفهم البشري بأسمائه: العفو الغفور الرحمن الرحيم؛ فيغفر لهم، ويعفو عنهم، ويحسن إليهم، إذا علم صدق عبوديتهم وصدق توبتهم.

ولا يريد سبحانه من عباده المذنبين أن يقنطوا من رحمته وعفوه، مهما تعاظمت ذنوبهم، وكثرت خطاياهم، يقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ففي هذا النص نداء من الله للمذنبين أن لا يقنطوا من رحمته، مهما تعاظمت ذنوبهم في جنب الله، فالله يغفر الذنوب جميعاً، وما على الذين أسرفوا على أنفسهم إلا أن يستغفروا ربهم، ويتوبوا إليه توبة نصوحاً، ويمدوا أيديهم إلى رحمته.

وفي بيان صفات المؤمنين المتقين يقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

فيبين الله في هذه الآية أن من صفات المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ـ بما ارتكبوا من آثام في جنب الله ـ ذكروا الله فتجلت لهم صفات عدله وصفات رحمته، فوجدوا أنفسهم بين الخوف والرجاء، هذا يحذرهم من عقاب الله، وهذا يطمعهم بعفو الله، وعندئذٍ يجدون السبب الذي يقيلهم من عثرتهم، وهو ذو شعبتين:

الشعبة الأولى: صدق الاستغفار مع اللجوء إلى الله في طلب العفو والغفران.

الشعبة الثانية: عدم الإصرار على فعل الذنب، وعدم المكابرة في استحسانه. فإذا ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ولم يصروا على ما فعلوا، وجدوا الله تواباً رحيماً، فزكاهم بعفوه وغفرانه.

ويؤكد الله لعباده ذلك بقوله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

فتبين هذه الآية حقيقة من حقائق الفضل الإلهي، وهي أن الله غفور رحيم، ويظفر بآثار غفران الله ورحمته من يستغفر الله من سوء عمله، أو من ظُلْمٍ ظَلَم به نفسه بمعصية ربه.

ويعطي الله الوعد الصريح للتائبين بأن يتوب عليهم إذا أتبعوا توبتهم بإصلاح أعمالهم ونياتهم، فيقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

فلم تقتصر هذه الآية على التلويح بالغفران والإطماع به كما جاء في النصوص السابقة، وإنما قدمت وعداً مقطوعاً به، ضمن قاعدة مقررة من قواعد التوبة والغفران، فالله يتوب على المذنب توبة مقطوعاً بها، إذا حقق في نفسه أمرين:

الأول: أن يتوب المذنب من بعد ظُلْمه ومعصيته توبة صادقة نصوحاً.

الثاني: أن يصلح نفسه بالاستقامة والإقلاع عن الذنب وعدم الإصرار عليه والتعلق به.

وتأتي الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية فتبسط بالشرح قواعد التوبة والغفران من قواعد العدل والفضل الإلهية.

عن أبـي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: يـا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كانَ فيك ولا أبـالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبـالي. يا ابن آدم إنك لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بـي شيئاً، لأتيتك بقُرابها مغفـرة» رواه الإمام أحمد، والدارمي، ورواه الترمذي عن أنس، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن عبداً أذنب ذنباً فقال: ربِّ أذنبت فاغفره، فقال ربه: أَعَلِم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبت ذنباً فاغفره، فقال ربه: أَعلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت ذنباً فاغفر لي. فقال: أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي فليفعل ما شاء».

وروى الإمام مسلم عن أبـي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه».

وتوبة العبد تقبل منه طوال مُدَّة امتحانه، فإذا انتهت مدّة الامتحان أغلقت أبواب التوبة.

وتنتهي مدّة الامتحان عند غروب شمس الإنسان ساعة موته، وعند طلوع الشمس من مغربها من أشراط الساعة ومقدماتها.

أما إغلاق أبواب التوبة عند حضور الموت فقد بينه الله بقوله في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.

وأما إغلاق أبواب التوبة عند طلوع الشمس من مغربها، فقد دلّ عليه ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

والتوبة من الكفر بمختلف أنواعه تكون بالإيمان الصادق الصحيح ضمن مـدّة الامتحان، والإيمان يجبُّ ما قبله من سيئات، لأنه يمثل الجسر الفاصل في حياة الإنسان بين النار والنور، فمتى دخل ساحة النور تجاوز الله عن كل ما كان منه وهو في أودية النار، وغفر ذلك له، أما من أدركه الأجل قبل أن يؤمن فسيظل في ناره، ولا يشمله عفو الله وغفرانه، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

ـ ٥ ـ

الشيطان ومدى تأثيره في حياة الإنسان

لا يعدو الشيطان في حياة الإنسان أنه مخلوق باستطاعته أن يوسوس في صدر الإنسان بالشر، ويزين له ارتكاب الخطيئة، ثم إن الإنسان هو الذي يرتكب الخطيئة بإرادته، ويعتبر مسؤولاً عنها مسؤولية تامة.

ففي المفاهيم الإسلامية عدة حقائق عن الشيطان تبين موقعه في حياة الإنسان، وأثره على إرادته، والحكمة الربانية من وجوده.

الحقيقة الأولى: تتلخص بأن الشيطان ليس له سلطان على إرادة الإنسان، إلا من سلّم قيادة نفسه له وتبعه مختاراً لنفسه طريق الغواية، ونجد الدليل على هذه الحقيقة في عدة نصوص قرآنية، منها قول الله تعالى يخاطب إبليس رأس الشياطين في سورة (الحجر ١٥):

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

فمن الظاهر في هذه النصوص أن الله تبارك وتعالى لم يجعل للشيطان سلطاناً على الإنسان، وأن سلطانه لا يكون إلاّ على الذين يتولّونه، ويجعلونه قائداً لهم، ويتبعونه مختارين لأنفسهم طريق الغواية.

ومن أجل ذلك فإن الشيطان سيعلن هذه الحقيقة يوم القيامة للذين

استجابوا لوساوسه في الدنيا، ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي: أي ما أنا بقادر على إغاثتكم وما أنتم بقادرين على إغاثتي، حينما يصرخ كل منا طالباً من صاحبه أن يغيثه فيرفع عنه عذاب الله.

الحقيقة الثانية: تتلخص بأن وظيفة الشيطان في حياة الإنسان إنما هي الوسوسة في صدره وليس له قدرة على أكثر من ذلك، ويشعر الإنسان بهذه الوسوسة في صورة خواطر تزين له الإثم والمعصية، وتزين له الانحراف عن سواء السبيل، وقد تصوغ له ذلك بحجج مغرية.

قال الله تعالى في سورة (الناس ١٤):

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾.

أي: غرهم بالأماني والآمال في وساوسه وتسويلاته، وهذا ما فعله مع آدم وحواء، إذ كانا في الجنة فوسوس لهما فأخرجهما من الجنة.

فكيد الشيطان في الإضلال كيد ضعيف، وبذلك وصفه الله بقوله في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

الحقيقة الثالثة: تتلخص بأن الله تبارك وتعالى جعل الشيطان في حياة الإنسان لإقامة التوازن بين دوافع الخير ودوافع الشر والمحرضات عليهما، وليطرح الإنسان عليه قسماً من مسؤولية الخطيئة التي يقع بها، فيجد لنفسه عذراً بأن فعل الشر ليس من فطرته، وإنما كان بتأثير وساوس قرينه الشيطان الملازم له. وبهذا لا تظل صورة الخطيئة القبيحة ماثلة في نفس الإنسان، إذ يشعر بأن القبح في العمل ليس من شأنه. وهذا الشعور الذي يشعر به المخطىء قد يساعده على تقويم نفسه، مستعيذاً بالله من الشيطان، ساعياً في التخلص مما علق به من أدناس المعاصي، كما يساعده على نسيان خطيئته إذا هو استغفر الله وتاب إليه. فمن وسائل الإصلاح التربوي فتح باب العذر لمن نربيه إذا ارتكب الخطيئة، ولو عاقبناه عليها نظراً إلى مسؤوليته، وذلك لنبقي له مجالاً يحتفظ فيه بصورة الكمال التي يجب أن يتصورها الناس فيه، ولنبقي له مجالاً للارتقاء في مراتب الكمال الإنساني.

العلاج الديني للتخلص من وساوس الشيطان:

وللتخلص من وساوس الشيطان وتسويلاته علاج ديني أرشدنا القرآن إليه، وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾.

فمتى استعاذ الإنسان بالله من الشيطان ونزغاته قويت بالله إرادته، وخنس الشيطان وخاب وخسِىء، وحينما يقع الإنسان في الخطيئة ثم يستغفر الله فيغفر له، فإن الشيطان يصاب بالخزي والخيبة، وضياع الجهد في الإغواء.

* * *

الفصل الخامس

اكتساب الأخلاق ووسائله

١ ـ الأخلاق فطرية ومكتسبة.

٢ ـ نصوص مشروحة في الأخلاق الفطرية.

٣ ـ كيمياء الطباع والخلق الفطري.

٤ ـ قابلية الناس لاكتساب الأخلاق.

٥ ـ الأسس التربوية العامة لتقويم أخلاق الناس.

٦ ـ وسائل اكتساب الأخلاق.

الفصل الخامس

اكتساب الأخلاق ووسائله

ـ ١ ـ

الأخلاق فطرية ومكتسبة

حظوظ الناس من الطبائع النفسية التي فطروا عليها حظوظ متفاوتة؛ هذه حقيقة ملاحظة لدى كل من يتعامل مع الناس، وتكاد تكون من البدهيات. فالناس كما تتفاوت حظوظهم من الذكاء الفطري، وتتفاوت حظوظهم الجسدية قوة وضعفاً، وطولاً وقصراً، وبدانة ونحولاً، وصحة وسقماً، وجمالاً ودون ذلك، فإن حظوظهم من الطبائع النفسية الخلقية وغير الخلقية حظوظ متفاوتة بالفطرة.

إننا نجد مثلاً الخوف الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد الطمع الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد فريقاً من الناس مفطوراً على سرعة الغضب، بينما نجد فريقاً آخر مفطوراً على نسبة ما من الحلم والأناة وبطء الغضب، ونجد حب التملك الفطري عند بعض الناس أقوى منه عند بعض آخر.

هذه المتفاوتات نلاحظها حتى في الأطفال الصغار الذين لم تؤثر البيئة في تكوينهم النفسي بعد.

وقد جاء في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ما يثبت هذا التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها.

منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي:

«إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء، والسريع الغضب سريع الفيء، والبطيء الغضب بطيء الفيء، فتلك بتلك، ألا وإن منهم بطي الفيء سريع الغضب، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء».

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

ومنها ما رواه الإمـام أحمد والتـرمذي وأبـو داود بإسنـاد صحيح عن أبـي موسى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهْل والحَزْن، والخبيث والطيب».

وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الناس معادن» دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية، وفيه يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقاً، وهذا التكوين الخلقي يرافق الإنسان ويصاحبه في كل أحواله. فإذا نظرنا إلى مجموعة من النـاس غير متعلمـة ولا مهذبة، أو في وسط مجتمع جاهلي، فإنه لا بد أن يمتاز في نظرنا من بينهم أحاسنهم أخلاقاً، فهم خيرهم معدناً، وأفضلهم سلوكاً اجتماعياً، ثم إذا نقلنا هذه المجموعة كلها فعلمناها وهذبناها وأنقذناها من جاهليتها، ثم نظرنا إليها بعد ذلك نظرة عامة لِنَرى من هو أفضلهم، فلا بد أن يمتاز في نظرنا من بينهم من كان قد امتاز سابقاً، لأن العلم والتهذيب والإيمان تمد من كان ذا خلق حسن في أصل فطرته، فتزيده حُسن خلق واستقامة سلوك وتزيده فضلاً، ثم إذا جاء الفقه في الدين كان ارتقاء هؤلاء فيما فضلوا به ارتقاء يجعلهم هم السابقين على من سواهم لا محالة، وبذلك تكون فروق النسبة لصالحهم فضلاً وكرماً.

ومنها ما رواه الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم».

ــ ٢ ــ
نصوص مشروحة في الأخلاق الفطرية

(أ) في اختلاف فطر النفوس والأرواح:

روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنودٌ مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

هذا الحديث يكشف عن أصلين جوهريين من أصول التكوين العام للناس:

الأصل الأول منهما يتعلق بالتكوين النفسي لهم.

والأصل الثاني يتعلق بالتكوين الروحي.

أما ما يتعلق بالتكوين النفسي فيكشف الرسول صلى الله عليه وسلم فيه عن حقيقة مهمة، وهي أن الناس ليسوا جميعاً كخليطة واحدة متماثلة من كل الوجوه، ولكن بينهم فروق كبيرة. فكما توجد فروق كبيرة بين معادن الأرض وبين صخورها وأتربتها، توجد بين أفراد الناس المخلوقين منها فروق كبيرة من وجوه شتى، وكل فرد منهم خليطة فذة لا تماثلها من كل الوجوه خليطة فرد آخر، ولكن قد تقاربها وتشترك معها في صفات كثيرة تصلح للتصنيف، وإن كانت لا تصلح للمطابقة التامة.

ثم إن جميع الخلائط الفردية لأفراد الناس تشترك في الصفات الأساسية العامة، رغم الاختلاف بينها في بعض العناصر، أو الاختلاف بينها في نسب

العناصر، على نظير ما نشاهده في المعادن، وعلى هذا تتجمع في صفات عامة، وتفترق في الخصائص، ومن الخصائص ما هي خصائص أصناف، ومنها خصائص أفراد.

فالناس يختلفون إلى أصناف، وأفراد كل صنف يختلف بعضهم عن بعض في مقدارٍ ما من الصفات والخصائص، رغم اشتراكهم جميعاً في الصفات العامة التي ميزتهم بالإنسانية التي كرمها الله.

والاختلاف في التكوين النفسي يشمل في الدرجة الأولى التكوين الطَبْعي والخلقي، ثم يشمل جوانب التكوين النفسي الأخرى، كالذكاء والقدرات والاستعدادات المختلفة. ولدى الملاحظة العلمية والتتبع الاستقرائي يتبين أن الناس مختلفون متفاوتون في كل ذلك، ولا نكاد نجد نسختين من الناس متطابقتين من كل الوجوه، متماثلتين في كل الصفات.

لذلك كان على المربي أن يضع في حسابه واقع الفروق الكثيرة بين الأفراد، وأن يتعامل معهم على أساس هذه الفروق.

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» هو مثال من الأمثلة التطبيقية للحقيقة العامة التي قررها قوله: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»؛ أي بما أن الناس مختلفون في أصل تكوينهم النفسي كاختلاف المعادن، فإن خيارهم في الجاهلية هم خيارهم في الإسلام، إذا استووا في فهم الدين والفقه عن الله، إذ التفاضل في أصل التكوين سيظل ملازماً لهم.

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إلى الناس من أهل الجاهلية، فينتقي خيارهم ويرجو إيمانهم، ليكونوا قوة للإسلام والمسلمين. ومن أمثلة ذلك دعاؤه المشهور الذي قال فيه: اللهم أعز الإسلام بأحب العبدين إليك؛ عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام(وهو أبو جهل). وقد استجاب الله دعاءه في عمر، فكان به نصر الإسلام وقوة المسلمين.

وعلى هذا الأساس رفض الرسول صلى الله عليه وسلم أن يولي أبا ذر إمارة من الإمارات، إذ عرف فيه جانب الضعف الفطري.

وبالاستناد إلى هذا الأساس أيضاً ظهرت عبقرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين أحسن انتقاء ولاته وعماله وأمراء البلاد أيام خلافته وسلطانه.

والمربي العاقل الحصيف الناجح هو الذي ينظر إلى استعدادات الأفراد وخصائصهم النفسية، فيوجه كلاً منهم لما يلائمه، ولما يمكن أن يكون ناجحاً فيه.

ومن الجهل جداً تكليف الإنسان أمراً لا يلائم طبعه وتكوينه الفطري.

هذا ما يتعلق بالتكوين النفسي.

وأما ما يتعلق بالتكوين الروحي، وهو الذي بينه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فهو يدل على أن الأرواح في أصل تكوينها مختلفة أيضاً فيما بينها، فهي جنود مجندة، أي هي أصناف شتى وليست صنفاً واحداً، وإن كانت كلها تشترك في صفات عامة تدخلها تحت جنس واحد أو نوع واحد.

فمن أصنافها ما يتلاءم بعضه مع بعض، ومن أصنافها ما يتنافر بعضه عن بعض، شأن العالم الروحي في هذا كشأن العالم المادي. ففي هذا نشاهد أصنافاً تتلاءم وأخرى تتنافر، والمتلائمات قد تزيد نسبة التلاؤم فيها إلى حد التجاذب العنيف، وقد تنخفض النسبة إلى حد التوافق عند التلاقي، والمتنافرات كذلك، فقد تزيد نسبة التنافر إلى حد التناقض، وقد تخف النسبة إلى حد عدم الانسجام والتوافق عند التلاقي.

وما كان في أساس التكوين الروحي نجد ظواهر له في عالم الناس المادي، فما تعارف منها في عالم الروح ائتلف في العالم المادي، وعلى هذا الأساس نجد الائتلاف والتوافق بين إنسان وآخر، دون أن نستطيع تفسير ذلك بأسباب مادية ظاهرة. وما تناكر منها في عالم الروح اختلف في العالم المادي، وعلى هذا الأساس

نجد الاختلاف وعدم التوافق بين إنسان وآخر، دون أن نستطيع تفسير ذلك بأسباب مادية ظاهرة.

(ب) في الأخلاق الفطرية:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» فقالوا: ليس عن هذا نسألك؟ قال: «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

في هذا الحديث وصف لدرس نبوي يعتمد على عنصر السؤال والجواب، ويدلنا على أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا قد يتخذون السؤال مفتاحاً للعلم، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعيش معهم معلماً في كل أحواله، فيجيبهم على أسئلتهم بمقدار ما يفهم منها، ويفتح لهم أبواب طلب العلم على مقدار ما ينقدح في أذهانهم من مسائل.

فلما سأله الصحابة: من أكرم الناس؟ ظنّ أنهم يسألونه عن أكرم الناس عند الله، فأعطاهم جواباً مستمداً من القرآن، فقال لهم: «أتقاهم».

إذ التقوى هي القيمة الحقيقية التي يقدمها الإنسان بعمله في الحياة الدنيا، وعلى مقدار هذه القيمة ينال من ثواب الآخرة والرضوان من الله، فيكون أتقى الناس أكثرهم كرامة عند الله.

ولما قالوا له: ليس عن هذا نسألك، انتقل إلى ظن آخر إذ ظن أنهم يسألونه عن أكرم الناس نسباً، أي عن أجمعهم لشرف النسب، فأجابهم بقوله: «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله».

والواقع أنه إذا نظرنا في أنساب الناس لم نجد أكرم ولا أشرف نسباً من أن يكون الإنسان نبياً، وعدد الأنبياء في سلسلة آبائه أوفر من غير انقطاع، وعلى هذا لا نجد في الواقع الإنساني أكرم من يوسف عليه السلام، فهو وأبوه وجده وأبو جده أربعتهم أنبياء.

ثم لما قالوا له: ليس عن هذا نسألك، عرف صلوات الله عليه أنهم يسألونه عن أكرم الناس معدناً، أي عن خيرهم في التكوين الفطري أو المكتسب، فدلهم على أن خيارهم من كان أكرمهم خلقاً. وهذا التكوين الخلقي يرافق الإنسان ويصاحبه في كل أحواله، فإذا نظرنا إلى مجموعة من الناس غير متعلمة، أو في وسط اجتماعي جاهلي، فإنه لا بد أن يمتاز في نظرنا من بينهم أحاسنهم أخلاقاً، فهم خيرهم معدناً، وأفضلهم سلوكاً اجتماعياً، ثم إذا نقلنا هذه المجموعة كلها، فعلمناها وأنقذناها من جاهليتها، ثم نظرنا إليها بعد ذلك نظرة عامة لنرى من هو أفضلهم، فلا بد أن يمتاز في نظرنا من بينهم من كان قد امتاز سابقاً، لأن العلم يمد من كان ذا خلق حسن وسلوك اجتماعي فاضل فيزيده حُسْنَ خُلق وفضل سلوك، فإذا جاء الدين والفقه فيه، كان ارتقاء هؤلاء فيما امتازوا به ارتقاء يمنحهم السبق على من سواهم لا محالة، وعندئذ تظل فروق النسبة لصالحهم فضلاً وكرماً.

ودل الحديث على أن من الأخلاق أخلاقاً فطرية بها يتفاضل الناس في أصل تكوينهم الفطري.

(ج) في الأمانة وفي كون عنصرها من الأخلاق الفطرية:

روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا:

«إن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنّة».

ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال:

«ينامُ الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوَكْت[١]، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل[٢]، كجمر دحرجته على رجلك فَنَفِط فتراه منتبراً وليس فيه شيء».

---

(١) الوكت: هو الأثر اليسير.

(٢) المَجْل: تنفط في الجلد من أثر الحرق أو من أثر العمل والكد.

ثم أخذ صلى الله عليه وسلم حصى فدحرجه على رجله فقال:

«فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان».

قال حذيفة: ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلماً ليردنَّه علي دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه علي ساعيه، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً.

في هذا الحديث بيان عن الأمانة في الناس، وعما تصير إليه فيهم.

حدث الرسول صلى الله عليه وسلم أن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنَّة.

فأبان الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة من حقائق التكوين الخلقي الفطري في الناس، وهذه الحقيقة تثبت أن الأصل في الناس أن يكونوا أمناء، لأن الله تعالى بالتكوين الفطري قد أنزل خُلُق الأمانة فوضعه في جذر قلوب الرجال، أي في أصل قلوبهم، إذ جذر القلوب أعمق شيء فيها، وهو الذي يغذي عواطفها وانفعالاتها، كما أن جذر الشجرة يغذيها بعوامل النماء والخضرة والاتساع.

ثم نزلت شرائع الله التي أنزلها في كتبه، وبينها القرآن أحسن بيان، وبينتها سنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكانت تغذيةً وتنميةً لما غرسه الله في قلوب الرجال من فطرة قائمة على الأمانة في أصل تكوينها.

وما دل عليه هذا الحديث يلتقي مع ما دل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة» أي على فطرة حب الحق، والإيمان فرع من فروع هذا الأصل العام، والأمانة أيضاً فرع من فروعه.

وكانت تنزل الشرائع الربانية فتدعم وتغذي الفضائل الفطرية، وتعيد أخلاق الناس إلى أصالتها، بعد أن حرفتها نزغات الأهواء والشهوات، واجتالتها الشياطين فأخرجتها عن منهج فطرتها.

والتربية النبوية التي ظهرت في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعصر الإسلامي الأول، كانت إبرازاً للتكوين الفطري في واقع عملي، وتنقية له من الشوائب والأرجاس التي علقت به بسبب العوامل المختلفة، التي بدأت بدافع من الأهواء والشهوات ووساوس الشياطين، ثم كان لها قوة أخرى من البيئة الاجتماعية، بعد أن كثرت فيها عناصر الانحراف عن أصل الفطرة.

وهذا يرشدنا إلى أن الأعمال الإصلاحية يجب أن تهتدي بهدي التربية النبوية، حتى تستطيع إقامة مجتمع فاضل، تظهر فيه أصالة الفطرة الإنسانية، بإشراقها ونقائها وطهرها وسلامتها من الشوائب والأرجاس والانحرافات المختلفة. والتربية النبوية أعظم مثل إنساني آتى ثمرات تربوية رائعة، فهي خير مثل يحتذى، ومنهجها أعظم منهجٍ يتبع، بشهادة الواقع التجريبي.

ومن ثمرات هذه التربية النبوية، ما حكاه لنا حذيفة عن الأمانة فقال: ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه علي دينه.

وحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة، فذكر أن الأمانة سترفع، فينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، وهو الأثر اليسير، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل، لها مظهر منتفخ، ولكنها جوفاء فارغة من حقيقة الأمانة وجوهرها. ويظهر أن هذا الذي يحدث في الناس إنما يحدث بسبب سوء الأحوال الاجتماعية في البيئات الإنسانية، إذ تصل هذه الأحوال السيئة إلى مرحلة قاسية جداً ومؤثرة جداً، حتى إنها بقوة تأثيرها وضغطها على الأفراد الصالحين، قد تستطيع بين عشية وضحاها تحويل الرجل عن أخلاقه الكريمة، فتسلب من جذر قلبه خلقه الفطري الإسلامي العظيم، حتى إنها تصل إلى مركز الأمانة في قلبه فتقبض عليها وتنتزعها منه. إلا أن الانتزاع الأول يبقى له أثر يسير مثل الوكت، نظراً إلى أن الأخلاق الأصيلة يصعب انتزاعها انتزاعاً كلياً دفعة واحدة في مرة واحدة، لكنها في المرة الثانية تستأصلها، فلا يبقى منها إلا مظهر أجوف ليس فيه جوهر نافع.

وما جاء في الحديث من رفع الأمانة من جذر قلوب الرجال يشير إلى أن الإيمان الذي تقترن به الأمانة في القلوب يرتفع أيضاً، تحت ضغط مؤثرات البيئة، والفساد الذي ينتشر في المجتمعات الإنسانية، وتقوى الدلالة على هذا المعنى بما جاء في آخر الحديث: «فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثال حبة من خردلٍ من إيمان».

فذكر هنا الإيمان، مع أن الكلام في الأمانة، للدلالة على أن ذهاب الأمانة قد كان بسبب ارتفاع الإيمان، أو مرافقاً لارتفاع الإيمان.

وهذا المعنى يؤيده ما جاء في حديث آخر، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه: «بادروا بالأعمال فتناً كقطعِ الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا». رواه مسلم عن أبي هريرة.

— ٣ —

كيمياء الطباع والخلق الفطري

تدل الملاحظة على أن أصول عناصر الطباع موجودة كلها في مختلف الأصناف الطبعية للناس، وأن اختلاف أصناف الناس في طبائعهم الخلقية يرجع إلى اختلاف الكمية الموجودة في الصنف من كل عنصر من هذه العناصر، وترجع أيضاً إلى اختلاف نسب الخصائص النفسية والجسدية والفكرية التي تؤثر ولو بوجه من الوجوه في العناصر الطبْعية، أو في المركب الطبْعي.

فالاختلاف في المركب الطبْعي للخلق الفطري يرجع إلى اختلاف نسب العناصر الطبعية، واختلاف نسب الأشياء الأخرى التي تؤثر فيها من الخصائص النفسية والجسدية والفكرية، وليس يرجع إلى انعدام بعض العناصر الأصول انعداماً كلياً.

وهذا يشبه اختلاف الناس في أجسادهم، فإنه لا يرجع إلى انعدام بعض

العناصر المادية التي تتألف منها الأجساد، كالماء، والحديد، والفسفور، والكلس، إلى سائر العناصر الأساسية التي هي عناصر تراب الأرض الذي خلق الله منه الإنسان، وإنما يرجع إلى اختلاف النسب، أي إلى تفاوت نسب العناصر الموجودة في مختلف الأجساد.

فمثلاً نسبة الفسفور:	النسبة
(أ) هي في الجسد ذي الرقم (١)	خمسة في الألف
(ب) وهي في الجسد ذي الرقم (٢)	عشرة في الألف
(ج) وهي في الجسد ذي الرقم (٣)	أربعون في الألف

وهكذا يقال في كل عنصر.

ونقول: إن اختلاف المركب الطبعي من صنف لآخر من الناس، ومن فرد لآخر من الناس، نظير اختلاف المركب الجسدي.

وتتأثر الطباع في اختلافاتها بين الأصناف وبين الأفراد، بكمية كل عنصر خلقي من العناصر الأخلاقية الموجودة في الطبع، وبالقدرات الفكرية والتخيلية والتوهمية والتذكرية، وبالقدرات والصفات النفسية والجسدية، ومنها مقدار الإحساس الجسدي باللذة والألم، ومقدار القوة الجسدية.

فالمركب الطبعي ناتج العنصر الطبعي الخلقي والمؤثرات النفسية والجسدية الأخرى.

فمن العناصر الخلقية الطبعية والمؤثرات فيها ما في الجدول التالي:

١ ـ خوف.	٨ ـ شجاعة.
٢ ـ طمع.	٩ ـ جبن.
٣ ـ صبر.	١٠ ـ ضجر.
٤ ـ أناة.	١١ ـ حب العظمة.
٥ ـ سرعة.	١٢ ـ عدل.
٦ ـ غضب.	١٣ ـ أنانية.
٧ ـ حلم.	١٤ ـ حب الحق.

١٥ ـ الانفرادية أو الانعزالية.
١٦ ـ الاجتماعية.
١٧ ـ الاستقلالية.
١٨ ـ التبعية.
١٩ ـ الكبر.
٢٠ ـ العجب بالنفس.
٢١ ـ الغرور.
٢٢ ـ القيادية.
٢٣ ـ الانقيادية.
٢٤ ـ الحب.
٢٥ ـ الكراهية.
٢٦ ـ السكينة.
٢٧ ـ الحركة.
٢٨ ـ سرعة الاستجابة للمؤثرات.
٢٩ ـ بطء الاستجابة للمؤثرات.
٣٠ ـ سرعة الطرح والرجوع إلى الحالة قبل المؤثر.
٣١ ـ بطء الطرح والرجوع إلى الحالة قبل المؤثر.
٣٢ ـ مقدار الذكاء.
٣٣ ـ نسبة القدرة على التفكير والتوهم والتخيل والتذكر.
٣٤ ـ شهوة البطن.
٣٥ ـ شهوة الفرج.
٣٦ ـ شهوة اللمس.
٣٧ ـ شهوة السمع.
٣٨ ـ شهوة البصر.
٣٩ ـ مقدار الإحساس بالألم.
٤٠ ـ مقدار الإحساس باللذة.
٤١ ـ مقدار إحساس الجملة العصبية بالمثيرات.
٤٢ ـ نسبة الفاعلية.
٤٣ ـ نسبة الانفعالية.
٤٤ ـ نصيب الجسد من خصائصه المختلفة كالقوة والضعف.

وبحسب اختلاف النسب الموجودة في كل فرد أو صنف من الناس من هذه العناصر والمؤثرات ونحوها يختلف الطبع، أو النموذج الطبعي، فلكل إنسان أمشاج (أي أخلاط) منها ممتزجة، نتج عنه طبعه، ويتأثر بها مزاجه، وقد تستفاد الإشارة إلى هذا من قول الله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ ﴾.

— ٤ —

قابلية الناس لاكتساب الأخلاق

بعد الذي سبق من الطباع والأخلاق الفطرية يرد سؤالان:

الأول: إذا كانت الأخلاق طباعاً فطرية، فلماذا وضع الإنسان تجاهها موضع الابتلاء والتكليف؟

الثاني: إذا كانت الطبائع الإنسانية هي المهيمنة على سلوك الإنسان الشامل للسلوك الأخلاقي وغيره، وهذه الطبائع ذات نسب فطرية متفاوتة، فما هي فائدة التربية الأخلاقية؟ وهل باستطاعة الإنسان أن يعدل من طبائعه الخلقية الفطرية، ويكتسب من الأخلاق ما ليس في فطرته؟.

ونقول في الإجابة على السؤالين:

لدينا حقيقة ثابتة لا بد من ملاحظتها في مجال كل تكليف رباني: هي أن الله تبارك وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، فمسؤولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه، وما يستطيعه من عمل، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته فليس عليه مسؤولية نحوه، يضاف إلى ذلك أن نسبة المسؤولية تتناسب طرداً وعكساً مع مقدار الاستطاعة.

فالقوي يأتي امتحانه على نسبة قوته، وكذلك الضعيف يأتي امتحانه على نسبة ضعفه، وامتحان الذكي على مقدار ما منحه الله من ذكاء، وامتحان الغبي على مقدار غبائه.

أما صور الامتحان فكثيرة مختلفة، فبعض الناس يمتحنه الله بالغنى، وبعضهم يمتحنه بالفقر، وبعضهم يمتحنه بأن يكون قائداً، وبعضهم يمتحنه بأن يكون جندياً، وبعضهم يمتحنه بكثرة البنين، وبعضهم يمتحنه بكثرة البنات، وبعضهم يمتحنه بالصنفين معاً، وبعضهم يمتحنه بالعقم، وهكذا إلى سائر الصور المشحونة بها ظروف الحياة الدنيا.

والله تعالى يمتحن كل إنسان بما يناسبه، وعلى مقدار ما منحه من هبات وعطايا، وعلى مقدار استطاعته الجسدية والنفسية، ثم تكون المحاسبة بعد ذلك

على مقدار نسبة الامتحان، ويكون الجزاء العادل على مقدار الطاعة والجهد المبذول نفسياً وجسدياً، أو على مقدار المعصية والجهد الذي كان يمكن بذله في الطاعة.

وميزان الله تعالى لا يضيع منه مثقال ذرة، والعلم الإلهي لا يعزب عنه صغيرة ولا كبيرة من نية أو عمل، والقانون الذي يطبقه الله على المكلفين من عباده، هو المعلن بقوله تعالى:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ والمعلن بقوله:

﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ وقوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾.

فما كان من الطباع الفطرية قابلاً للتعديل والتبديل، ولو في حدود نسب جزئية، لدخوله تحت سلطان إرادة الإنسان وقدرته، كان خاضعاً للمسؤولية، وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلاً للتعديل والتبديل، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية.

وبناءً على ذلك فإننا نقول وفق المفاهيم الدينية: لو لم يكن لدى كل إنسان عاقل قدرة على اكتساب حدٍ ما من الفضائل الأخلاقية، لما كلفه الله ذلك.

وليس أمر قدرة الإنسان على اكتساب حدٍ ما من كل فضيلة خلقية بعيداً عن التصور والفهم، ولكنه بحاجة إلى مقدار مناسب من التأمل والتفكير.

أليست استعدادات الناس لأنواع العلوم المختلفة متفاوتة، فبعضهم أقدر على تعلم الفنون الجميلة من بعض، وبعضهم أقدر على تعلم العلوم العقلية من بعض، وبعضهم أقدر على حفظ التواريخ والحوادث أو حفظ النصوص من بعض؟

إنه مع وجود التفاوت الواسع في هذا بين الناس، نلاحظ أن حداً ما من الاستعداد لتعلم كل أنواع العلوم موجود عند كل أقسام الناس المتفاوتين في قدراتهم واستعداداتهم، وفي حدود استطاعة كل منهم يمكن توجيه التكليف،

ويمكن الاستفادة من نسبة الاستعداد، فالاستعداد الضعيف بقدره، والاستعداد القوي بقدره.

ونظير هذا الذي نشاهده في الاستعداد للتعلم، نشاهد في الاستعداد الإنساني لاكتساب الأخلاق، فما من إنسان عاقل إلا لديه قدرة على اكتساب مقدارٍ ما من فضائل الأخلاق، وفي حدود هذا المقدار الذي يستطيعه يكون تكليفه، وتكون مسؤوليته، ثم في حدوده تكون محاسبته ومجازاته.

إن أسرعَ الناس استجابة لانفعال الغضب، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقداراً ما من خلق الحلم، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسؤول عن اكتساب ما يستطيعه منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب تنمو نمو أشواك الغاب، فإنه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره.

وإن أشد الناس بخلاً وأنانية وحباً للتملك، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقداراً ما من خلق حب العطاء، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسؤول عن اكتساب القدر الواجب شرعاً منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب فإنه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره.

والمفطور على نسبة كبيرة من الجبن، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقداراً ما من خلق الشجاعة، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشجاعة، ولكنه مقدار يكفيه لتحقيق ما يجب عليه فيه أن يكون شجاعاً، وضمن الحدود التي هو مسؤول فيها.

وأشد الناس أنانية في تكوينه الفطري، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقداراً ما من الغيرية والإيثار، قد لا يبلغ فيه مبلغ المفطور على محبة الآخرين، والرغبة بأن يؤثرهم على نفسه، ولكنه مقدار يكفيه لتأدية الحقوق الواجبة عليه تجاه الآخرين.

وهكذا نستطيع أن نقول: إن أية فضيلة خلقية، باستطاعة أي إنسان

عاقل، أن يكتسب منها بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم، المقدار الذي يكفيه لتأدية واجب السلوك الأخلاقي.

والناس من بعد ذلك يتفاوتون بمدى سبقهم وارتقائهم في سلم الفضائل.

كما أن كل إنسان عاقل، يستطيع بما وهبه الله من استعداد عام، أن يتعلم نسبة ما من أي علم من العلوم وأي فن من الفنون، وأن يكتسب مقداراً ما من أية مهارة عملية من المهارات.

وتفاوت الاستعدادات والطبائع، لا ينافي وجود استعداد عام صالح لاكتساب مقدارٍ ما من أي فرع من فروع الاختصاص، سواء أكان ذلك من قبيل العلوم، أو من قبيل الفنون، أو من قبيل المهارات، أو من قبيل الأخلاق.

وفي حدود هذا الاستعداد العام، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلاً منهم من فطر، وبحسب ما وهب كلاً منهم من استعدادات خاصة، زائدة على نسبة الاستعداد العام.

ولو أن بعض الناس كان محروماً من أدنى حدود الاستعداد العام الذي هو مناط التكليف، فإن التكليف لا يتوجه إليه أصلاً، ومن سلب منه هذا الاستعداد بسبب ما ارتفع عنه التكليف، ضرورة اقتران التكليف بالاستطاعة، كما أوضحت ذلك نصوص الشريعة الإسلامية.

ووفق هذا الأساس، جاءت التكاليف الشرعية بالتزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها.

ووفق هذا الأساس، وضع الإسلام الخطط التربوية التي تنفع في التربية على الأخلاق الفاضلة، فالاستعداد لذلك موجود في الواقع الإنساني، وإن اختلفت نسبة هذا الاستعداد من شخص إلى آخر. وفي الإصلاح التربوي قد يقبل بعض الناس بعض فضائل الأخلاق بسهولة، ولا يقبل بعضها الآخر إلا بصعوبة ومعالجة طويلة المدى، وقد تقل نسبة استجابته.

فالأخلاق إذن تنقسم إلى قسمين:

الأول: الأخلاق الفطرية.

الثاني: الأخلاق المكتسبة.

فبعض أخلاق الناس أخلاق فطرية، تظهر فيهم منذ أول حياتهم، ومنذ بداية نشأتهم. وبعض أخلاق الناس أخلاق مكتسبة من البيئة الطبيعية، أو من البيئة الاجتماعية، أو من توالي الخبرات والتجارب ونحو ذلك.

ولكن لا بد لاكتساب الأخلاق من وجود الاستعداد الفطري لاكتسابها، وشأن الأخلاق في هذا كشأن المهارات الحركية والعضلية، فالعضو الذي لديه استعداد وقابلية فطرية لاكتساب مهارة من المهارات، يمكن أن يغدو بالتدريب والتعليم مكتسباً لهذه المهارة، أما العضو الذي ليس لديه هذا الاستعداد فإنه من المتعذر تدريبه وتعليمه حتى يكتسب هذه المهارة، وكذلك اكتساب الأخلاق.

إن اليد تملك القابلية الفطرية لاكتساب صناعة الكتابة، والمهارات الصناعية والفنية المختلفة، فتدريبها يجدي في تحقيق نسبة من الاكتساب المطلوب، لكن الأذن لا تستطيع أن تكتسب شيئاً من ذلك، لأنها لا تملك الاستعداد الفطري لاكتسابها.

والأرنب مفطور على خلق الجبن والخور، وليس لديه استعداد فطري للتدرب على شجاعة مقاربة لشجاعة الهر، فتدريبه على الشجاعة لا يجدي في اكتسابه خلق الشجاعة.

وكذلك الأفراد من الناس، فمن لا يملك الاستعداد الفطري لاكتساب خلق من الأخلاق، فمن المتعذر أن يكتسبه بأية وسيلة من الوسائل.

والأخلاق الفطرية قابلة للتنمية والتوجيه والتعديل، لأن وجود الخلق بصفة فطرية يدل على وجود الاستعداد الفطري لتنميته بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات، كما أنه يدل على وجود الاستعداد الفطري لتقويمه وتعديله وتهذيبه، بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات، وتشهد لهذه القابلية التجارب التربوية على الإنسان، والملاحظات المتكررة على أفراد الناس من مختلف البيئات الإنسانية.

ــ ٥ ــ
الأسس التربوية العامة لتقويم أخلاق الناس

لم تلجأ التربية الإسلامية إلى محاولة إلغاء أصل طبائع الناس الفطرية، أو إلى إلغاء شيء منها، لتضع في محالها طبائع جديدة مكتسبة لم تكن هي ولا الاستعداد إليها من الأمور الفطرية.

ولكن التربية الإسلامية لجأت إلى الأسس التربوية النافعة في التقويم والتحويل والتنمية والتهذيب والتشذيب، وبالتأمل نستطيع أن نشير إلى الأسس التربوية التالية:

١ ــ التدرج في البناء التربوي.
٢ ــ معاملة كل نموذج طبعي بما يلائمه، ومعاملة كل حالة نفسية بما يلائمها.
٣ ــ تصيد المناسبات الملائمة للتوجيه التربوي.
٤ ــ الرعاية الشجرية.
٥ ــ التوجيه والتحويل.
٦ ــ التصعيد.
٧ ــ المزاحمة والتضمير.
٨ ــ إيجاد الحافز الذاتي.

وفيما يلي شرح موجز لهذه الأسس الثمانية.

الأساس الأول ــ التدرج في البناء التربوي:

إن العملية التربوية ليست عملية تحويل مفاجىء دفعة واحدة، أو خلق تام بمرة واحدة.

إن هذا لم يختره الله لنفسه في سنة الخلق، مع أن من قدرته جل وعلا أنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؛ ولكنه تبارك وتعالى اختار لنفسه سنة الإنشاء المتدرج.

ورغبتنا بالإنجاز التام السريع على خلاف طبائع الأشياء معاكسة لسنة الله في كونه.

ومكلِّف الأشياء فوق طباعها متطلِّب في الماء جذوة نارِ

ومن صفات الله تعالى أنه رب العالمين، أي مربي العالمين، والتربية هي إنشاء متدرج لإبلاغ الشيء إلى مستوى كماله، وقد خلق الله الدنيا في ستة أيام من أيامه تبارك وتعالى، وكان في قدرته أن يخلقها بكلمة كن.

الأساس الثاني ـ معاملة كل نموذج طبعي بما يناسبه ويلائمه من وسائل التربية، ومعاملة كل حالة نفسية بما يلائمها:

فمن الخطأ الفادح في التربية معاملة مختلف الناس بطريقة تربوية واحدة، مع اختلاف نماذجهم الطبعية.

إن حاد المزاج الغضوب في تكوينه الفطري يلائمه من الوسائل التربوية ما لا يلائم بارد الطبع بليد الإحساس، وكذلك العكس. والأسلوب الذي قد يصلح بارد الطبع قد يفسد حاد المزاج، وكذلك الأسلوب الذي قد يُصلح حاد المزاج قد يفسد بارد الطبع.

وصاحب الطمع الشديد قد يلائمه من وسائل التربية ما لا يلائم العفيف القنوع. وتختلف أحوال السرور عن أحوال الألم، وأحوال الغضب عن أحوال الرضا.

وعلى هذا الأساس من مراعاة الفروق الطبعية واختلاف الأحوال كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي بعض محبي الفخر شيئاً مما يرضي نفوسهم، بغية إصلاحهم، ويعطي بعض محبي المال شيئاً مما يرضي نفوسهم بغية إصلاحهم، ويعامل حديثي العهد بالكفر معاملة تختلف عن معاملة الذين رسخ الإيمان في قلوبهم.

فمن ذلك ما أعطاه أبا سفيان يوم فتح مكة، إذ قال له عمه العباس: إن أبا سفيان يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً، فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم

شيئاً مما يرضيه به، فأمر مناديه أن يعلن: ألا من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، مع أن دار أبي سفيان لم يكن لها شيء من الخصوصية الحقيقية، إلا مجرد الإعلان بالاسم، لأن إعلان الأمن قد كان أيضاً لمن أغلق باب داره، ولمن دخل المسجد الحرام.

ومن ذلك ما رواه البخاري عن عمرو بن تغلب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بمالٍ أو سبي فقسمه، فأعطى رجالاً وترك رجالاً، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال:

«أما بعد فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل. والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي، ولكني أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكلِ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، منهم عمرو بن تغلب».

قال عمرو بن تغلب: فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حُـمْر النَّعَم.

فمن هذا الحديث نلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطى الجزعين الهلعين مالاً أصلح به نفوسهم، وأعطى عمرو بن تغلب ثناءً كان أحب إليه من عطاء المال الكثير، فأصلح بذلك نفسه.

ومن ذلك أيضاً ما رواه البخاري ومسلم عن أنس قال: إن ناساً من الأنصار قالوا حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يعطي قريشاً ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم! فحُدِّثَ لرسول الله بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قُبَّةٍ من أَدَم، ولم يدعُ معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

«ما حديثٌ بلغني عنكم»؟

فقال فقهاؤهم: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشاً

ويدعُ الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم:

«إني أعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رِحالكم برسول الله».

قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا.

فداوى الرسول صلى الله عليه وسلم بحكمته التربوية العظيمة ناساً بعطاء من المال، وآخرين بعطاءٍ من الحب.

الأساس الثالث ــ تصيد المناسبات الملائمة للتوجيه التربوي:

وعلى وفق هذا الأساس كانت تتنزل الأحكام الشرعية عند مناسباتها، ولذلك اعتنى المفسرون والمحدثون ببيان أسباب نزول الآيات القرآنية التي لها أسباب نزول معروفة مرويّة.

وكذلك اعتنى المحدثون والفقهاء بذكر البيانات النبوية مقترنة بقصصها وحوادثها، ومنها نلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتصيّد المناسبات الملائمة لما يريد التوجيه له من خلق أو أدب أو سلوك ديني، أو علم أو نصيحة أو نحو ذلك.

الأساس الرابع ــ الرعاية الشجرية:

إن مثل الطبائع الفطرية في الناس، كمثل البزور التي تنبت في حقول طبيعية، إذا تركت وشأنها نمت نمواً فوضوياً، فكانت غابات وحشية، وتشابكت أشجارها النافعة بأشواكها، وغلب ما ينفع قليله ما ينبغي أن يكون هو الكثير الغالب.

أما إذا امتدت إليها أيدي الرعاية والتهذيب، فإنها تحسن استغلال كلٍّ منها بالمقدار الملائم، وتضعه في المكان الملائم، وتوجهه في الاتجاه الملائم.

فأشجار الشوك تجعلها سياجاً حامياً، والأشجار الباسقة غير المثمرة تجعلها صوادَّ للرياح اللافحة بحرّها أو بردها، والأشجار المثمرة تبعد عنها ما يؤذيها

ويضرها، والنوامي الضارة تقلمها وتشذبها، وهكذا تتابع عملها التهذيبي الاستثماري النافع، دون أن تلغي أصلاً فطرياً إلغاءً تاماً.

وكذلك تكون الرعاية الشجرية في التربية الأخلاقية للناس، فالإسلام لم يعمد إلى إلغاء طبائع الناس في تربيته الأخلاقية، وإنما عمد إلى استغلالها، وتهذيبها، وتوجيهها، وحسن الاستفادة من كلٍ منها.

ومن هذه الرعاية الحد من نمو الطبائع التي يكون نموها أمراً ضاراً ومفسداً للتكوين الخلقي.

وهذا العمل التربوي ينبغي أن يساير نشأة الفرد، منذ مراحل حياته الأولى، فكثير من بزور الطبائع الفطرية بل كلها قابلة للإنماء المفرط بالتغذية والتربية، وقابلة للحدّ من نمائها والتهذيب من زوائدها.

ونستطيع أن نضرب على ذلك أمثلة كثيرة، منها ما يلي:

١ ــ الطمــع:

فقد تعمل البيئة الاجتماعية للفرد على تنمية ما لديه من طمع بإفراط، حتى يكون إنساناً طماعاً شرها شاذاً في خلقه. وقد تعمل على الحد من نمو ما لديه منه، بالكف عن تغذيته، وباستخدام وسائلها التربوية الأخرى، حتى يكون قنوعاً، أو غير مفرط في الطمع في أدنى الحدود.

٢ ــ الخــوف:

فقد تعمل البيئة الاجتماعية للفرد على تنمية ما لديه من خوف بإفراط، حتى يكون إنساناً جباناً رعديداً يخاف من خياله وأوهام نفسه، وعندئذ يكون إنساناً شاذاً في خلقه. وقد تعمل على الحـدّ منٍ نمو ما لديه منه، بالكف عن تغذيته، وباستخدام وسائلها التربـويـة الأخرى، التي تغذي في نفسه الشجاعة وتنميها، حتى يكون إنساناً شجاعاً حقاً، أو غير مفرط في الجبن، في أدنى الحدود.

الأساس الخامس ـ التوجيه والتحويل:

إنه ما من طبع من الطبائع الفطرية إلا يحتاج إليه في جانب من جوانب الخير، أو في طريق من طرق الخير، وعمليات التوجيه والتحويل تكون بتعليق رغبات المقصود بالتربية في جانب من جوانب الخير، أو في طريق من طرق الخير، وبمحاولة امتصاص شحنات هذا الطبع كلّها أو بعضها فيما وجهت إليه وعلقت به.

ومن أمثلة ذلك: أن نأخذ إنساناً ذا طمع مفرطٍ في متاع الحياة الدنيا وزينتها، ثم نملأ قلبه إيماناً بالله واليوم الآخر، وبما في اليوم الآخر من جنة ونعيم مقيم، ثم نعمل على توجيه طمعه وتحويله إلى ما عند الله من أجر عظيم، ثم نجري عمليات تعليق شحنات ما لديه من طمع بذلك، فتنصرف نفسه إليه انصرافاً كلياً أو جزئياً، وبذلك ينفك شيئاً فشيئاً عن التعلق بمطامع الحياة الدنيا، طلباً لما هو أجلّ وأعظم، وعندئذ فقد نجده زاهداً قنوعاً، أو غير مفرط في الطمع.

وبهذا التحويل الكلي أو الجزئي يَعْتَدِل طبعه، ويتكون لديه خلق فاضل، ومع ذلك نلاحظ أن الطمع لم تقتلع جذوره من نفسه، ولكن جرى فيه تحويل إلى ما هو خير.

وهكذا نستطيع أن نمارس خطة التوجيه والتحويل في كثير من الطبائع الفطرية.

الأساس السادس ـ التصعيد:

وهو نوع من تحويل الطبع، أو تحويل التطلع الإنساني، عن الصغائر والدنايا، وتوجيهه لمعالي الأمور، ولما فيه سعادة خالدة أو مجد حقيقي، ولما فيه كمالٌ، ورفعة بين الناس، وكمال ورفعة عند الله.

ومن وسائل التصعيد التشويق والتحبيب، والتحسين والتزيين، والممارسة، ووضع الإنسان في خبرات عملية يذوق فيها حلاوة ما يُراد تصعيده

إليه، ولكن بدون إرهاق منفر، ولا تكاليف شاقة مضنية، باستثناء أفراد نادرين يستعذبون المشقات في أصل طباعهم، ولا يميلون إلى الأمور السهلة الخفيفة.

ومن التربية بالتصعيد قول الله لرسوله في سورة (طه ٢٠):

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

أزواجاً منهم: أصنافاً منهم.

فأبان الله تعالى أن كل ما يتمتع به الناس في الحياة الدنيا هو في واقع حاله كالزهرة، ومن صفات الزهرة أنها تغري ولكنها قصيرة العمر سريعة الذبول والفناء، فالعاقل يبحث عن نعيم حقيقي باقٍ. وهو أيضاً مادة لامتحان الناس وابتلائهم، وليس لتكريمهم ﴿لنفتنهم فيه﴾.

بعد هذا التزهيد في زهرة الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿ورزق ربك خيرٌ وأبقى﴾ وفي هذا توجيه صاعد لما هو الخير الحقيقي الباقي، وهو رزق الله للمتقين والأبرار والمحسنين، في جنات النعيم، وفي الدنيا بسعادة الروح وراحة لفؤاد.

الأساس السابع ـ المزاحمة والتضمير:

وتتلخص هذه الخطة بغرس العنصر المزاحم للطبع أو للعادة السابقة عن طريق تكوين العادة، وبتغذية المزاحم وتنميته يضمر الطبع الفطري، أو يقف عن النماء ـ وكذلك العادة السابقة ـ لأن العنصر المزاحم قد احتل مكان نمائه.

والعادة تطبيع اصطناعي قد يزاحم الطبع الفطري، وذلك لأن في الإنسان استعداداً فطرياً لإيلاف ما يتكرر عليه مرة بعد مرة، ومن ألف شيئاً أحبه، وشعر بالحاجة النفسية إلى معاودته، وبذلك تتكون العادات حتى تكون كالأمور الفطرية في النفس. فإذا كانت هذه العادات من الأمور الأخلاقية كانت أخلاقاً مكتسبة، وهذه الأخلاق المكتسبة تزاحم في النفس طبائع فطرية مضادة

لها، فتتقاسم معها مجال النماء، أو تحتله كله، وبذلك تضعف الطبائع الفطرية المضادة في النماء، أو تقف عند حدودها، أو تضمر وتتراجع وتصغر حجومها.

فمن اعتاد إكرام الضيف، ونشأ في بيئة تشجع عليه، وتُثْني على فاعله وتمجده، فإنه يجدُ راحته النفسية في ذلك، ولو كان أصل طبعه البخل.

الأساس الثامن ــ إيجاد الحافز الذاتي:

الحافز الذاتي هو القوة الداخلية في الإنسان، المحركة لعواطفه، والموجهة لإرادته، والدافعة له حتى يمارس سلوكاً معيناً داخلياً أو خارجياً، وعن طريق تكرار ممارسة هذا السلوك تتكون العادة النفسية الباطنة، أو العادة الجسدية الظاهرة، فإذا كان هذا السلوك من نوع السلوك الخلقي كان خلقاً مكتسباً، وكان المؤثر الأول في اكتسابه هو إيجاد الحافز الذاتي لدى مكتسبه.

ولإيجاد الحافز الذاتي عدة طرق، منها الطرق التالية:

١ ــ طريق الإيمان بالله وباليوم الآخر وبقضاء الله وقدره:

فمتى بنيت القاعدة الإيمانية الإسلامية في أعماق كيان الإنسان استطاعت هذه القاعدة أن تهيمن على فكره وقلبه وعواطفه وإرادته، وأن تعمل على ربط إرادته بما يرضي الله تعالى، ولا يخفى ما للإرادة الحازمة في الإنسان من تأثير على مراكز الخلق في نفسه، وقدرة على التحكم في أنواع سلوكه.

إن تركيز القاعدة الإيمانية الإسلامية في الكيان الداخلي للإنسان يرتبط به اليقين المهيمن بأنه لا حكم إلا لله، وبأن الله لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، وبأن مصلحة الإنسان مرتبطة بفعل ما يأمر الله به، وترك ما ينهى الله عنه. ويرتبط به أيضاً اليقين بأن الله تعالى يجازي على الخير خيراً وعلى السوء سوءاً، وفق قانون الحق والعدل والفضل الرباني. ويرتبط به أيضاً اليقين بأن الله تعالى لا يجري في مقاديره لعباده إلا ما هو خير لهم، فالمؤمن يقابل مقادير الله بالرضا والتسليم فيصبر، ولا يغضب ولا يضجر، ولا يحسد ولا يستكبر، وهكذا.

فالحافز الذاتي الذي يولده الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره حافز مؤثر وفعال جداً في دفع كل فرد مؤمن إلى فعل الخير والالتزام به، إنه حافز محرك ودافع وحارس ورقيب ذاتي، يصاحب الإنسان الذي يملك وعيه مصاحبة دائمة، فهو معه في جميع أوقاته، وفي جميع أحواله، إذا كان بين الناس وإذا كان في خلواته، إذا كان منكشفاً في الأضواء وإذا كان مستتراً في الظلمات، وحيث يظن أنه لا يراقبه أحد، وحيث لا تراقبه رقابة قانونية بشرية، ولا تمتد إليه سلطة قضائية، ولا تردعه هيئة اجتماعية.

إن الحافز الذاتي الذي يولده الإيمان بالله واليوم الآخر قوة فوق كل القوى، إنه يقبض على زمام العقل بالحق والبرهان من الله، ويقبض على ناصية القلب بعاطفة محبة الله وابتغاء رضاه والثقة بحكمته، ويقبض على زمام النفس بعامِلَيْ الخوف من عقاب الله والطمع بثوابه العظيم.

إنه يقود الإنسان ويسوقه من جميع أركانه الداخلية، فهو قوة عجيبة لا تدانيها قوة أخرى في الوجود كله، ولكن مقدار قوتها في داخل الفرد مناسب لمقدار قوة الإيمان في قلبه زيادة ونقصاناً، فكلما زادت نسبة قوة الإيمان زادت قوة هذا الحافز، وكلما نقصت هذه النسبة نقصت قوة الحافز في نفس الفرد المسلم، وهذا الحافز في مستواه الأعلى يوصل الإنسان إلى مرتبة الإحسان في معظم أعماله، ويجعله من السابقين في الخيرات بإذن الله.

إن الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره يمثل الجذر الرئيسي لإصلاح الإنسان من أعمق كيانه الداخلي، وعليه تتجمع جذور النفس الإنسانية كلها. وذلك لأن الإنسان متى أيقن بالله حق اليقين، غدا متعطشاً لبلوغ كمالاته بسرعة، ومطمئناً إلى أن الله هو العليم الحكيم، الذي يعلم أين يكون الخير، ويعلم أين يكون الشر، وهو بعباده رؤوف رحيم ينزل بهم ما يقتضيه خيرهم، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم، فيأخذ وصايا الله بالتسليم التام، ويلتزمها التزاماً صادقاً، قبل أن يعرف بالتفصيلات الجزئية وبالحجج والبراهين ما في كل فرد من أفرادها من خيرات ومصالح وثمرات كريمة.

هذه الثقة بالله القائمة على اليقين به لا تعادلها ثقة أخرى في الوجود، علماً بأن الثقة من حيث ذاتها سائق يسوق الإنسان إلى الاتباع والطاعة والرضا والتسليم، دون شعور بعقبة من عقبات المعارضة النفسية.

نحن نلاحظ في واقعنا الإنساني، أننا متى وثقنا بإنسان ـ بعد أن خبرنا فيه نضج التفكير والتدبير وصدق النصيحة ـ سلّمنا له من غير أن نطالبه بالحجة، مع أن ثقتنا به ـ مهما عظمت ـ لا تبلغ درجة الاعتقاد بعصمته عن الخطأ، ولكننا نرجح أن صوابه أكثر من خطئه.

فكيف بمن نعتقد به كمال العصمة، ونحن موقنون بأنه رؤوف رحيم، يحب لنا الخير ويكره لنا الشر؟.

لذلك فالنفوذ إلى أعماق النفس الإنسانية بعناصر الإيمان الأساسية، يوجد في الإنسان فاعليات ذاتية، تحرضه على التحلي بمكارم الأخلاق، وسلوك السبيل الأقوم في الحياة.

٢ ـ طريق الإقناع الفكري:

ويكون الإقناع الفكري عن طريق التعليم المباشر أو غير المباشر، أو عن طريق الجدال بالتي هي أحسن.

فمن شأن المعرفة التي تدرك بها الفضائل والرذائل، وتعلم بها آثارها المحمودة والمذمومة، وثمراتها العاجلة والآجلة، أن تولد الحافز الذاتي على التطبيق، لا سيما إذا كان مضمون المعرفة يتعلق بما ينفع الإنسان أو يضره، كقضايا السلوك الإنساني.

فمعرفة الفضائل الأخلاقية معرفة صحيحة لا بد أن تبرز ما فيها من كمال وجمال، ولا بد أن تورث اليقين بفوائدها وثمراتها الطيبات وخيراتها الحسان المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية. وذلك يولد في النفس استحسانها، ثم الرغبة الصادقة بالتحلي بها، ومع هذه الرغبة الصادقة تكون النفس طيّعة للتخلق بالخلق الكريم المنشود.

ومعرفة الرذائل والنقائص الأخلاقية معرفة صحيحة لا بد أن تبرز ما فيها من نقص وقبح، ولا بد أن تورث اليقين بمضارها ونتائجها السيئة، وذلك يولد في النفس استقباحها والنفور منها، ثم الرغبة الصادقة باجتنابها، ومع هذه الرغبة الصادقة تكون النفس طيِّعة للكف عنها، والتخلق بالخلق الكريم المضاد لها.

وللإقناع الفكري شروط من شأن الأخذ بها تخفيف العقبات النفسية، التي قد تقف دون بلوغ القناعة الحقيقية إلى داخل النفس.

ويمكن تلخيص أهم هذه الشروط بما لخصها به القرآن الكريم من الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

ويندرج في الحكمة كل الأساليب الفكرية المنطقية الهادئة السليمة، التي من شأنها أن توصل الحقيقة إلى موقع القناعة في النفس، وللناس مستويات فكرية وعلمية، وعلى من يريد الإقناع بحقيقة من الحقائق أن يخاطب كل فريق من الناس بما يناسب مستواه الفكري والنفسي.

ويندرج في الموعظة الحسنة كل الأساليب التي تؤثر في النفس الإنسانية، والتي من شأنها أن توجه عوامل الأنفس في جهة الاقتناع بالحقيقة.

والإقناع الفكري من أول الطرائق التي سلكها القرآن وسلكها الرسول صلوات الله عليه في معظم الحقائق التي اشتمل عليها الإسلام، ومنها موضوعات الأخلاق.

٣ ــ طريق الترغيب والترهيب:

لا ينكر الأثر الكبير الذي يتم بتحريك محوري الطمع والخوف في النفس الإنسانية، بالترغيب والترهيب، والتشجيع بالإكرام والمكافأة، والتثبيط بالإهانة والعقوبة عند الضرورة.

إنه طريق مؤثر وفعال جداً، ومولد لحافز ذاتي داخل النفس الإنسانية.

وقد اعتمد الإسلام في منهجه التربوي اعتماداً كبيراً على طريق الترغيب

والترهيب، بعد اعتماده على الهداية للتي هي أقوم، بوسيلة التعليم والإقناع الفكري ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.

ونصوص الترغيب والترهيب كثيرة جداً في الكتاب والسنّة.

٤ ـ طريق تربية الوجدان الأخلاقي:

وتكون هذه التربية بتعريض الوجدان لخبرات ومشاهد يحس فيها حلاوة الفضائل الأخلاقية، ومرارة الرذائل الأخلاقية.

إن الوجدان الأخلاقي ينمو ويتضخم بمختلف الخبرات والمشاهد التي تفجر فيه انفعالات استحسان الفضائل والكمالات الأخلاقية، عند تذوق حلاوتها والشعور بالمسرات التي تحصل بسببها، وتفجر فيه انفعالات استقباح الرذائل والنقائص الأخلاقية عند تذوق مرارتها والشعور بالآلام التي تحصل بسببها.

وعندما ينمو الوجدان الأخلاقي ويتضخم يغدو قادراً على تحريك العواطف وتوجيه الإرادة، والدفع إلى السلوك الأخلاقي الكريم، إيجابياً كان أو سلبياً، في داخل النفس والقلب، أو في مجال السلوك العملي الظاهر.

فمن أمثلة ذلك ما يلي:

١ ـ إكرام الإنسان بالعطاء وهو راغب فيه أو عرض مشهد من مشاهد العطاء أمامه، حتى يشعر وجدانه بحلاوة العطاء، وبأنه فضيلة من الفضائل الأخلاقية. وحرمان الإنسان من العطاء مع حاجته إليه، أو عرض مشهد من مشاهد الشح أمامه، حتى يشعر بأن الشح رذيلة من الرذائل الأخلاقية.

٢ ـ تعريض الإنسان لحادثة من حوادث الظلم، أو مشهد من

مشاهده، حتى يشعر وجدانه بمرارة الظلم، وبأنه رذيلة من الرذائل الخلقية وتعريضه لرائعة من روائع العدل، أو مشهد رائع من مشاهده، حتى يشعر وجدانه بحلاوة العدل وإكباره، وأنه فضيلة من الفضائل الخلقية.

٣ ــ تعريض الإنسان لمشهد من مشاهد الشجاعة المحمودة، أو معونته بحادثة من حوادث الشجاعة المحمودة، حتى يشعر وجدانه بإكبار الشجاعة وحلاوتها، وبأنها من الفضائل الأخلاقية. وتعريضه لمشهد من مشاهد الجبن، أو التخلي عن معونته بحادثة من حوادث الجبن، حتى يشعر وجدانه بحقارة الجبن ويتقزز منه، ويحس بأنه نقيصة من النقائص الخلقية.

وقد تقع القصة المحكية موقع المشهد المرئي، فتؤثر مثل أثره.

وهكذا يتربى الوجدان الأخلاقي ويكون باستطاعته أن يحرك ويوجه ويؤثر، ويكون أحد الحوافز الذاتية في كيان الإنسان الداخلي.

ــ ٦ ــ
وسائل اكتساب الأخلاق

لم يدع الإسلام وسيلة تربوية نافعة لا شر فيها إلا استخدمها في مختلف المجالات التربوية، ومنها التربية الأخلاقية، وذلك لأن الناس أصناف، وكل صنف منهم قد تلائمه وسيلة من الوسائل وتتناسب مع خصائصه النفسية والفكرية، في حين أنه قد لا تجدي معه وسيلة أخرى، وحركة الإسلام الإصلاحية لا بد أن تأخذ بكل الوسائل لتلائم كل الناس.

ولدى البحث عن الوسائل التي اتخذها الإسلام أو وجه إليها في منهجه التربوي لاكتساب الأخلاق الإسلامية، ولإلزام الأفراد والجماعات بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه للناس، تنكشف لنا مجموعة من الوسائل، منها الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى:
التدريب العملي والرياضة النفسية.

الوسيلة الثانية:

الغمس في البيئات الصالحة.

الوسيلة الثالثة:

القدوة الحسنة.

الوسيلة الرابعة:

الضغط الاجتماعي من قبل المجتمع المسلم.

الوسيلة الخامسة:

سلطان الدولة الإسلامية، بروادعها، وعقوباتها، ومرغباتها، ومكافآتها.

وفيما يلي شرح لهذه الوسائل:

أولاً ـ التدريب العملي والرياضة النفسية:

إن التدريب العملي والممارسة التطبيقية ولو مع التكلف في أول الأمر، وقسر النفس على غير ما تهوى، من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية العادة السلوكية، طال الزمن أو قصر.

والعادة لها تغلغل في النفس يجعلها أمراً محبباً، وحين تتمكن في النفس تكون بمثابة الخلق الفطري، وحين تصل العادة إلى هذه المرحلة تكون خلقاً مكتسباً، ولو لم تكن في الأصل الفطري أمراً موجوداً.

وقد عرفنا أن في النفس الإنسانية استعداداً فطرياً لاكتساب مقدارٍ ما من كل فضيلة خلقية، وبمقدار ما لدى الإنسان من هذا الاستعداد تكون مسؤوليته، ولو لم يكن لدى النفوس الإنسانية هذا الاستعداد لكان من العبث اتخاذ أية محاولة لتقويم أخلاق الناس. والقواعد التربوية المستمدة من الواقع التجريبي تثبت وجود هذا الاستعداد، واعتماداً عليه يعمل المربون على تهذيب أخلاق الأجيال التي يشرفون على تربيتها، وقد ورد في الأثر: «العلم بالتعلم والحلم بالتحلم».

وثبت في الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبّر يصبِّره الله».

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده:

«ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر».

وضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً دل فيه على أن التدريب العملي ولو مع التكلف يكسب العادة الخلقية، حتى يصير الإنسان معطاء غير بخيل ولو لم يكن كذلك أول الأمر.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُنتان من حديد من ثُديِّهما إلى تراقيهما.

فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وَفرت على جلده، حتى تخفي بنَانه، وتعفو أثره.

وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لَزِقت كل حَلْقةٍ مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع».

جُنتّان من حديد: أي درعان.

تراقيهما: التراقي جمع ترقوة، والترقوتان هما العظمان المشرفان بين ثُغْرَة النحر والعاتق. تكون للناس وغيرهم.

فدل هذا الحديث على أن المنفق والبخيل كانا في أول الأمر متساويين في مقدار الدرعين.

أما المنفق فقد رَبَت درعه بالإنفاق حتى غطت جسمه كله، بخلاف

البخيل الذي لم يدرب نفسه على الإنفاق، فإن نفسه تكز، والله يضيق عليه من وراء ذلك، فيكون البخل خُلُقاً متمكناً من نفسه مسيطراً عليها.

ومن ذلك نفهم أمرين: فطرية الخلق، وقابليته للتعديل بالممارسة والتدريب العملي. إن المنفق كان أول الأمر كالبخيل يشبهان لابِسَيْ درعين من حديد متساويين ويبدو أن الدرع مثالٌ لما يضغط على الصدر عند إرادة النفقة، فمن يتدرب على البذل تنفتح نفسه كما يتسع الدرع فلا يكون له ضغط، وأما من يعتاد الإمساك فيشتد ضاغط البخل على صدره، فهو يحس بالضيق الشديد كلما أراد البذل، ومع مرور الزمن يتصلب هذا الضاغط.

واعتماداً على وجود الاستعداد الفطري لاكتساب الخلق، وردت الأوامر الدينية بفضائل الأخلاق، ووردت النواهي الدينية عن رذائل الأخلاق.

ولكن من الملاحظ أنه قد يبدأ التخلق بخلُقٍ ما عملاً شاقاً على النفس، إذا لم يكن في أصل طبيعتها الفطرية، ولكنه بتدريب النفس عليه، وبالتمرس والمران، يصبح سجية ثابتة، يندفع الإنسان إلى ممارسة ظواهرها اندفاعاً ذاتياً، دون أن يجد أية مشقة أو معارضة أو عقبة من داخل نفسه، ولئن وجد شيئاً من ذلك فإن دافع الخلق المكتسب يظل هو الدافع الأغلب، بشرط أن يكون التخلق قد تحول فعلاً إلى خلق مكتسب.

وليس التدريب النفسي ببعيد الشبه عن التدريب الجسدي، الذي تكتسب به المهارات العملية الجسدية.

ولنأخذ مثالاً على ذلك فضيلة الصبر: فإن من المستطاع اكتساب هذه الفضيلة وتنميتها عن طريق التدريب الذي يتعرض له الإنسان في حياته، وذلك بأن تمر في حياته أمور متعددة تتطلب منه صبراً وسعة صدر، فقد يضجر الإنسان في الأول منها، ولكنه في الثاني يكون ضجره أخف، ثم تتنازل نسبة الضجر عنده، وتتصاعد نسبة الصبر، حتى يغدو من الصابرين، ومن أصحاب فضيلة خلق الصبر.

وكذلك كثير من الفضائل الخلقية يمكن أن تكتسب بالتدريب العملي المتكرر.

ولذلك اعتمد الإسلام على وسيلة التدريب العملي، ليكتسب بها المسلمون جملة من الفضائل الأخلاقية التي أمرهم بها أمر إلزام أو ترغيب، وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كلها قائمة على التدريب العملي والممارسة التطبيقية. والعبادات الدورية، والزكاة، والنفقات الواجبة، والجهاد في سبيل الله من أمثلة التدريب العملي.

والتدريب العملي الجسدي أو النفسي قد يصاحبه أول الأمر تكلف ثقيل على النفس، ولكنه قد يغدو بعد حين عادة أخلاقية محببة، إذا تركها صاحبها شعر بفراغ نفسي موحش، لا يملأه إلا ممارستها. وهكذا شأن العادات، فالعادة طبيعة ثانية.

ثانياً ــ الغمس في البيئات الصالحة:

ومن وسائل اكتساب الأخلاق الفاضلة الغمس في البيئات الصالحة، وذلك لأن من طبيعة الإنسان أن يكتسب من البيئة التي ينغمس فيها ويتعايش معها، ما لديها من أخلاق وعادات وتقاليد وأنواع سلوك، عن طريق السراية والمحاكاة والتقليد، وبذلك تتم العدوى النافعة أو الضارة، وفي الحكم السائرة: إن الطبع للطبع يسرق.

فالانغماس في الجماعة، من شأنه أن ينقل من الجماعة إلى الفرد ما تتسم به الجماعة من أخلاق، عن طريق السراية والعدوى، التي تبدأ بالمحاكاة والتقليد والرغبة بالاندماج والموافقة وعدم المخالفة والشذوذ.

وحينما ينخرط الفرد في سلك جماعة من الجماعات يجد أنه مدفوع بقوة ضاغطة لالتزام طريقتها، ثم بتعاطفه معها يستحسن الأشياء التي يراها مستحسنة لديها وآخذة بها، ويستقبح الأشياء التي يراها مستقبحة لديها ونافرة منها، وبذلك يكتسب الفرد من دون أن يشعر أخلاق الجماعة التي ينتسب إليها، وينخرط فيها.

يضاف إلى ذلك أن الدافع الجماعي الموجود في الفرد الإنساني، يجعله إذا انخرط في سلك بيئة جماعية ضمن آلة متحركة تقسره قسراً ذاتياً على أن يستحسن ما تستحسنه، ويستقبح ما تستقبحه، وعلى أن يتقبل التدريبات العملية التي تمارسها الجماعة، وبذلك يكتسب الفرد طائفة كبيرة من الأخلاق التي تتخلق بها الجماعة. ويضاف إلى ذلك عامل التكرار بمرور الزمن، الذي تغدو به المكررات عادات متمكنة في الفرد، وذات جذور عميقة في قرارة نفسه.

فإذا وضعنا جباناً في بيئة شجعان، استطاع أن يكتسب منهم قسطاً حسناً من الشجاعة، وبذلك تخف نسبة الجبن لديه.

وإذا وضعنا بخيلاً بين كرماء مدة طويلة من الزمن، فإنه لا بد أن يتأثر بهم، فتخف عنده نسبة البخل الفطرية لديه.

وإذا وضعنا إنساناً في بيئة أمناء، اكتسب منهم خلق الأمانة، أو في بيئة صادقين، اكتسب منهم خلق الصدق، أو في بيئة عفة وشرف اكتسب ذلك منها.

وهكذا فالإنسان الذي يجد نفسه في بيئة لهجتها الصدق، وخلقها الأمانة، وسلوكها الوفاء بالعهد والصدق في الوعد، يصعب عليه جداً أن يخرج على هذا الأسلوب من السلوك في الحياة، وإن كانت نفسه نزَّاعة بالأصل إلى غير ذلك. ثم إذا طال عليه العهد وهو ملتزم بما تمليه عليه البيئة، وجد هذه الصفات الكريمة ذات جذور متغلغلة في نفسه، وصار يحس بنفرة شديدة من أضدادها، فلو حلا لنفسه أن يكذب لم يطاوعه خلقه المكتسب على ذلك، ولو بدا له أن يخون تلجلج واضطرب، وفر من نزعات نفسه وشيطانه، وابتعد عن طريق الخيانة. ولو اتجه هواه إلى نقض العهد وعدم الوفاء بالوعد لألجمته عن ذلك أخلاقه المكتسبة. وهكذا في كل ما يكتسبه الفرد بالتخلق، عن طريق البيئة الصالحة التي تلفه في دوامتها.

هذا بخلاف البيئات المنحرفة فإنها تؤدي هذا الدور نفسه، ولكن في اتجاه معاكس تماماً، إذ تعمل على تدريب من ينخرط فيها على كل رذيلة من الرذائل

التي هي مدنسة بها، وعلى كل قبيحة من القبائح المنتشرة بين أفرادها، كما تكون بؤرة ملائمة لتزايد الرذائل والقبائح، حتى تفسد المفاهيم العامة، فتمسي مآثر الأفراد فيها ما أصابوه من جرائم وسيئات وانحرافات في السلوك.

ويستغل المفسدون في الأرض هذه الوسيلة لإفساد أخلاق الناس، وإخراجهم عن طريق الحق والخير والفضيلة، الذي هو طريق الإسلام.

لذلك كان من واجبات التربية النافعة التوجيه أو الإلزام بمصاحبة الأخيار والبعد عن مصاحبة الأشرار.

ويمكن تلخيص التأثير الجماعي على الفرد بالعناصر التالية:

١ ــ السراية التي تفعل فعلها العميق في كيان الإنسان، وهي من خصائص الاجتماع، وكلما كبر المجتمع كان تأثيره على الفرد الذي ينخرط فيه أكثر.

٢ ــ القوة المعنوية الجماعية، التي يخشى الأفراد عقوباتها المادية والمعنوية. ويرجون مثوباتها المادية والمعنوية.

٣ ــ جاذبية الجماعة لعنصر التقليد والمحاكاة الذي يوجد عند الأفراد.

٤ ــ عنصر المنافسة، وهو من خصائص الجماعة.

٥ ــ رغبة الأفراد بتقدير الآخرين ومحبتهم له وهذا الدافع لا يتحرك إلا في وسط الجماعة، فاستغلاله من خصائص الجماعة.

هذا وقوة الجماعة الخيرة يوجد نظيرها في الجماعة الشريرة الخبيثة، يضاف إليها ميل النفس بفطرتها إلى الأهواء والشهوات التي ترافق رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال، لا سيما إذا كان مخالط الأشرار غراً صغيراً غير مضرّس في الحياة، وسلطان الغرائز والأهواء فيه أقوى من سلطان العقل والوجدان والضمير.

ومن المتعذّر جدّاً إصلاح إنسان منحرف الخلق فاسد السلوك، ما لم يُعزل

عزلاً كاملاً عن الأشرار، وما لم يقطع عن مصاحبتهم، لأنّ صلته بهم واختلاطه فيهم من أقوى العوامل التي تفسد كل علاج إصلاحي يعالج به، فوجوده بينهم يذكّره دائماً بطعم ما كان يمارسه من لذات وشهوات معهم، فيكون صارفاً له عن تقبل أنواع العلاج.

ثالثاً ــ القدوة الحسنة:

القدوة الحسنة هي المثال الواقعي للسلوك الخلقي الأمثل، وهذا المثال الواقعي قد يكون مثالاً حسيّاً مشاهداً ملموساً يقتدى به، وقد يكون مثالاً حاضراً في الذهن بأخباره وسيره، وصورة مرتسمة في النفس بما أثر عنه من سير وقصص وأنباء من أقوال وأفعال.

والقدوة الحسنة تكون للأفراد على صفة أفراد مثاليين ممتازين، وتكون للجماعات على صفة جماعات مثالية ممتازة.

وسرّ تأثير القدوة الحسنة في اكتساب الفضائل يرجع إلى عدة أسباب، منها ما يلي:

١ ــ إنّ القدوة الحسنة تحتل في المجتمعات الإنسانية مرتبة من المجد لا يحظى بها غيرها، وهذه المرتبة محفوفة بالتقدير الكبير من الناس، ومحفوفة بالثناء والإطراء والإعجاب، وكل هذا يولّد في الفرد المحروم من أسباب هذا المجد حوافز قوية تحفزه إلى تقليد القدوة الحسنة، ومحاكاتها في أخلاقها وسلوكها، وعن طريق التقليد في الفضائل تكتسب الفضائل، لأن الممارسة التقليدية تتحول إلى عادة متمكنة، وهذه تتحول إلى خلق مكتسب.

ولو أن مجد القدوة الحسنة قد ضعف في المجتمع الذي تعيش فيه، بسبب الانحراف الخطير في هذا المجتمع، وضعف تأثيره عند كثير من الأفراد، فإن بعض الناس الذين يتمتعون بمقدار كافٍ من محاكمة الأمور، وتقديرها حق قدرها، تظل القدوة ذات تأثير على قلوبهم ونفوسهم، ففي أسوأ المجتمعات المنحرفة توجد قدوات صالحة مؤثرة في بعض الأفراد، وإن كانت نسبة التأثير العام تضعف لا محالة بسبب انحراف المجتمع.

٢ ـ إن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال، يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان والإعجاب والتقدير والمحبة، ومع هذه الأمور تتهيج دوافع الغيرة لديه، فإن كان عنده في الأصل ميل إلى الخير، وتطلّع إلى مراتب الكمال، وليس في نفسه عقبات تصدّه عن ذلك، أخذ يحاول تقليد ما استحسنه وأعجب به، بما تولد لديه من حوافز قوية تحفزه لأن يعمل مثله، حتى يحتل درجة الكمال التي رآه يحتلّها.

٣ ـ إن القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة، التي هي في متناول القدرات الإنسانية، وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال.

فمن المشاهد في مجال التربية أن كثيراً من الناس يرون بعض الأمور مستحيلة الوقوع، لأنهم لم يعالجوا قدراتهم للقيام بها، فإذا شاهدوا غيرهم يفعلها، أخذوا يطوعون قدراتهم حتى يكسبوها المهارات المطلوبة لذلك العمل، بالمعالجة والمحاكاة والتدريب.

ومعلوم أن في فطرة الإنسان ميلاً قوياً للمحاكاة والتقليد، وهو الأمر الذي يسهّل عليه عملية تعلّم الأعمال الراقية، التي لم تصل إلى معرفتها الأجيال السابقة إلاّ بعد تطوير كثير، اعتمد على الاختبار والتجربة والتحسين واختيار الأفضل.

ويقوى الميل إلى المحاكاة والتقليد، إذا كان من اتجهت إليه الأنظار قد فرض احترامه وتقديره وحبه.

وقد اتخذ الإسلام القدوة الحسنة وسيلة من وسائله، لترقية المجتمعات المسلمة في سلّم الكمال السلوكي عامة، ومنه الكمال الخلقي.

ووجه القرآن الكريم بصراحة تامة إلى القدوة الحسنة، فقال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

ففي هذا النص إرشاد عظيم من الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة لهم، يقتدون به، في أعماله، وأقواله، وأخلاقه، وكل جزئيات سلوكه في الحياة، فهو خير قدوة يقتدي بها الأفراد العاديون، والأفراد الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك.

وجعل الله الذين آمنوا معه وصدقوا وأخلصوا واستقاموا أمثلة رائعة يقتدى بها في معظم الفضائل الفردية والاجتماعية.

ولئن انتقل الرسول صلوات الله عليه إلى جوار ربه، فإن سيرته التي تحتوي على جزئيّات سلوكه ماثلة لنا.

وفيما بلغنا من تراجم أصحابه رضوان الله عليهم، ما يكفي لتجسيد القدوة الحسنة للمجتمع المسلم.

ثم إن كل عصر من العصور من بعدهم لا يخلو من وجود طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم تصلح لأن تكون قدوة حسنة، قلّت هذه الطائفة أو كثرت، فقد بشّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقّ، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجّال» رواه أبو داود عن عمران بن حصين.

وروى الإمام مسلم عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

وروى البخاري ومسلم عن معاوية قال: سمعت النبـي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يزال من أمتي أمّة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

فلا يخلو عصر من عصور الأمة المحمدية من طائفة صالحة، تصلح لأن تكون في عصرها قدوة حسنة للأفراد.

رابعاً ــ الضغط الاجتماعي من قبل المجتمع الإسلامي:

ضمن مجموعة الوسائل التي اعتمد عليها الإسلام في تقـويم الأفراد وإصلاحهم، وإلزامهم بكمال السلوك وفضائل الأخلاق، اعتمد على المجتمع الإسلامي السويّ، وذلك لما للمجتمع من سلطة معنوية فعالة ومؤثرة على نفوس الأفراد.

وترجع هذه السلطة المعنوية إلى أن الفرد جزء من المجتمع الذي يعيش فيه، وله من مجتمعه مصالح كثيرة ماديّة ونفسية.

وبما أن الإنسان كائن اجتماعي، ولا يستطيع أن يعيش عيشاً سوياً سليماً إلاّ ضمن مجتمع من الناس، كان ارتباطه بالمجتمع نابعاً من حاجته إليه، والحاجة لشيء ذي إرادة تجعل لهذا الشيء سلطاناً على من كان بحاجة إليه، إذ هو لا يحقق هذه الحاجة من نفسه ما لم يكن راضياً، عندئذٍ يسعى ذو الحاجة إلى تحقيق رضاه حتى ينال منه حاجته.

ومن الحاجات النفسية المرتبطة بالمجتمع حاجة الإنسان إلى التقدير، ولذلك يكدح كثير من الكادحين ليظفروا بتقدير الناس لهم وثنائهم عليهم، ويمنع كثير من الناس أنفسهم من شهوات ملحّة، وأهواء يتطلّعون إليها، مخافة أن ينظر الناس إليهم بازدراء واحتقار، أو مخافة أن يعاقبوهم بالهجر والقطيعة، أو التلويم والتثريب والمذمّة، وما ذلك إلاّ من شعور الفرد بحاجته إلى التقدير، وبحاجته إلى المحافظة على كرامة نفسه بين الناس، وهذا هو الـذي يجعل للمجتمع سلطاناً على أفراده.

يضاف إلى ذلك أسباب التأثير الجماعي على الفرد، وهي الأسباب المبينة في الوسيلة الثالثة، وسيلة «الغمس في البيئات الصالحة».

وإذا اتخذ الإسلام ــ ضمن وسائله لإلزام الأفراد بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه للناس ــ وسيلة الضغط الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع الإسلامي، فقد عمل بالتربية الفردية النبوية وبالتربية الجمـاعية عـلى تكوين المجتمـع

الإسلامي الأوّل، ثم جعل من هذا المجتمع رقيباً على أفراده، وحارساً ساهراً، ومحاسباً عادلاً، ومعاقباً بأنواع شتى من أنواع العقاب المعنوي، ومؤنّباً، وناصحاً، وآمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر.

فمن شأن هذا المجتمع أن يملي على من ينشأ فيه، أو ينخرط فيه، فضائل الأخلاق، ومحاسن السلوك، بصفة عملية فعّالة قاسرة.

وقد ملأ الإسلام المجتمع الإسلامي بالمناسبات المتكررة الدورية، التي يجتمع فيها المسلمون على سلوك واحد، الأمر الذي من شأنه أن يملي على الأفراد وقائع السلوك الكريم، ويُدَرِّبهم على كل فضيلة نفسية وعملية، ويشجع السابقين المتنافسين في الخيرات على تنمية أمثلة الكمال الخلقي في المجتمع.

والمجتمع الإسلامي السويّ يلاحق الفرد إلى أصغر الدوائر الاجتماعية التي يعيش فيها، مبتدئاً من أكبر المؤسسات الاجتماعية النظامية وغير النظامية، ومنتهياً بمجتمع لا يلتقي فيه الآ اثنان، زوجان، أو أخوان، أو شريكان، أو والد وولده، أو صاحب وصاحبه، إذ يجد الفرد من كل هذه الدوائر الاجتماعية الإسلامية ما يكون عليه رقيباً، وله محاسباً، ومؤنباً، وناصحاً، وآمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، ومعاقباً بالهجر والمقاطعة إذا لزم الأمر.

ومن أجل ذلك وضع الإسلام المجتمع الإسلامي تحت مسؤوليته هذه، لئلا يشذ الأفراد فيه عن المنهج الإسلامي القويم:

ومن النصوص المبينة لهذه المسؤولية ما رواه أبو داود والترمذي ــ وقال: حديث حسن ــ عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلـمّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ

مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾(١).

ثم قال: كلّا والله، لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يدي الظالم، ولتأطرنّه على الحق أطراً، ولتقصرنّه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننّكم كما لعنهم»!!.

ومن النصوص أيضاً ما رواه البخاري عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة. فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ من فوقنا!! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

وقد أوضح الرسول صلوات الله عليه كيف تربّي الجماعة الأفراد بعقاب الهجر والمقاطعة لله، في قصة الثلاثة المخلّفين، الذين تخلّفوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك دون عذر، وقد وردت قصة هؤلاء الثلاثة مفصلة في أحاديث صحيحة، وجاءت مجملة في القرآن الكريم.

خامساً ـ سلطان الدولة الإسلامية:

وللسلطة المادية التي تمارسها الدولة الإسلامية، أثر فعّال في إلزام الأفراد والجماعات، بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه الإسلام للناس، وفي تربية نفوسهم وقلوبهم على الفضائل الأخلاقية.

---

(١) سورة المائدة ـ ٥.

ولذلك كان من مهمّات الدولة الإسلامية ضبط انتظام الأفراد والجماعات في نظام الأخلاق الإسلامية، بما توليه من رقابة يقظة، وحراسة ساهرة، ومحاسبة للمنحرفين، وتشجيع للسابقين، وتوجيه وتربية، وبناء وصيانة.

ولذلك كان من مهمّات الدولة الإسلامية وضع الأنظمة المختلفة، المرغبة بالتزام المنهج الأخلاقي الربّاني، والرادعة عن مخالفته، واتخاذ مختلف الوسائل النافعة التوجيهية والتربوية لحماية الأخلاق وصيانتها.

وربّما كان وازع السلطة الإدارية هذا أقوى وازع لإلزام الجماهير بسلوك السبيل الأقوم، وقد جاء في الأثر: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

أي: إنّ من الناس من لا يلتزمون بمنهج الحقّ لمجرّد علمهم بأنه منهج حق، ولمجرّد توجيه الترغيبات والإنذارات المؤجلة، بل لا بد لهم من سلطانٍ ماديٍّ يخافون بأسه ويرجون نفعه، وهو يلزمهم به طوعاً أو كرهاً.

وحينما تكون رقابة السلطة الإدارية رقابة يقظة، وحراستها حراسة حذرة، ووسائلها مجدية ونافعة، فإن شذوذ الأفراد والجماعات يقلّ إلى أدنى النسب الممكنة في الواقع الإنساني.

ومن الشواهد على هذه الحقيقة عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه كان عصر إدارة حازمة، ورقابة يقظة، وحراسة حذرة، ولذلك لم يسجل تاريخ هذا العهد من شذوذات الأفراد والجماعات إلاّ القليل النادر، الذي لا يخلو منه أي مجتمع إنساني مهما كان مجتمعاً مثالياً.

وعهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق كذلك، إلاّ أنه عهد لم يطل كما طال عهد الخليفة الثاني.

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلا العهدين عناصر مساعدة للخليفة، يؤازرونه في الرقابة والحراسة، ويمدّونه بقوّة الحزم والعزم، ويرشدونه إلى جوانب الإدارة الحكيمة والعدل في السلطان.

أمّا عصر الرسول فقد كان عصر بناء المجتمع الإسلامي الأول وفق قواعد

الحكمة الربانية وتوجيهاتها، ووفق السياسة النبوية التي كان الوحي راعياً لها ومرشداً ومقوماً وممداً.

خاتمة لوسائل اكتساب الأخلاق:

وحينما تلتقي مجموعة الوسائل المتخذة لاكتساب الأخلاق الإسلامية والإلزام بمنهجها الرباني ضمن الأسس التربوية العامة، تتهيأ الظروف والشروط الممتازة لضمان صلاح أكبر نسبة من الأفراد.

فالتدرج في البناء التربوي، ومعاملة كل طبع بما يلائمه، وتصيد المناسبات الملائمة، والرعاية الشجرية، والتوجيه والتحويل، والتصعيد والمزاحمة والتضمير وإيجاد الحافز الذاتي، والتدريب العملي، والغمس في البيئات الصالحة، والقدوة الحسنة، والمجتمع الإسلامي، وسلطان الدولة الإسلامية بروادعها وعقوباتها ومرغباتها ومكافآتها، أمور كفيلة بتحقيق الهدف من بناء الفرد المسلم المتخلّق بأخلاق الإسلام على قدر استعداده، وبناء الأمة الإسلامية، التي يكثر فيها الخير ويقل فيها الشذوذ.

أمّا الشاذّون القليلون فتنفّذ فيهم العقوبة، تخلّصاً منهم أو تأديباً، وعبرة وعظة لمن تحدّثهم أنفسهم بأن يسلكوا مثل طريقتهم، إذا كان شذوذهم الأخلاقي موجباً للعقوبة.

ومجتمع يصل إلى هذا المستوى مجتمع مثالي لا محالة.

□ □ □

الباب الثاني

الإنسان في دائرة الدلالات القرآنية

وفيه تسعة فصول:

الفصل الأول	:	مقدمة عامة.
الفصل الثاني	:	في النفس بوجه عام.
الفصل الثالث	:	في الصـدر.
الفصل الرابع	:	في القلب (الإرادة ومستوياتها والعقل الإرادي).
الفصل الخامس	:	في الفـؤاد.
الفصل السادس	:	في الفـكـر.
الفصل السابع	:	في اللـب.
الفصل الثامن	:	في العقل (العقل العلمي والعقل الإرادي).
الفصل التاسع	:	في الإنسان بوجه عام.

الفصل الأول

مُقَدِّمَة عَامَّة

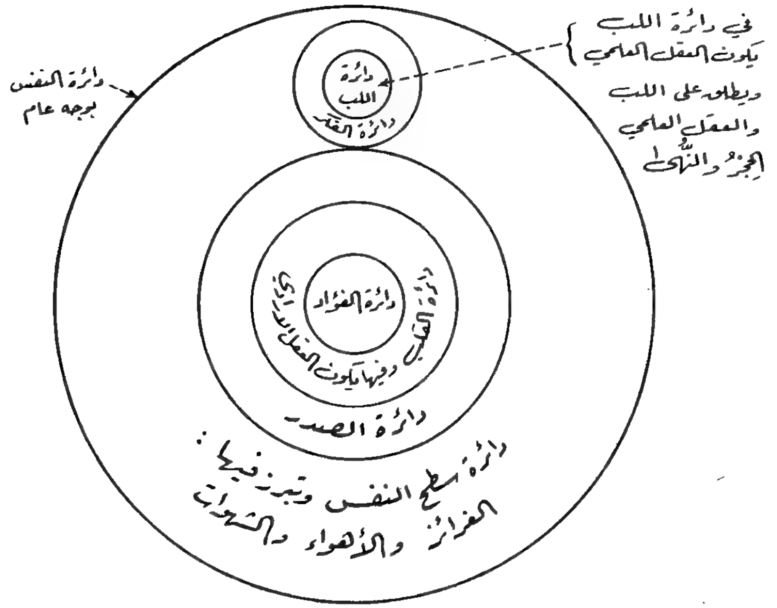
الذي يظهر من دراسة الدلالات القرآنية للمراد من النفس والصدر والقلب والفؤاد، أنّ هذه الأربعة بمثابة دوائر أربع، الأولى كبرى، وهي تمثل النفس، والثانية أصغر منها في داخلها، وهي تمثل الصدر، والثالثة أصغر من الثانية وهي في داخلها، وهي تمثل القلب، وفيه يكون العقل الإرادي، والرابعة هي الدائرة الصغرى وهي في داخل الدائرة الثالثة، وهي تمثل الفؤاد.

وأما الفكر فله دائرة خاصة ضمن دائرة النفس الكبرى، وهذه الدائرة التي للفكر تتعامل مع الدوائر الأخرى بالأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر: فتتعامل مع دائرة النفس باعتبار أنها جزء منها، وتتعامل مع دوائر الصدر و القلب والفؤاد أيضاً، باعتبار أنها أجزاء ضمن وحدة دائرة النفس الكبرى، ولها بها صلات أخذ وعطاء ومشاركة. وفي عمق دائرة الفكر تقع دائرة اللب، ويطلق عليه النُّهىٰ والحِجْر، وفي دائرة اللب يكون العقل العلمي.

ويظهر من الدلالات القرآنية أنّ لكلّ دائرة من دوائر النفس المتسلسلة في التصاغر إلى نقطة مركزها أموراً مشتركة عامة، وأموراً هي من قبيل الاختصاصات، ومن هذه الاختصاصات ما هو اختصاص انفراد، ومنها ما هو اختصاص تركيز واهتمام، وهذا الثاني لا يمنع من مشاركة جميع أو بعض الدوائر الأخرى، نظراً إلى أنها جميعاً جزء من وحدة النفس.

فإذا أطلق لفظ النفس، أو وصفت النفس بوصف ، أو أسند إليها شيء،

رسم إيضاحي للنفس والصدر والقلب والفؤاد والفكر واللب والعقل العلمي والعقل الإرادي في مفاهيم دلالات النصوص القرآنية



فقد يكون المراد عامة النفس، فيدخل بذلك دوائرها جميعاً، وقد يكون المراد ما يختص بدائرة الصدر، أو بدائرة القلب، أو بدائرة الفؤاد، أو بدائرة الفكر، أو بدائرة اللب، أو بما بقي تحت عنوان النفس فقط من وراء هذه الدوائر، وهي دائرة سطح النفس.

وإذا أطلق لفظ الصدر، أو وصف الصدر بوصف، أو أسند إليه شيء، فقد يكون المراد عامة الصدر، فيدخل بذلك دائرة القلب، ودائرة الفؤاد، وقد يكون المراد ما يختص بدائرة القلب، أو بدائرة الفؤاد، أو بما بقي تحت عنوان الصدر فقط من وراء دائرة القلب.

وإذا أطلق لفظ القلب أو وصف القلب بوصف، أو أسند إليه شيء، فقد

يكون المراد عامة القلب، فيدخل بذلك دائرة الفؤاد، وقد يكون المراد ما يختص بدائرة الفؤاد.

ولقائل أن يقول: قد يطلق لفظ القلب ويراد منه اللب، مركز العقل العلمي، وعلى هذا فلدائرة الفكر قلب يكون فيه القلب العلمي، ولدائرة الصدر قلب يكون فيه العقل الإرادي، والله أعلم.

وحينما يدعو القرآن إلى التفكير فالظاهر أن المراد إعمال دائرة الفكر عامة، في الموضوع الذي وجه له القرآن، وتثبيت النتائج التي يتوصل إليها وعَقْلُها في دائرة اللب، والقيام بما يرشد إليه ما استقر في اللب والعقل العلمي من معرفة وهداية.

وينبغي أن لا يفوتنا أن الدلالات القرآنية إذا ذكرت بعض أفراد نوع من الأنواع فهي تنبه بذكره على سائر أفراد النوع.

فإذا ذكرت مثلاً طائفة من العواطف أو الانفعالات وجعلتها من صفات دائرة من دوائر النفس، فإن العواطف أو الانفعالات الأخرى التي تدخل في نوع هذه الطائفة هي أيضاً مثلها، ولا يشترط ذكرها على وجه الخصوص.

وحسب القرآن أنه قد عالج بتربيته العظيمة الدقيقة كل خصائص النفس الإنسانية، وكل صفاتها، بكل مستوياتها وبحسب تفاوت نسبها في الأفراد.

وفي الاستعراض التالي أوجزتُ في شرح النصوص وتحليل ما فيها، لأن الغرض جمع الدلالات عن الإنسان في القرآن، ولو لجأت إلى شرح هذه النصوص شرحاً مفصلاً، لكان هذا الباب وحده من الكتاب سفراً كبيراً.

والحمد لله، فهو المسدّد والملهم للصواب.

* * *

الفصل الثاني

في النفس

ـ ١ ـ

أطلقت النفس في القرآن على شيء في داخل كيان الإنسان، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية، التي لها آثار ظاهرة في السلوك الإنساني.

ولئن كانت ذات هذا الشيء وحقيقته غير معلومة على وجه التحديد لدى الناس، إلا أن كثيراً من صفاته وخصائصه وآثاره الظاهرة في السلوك مدركة معلومة، موصولة بالشعور الظاهر لدى الإنسان السليم.

ومع الإطلاق القرآني لكلمة النفس، وردت عدة صفاتٍ وبيانات، توضّح جملة من خصائص النفس وصفاتها وآثارها في السلوك، وهذه تكشف عن المراد من النفس في داخل كيان الإنسان.

ويظهر من متابعة النصوص القرآنية أن النفس قد أطلقت في القرآن على شيء هو في داخل كيان الإنسان، يشتمل على كل الصفات والخصائص التي تكونت منها ماهيته، دون النظر إلى الهيكل الجسدي الذي هو وعاءٌ لها.

فالنفوس البشرية كلها قد خلقت من نفس واحدة، هي نفس الإنسان الأول (آدم)، ثم اشتق الخالق من هذه النفس الواحدة نفس زوجها، ثم بثّ منهما عن طريق التناسل كل السلالات البشرية المتكاثرة حتى تقوم الساعة. وهذا يدل على أن أسس خصائص النفوس البشرية ومكوناتها وعناصرها تشترك في

أصول واحدة، وإن اختلفت نسب العناصر في الأفراد، ومن الطبيعي أن يتبع هذا الاختلاف في نسب العناصر اختلافٌ ما في صفات الأفراد وخصائصهم، مع وحدة العمود الأصلي الذي تشترك فيه جميع الأفراد.

والنفوس هي التي تُمنح الحياة، وهي التي تموت وتذوق الموت؛ فهي التي تُقتل وهي التي يتوفاها الله.

والنفس من صفاتها: أنها تهوى فلها أهواء، وتشتهي فلها شهوات، وتشعر بالمشقات، وتصبر أو تضجر وتخاف أو لا تخاف، وتخشى أو لا تخشى، وتجود أو تبخل وتشح، وتحسد أو لا تحسد، وترضى أو لا ترضى، وتقنع أو تطمع. وتدرك أو لا تدرك، وتعلم أو تجهل، وتشك وتظن وتستيقن، ويمسها الحرج والضيق أو تنشرح، وتفرح أو تحزن. وتتكبر أو تتواضع، وتُسرّ أو تتحسر، وتتأثر بالقول البليغ أو لا تتأثر، إلى غير ذلك من صفات هي من قبيل المشاعر الوجدانية والإدراكية.

والنفس من صفاتها: أنها تهتدي أو تضل، وتتزكى أو تتدنس، فمنابع الخير والشر لديها، ولديها فطرة إدراك الخير والشر، ولديها الدوافع لفعل كلٍّ منهما.

والنفس من صفاتها: أنها عاملة كاسبة، تعمل وتكسب أفعال الخير وأفعال الشر عن وعي كامل منها، ولا تكون كذلك ما لم تكن الإرادة الحرة من خصائصها، ومن عناصرها.

ولما كانت النفس عاملة كاسبة لما يصدر عن الإنسان، وذات إدراك ووعي كامل للخير والشر، كانت مسؤولة مكلفة.

والجزاء هو ثمرة المسؤولية والتكليف، لذلك كان من صفات النفس أنها تلام وتمدح، وتجازى على الخير خيراً وعلى الشر شراً، وتوفى يوم القيامة ما كسبت، وإذا اكتسبت شرّاً كانت هي الظالمة وهي المظلومة من قبل ذاتها.

ولما كانت مسؤولة مكلفة مجازاة على أعمالها، كان لا بد في فترة ابتلائها

من أن تكون موضوعة موضع المراقبة الدائمة، والمراقبة تستتبع تسجيل أعمالها، لذلك فهي تجد ما عملت من خير أو شر محضراً مسجلاً.

وقواعد العدل في الجزاء تقتضي المحاسبة قبل المعاقبة، وقواعد العدل في المحاسبة تقتضي منح حق الدفاع، لذلك تأتي كل نفس تجادل عن نفسها يوم القيامة عند الحساب.

ولما كانت كل نفس بصيرة بما عملت، عالمة بما كسبت من خير وما كسبت من شر، كانت قادرة على المحاسبة الذاتية، فيقال للإنسان يوم القيامة: ﴿اقرأ كتابك، كفى بنفك اليوم عليك حسيباً﴾.

ولما كانت منابع الخير والشر موجودة لدى النفس، ولما كان لديها فطرة إدراك الخير والشر، ولديها الدوافع لفعل كلٍّ منها، كان من صفاتها الأساسية الفطرية أنها لوامة لذاتها على ما تكسب من شر ما لم يمت حس الخير لديها أو يتخدر أو يغشّى عليه في حالة مرضية. وكان من صفاتها الأساسية الفطرية أن تشعر بالطمأنينة إذا كسبت خيراً، فهي في جانب فعل الخير مطمئنة، وفي جانب فعل الشر لوّامة.

وحينما تتجه إلى فعل الشر تدفعها إليه وساوس الاستمتاع بلذته، وتسويلات حب العاجلة والرغبة بزينة الحياة الدنيا، فهي بالنظر إلى هذا الجانب منها موسوسة، مسولة، وتعتمد في وساوسها وتسويلاتها على الأوهام والظنون وما فيها من زخارف، وينتهي الأمر بها إلى أن تكون أمّارة بالسوء، فإما أن تستجيب بعد ذلك لنداء هذا الجانب منها وإما أن ترفض.

وحينما تتجه إلى فعل الخير تدفعها إليه دوافع الخير الراقية فيها، والرغبة برضوان الله والجزاء الكريم الذي أعدّه للمتقين وللأبرار وللمحسنين. وهذه الدوافع يقترن بها واعظ يعظ بالخير في داخل كيان الإنسان[1]، فإما أن تستجيب بعد ذلك لنداء هذا الجانب وإما أن ترفض.

---

(١) ثبت وجود هذا الواعظ في حديث صحيح رواه أحمد والترمذي والنسائي عن النواس بن سمعان. أوردته في بحث الضمير الأخلاقي.

كل هذه المفاهيم عن النفس قد دلّت عليها نصوص من القرآن الكريم.

أطراف النفس:

وإذا كانت النفس في داخل كيان الإنسان، هي ما يشار إليه بضمير المتكلم (أنا).

ثم إذا حلّلنا صفات النفس أخذاً من المفاهيم التي دلّت عليها النصوص القرآنية، وجرينا على طريقة مدرسة التحليل النفسي في إثبات (الأنا) و(الأنا الأعلى) مع تعديل اقتضته الدلالات القرآنية؛ كان لنا أن نثبت للنفس أطرافاً ثلاثة:

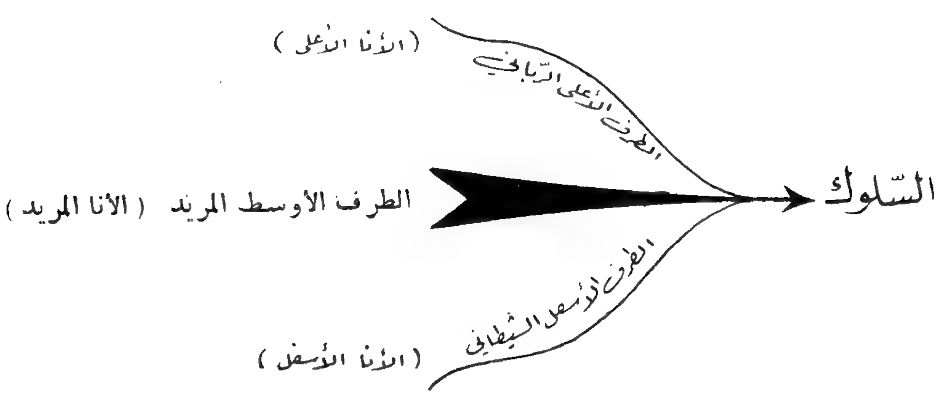
الطرف الأول: طرف أعلى ربّاني، قد نطلق عليه (الأنا الأعلى).

الطرف الثاني: طرف أسفل شيطاني، قد نطلق عليه (الأنا الأسفل).

الطرف الثالث: طرف أوسط، هو الذي يحدّد مسيرة السلوك مستجيباً لنداء الطرف الأعلى وأوامره، أو لوساوس وأوامر الطرف الأسفل.

وهذا الطرف تقع فيه الإرادة الحرة المختارة المنفذة، وقد نطلق عليه (الأنا الأوسط) أو (الأنا المريد).

فالطرف الأعلى: وهو الطرف الرباني، ينزع إلى الخير، ويعظ به ويأمر بفعله، ويحس بالفضيلة وينعم بفعلها، ويلوم على فعل السوء والشر ويحس



بالنفرة منها. فهو من النفس الطرف اللوّام، الآمر بالخير والناهي عن الشر. ويقع في هذا الطرف ما أسميناه سابقاً بالضمير الأخلاقي، وتؤازره لمّة ملك يعظ بالخير. ولكن هذا الطرف قد يضمر إلى حد الموت، أو يصاب بمرض شديد ينعدم به إحساسه، أو يقل به إحساسه، وكل ذلك بسبب استغراق الإنسان في إهماله، وعدم الاستجابة إليه، واتباع وساوس الطرف الأسفل.

والطرف الأسفل: وهو الطرف الشيطاني، يوسوس، ويسوّل بفعل السوء والشر، ويزين الأوهام والظنون الباطلة، ويشكك بالحق. وحين يستشري يكون أماراً بالسوء، نزّاعاً بقوة إليه، فهو من النفس الطرف الأمـار بالسوء، وتؤازره وساوس الشياطين من الإنس والجن.

والطرف الأوسط: وهو الطرف الذي يحدّد مسيرة السلوك، هو الذي لديه الإرادة المنفذة، وهذا الطرف تتجاذبه نوازغ الطرف الأسفل، ونوازع الطرف الأعلى.

فإذا استجاب لهداية الطرف الأعلى، كانت النفس مطمئنة، ثم كانت بفضل الله بعد ذلك راضية مرضية، يطفح سرورها بياضاً على الوجه يوم القيامة.

وإذا استجاب لوساوس الطرف الأسفل وأوامره، كانت النفس قلقة مضطربة، تخشى سوء المصير، ثم كانت بعدل الله بعد ذلك كئيبة متألمة نادمة متحسرة، فيطفح كل ذلك سواداً على الوجه يوم القيامة.

— ٢ —
مع الدلالات القرآنية حول النفس

(أ) نشأة النفوس الإنسانية:

النفوس البشرية كلها قد خلقت من نفس واحدة هي نفس الإنسان الأول (آدم)، ثم اشتق الخالق من هذه النفس الواحدة نفس زوجها، ثم بث منهما عن طريق التناسل كل السلالات البشرية المتكاثرة إلى أن تقوم الساعة.

دل على هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . . ﴿١﴾ ﴾.

وقد خلق منها زوجها لتكون سكناً ملائماً مشاركاً في الخصائص والطبائع البشرية.

دلّ على هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . . . ﴿١٨٩﴾ ﴾.

وقد مرت مـدّة على النفس الأولى قبل أن يخلق الله منها زوجها، ثم بعد هذه المدّة جعل الله منها زوجها، قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . ﴿٦﴾ ﴾.

فدلت كلمة (ثم) على وجود الفاصل الزمني بين خلق آدم وخلق زوجه.

وخلق السلالات البشرية من نفس واحدة كان على سبيل الإنشاء المتدرج كما هو مشاهد، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

والمستقر ظهور الآباء، والمستودع أرحام الأمهات.

(ب) النفس هي التي تذوق الموت:

إذا كان خلق النفس قد تضمَّن هبتها الحياة، فإن النفس هي التي تذوق الموت، وحياتها قبل الموت هي مـدّة ابتلائها، ثم تأتيها مـدّة الموت الطويلة، ثم بعد ذلك تدبّ فيها الحياة مرة ثانية لترجع إلى الله، ويجازيها على ما عملت في مـدّة امتحانها.

دلّ على هذه الحقائق قول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

وكما كانت حياة النفوس متوقفة على خلق الله، فموت أي نفس لا يكون إلا بإذن الله، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ . . . ﴿١٤٥﴾ ﴾.

وأجل كل نفس مقرر بقضاء الله وقدره، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، فآجال النفوس لا تأخير فيها، قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

فمدة امتحان كل نفس محددة بالقضاء والقدر، وفق علم الله وحكمته، لا تأخير فيها ولا تقديم، وعلى هذا فموت النفس بالقتل خاضع للإذن الرباني القدري الذي دلّت عليه الآية السابقة ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ لكن القتل نفسه قد يكون حراماً وإثماً كبيراً، وقد يكون مأذوناً به شرعاً. ولما كانت عملية القتل غايتها موت النفس، جاءت النصوص القرآنية مبينة أن قتل الإنسان الحي هو قتل لنفسه، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ . . . ﴿١٥١﴾ ﴾.

وبيان أن القتل يقع على نفس المقتول كثير في القرآن الكريم.

الموت والنوم:

وللأنفس آجال أخيرة تتوفاها، فإذا توفّتها قبضها الله إليه قبضاً كلياً، فكان ذلك موتها.

وللأنفس في الحياة المدركة ذات الشعور الظاهر آجال متقطعة، كلما توفت أجل قطعة منها قبضها الله إليه قبضاً جزئياً تفقد به الشعور الظاهر، الذي هو شرط لتوجه المسؤولية، ولكن لا تفقد به الحياة كلها، فكان بذلك النوم، وعند اليقظة يرسل الله من النفس ما قبض منها عند النوم.

فبين الموت والنوم للأنفس فرق القبض الكلي لها والقبض الجزئي، ولكن حالة فقد الشعور بالنوم تشبه حالة فقد الشعور بالموت، وتوقف مـدّة الامتحان بالنوم تشبه انتهاء مـدّة الامتحان بالموت، قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

(ج) صفات النفس الشعورية:

أولاً ــ الهوى:

أثبت القرآن أنّ النفس لها هوى، والهوى شعور يميل بها إلى ما تحب من مطالب وحاجات، أو متع ولذات وشهوات، أو عواطف وانفعالات، وقد يكون ما تهواه شراً لها، أو أذى أو ضراً، قال الله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في معرض الكلام عن المشركين في سورة (النجم ٥٣):

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وخاطب الله اليهود بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وتحدث عنهم بقوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ثانياً ــ الشهوة:

وأثبت القرآن أن النفس لها شهوة بها تشتهي ما تستمتع به أو تلذه، ولذلك وصف الله أهل الجنة بقوله في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

وخاطبهم بقوله في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

ووصف الجنة بقوله في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ . . . ﴿٧١﴾ ﴾.

ثالثاً ــ الحاجات والمطالب:

وأثبت القرآن أن للنفس حاجات ومطالب تسعى لقضائها، من ذلك ما ذكره الله تعالى في شأن يعقوب في سورة (يوسف ١٢):

﴿ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ . . . ﴿٦٨﴾ ﴾.

رابعاً ــ الشعور بالمشقات:

وأثبت القرآن أن النفس تشعر بالمشقات، ففي وصف ما خلق الله لنا من

الأنعام ممتناً به علينا قال تبارك وتعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

خامساً ـ الصبر وضده:

وأثبت القرآن أن الصبر من الصفات التي قد تتصف بها النفس وإثبات هذا لها على سبيل الاحتمال يقتضي أنها قد لا تصبر، أي: فهي قد تضجر، ولذلك خاطب الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله له في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . . . ﴿٢٨﴾ ﴾.

سادساً ـ الجود وضده:

وأثبت القرآن أن الجود أو الشح وما بينهما من الصفات التي تتصف بها النفوس البشرية، ففي اتصاف الأنفس بالشح وأنه الغالب فيها، يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ . . . ﴿١٢٨﴾ ﴾.

وفي التوجيه للتخلص من شح النفوس، قال الله تعالى في سورتي (الحشر ٥٩) و(التغابن ٦٤):

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴿١٦﴾ ﴾.

وفي طيب نفس الزوجات بشيء من مهورهن لأزواجهن، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾.

وفي الحث على الإنفاق ابتغاء مرضاة الله، وتثبيتاً من الأنفس لصدق اليقين بالله والثقة به، والإخلاص له في العمل، وتثبيتاً من الأنفس لخلق الجود الذي يرضى الله عنه بممارسة العطاء في كل مجالٍ من مجالات الخير التي يُبتغى بها مرضاة الله تعالى، قال الله عزوجل في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾.

سابعاً ـ الحسد وضده:

وأثبت القرآن أن الحسد من الصفات التي تتصف بها النفوس، وظاهر أن النفس إذا برئت من صفة الحسد اتصفت بضده، ففي بيان حال كثير من أهل الكتاب قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ . . ﴿١٠٩﴾ ﴾.

ثامناً ـ الخوف وضده:

وأثبت القرآن أن الخوف من الصفات التي تتصف بها النفوس، وظاهر أن النفس إذا برئت من صفة الخوف اتصفت بضده، ففي وصف حالة موسى النفسية حينما قام سحرة فرعون بأعمالهم، فألقوا حبالهم وعصيَّهم، وخُيِّل إليه من سحرهم أنها تسعى؛ قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾.

تاسعاً ـ الكبر وضده:

وأثبت القرآن أن الكبر من الصفات التي تتصف بها النفوس، وظاهر أن النفس إذا برئت من صفة الكبر اتصفت بضده، ففي شأن المشركين الذي لا يؤمنون باليوم الآخر قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾.

عاشراً ــ الضيق والحرج:

وأثبت القرآن أن الضيق والحرج من الصفات التي قد تتصف بها النفوس، وهذا يدل على أن ضد ذلك وهو الاتساع والانشراح من الصفات التي قد تتصف بها أيضاً، ففي ربط صدق الإيمان بتحكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمور القضائية التي اختلط أمرها، والتسليم التام لحكمه، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾.

وفي شأن الثلاثة الذين خُلّفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

حادي عشر ــ التأثر بالقول البليغ:

وأثبت القرآن أن النفوس قد تتأثر بالقول البليغ، فتستجيب للموعظة ودعوة الحق، ففي شأن طائفة من المنافقين قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ ﴾.

ثاني عشر ــ مشاعر التحسر والندم:

وأثبت القرآن أن مشاعر التحسر والندم من الصفات التي قد تتصف بها النفوس، قال الله تعالى لرسوله في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

والنفس الظالمة هي التي تتحسر يوم القيامة على ما فرطت في جنب الله، قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ثالث عشر ــ الإدراك إلى حد الاستيقان:

ودلّت النصوص القرآنية على أن الإدراك العلمي على اختلاف مستوياته من الصفات التي تتصف بها النفس الإنسانية، ففي مستوى اليقين نجد أن القرآن قد تحدث عن الحالة النفسية لفرعون وقومه أمام الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، فقال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي مستوى الظن الباطل، نجد أن القرآن قد تحدث عما كان في نفوس طائفة من المنافقين، في غزوة أحد، من ظنون باطلة جاهلية دفعتهم إلى الهم، وإطلاق مقالات الكفر والردة، فقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ . . . ﴿١٥٤﴾ ﴾.

وبين هذين المستويين الأعلى والأدنى سائر المستويات الإدراكية.

معرفة طريق فجورها وطريق تقواها:

ومن الخصائص الإدراكية معرفة طريق الفجور وطريق التقوى، وقد منح الخالق النفوس الإنسانية القدرة على معرفة هذين الطريقين من طرق سلوك الإنسان في الحياة، طريق الفجور وطريق التقوى. فحينما تتجه النفس إلى سلوك طريق الفجور تتجه إليه وهي عارفة بأنه طريق شر، فهي بصيرة بما تعمل، وحينما تتجه إلى سلوك طريق التقوى، تتجه إليه وهي عارفة بأنه طريق خير، فهي بصيرة بما تعمل.

هذا ما دلّ عليه قول الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

لذلك فهي تعلم يوم القيامة ما قدمت من عمل وما أخّرت، قال الله تعالى في سورة (الانفطار ٨٢):

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾.

ونظير هذا قول الله تعالى في سورة (التكوير ٨١):

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: ما أحضرت من عمل عملته في مدّة امتحانها، ويكون هذا يوم الدين بحسب ما دلت عليه الآيات السابقات.

وإذا كانت النفس تعلم فهي تجهل أيضاً:

ومما **تجهل**: ما تكسب غداً، والأرض التي قدر لها أن تموت فيها؛ قال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

ومما تجهل كل نفسٍ ما أخفى الله للمؤمنين المتقين من قرة أعين في جنة النعيم، قال الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

رابع عشر ـ القدرة على إخفاء المطالب والمشاعر:

ودلّت النصوص على أن من صفات النفس القدرة على إخفاء مطالبها ومشاعرها في ذاتها.

ففي بيان حال طائفة من المنافقين، الذين أخفوا في أنفسهم أشياء يوم غزوة أحد، قال الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ . . . ﴿١٥٤﴾ ﴾.

وخاطب الله المؤمنين بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾.

وخاطبهم أيضاً بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾.

وخاطب الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله له في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ... ﴿٣٧﴾ ﴾.

وفي عرض قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

وفي شأن المنافقين وما أسرّوه في نفوسهم قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

وقال عيسى لربه كما أخبرنا الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

(د) والنفس الإنسانية مكلفة ومسؤولة مسؤولية شخصية:

فقد أثبت القرآن أن النفس الإنسانية مكلفة في هذه الحياة الدنيا، ضمن حدود الاستطاعة، وأن تكليفها يرتفع متى فقدت الاستطاعة، دلّ على هذه الحقيقة عدّة نصوص قرآنية منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴿٢٣٣﴾ ﴾.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴿٢٨٦﴾﴾.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورتي (الأنعام ٦) و(الأعراف ٧):

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . . . ﴿١٥٢﴾ ٤٢﴾.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

٤ ـ وقول الله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ . . . ﴿٧﴾﴾.

وكلّف الله الإنسان بأن يذكر ربه في نفسه تضرعاً وخيفة، فقال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

والتكليف يستتبع المسؤولية، ويستتبع الجزاء، وقد أثبت القرآن ذلك للنفس الإنسانية، وأثبت أن مسؤوليتها مسؤولية شخصية.

دلّ على قانون الجزاء عدة نصوص قرآنية، منها ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾.

ودلّ على أن مسؤولية كل نفسٍ مسؤولية شخصية عدة نصوص أيضاً، منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

ولما كانت مسؤولية كل نفس مسؤولية شخصية، لزم أن لا تجزي نفس عن نفسٍ شيئاً، دلّ على ذلك قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الإنفطار ٨٢):

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾.

(هـ) ونفس الإنسان كاسبة لأعمال الخير ولأعمال الشر:

وأثبت القرآن أن النفس الإنسانية كاسبة لما يصدر عن الإنسان من أعمال خير، وأعمال شر، وأن الله يعلم ما تكسب كل نفس، قال الله تعالى مبيناً علمه بما تكسب كل نفس في سورة (الرعد ١٣):

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) ﴾.

وقال فيها أيضاً:

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟؟ (٣٣) ﴾.

وأثبت القرآن أن الإيمان من أعمال النفوس الإنسانية، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾.

ولما كانت الغاية من خلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا امتحانه، وكانت أعماله فيها مظهراً لما تكسبه نفسه، وكان عدل الله يقضي بتوفيته جزاءه، كان لا بد من وجود آخرة توفى فيها كل نفس ما كسبت، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ونظيرها قول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

لذلك كانت العقوبات المعجلة التي تنزل بالإنسان، إنما تنزل به بسبب من نفسه، أي: بما كسبت نفسه من ذنوب، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ . . . ﴿٧٩﴾ ﴾.

ونظيرها قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ أَوَلَمَّا أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

فالنفس العاقلة هي التي تحسب حساب المستقبل فتنظر ماذا قدمت له، وتجتهد في تقديم الأعمال الصالحة، حتى تنال الأجر العظيم عند الله، قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وأثبت القرآن أن كل نفس تكون يوم القيامة رهينة بما كسبت، حتى تحاسب ويقرر مصيرها، إلاّ أصحاب اليمين، فهم في جنّات يتساءلون عن المجرمين، يقولون لهم: ما سلككم في سقر؟ قال الله تعالى في سورة (المدثر ٧٤):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ (٤٢) ﴾.

وطبيعي أن تجد يوم القيامة كل نفس ما عملت من خيرٍ أو شرٍ محضراً مسجلاً، لأنّ ذلك هو المستند لمحاسبتها، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾.

وهنالك تُظهر كلّ نفس ما أسلفت من عمل في الحياة الدنيا، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾.

فالنفس الظالمة حين تجد هول عقابها، تتمنى لو أنها تملك ما تفتدي به، لافتدت به، ولو كان ما في الأرض جميعاً، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) ﴾.

وتحقيقاً لقواعد العدل الربّانية تعطى يوم القيامة كل نفس حقّ الدفاع عما كسبت، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

ولمّا كان لدى كلّ نفس في فطرتها القدرة على تقويم أعمالها، ومحاسبة نفسها، نظراً إلى أنها بصيرة بحقيقة ما عملت، فإنها تعطى كتاب عملها، لتقرأه، وتحاسب نفسها محاسبة ذاتية، قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

ألزمناه طائره: ألزمناه عمله الإرادي الذي يصدر عنه.

وتسجيل أعمال النفس في الحياة الدنيا يقتضي أن تكون موضوعة موضع المراقبة الدائمة، قال الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: ملك يسوق إلى المحشر، وملك يشهد بالأعمال التي كان قد سجّلها في الحياة الدنيا على النفس.

(و) والنفس ذات إرادة حرة:

ودلّت النصوص القرآنية على أنّ النفس الإنسانية ذات إرادة حرّة، تختار بها طريق هدايتها أو طريق ضلالتها، فهي غير مجبرة، نفهم هذا من قول الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: لو شئنا أن نجعل النفوس من الجنّ والإنس مجبرة غير مخيرة، لآتينا كلّ نفس هداها، ولكنّ المشيئة قرّرت التخيير، ويلزم من التخيير أن تختار بعض

النفوس طريق هداها، وتختار الأخرى طريق ضلالها، وعندئذ تقضي الحكمة بالتفريق في الجزاء، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

(ز) **والنفس الإنسانية ذات أطراف ثلاثة أعلى وأسفل وأوسط:**

* **فالطرف الأسفل** من النفس يوسوس ويسوّل بالسوء وممارسة ما فيه شرّ وضرّ وإثم، طلباً للمتع واللذّات العاجلة، فهو أمّار بالسوء، دلّ على هذا الطرف الشيطاني من النفس ووساوسه وتسويلاته وكونه أمّاراً بالسوء، عدّة نصوص قرآنية، منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى حكاية عن السامري في سورة (طه ٢٠):

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾.

٣ ــ وقول الله تعالى حكاية لقول يعقوب عليه السلام لبنيه في سورة (يوسف ١٢):

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٤ ــ والقاتل من ابني آدم لأخيه قد طوّعت له نفسه بوساوسها وأوامرها الملحة قتل أخيه فقتله، قال الله تعالى في شأنه في سورة (المائدة ٥):

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٥ ــ وقال يوسف عليه السلام متحدّثاً عن نفسه، حول قصته مع امرأة العزيز كما جاء في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾

وقد قص الله علينا ذلك من غير تعليق فدلّ على إقراره.

* **والطرف الأعلى** من النفس يأمر بفعل الخير، وينهى عن فعل الشرّ، فإذا استجابت له مراكز الإرادة المنفذة في الطرف الأوسط من النفس، اطمأنّ وسكن، وذاق حلاوة فعل الخير وترك الشرّ، وإذا لم تستجب له مراكز الإرادة المنفذة، مسّه القلق والاضطراب، وشعر بوخزات الإثم، والخوف من العقاب، وبدأ يوجّه الملام، فهو في هذه الحالة الطرف اللوّام. وقد دلّ على هذا الطرف الربّاني من النفس، عدّة نصوص من القرآن والسنة، منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ ﴾.

فالنفس اللوامة هي التي توجّه اللوم الداخلي على فعل الإثم، ولا تكون لوامة ما لم تكن من قبل ناصحة، آمرة بالخير ناهية عن الشر، وهذا الجانب من النفس هو ما قد يسمى بالضمير.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠ ﴾.

فالنفس المطمئنة هي التي توجّه النصح لفعل الصالحات، وتأمر بالخير، وتنهى عن الشرّ، فتستجيب مراكز الإرادة لها، فتطمئن للنتيجة، ولا يمسّها الخوف والقلق من سوء المصير، وظاهر أنّ هذا هو ما يسند إلى الضمير من الراحة لدى فعل الخير وترك الشر.

٣ ــ وهذا الجانب الرباني من النفس هو الذي يذوق طعم الإيمان،

روى مسلم عن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً».

٤ ــ وجاء في الحديث إثبات الواعظ الربّاني الذي يعظ بالخير في قلب كلّ مسلم، وطبيعي أنّ هذا الواعظ يقع في هذا الطرف الأعلى من النفس.

* **وأما الطرف الأوسط** فهو الطرف المنفذ الذي تقع فيه الإرادة الحرّة، وهو طرف يتجاذبه الطرفان الأعلى والأسفل.

وإذ ثبت لدينا وجود الطرفين الأعلى والأدنى لزم منطقياً وجود الطرف التنفيذي الأوسط، لأن وظيفة الطرفين المتناقضين لا تتعدى الدعوة والطلب، ودلّ على هذا الطرف ما أثبت الإرادة الحرّة المختارة للنفس، كقول الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . . . ﴿١٣﴾ ﴾.

وقد سبق بيان وجه الاستدلال به.

وقول الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾ ﴾.

والإنسان يملك باستجابته للطرف الربّاني تزكية نفسه، ويملك باستجابته للطرف الشيطاني تدنيس نفسه وتدسيتها، والمفلح هو من زكاها، والخائب هو من دسّاها، قال الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

زكّاها: أي طهّرها ورفعها عن مواطن الرجس ونمّاها.

دسّاها: أي غَمَسها بأرجاس الكفر والفسوق والعصيان.

والخــلاصــة:

إنّ الله تبارك وتعالى قد منح الإنسان الإرادة الحرّة، ليضعه موضع الامتحان، وهذه الإرادة الواعية لديه واقعة بين دوافع علوية ودوافع سفلية.

فإذا استجابت إرادته لتلبية الدوافع السفلية فقد اختارت الشرّ بما لديها من حريّة اختيار، وإذا استجابت لتلبية الدوافع العلوية فقد اختارت الخير بما لديها من حريّة اختيار.

ودوافع الخير تعتمد على الإيمان بالغيب، وهو قضية فكرية ووجدانية، ودوافع الشرّ تعتمد على منطق الحس ولذّات الجسد، وهذه حيوانية بهَميّة.

ولكن أكثر الناس تستجيب إراداتهم للجانب الحيواني فيهم، فينزلون بأنفسهم إلى أسفل سافلين، فيكونون كالأنعام بل أضلّ سبيلاً، وبذلك يقتلون في ذواتهم العنصر التكريمي الذي كرّمهم الله به، وفضلهم به على كثير ممن خلق، وهو العنصر الفكري والوجداني الذي يدفعهم إلى الإيمان بالغيب، والارتقاء إلى الكمال الإنساني. وهذا مسخٌ يفعلونه في أنفسهم بإراداتهم إذ ينزلون بها إلى مستوى الأنعام أو أضلّ، والمسؤول عن ذلك إراداتهم الحرّة.

فإرادات الناس الحرة الواعية للخير والشرّ هي مناط الامتحان، وأساس الفطرة الإنسانية أكثر ميلاً إلى الحقّ والخير والفضيلة، ولذّات الجسد ليست كلّها شراً، بل المقدار النافع المنضبط منها هو من الخير لا من الشر، والشر منحصر فيما فيه ظلم أو عدوان أو ضرر أو تجاوز لحدود الله.

ومع ذلك فإننا نلاحظ أنّ أكثر الناس يستخدمون إراداتهم الحرّة في اختيار المتاع الجسدي الذي ينزل بهم إلى أسفل سافلين، فيجعلون ما فضّلهم الله به سبباً في انحطاطهم ونزول مكانتهم، إذ يسيئون الاختيار.

(ح) منابع الخير والشر من النفس:

من كلّ ما سبق يتبين لنا أن منابع الخير والشر لدى الإنسان موجودة في زوايا نفسه، فسلوكه الظاهر وأعماله المختلفة ثمرة ونتيجة لحركات نفسه واندفاعاتها واتجاهاتها الجازمة.

ولمّا كان الجزاء الربّاني المعجل في الحياة الدنيا منوطاً بأعمال الناس، وأعمالهم نتيجة ما في نفوسهم، كان من الطبيعي المنطقي أن لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وهذا ما بينه القرآن، فقال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ويعرف الشيطان هذه الحقيقة، فيقول يوم القيامة للذين استجابوا لوساوسه وتسويلاته في الحياة الدنيا: لا تلوموني ولوموا أنفسكم.

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

* * *

الفصل الثالث

في الصدر

أطلق الصدر في القرآن وأُسندت إليه جملة من الصفات والأعمال، مع ملاحظة أنّ الصدر بالإطلاق العام يشمل دائرة القلب كما سبق، لأنّ القلب جزء منه، كما قد يراد منه المستوى الذي يقع وراء دائرة القلب.

ولدى تتبع الدلالات القرآنية لمعرفة خصائص الصدر النفسية نلاحظ ما يلي:

* **أولاً**: الصدر يحصل فيه الانشراح، أو الحرج والضيق والحَصَر.

دلّ على ذلك عدّة نصوص قرآنية منها النصوص التالية:

(أ) قول الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (الانشراح ٩٤):

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾.

(ب) وقول موسى عليه السلام حين كلّفه الله أن يذهب إلى فرعون فيدعوه للإيمان، كما حكى الله عنه في سورة (طه ٢٠):

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ ﴾.

وكما حكى عنه في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

(ج) وحين يفكر الإنسان أن يستمسك بمبدأ، أو يقوم بعمل، فقد ينشرح صدره إليه، وقد لا ينشرح، من ذلك انشراح الصدر للإسلام، أو ضيقه وحرجه، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

فالذين لا يؤمنون ويرفضون قبول الحقّ الربّاني بعد وضوح أدلته وبراهينه، يجعل الله على صدورهم رجساً تضيق به صدورهم وتكون في حرج، فلا يستجيبون لدعوة الإسلام، ولا يستسلمون لتنفيذ شرائعه وأحكامه. والذين يؤمنون بالله وتطمئن قلوبهم للحقّ الربّاني يشرح الله صدورهم للإسلام، فيعلنون إسلامهم لله واستسلامهم لتنفيذ شرائعه وأحكامه.

وقال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فالذين تلين قلوبهم حين يذكّرون بالله، فيؤمنون به، يشرح الله صدورهم للإسلام، فهم بذلك على نور من ربهم.

والذين قست قلوبهم مع تذكيرهم بالله فلم يؤمنوا، لا يشرح الله صدورهم للإسلام، وهؤلاء ويلٌ لهم لأنّهم قست قلوبهم، وسيحيق بهم سوء المصير.

ومن ذلك انشراح الصدر بالكفر، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

(د) وفي شأن الكافرين الذين تضيق صدورهم عن مقاتلة المسلمين، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَـٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَـٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

حَصِرَت صدورهم: ضاقت ولم تَنْشرح لقتالكم.

(هـ) وأنزل الله على رسوله القرآن، وفيه تكليف بحمل رسالة عظمى للناس أجمعين، ويتضمن آيات فيها مواجهة صريحة لباطل المشركين، وتسفيه لعقائدهم ولعقولهم، وهذه المواجهة تدفع المشركين إلى مقابلة الرسول بما يكره من تكذيب وشتيمة واتهامات ومن شأن هذه الأمور أن يضيق بها صدر الرسول صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عليه قوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

وقوله في سورة (هود ١١):

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

وقوله في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

* **ثانياً:** الصدر تحصل فيه مشاعر الرهبة.

دلّ على هذا قول الله تعالى عن المنافقين في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

* **ثالثاً:** الصدر تحصل فيه مشاعر الكبر.

ففي شأن الكافرين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: ما في صدورهم أيّ شيءٍ إلّا الكبر الذي ملأ كل ساحاتها، وفي هذا تصوير بليغ لعظم رذيلة الكبر، الذي سيطر على كلّ مشاعرهم، حتى كأنّ صدورهم ليس فيها شيء آخر غير الكبر.

وهذا الكبر الذي يشعرون به شعوراً شخصياً، لم يكونوا ليبلغوا في الواقع تحقيق الوصف الذي قد يبرره، فما هم ببالغيه.

* **رابعاً:** الصدر يغتاظ، ويحمل الغلّ والبغضاء.

ففي شأن أهل الجنة قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ... ﴿٤٣﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وفي شأن البغضاء التي تخفيها صدور المنافقين قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

* **خامساً**: من مشاعر الصدر مشاعر الإكبار والإعظام.

ففي شأن منكري البعث والحياة الأخرى بعد الموت قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾.

ينغضون إليك رؤوسهم: يحركونها استهزاء.

* **سادساً**: من حاجات النفس حاجات تتركز في الصدور.

ففي معرض امتنان الله علينا بالأنعام قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

وفي وصف الأنصار قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

«ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا»: قال الحسن: أي حسداً وحرارة وغيظاً مما أوتي المهاجرون من دونهم.

* سابعاً: وساوس الشياطين تصل إلى مشاعر الصدور.

قال الله تعالى في سورة (الناس ١١٤):

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

* ثامناً: منابع الأعمال الإرادية في الصدور، لذلك فهي التي يوجّه لها الامتحان الربّاني من وراء ظواهر السلوك، وما تَبثُّه الصدور وتنجزه من إرادات ونيّات هو الذي يُحصَّل للحساب والجزاء يوم الدين.

دلّ على أن الله يبتلي ما في صدور الناس قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

ودلّ على تحصيل ما في الصدور يوم القيامة قول الله تعالى في سورة (العاديات ١٠١):

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١ ﴾(١).

فالكفر والإيمان من أعمال الصدور، والله عليم بحقيقة ما في الصدور من أعمال إرادية، وعليم بكل شيء فيها، قال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٣ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ﴾.

فجعل الله الكفر والشكر ـ وأول خطواته الإيمان ـ من أعمال الصدور، وأبان تبارك وتعالى أنه عليم بذات الصدور، أي: بصاحبة الصدور، وهي النفس الكاسبة لأعمالها، أو الأعمال والحركات التي تجري في الصدور، أو عليم بحقيقة الصدور، والعالم بذات الشيء يعلم ما يجري فيها وما يصدر عنها.

وقد ذكر الله أنه عليم بذات الصدور في (١٦) موضعاً من القرآن الكريم.

---

(١) لا يبعد أن يكون في الصدور جهاز تسجيل تُسجل فيه أعمال الإنسان الداخلية كلها، وما يسجل فيه يحصّل يوم الدين.

* **تاسعاً**: القرآن آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم، فهي تؤمن بأنه من عند الله، وينكشف لديها إعجازه، وقد تثبت فيها نصوصه حفظاً، فهذه ونظائرها من أعمال الصدور، قال الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

* **عاشراً**: توجد أمراض وآلام نفسية تتركّز مشاعرها في الصدور، كالحرج والضيق، والغلّ والحقد، والحسد والحسرة، والحزن والهمّ، والشك ونحو ذلك، لذلك كان القرآن شفاء لما في الصدور ولذلك كان نصر المؤمنين على عدوهم شفاءً لصدورهم.

ففي وصف القرآن وما جاء فيه، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

وفي حث المؤمنين على قتال الكافرين قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

* * *

الفصل الرابع

في القلب

علمنا أنّ القلب دائرة من دوائر النفس، وأنّ مجموعة من خصائصها ووظائفها وأمراضها تتركّز فيه.

ولدى البحث في الوظائف والخصائص والأمراض النفسية التي تتركّز في القلب أخذاً من الدلالات القرآنية يتضح ما يلي:

أولاً: تنتهي إلى القلب وتستقرّ فيه العلوم والمعارف الثابتة، والعقائد الراسخة، مقترنة بشحنةٍ من العواطف الملائمة لها.

ولذلك كان القلب مستقرّ الإيمان.

ولذلك أيضاً كانت تنزّلات الوحي والإلهامات والمعارف الربّانية تصل إليه وتستقرّ فيه، والقوي منها يحتلّ مركز الفؤاد.

ولمّا كانت دائرة القلب تقع حول مركز دائرة النفس، أي: في المستوى الضيّق من أعماقها، كانت المؤثرات القوية في النفس تصل إلى أعماقها، فتحتل دائرة القلب، وأما المؤثـرات الضعيفة فتبقى في أطـراف النفس، والمؤثرات الوسطى قد تصل إلى دائرة الصدر، أما المؤثرات الخفيفة جداً فتبقى على هامش النفس.

ولا يشترط فيما يصل إلى دائرة القلب ويحتلها، أن يكون دائماً صحيحاً سليماً وحقّاً لا شبهة فيه، بل قد يصل إليه ما هو في حقيقة أمره فاسد مريض، أو باطل مردود، وذلك لأن القلب قد يتأثر بما يزيّن له من أفكار وحجج وعواطف، فيفتح بابه لاستقبال ما زيّن له.

وقد تفرض المنطقية العقلية حقيقة من الحقائق، فيفتح القلب لها بابه، ويدخلها إلى ساحة دائرته، ويؤمن بها، ولكن يظل غيرَ مطمئن إليها كلّ الاطمئنان، فإذا تأكّدت المنطقية العقلية بمشاهدة حسيّة، اطمأن القلب إليها تماماً، وسمح لها أن تحتل مركز فؤاده.

ويتعرض القلب للشك والارتياب إذا لم تتضح له الحقيقة تماماً، وقد يكون ذلك بسبب خلل في بصيرته، ناتج عن حالة مرضية غير فطرية.

وقد يتعرض القلب للزيغ عن الحقّ، بمؤثرات مَرَضيّة تأتيه من دوائر النفس الأخرى، كالهوى، والشهوة، والجبن، والبخل، وحبّ العاجلة، وغير ذلك، فالقلب بذلك يكون مريضاً.

وعندئذٍ تتعرّض بصيرته الإدراكية إلى حجب رقيقة أو كثيفة، ويزداد الأمر سوءاً حتى تكون بصيرته في حجب كالأكنة هي فيها سجينة، وتتكاثر الذنوب والمعاصي، حتى تغلب على القلب وتجلله كلّه، وتغلّفه بما يشبه الصدأ، وذلك هو الرين، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المطففين ٨٣):

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقد يغدو القلب كالبيت المقفل، فهو لا ينفتح لواردات الخير والهداية إلاّ بمفاتيح.

وقد يشتد الأمر حتى تختم الأقفال ويطبع عليها، وقد تعمى البصيرة عمىً تاماً.

وقد يفقد القلب روح الخير فيه فيغدو قاسياً متصلّباً حجريّاً ميتاً، وحين يصل إلى هذا المستوى يكون إصلاحه وإحياؤه شبه المتعذر، ويكون بمثابة الأصم الأعمى الميت المقبور، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل ٢٧):

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

هذه مفاهيم دلت عليها نصوص قرآنية كثيرة، منها النصوص التالية:

١ ـ علوم الوحي ومعارفه والنصوص التي ينزل بها لما كانت يقيناً

لا شبهة فيه، كانت مخترقة دوائر نفس الرسول صلى الله عليه وسلم وواصلة إلى داخل دائرة قلبه، أعمق دائرة في كيانه النفسي.

قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (البقرة ٢):

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

فجبريل عليه السلام قد نزّل القرآن بإذن الله على قلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، مخترقاً به دوائر نفسه وساحاتها إلى مستوى دائرة قلبه.

وقال الله تعالى لرسوله في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

٢ ـ والقلب هو مستقر الإيمان، والإيمان هو اعتراف داخلي إراديٌّ بفكرة من الأفكار، وتسليم بها، واستمساك بما اشتملت عليه، وتوجيه للعواطف الملائمة لها في اتجاهها.

قال الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فالذين لا يوادّون من حادّ الله قد كتب الله في قلوبهم الإيمان، إذ علم سبحانه أنّ قلوبهم صادقة الإيمان.

وفي الأعراب الذين أعلنوا إسلامهم ولمّا يدخل الإيمان في دائرة قلوبهم، قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

فدل هذا على أن الإيمان الصادق مستقره القلب، فإذا لم يصل إلى دائرة القلب لم يكن إيماناً.

ومن يؤمن بالله حقاً يحكم الله له بهداية قلبه، لأنّ قلبه قد اهتدى للإيمان، قال الله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

وفي المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولكن قلوبهم لم تؤمن؛ قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ... ﴿٤١﴾ ﴾.

٣ ــ وفكرة النفاق ودوافعه حينما تتأصل تصل إلى دائرة القلب، فتدخل فيه.

ففي شأن بعض المنافقين قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا بِهِۦ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

٤ ــ وكل فكرة تجزم بها النفس، وتعتقدها، تصلُ إلى دائرة القلب،

فتدخل فيه، وإن كتمها صاحبها، أو ادّعى خلافها.

لذلك كان كاتم الشهادة مرتكب إثم قلبـي، إذ يعلم حقيقةً يجب عليه أن يشهد بها، ثم يكتمها صاحبَها، أو من يقيم بها الحقّ قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

فدلّ هذا أن معرفة ما تجب الشهادة به قد وصلت إلى داخل دائرة القلب، ودل أيضاً على أن كتم الشهادة عمل سلبـي يؤاخذ الإنسان عليه، ودلّ على أنّ الإثم إثم عميق من مستوى القلب.

ولذلك كان الذي يقول خلاف ما يعلم، إنما يقول بفيه ما ليس في قلبه.

ففي شأن المخلّفين من الأعراب عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ . . . ﴿١١﴾ ﴾.

فهم يقولون بألسنتهم خلاف ما يعلمون من أنفسهم في قلوبهم.

وفي اعتذار المنافقين حينما انخذلوا عن الرسول وأصحابه في غزوة أحد، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

فهم يعلمون من أنفسهم علماً يقينياً خلاف ما قالوه بأفواههم، ولكنهم

يكتمونه، ويُقدّمون بألسنتهم أعذاراً كاذبة، ولمّا كان هذا العلم ثابتاً كان مركزه دائرة القلب.

وقد يبلغ إنكار فكرة من الأفكار مبلغ الجزم، فيصل حينئذٍ عمق الإنكار إلى دائرة القلب، فيكون القلب هو المنكر، من ذلك إنكار الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فدلّ هذا على أنّ الكفر متى كان إنكاراً حقيقياً، كان مستقرّه القلب، لأنه يدخل في عمق النفس حتى يصل إلى دائرة القلب، شأنه في هذا كشأن الإيمان.

فالإيمان والكفر ليسا إدراكاً ذهنياً مجرداً، بل كلٌّ مِنْهما عقيدة تتغلغل في أعماق النفس، حتى تنفذ إلى داخل دائرة القلب، وكلٌّ منهما عملٌ إراديٌّ قلبي.

٥ ـ ويتأثر القلب فيما يعتقده ويجزم به من أفكار، بما يُزَيّنُ له من حجج ولو كانت باطلة، وبما يُزيّنُ له من عواطف ولو كانت فاسدة، وبأن تأتيه الأفكار نفسها مزيَّنَة، تتملّق القلب وتتودّد إليه.

وحين تقترن الحجج القاطعة والبراهين الساطعة بما يُزَيّنها في النفوس، أو تأتي الأفكار نفسها مزينة، تكون أسرع نفاذاً في دوائر النفس حتى تستقر داخل دائرة القلب.

وهنا يطلب من دعاة الحقّ أن يُزَيّنوا حقهم، ولا يجد دعاة الباطل طريقاً للتأثير بباطلهم إلا بأن يزينوه ويحسّنوه في نفوس من يدعونهم إليه.

ولذلك حبّب الله الإيمان للمؤمنين، وزيّنه في قلوبهم، ليكون نفاذه إلى داخل دائرة القلب أسرع، قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ

فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ
ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ
وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾.

ولذلك أيضاً يسرع دعاة الباطل وبغاة الشرّ في تزيين باطلهم، وتزيين طرق الشر التي يدعون إليها، ليؤثروا بذلك على قلوب من يدعونهم.

وأدلة تزيين الباطل والشر من قبل شياطين الإنس والجنّ كثيرة في القرآن، أما تزيين شيء من ذلك في القلوب، فقد دلّ عليه بصراحة قول الله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ
ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ
قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

بوراً: أي هلكى.

٦ ـ وتكون حالة القلب فيما يعتقده ويؤمن به على مستويين:

الأول: مستوى المؤمن غير المطمئن.

الثاني: وهو الأعمق، مستوى المؤمن المطمئنّ.

دلّ على ذلك نصوص متعدّدة، منها ما أجاب به إبراهيم عليه السلام ربّه، فيما حكاه الله بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ . . . ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

وفي شأن المكره على إعلان الكفر قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

وقد تحصل الطمأنينة عقب الإيمان دون حاجة إلى فاصل زمني، إذ تكون أدلة الإيمان قد بلغت من قلوب الذين أوتوا العلم مبلغ التأثير في العمق منذ مراحلها الأولى، قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فتخبت: أي فتطمئن وتخضع، وقد عطف على «فيؤمنوا به» بالفاء الدالة على التعقيب.

٧ ــ وفي بيان تعرض القلوب للارتياب والشكّ، قال الله تعالى لرسوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

٨ ــ وفي تعرّض القلوب للزيغ عن الحقّ والهدى، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾.

الزيغ: هو الميل. فالزيغ عن الحق هو الميل عنه، والزيغ عن الصراط المستقيم هو الميل عنه إلى المتاهات والضلالات.

وفي شأن من زاغ عن الحقّ من قوم موسى عليه السلام، وفي حكاية مقالته لهم، قال الله تعالى في سورة (الصف ٦١):

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: لمّا زاغت قلوبهم عن الحقّ أزاغها الله، فحكم عليها بما جرى فيها، والله لا يهدي القوم الفاسقين، فلا يحكم لهم بالهداية وهم فاسقون، وهذا هو مقتضى الحقّ والعدل.

وفي شأن فريق من المؤمنين كادت قلوبهم تزيغ في ساعة العسرة حين دعوا إلى غزوة تبوك، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ ﴾.

٩ ـ وفي تعرّض القلوب لمستويات ضعف البصيرة إلى عماها وانطماسها انْطماساً كلياً، إلى أن تكون القلوب في مثل الأكنّة، إلى أن يقفل

عليها، إلى أن يختم على الأقفال ويُطبع عليها، إلى أن تكون بحكم الميتة الدفينة، وردت نصوص متعدّدة من القرآن الكريم:

(أ) ففي إصابة بصيرة القلب بالعشَى، قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فالعشى هذا عشى البصيرة، لأنّ الذكر الحقيقي للرحمن هو ذكر القلب، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(ب) وفي إصابة بصيرة القلب بالعمى، حتى تكون منطمسة عن رؤية دلائل الحقّ والهدى، قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي: ليس العمى المؤثر الجالب لشقاء الإنسان هو عمى الأبصار، ولكنه عمى البصائر في القلوب التي في الصدور، في مركز العمق من نفس الإنسان.

(ج) وفي تحوّل مشاعر القلوب عن الإحساس بأيّ مؤثر من مؤثرات الهداية ودعوات الحقّ والخير، قال الله تعالى في شأن طائفة من المنافقين في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

والفقه بالحقائق الربّانية والمعارف الدينية من خصائص القلوب.

(د) وفي عزل القلوب عن الإحساس بأي مؤثر من مؤثرات الهداية

ودعوات الحقّ والخير، فيما يشبه الأكنة ـ والأكنة هي الأغطية، مفردها كنان ـ قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

وجاء نظير ذلك في الآية (٢٥) من سورة (الأنعام ٦).

وفي آذانهم وقراً: أي صمماً.

وقال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

وذكر الذين كفروا برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم أن قلوبهم في أكنة، حكى الله ذلك عنهم بقوله في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

(هـ) وتزيد الأغطية إلى أن تغلف بها القلوب تغليفاً كاملاً، حتى لا تكون مستعدة لكشف أغطيتها عنها، وهذا ما ذكره اليهود عن قلوبهم، وأبانوا فيه عدم استعدادهم لقبول أية دعوة يأتيهم بها رسول من عند الله؛ فهم بزعمهم أهل الكتاب الأول، وقد امتلأت قلوبهم بالمعارف الدينية التي أنزلت من قبل عليهم.

وفي شأنهم قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾.

وهذا هو الرين الذي يجلل القلوب بما تكسبه من الذنوب الكثيرة، قال الله تعالى في سورة (المطففين ٨٣):

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

(و) وفي الإقفال على القلوب بعد عزلها عن الإحساس بمؤثرات الهداية ودعوات الحق والخير، قال الله تعالى في شأن المنافقين الذين في قلوبهم مرض في سورة (محمد ٤٧):

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: أم حُبست قلوبهم عن الإحساس بالخير، وضربت الأقفال على أبواب سجونها.

(ز) وفي الختم على القلوب والطبع عليها إمعاناً في تثبيت العزل التام عن الإحساس بمؤثرات الهداية ودعوات الحق والخير، بعد حبسها في سجون الأهواء والشهوات والأمراض الخلقية، وردت عدة نصوص قرآنية.

منها قول الله تعالى في شأن من اتخذ إلهه هواه في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وفي الكافرين الذين وصلوا إلى حالة استوى فيها أن يُنذروا بعذاب الله أو لا يُنذروا، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

وأبان الله أن من سنته أن يطبع على قلوب الكافرين، وقلوب المعتدين، وقلوب الذين لا يعلمون، فقال تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

وفي سياق الحديث عن نوح عليه السلام قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

وفيمن كفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وبالطبع على القلب الذي يتسبب به الإنسان نفسه، ويحل فيه ضمن سنن الله الثابتة في كونه، يحجب الإنسان عن علم ما ينفعه في آخرته، وعن فقه ما يوعظ به ويرشد إليه، ويغفل غفلة تامة عن نذر الخطر التي تتكاثر من حوله، حتى لا يسمع أقوال المنذرين.

ففي بيان حجب المطبوع على قلبه عن علم ما ينفعه في آخرته، قال الله تعالى في شأن المنافقين في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وفي بيان حجب المطبوع على قلبه، عن فقه ما يوعظ به ويرشد إليه من أمور آخرته ومعارف دينه، قال الله في شأن المنافقين في سورة (التوبة ٩):

﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في شأنهم أيضاً في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

وفي بيان غفلة المطبوع على قلبه، قال الله تعالى في شأن من كفر بعد إيمانه في سورة (النحل ١٦):

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وفي بيان حجب المطبوع على قلبه عن سماع أقوال المنذرين، قال الله تعالى في شأن الكافرين، في سورة (الأعراف ٧):

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

وقد تصل القلوب بعد الختم والطبع عليها إلى حالة تشبه فيها الميت الدفين في الحنت الذي يتخذ للموتى.

ثانياً: وتصدر عن القلب الإرادات الموجهة للسلوك، من مستوياتها المختلفة حتى مستوى العزم.

وبالإرادة الجازمة الواعية، يعقل القلب مراكز النفس الأخرى عن نزغاتها واندفاعاتها الجانحة مهما كانت جامحة، والعقل هو التقييد والمنع بحسب المصلحة التي يراها العاقل.

وتصدر عن القلب النيات والمقاصد من الأعمال، وقد تكون النيات والمقاصد موافقة لظواهر السلوك، وقد لا تكون، وحقيقة المحاسبة عند الله تكون على ما في القلب من نيات ومقاصد من وراء الأعمال.

فالكسب الحقيقي للإنسان مصدره دائرة قلبه، ومن الواضح إذن أن يكون الامتحان الرباني موجهاً لقلبه، ولما يكسبه قلبه.

دل على هذه المفاهيم نصوص متعددة من القرآن الكريم وبيانات الرسول صلوات الله عليه:

(أ) يقول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

فربط الله في هذه الآية مسؤولية الإنسان عن سلوكه بما تعمده قلبه، فدل على أن الإرادة الموجهة للسلوك الذي لا يكون على سبيل الخطأ تصدر عن القلب.

وبهذا تكون النصوص المتعلقة بالإرادة موجهة لدائرة القلب.

(ب) وقبل هذه الآية قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ . . . ﴿٤﴾ ﴾.

جاء هذا بعد أن أمر الله النبـي ﷺ بأن يتقي الله ولا يطيع الكافرين والمنافقين، ولدى تحليل الترابط يتبين لنا ما يلي:

إن تقوى الله تستلزم طاعته، وطاعة الله تتناقض مع طاعة الكافرين والمنافقين لتناقض الاتجاهين، ولما كان موجه الطاعة هو الإرادة، وإرادة طاعة الله تناقض إرادة طاعة الكافرين والمنافقين، ولمّا كانت إرادات الإنسان مصدرها قلبه، والشيء الواحد لا يمكن أن يتناقض مع نفسه في حركتين متناقضتين، ولمّا كان الإنسان لا يملك غير قلب واحد في جوفه، كانت طاعة الكافرين والمنافقين تعني عدم طاعة الله، وكانت طاعة الله تعني عدم طاعة الكافرين والمنافقين، وخلاف هذا تناقض مرفوض عقلاً وواقعاً.

واكتفى النص القرآني عن هذا التحليل المنطقي الطويل عن حالةٍ للنفس الإنسانية بقول الله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ أي: حتى يتمكن أن يكون له إرادتان متناقضتان إحداهما تتجه لطاعة الله، والأخرى تتجه لطاعة الكافرين والمنافقين.

فاستند الإقناع القرآني هنا إلى المبدأ العلمي المنطقي الذي يحكم بأن اجتماع النقيضين مستحيل، فمتى وجد أحد النقيضين انتفى الآخر عند اتحاد الزمان والمكان، وبشرط عدم انفكاك الجهة، كما هو مقرر عند المناطقة[١].

(ج) وقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

فرفع الله في هذه الآية المؤاخذة عن اللغو في الأيْمان، وهي الأيْمان التي تنطلق من الألسنة دون قصد الحلف بالله، والمؤثر في انطلاقها عادة اللسان، والرغبة بملء الفراغ الزمني بكلام غير مقصود وغير مردود، ريثما تستقيم في الذهن الفكرة المقصودة للتعبير عنها، وكأن الإنسان يحرص على أن لا يظهر العيّ في لسانه، فيحشو كلامه بجمل اعتاد أن يقولها من غير تفكير، حتى تتضح في ذهنه الجمل التي يريد أن يقولها.

---

(١) انظر بحث التناقض في كتاب «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» للمؤلف.

ثم علّقت الآية المسؤولية بما كسبت القلوب من أيمان، أي: بالأيمان التي أريد بها القسم فعلاً، وأوضحت أن هذه الإرادة من كسب القلوب، فثبت أن الإرادات الموجهة للسلوك مصدرها القلب.

(د) ولمّا كانت إرادة الإنسان الواعية، هي التي تعقل الإنسان عن اتباع أهوائه وشهواته ونزغاته التي تميل به عن صراط الحق والخير، وكانت هذه الإرادة تصدر عن دائرة القلب، قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

فجعل الله العقل من خصائص القلب، لأن المراد من العقل الإرادة العالمة القادرة على كبح جماح الأهواء والشهوات، وعقلها وحجزها في دائرة الحق والخير.

وليس المراد هنا من العقل كما يظهر ـ والله أعلم ـ التفكير الذهني الموصل إلى المعرفة، فهذا له مركز آخر، وكم من عالم عارف بالحقيقة، إلا أنه لا عقل له، لأنه لا يستطيع أن يسيطر على أهوائه وشهواته ويعقلها عن جنوحها وجموحها، فيدفع بنفسه إلى العواقب الوخيمة، ويقذف بنفسه إلى المهالك، فيكون علمه هو والجهل سواء، إذ فقد الإرادة العاقلة الحازمة.

لذلك وصف الله الكافرين بأنهم لا يعقلون، مع أن لهم ذكاءً علمياً يساوي أو قد يزيد على الذكاء العلمي الذي يملكه بعض المؤمنين الـذين يعقلون.

وبهذا يتضح لنا الفرق بين الذكاء، والمعرفة التي تكتسب به، وبين العقل الذي يعقل النفس عن الانحراف، ويعقل السلوك عن الجنوح، مستنداً في أمره إلى ما قدمت له المعرفة من نتائج، فرب ذي ذكاء محدود هو كثير العقل، ورب ذي علم قليل هو كثير العقل، لأنه قوي الإرادة قادر على ضبط نفسه ورب

ذي ذكاء حاد وعلم واسع هو قليل العقل، لأنه ضعيف الإرادة، عاجز عن ضبط نفسه، وحجزها عن أهوائها وشهواتها، التي تجره إلى تهلكته وشقائه وآلامه الكثيرة.

وهذا هو أحد معنيي العقل، والمعنى الآخر هو العقل العلمي النافع في العقل الإرادي.

(هـ) وأم موسى بعد أن وصل ابنها موسى إلى مأمنه في بيت آل فرعون، وأصبح فؤادها فارغاً من الهم والحزن، وكادت تبدي بأن الطفل الذي التقطه آل فرعون هو ولدها من شدة فرحها، ربط الله على قلبها، فقوى إرادتها، فكتمت أمرها، قال الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾.

فدل هذا على أن الإرادة تصدر عن القلب، إذ قويت إرادة أم موسى على ضبط نفسها، بالمعونة الربانية التي ربط الله بها على قلبها، لتكون من المؤمنين حقاً. والربط على القلب كناية عن تثبيته بما يجعل فيه الأمن والطمأنينة.

(و) والفتية المؤمنون الذين أووا إلى الكهف، واعتزلوا قومهم المشركين، قد ثبتهم الله وقوى إراداتهم، فربط على قلوبهم، وألهمهم الصبر، وفيهم قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

(ز) ولمّا كانت الشجاعة في القتال من قوة الإرادة، كان الربط على قلوب المؤمنين في غزوة بدر مقوياً لإراداتهم، وممداً لهم بالشجاعة القتالية الكافية، والطمأنينة والأمن، وفي بيان ذلك خاطبهم الله بقوله في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾.

وحين تقوى الإرادة جداً تصل إلى مستوى العزم، وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك وتفصيله في الفصل الخاص بقوة الإرادة، الفصل الثالث من الباب الرابع من الكتاب.

(ح) ولمّا كانت دائرة القلب مصدر الإرادة الموجهة لسلوك الإنسان، كان ما في القلب هو المقصود بالامتحان، وفي ذلك يقول الله تعالى للمؤمنين بمناسبة ما جرى في غزوة أحد، وتعليقات المنافقين عليه، في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

فابتلاء ما في الصدور هو امتحان الكسب الذي تكسبه القلوب بالإرادات التي تصدر عنها، وتمحيص ما في القلوب هو تخليصها وتنقيتها من نزغات الإثم والخطيئة وعوامل ضعف الإرادة، بما تمر فيه من امتحانات وتجارب قاسيات، ومن أشدها مصائب الحرب، ونكبات المعارك القتالية، فالتمحيص من ألوان التربية الربانية للنفوس البشرية إلى أعمق دوائرها، وهي دائرة القلب.

وقال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴿٣﴾ ﴾.

وامتحان القلوب هو امتحان كسبها الإرادي، لبيان مقدار ما فيها من تقوى.

ثالثاً: ولما كان القلب منبع الإرادات في الإنسان، وكان مقر الإيمان أو الكفر، كان هو الدائرة الحقيقية لتقوى الله، وخشيته، والخشوع له، وذكره ومراقبته، وكان هو الدائرة الحقيقية لما يخالف كل ذلك.

دل على هذه الحقائق عدة نصوص، منها ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

المراد من شعائر الله هنا الْبُدْن التي يسوقها الحجاج هدياً بالغ الكعبة، والمراد من تعظيمها اختيار أعظمها وأجودها، وهذا الجود في سبيل الله سلوك ظاهر ناتج عن تقوى القلوب.

فمن يعظم شعائر الله غير مراءٍ بعبادته، فإن عبادته هذه من التقوى التي يمارسها قلبه.

(ب) قول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

فالذين امتثلوا، فغضوا عند رسول الله أصواتهم، قد امتحن الله قلوبهم التي هي منبع إراداتهم، فانتهى الامتحان للنتيجة التي قررت لهم وهي التقوى، فهم قوم أثبتوا أن تقوى الله تعمر قلوبهم، إذ امتثلوا ما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه.

أما الذين لم يمتثلوا هذا الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال الله فيهم عقب النص السابق من سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

فوصف الله هؤلاء بأن أكثرهم لا يعقلون، أي: لا يملكون الإرادات القوية الحازمة الواعية التي تعقلهم عن التسرع إلى نداء النبي من وراء الحجرات، ولو أنهم عقلوا لصبروا حتى يخرج الرسول إليهم، ولكان ذلك خيراً لهم عند الله.

فنفي العقل عنهم ليس نفياً للذكاء والمعرفة، ولكنه نفي لقوة الإرادة، وبضعف الإرادة حرموا من خلق الصبر.

ولا يخفى أن التقوى ثمرة الإرادة الواعية الحازمة العاقلة.

(ج) وفي الدلالة على أن القلب محل لذكر الله، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

فُرُطاً: أي: عجلة، وتفريطاً، وضياعاً، وإسرافاً، وندامة، وظلماً.

(د) وفي الدلالة على خشوع القلب، قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

الإيمان في القلوب ثمرة إرادة واعية صادقة جازمة، ومن لوازم الإيمان في القلوب ذكر الله تعالى فيها، ومن آثار ذكر الله فيها خشوعها وطمأنينتها وسكونها الكامل لله، هذا ما لم تكن القلوب مريضة بداء القسوة وتبلُّد الحس.

(هـ) وفي الدلالة على أن ذكر الله في القلوب المؤمنة يورثها الطمأنينة، متى كانت سليمة من داء القسوة وتبلد الحس، قال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فالذين تطمئن قلوبهم بذكر الله هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

والطمأنينة هنا هي طمأنينة الراحة والسعادة بالرضا بقضاء الله وقدره، وطمأنينة الثقة بالله وحسن المآب.

أما الطمأنينة التي سبق الحديث عنها في الإيمان فهي طمأنينة القلب لصحة العقائد الإيمانية.

وتطمئن قلوب المؤمنين لوعد الله بالنصر، بعد أن يمسها القلق والخوف، بسبب الحسابات والأقيسة السببية، إذا جاءت من الله مبشرات من وراء الأسباب الإنسانية، من ذلك ما كان في غزوة بدر من إمداد الله بالملائكة، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

فالاستجابة للاستغاثة كانت أول الأمر بألف من الملائكة، مع الوعد بإردفاهم بغيرهم، ثم ارتقى الإمداد إلى ثلاثة آلاف، ثم ارتقى إلى خمسة آلاف.

ولما كان تعلقهم أول الأمر بالأسباب تعلقاً قوياً، قال الله لهم في (الأنفال ٨): ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ مع أن المفروض أن تطمئن قلوبهم ثقة بوعد

الله. ولمّا ارتقت ثقتهم بالله في الغزوة نفسها، وأمدهم الله بخمسة آلاف، قال الله لهم في (آل عمران): ﴿ولتطمئن قلوبكم بـه﴾ والفرق بينهما تقديم الجار والمجرور وهو (به) على الفاعل في الأولى، وتأخيره في الثانية، وهذا التقديم يفيد الإشارة إلى اهتمامهم بالمدد من الملائكة.

رابعاً: وقد يصل إلى دائرة القلب وينفذ إلى داخلها، ما يكون قوياً شديداً من انفعالات النفس وعواطفها وأخلاقها، كالرعب، والوجل، والاشمئزاز، والغيظ، والغل، والحب، والكراهية، والشجاعة، والجبن، والرأفة، والرحمة، والحسرة، والميل إلى الطاعة بالتوبة إلى الله، وغير ذلك.

دل على ذلك نصوص كثيرة في القرآن الكريم منها ما يلي:

(أ) ففي الرعب الذي يصل إلى عمق القلب قال الله تعالى بمناسبة الحديث عن معركة أحد في سورة (آل عمران ٣):

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

وقال الله تعالى بمناسبة الحديث عن معركة بدر في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾.

وفي شأن يهود بني قريظة، وما كان منهم من مظاهرة الأحزاب، إذ نقضوا عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

من صياصيهم: أي من حصونهم.

وفي شأن يهود بني قينقاع وإجلائهم عن المدينة بعد الذي كان منهم من خيانة ونقض للعهد، قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

(ب) وفي الوجل ـ وهو الخوف ـ الذي يصل إلى عمق القلب، قال الله تعالى يصف المؤمنين في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

فدل هذا النص على أن من أوصاف المؤمنين حقاً أنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، أي: خافت من عظمته وقهره، وهذا عند مقتضيات الخوف من العقاب، وفوق الوجل مرحلة الخشية، وفوق الخشية مرحلة الطمأنينة: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

ووصف الله المخبتين ـ وهم المسلمون لله الخاضعون له ـ بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، فقال تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وذكر الله من صفات الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون، أنهم يؤتون ما آتوا من عمل صالح وقلوبهم وَجِلة ـ خائفة ـ أنهم إلى ربهم راجعون، فهو يحاسبهم يومئذٍ ويجازيهم على أعمالهم، فقال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

(ج) وفي شدة الخوف الذي ترتفع فيه دائرة القلب من عمق الجسد حتى تبلغ الحناجر، ولا يبقى بينها وبين الموت إلا اللفظة الأخيرة، قال الله تعالى يصف خوف الناس يوم القيامة في سورة (غافر ٤٠):

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ
حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾.

وهي من شدة الخوف يومئذٍ تكون واجفة، أي: شديدة الاضطراب كثيرة الاهتزاز من الخوف، قال الله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا
خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾.

الراجفة: النفخة الأولى. الرادفة: النفخة الثانية. قلوب يومئذ واجفة: أي خائفة شديدة الاضطراب كثيرة الرجفان.

ولا تستمر حالة الخوف هذه يومئذ، بل يرفع الله عنهم الفزع، لإجراء الحساب وتقرير الجزاء، قال الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا
قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فُزِّع عن قلوبهم: أي أزيل وجلي الفزع عنها.

وفي موقعة الأحزاب التي اجتمع فيها على المسلمين أحزاب الشرك من

العرب، وظاهرهم يهود بني قريظة من داخل المدينة، وصل الخوف لدى كثير من الذين آمنوا إلى مستوىً زاغت به أبصارهم، حتى شعروا بأنّ قلوبهم بلغت حناجرهم من شدة الخوف، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

وشدة الخوف إذا استمرت ربّما قتلت، ففي شأن المنافقين المتآمرين على المسلمين في المدينة، الذين بنوا مسجد الضرار، بالاتفاق مع أبي عامر الراهب، الذي اتفق مع الروم على تدبير مكيدة ضدّ المسلمين في المدينة، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

(د) وفي الاشمئزاز الذي قد يصل إلى دائرة القلب ولا يقف عند حدود دائرة النفس الكبرى، قال الله تعالى يصف قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

اشمأزت: نفرت وانكمشت وانقبضت معرضة عن ذكر الله.

(هـ) وفي الغيظ الذي يصل إلى دائرة القلب، قال الله تعالى يحرض الذين آمنوا على قتال عدوّهم في سورة (التوبة ٩):

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

(و) وفي الغلّ الذي يصل إلى دائرة القلب لشدّته، قال الله تعالى يصف المؤمنين الذين يؤمنون من بعد المهاجرين والأنصار في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

(ز) وفي عواطف الحبّ والميل والتوادّ والتآلف التي تصل إلى القلوب، وفي أضدادها وردت عدّة نصوص قرآنية، منها ما يلي:

ذكر الله تعالى أنه ألف بين قلوب المؤمنين، والتأليف إنما يكون بالتوادّ والتراحم، فقال تعالى مخاطباً رسوله في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

وخاطب الله الذين آمنوا بقوله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

وذكر الله تعالى أنه جعل في قلوب الذين اتبعوا عيسى عليه السلام رأفة ورحمة، فقال عزّ وجل في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً . . . ﴿٢٧﴾ ﴾.

ووصف الله الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل بأنهم أُشْربوا في قلوبهم حبّ العجل بسبب كفرهم، فقال تعالى يخاطبهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وفي التنافر والتباعد بين القلوب وصف الله اليهود والمنافقين بقوله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

لا يعقلون: أي ليس لديهم إرادات حازمة تضبط أهواء نفوسهم عن الانحراف.

(ح) وفي الشجاعة التي تندفع من القلب، قال تعالى في وصف أهل الجاهلية في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ . . . ﴿٢٦﴾ ﴾.

والحمية: نوع شجاعة تنشأ عن أنفة وغضب.

أما شجاعة المؤمنين فمنابعها الإيمان المستقر في القلوب، وتقويها معونة إلهية تربط على قلوبهم، ومن ذلك قول الله تعالى للمؤمنين بمناسبة معركة بدر في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾.

ولما كانت الشجاعة تنبع من القلب، فالجبن ضعف مستقره القلب.

(ط) وفي الحسرة التي تتغلغل في دوائر النفس حتى تعبر دائرة القلب، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

(ي) وفي الميل إلى الطاعة بالتوبة التي تكون صادقة من القلب، قال الله تعالى يخاطب اثنتين من أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم في سورة (التحريم ٦٦):

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾.

فقد صغت قلوبكما: أي مالت قلوبكما إلى الله بتوبتكما.

(ك) وفي مختلف عوامل الكبر، والحسد، والرغبة بالفجور، والعناد، التي وصلت إلى عمق قلوب الآخرين، كما وصلت إلى عمق قلوب الأولين من أهل الكفر، فكان لها ظواهر في سلوك هؤلاء وأولئك متشابهة، نظراً إلى التشابه الذي حصل في قلوبهم، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

فهذه آيات الله بينات لمن يريد أن يقنع بالحق ويكون من الموقنين.

خامساً: والقلب إما أن يكون سليماً طاهراً بريئاً من العلل والأمراض، وعندئذ يكون الإنسان ممتعاً بعمق الصحة النفسية القلبية، والقلب السليم الطاهر هو القلب المؤمن بالله الذاكر له، المخبت الخاضع المطمئن المستسلم لأحكامه وشرائعه، الراضي بقضائه وقدره، الواثق بفضله ورحمته، البريء من خلائق السوء وإرادات المعصية، ونيات الإثم والفسوق والعصيان.

وإما أن يتعرض للعلل والأمراض، وتهبطُ درجات الصحة النفسية القلبية عندئذ إلى مستويات تناسب مقادير العلل والأمراض التي يتعرض لها القلب؛ فيصاب بالأدناس المختلفة، وهذه تسبب له أنواعاً من الأمراض على مقاديرها.

ومتى تكاثرت على القلب أدناس الإثم والعدوان وإرادات السوء والشر، أصابته الأمراض الخطيرة، أشدها ما يكون من نتائجه النفاق والكفر بالله.

ويمكن علاج القلب وشفاؤه، وعندئذٍ ينيبُ إلى ربه فإذا جاء العبد ربه وهو على توبته فقد جاءه بقلب منيب.

ودوام العلل المرضية في القلب يميت فيه حس الخير، فيقسو ويتصلب حتى يكون كالحجارة بل أشد قسوة، فإذا ذُكِّر بالله واليوم الآخر لم يتحرك بشيء، واستمر فيما هو فيه من حبّ العاجلة والانصراف إلى زينتها لاهياً، وفي غَمْرَةٍ مطبقة عليه من كل جانب، فهو لا يستجيب لداعٍ إلى الخير، ولا يستمع لأقوال واعظ يعظ بالحق، ولا مذكّر يذكر بالله.

هذه مفاهيم عن القلب دلّت عليها نصوص قرآنية كثيرة:

(أ) فالقلب السليم الطاهر البريء من العلل والأمراض، دلّ عليه ما دعا به إبراهيم عليه السلام ربّه، إذ قال في جملة دعائه كما أخبرنا الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فمن أتى الله يوم يبعثون، بقلب سليم طاهر بريء من العلل والأمراض، وآثارها التي تتمثل بالكفر والفسوق والعصيان، فذلك هو الذي ينفعه عند ربه قلبه السليم.

وقد كان إبراهيم عليه السلام ذا قلب سليم، وجاء ربّه بقلب سليم، بذلك وصفه الله تعالى، فبعد الكلام على نوح عليه السلام قال الله تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ؟ ﴿٨٧﴾ ﴾.

(ب) ويتدنس القلب بأدناس خفيفة تغسلها الطاعات، ويصاب بأدناس شديدة قوية مطبقة عليه، حتى لا تدع فيه جانباً طاهراً، وبينهما درجات.

فمن الأدناس الخفيفة ما يتعرض له من خواطر السوء، والميل نحو الإثم والمعصية، ولو لم يصل إلى مستوى التنفيذ والإرادة الجازمة، أشار إلى ذلك قول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ . . . ﴿٥٣﴾ ﴾.

غير ناظرين إناه: أي غير منتظرين وقت نضجه.

فدل هذا النص على أنّ سؤال نساء النبي من وراء حجاب، أطهر لقلوب السائلين وقلوب المسؤولات، فلولا وجود احتمال تدنس القلب عند المواجهة بميل غير مأذون به شرعاً لما وجّه الله لهذا الأدب من آداب الإسلام.

وأشد الأدناس وأخبثها أدناس الكفر والنفاق وما يؤدي إليهما، وهذه الأدناس لا يطّهر الله القلوب منها، لأنه لا يغفر أن يُشْرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وإلى هذه الأدناس الشديدة التي قد تدنس بها القلوب أشار القرآن بقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

فهؤلاء قلوبهم مدنّسة بأشد الأدناس وأخبثها، وهي أدنـاس الكفر، وما ينشأ عن الكفر من سلوك، وما يدفع إلى الكفر من أخلاق، وقد امتحنهم الله، فكشفوا عمّا في قلوبهم من أدناس، فمن العدل أن لا يطهر الله قلوبهم بالمغفرة، وأن لا يريد ذلك، لأن إرادته تتبع حكمته، وحكمة الله تقضي بأن لا يحكم ببراءة المجرمين بجريمة الكفر، فلهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

ولكفر القلوب آثار هي من الأرجاس والأدناس، وهي نتائج طبيعية له، تحدث وفق السنن الربّانية التي فطر الله النفوس عليها، لذلك قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

ويطفح الرجس على الكافر والمنافق، باعتبار أنّ سلوكه كله منسجم مع

كفره، ولمّا كان كفره رجساً كان سلوكه كله رجساً، ومن اتصف في سلوكه بالرجس، فهو كله رجس، ولذلك قال الله تعالى في وصف المنافقين في سورة (التوبة ٩):

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

وسمى الله الكفر والنفاق رجساً، فقال تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

أي: زادتهم كفراً إلى كفرهم، ونفاقاً إلى نفاقهم.

(ج) ويتعرض القلب للأمراض، وأدنى الأمراض مرض الرغبة باللذة المحرمة التي يُتوصَّل إليها بالفاحشة، وأخبث الأمراض وأشدها ما يجرّ إلى الكفر والنفاق.

ففي الإشارة إلى مرض الرغبة باللذة المحرمة، التي تكون بالفاحشة، قال الله تعالى لنساء النبـي في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: فيطمع الذي في قلبه رغبة بالفسق أو ميل إلى الفحش، أو ضعفٌ تجاه النساء، وهذا من أمراض القلوب.

وفي الإشارة إلى الأمراض التي تسبب الكفر، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ ﴾.

تمنى: تلا كتاب الله. ألقى الشيطان في أمنيته: ألقى في تلاوته.

هذا النص دلّ على حلقة من حلقات سنة الصراع بين الحقّ والباطل، ولمّا كان الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قمة الدعوة إلى الله، كان لا بد أن يكون لهم أعداء من شياطين الإنس والجن، والعدوّ له وسائل كثيرة من الكيد، ولمّا كان كتاب الله هو النصّ المنزل لهداية الناس، فإن الشياطين يحاولون الكيد لهذا النصّ، بالتحريف والتبديل، والزيادة والنقص؛ لدعم ما هم فيه من إضلال وإفساد. إنّهم يحاولون هذا بعد عصور الأنبياء والرسل، وقد نجحوا في غير كتاب الله القرآن، لأنّ الله لم يتكفل بحفظ تلك الكتب، إذ وضع في خطته سبحانه أن يختم الكتب المنزلة بالقرآن الذي يتكفل بحفظه.

أما في عصور الأنبياء والرسل فإنّهم يحاولون أيضاً هذه المحاولة، ولكنهم لا ينجحون، لأنّ الله يحكم آياته على لسان رسوله، فلا يبقى لتحريفات الشياطين ولا لمحاولاتهم في ذلك أي أثر، وهذا لا يتعارض مع عصمة الرسل، والثقة بما يبلغون عن الله.

ومن صور هذه المحاولة الخبيثة أن يتلو الرسول كلام الله فيأتي شيطان من شياطين الإنس أو الجنّ، فينقل ما سمع من الرسول مضيفاً إليه من عنده جملاً مفسدة تدعم باطله، لكنّ الرسول موجود، والوحي يتنزل، فيذهب الناس إلى الرسول فلا يجدون في تلاوته هذه الإضافة التي أضافها الشيطان، فتسقط وتنسخ من أذهان الناس الذين سمعوها، ويحكم الله آياته.

ومن صور هذه المحاولة الخبيثة أن يتلو الرسول كلام الله، فيوقع الشيطان في أذهان بعض من يستمعون إليه معاني غير مراده، وهذه المعاني من شأنها أن تخدم باطل الشيطان وتخدم تضليلاته لكن الله يفسد على الشيطان مكيدته هذه، فينزل آيات يحكم بها المعنى المراد، بعد أن ينسخ المعنى الذي ألقاه الشيطان من أذهان المؤمنين. ومعلوم أن التلاعب بالمعاني من التحريفات التي ما يترك الشياطين الكيد بها، ولو بقي نصّ الكتاب محفوظاً كما أنزله الله على رسوله ولعلّ هذه الصورة هي المرادة في النصّ لقوله تعالى فيه: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به﴾.

وقد تصل المحاولة إلى أن يلقي الشيطان الإضافة التي يريدها في آذان من يستمع لتلاوة الرسول مباشرة من الذين في قلوبهم مرض الشرك بالله، والقاسية قلوبهم فهم لا يؤمنون بالله ولا بعدْلِه وجزائه واليوم الآخر، ويكون ذلك امتحاناً لهم، وهذه المحاولة ـ إن وقعت ـ فهي لا تتعارض مع عصمة الرسول، والثقة بما يبلّغ عن ربّه، لأنّها خارجة عن دائرة تبليغه، ولا تكون عامة في آذان كلّ من يستمع إلى الرسول حتى يختلط الأمر على المسلمين في سماعهم لتلاوة الرسول، وإنما تكون محدودة في آذان الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم. وقصة الغرانيق التي لم تصحّ رواية لها عند المحدّثين يمكن أن تحمل على هذه الصورة من محاولات شياطين الجنّ والإنس، هذا إذا قبلنا فكرة الاشتغال بتأويل الروايات الضعيفة التي يدلّ ظاهرها على أنها ساقطة مردودة. على أن قصة الغرانيق تتحدث عن أمر زعمت أنه وقع في مكة حينما كان بعض المسلمين مهاجرين إلى الحبشة في هجرتهم الأولى، وسورة الحج سورة مدنية، وهذه الآيات منها نزلت بين مكة والمدينة ـ أي بعد الحادثة المزعومة بزمن طويل ـ فلو أن الحادثة قد وقعت فعلاً؛ لكان المفروض أن تنزل بعدها مباشرة تعقيباً عليها.

والنفاق ودوافعه مرض من أمراض القلوب، ولذلك كثر في القرآن وصف المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً.

منها قول الله تعالى في معرض الحديث عن المنافقين في سورة (البقرة ٢):

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قيل: نزلت في عبدالله بن أبي بن سلول، وقيل غير ذلك، ولكن قوله تعالى فيها: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ كأنه يشير ضمناً إلى ما جرى من حاطب بن أبي بلتعة، إذ أرسل كتاباً يخبر فيه قريشاً عن عزم الرسول على فتح مكة، يتخذ عندهم يداً من أجل أهله الذين هم في مكة، فإن كان هو المراد كان المرض الذي في قلبه إثماً دون النفاق، لأنه كان مؤمناً اعترته حالة من حالات الضعف البشري، وسورة المائدة نزلت بعد سورة (الفتح ٤٨).

ومنها قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

فالمراد من الذين في قلوبهم مرض المنافقون، ففي قلوبهم مرض دفعهم إلى أن يكونوا منافقين، وفي قلوبهم مرض الكفر.

ومنها قول الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

فالذين في قلوبهم مرض هنا هم المنافقون.

وقوله تعالى أيضاً في سورة (محمد ٤٧):

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾.

هؤلاء الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. إنهم إذا نزلت سورة تأمر بالقتال تحرك الجبن في قلوبهم، واضطربت أفئدتهم كراهية أن تلجئهم ضرورة النفاق إلى مشاركة المسلمين في قتال عدوهم، فتدور أعينهم، وينظرون إلى الرسول نظر المغشي عليه من الموت.

ومنها قوله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه المقالة صدرت ـ والله أعلم ـ عن المنافقين في المدينة لما خرج الرسول وطائفة من المؤمنين معه إلى معركة بدر الكبرى، وصدرت أيضاً عن المشركين لما رأوا قلة المسلمين بالنسبة إليهم فهم الذين في قلوبهم مرض الشرك بالله، أو عن بعض منهم كان في قلوبهم مرض الشك، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: غر هؤلاء دينهم. وأقوال المفسرين تجعل هذه المقالة صادرة فقط عن فريق المشركين، الذين شهدوا غزوة بدر، لما رأوا قلة عدد المسلمين بالنسبة إليهم، وتأولوا المنافقين بأنهم فريق كانوا مع المشركين ممن ذكروا الإسلام في مكة.

ومنها قول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

صدرت هذه المقالة عنهم في غزوة الأحزاب، لما اشتد الأمر على المسلمين من قبل ضغط الحصار الذي حاصرهم به أعداؤهم.

﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ قد يكون وصفاً ثانياً للذين قالوا هذه المقالة، فهم منافقون، وهم في قلوبهم مرض جعلهم يسلكون مسلك النفاق، وقد يكون لآخرين في قلوبهم مرض دون النفاق.

وقوله تعالى في سورة (الأحزاب **٣٣**):

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

الأرجح فيما أرى، أن الذين في قلوبهم مرض في هذا النص والمرجفين هم المنافقون أنفسهم، فهم من جهة أن ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر منافقون، ومن جهة الدافع الذي دفعهم إلى النفاق في قلوبهم مرض، ومن جهة بعض مظاهر سلوكهم داخل صفوف المسلمين مرجفون.

وقد يكونون أصنافاً ثلاثة: منافقين كاملي النفاق. وفي قلوبهم مرض الشك الذي لم يبلغ بهم أن يكونوا منافقين. وأصحاب أعمال من أعمال الكفر تضر بمصالح المسلمين العامة، وتدفع بهم هذه المعاصي الكبرى إلى صفوف أهل الكفر.

(د) وإذا دامت العلل المرضية في القلب مات فيه حس الخير، وقسا وتصلَّب، وربما صار كالحجارة بل أشد قسوة.

وفي الدلالة على بلوغ القلب هذا الدرك المنحط، الذي يكون فيه قاسياً صلباً وردت عدة نصوص قرآنية.

منها قول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

فأبان الله في هذه الآية، أن السبب في قسوة قلوب الذين أوتوا الكتاب قبل المسلمين أنهم قد طال عليهم الأمد في النعمة والرفاهية والقوة المادية وارتكاب المعاصي، فأخلدوا إلى الأرض فقست قلوبهم، ولا جرم أن طول المدة في الرفاهية والنعمة والقوة المادية وارتكاب المعاصي تنسي الآخرة، وتميت حس الشفقة والرحمة وابتغاء الخير، وبذلك يقسو القلب، وتجف منابع الرحمة والعطاء لديه، ولا تؤثر فيه المواعظ والمذكرات بالله واليوم الآخر.

ومنها قول الله تعالى عن بني إسرائيل في سورة (المائدة ٥):

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

إن بني إسرائيل قوم أهل كتاب، وقد أعطوا مواثيقهم على العمل بما فيه، وعلى طاعة الله، ولكنهم نقضوا ميثاقهم وعصوا ربهم، وحرفوا الكلم عن مواضعه، لتبرير أعمال الفسق والفجور التي يرتكبونها، وطال عليهم الأمد في ذلك، فلعنهم الله، وطردهم من رحمته، وجعل قلوبهم قاسية. فدل هذا على أن من سنن الله، أن من طال عليه الأمد في العصيان، وارتكاب الفسوق والفجور والعدوان، قسا قلبه. إنها نتيجة طبيعية من النتائج التي تنتهي إليها أحوال قلوب الناس، ضمن سُنن الله السببيّة والجزائية.

وهذه النتيجة في الأحوال المعنوية، تشبه النتيجة التي يصل إليها العضو المريض بالأمراض المادية، إذا طال عليه الأمد وهو مصاب بمرضه الذي يأكل إحساسه شيئاً فشيئاً، ويفقده حياته وعمله، وقيامه بوظائفه المادية، وإن بقي في الصورة عضواً له هيكله الظاهر.

وخاطب الله بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾.

فدل هذا على أن قسوة قلوبهم قد بلغت مبلغاً لا تندى فيه بعطاء بموجب باعث داخلي، ولا بموجب مؤثر خارجي، ولا تخضع فيه من خشية الله، وهذه غاية تكون القلوب عندها ميتة حاسة الخير.

وقد تقسو القلوب حتى لا تلين مهما اشتد عليها البأس فلا تتضرع إلى الله ليكشف عنها ما نزل بها، وفي ذلك قال الله تعالى لرسوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾.

وهذا مستوى من القسوة مقرون بالكبر والعناد.

وقسوة القلب ذات عاقبة وخيمة على أصحابها، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾.

أي من جهة ذكر الله، فهي لا تلين لذكر الله ولا تلين إذا ذكّرت بالله.

سادساً: وحين يصل القلب إلى مستوى القسوة التامة، ويفقد الإحساس بالخير، وتغلب الذنوب والآثام ورغبات الفجور والعدوان عليه، أو يتمرد بالكبر والعجب، يكون أمام آيات الله ودلائل الحق أعمى، وبالنسبة إلى دعوات الحق والهداية والإرشاد إلى الخير أصم، وإذ فقد هذا الإحساس فهو بمثابة الميت المقبور الذي لا يعقل.

ولذلك قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ؟ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وعلى طريقة الاستفهام أيضاً قال الله لرسوله في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: فهم لا يسمعون دعوات الحق والهداية، ولا يرون دلائلها، ولا طريقها، إنهم في ضلال مبين.

ثم على طريقة الإخبار المؤكد لا على طريقة الاستفهام قال الله لرسوله في سورة (النمل ٢٧):

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

وقال له أيضاً في سورة (الروم ٣٠):

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي فمن لم يبدأ من جهته بالإيمان بآيات الله فيدفعه إيمانه إلى الاستسلام

لله ولما يأتي عنه، يظل قلبه ميتاً لا يحس بالخير، ويظل سمعه أصم لا يسمع دعوة الحق والهداية.

وقال الله لرسوله في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤ ﴾.

فالأحياء الذين يسمعون الهداية ويستجيبون لها هم أحياء القلوب، والأموات الذين لا يسمعون الهداية ولا يستجيبون لها هم أموات القلوب، فقلوبهم مقبورة في أجسامهم، وما أنت بمسمع من في القبور.

والسبب في ذلك أن قلوبهم مغمورة بمتاع الحياة الدنيا وزينتها، فلا حركة لها إلا فيما هي فيه مغمورة مشغولة، وطبيعي أن تكون بذلك لاهية لا تعي ما يرد عليها من الخارج من مواعظ ومذكرات، قال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣) في الذين اختلفوا في العقائد جاحدين ما جاء به الرسل:

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣ ﴾.

الغمرة: هي ما يغمر قامة الإنسان من الماء أو غيره. فهؤلاء قلوبهم في غمرة تحجبهم عن الاستجابة للحق، والعمل بالخيرات التي يعملها المؤمنون، ولهم أعمال من غير أعمال المؤمنين تصرفهم وتمتص طاقاتهم هم لها عاملون.

وقال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾.

فهؤلاء الغافلون المعرضون اللاعبون لاهية قلوبهم عن سماع الذكر الذي يأتيهم من ربهم، بما هم فيه من استغراق في متاع الحياة الدنيا وزينتها.

سابعاً: كل ما في القلوب وكل ما يصدر عنها معلوم لله تعالى، فالله بعلمه وقدرته أقرب إلى قلب الإنسان ـ الذي هو مصدر إرادته ـ من الإنسان نفسه، وهو سبحانه يحول بين الإنسان وقلبه: فلا يصدر توجيه إرادي عن قلب الإنسان إلا ويمر بحائل من قدرة الله، يأذن بنفاذه أو لا يأذن. ولا يستقر شيء في قلب الإنسان أو يصل إليه ما لم يمر بهذا الحائل من قدرة الله، يأذن بنفاذه أو لا يأذن. ولا يوجد أي شيء في القلب، من إيمان أو كفر، أو طهارة أو رجس، أو إرادة خير أو شر، أو أي متحركة أو ساكنة، أو أية عاطفة ميل أو نفور، أو غير ذلك؛ إلا يعلمه الله، فلا تخفى على الله خافية، فليتق الله من آمن به.

هذه حقائق دلت عليها نصوص قرآنية كثيرة، منها ما يلي:

(أ) قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

للمفسرين آراء مختلفة في المراد من كون الله يحول بين المرء وقلبه والذي أرى ترجيحه، أن المراد ـ والله أعلم ـ حيلولة العلم والقدرة والإرادة، فما يكون في القلب من شيء، وما يجري فيه من شيء، وما يدخل إليه شيء، وما يصدر عنه شيء، إلا ويعلمه الله. وأما ما يدخل إليه من مؤثرات، وما يصدر عنه من إرادات، فلا ينفذ إلا بإذن من إرادة الله وقدرته، وإِذْنُ الله يجري وفق سننه في عباده، ووفق حكمته في ابتلائهم، وحينما يكون في شيء من ذلك معارضة لقضائه وقدره العام فإن الله يُحوِّله أو يمنعه عن النفوذ، ولا يأذن به. وهذا هو الذي يتفق مع حرية إرادة الإنسان والحكمة من ابتلائه في هذه الحياة الدنيا، ومع سلطان قضاء الله وقدره في كونه.

(ب) وقال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝٥١ ﴾.

جاء هذا تعقيباً على موضوع تخيير الرسول في أن يؤخر من يشاء من نسائه، ويؤوي إليه من يشاء منهن، وما في القلوب في هذا الموضوع عواطف تتحرك، ولكن النص يشملها ويشمل غيرها من كل ما يجري في القلوب، أو يستقر فيها، أو يصدر عنها، أو يدخل إليها.

(ج) وفي سياق الكلام على المنافقين قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ۝٦٣ ﴾.

(د) وقال أيضاً في سورة (التوبة ٩):

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤ ﴾.

(هـ) وفي شأن أهل بيعة الرضوان قال الله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ ﴾.

ثامناً: قسم الرسول صلى الله عليه وسلم قلوب الناس إلى أربعة أقسام:

١ ــ قلب المؤمن، ووصفه الرسول بأنه أجرد، أي ليس عليه حجاب يحجبه عن الهدى والخير ووصفه بأن فيه سراجاً ذا إنارة.

٢ ــ وقلب الكافر، ووصفه الرسول بأنه أغلف، أي عليه غلاف يحجبه.

٣ ــ وقلب المنافق، ووصفه الرسول بأنه منكوس، أي مقلوب على وجهه لأنه عرف ثم أنكر، رجع إلى الكفر بعد الإيمان.

٤ ــ وقلب فيه إيمان ونفاق، ووصفه الرسول بأنه مُصْفَح، أي مائل على حرفه، فله صفحتان، وله وجهان، كالإناء الذي ينصب على حرفه، فلا هو منكوس ولا هو على وضعه السوي. والْمُصْفَح لغة ما له وجهان، ويقال: ضربه بالسيف مُصْفَحاً، أي ضربه بِعُرْض السيف لا بحده.

أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ــ بإسناد جيد كما قال ابن كثير ــ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر. وقلب أغلف مربوط على غلافه. وقلب منكوس. وقلب مصفح.

فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نور.

وأما القلب الأغلف فقلب الكافر.

وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر.

وأما القلب الْمُصْفَح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح، فأي الْمُدَّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه».

الْمُدَّة: بضم الميم ما يستمد منه. والمِدة: بكسر الميم ما يجتمع في الجرح من القيح.

والظاهر أن الأوصاف التي وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بها هذه القلوب الأربعة أوصاف تشبيهية، فحالة كل قلب منها تشبه الصفة التي وصفه بها: أجرد، أو أغلف، أو منكوساً، أو مُصْفَحاً.

* * *

الفصل الخامس

في الفؤاد

علمنا أن الفؤاد هو أعمق دائرة من دوائر النفس، وأن مجموعة من خصائص النفس ووظائفها وأعراضها تتركز فيه أو تصل إليه وتستقر فيه.

ولدى البحث في الفؤاد أخذاً من الدلالات القرآنية يتضح ما يلي:

* **أولاً**: قد تنتهي إلى عمق الفؤاد وتستقر فيه العلوم والمعارف الثابتة، والعقائد الراسخة، مقترنة بشحنة من العواطف الملائمة لها.

ولما كان أول خط المعرفة المكتسبة في حياة الإنسان يبدأ من الحس الظاهر، وأكرم الحواس السمع والبصر، وكان آخر خط المعرفة ينتهي عند عمق الفؤاد، امتنّ الله على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة، وأبان أن الغاية من ذلك امتحان إراداتهم، هل يشكرون أم يكفرون.

وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًۭٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ولكن الناس قليلاً ما يشكرون، قال الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍۢ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍۢ مِّن مَّآءٍۢ مَّهِينٍۢ ﴿٨﴾

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾.

وعملية خلق السمع والأبصار والأفئدة كانت عملية إنشاء متدرج، قال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾.

وتاريخ الأمم السالفة أثبت أن الشاكرين من الناس قليلون، ولذلك حاق بهم عذاب الله، قال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾.

أي: مكناهم فيما لم نمكنكم فيه، فلم يستعملوا ما أعطاهم الله من سمع وأبصار وأفئدة فيما خُلقت من أجله، إذ جحدوا بآيات الله، واستهزؤوا بنُذُر العذاب، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.

وحين لا يؤمن الإنسان بالحق ولا يطمئن قلبه إليه، يظل فؤاده يتقلب باحثاً عما يسعده من العقائد فلا يجد، لأنه ليس بعد الحق إلا الباطل، وليس بعد الهدى إلا الضلال، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾.

* ثانياً: من دائرة الفؤاد ينطلق الميل الإرادي لكسب عمل الخير والشر، دل على ذلك ما نفهم من قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، والاتباع هو توجه إرادي، وقد جعل الله المسؤولية عن العمل الإرادي منوطة بأدوات المعرفة ومركز الإرادة، فالمعرفة تنتهي في مسيرها إلى الفؤاد، والإرادة الموجهة للسلوك تنبع من الفؤاد، وحين تتجه الإرادة اتجاهاً جاهلاً هائماً فإنها تكون مؤاخذة على ذلك، إذ باستطاعتها أن تعتمد على المعرفة التي تيسرت لها وسائلها.

ولمّا كانت الإرادة الموجهة للسلوك تنبع من الفؤاد، كان الفؤاد هو المقصود من قبل الشياطين بتوجيه زخارف القول، لاستمالته إلى فعل الشرور والمعاصي والآثام، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

ولتصغى إليه: أي ولتميل إليه.

فشياطين الجن والإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، لتميل إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ثم تأتي مرحلة الرضى عن المضمون الفكري، والرضىٰ يحرّك التوجه شطر السلوك الذي يدعو إليه المضمون. فتجزم الإرادة، فيكون نتيجة ذلك اقتراف المعاصي والآثام، وألوان الظلم والعدوان.

* ثالثاً: ومن دائرة الفؤاد ينطلق الحب والهوى العميق، ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام ربه بقوله كما حكى الله في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

تهوي إليهم: تحبهم وتهواهم أو تقصدهم.

* رابعاً: قد يصل إلى دائرة الفؤاد ويتغلغل فيه الهم والحزن والقلق، فإذا زالت أسبابها فرغ الفؤاد منها، وهذا ما حصل لأم موسى حين اطمأنت على ولدها إذ وصل بعد رحلة اليم إلى قصر فرعون، والتقطه آل فرعون، وقالت امرأة فرعون له: قرة عين لي ولك، لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. وكادت أم موسى أن تبدي أنه ولدها من شدة فرحها، لولا أن ربط الله على قلبها، فثبتها.

قال الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

هذا ما رأيته أرجح في معنى فراغ فؤاد أم موسى والله أعلم. ولأهل التأويل في تفسير ذلك وجوه: منها أنه أصبح فارغاً من العقل من فرط الجزع والخوف، ومنها غير ذلك.

* خامساً: الفؤاد مركز البصيرة التي تتلقى الوحي وترى مشاهد الغيب في قلوب الأنبياء، قال الله تعالى في شأن الوحي الذي أوحى به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في سورة (النجم ٥٣):

﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾.

* سادساً: الفؤاد مركز التثبيت العميق للنفس الإنسانية، ولذلك قال

الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (هود ١١):

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

ومن أسباب تنزيل القرآن مفرقاً تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله له في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

* **سابعاً**: ولما كانت دائرة الفؤاد هي عمق النفس الأقصى كان عذاب المجرمين يوم القيامة ينفذ إلى داخلها، قال الله تعالى في سورة (الهمزة ١٠٤):

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾.

وحين تطلع النار على الأفئدة فإنها تنفذ إلى داخلها حتى تلامس كلّ ذرة فيها وتكشفها.

إنها عليهم مؤصدة: أي مغلقة أبوابها عليهم إمعاناً في سجنهم وتعذيبهم.

وفي موقف الحساب تكون أفئدة الظالمين هواءً، أي: خالية من أيّ أمل بالنجاة، قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مهطعين: مسرعين، أو ساكنين أذلاء.

مقنعي رؤوسهم: رافعي رؤوسهم وأنظارهم في ذلّ وخشوع ودهشة.

لا يرتد إليهم طرفهم: إذ هم في دهشة يرقبون ما سيحل بهم من عقاب.

وأفئدتهم هواء: خالية من الأمل بالنجاة، ومن أية حركة يحاولون بها إنقاذ أنفسهم مما ينتظرون من جزاء على ما قدّموا من عمل.

* * *

الفصل السادس

في الفكر

جاء في القرآن الأمر بالتفكر في خلق السماوات والأرض، وفي الأنفس، وفي آيات الله الكونية، وفي آيات الله القرآنية، وفي أنباء الأولين وقصصهم للاعتبار بها، وفي غير ذلك من مجالات تحتاج إلى إعمال الفكر.

ولمّا كان واضحاً لدى الناس أنّ الدماغ في الرأس هو مركز التفكير، لم يحتج الأمر إلى أن يشير إليه القرآن.

ونصوص الأمر بالتفكر والتوجيه له كثيرة في القرآن الكريم، منها ما يلي:

(أ) قال الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص دعوة إلى التفكر الإفرادي، والتفكر الجماعي بين اثنين يتناظران.

وفيه إشارة إلى أنّ التفكير الجماعي العام قلّما يثمر ثمراً نافعاً، لأنه يكون في الغالب اتكالياً غوغائياً مستغلاً من قبل أفراد.

(ب) وقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

(ج) وقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

(د) وقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

(هـ) وقال الله تعالى لرسوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

(و) وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(ز) وقال الله تعالى لرسوله في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(ح) وقال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: فهذا موضوع يحتاج إلى التفكر لمعرفة ما أودع الله فيه من آيات قدرته وحكمته.

(ط) وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ

كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ
شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

(ي) وقال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ
وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وهكذا تدعو النصوص القرآنية للتفكر وتوجّه له، لأنّ التفكر هو وسيلة اكتساب المعارف غير البديهية، وغير الحسيّة.

* * *

الفصل السابع

في اللُّبّ

اللب هو الدائرة الواقعة في عمق مركز التفكير، وهو مركز استقرار المعرفة العلمية، ومركز التذكر، ومركز الاعتبار والاتعاظ والذكرى، وعنه تصدر النتائج الفكرية إلى الفؤاد، والقلب، والصدر، لتحريك العواطف، وتنبيه الإرادة صاحبة السلطة في توجيه السلوك.

ومن خلال النصوص القرآنية التي ذكرت فيها الألباب نستطيع اكتشاف المراد من اللب، ومعرفة خصائصه داخل النفس الإنسانية:

* **أولاً**: اللُّب هو مركز التذكر، ولولا أنه مركز استقرار المعرفة العلمية، وميزان استخراج المعرفة بما أودع الله فيه من أصولها، والمقياس الصالح لقبول الحقّ ورفض الباطل، بما لديه من أصول فطرية يتذكرها ويقيس عليها، لما كان مركز التذكر. وفي كون اللب مركز التذكر وردت ستة نصوص قرآنية، وهي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

فحصر الله التذكر النافع لصاحبه، والذي يمدّه بالحكمة في السلوك، بأولي الألباب، والحكمة في السلوك هي وضع الأشياء في مواضعها، وهذا لا يكون إلاّ إذا استندت الإرادة العاقلة إلى ما يقدمّه اللّب لها من تذكر للمعرفة.

(ب) وقول الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾.

فتذكر أولي الألباب هنا، هو استدعاؤهم لما يعرفون من أصول يقينية عن الله وصفاته ودلالات المحكمات من آياته، ليحملوا ما تشابه عليهم على ما هو محكم غير متشابه، وما ظلّ غامضاً لديهم يؤمنون به كلاماً منزّلاً، ويقولون: آمنا به، كلٌّ من عند ربنا، ويرفضون المعاني التي ثبت لديهم وجوب رفضها في المحكمات من آيات الله، وفي أصول الفكر اليقينية القطعية.

(ج) وقول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾.

فالذي يعلم أنّ ما أُنزل إلى رسول الله من ربّه الحقّ، هو الذي آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم إذ عرف دلائل صدقه، وتفكر فيما أنزل الله إليه فعرف أنه حق لا شكّ فيه، فاستقرّ ذلك في لُبّه، فهو يتذكره ويستدعيه عند كلّ سلوك يريده، لذلك جاء وصف أولي الألباب بعد هذه الآية بصفات سلوكية أمر الله بها المؤمنين:

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(د) وقول الله تعالى في آخر سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

فهذا القرآن بلاغ للناس ليؤمنوا بربهم، وبما جاء فيه من عقائد ومبادىء وشرائع وأحكام، وليكون لهم منذراً بما اشتمل عليه من آيات إنذار بعذاب الله لمن كفر وعصى، وليعلموا من آياته وما اشتملت عليها من دلائل فكرية وخبرية أنّما الله إله واحد لا إله إلا هو، وليحفظ ما جاء فيه أولو الألباب، ويتذكروا أحكامه ونصائحه ووصاياه، عند كلّ سلوك يريدونه في حياتهم.

(هـ) وقول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فهذا القرآن كتاب مباركٌ لاحتوائه على كلّ ما يسعد الناس، من توجيهات ونصائح وأوامر ونواهي وعظات لو اتبعوها وعملوا بها، وقد أنزله الله ليتدبر الناس آياته فيفهموا بعمق ما اشتملت عليه من دلالات لا ليهجروه، أو يكتفوا بترديده دون فهم وعمل. وليتذكر أولو الألباب ما وعوا مما تدبروا منه، ليعملوا بتوجيهاته ونصائحه وأوامره ونواهيه، عند كل سلوك يريدونه في حياتهم.

(و) وقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

فالذين يعلمون هم الذين استقرّت في ألبابهم المعارف، فهم يستدعون منها بالتذكر ما يحتاجون إليه عند كل سلوك يريدونه في حياتهم، حتى يكون سلوكاً حكيماً موافقاً لما تنصح به المعرفة التي سبق لهم أن اكتسبوها.

* **ثانياً**: ولما كانت حقائق قرآنية كثيرة مما يتوصل إليه الفكر بالتفكير والتأمل، ثم يستقر في دائرة اللب منه، ولمّا كانت المستقرات في اللّب تتعرضُ

للنسيان بالنسبة إلى الذاكرة الحاضرة القريبة الاستدعاء، كان كثير ممّا جاء في القرآن ذكرى لأولي الألباب، أي: تذكيراً لأولي الألباب، بحقائق هي لديهم في عمق ألبابهم، إلاّ أنها بعيدة عن ذاكرتهم، فهم بحاجة إلى التذكير بها.

وقد جاء بيان أنّ بعض ما في القرآن ذكرى لأولي الألباب في نصوص منها:

(أ) قول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾.

في هذه الآية تذكير ببعض مظاهر قدرة الله وحكمته في كونه، الدالة على وجوده وجليل صفاته، ولكن من يصل إلى هذه الحقائق إنما هم أولو الألباب، الذين يتفكرون ويتوصلون بالتفكير إلى ما تدل عليه متقنات هذا الكون، ثم تستقر في ألبابهم، وقد جاء القرآن بالنسبة إليهم مذكّراً.

(ب) وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فدلّ هذا النص على أن التوراة مثل القرآن تشتمل على هُدى، وتشتمل على ذكرى لأولي الألباب.

* ثالثاً: ولما كانت الألباب هي مراكز الدوائر العلمية الفكرية في النفوس الإنسانية، كانت أساساً لخطاب الناس في قضايا المعرفة، ولمّا كانت الألباب هي المراكز الإرشادية لدوائر النفس الإنسانية، كانت أساساً لخطاب الناس بأوامر التقوى والاستقامة على منهج السعادة الذي أمر الله عباده بالاستقامة عليه.

وفي هذا نجد عدة نصوص قرآنية، منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

فأولو الألباب هم الذين يعرفون واقع المجتمع البشري، ويعرفون أن في إقامة حكم القصاص حياة للناس، وإذا عرفوا ذلك تحركت عواطفهم وفق ما ترشدهم إليه معرفتهم، وتوجهت وفق ذلك أيضاً إراداتهم، ما لم تصرفهم صوارف الأهواء والشهوات ونزغات الشياطين، ولذلك كان رجاء التقوى منهم احتمالياً غير قطعي ﴿لعلكم تتقون﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

فأولو الألباب هم الذين تظهر آيات الله لهم في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وهم الذين يتفكرون في ذلك ليتوصلوا إلى حقائق المعرفة التي تصلهم بالله.

وهؤلاء هم أولو النهى الذين قال الله فيهم في سورة (طه ٢٠):

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾.

وقال فيهم أيضاً في سورة (طه ٢٠):

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾.

النُّهى: هي الألباب المدركة للمعارف.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

فأولو الألباب هم الذين يدركون بألبابهم العبر التي تتضمنها قصص الأولين، فتكون لهم عظة.

٤ ــ وأمر الله أولي الألباب بالتقوى لأنّ ألبابهم هي التي تدرك الأمر، وتعرف الخير والشر، فقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

* * *

الفصل الثامن

في العقل

العاقل في اللغَة: هو الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها، والجامع لأمره ورأيه. والعقل ضدّ الحماقة.

وأصل مادّة الكلمة يدور حول معنى الإمساك بالشيء وحبسه وربطه، مأخوذ من معنى ربط الدابة بعقالها، تثبيتاً لها وحبساً لها عن الشرود.

والعقل: الحِجْرُ والنُّهى، وسمِّي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه.

ولدى تتبّع الاستعمالات القرآنية لمشتقات هذه المادّة نلاحظ أنها استعملت بمعنى عقل المعنى، أي: فهمه وربطه وتثبيته في الدائرة التي من صفاتها التفكّر والفهم والمعرفة والعلم، والتمييز بين الحق والباطل والخير والشر، وتثبيت المعومات وتذكّرها عند الحاجة.

ونلاحظ أنها استعملت بمعنى عقل النفس وحبسها عن أن تنطلق مع الهوى إلى ما فيه شرٍّ أو ضرٍّ أو أذى، عاجل أو آجل.

فحبس النفس عن معصية الله من العقل، وضبط النفس بقوّة الإرادة من العقل، والصبر من العقل، والحكمة في تصريف الأمور من العقل.

فالعقل على هذا المعنى ينطبق على الإرادة الحازمة القوية القادرة على ضبط النفس، المستندة إلى نتائج العقل العلمي الواعي، وما انتهى إليه من حقائق فهمها ووعاها وعقلها، وقدّم بها نصحه للعقل الإرادي.

فالعقل عقلان: عقلٌ علمي، وعقل إرادي.

والعقل الإرادي لا يكون عقلاً حقّاً ما لم يستند إلى نتائج العقل العلمي، وإلّا كان إرادة جانحة رعناء حمقاء مهما كانت حازمة وقوية، ولا بدّ أن تكون حينئذٍ خاضعة لهوى من أهواء النفس، وقد يكون هذا الهوى خفيّاً، كهوى الاستبداد وحبّ التسلط، وهوى الرغبة بقهر النفس لاكتساب مجدٍ ما عند الناس.

والعقل العلمي قد لا يقترن بالعقل الإرادي، إذ قد يتوصل الإنسان إلى معرفة علمية حقّة، ويعقلها، إلا أنه يكون عاجزاً عن ضبط نفسه وحبسها عن الانطلاق مع أهوائها وشهواتها التي تدفع به إلى مهالكه، وتقذف به إلى سوء المصير.

مع دلالات النصوص القرآنية

* **أولاً**: فمن النصوص التي دلت على العقل العلمي ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى للمؤمنين بشأن فريق من اليهود في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

فهذا الفريق من اليهود يحرّفون كلام الله فيتأوّلونه على غير تأويله، من بعد ما عقلوا معناه المقصود، إذ فهموه فهماً جليّاً واضحاً، وثبت هذا الفهم في أذهانهم، ولكن غلبهم الهوى، فحرّفوا معناه إلى ما يهوون، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم يحرّفون، فتحريفهم عمل مقصود.

فهم قد ملكوا عقلاً علميّاً، ولكنهم لم يملكوا عقلاً إرادياً يعقلهم عن هواهم.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وقد جاء هذا بعد مثل ضربه الله للذين اتخذوا أولياء من دون الله، فقال تعالى:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

فقول الله تعالى: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾: يدل على أنّ هذه الأمثال إنما يعقلها عقلاً علمياً، أي يفهم دلالاتها المرادة فهماً صحيحاً، ويمسك بها في دائرة المعرفة العالمون. فالباحثون العلميون عن المعرفة والمتتبعون لها، والمهتمون بشأن معرفة الحقائق هم الذين يعقلون الأمثال التي يضربها الله للناس، أي يفهمونها فهماً صحيحاً، ويعقلون ما فهموه في دوائر العلم في نفوسهم.

٣ ـ وقول الله تعالى حكاية للحوار الذي جرى بين موسى عليه السلام وفرعون في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

اتهم فرعون موسى عليه السلام بالجنون، لأنه سأله عن حقيقة ربّ العالمين، فأجابه بآثار صنعته، وبأنه خـالق السماوات والأرض و مـا بينهما والمهيمن عليهما بربوبيته، ولم يجبه عن حقيقة ذاته، فردّ موسى على فرعون ردّاً مهذباً، أكد فيه أنّ الربّ الخالق يكفي لإثباته مظاهر صفاته في خلقه، ويدرك هذه الحقيقة الذين يعقلون، أي الذين لديهم عقل علمي يفهمون به حقائق

الدلالات، وينتقلون من الآيات الظاهرات إلى ما تدلّ عليه هذه الآيات، ثم يمسكون بهذه الحقائق ويثبّتونها في دوائر العلم لديهم.

فإن كنتم تعقلون فهمتم ذلك وكفتكم هـذه الآيات البينـات، وإذا لم تفهموا ذلك فأنتم لا تعقلون، أي فأنتم الذين تستحقون الوصف بالجنون، ولكن موسى عليه السلام كان مهذباً في رده، إذ اكتفى بمتابعة استدلاله، مع ربط وجود الفهم بشرط وجود العقل العلمي السليم.

* **ثانياً**: ومن النصوص التي دلت على العقل الإرادي المستند إلى العقل العلمي ما يلي:

١ ــ خاطب الله علماء بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي أتأمرون الناس بفعل البر ــ وهذا يدلّ على أنهم يعلمون البرّ، فهم يأمرون الناس به على علم ــ وتنسون أنفسكم؟! أي فلا تأمرونها كما تأمرون الناس، مع أنكم مكلّفون بما تأمرون الناس به، فأنتم أسبق منهم علماً وأوسع منهم معرفة، وأنتم تتلون الكتاب، فتستزيدون من تلاوته علماً وتذكراً.

أفلا تعقلون؟! أي أفليس لديكم عقل إرادي تستطيعون به عقل نفوسكم عن اتباع أهوائها وشهواتها، واتباع خطوات الشيطان إلى معصية الله تعالى، وإلى ما فيه هلاككم وعذابكم عند ربكم.

٢ ــ وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

أي: ولو شاء ربّك مشيئةً قدريّة أن يؤمن جميع من في الأرض لجعلهم مجبورين غير مختارين، ولسلبهم حريّة الاختيار التي وهبهم إيّاها، وعندئذٍ يكونون جميعاً مؤمنين إيماناً جبرياً لا إيماناً اختيارياً.

أفأنت يا محمد تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وهو شيء لم يختره الله لنفسه، بعد أن قضت حكمته أن يجعلهم مخيرين غير مجبورين ليمتحنهم بالتكاليف، ثم ليجازيهم على اختيارهم الإرادي.

﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي: وإذن الله في إيمان النفوس مقرون باختيارها للإيمان، ولا يكون عن طريق إجبارها لأنه مخالفٌ لسنته في خلقه، فهو لا يأذن به، فلا فائدة إذن من اللجوء إلى طريق الإكراه.

﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾: أي فالذين يتبعون أهواء نفوسهم وشهواتها، ويستجيبون لدواعي الكبر والفجور فيها، ولا يكون لديهم إرادة حازمة عاقلة تعقلهم عن مزالق الكفر والفسوق والعصيان، تقضي سنّة الله فيهم أن يجعل عليهم رجس الانتكاس والارتكاس والطرد من مواطن الرحمة.

فهؤلاء لم ينقصهم العلم بقضايا الإيمان، وإنما لم يستعملوا إراداتهم في ضبط نفوسهم وحبسها وعقلها في طريق الهداية الربّانية، ومنعها عن اتباع أهوائها وشهواتها، والاستجابة لوساوس الشياطين وتسويلاتهم.

٣ ــ وفي شأن الذين كانوا ينادون الرسول صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وهو فيها مشغول بشؤونه الخاصة، قال الله لرسوله في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

الظاهر من دلالات هذا النص أن هؤلاء الذين كانوا ينادون الرسول صلى

الله عليه وسلم من وراء الحجرات، لبعض مسائلهم، كانوا من الذين ليس لديهم صبر حتى يخرج الرسول إليهم، فهم يستعجلون قضاء حوائجهم بالنداء.

وعدم صبرهم ناتج عن أنهم لا يملكون إرادات قوية حازمة تضبط نفوسهم، وتعقلها عن التسرع غير المحمود، لذلك وصفهم الله بقوله: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾.

فنفي العقل هنا نفي للعقل الإرادي على ما يظهر والله أعلم.

٤ ــ وفي شأن الذين اتخذوا دين المسلمين أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم والكافرين الآخرين، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

فالظاهر من نفي العقل عن هؤلاء أنه نفي لعقلهم الإرادي، الذي يمنع العاقل عادة من أن يتورط في قبيحة الاستهزاء بمن يعبدون الله، مؤمنين به متجهين له.

وذلك لأن أهل الكتاب منهم يؤمنون بالله على طريقتهم، فليس من شأنهم أن يستهزئوا على أساس أنهم يستسخفون عمل المسلمين من الناحية الفكرية. ولأن الكفار منهم يعبدون الأوثان فأجدر بهم أن يستهزئوا من أنفسهم.

لم يبق إلا أنهم يستهزئون استجابة لدوافع نفسية لم تجد لديهم عقلاً إرادياً.

* * *

الفصل التاسع

الإنسان بوجهٍ عام

تحدث القرآن عن الإنسان بوجه عام، فأبان أصل نشأته ووجوده، والغرض من خلقه مزوداً بما خُلق فيه من صفات وخصائص، وذكر جملة من صفاته وخصائصه التكوينية التي فطره الله عليها، وجملة من الصفات الكلية العامة التي تنتج عن سلوكه الإرادي، وما يختار لنفسه في الحياة، وأعطى أمثلة وقواعد هي مثابة ظواهر اجتماعية تشتمل على أحكام عامة أغلبية، ليس فيها تعيين وليس فيها تحديد، كشأن الأحكام النسبية التي تقدمها بعض الإحصاءات العلمية للمجموعات البشرية.

ونستعرض في الفقرات التاليات طائفة مما جاء في القرآن عن الإنسان.

— ١ —

خَلْقُ الإنسان ونشأته، والغاية من خلقه

أبان الله لنا في القرآن كيف خلق الإنسان الأول، وأن الإنسان قد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وأبان لنا أن خلق من الإنسان الأول زوجه، وأنه بث منهما عن طريق التناسل المشهود لدى السلالات الإنسانية رجالاً كثيراً ونساءً، وذكر لنا الغاية من خلقه.

خلق الإنسان:

أما بدء خلق الإنسان فقد مر في مراحل:

فالعنصر الأول من العناصر التي تكوّن منها هو الماء، والعنصر الثاني هو التراب، والتراب يحتوي على جملة من مختلف عناصر الأرض.

ثم كانت مرحلة الطين اللازب، أي المتماسك اللزج، الذي يلتصق بعضه ببعض.

ثم تغير الطين فصار حمأً، أي إنه اسودّ وصارت له رائحة منتنة.

ثم صار الحمأ مسنوناً، أي صارت له صورة معينة، وأخذ شكلاً خاصاً، والمسنون هو المصور، وكذلك المملس.

ثم جف وصار صلصالاً كالفخار، والصلصال هو الطين اليابس من غير أن يطبخ بالنار، وسمي صلصالاً لأنك إذا نقرته صل، أي صوّت من يبسه.

ثم نفخ الله فيه الروح من لدنه، فكان بشراً سوياً، ذكراً.

ثم خلق منه زوجه الأنثى، على مثل صورته وصفاته، باستثناء الأنوثة وخصائصها.

ثم بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً عن طريق التناسل، من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم جنيناً كاملاً دبت فيه الروح البشرية، فإذا تمت دورة حمله نزل من بطن أمه وليداً يستهل صارخاً.

وبين المراحل البارزة هذه أطوارٌ من الخلق، منها ما اكتشفه البحث العلمي، ومنها ما لا يزال غيباً في علم الله الخالق عز وجل.

أما ما دل على هذه الحقائق من القرآن ففيما يلي بيانه:

* **أولاً**: لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً ثم وجد، دل على هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾.

أي: إن الإنسان بخصائصه التكوينية التي هو عليها لم يكن شيئاً مذكوراً،

سواء في ذلك نوعه وكل فرد من أفراده، فلقد مر عليه حين مديد من الدهر السحيق في أغوار الزمن الماضي لم يكن للإنسان فيه وجود، ولم يكن شيئاً مذكوراً مطلقاً، إذ كان في بحر العدم المحض الذي لا حدود له.

وقد جاء هذا البيان على طريقة التساؤل، لانتزاع الجواب من منصفي أهل العلم وأهل النظر. والجواب الحتمي: نعم لقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

هذا هو واقعه، إذ لو كان له وجود لعرف هذا الوجود، ولكان له ذكرٌ ما، ولكنه لم يكن له وجود، ولم يكن شيئاً مذكوراً، وصفاته تدل على أنه كائن حادث غير قديم، لا في أفراده، ولا في نوعه، ولا في العناصر الأصلية التي يتكون منها، بهذا تشهد الدراسات العلمية الحديثة والحقائق الفلسفية والرياضية.

وإذا ثبتت هذه الحقيقة لزم عنها أن الإنسان لا بدّ له من محدث يحدثه، وخالق يخلقه، لأن الفلسفة الفكرية والبحث العلمي يثبتان أن كل شيء لم يكن موجوداً ثم وجد بعد ذلك لا بد له من موجد قد أوجده، أي: لا بد له من خالق قد خلقه، إذ العدم المحض لا يصلح بذاته أن يتحول إلى الوجود، لكن الخالق الذي له الوجود الثابت الدائم هو الذي يوجد الأشياء من العدم، بما لديه من قدرة وإرادة وعلم وحكمة وفيض إنعام.

والاستفهام في «هل أتى» قيل فيه: إن هل بمعنى (قد) وقد روي هذا عن ابن عباس، وذكره جماعة من المفسرين، إلا أني أرى إبقاءه على بابه، وهو ما ذهب إليه كثير من المفسرين، وقال ابن هشام في كتابه «مغني اللبيب»: وهذا هو الصواب عندي.

والظاهر أن ما صوبه ابن هشام يبقي الآية في مستواها البلاغي الرفيع، إذ تفتتح سورة (الإنسان) باستفهام لا جواب له إلا (نعم). وهذا ألطف سبيل لانتزاع الاعتراف بالحقيقة، وأقوى وأوقع من تقديم الحقيقة على شكل تقرير قد يتطلب في نفس السامع إقامة الدليل عليه.

* **ثانياً**: الماء هو العنصر الأول من العناصر المادية التي تكون منها خلق جسد الإنسان، كما هو العنصر الأول الذي خلق منه كل كائن حي حادث، وهو المرحلة المادية الأولى في الخلق.

دل على هذه الحقيقة نصوص متعددة من القرآن الكريم، فقبل خلق السماوات والأرض كان عرش الرحمن على الماء، فدل هذا على أن الماء طور من الخلق سابق على خلق السماوات والأرض، قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ . . . ﴿٧﴾ ﴾.

والعلم يقول: إن الماء أبسط العناصر المادية، إذ يتألف من ذرتين.

وفي كون الماء هو المادة التي خلق الله منها كل شيءٍ حي، يقول الله تعالى في (سورة الأنبياء ٢١):

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ويتناول هذا أبسط الأشياء الحية، حتى أبسط النباتات.

وفي كون الماء هو المادة التي خلقت منها الدواب، والدواب التي تدب على الأرض أصناف مرتقية في الكائنات الحية، يقول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾.

والإنسان قمة المخلوقات الحيوانية في الأرض، وقد خلقه الله من الماء، أي: إن الماء هو المادة الأولى التي تكون منها خلقه، وفي بيان هذه الحقيقة يقول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

* **ثالثاً**: التراب هو العنصر الثاني من العناصر التي تكون منها خلق جسد الإنسان.

فالإنسان الأول كان التراب عنصراً من عناصر تكوين خلقه، وفي بيان هذه الحقيقة يقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وفي كون التراب عنصراً أساسياً من عناصر تكوين كل إنسان بعد آدم، إذ من التراب النبات، ومن النبات الغذاء، ومن الغذاء الدم، ومن الدم النطفة، ومن النطفة الجنين؛ وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿١١﴾ ﴾.

ويقول تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

ويقول في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

* **رابعاً**: ومن امتزاج عنصري الماء والتراب يتكون الطين، فالطين هو المزيج الذي تكون منه خلق جسد الإنسان.

والطين مؤلف من ماء وحفنة من تراب الأرض، وهذا التراب يجمع جملة من عناصر الأرض بنسبٍ ومقادير على وفق علم الله وحكمته.

وفي بيان هذه الحقيقة يقول الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾.

ومرحلة الطين هذه في بدء خلق الإنسان الأول وصفها الله بأنها طين لازب ــ أي طين لاصق بعضه ببعض متماسك لزج ــ فقال تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ۝١١ ﴾.

وقال تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ ﴾.

* **خامساً**: وبعد مرحلة الطين تأتي مرحلة الحمأ المسنون، والحمأ هو الطين الأسود المنتن، والمسنون هو المصور، أو المملس.

وفي بيان هذه المرحلة من خلق الإنسان الأول قال الله تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ ﴾.

فالطين مر في أطوار تغيرت فيها رائحته واسودّ حتى صار حمأ، ثم صار مملساً مصوراً بخلق الله، فصار حمأ مسنوناً.

* **سادساً**: وبعد مرحلة الحمأ المسنون، تأتي مرحلة جفاف الطينة ويبسها، حتى صارت صلصالاً، إذا نقرته صوّت من يبسه، وهذا الصلصال

يشبه الفخار إلا أنه ليس فخاراً، لأن الفخار مطبوخ بالنار بخلاف الصلصال، فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار، وفي بيان هذه المرحلة قال الله تعالى في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

وهذا بالنسبة إلى الإنسان الأول، أما بالنسبة إلى السلالات البشرية، فالمراحل من الطين إلى النبات، إلى الغذاء، إلى الدم، إلى النطفة، إلى العلوق، ثم العلقة فالمضغة إلى ما وراء ذلك.

* **سابعاً**: ثم تأتي مرحلة نفخ الروح: فبالنسبة إلى الإنسان الأول كان ذلك بعد أن صارت الطينة صلصالاً ذا صورة بشرية كاملة، عندئذ نفخ الله فيه من روحه، فكان بشراً سوياً. وبالنسبة إلى السلالات الإنسانية فإن نفخ الروح يكون في الجنين من بعد علوقه بنحو أربعة أشهر.

أما بالنسبة إلى الإنسان الأول فما جاء بيانه في قصة خلق آدم، ومنه الشاهد الذي استشهدنا به من سورة (ص).

وأما بالنسبة إلى السلالات الإنسانية فقد أبانه الله لنا بقوله في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

فقد جاء في هذا النص ذكر المرحلة الأولى، ثم انتقل إلى بيان خلق السلالات الإنسانية بعد خلق آدم وزوجه، وأبان من أطوار هذا الخلق ومراحله تكوّن النطفة، ثم خلق النطفة علقة في أرحام الأمهات، ثم خلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاماً، فما يتبع ذلك من بناء اللحم على العظام، ثم تأتي مرحلة نفخ الروح الإنسانية التي يكون بها الجنين خلقاً آخر.

وهذه الحقائق التي ذكرها القرآن مما يخضع لإمكان البحث الإنساني قد أصبحت معروفة تماماً في الدراسات العلمية الإنسانية، وأثبت البحث العلمي الإنساني ما جاء في كتاب الله.

أما بدء خلق الإنسان الأول وخلق زوجه منه فهو لا يخضع للمشاهدة الإنسانية ولا يخضع للتجربة، فلا بد من التسليم بما جاء في كتاب الله تعالى في شأنه، وكل تفسيرات إنسانية تخالف ما جاء في الدين الصحيح فإنها تكهنات وتخرّصات ورجم بالغيب، ولا تملك أدلة صحيحة تثبتها.

* **ثامناً**: ثم بعد خلق الإنسان الأول الذكر وهو آدم، خلق الله منه زوجه، وفي بيان هذه الحقيقة قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . . . ﴿١٨٩﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٦﴾ ﴾.

وآية الزمر هذه تدل على أنه قد مرت مدة على آدم قبل أن يخلق الله منه زوجه، لأن الظاهر من حرف العطف (ثم) أنه يفيد التراخي.

ولكن لم يأت في النصوص ما يدل على الكيفية التي تم بها خلق حواء من آدم، إلا ما جاء في الحديث من أن المرأة خلقت من ضلع، أي أخرجها الله من ضلع من أضلاع آدم، كما جاء في الحديث أيضاً أن التراب الذي عجنت فيه طينة آدم قد كانت من جميع الأرض، أي من جميع عناصرها.

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر

الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك».

وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلقن من ضِلْع، وإن أعوج شيءٍ في الضِّلْعَ أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».

وروى مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها».

* **تاسعاً**: خلق السلالات الإنسانية بعد خلق الإنسان الأول وزوجه، يمر بمرحلة النطفة الأمشاج، قال الله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾.

فالله تبارك وتعالى هو خالق هذا الإنسان وموجده، ضمن سنن كونه التي جعلها سبحانه أسباباً، ويمر خلق السلالات الإنسانية بمرحلة النطفة الأمشاج، فمنها تبدأ نشأة تكوينه بعد مراحل الماء والتراب والطين والنبات والغذاء والدم.

أمشاج: أي أخلاط، ولا تسمى الأشياء المتعددة أخلاطاً ما لم تكن مختلفة الصفات مختلفة الخصائص، أما المتماثلة فإنها لا تسمى أخلاطاً وإن اجتمعت في كتلة واحدة.

وإذا سألنا علماء الأحياء عن العناصر التي تتألف منها النطفة التي يتكون منها الإنسان، جاء جوابهم بأنها أخلاط من صبغيات تحمل عوامل وراثية، وخصائص وصفات، بقدر ما يظهر في الإنسان بعد تكوينه من صفات جسدية وفكرية ونفسية.

الغاية من خلق الإنسان:

دلت النصوص على أن الغاية من خلق الإنسان في ظروف هذه الحياة الدنيا، مزوداً بخصائصه التي هو عليها، ابتلاؤه واختباره، قال الله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

فدل هذا النص على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الغاية من خلق الإنسان ابتلاؤه، وهو اختباره في ظروف هذه الحياة الدنيا.

نبتليه: أي نمتحنه ونختبره. فخلق الله لهذا الإنسان من أخلاط من الصفات الكبرى الجسدية والفكرية والنفسية، إنما كان ليضعه موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة، وفي هذا بيان كافٍ للغاية من خلقه بصفاته وخصائصه الفكرية والإرادية والنفسية والجسدية.

الحقيقة الثانية: أن الخالق لمّا خلق الإنسان للابتـلاء منحه وسائل المعرفة، ليستكمل الله له بها شروط الامتحان الأمثل، وذلك حتى يتعرف بهذه الوسائل على الأدلة التي بثها الله في كونه، وحتى يستطيع إدراك وصايا الشرائع والتعاليم الربانية التي ينزلها الله للناس، لذلك قال تعالى: ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾.

أي: لمّا كان ابتلاؤه هو الغاية من خلقه بهذا التركيب العجيب من أخلاط مختلفة، كان لا بد من تزويده بوسائل المعرفة، وأهم وسائل المعرفة التي ترتبط بها المسؤوليات هي السمع والبصر.

وبهذا البيان تنتهي تساؤلات كثيرة تدور في النفوس.

الحقيقة الثالثة: أن الخالق أودع في الإنسان الطاقة الإدراكية التي يدرك بها سبيل هدايته ورشاده، وسبل ضلاله وفساده، وأنزل له الشرائع التي تنير له

الطريق، وتوجهه لسواء السبيل، وتحذره من سبل الشر والضلال، حتى يكون على بينة من أمره، ومن مصيره الذي يكتبه لنفسه بمسيرته في حياته.

دل على هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ أي: لمّا كان الغرض من خلقه ابتلاءه، فإننا لم نتركه وشأنه من غير هداية وإرشاد، بل هديناه السبيل، وهو سبيل هدايته ورشاده وسعادته، في حياته الدنيا، وفي الحياة الأخرى.

ومن عرف سبيل الهداية، وتحددت له معالمه، وعرف أنه لا سبيل غيره، عرف أن ما عداه سبل ضلالة وغواية، وخيبة وشقاء.

فأفاد هذا النص بدلالته وبلازمها الذهني ما أفاده قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾.

الحقيقة الرابعة: بيان واقع حال الإنسان بعد ظروف الامتحان، فهو إما أن يكون شاكراً ولو شكراً ما، وإما أن يكون كفوراً، لا يقدم من الشكر ولا بمقدار ذرة من إيمان بالله وامتثال لتكاليفه. دل على هذه الحقيقة من النص قوله تعالى: ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾.

وهذا الواقع الإنساني يلازمه أمران:

الأمر الأول: أن الإنسان موضوع تحت المراقبة الدقيقة.

الأمر الثاني: أن الإنسان معرض للجزاء بالثواب أو بالعقاب، وهذه النتيجة هي التي تبرز ثمرة الامتحان، وإلا كان امتحاناً عبثاً، والله تبارك وتعالى حكيم منزه عن العبث، قال تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

— ٢ —

الإنسان كادح مكابد في هذه الحياة

دل البيان القرآني وأثبت الواقع المشاهد أن الإنسان كادح مكابد في كل ظروف هذه الحياة الدنيا، منذ نشأته حتى انتهاء أجله، وراحة الإنسان في هذه الحياة كراحة المسافر إذا حط رحله للزاد والماء، ونوم على قلق، أما طريق سفره ففيها الوادي والجبل، والسهل الوعر، والحر والبرد، والليل والنهار، والغيم والصحو، والجفاف والوحل، والخوف والأمن، والنسبة الغالبة كدٌّ وتعب.

قال الله تعالى في سورة (البلد ٩٠):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الانشقاق ٨٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

في كبد: الكبد الشدة والمشقة والضيق.

كادح: الكدح العمل والسعي بنصب ومشقة في كسب خير أو اكتساب شر. فالكادح هو العامل الساعي الذي يعاني في كدحه تذليل الشدائد، وتحمل المشقات، والخروج من المضايق.

في هذين النصين يبين الله تعالى أنه خلق الإنسان ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا في محيط من الكبد، أي في محيط من الشدة والمشقة والضيق، لذلك فهو بحاجة لتحقيق مطالبه من خير أو شر إلى الكدح، أي إلى السعي والعمل بنصب ومشقة.

وإذ خلقه الله في محيط من الكبد فهو كادح في حياته كدحاً يتحمل به آلام

المتاعب والمشقات، ومصير كدحه إلى ربه، ويومئذٍ يلقى جزاء كدحه. فإن كدح في طلب الخير ابتغاء مرضاة ربه نال ثوابه عنده أجراً عظيماً في جنات النعيم، وإن كدح في طلب الشر إرضاء لأهوائه وشهواته نال عقابه عند ربه بالعدل، وكانت النار مثواه.

حقاً لقد خلق الله الإنسان في كبد، فهو يكابد ما في هذه الحياة الدنيا من متاعب ومشقات بكدح شديد. وكدحه إما أن يكون في سبيل الخير ومرضاة الرب، وإما أن يكون في سبُل الشر والإثم والعدوان واتباع خطوات الشيطان.

إن الإنسان يمر في سلسلة من المتاعب والمشقات التي يعانيها ويكابدها منذ نشأته.

لقد كابد قبل أن يعرف نفسه اجتياز كل عقبة حوله، حتى أصبح إنساناً فعرف نفسه. كابدت جرثومته الأولى سباقاً عنيفاً بينها وبين الملايين من أشباهها، حتى استطاعت أن تشق طريقها إلى الحياة الإنسانية. وحين تطورت فأصبحت جنين إنسان كابدت مشقات السجن المحدود والقيد المشدود في بطن الأم. ولمّا تكامل الجنين ونضج وأراد الله له أن يتنسم نسيم الحياة على الأرض الواسعة كابد مشقات النفوذ من المضايق الشديدة عند الولادة. وما أن دب على ظاهر الأرض حتى أحاطت به مشقات أكثر عدداً وأشد قسوة.

وكلما تدرج في أطوار النمو عظمت أمامه العقبات، وتطلبت منه الحياة مكابدة أعظم. وكلما زادت لديه تجارب الكدح والمكابدة في مصارعة مشقات الحياة واجتياز عقباتها ومغالبة كل معارضة أو منافسة، ظهرت في نفسه دوافع جديدة تسوقه إلى مغامرات جديدة، يكابد فيها آلاماً جساماً، فهو في تطلع مستمر إلى الاستزادة، كلما انتهى به سعيه إلى جديد، ولذّله ذلك الجديد، نما في نفسه الحرص والطمع، فأخذ يكابد مشقات أخرى لتحصيل مطالب أخرى للنفس أو للفكر أو للجسد، للدنيا أو للآخرة، فهو في مكابدة مستمرة وكدح لا ينتهي إلا بموته.

هذه حقيقة مشاهدة في السلوك الدائم للإنسان، وهي التي جعلت المعري يقول:

تعب كلها الحياة فما أعـ ـجبُ إلا من راغبٍ بازديادِ

نعم، فالإنسان حريص على البقاء، ومن أجل ذلك فهو يتحمل أنواعاً من الكدح والمكابدة للحصول على الرزق، وفي مكابدته وكدحه يصطدم بعقبات كثيرة، فإن وصل إلى ما يشتهي كابد مشقات الحفظ والحماية من أيدي الظالمين، وإن لم يصل إلى ما يشتهي كابد آلام الفقد والحرمان.

وفي حياة الإنسان أنواع أخرى كثيرة من المكابدات التي يكابدها.

للحب مكابدة وكدح، وللكراهية مكابدة وكدح، وفي الجود مكابدة، وفي الشح مكابدة، وفي الصبر مكابدة، وفي الضجر مكابدة، وفي الطمع مكابدة، وفي القناعة مكابدة، وفي طاعة الله وفعل الخيرات مكابدة وكدح، وفي معصية الله وفعل الشر مكابدة وكدح.

إن معظم ظروف الحياة تتطلب من الإنسان مكابدة وكدحاً، وصدق الله العظيم: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾. ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾.

وما دام الإنسان في ظروف الحياة التي تتطلب منه أن يكون كادحاً في الخير أو في الشر، فإن العقل السديد والرأي الرشيد يوجبان عليه أن يكدح كدحاً يحقق له النجاح في الدنيا، وأكبر حظٍ من سعادة النفس فيها، ثم يحقق له مرضاة الله والسعادة الخالدة عنده يوم الجزاء الأكبر.

﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ وهم أهله في جنة النعيم.

﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً﴾ أي يدعو على نفسه بالهلاك الدائم الذي لن يحصل عليه، لما يرى من العذاب الأليم في دار الجزاء.

ـ ٣ ـ

الإنسان حيـــوان مبـــين

امتن الله على الإنسان بأنه علمه البيان، فقال تعالى في أول سورة (الرحمن ٥٥):

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾.

أي: علمه القدرة على التعبير بالكلام عمّا في نفسه من مشاعر، وعمّا في فكره من معاني.

والبيان عند الإنسان من المواهب الجليلة التي وهبه الله إيّاها، فهو الوسيلة التي يعرّف بها غيره حصائل خبراته وتجاربه، ويتعرف بها على حصائل خبرات الآخرين وتجاربهم. وهو الوسيلة التي يكشف بها الإنسان عن مطالبه وحاجاته، ومشاعر نفسه، وآلامه وآماله، وينقل بها أفكاره وعلومه للناس، ويتلقى بها أفكار الناس وعلومهم.

واللسان المبين ترجمان النفس والفكر، وعن طريقه تلتقي النفس بالنفس، والفكر بالفكر، فإذا أضيفت إليه الكتابة بالقلم اكتملت للإنسان وسائل هذا اللقاء النفسيّ والفكري، وإن لم يحصل التلاقي الجسدي، ولو تباعدت الأزمنة والأمكنة، ولو صار أحد طرفي اللقاء من الغابرين ومن أهل القرون الأولى، فباستطاعتنا على هذا أن ندخل الكتابة ضمن عموم البيان.

واللسان ترجمان الإرادة والمعبّر عنها، فالعقود بين المتعاقدين تعتمد على بيان اللسان الذي يدلّ على ما في النفس من إرادات جازمة، كعقود البيع والشركة والرهن والهبة والزواج وغير ذلك من عقود كثيرة. وكذلك حلّ العقود يعتمد على بيان اللسان، كالطلاق والعتق وإنهاء عقد الشركة ونحو ذلك.

وبهذا تظهر لنا أهمية الكلمة في حياة الإنسان، وأهمّيّة الكلمة في تعاليم الإسلام. فالالتزامات الدينية التي تحوّل الطاعات التي ليست بواجبة إلى طاعاتٍ واجبة تعتمد على الكلمة وهي كلمة النذر، والعهود والوعـود ـ وهي من

الالتزامات التي يلتزمها الإنسان تجاه غيره ـ يعتمد تثبيتها على الكلمة، وإعلان الإسلام وإعلان الكفر يعتمدان على الكلمة، فالنطق بالشهادتين يُدخل في الإسلام، والنطق بألفاظ الكفر يخرج من الإسلام.

إنّ كلمة واحدة قد تعصم من القتل، وأخرى قد تسوق إليه، وإنّ كلمة قد تدخل الجنة، وأخرى قد تدخل النار، نظراً إلى أنّ الكلمة في الأصل إنما هي تعبير عما في النفس.

روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم».

وفي وصية الرسول صلوات الله عليه بحفظ اللسان روى الترمذي عن سفيان بن عبدالله قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال: «قل: ربّي الله، ثم استقم» قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «هذا».

ولما كان الإسلام يولي الكلمة أهمية عظيمة، ولما كان من تربيته الرفيعة عنايته البالغة بصيانة لسان المسلم، نظراً إلى أنه ترجمان الفكر والنفس، وعنوان العقل، رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم في وصيته لمعاذ بن جبل يقرّر أن مِلاكَ عناصر الخير الموجبة للجنّة كفّ اللسان.

روى الترمذي بسند صحيح عن معاذ بن جبل قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقييم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج».

ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصومُ جنّة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل».

ثم تلا:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قال معاذ: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه فقال: «كُف عليك هذا» قلت: يا رسول الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: «ثكلتك أمّك يا معاذ، وهل يَكبّ الناسَ في النار على وجوههم إلّا حصائدُ ألسنتهم»؟!.

وتظهر أهمية الكلام حينما يكون تعبيراً صحيحاً عمّا في النفس، أما حشو الكلام ولغوه مما لا يحمل دلالة مقصودة فلا يحمل كل هذه الأهمية، ولكن على المسلم أن يصون لسانه عن اللغو من القول.

أقسام الكلام:

والكلام في حياة الإنسان: إمّا أن يكون ذا دلالة مقصودة، وهو الذي يعتبر الإنسان مسؤولاً عنه مسؤولية كلّية، لأنه بيان لما في النفس، أو لما يراد بيانه. وإمّا أن يكون ذا دلالة غير مقصودة، وهو اللغو من القول الذي ينطلق من لسان الإنسان بتأثير العادة، دون أن يلاحظ ما يدلّ عليه من معاني، أو يقوله الإنسان بغرض اللهو والعبث.

والكلام ذو الدلالة المقصودة: منه ما هو خير أو خيره غالب، ومنه ما هو شر أو شره غالب، أو استوى خيره وشره، ومنه ما هو مباح لا هو خير فيطلب، ولا هو شر فينهى عنه.

---

(١) الآيتان ١٦ ـ ١٧ من سورة (السجدة ٣٢).

وقد سمى الله كلمة الخير كلمة طيبة، وسمى كلمة الشر كلمة خبيثة، وضرب لكلٍ من الكلمتين مثلاً، فمثّل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، ومثّل الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، وأعلن سبحانه أن الكَلِمَ الطيب يصعد إليه.

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴿١٠﴾ ﴾.

وأشرف أمثلة الكلم الطيب كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله، فما يتصل بها من كلام يعلن تنزيه الله وتسبيحه، ويثبت كمال صفاته وأسمائه الحسنى، فما يتصل بأصول العقيدة الإسلامية.

ومن أمثلة الكلم الطيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم كل ما فيه خير ومنفعة عاجلة وآجلة، ومخاطبة الناس بقولٍ حسن، وصدق الحديث، والنصيحة بالخير، والدعوة إلى الله وإلى خير العمل.

وأضداد هذه الأمور من أمثلة الكلم الخبيث، ككلمة الكفر، وما يتصل بها، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والدعوة إلى الضلال والشرّ، والكذب المنهي عنه، والغيبة والنميمة، والسبّ والشتيمة والتعيير والتنقيص وكلّ هُجر من القول.

والكلام المباح هو الكلام الذي لا ضرر فيه، وليس فيه مصلحة تطلب شرعاً ولو على سبيل الندب، وأكثر كلام الناس في مجالسهم ومعاملاتهم من هذا القبيل.

وأمّا الكلام ذو الدلالة غير المقصودة كاللغو من القول، والكلام الذي ينطلق به اللسان بحكم العادة، كالعبارات التي يكثر استعمالها في اللسان، وتكون تكأة للحديث، وكعبارات التأكيد التي يستعملها الناس دون ملاحظة دلالاتها الحقيقية، كالأيمان التي يحلفونها في غضون كلامهم، دون أن يقصدوا توثيق ما يقولون بالحلف بالله تعالى أو بصفة من صفاته، أو باسم من أسمائه؛ فموقف الإسلام بالنسبة إلى هذا القسم من الكلام موقف الصارف عنه، الناصح بتنزيه الألسنة والأسماع منه، وما كان منه بحكم تأثير العادة فقد رفع الله المؤاخذة عنه كاللغو من الأيمان، لأنها ألفاظ غير مرادة الدلالة.

وفي هذا المجال تهزّنا إلى الكمال نصوص قرآنية متعدّدة، فمنها النصوص التالية:

(أ) يقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾.

(ب) ويقول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥) في وصف عباد الرحمن:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢ ﴾.

(ج) ويقول الله تعالى في وصف المؤمنين في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ۝٥٥ ﴾.

كل هذا بالنسبة إلى اللغو الذي يملك الإنسان دفعه أو الإعراض عنه.

أما ما يسبق إليه اللسان بتأثير العادة فقد رفع الله المؤاخذة عنه، ومن ذلك لغو اليمين، فاليمين اللغو لا يؤاخذ الله بها، ولا يوجب على من حلفها ولم يبرّ بها كفّارة، مع أنه يوصي الذين آمنوا بأن لا يجعلوا الله عرضة لأيمانهم.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴿٨٩﴾﴾.

خلاصة صفة البيان في الإنسان:

فصفة البيان في الإنسان من جلائل الهبات التي اختص الله بها هذا المخلوق الذي كرمه.

وباستطاعتنا أن نقول في تعريف الإنسان: «الإنسان حيوان مبين».

وهذا التعريف أدق وأكمل من تعريف علماء المنطق والفلسفة: «الإنسان حيوان ناطق»، لأن هذا التعريف يعطي الإنسان صفة النطق، والنطق وحده قد لا يكون بياناً لما في النفس، وإن كان مرادهم من هذا التعريف أنه حيوان يستطيع التعبير عن أفكاره، فهم يقصدون أنه مفكر معبّر، لكن كلمة ناطق قاصرة بوضعها عن هذه الدلالة، بخلاف كلمة (مبين) المستفادة من الوصف القرآني: ﴿خلق الإنسان علمّه البيان﴾ فهي بوضعها دالة على الأمرين معاً.

— ٤ —

الإنسان قابل للعلم وصنعة الكتابة

امتنّ الله على الإنسان بما فطره عليه من قابلية للعلم، وقابليةٍ للكتابة بالقلم وسيلةً لتحصيل المعارف والعلوم.

فأوّل ما بُدىء به من الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دعوة إلى القراءة، ودعوة إلى العلم، وامتناناً من الله على الإنسان بما فطر فيه من

قابليّة للعلم وصنعة الكتابة بالقلم التي يتعلّم بها كثيراً من العلوم، وذلك في قول الله تعالى لرسوله في سورة (العلق ٩٦):

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾.

ففي هذا النص نلاحظ الدلالة على ثلاثة أمور:

الأول: الامتنان بما فطر الله الإنسان عليه من قابليـة للعلم وصنعة الكتابة.

الثاني: إعلان أن رسالة الإسلام تعتمد في منطلقاتها الأولى على القراءة والكتابة وتحصيل العلم.

الثالث: تمجيد العلم وتمجيد وسائله الكبرى.

ومعلوم أنّ الرسالات الربّانية كلّها قد أنزلها الله للناس لأن الإنسان مخلوق قابل للعلم ومعرفة التكاليف الشرعية، وإدراك النصائح والوصايا الربّانية، ولولا أنّ لديه الاستعداد لذلك ما أنزل الله له رسالة أساسها العلم ووسيلتها التعلّم.

ومن تمجيد وسائل العلم أن يقسم الله بالقلم وبما يكتبه الكاتبون، وذلك في قوله تعالى في سورة (القلم ٦٨):

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾.

وقصة خلق آدم تتضمن دلالات رائعة على القابليّة العظيمة للعلم التي فطر الله الإنسان عليها. وذلك أنه لما قضت حكمة الله تعالى بأن يخلق هذا الإنسان من طين، قال للملائكة: إني خالق بشراً من طين، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. هنا رأت الملائكة أن تسأل ربّها عن هذا المخلوق المنتظر فقالوا كما جاء في المأثور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: ربّنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرّيّة يفسدون في

الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً. فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ فأجابهم الله تبارك وتعالى بقوله: إنّي أعلم ما لا تعلمون.

وأعطى الله آدم وهو الإنسان الأول استعداداً عظيماً لتحصيل المعارف والعلوم، وقدرة على استنباطها واستنتاجها، والتوصل إلى معرفة خصائص الأشياء وصفاتها عن طريق دراسة ظواهرها وآثارها، وعلّمه الأسماء كلّها، ويدخل في الأسماء صفات الأشياء وخصائصها.

ثم أراد الله تبارك وتعالى أن يثبت للملائكة امتياز هذا الإنسان بميزة المعرفة، فأقام مباراةً علمية بين الملائكة مجتمعين وبين الإنسان، وكانت مادّة المباراة أن عرض مخلوقاته على الملائكة وقال لهم: أنبئوني بأسماء هؤلاء؟.

فعجزت الملائكة وقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنّك أنت العليم الحكيم. فأعلنوا بذلك اعترافهم بعجزهم، واعترافهم بعلمه المحيط بكل شيء، وبحكمته في الخلق.

فلما اعترفوا بعجزهم قال الله لآدم: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فانطلق آدم يتدفق علماً ومعرفة بالأشياء وخصائصها وصفاتها، عندئذ قال الله للملائكة: ﴿ألم أقل لكم: إني أعلم غيب السماوات والأرض * وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.

ثم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، احتراماً لعلمه وخصائصه التكوينية المتصلة بالمعرفة.

هذه القصة القرآنية تكشف أن الإنسان يمتاز بنسبة عالية جداً من قابلية تحصيل المعارف والعلوم واستنباطها، بما أودع الله فيه من استعدادات فكرية ذهنية كبيرة. ونستطيع أن نفهم من مضامينها أن الإنسان أكثر استعداداً لاستنباط المعارف واستنتاجها من الجن ومن الملائكة، وذلك بما فطره الله عليه من خصائص فكرية عالية. وما أعطاه الله لآدم قد انتقل إلى ذريته بالوراثة، ولكن على سبيل انتقال الاستعداد الفطري، لا انتقال المعارف نفسها التي علمها الله لآدم، فمفردات المعارف لا تنتقل بالوراثة، وإنما يورث الاستعداد الفطري فقط. وحينما يولد الإنسان يكون فكره صفحة بيضاء خالية من أية معرفة، هذا

ما يثبته الواقع المشاهد، ويدل عليه النص القرآني، إذ يقول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فقول الله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ يتضمن إعلاناً عن نقطة بدء المعارف التي يكتسبها الإنسان في حياته، بعد أن كان خالياً من أية معرفة، وعندها يبدأ شريط تسجيل المعارف يتحرك، أي بعد أن يستهل الولد صارخاً عقب الولادة.

وقول الله تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ ينبه على أدوات المعرفة التي زود الخالق بها الإنسان، وأهمها السمع والبصر والفؤاد.

أما السمع والبصر فهما أهم وسائل الإدراك الحسي، وأما الفؤاد فهو مركز القوة التي تستقر فيها المعارف المكتسبة، ومما لا شك فيه أن الله تعالى لم يمنح الإنسان أدوات المعرفة إلا من أجل أن يستعملها فيما خلقت له.

وأما قول الله تعالى في آخر الآية: ﴿لعلكم تشكرون﴾ فهو إعلان عن الغاية من منحه أدوات المعرفة، ومنحه قابلية العلم والقدرة على التعلم، وتفضيله بذلك على كثير ممن خلق. فالغاية المرجوة منه عن طريق اختياره الحر الذي هو فيه ممتحن أن يشكر ربه على ما منحه وكرمه به.

وجاء الإسلام فحث الإنسان على التعلم والتعليم، وحدد مسؤوليته تجاه ما كرمه به خالقه، ودفعه إلى التعرف على حقائق الأمور، وصفات الأشياء وخصائصها، ليتابع في حياته البحث العلمي السليم، وليكتشف من أسرار هذا الكون ما يدل على عظمة خالقه، وعلى عظيم صفاته وجليل حكمته، وليتوصل إلى معرفة ما يجب عليه نحوه من طاعة وعبادة وشكر وليحسن الانتفاع مما بث الله في هذا الكون من قوى وخيرات، على الوجه الذي أذن للناس به إذناً شرعياً، دون إفساد في الأرض، أو إضرار بالأنفس، أو عدوان وظلم.

أما الذين يعطلون أدوات المعرفة التي منحهم الله إياها فلا يستعملونها فيما خلقت له، أو لا ينتفعون منها، أو يستخدمونها في حدود ظواهر الحياة الدنيا فقط، ثم لا ينتقلون من ذلك إلى معرفة خالقهم ورازقهم ومفيض النعم الظاهرة والباطنة عليهم، ولا يؤمنون به ولا يشكرونه ولا يعبدونه، فهؤلاء مجرمون ظالمون في حق أنفسهم عليهم، وفي حق الله عليهم، وأَحْرِ بهم أن يقال عنهم: صم بكم عمي فهم لا يعقلون، لأنهم بتعطيلهم أدوات المعرفة التي منحهم الله إياها هم وفاقدوها سواء، وأولئك هم شر الدواب عند الله. قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ولما كان الإنسان مسؤولاً عن استخدام أدوات المعرفة التي منحه الله إياها فيما خلقت له، حكم الله بالعذاب يوم القيامة على الذين يعطلونها فلا يتدبرون بها آيات الله، ولا يهتدون بها إلى الإيمان. دل على هذا قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

فهؤلاء لما عطلوا قلوبهم عن الفقه بما يجب عليهم أن يفقهوه، وعطلوا أعينهم عن رؤية آيات الله في كونه والانتفاع منها في معرفة صفات الله، وعطلوا آذانهم عن استماع آيات الله في كتابه والانتفاع منها في الاهتداء إلى الحق، واستماع غير ذلك من كل ما يهدي إلى سبيل الله، كانوا أضل من الأنعام، وكانوا أهل جهنم.

وسرّ كونهم أضل من الأنعام في منظار الحقيقة أن لديهم أدوات المعرفة فعطلوها عما خلقت له. أما الأنعام فإنها لم تتمتع بمنحة الأداة الكبرى للمعرفة،

وهي القوة المفكرة المدركة القادرة على فهم الأمور وفقهها، لذلك فهي غير مسؤولة عن شيء ليس لديها أداته.

ولما وضع الله الإنسان المكلف موضع المسؤولية عن كل تصرف من تصرفاته الإرادية نبه على أن المناط الأول للمسؤولية الملقاة عليه هي أدوات المعرفة التي لديه. ومن أجل ذلك كان اتباعه في الحياة ما ليس له به علم يعرض فيه هذه الأدوات للسؤال بين يدي الله للمناقشة والحساب، وهو ما دل عليه قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: لا تتبع أيها الإنسان في أي أمر من أمور حياتك ما ليس لك به علم، فإن لديك من أدوات المعرفة ما تستطيع به التبصر في الأمور؛ فإذا أنت اتبعت ما ليس لك به علم فقد عطلت أدوات المعرفة التي لديك، لذلك فلا بد أن تكون هذه الأدوات مسؤولة عن تأدية وظائفها الفطرية، أي لا بد أن تكون أنت المسؤول أيها الإنسان، لأن هذه الأدوات جزء من كيانك، وعملها أو تقصيرها وإهمالها تابع لإرادتك.

ونستطيع أن نتصور مشهد الإنسان الذي عطل أدوات المعرفة التي وهبه الله إياها، إذ يؤتى به يوم القيامة، ويتوجه السؤال له عن طريق أدوات المعرفة التي لديه.

فيقال لسمعه: ألم تأتك أنباء المرسلين؟ ألم تسمع كلام الله؟ ألم ترشدك النصائح والنذر؟ فكيف اتبعت ما ليس لك به علم من وساوس الشياطين؟!.

ويقال لبصره: ألم تشهد آيات الله في خلق الإنسان؟ وآياته في خلق الأرض؟ وآياته في خلق السماء؟ وآياته في تدبير خلقه وتصريف مقاديره؟ فكيف اتبعت ما ليس لك به علم من مغريات الحياة الدنيا وزخرف أقوال المضلين؟!.

ويقال لفؤاده: ألم تستنتج مما لديك من معارف ما يكفيك للإيمان بربك،

والقيام بواجب شكره، واتباع رسله والتزام شريعته التي أنزلها لعباده؟ كان بإمكانك أن تستنتج ذلك؟ فكيف اتبعت ما ليس لك به علم من ضلالات الأهواء ووساوس الشياطين؟!.

ومن أجل ذلك حث الإسلام على التعلم والتعليم، ودفع الإنسان إليهما دفعاً قوياً، وعمل على غرس وتنمية الدوافع الذاتية في المسلمين، التي تدفعهم بقوة إلى التعلم والتعليم، على مقدار استطاعتهم الفردية والجماعية. كما أخذ بتغذية ميل الإنسان الفطري لمعرفة ما يجهل، واستخدام كل وسيلة إنسانية مستطاعة لإبلاغ هذا الميل إلى مرتبة الشغف بالعلم، والتلهف المستمر لمتابعة المعرفة الشاملة لكل ما في الوجود من حقائق وسنن مادية وقوانين مجردة.

ولا يعرف العالم رسالة تدفع إلى العلم والتعلم والتعليم مثل رسالة الإسلام، ويشهد لهذا النصوص الإسلامية، وواقع النهضة العلمية التي حملها المسلمون الأولون، وعبدوا فيها للناس طريق المعرفة، وذلك قبل أن تصاب المجتمعات الإسلامية بالركود فالتقهقر بسبب انحرافهم عن منهج التعاليم الإسلامية.

ومن النصوص الدالة على هذه الحقيقة ما يلي:

١ ــ بدء الوحي بالأمر بالقراءة والتعلم.

٢ ــ قال الله لرسوله في سورة (طه ٢٠):

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

٣ ــ مجّد الله العلماء، وجعلهم شهداء على ألوهيته ووحدانيته وعزته، وحكمته وقيامه بالقسط.

فقال الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

٤ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة».

٥ ـ وفي الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً».

٦ ـ وفي الصحيح أيضاً: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أوعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

٧ ـ وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

٨ ـ ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع قال فيما رواه البخاري عن أبي بكرة: «ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه» أي أكثر فهماً واستيعاباً لمعاني ما يبلغه من الذي سمعه مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم.

٩ ـ وروى الترمذي عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نضّر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فربّ مبلِّغ أوعى من سامع».

ـ ٥ ـ
الإنسان أكثر شيء جدلاً

وصف الله الإنسان بأنه أكثر شيء جدلاً، وهذا يدل على مبلغ قدرته على الحيلة الفكرية، التي تمكّنه من أن يجادل بالحق أو بالباطل، ويكر ويفر ويراوغ في المجادلة.

قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

فهذه الآية تدل على أن الله تبارك وتعالى قد صرّف في القرآن الكريم لهداية الناس إلى الحق والخير من كل مثل، لئلا يدع لأي إنسان مهرباً جدلياً ينسل منه إلى الباطل الذي يجد لديه هوى نفسه، إذ يحاور ويداور في جدالٍ هو فيه أقدر كائن خلقه الله.

فقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ بمثابة التعليل لما جاء في صدرها. أي ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل لأن الإنسان أكثر شيء جدلاً.

صرّفنا: أي بينا وأوضحنا. والتصريف هو التبيين، ويتضمن التصريف معنى التنويع بإيراد أنواع وأشكال مختلفة من وجوه البيان. فتصريف الرياح جعلها ضروباً من أجناس، وتوجيهها.

من كل مثل: أي من كل حجة مماثلة فيما تقدمه لأصول الهداية التي هدى إليها القرآن. فمثل الشيء هو شبيهه ومساويه ومكافئه في صفته، أو في دلالته، أو في مقداره.

ولمّا كان الغرض من الإتيان بالحجج وضرب الأمثال تقديم صور فكرية مسلم بها، مماثلة ومساوية للصور الفكرية غير المسلم بها، للاقناع بصحتها،

صح أن يطلق عليها أمثال. فمن سلَّم بمثل الشيء لزمه أن يسلم بالشيء نفسه، وبذلك تكون الحجة البينة.

ولإقامة الحجة على الناس وتقريب الحقائق إلى أذهانهم يضرب الله الأمثال لهم.

وكل صورة كلامية تقدم شبيهاً مساوياً ومكافئاً لما يراد بيانه أو تثبيته وتوكيده فهي مثل.

والداعي لتفسير المراد من المثل هنا بالحجة، كون الغاية من التصريف إقامة الحجة على الإنسان الذي هو أكثر شيء جدلاً، بالبيان الجدلي، والبيان الجدلي هو الحجة التي يقدمها صاحب البيان.

لماذا كان الإنسان أكثر شيء جدلاً؟

والسبب في كون الإنسان أكثر شيء جدلاً أن القدرات الفكرية التي زود الله الإنسان بها، قد مكنته من استخدام حيل كثيرة، تعتمد على الإظهار والإخفاء، والمراوغة والمخادعة بمكر عظيم، فهو بذلك قادر على أن يكون طويل النفس في المجادلة بالحق أو بالباطل. يضاف إلى ذلك قدرات النطق والتعبير التي زوده الخالق بها، والتي يستطيع بها تصريف كلامه في كل باب من أبواب القول بالحق أو بالباطل.

وحين تدفعه أهواؤه الجامحة وشهواته الجانحة إلى تجاوز دوائر الحق والعدل والخير والفضيلة، ويظل مع ذلك حريصاً على أن يظهر أمام الناس بمظهر الكمال، تتولد عنده الرغبة الشديدة بأن يثبت سلامة تصرفه، وصحة منهجه في الحياة، فيلجأ إلى خطة التزيين والتبرير بالباطل، فإذا وجد مخالفة أو معارضة لجأ إلى خطة الجدال، وفي الجدال يصنع ما يصنع المقاتل راغباً بالانتصار على خصمه، لا حريصاً على الوصول إلى الحق بالمناظرة الشريفة العفيفة.

ولقد عرف الإنسان منذ نشأته الأولى المداورة والمحاورة في القول، ومرن على الجدال مهما اختلفت مستويات ثقافته، لأنه يرى في الجدال منفذاً ينفذ منه

إلى إقناع الآخرين بالحق أو بالباطل، ليستجيبوا له أو ينصروه، وبذلك يتغلب على خصمه المخالف له.

وكثير من الناس يجادلون بالباطل وهم يعلمون أنهم مبطلون، ويرون الجدال باباً ينفذون منه إلى تغطية باطلهم، وإلباسه ثوب الحق، وهؤلاء يحتاجون في جدالهم إلى الإمعان في الحيلة والمكر، وإخفاء ما يكشف باطلهم، وتزوير ما يظهر أنهم أصحاب حق، فيحشدون كل طاقاتهم في الجدال المشحون بالحيل المختلفة الفكرية والقولية؛ لإقناع الآخرين بأنهم أصحاب حق، حتى يفعلوا ما يشتهون من ظلم وعدوان، وهم يسترون أنفسهم بأثواب الاستقامة المزورة.

تاريخ الإنسان في الجدل:

ونلاحظ في تاريخ الإنسان أنه ما من رسول أرسله الله إلى قوم إلا جادلوه بالباطل جدالاً عنيفاً، دل على هذا قول الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

فدل هذا النص على أن كل أمة همت برسولهم ليأخذوه، وأن كل أمة جادلوا رسولهم بالباطل ليدحضوا به الحق.

وأخيراً جادل مشركو العرب رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم في آيات الله البينات، وأصروا على كفرهم، وبالغوا في عنادهم، وفيهم يقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) ﴾.

كثرة جدل الإنسان في الكم والكيف:

أما الكثرة الجدلية التي يتمتع بها الإنسان فهي كثرة في الكم وكثرة في الكيف.

والكثرة في الكم يمثلها عرض الحجة الواحدة بعدد وفير من أساليب القول، والإنسان يفعل ذلك طمعاً بأن أسلوباً كلامياً منها قد يؤثر فيمن يجادله.

والكثرة في الكيف يمثلها كثرة الأنواع والصور الفكرية التي يجادل الإنسان فيها، أو يستخدمها في جداله، ومن ذلك أن يجادل الإنسان فيما له به حجة، وفيما ليس له به حجة أو شبه حجة، أو رائحة دليل.

وقد يتمسك بما هو ظاهر الفساد والبطلان، لأن له هوى في ذلك، ويحاول بكل وسيلة جدلية أن يقلب الباطل حقاً والحق باطلاً، وأن يتظاهر بأن الحق في جانبه، مع أنه لا دليل له إلا الكذب وزور القول.

قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) ﴾.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ﴾.

فهذان النصان يدلان على أن من الناس من يتجاوز في جداله كل الحدود

المقبولة عند العقلاء ولو على سبيل الشبهة، وهذه كثرة كيفية في الجدال لا نظير لها عند غير الإنسان.

ومن ذلك مجادلة عادٍ رسولهم هوداً عليه السلام، في أصنامهم التي يعبدونها من دون الله، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ومن ذلك أيضاً مجادلة منكري البعث بعد الموت، وجاحدي البعث بعد فناء الأجساد، شكاً بقدرة الخالق على إعادة الخلق، مع الاعتراف بأنه سبحانه قد بدأ الخلق اختراعاً وإبداعاً، ومع وضوح الدليل القاضي بأن الإعادة مثل البدء، بل الإعادة أهون في نظر الناس من البدء على غير مثال سبق. قال الله تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

خصيم: أي كثير الخصومة والجدال بالباطل.

مبين: أي واضح الخصومة والجدال، أو قادر على تزيين كلامه ببيان من زخرف القول.

وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾.

الباعث على الجدال بالباطل:

ومن البواعث للإنسان على الجدال بالباطل اتباعه أهواء نفسه وشهواتها، وإرادته تغطية ذلك بحجة كلامية مزورة، وقد يعلم في داخل نفسه بطلان ما يقول، وهذا الباعث النفسي قد كشف الله عنه بقوله في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾.

أي يريد الإنسان الانطلاق الفاجر الواسع في الشهوات واتباع الأهواء، فينكر يوم القيامة، وينكر الجزاء، ويجعل قصة الحياة قاصرة على هذه الحياة الدنيا، ويجادل بالباطل.

جدال الإنسان ربه يوم القيامة:

ومن أغرب مظاهر الجدل عند الإنسان وأفحشها مجادلته ربه يوم القيامة، مع المكابرة في إنكار أقوى الأدلة التي تتوجه ضده.

فالمشركون يعرضون على ربهم يوم الحساب، فيحاسبهم على شركهم، ويقول لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟.

فيحلفون له أنهم ما كانوا مشركين، ويجادلونه لإنقاذ أنفسهم بالكذب، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق أيديهم وأرجلهم فتشهد عليهم بما كانوا في الحياة الدنيا يكسبون من أعمال، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

وهكذا يصل الإنسان في جداله إلى هذا الحد من الوقاحة والمكابرة التي لا تجديه شيئاً.

وجاء في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم تفصيل هذا الذي أوجزه القرآن، فعن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار، فيقول الله له: ما صنعت فيما أرسلت إليك؟

فيقول: يارب، آمنت بك، وصدقت برسلك، وعملت بكتابك.

فيقول الله له: هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك.

فيقول: يا رب لا أقبل ما في هذه الصفيحة.

فيقال له: هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك.

فيقول: ولا أقبلهم يا رب، وكيف أقبلهم ولا هم من عندي ولا من جهتي؟!.

فيقول الله تعالى: هذا اللوح المحفوظ أم الكتاب قد شهد بذلك.

فقال: يارب، ألم تجرني من الظلم؟.

قال: بلى.

فقال: يا رب لا أقبل إلا شاهداً علي من نفسي.

فيقول الله تعالى: الآن نبعث عليك شاهداً من نفسك.

فيتفكر من ذا الذي يشهد عليه من نفسه؟؟!.

فيختم على فيه، ثم تنطق جوارحه بالشرك، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيدخل النار، وإن بعضه ليلعن بعضاً، يقول لأعضائه: لعنكنَّ الله، فعنكن كنت أناضل.

فتقول أعضاؤه: لعنك الله، أفتعلم أن الله يُكْتَم حديثاً؟.

فذلك قوله تعالى: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾».

مقارنة بين جدل الإنسان وجدل غيره:

ولدى مقارنة جدال الإنسان بأعظم أمثلة جدال غيره يتبين أنه أكثر شيء جدلاً.

وقد عرض القرآن أعلى صورتين جدليتين لصنفين آخرين من مخلوقاته المدركة الناطقة.

الصورة الأولى: صورة جدال صدرت عن الملائكة، وهي لم تتجاوز أدنى صور الاعتراض الخفيف، الآتي بصيغة سؤال، وهي ما أخبرنا الله عنه بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ثم أقام الله للملائكة الدليل الحسيّ على امتياز هذا الإنسان، ثم أمرهم بالسجود لآدم، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين.

وانتهت الصورة الجدلية بإذعان الملائكة وخضوعهم خضوعاً تاماً.

وتكاد هذه الصورة لا تذكر في الجدل أمام جدل الإنسان، رغم أنها أكثر ما ظهر من الملائكة.

الصورة الثانية: صورة جدال إبليس، وهو من الجن، وهو أقدر مجادل

فيهم وذلك أنه لمّا رفض السجود لآدم، وكان داخلاً في صفوف الملائكة وشمله أمر السجود لأنه كان قداعتبر نفسه واحداً منهم، وسأله ربه عن سبب رفضه أن يسجد، جادل ربه فقال له: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، زاعماً أن النار أشرف عنصراً من الطين، وأنه ليس من الحكمة أن يسجد من كان أشرف عنصراً لمن هو أدنى منه في شرف العنصر، فلعنه الله وطرده من رحمته، وقال له: اخرج منها مذؤوماً مدحوراً، أي اخرج من رحمتي، وقال له: فاخرج منها فإنك رجيم.

قال الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ورغم تمادي إبليس في مجادلته ربه، فإن مجادلته لا تصل إلى مستوى مجادلة الإنسان التي نلاحظها فيه، والتي سبق ذكر بعض أمثلتها.

ومن أجل ذلك كان الإنسان أكثر شيء جدلاً.

ولما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً أكثر الله في القرآن الكريم من المناقشات والبيانات وضرب الأمثلة، والترغيب والترهيب، وإقامة الحجج والبراهين لإلجاء الإنسان إلى قواعد الحق والهداية، ولئلا يجد مهرباً يزوغ منه بجدله القادر عليه بالفطرة ويكون له به عذر. قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

موقف الإسلام من الجدال:

لما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً، كان موقف الإسلام بيان واقعه هذا، بوصفه فطرة من الفطر الربانية، مع اتخاذ الوسائل الكفيلة بتهذيبه، للاستفادة من الخير الذي قد ينجم عنه، وتفادي الشر الذي قد يفضي إليه، فنهى عن الجدال بالباطل، ونهى عن الجدال في أمور الدنيا إلا عند الضرورة، خشية أن يورث الأحقاد والضغائن. وأوصى بالجدال بالتي هي أحسن للتعريف بالحق الذي أنزله الله على رسله.

قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (النحل ١٦):

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

وخاطب الله المؤمنين بقوله في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي فإن سلك مجادلوكم مسالك غير مهذبة القول فتقيّدوا أنتم بكلّ قول مهذّب، واسلكوا كلّ طريقة هي أحسن وأفضل.

وقوله تعالى: ﴿إلاّ بالتي هي أحسن﴾ يشمل الأساليب الفكرية والأساليب القولية، وبهذا يتبيّن لنا أنّ المطلوب من المسلم أن يكون في مجادلته على حالة أرقى وأحسن باستمرار من الحالة التي يكون عليها من يجادله، أدباً وتهذيباً، أو قولاً وفكراً.

هذا هو المنطق العام للمنهج الذي رسمه الإسلام للمسلمين في جدالهم، حينما تدعوهم ضرورة التعريف بالحق إلى اتخاذ وسيلة الجدال.

— ٦ —

الإنسان مخلوق ضعيف

وصف الله الإنسان بأنّه خُلِق ضعيفاً، وبأنه خُلِق من ضعف.

ومن أجل ذلك كلّفه الله مراعياً ضعفه، ووضعه موضع المسؤولية والمؤاخذة مع مراعاة الواقع فيه، وفتح له أبواب العفو والغفران والتوبة مراعاةً لهذا الواقع فيه، وخفّف عنه التكاليف لذلك.

وضعف الإنسان يشمل الضعف الجسدي، والضعف النفسي، وضعف العزيمة والإرادة، وضعف القدرة على الضبط الدائم تجاه دوافع نفسه وغرائزه وشهواته وأهوائه.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨ ﴾.

فقد جاء هذا النص في سياق الإذن بالتزوّج من الإماء، عند عدم القدرة على التزوّج من الحرائر، وذلك تخفيف من الله على المسلمين في شريعته، لأن الإنسان خلق ضعيفاً، ومن ضعفه أنّ إرادته قد لا تستطيع ضبط نفسه تجاه شهوته الثائرة، حينما يكون بحاجة جسدية إلى الزواج.

أمّا الذين يتبعون الشهوات من أهل الكفر، فيريدون من المسلمين أن يميلوا ميلاً عظيماً عن شرائع الله، حتى ينطلقوا في ارتكاب ما حرّم الله من الزنى وسائر محرّمات الفروج.

فالإذن بالزواج من الإماء تخفيف من الله في التشريع على ذوي الحاجات، مراعاة لواقع حال الضعف الإنساني، لأنّ الإنسان خُلق ضعيفاً.

وقال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ

يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص يبيّن الله تبارك وتعالى أنه قد خفف عن المسلمين في النسبة العددية التي يجب أن يواجهوا بها عدوهم إذ كان على المؤمنين في أول الأمر أن يصمدوا لعشرة أضعافهم، فخفف الله ذلك عنهم، فجعل وجوب الصمود مرتبطاً بكون العدوّ ضعف عددهم فما دون ذلك. وهذا التخفيف قد راعى الله فيه واقع حال ضعف جمهور المسلمين، إذ ليسوا جميعاً على مستوى إيمان وقوة كبار أصحاب رسول الله ﷺ. ولو كانوا جميعاً كذلك لظلت نسبة قوّتهم تزيد على أن المئة منهم تعادل الألف من عدوهم، وبذلك يغلبون أعداءهم. لكن الله قد علم أنّ فيهم ضعفاً فخفّف عنهم إلاّ أنه لم يسمح لهم بأن يضعفوا عن مواجهة ضعفهم.

وقال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فهذه الآية تدلُ على أنّ خلق الإنسان قد كان من ضعف، أي من عنصر الضعف لا من عنصر القوة، وما خلق من ضعف فلا بدّ أن تستمر فيه جذور الضعف، ولو مُنح شيئاً من القوة بعد ذلك. فأصلُهُ الضعف والشيء يرجع إلى أصله، وتنزع فيه باستمرار عوامل أصله. والقوة القليلة المحدودة التي يملكها حينما يبلغ مرحلة النضج في تكوينه لا تزيل جذور الضعف في أعماق نفسه، فعناصر الضعف الكثيرة فيه لا تفارقه.

وهذه الآية تصف الأحوال النسبيّة والأطوار التي يمرّ بها الإنسان في حياته، فهو قد خُلق من ضعف، ثم جعل الله فيه شيئاً من القوة النسبيّة التي تتدرج

متصاعدة حتى يبلغ كمال نضجه، ثم تدركه سنّة الله في خلقه فتتناقص لديه هذه القوة تدريجيّاً، حتى يصل إلى حالة ضعف الشيخوخة والهرم، إذا كان من المعمّرين، أو توافيه منيّته قبل ذلك.

مظاهر ضعف الإنسان:

وعناصر ضعف الإنسان تظهر في جسده، فَرُبَّ جرثومة لا يدركها الطرف قتلته أو جعلته طريح الفراش، يصرخ ويصيح، ويتلوّى من شدّة الألم، ولربّما أسرع لنجدته أمهر الأطباء، وجلبوا له ما ملكوا من دواء، فما استطاعوا أن يشفوه ممّا نزل به من داء، أو يصرفوا عنه ما حلّ به من بلاء.

وربّ جرعة سمّ قتلته وهو في أوج قوته، وربّ إبرة أصابت منه مقتلاً فسقط صريعاً، ورب ريح باردة أقعدته أو قتلته، ورب لفحة سموم فعلت فيه مثل ذلك.

وعناصر ضعف الإنسان تظهر في نفسه وفي سلوكه الإرادي، فرب نظرة حلوة ملكت قلبه وهواه، وأسرته وهو في عنفوان قواه، ورب شهوة أخضعته وأذلته، وفي دار معرة وهوانٍ أحلته.

إذا عض عليه الجوع أو العطش تضجر، وإذا مرت الساعات على غير ما يهوى تذمر.

إذا مسه الشر كان من ضعف صبره جزوعاً، وإذا مسه الخير كان من ضعف إرادته عن مقاومة شحه منوعاً، فهو ضعيف هلوع.

ربما اضطرب لحدث طارىء يكرهه، وهو الذكي الألمعي، فغشي على بصره وبصيرته وسائر حواسه، فصار لا يميز بين الأضداد، ولا يفرق بين الصاد والضاد، واختلط عليه الحاسر والمسبل، والمدبر والمقبل، والقاعد والقائم، والصاحي والنائم، وجمع الثلاثتين تسعاً، والخمستين سبعاً.

وربما اضطرب لحدثٍ طارىء يحبه، ومفاجىء مسعد يفرحه، فحدث له مثل ما سبق، ولربما جن أو صرع.

أفلا يدل كل ذلك على أنه خلق من ضعف، وخلق ضعيفاً، وعلى ان عناصر الضعف لا تفارقه، وعلى أن جذور الضعف متغلغلة في أعماق جسده ونفسه؟.

وتظهر في الإنسان حالات ضعفه إذا نقص عنه الغذاء ففقد قوة الحركة وقوة العمل وقوة التفكير، وإذا شعر أنه بحاجة إلى رغيف الخبز وشربة الماء. وإذا علم أنه ربما انسد من مسالك جسمه مسلك فهلك أو كاد، وربما تخثرت نقطة دم فيه فقتلته، أو انفجرت نقطة دم في دماغه فأهلكته، أو سدت ذرّة تراب عرقاً أو مجرى من مجاري عروقه فأقضّت مضجعه، أو جاءته سكتة قلب فصرعته.

وتظهر في الإنسان حالات ضعفه إذا نزل به المرض، أو حلّ به البلاء، أو فاجأته المصيبة، أو استبد به الهوى، أو استولت عليه الشهوة، أو تمكن منه سلطان الحب الآسر، والشغف القاهر، أو داهمته المزعجات، أو حلت به المؤلمات، أو هزه الخوف، أو اشتد به الطمع، أو تعرض لأحوال النسيان والخطأ، أو عجز عن الصمود تجاه الإكراه بقوة فوق قوته.

وحسب الإنسان ضعفاً أنه عرضة لأن ينسى بعد العلم، ويجن بعد العقل، ويمرض بعد كمال الصحة، ويشيخ ويهرم بعد الشباب، وأنه لا بد أن يموت بعد الحياة، فليعرف قدره، وليقف عند حده، وليعبد ربه، حتى يأتيه اليقين الذي هو الموت.

الإنسان ضعيف ومغرور بنفسه:

ومن العجيب في هذا الإنسان أنه ضعيف التكوين ويتجبر، مهين الأصل ويتكبر، وكم تقع الغشاوة على بصيرته فلا يرى ضعفه الدفين، وينسى أصله المهين، فإذا شعر بأنه قد ملك شيئاً من القوة استعلى بها، وسعى في الأرض ليفسد فيها، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

ومعظم الناس يأخذهم الغرور بأنفسهم، متى لمسوا منها جانباً من جوانب

القوة، وينسون ما هم فيه من ضعف داخلٍ فيهم ومحيط بهم، وأن القوة التي يلتمسونها من أنفسهم محدودة في الزمان والمكان والكيفية والحال.

وسبب غروره بنفسه أنه مع ضعفه واسع الحيلة بما وهبه الله من فكر، فهو يستطيع بحيلته ـ ضمن قوته القليلة المحدودة المحاطة بالضعف الكثير ـ أن يستخدم قوى هائلة ضخمة، كامنة فيما خلق الله من أشياء في هذا الكون. وهذا ما يجعله ينسى ما هو فيه من ضعف، ويغتر بما لديه من حيلةٍ تعتمد على فكر ثاقب وفهم لخصائص الأشياء، ومعرفةٍ بكوامن القوة في الوجود، وقدرة على إدراك مفاتيح القوى، والوصول إلى استخدامها بأيسر القوى المادية التي يملكها.

وسبب غروره بنفسه أيضاً أنه مع شعوره بضعفه الجسدي أمام مخلوقات كثيرة من حوله، يدرك أنه بقوة حيلته يستطيع أن يطوع هذه المخلوقات لإرادته، ويستخدمها في مصالحه، ويسخرها لأغراضه، ويدرك أنه يستطيع بذكائه أن يسلط القوى على القوى، وأن يصل إلى مغامز القوى فيحركها على ما يريد. إنه يعلم أن قوته أضعف من الجبال والبحار والرياح، إلا أنه ما يزال يحتال بكل وسيلة لاستخدام قوى هذه الأشياء ذات القوى الكبيرة في مصالحه وأغراضه، ضمن نظام التسخير الرباني الذي فطرت عليه، إذ سخرها الله للإنسان، ومكّنه من الانتفاع بها.

فمن المعلوم أن استخدام القوى الكبيرة الكمينة في الكون لا يحتاج إلى قوة جسدية كبيرة يبذلها الإنسان، ولكنه يحتاج إلى قوة كبيرة من الفهم، وسلسلة من التجارب والاختبارات، لكشف سلسلة الأسباب المؤثرة ببعضها، ومعرفة القوانين والسنن الربانية التي فطر الله الأشياء عليها، حتى يباشر الإنسان منها ما تتمكن قوته الجسدية من استخدامه، وهكذا يتسلسل الإنسان مع الأسباب، ويستخدم القوانين والسنن، حتى يفعل الأعاجيب في الكون.

وهذا ما يجعل الإنسان يغتر بنفسه، وينسى ربه، ويمشي في الأرض مرحاً مختالاً، ويزعم أنه ملك مفاتيح قوى الكون، ويقف عند ظواهر الأسباب، زاعماً

أن قواها من طبيعتها الذاتية، فيجحد مَنْ خلقها ووهبها طبائعها، وهو من ورائها يمدها بالبقاء، ويمسكها أن تزول وتعود إلى أصلها الغارق في بحر العدم.

لكن الله بحكمته العظيمة لا يدع الإنسان ينطلق بغروره دون أن ينزل به ما يوقظه من غفلته، ويشعره بأنه ضعيف عاجز، تقتله الحشرة، وتقعده الجرثومة التي لا يدركها الطرف، وتبكيه الحاجة، وتذله المصيبة، ويخضعه الألم، ويوهنه الخوف، ويستخفه الطمع، ويهوي به الهوى، ويقضّ مضجعه الحب. وهكذا تتقاذفه في حياته أحوال شتى، تكشف له أنه مخلوق ضعيف، مهما كان باستطاعته أن يسخر قوى هائلة في الكون من حوله، ولولا أن الإنسان تحيط به أمور كثيرة تشعره بعجزه وضعفه دائماً، لعلا واستكبر، وطغى وتجبر، وادعى الربوبية، وعتا في الأرض ونشر فيها الفساد. لكن الأحداث تشعره بضعفه دائماً، فتنكسر نفسه، وتلين قناته، وقد يرده شعوره هذا إلى الإيمان بربه والخضوع له، وهذا مشاهد في أحوال الناس جميعاً على اختلاف شعوبهم وأزمنتهم وأمكنتهم.

ومن عرف واقع حال الضعف في نفسه حق المعرفة وراقب ذلك في كل أحواله، لم يأخذه الغرور بنفسه، ولم يدفعه أن يركب الحماقة، ويغامر في الشرور متجبراً متكبراً، هذا إذا كان عاقلاً حصيفاً، ومجرباً حكيماً.

مراعاة الشريعة الإسلامية لواقع حال ضعف الإنسان:

وإذ خلق الله الإنسان ضعيفاً، فقد قضت حكمته عزوجل أن يراعي هذا الواقع فيه، في أحكامه وشرائعه لعباده، وفي أصول وقواعد محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وفي وسائل تربيتهم وتعليمهم.

فنزلت الأحكام الربانية والتكاليف الشرعية ملائمة لهذا الواقع، فمنها ما سبق بيانه.

ومن أجل ذلك رفع الله المسؤولية عن الإنسان في الأحوال التي يضعف عن مقاومتها، أو لا يملك دفعها عن نفسه، كالعدل في الحب الذي لا يملك الإنسان السيطرة عليه، وكالخطأ والنسيان اللذين لا يستطيع تفاديهما، وكالإكراه الذي لا يستطيع تحمل نتائجه.

ومن أجل ذلك كانت عقوبة الزاني غير المحصن أخف من عقوبة الزاني المحصن، مراعاةً لكون الأول أضعف مقاومة من الثاني، وكانت عقوبة الأمة إذا زنت بمقدار نصف عقوبة الحرة إذا زنت، لأن الإماء أضعف مقاومة من الحرائر، لتعرضهن للخدمة ومخالطة الرجال والبروز أمامهم دون حجاب.

ومن أجل ذلك فتح الله للإنسان أبواب التوبة، وأطمعه بالعفو والغفران إذا هو تاب واستغفر وأصلح، لأنه بسبب ضعفه أمام أواسر أهوائه وشهواته ومطالب جسده ونفسه قد يسقط في الخطيئة ويعصي ربه.

— ٧ —

إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى

من ظواهر السلوك الإنساني التي قررها القرآن أنه يطغى إذا رأى أنه استغنى، وهذه الظاهرة مشاهدة في الواقع الإنساني بنسبة غالبة جداً، قال الله تعالى في سورة (العلق ٩٦):

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾.

وهذا حكم على الجنس، والحكم على الجنس لا يعني استغراق جميع أفراده.

ليطغى: الطغيان في اللغة هو تجاوز حدود الحق والعدل، أو الخير والمصلحة والمنفعة، أو مستوى الأمر الحكيم.

تقول: طغى البحر، إذا هاجت أمواجه. وطغى الماء، إذا ارتفع وعلا عن حده النافع فأغرق وأتلف.

هذا في الأشياء المادية، ويقال نظير ذلك في الأشياء المعنوية.

فتقول: طغى فرعون، إعراباً عن ظلمه وعتوه وجبروته.

وتقول: طغى قطاع الطريق، إذا اشتد بأسهم، وكثر ظلمهم وسلبهم للناس، وعظم فسادهم في الأرض.

وتقول: طغى الكافر، إذا أمعن في جحوده لخالقه ومعصيته أوامره ونواهيه.

فدلالة مادة (طغى) متشابهة، سواء أطلقت على الأشياء غير ذات الحياة، أو على الأشياء الحية المريدة، وسواء أطلقت على الأشياء المادية أو المعنوية.

استغنى: الاستغناء هو في الأصل امتلاك الأشياء التي تجعل مالكها غنياً بها عن غيره، غير محتاج إلى أحد.

وهذا الاستغناء يكون بالمال، ويكون بالقوة والسلطان، ويكون بالعلم ويكون بالصحة والعافية، ويكون بالأتباع والأنصار، ويكون بامتلاك كل ما يُحتاج إليه. ويكون الاستغناء عن الشيء أيضاً بعدم الحاجة إليه أصلاً.

والاستغناء قد يكون حقيقياً، وهو لله تعالى وحده، فالله عزوجل هو الغني في ذاته بصفات الكمال، وهو المالك لكل شيء، وهو الغني في ذاته عن كل شيء من دونه.

وقد يكون الاستغناء شعوراً نفسياً كاذباً يراه الإنسان لنفسه، وهو في حقيقة حاله فقير لربه، محتاج إليه في كل مطلب من مطالبه، وقد جعله الله محتاجاً لأشياء كثيرة، والله وحده هو الذي يخلقها ويهيئها له، ضمن سننه في كونه، قال الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

فليس خلق الله للناس عن حاجة به إليهم، لأنه غنيٌ عنهم وعن عبادتهم له، ولكنه خلقهم بفيض نعمته ورحمته، بيد أنهم هم الفقراء إليه في أصل وجودهم، ثم في إمدادهم بالبقاء وبأسبابه، ثم في كل حاجات نفوسهم وقلوبهم وأفكارهم وأرواحهم وأجسامهم.

فشعور الإنسان بالاستغناء وهو غارق في الفقر إلى الله عزوجل شعور

فاسد، مستند إلى وهم كاذب، وهذا الشعور لا يكون لدى المؤمنين الصادقين المراقبين لربهم.

وفي قول الله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ بيان لصفة غالبة من صفات هذا المخلوق الحي، ذي الفكر والإرادة الحرة، ونوازغ الأهواء والشهوات، ودوافع النفس وغرائزها، والميل الوجداني نحو الخير والحق والفضيلة.

إن هذه الصفة صفة شرطية، إذ ليس كل إنسان طاغياً بالفعل، ولكن من رأى أنه استغنى طغى، ولزوم الطغيان للشعور بالاستغناء في مركب هذا الإنسان يكاد يكون قاعدة مطردة.

فالإنسان الذي لا يوقظه الشعور بفقره الدائم لربه، وحاجته إلى عطائه ومعونته وحمايته في دار الابتلاء وفي دار الجزاء، متى رأى نفسه استغنى بشيء من الأشياء طغى في حدود ذلك الشيء الذي رأى أنه استغنى به.

فإذا رأى أنه استغنى بقوته وأنصاره وجنوده طغى في الناس وظلم، وامتدت مطامعه امتداداً مفرطاً، ثم لا يجد معارضة في طريقه تمنعه من تلبية مطالب مطامعه إلا سحقها بعنف وقسوة، دون أن يختلج بالرحمة فؤاده، أو تلين بالشفقة نفسه.

وإذا رأى أنه استغنى بماله طغى طغيان تبذير وإتلاف في الترف، وفي إرضاء أهوائه وشهواته، وفي التفاخر وإذلال الناس والاستعلاء عليهم، وفي غير ذلك من مطالب نفسه. وطغى أيضاً طغيان إمساك وبخل في منع المستحقين من الفقراء والمساكين وذوي الحاجات.

وإذا رأى أنه استغنى بعلمه ومعارفه أخذه طغيان الكبر والعجب والصلف، فيحتقر هذا، ويزدري هذا، ويلمز ذاك، ويشنع على آخر، ويكون ديدنه السخرية اللاذعة، والتهكم الدنيء، وهكذا.

أليست هذه الصفة مشاهدة في الناس، إلا في الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخافوا مقام ربهم ونهوا نفوسهم عن الهوى؟

إن أحدهم كلما شعر بالاستغناء استعلى واستكبر وطغى، وكلما شعر بالحاجة والافتقار خضع والتزم حدوده.

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم لا يطغون مهما عظم سلطانهم، أو كثر مالهم، أو زاد علمهم، لأنهم لا يمسهم الغرور، فلا يرون أنهم قد استغنوا، إن إيمانهم بالله واليوم الآخر يشعرهم بالفقر الدائم والحاجة المستمرة إلى الله تعالى. إنهم يعلمون أن كل شيء بيد الله، فهو الذي يعطي، وهو الذي يمنع، وإذا شاء سلب النعمة الموجودة، وإذا شاء جلب النعمة المفقودة، فهم يخافون سلب النعم الحاضرة، ويرجون استدرار النعم الأخرى من فيض كرم الله، وهم يشعرون دائماً بالحاجة إلى تحصيل الثواب العظيم في الآخرة، ودفع العذاب الأليم عنهم فيها، فشعورهم لا يفارقه الإحساس بالافتقار إلى الله، وهذا هو الذي يجعلهم بعيدين عن الطغيان كل البعد.

فالدواء الذي يمنع عن الإنسان الطغيان هو الإيمان بالله واليوم الآخر، الذي يستبقي في قلبه ونفسه الشعور بالفقر الدائم إلى الله، ويصرف عنه الغرور بالنفس والشعور بالاستغناء.

من أجل ذلك كان الطغيان في الناس كثيره وقليله من صفات الكافرين بالله، ومن صفات ضعفاء الإيمان، ومن صفات الذين غشي على بصيرتهم الإيمانية، حتى غدت مفاهيمهم الإيمانية بعيدة عن ساحة تصوراتهم العاملة، أو غدا إيمانهم مخدراً أو في سبات عميق، بعوامل الأهواء والشهوات والاستغراق في متاع الحياة الدنيا وزينتها، فساروا في دروب الغرور، وفي ظلمات الفتنة.

والطغيان يدفع بالإنسان إلى الخسران، ويكفيه أن يخسر نفسه وسعادته، ولذلك قال الله تعالى في سورة (العصر ١٠٣):

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾.

ولما كانت صفة الطغيان ملازمة لمن يرى من الناس أنه استغنى، كان من

التربية الربانية للناس أن الله تبارك وتعالى قد جعل الإنسان حبيس الحاجة والافتقار، في كل أمر من أموره، حتى يرجع دائماً إلى ربه، فإذا مسه الغرور فطغى ولو طغياناً جزئياً ضمن حدود شعوره الكاذب بالاستغناء، جاءته العقوبة الربانية المؤدبة، فذل وخضع، ورجع إلى المشاعر الصادقة، فعرف حدود نفسه، وعرف افتقاره الدائم إلى ربه، وأدرك أن لحظات شعوره بالاستغناء قد كانت أوهاماً من وساوس الشيطان، ومن نزغات النفس والهوى.

وما ينطبق من ذلك على الأفراد ينطبق أيضاً على الأمم والشعوب.

— ٨ —

الإنسان قتـــور شحيـــح

وصف الله الإنسان بأنه قتور في أصل فطرته، وبأن الشح حاضر في داخل نفسه، وهذا الوصف في نوع الإنسان هو الوصف الغالب على أفراده، قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قتور: تطلق لغة على الإنسان البخيل الذي يلازمه وصف التقتير على عياله في النفقة، مع أنه يجد لديه ما يوسع به عليهم.

وكلمة (قتور): وصف من صيغ المبالغة، مأخوذ من مادة (قتر). يقال لغة: قتر الرجل على عياله، إذا ضيق عليهم في النفقة، ويقال أيضاً: أقتر وقتَّر.

وظاهر أن القادر على التوسعة في النفقة لا يقتر على نفسه أو عائلته في النفقة إلا متأثراً بصفة البخل والشح الذي في نفسه.

وقد دل على أن الشح من الصفات المرافقة للنفس الإنسانية بوجه عام قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ١٢٨﴾.

أي إن الشح قد أحضر في داخل الأنفس بالتكوين الفطري لها.

الإنفاق: يقال لغة: أنفق الرجل إذا افتقر، أخذاً من معنى نفاد ما عنده من مال، وفناء ما لديه.

فمعنى الآية إذاً: قل: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي التي لا تنفد إذاً لأمسكتم ولَقَتَّرتم في البذل منها، خشية نفادها وافتقاركم بسبب ذلك، وكان الإنسان بفطرته قتوراً بخيلاً شحيحاً.

فدل هذا النص القرآني على أن من الصفات الملازمة للإنسان بوجه عام صفة البخل، فهو في بذله قتور، وإقتاره مع سعة ما يملك سببه تخوفه من الفقر، ولو كان هذا التخوف ناشئاً عن وهم كاذب، أو افتراض المستحيل. فلو أنه ملك ما يستحيل نفاده ـ وهي خزائن رحمة الله ـ لخشي نفادها وبخل وأمسك، مع أن هذه الخشية لا مبرر لها، إذ هي قائمة على توهم كاذب.

والواقع الإنساني يشهد بوجود هذه الصفة في الإنسان بوجه عام. ألسنا نلاحظ بعض الناس يملكون من المال ما يكفيهم مئات القرون لو عاشوا، ومع ذلك فإنهم يبخلون بما يجب عليهم بذله، ولا مبرر لهذا البخل إلا مخافة الوقوع في الحاجة والفقر، بعد بلوغ مرحلة الثراء الواسع.

العوامل النفسية لتكون هذه الصفة:

ولدى تحليل طيوف النفس الإنسانية لمعرفة العناصر الأساسية التي نجم عنها وجود هذه الصفة في الإنسان، يبدو لنا أن المنابع الأساسية التي ينبع منها حرص الإنسان على امتلاك الأشياء والمحافظة عليها، وعدم التفريط فيها، إلا بعد اجتياز عقبة من عقبات النفس، هي ارتباط حاجات الإنسان في الحياة، وارتباط مطالب نفسه، بالأشياء التي يمتلكها أو يسعى لامتلاكها، سواء أكانت الحاجة إليها مباشرة أو غير مباشرة، عاجلة أو آجلة. فالحاجة إلى شيء ما تولد الشعور بالافتقار إليه، ومع هذا الشعور يتولد السعي لحيازته وامتلاكه، وبعد

الامتلاك يأتي الحرص ويصعب التفريط، ويكون البذل عند إلحاح الحاجة بالتقتير، وسبب هذا التقتير الخوف من حاجات المستقبل المرتقبة، أو المحتملة افتراضاً، ويأتي في ذيول ذلك توهم حدوث الحاجة، ولو أن الواقع لا يبرر هذا التوهم.

ومن حاجات النفس حاجات التفاخر بكثرة ما يملك الإنسان، ومن هنا تأتي الرغبة بالتكاثر.

فحاجة الإنسان وشعوره بالافتقار إلى الأشياء هما العنصران الأساسيان المسؤولان عن حرصه وتقتيره وشحه، وبعد تولد هذه الأمور في نفسه تصير هذه الصفات عناصر أساسية مستقلة، سواء رافقها الشعور بالافتقار والحاجة أو لم يرافقها هذا الشعور.

العـلاج الإسلامي:

وقد عالج الإسلام تقويم هذه الصفة من صفات الإنسان، فعدل من غلوائها، وكبح من جماحها، إبعاداً لها عن مزالق الشر، وأحسن توجيهها بغية الاستفادة من الخير الذي قد ينجم عنها. ويمكن تلخيص العلاج الإسلامي بما يلي:

لما كان الإنسان في هذه الحياة صاحب حاجات، ومن حاجاته هذه ما يقضي العقل والشرع بتلبيته، ولما كانت حاجاته هذه مرتبطة بالأشياء التي يملكها أو يملك التصرف فيها، والطريق الطبيعي لحيازتها هو السعي الشريف، وحيازة الأشياء تتطلب في الحياة حماية وصيانة، كان المنهج القويم يستدعي أن يشتمل على عدة عناصر:

العنصر الأول: تكليف الإنسان السعي الشريف لتحصيل ما يحتاجه في حياته، من رزق وكساء، ومسكن ودواء، وغير ذلك من مطالب نافعة.

العنصر الثاني: حماية ما يحتاج إليه هو أو غيره من التلف أو الفساد أو الضياع، لأن الإهمال يجعل الجهد المبذول في التحصيل جهداً ضائعاً.

العنصر الثالث: سلوك سبيل وسط عدلٍ في الإنفاق وهذا السبيل الوسط العدل يقع بين متباعدين متضادين لا خير فيهما، هما التبذير والتقتير.

والمنهج المشتمل على هذه العناصر كلّها هو منهج الإسلام، والأدلّة عليه من النصوص الإسلامية كثيرة.

وقد دلّ على العنصر الأول قول الله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾.

فهذا النص يكلّف الإنسان أن يمشي مشياً رفيقاً شريفاً لتحصيل مطالب حياته.

وقد دلّ على العنصر الثاني نصوص متعددة، منها قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾.

فهذا النص يدلّ على وجوب حماية الأموال وصيانتها من التلف والضياع، لأنّ تسليم السفهاء ـ وهم ناقصو العقل والتدبير ـ أموالهم يعرّض هذه الأموال للتلف فيما لا خير فيه، ولا مصلحة من ورائه.

أما العنصر الثالث فقد عالج الإسلام فيه مرض التبذير الذي قد يصيب بعض الناس بسبب سفاهتهم، ونقص عقولهم، أو استحواذ الشيطان على نفوسهم وأهوائهم، كما عالج مرض الشحّ والتقتير.

ولكي يلتزم المسلم المنهج الوسط العدل وضع الإسلام له حاجزاً من أيمن الطريق وحاجزاً آخر من أيسره، فأمره بالبذل والإنفاق في الخير، ونهاه عن الإسراف والتبذير وحذره منه.

وقد دلّ على هذا العنصر نصوص متعددة، منها قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

فهذا النص يوجّه المسلم لالتزام السبيل الوسط العدل، الذي لا إفراط فيه بالتقتير، ولا تفريط فيه بالتبذير.

ولإلزام المسلمين بالمنهج الوسط الذي لا تقتير فيه ولا تبذير، اتخذ الإسلام خطتي علاج:

الخطة الأولى: الأمر والنهي والنصيحة والبيان، مع الترغيب والترهيب، وهي ما نجده في نصوص كثيرة تنهى عن البخل، وتحذر منه، وتحذر من عقوبته العاجلة والآجلة، وترغب بالإنفاق في وجوه الخير، وتعد على ذلك بالأجر العظيم، والثواب الجزيل.

الخطة الثانية: تكليف سلطة الحكم الإسلامي محاسبة مخالفي منهج الإسلام، وإلزامهم به:

١ ــ بإكراه مانعي الحقوق على دفع الحقوق التي عليهم، سواء أكانت حقوقاً للأفراد، أو حقوقاً عامّة لصندوق الزكاة، أو لبيت مال المسلمين العامّ، ومن ذلك إلزام القاضي الشرعي الأولياء بتقديم النفقة الواجبة عليهم ضمن حدود استطاعتهم.

٢ ــ وبالحَجْر على السفهاء المبذرين، ووضعهم تحت الولاية، حماية لأموالهم من التبذير، وقد ذكر الفقهاء أنّ الذي ينفق أمواله في المعاصي والمحرمات مبذّر يحجر عليه، ويدخل في عموم السفهاء.

ـ ٩ ـ
الإنســـان هـــلــوع

وصف الله الإنسان بأنه خُلق هلوعاً، وفسّر القرآن معنى الهلع الموجود في فطرة الإنسان، بأنه إذا مسّه الشرّ كان جزوعاً، وإذا مسّه الخير كان منوعاً، واستثنى من هذا الوصف من كان مؤمناً بالله وبما جاء من عنده على لسان رسله، عابداً لربه، ذا صلة مستمرّة بمراقبته، مبتعداً عمّا حرّم، قائماً بما فرض عليه، فقال الله تعالى في سورة (المعارج ٧٠):

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

فهذا النص يقرّر أن الإنسان خُلق هلوعاً، إذا مسّه الشر كان جزوعاً، أي كثير الجزع، وإذا مسّه الخير كان منوعاً، أي كثير المنع مُمسكاً قتوراً، من بخله وشحّ نفسه، باستثناء الذين وصفهم الله بصفات تفصيلية متعدّدة، هي صفات المؤمن صادق الإيمان، والمسلم صحيح الإسلام، القائم بما فرض الله عليه، والمجتنب لما حرّم.

جذور الهلع داخل النفس الإنسانية:

ولدى تحليل طيوف النفس لمعرفة جذور الهلع في داخلها، نستطيع أن نلاحظ أن الإنسان مفطور على حبّ ذاته، وحبّ ما يلذّ له ويمتعه.

وحبّ الإنسان لذاته يتفرع عنه حبّ البقاء، وحبّ السلامة، وحبّ

الاستمتاع بما يستلذه أو يجد فيه متعة نفسه، أو تلبية غريزته، أو قضاء حاجته أو شهوته، ويتفرع عنه أيضاً حبُّ الأشياء التي تخدم شيئاً ممّا يحبّ.

وحين يعلم الإنسان أنّ ما يحبّ مهدّد بالمخاطر من حوله يصيبه الحذر الشديد والخوف، وحين يمسّه الضرّ في شيءٍ من ذلك يراه شراً، ويتفجر فيه الألم بسبب ذلك، وحينئذ يصطرع في ذاته ما يحبّ لنفسه وما هو نازل به ممّا يكره، ثمّ يكون التعبير عن هذا الصراع العنيف في داخل ذاته بالجزع وإعلان التضجّر ممّا هو فيه، ويظهر ذلك في الاضطراب والقلق والصياح الدالّ على حالة النفس، والبكاء المرير، وحركات الأعضاء دون عقل ولا اتزان، كـالضرب واللطم والتمزيق والتكسير ونحو ذلك.

إلّا أن يتخذ لنفسه وقاية من ذلك، وهذه الوقاية تأتيه عن طريق مفاهيمه وعقائده وجملة تصوراته للوجود، وتطلعاته للمستقبل وآماله فيه، مقرونة بتربية نفسيّة على الصبر وتحمّل الألم وألوان خاصّة من السلوك الدائم، وهو ما جاء به الإسلام في عقائده وعباداته وشرائعه وأخلاقه وسائر وصاياه، وكذلك تربيته العملية.

من هذا التحليل تبيّنت لنا جذور الجزع، أما جذور كون الإنسان منوعاً، فترجع فيما يظهر إلى أنّ الإنسان حينما يمتلك الأشياء التي يرى أنها تخدم ما يحبّ لنفسه، فلا بد أن يكون حريصاً عليها، ومع شدّة الحرص يأتي الإمساك والمنع الشديد، وبذلك يكون الإنسان منوعاً.

وقد سبق في وصف الإنسان بأنه قتور مزيد من تفصيل هذه الجذور داخل النفس الإنسانية.

والإنسان إذا ترك نفسه دون وقاية ينشأ فيه هذا الوصف ويستقر، فيكون إذا مسّه الخير منوعاً، أما إذا اتخذ لنفسه وقاية من ذلك فإنّ النتيجة تختلف، وهذه الوقاية تأتيه عن طريق مفاهيمه وعقائده وجملة تصوراته للوجود، وتطلّعاته للمستقبل وآماله فيه، مقرونة بتربية نفسية على البذل والعطاء، وترقب العوض،

وما هو خير وأفضل عند الله تبارك وتعالى، ألوان خاصة من السلوك الدائم، وهو ما جاء به الإسلام في عقائده وعباداته وشرائعه وأخلاقه وسائر وصاياه، وكذلك تربيته العملية.

ما يقي الإنسان من الهلع:

ولقد فصّل القرآن العناصر التي تقي الإنسان من الهلع تفصيلاً كاملاً، وبعض هذه العناصر مصرح به لفظاً، وبعضها يفهم عن طريق اللزوم الفكري والاستنتاج الذهني، وفيما يلي بيان لهذه العناصر:

العنصر الأول: حسن الصلة بالله والتزام مراقبته، وذلك بالمداومة على الصلاة المستوفية لشروطها الفكرية والقلبية والنفسية والروحية والجسدية، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في الاستثناء:

﴿إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾.

وهذا العنصر المصرّح به يستلْزم عنصراً غير مصرّح به، ولكنه لا يتم إلا به، ألا وهو عنصر الإيمان بالله وبصفاته وأسمائه الحسنى، والإيمان بحكمته وقضائه وقدره، والإيمان بعدله وفضله وحسن ثوابه لعباده الصالحين.

العنصر الثاني: حسن تأدية الحقوق المالية لأربابها، وقيام الإنسان بما يجب عليه تجاه الفقراء والمساكين وذوي الحاجات من المسلمين، وهذه الصفة تشعره بواجباته نحو الجماعة، وهو مادلّ عليه في النص قول الله تعالى:

﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾.

وهذا العنصر المصرّح به يستلزم عنصراً غير مصرّح به، ألا وهو كفّهم عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن كل كسب حرام، لأن من يؤدي الحقوق التي فرضها الله في ماله عن إيمان بالله وطاعة له، لا يعتدي على ما ليس له فيه حقٌّ عند كسب المال، بهذا تقضي منطقية السلوك المنسجم بعضه مع بعض.

العنصر الثالث: التصديق بيوم الدين وما أعدّ الله فيه من جزاء، والخوف من عذاب الله يوم القيامة جزاءً للإنسان على ما يجني من سيئات في الحياة الدنيا، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النص:

﴿والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إنّ عذاب ربّهم غير مأمون﴾.

العنصر الرابع: حفظ الفروج من المعاصي والمحرمات التي نهى الله عنها، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النص:

﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾.

العنصر الخامس: رعاية الأمانات والعهود والوفاء بها، والبعد عن كلّ خيانة في الأمانة أو نكثٍ في العهد، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النص:

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾.

العنصر السادس: القيام بالشهادات على الوجه الذي أمر به الله من صدق وتأدية للشهادة على وجهها، وبعد عن كلّ كتمان مضيّع للحقوق، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النص:

﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾.

والعنصر الأخير: تكرير للعنصر الأول، وهو المحافظة على الصلاة التي تصل العبد بربّه، وفي ذلك تسوير لسلوك الإنسان كلّه بهذه الصلة بربّه، بَدءاً واستمراراً وختاماً، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في آخر النص:

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾.

ثم أبان الله تعالى عاقبة هؤلاء الذين استثناهم من عموم الإنسان الهلوع، فقال تعالى:

﴿أولئك في جنّات مكرمون﴾.

فمن استجمع هذه العناصر استطاع أن يتخلّص من الهلع الذي يبعده عن كماله الإنساني، ويبعده عما خلق لأجله.

ــ ١٠ ــ

الإنســـان عـــجــول

ووصف الله الإنسان بأنه عَجُول، وبأنه خُلِقَ من عجل، فقال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾.

العجلة تقع في طرف يقابله بُعْدٌ آخر يقع فيه الإهمال والتخلف، والخير هو في مكان وسط بين الْبُعدين؛ فالقسمة ثلاثية لا ثنائية.

وطلب أمرٍ ما أو القيام بعمل ما، إن كان بمسابقة الزمن الملائم له ــ والذي يكون فيه أكمل وأفضل ــ فتلك هي العجلة، وإن كان بالتأخر عن الزمن الملائم له فذلك هو الإهمال والتخلف، وإن كان بموافقة الزمن الملائم في المطالب والأعمال فتلك هي الحكمة المطلوبة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا﴾.

فليست كل سرعة عجلة، إذ من الأمور ما يتطلب السرعة، وإلاّ فات أوانها وليس كل بطءٍ أناةً محمودة، فلربّما كانت الحكمة المحمودة في السرعة، ولربّما كان البطء تخلّفاً مذموماً.

إنّ الحكمة التي يأمر بها العقل الراجح، تكون بالقيام بالأعمال في أوقاتها وأزمانها التي تضمن بها المصلحة الفضلى.

لكنّ الإنسان مفطور على حبّ استعجال الأشياء قبل أوانها، فهو مخلوق عجول، يبادر الأشياء قبل مواقيتها، ويسارع إليها قبل أوانها، ويحب العاجلة

وإن كانت قليلة حقيرة، ويفضلها على الآجلة وإن كانت كثيرة جليلة، فكأنّ هذا الإنسان مخلوق من مادّة العجل ﴿خُلق الإنسان من عجــل﴾.

وليست نسبة العجلة بين الناس واحدة، إنهم متفاوتون في هذا، فبعضهم أكـثر عجلة من بعض، إلاّ أن دوافعهم النفسية جميعـاً تجعلهم عجولـين، يستعجلون تحقيق مطالبهم قبل أوانها.

إنّ كل فرد من الناس يحب أن تكون رغائبه رهن خواطر، فإذا طلبت نفسه شيئاً أراد حصوله دون أناة ولا انتظار، بيد أنّ الإنسان العاقل المجرّب قويّ الإرادة يستطيع أن يملك عجلته الفـطرية بقـوّة إرادته وراجـح عقله وحكمته.

وليس أصل فطرة العجلة من النقائص في تكوين الإنسان الفطري، لأنّها تمثل في الإنسان عنصُراً مُهماً من حوافز الجدّ والعمل، ولكنّها تغدو من النقائص حين يُسيء الإنسان إدارتها، أو يهـملهـا، إذ المفروض فيها أن تكون خاضعة لعقل الإنسان وإرادته، فإذا انعكس الأمر فصارت هي المسيطرة على العقل والإرادة، اختل توازن الإنسان وجانَبَ سبيل الحكمة في الأمور.

ولقد نحمد في الإنسان ميله إلى تحقيق الأمور بسرعة، إذا استطاع أن يُحسن إدارة فطرته هذه، ويُحسن توجيهها لما فيه المصلحة الفضلى.

والعجلة في الإنسان ظاهرة ناتجة عن اجتماع عدّة عوامل لديه:

العامل الأول: توجّه دافع مُلحّ من دوافع النفس، لتحقيق مطلب من مطالبها أو رغيبة من رغائبها.

العامل الثاني: عدم التبصّر بالأمور تبصّراً شاملاً، وتحكيم البديهة الفكرية التي تتأثر كثيراً بدوافع النفس.

العامل الثالث: ضعف الإرادة وضمورها أمام قوة الدوافع النفسية.

فمن اجتماع هذه الأمور في الإنسان تظهر العجلة في تصرفاته، فهي في الإنسان ثمرة غير حسنة من ثمرات اتباع النفس والهوى.

وحبّ الإنسان للعاجلة ـ وهي الدنيا ـ وتركه للآخرة، هو أيضاً ثمرة غير حسنة من ثمرات اتباع الهوى، قال الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وتظهر العجلة عند الإنسان في كل أمرٍ من أموره التي تندفع إليها نفسه برغبة ملحّة، حتى في دعائه ربّه. إنّ قصر نظره وعدم تبصّره بعواقب الأمور يجعلانه يتصور بعض الأشياء خيراً له، فيدعو الله بها، ظاناً أنها خير، مع أنها في حقيقة حالها شرٌّ له، فهو يدعو على نفسه بالشرّ حينما يدعو دُعاءه ظاناً أنه يدعو لها بالخير، هذا ما نفهمه من قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

إنّ الإنسان قد يكره ما هو خير له، فيطلب صرفه عن نفسه، وقد يحب ما هو شرٌّ له، فيطلبه لنفسه ويلحّ بطلبه، وهو في كلا الأمرين جاهل قصير النظر، قليل الأناة عجول، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

فمن الخير للإنسان إذا طلب من ربه أمراً من أمور الدنيا أن يجعل طلبه مقروناً بقوله: «إن كان فيه خير لي في ديني ودنياي وآخرتي» أو بعبارةٍ نحوها.

من ظواهر العجلة عند الإنسان:

١ ـ بعض الناس تشتدّ رغبتهم النفسية في أن يكونوا من ذوي الثراء الواسع، وتلحّ في نفوسهم هذه الرغبة إلحاحاً شديداً، ينتج عنه اندفاع إراديّ عنيف، مصحوب باضطراب وقلق وطموح.

وتقف في وجوههم سنن الكون ونظمه الثابتة، أو تقف في وجوههم شرائع الحق والعدل، فيحاولون اختراقها وتجاوزها برعونة وطيش، أو بظلم وعدوان، فيتعثرون ويجرون لأنفسهم مصائب كثيرة بأوهامهم.

فمنهم من يبدّد حياته بالأوهام والأحلام، ولا يحقّق لنفسه ما كان يصبو إليه، ومنهم من يتحول حاله حتى يمسي مُجرماً شريراً.

لقد جنى على هؤلاء استعجالهم الأمور، إذ جعلهم استعجالهم يطلبون رغائبهم من غير طرقها، ويتخذون لها غير أسبابها.

إنّ إلحاح الرغبة، والاندفاع وراء الهوى بعجلة رعناء، يعمي البصيرة، فيجعل الإنسان يسير في حياته على غير هدى، كالذي يسير في الظلمات في أرض وعرة مليئة بالعقبات والعثرات.

٢ ــ وبعض الطامعين يستعجلون ميراثاً تتحلّب أشداقهم إليه، ويطول عليهم أمد انتظار موت مورثهم، كأن تركته المرتقبة حقهم المسلوب، أو مالهم المغصوب، فتلتهب في نفوسهم المطامع، ويندفعون بعجلة يرافقها تكالب خبيث، ثم لا يجدون طريقاً لتحقيق مطامعهم إلّا الجريمة النكراء، فيحتالون للخلاص من حياة مورثهم بغية حيازة الميراث الذي يطمعون به.

إنّ عجلتهم هذه قد تدفعهم إلى المهالك، وإلى سخط الله ونقمته، وهذا ما يحصل في معظم الأحيان عند ذوي الطمع العجولين، ما لم يحمهم العقل الرشيد، ومخافة الله، والتربية الفضلى.

٣ ــ وبعض الطلبة يتعجلون الحصول على الشهادة، قبل الأوان المناسب الملائم لاستعداد الإنسان وكفاءته في تحصيل المعارف والعلوم، فيحرمون أنفسهم بذلك من خير كثير، ويسلكون مسالك شَائِنة للأمانة، مسيئة للمعرفة الإنسانية.

وكم يتعثرون في دراستهم، ويتخلفون بسبب تعجّلهم، وكثير منهم يناله الفشل المتتابع، ويضيع من عمره سنوات عديدة، في حين أنه كان يريد مسابقة

الزمن بعام أو عامين، وبعضهم يخسر تحصيل الشهادة التي كان يصبو إليها خسارة كليّة. ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

٤ ــ وبعض طلاب الحكم والسلطان يرمون شعوبهم بويلات ومصائب كثيرة، بسبب استعجالهم الأمور على غير بصيرة، وربما يسوقون للبشرية كوارث حروب عالمية طاحنة، تباد فيها الملايين من الناس، وتهدم فيها مدنٌ، وقرى كثيرة وتتأخر فيها حضارة الأمم قروناً.

٥ ــ وهكذا نلاحظ في المجتمعات الإنسانية رغبات كثيرة في الأفراد والجماعات، وهذه الرغبات تلحّ في داخلهم حتى تجعلهم يستعجلون الأمور قبل أوانها، وبذلك تخونهم النتائج التي اندفعت نفوسهم لتحقيقها.

ومن المشاهد المستنكرة التي يمارسها المتعجّلون سرعتهم الجنونية وهم يسوقون سياراتهم، دون أن يحسبوا حساباً للمخاطر الكثيرة التي تكثر احتمالاتها مع السرعة، بدافع العجلة الرعناء.

وما أكثر ما نشاهد من حوادث مؤلمة مزعجة كان سببها العجلة الحمقاء في قيادة السيارات، فكم من حوادث دهس وحوادث اصطدام وحوادث جنوح عن الطريق، تحدث في كل يوم بسبب عجلة الإنسان.

ويحتج بعض المتعجلين الذين يعرضون أنفسهم وغيرهم للمخاطر والأهوال، بأنهم لن يصيبهم إلاّ ما كتب الله لهم، ليبرروا بذلك تعجلهم الذي يتبعون فيه أهواءهم. وهي حجة يضعونها في غير مواضعها، ثم لا يقبلون بها حينما تأتي على خلاف أهواءهم، وينسون أن العجلة المحفوفة بالمخاطر عجلة محرمة شرعاً، فالمتعجل الذي يسرع في سيارته فيوقع نفسه في الخطر، أو يوقع غيره في الخطر، إنسان جانٍ أو مجرم، وهو مسؤول شرعاً عن جنايته أو جريمته. وليس ينفعه عند الله أن يقول: لقد أسرعت معتمداً على أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، إذ يقالُ له: إن الله قد نهاك في شريعته للناس عن كل تهورٍ يفضي بك إلى التهلكة.

— ١١ —

الإنسان جحود كنود كفور

من الصفات التي وصف الله بها الإنسان أنّه جحود كنود كفور، إذا أصابته النعمة أعرض ونأى بجانبه، وكفر بأنعم الله عليه، وزعم أنّ ما أصابه من نعمة أو غنى كان بعلمه وسعيه ومهارته وحذقه وحسن تدبيره، وإذا مسّه الضر كان يؤوساً متضجّراً حزيناً، متسخطاً على ربّه، زاعماً أنّ الله لم يعطه في الحياة ما يستحقّ، شاكّاً بعدل الله وحكمته، أو جاحداً لذلك. وإذا وقع في مأزق حرج، وأحاطت به المخاوف من كل جهة، لجأ إلى ربّه يدعوه ويرجوه ويسأله أن ينجيه، ويعاهد ربّه أن يكون له من الشاكرين إذا أنجاه وأنقذه ممّا هو فيه، فإذا استجاب الله له ورحمه وأنجاه نقض عهده، وأخذ يعلّل نجاته بالأسباب، ويمكر في آيات الله، وعاد إلى ما كان عليه من بغي في الأرض وإفساد.

هذا هو واقع حال الإنسان بوجه عام غالب باستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالإيمان بالله وما يلزم عنه من سلوك قويم، هو المصلح الوحيد، وهو المقوم الوحيد لسلوك الإنسان على صراط الحقّ وفضائل الخلق، وعبادة الله حقّ عبادته.

والنصوص القرآنية التي جاء فيها وصف الإنسان بهذه الصفات كثيرة، منها النصوص التالية:

١ — يقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ ﴾.

٢ ـ ويقول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

فالسبب في إعراض الإنسان عن ربّه إذا كشف عنه الضرّ إسرافه، أي تجاوزه الحدّ واستغراقه في ارتكاب المعاصي والآثام والذنوب والخطايا ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾.

٣ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

٤ ـ ويقول الله تعالى أيضاً في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

٥ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ

مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

فالسبب في هذه الظاهرة كفره بالله، إذ جعل لله أنداداً.

٦ ــ ويقول الله تعالى أيضاً في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

فالظالم يرجع إلى الله فيدعوه إذا مسّه الضرّ، فإذا استجاب الله له فخوّله نعمة منه، ضمن نظام الأسباب والمسببات، تنكر لفضل الله عليه، فجحد نعمة الله، وقال: إن ما أصبت من نعمة إنما كان بمهارتي وعلمي ومعرفتي بما يجلب الخير، ويدفع الشرّ.

ولكن الله تعالى امتحنه ﴿بل هي فتنة﴾ والامتحان كان بجعل مقاديره سبحانه عن طريق الأسباب، لكن المؤمن بالله لا تضلله الأسباب عن الحقيقة، بل يؤمن بأن الله هو الفعال الحقيقي من وراء الأسباب، فهو مسبب الأسباب والمهيمن على كل شيء.

٧ ــ ويقول الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

فأبرز هذا النص أن الإنسان كثير الدعاء في طلب الخير لنفسه، فهو لا يسأم منه، فإذا مسّه الشرّ فهو يؤوس قنوط.

فإذا جاءته النعمة وذاق لذاتها قال: هذا راجع إلى علمي وخبرتي ومهارتي وحسن عملي في اتخاذ الوسائل والأسباب. ثم أنكر يوم الجزاء، وقال: لئن كانت الرجعة إلى الله صحيحة فسيكون لي عنده للحسنى، وهي الجنة، فهو إمّا مكذّب مستهزىء، وإما جاهل بغاية الخلق، منكرٌ أن الدنيا دار الابتلاء، وأن الآخرة دار الجزاء الأوفى.

٨ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ففي حالة النعمة يفرح بها، وإن أصابته سيئة تضجّر، وتطاول على ربّه، واتهم حكمة الله وكان كفوراً.

٩ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ ﴾.

فأبرز هذا النص أن الغاية من النعم والمصائب، وتوسعة الرزق وتضييقه الابتلاء، فلا هذه للإكرام، ولا هذه للإهانة.

١٠ ــ ويقول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ

هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فأبرز هذا النص أن الناس يلجأون إلى الله وقت الشدة، فإذا كشف الله عنهم ما أحاط بهم، ووجدوا أنفسهم آمنين، نقضوا عهودهم، ومكروا في آيات الله، وبغوا في الأرض.

١١ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ما دلت عليه هذه النصوص:

هذه النصوص تتحدث عن مختلف أحوال الناس وأقسامهم، باستثناء الذين حماهم إيمانهم بالله واليوم الآخر، وعملوا الصالحات بدافع من إيمانهم، وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر، كما ذكرت سورة (العصر ١٠٣).

فالذي يبدو أن الناس على أقسام تجاه النعم والمصائب التي يبتليهم الله بها، ولهم في ذلك أحوال تتبع عقائدهم وأخلاقهم وصفاتهم النفسية، وقد جاءت جملة هذه النصوص لبيان مختلف هذه الأقسام وهذه الأحوال.

فالناس منهم مؤمن بالله كافر باليوم الآخر، ومنهم مؤمن بالله واليوم الآخر جاهل بحكمة الله في مقاديره، ومنهم مؤمنٌ كامل الإيمان، ومنهم كافر بالله واليوم الآخر.

أما أحوالهم تجاه النعم والمصائب، فمنهم من ينشأ في النعمة ثم تسلب منه، ومنهم من يكون في الضيق ثم تأتيه النعمة، ومنهم من يكون في الرخاء فتحيط به المخاطر من كل جانب، ثم يكشف الله عنه ما أحاط به وينجيه، ومنهم من يمسّه السوء ثم يكشفه الله عنه، ومنهم من تتقلب عليه الأحوال.

ومع مختلف الصفات الخلقية والنفسية تختلف ظواهر السلوك.

أولاً ــ فمن الأحوال:

١ ــ أن ينشأ الإنسان في فيضٍ من النعم الربّانية عليه، ومن ذلك الصحة، وكثرة المال، وهدوء البال، والأمن، وتيسير تحقيق المطالب في الحياة الدنيا، وهذا في حكمة الله لون من ألوان الامتحان الذي يمتحن الله به عباده، ليعلم من يشكره ومن يكفره.

٢ ــ أن ينشأ الإنسان في غير الحالة السابقة، وذلك بأن تقضي حكمة الله بامتحانه وتربيته بالمكاره، في الرزق، أو في الصحة، أو في تحقيق غير ذلك من مطالب الحياة، ويمتحن الله عباده بهذا اللون من ألوان الامتحان ليعلم من يصبر وهو مؤمن بحكمة الله، ومن يضجر ويتذمر أو يكفر ويطعن في حكمة الله وعدله، أو ينكر وجود الله.

فهاتان الحالتان قد يتعرض الإنسان لإحداهما في فترة نشأته، ووصف الإنسان الغالب تجاههما يختلف باختلاف عقيدته وخلقه وصفته النفسية.

فإذا كان مؤمناً بوجود ربّ خالق يقسم المقادير، فإن أوّل ما يخطر له ويقرّره إذا كان ناشئاً في فيض من النعم، هو أن الله تعالى رآه مستحقاً للتكريم وأهلاً لأن يكون مفضلاً بالعطاء، فأكرمه وفضله. وإنّ أوّل ما يخطر له ويقرّره إذا كان ناشئاً في المكاره، هو أن الله تعالى قد أهانه، ولم يعطه ما يستحقه، مع أن الأمر في الحالتين ليس كذلك، فما تصوّره كلٌّ منهما مرفوض مردود، إذ ليس هذا تفضيلاً ولا تكريماً في حكمة الله، وليس هذا إهانة ولا تحقيراً في حكمة الله، بل اقتضت حكمة الله العليمة بطبيعة كلٍ منهما أن يمتحن هذا بفيض النعم، وأن يمتحن هذا بالتضييق وبالمكاره.

من أجل ذلك ردّ الله تصور هذا وتصور هذا بكلمة زاجرة، فقال لهما في سورة (الفجر ٨٩): ﴿كلّا﴾ بعد أن عرض أقوالهما إذ قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾.

أي ليس الغرض من التوسعة على الأول إكرامه، وليس الغرض من التضييق على الآخر إهانته، وإنما هي ألوان امتحان، فالأول اقتضت الحكمة ابتلاءه بالتوسعة، والآخر اقتضت الحكمة ابتلاءه بالتضييق.

وفي هذا تصحيح لتصورات المؤمن حول مقادير ربه، حتى يكون على بصيرة من حكمة الله، وما يجب عليه من سلوك قلبي ونفسي وعملي تجاه ذلك.

وإذا كان لا يؤمن بوجود رب خالق، أو لا يضع هذا الموضوع في تصوراته، فإنه إذا أنعم الله عليه انطلق في متاع الحياة الدنيا، واستغرق في لذاتها، وأعرض عن التفكير في المنعم، ونأى بجانبه عن ملاحظة كل دليل يدل عليه، أو نأى بجانبه عن عبادته وطاعته، واتبع شيطانه وهواه. وإذا نزل به ما يكره من مصائب يراها شرّاً، استبد به اليأس والقنوط، فقعد كئيباً حزيناً يجترّ آلامه، ويمضغ أحزانه، أو كان يؤوساً من حياته ومستقبله، فلجأ إلى الانتحار تخلصاً مما نزل به من مصائب ومكاره، فهو إما مسرفٌ طاغ أو يؤوس قنوط. وهو في كلتا الحالتين أعمى البصيرة كفور.

وهذا القسم من الناس ربما كان هو المراد من قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

كلٌّ يعمل على شاكلته: أي كلٌّ يعمل على طريقته وقصده ومذهبه في

الحياة، وما دام مذهب هذا الإنسان مذهباً مادياً دنيوياً، فلا بدّ أن تكون طريقة عمله في الحياة طريق الاستمتاع باللذات إلى أقصى الحدود، إذا امتحنه الله بفيوض النعم، وطريق اليأس والقنوط والفرار من الحياة كلها إذا امتحنه الله بالمصائب والآلام التي يراها في تقديره شرّاً، وتكون هذه حالته سواء أكان ذلك منذ نشأته، أو جاءه بعد ذلك في أطوار حياته.

ثانياً ـ ومن الأحوال:

أن يكون الإنسان في النعمة الكثيرة، ثم تنزع منه ويذوق طعم الضرّاء. أو يكون في المصيبة قد مسته فيها الضراء، ثم تزال عنه المصيبة ويذوق طعم النعماء.

فهاتان الحالتان من الأحوال التي قد يتعرض الإنسان لإحداهما أو كليهما في حياته، ووصفُ الإنسان الغالبُ تجاههما يختلف باختلاف عقيدته وخلقه وصفته النفسية.

١ ـ فإذا لم يكن من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، أو لا تخطر قضية الإيمان بالله ومقاديره الحكيمة على فكره، فإنه إذا كان في النعمة ثم نزعت منه أصابه اليأس والقنوط، واستبدّ به الضجر من الحياة، ولم يتنبه إلى أن المصيبة من شأنها أن تذكره بربه، وتشعره بوجوده، حتى يلتمس منه دفع الضرّ ورفعه، بل يظل كفوراً بربه جاحداً لمقاديره غير ناظر إلى حكمته تعالى، فيجترّ أحزانه أو ينتحر وإذا كان في المصيبة ثم نزعت منه فذاق طعم النعماء، تمادى في الاستمتاع باللذات والاستغراق في بحر الشهوات، وغدا فرحاً بما لديه، مستكبراً على أقرانه، فخوراً على الناس بما عنده.

وفي وصف هذا الصنف من الناس أمام هاتين الحالتين يقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ

عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١ ﴾.

ففي حالة نزع النعمة عنه يغدو يؤوساً من حياته متضجراً من وجوده، كفوراً بربه، لا يلاحظ إلا الأسباب المادية الظاهرة، لذلك فهو يجتر آلامه وأحزانه، ولا يرتقب من الله فرجاً ولا مخرجاً، لأنه لا يؤمن به، أو يتخلص من الحياة بالانتحار. وفي حالة تحول الحال من الضرّاء إلى النعماء يصيبه البطر والفرح وينسى ما كان فيه، ويتصور أن السيئات التي كان فيها قد ذهبت عنه إلى غير رجعة، وأنه قد استطاع أن يصل إلى الأسباب التي يحصل بها نعماءه، ولا يقع في تصوره أن الله تعالى قد ابتلاه أولاً بالضراء، ثم ابتلاه الآن بالنعماء، ليرى في الحالتين بعض آيات ربه فيؤمن به ويعبده حق عبادته.

وينجو من داء هذا الصنف من الناس الذين صبروا إيماناً بربهم، وعملوا الصالحات ابتغاء مرضاته، وأولئك لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير. وصبرهم له وجهان: ففي حالة النعمة يصبرون عن معصية الله، وفي حالة المصيبة يصبرون على تحمل مقادير الله، ويعلمون أن ما نزل بهم مقرون بحكمة فيها مصلحة لهم لو عرفوا بواطن الأمور وتدبروا عواقبها.

٢ ــ وإذا كان يؤمن بربٍ خالق بيده تصريف المقادير، وهو يستجيب دعاء من دعاه لتحقيق مطالب الحياة الدنيا، إلاّ أنه لا يؤمن باليوم الآخر ولا بما أعد الله فيه من جزاء، أو لا تخطر قضية الإيمان باليوم الآخر على فكره، فإنه كثير الطلب ملحاح في الدعاء لنيل مطالبه ومحابه من الحياة الدنيا، فهو لا يسأم من دعاء الخير، والاستزادة من زينة الحياة الدنيا. وإذا مسه شر كان صاحب دعاء عريض، مستعرضٍ بالاعتراض على الله في مقاديره التي لم تتفق مع ما يحب لنفسه من الخير، أو كان يؤوساً قنوطاً، إما عن نقضٍ لإيمانه بالرب الخالق، أو قنوط من استجابته له.

ولئن أذاقه الله نعمةً من رحمته من بعد ضراء مسّته، فإنّ سلوكه النفسي

والقلبي والعملي تعبر عنه أقوال ثلاثة يقولها، مع إعراضه عن ربّه المنعم وما أوجب عليه، وبعده عن فعل الخير واستكباره.

القول الأول: ما جاءني من خير هو لي أساساً، وقد كان مصروفاً عني، فأنا أستحقه استحقاقاً ذاتياً. ولا يحمد الله عليه، ولا يذكر أن الله قد أنعم به عليه تفضُّلاً، ولا يرى أن عليه واجباً تجاه ربّه مقابل نعمه التي أنعم بها عليه.

القول الثاني: ما أظن الساعة قائمة، وهو يعبر في هذا عن عقيدته القائمة على إنكار اليوم الآخر.

القول الثالث: يقوله مستنداً إلى افتراض أن يكون اليوم الآخر حقيقة واقعة، ويرى أن له عند ربّه للحسنى لو رجع إلى ربّه، وذلك بالاستحقاق الذاتي، ويقيس حال الآخرة على تصوره الفاسد في تعليل ما جاءه من خير في الحياة الدنيا، بأنه قد جاءه بناء على استحقاقه الذاتي له.

فطمع هذا الصنف بامتلاك ألوان زينة الحياة الدنيا، والاستمتاع بألوان متعها لا ينتهي، ويستخدم دعاءه لربّه من أجل نيل ما يحبّ من هذه الحياة الدنيا، وما يأتيه منها يرى أنه صاحب حقّ فيه، فإذا نزل به الشر كان ذا دعاءٍ عريض، أو كان يؤوساً قنوطاً، وهذا اليأس المفرط يدفع به إلى الانتحار المعنوي أو الانتحار المادي الفعلي.

وفي هذا الصنف من الناس يقول الله تعالى في سورة (فصّلت ٤١):

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

فهو في النعمة ناء مستكبر منكر للجزاء واليوم الآخر، وإذا مسّه الشر فذو

دعاء عريض، ملحاح متضجر متذمر على ربه، فإذا لم يستجب الله له فيؤوس قنوط.

وحول حمى هذا الصنف من الناس يقف بعض ضعفاء الإيمان، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر مع إيمانهم بالربّ الخالق الرازق، والواحد منهم إذا مسّه الضر دعا ربّه، فإذا خوّله الله منه نعمة لم ير فضل الله عليه فيها، وإنما يرى أنّ علمه بالأسباب وتعاطيه لها هو الذي جلب له ما أصاب من نعمة، قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

ثالثاً ــ ومن الأحوال:

أن يتعرض الإنسان في حياته لشدة خانقة، فتحيط به المخاطر من كل جانب، ولا يجد أسباباً ماديةً لرفعها أو النجاة منها.

ووصف الإنسان الغالب تجاه هذه الحالة يختلف باختلاف عقيدته وخلقه وصفته النفسية.

ومعظم الناس في هذه الحالة من أي صنف كانوا يرجعون إلى ربهم داعين أن ينجيهم، سواء كانوا كافرين بالله واليوم الآخر، أو مشركين يجعلون لله أنداداً، أو كانوا مؤمنين ضعفاء الإيمان واقفين في ظلال الكفر الكلّي أو كفر الشرك.

١ ــ أما الكافر بالله وباليوم الآخر، فإنّ الشدة الخانقة التي لا يجد سبباً مادياً لرفعها أو النجاة منها توقظ في فطرته شعوره بأن لهذا الكون رباً مهيمناً يصرف مقاديره، وبيده مقاليد كل شيء، فيدعوه ويسأله أن يكشف عنه

ما أحاط به، فإذا استجاب الله له وأنجاه، وأقام له الدليل بذلك على ربوبيته وأنه يجيب دعاء من دعاه، وشعر بأنه صار آمناً من المخاطر التي كانت محدقة به، أعرض عن هذا الدليل ورجع إلى ما كان فيه من كفر، وكان الإنسان كفوراً. قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

٢ ــ وأما المشرك: فإنّه ينيب إلى الله في حالة الشدّة الخانقة، حتى إذا كشف الله عنه الضر وخوّله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ورجع إلى شركه، فجعل لله أنداداً من الأوثان، أو الإنس أو الجنّ أو الملائكة، أو الأسباب والقوانين الطبيعية، وتصدى يضلّ عن سبيل الله. قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

وكلٌّ من الكافر كليّاً والمشرك يمكر في آيات الله بعد دعائه لربّه ونجاته من الشدائد الخانقة، فيعلّل النجاة بالأسباب المادية والمصادفات، ليبرر لنفسه البغي في الأرض بغير الحقّ، مع أنه عند دعائه كان مخلصاً لله الدعاء، ومعاهداً ربّه أن يكون بعد النجاة من الشاكرين. قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ

أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

٣ ـ وحول حمى الكافرين كلياً والمشركين يقف بعض ضعفاء الإيمان، فيمسّ قلوبهم ونفوسهم شيءٌ مما يصيب الكافرين والمشركين على مقدار ضعف إيمانهم، فهم يدعون الله عند الشدائد، ثم ينسون الله إذا كشف عنهم ما أحاط بهم.

٤ ـ نظراتٌ حول مناقشة القرآن للكافرين والمشركين:

من الملاحظ في هذه النصوص الرائعة التي صورت حالة رجوع الإنسان إلى ربّه في حالة الشدّة الخانقة ثم نقضه، أنّها اشتملت أيضاً على مناقشة الإنسان مناقشة منطقية بديعة لإقناعه وموعظته.

وهذه المناقشة اشتملت على التلويح له بالمخاوف المحيطة به من كل جانب، وإن كان هو لا يراها، إنه إذْ يتوهمّ أنه قد غدا بعد النجاة آمناً من الهلاك، يغفل عن المخاطر التي يمكن أن تنزل به في كل لحظة وفي أي مكان.

من الواضح أن الذي ردّ ركاب السفينة التي أحاطت بها المخاطر إلى ربّهم، إنما هو الخوف الشديد الذي هزّ قلوبهم هزّاً عنيفاً، فأيقظ فطرة الإيمان الصحيح فيهم.

وهنا يقول العقل الرشيد والمنطق السديد: ممّ كانوا يخافون؟.

ويأتي الجواب أنهم كانوا يخافون أن يموتوا في البحر غرقاً. ولكن هل انعدمت احتمالات الكوارث المفاجئة في البر؟

وهذا ما ناقشهم القرآن به، ولفت أنظارهم بشدّة إليه، فإن كانوا في البحر يخشون الغرق في الماء، فهل هم في البر في مأمن من الخسف الذي يدفنهم في التراب إذا أراد الله بهم ذلك؟. والخسف أشد هولاً من الغرق بالماء. وإن كانوا في العاصفة البحرية يخشون ما تقذفه السماء عليهم من أمطار مغرقة، فهل هم في البر في مأمن من عاصفة تقذف عليهم حاصباً من السماء إذا أراد الله بهم ذلك؟. وأمطار الحجارة أشد هولاً من أمطار الماء. وأخيراً هل هم في مأمن من أن يعيدهم الله في البحر مرّة أخرى، فيرسل عليهم ريحاً عاتية، فتكفأ سفينتهم فتغرقهم بسبب كفرهم بربّهم وبأنعمه عليهم؟!.

فهذه هي الاحتمالات التي كان عليهم أن يضعوها في حسابهم بعد أن وصلوا إلى البر الآمن، لا أن يغتروا بالأمن الذي وصلوا إليه، فيكفروا بنعمة الله الذي أنجاهم، وأنعم عليهم فخلّصهم من الشدة التي مسّتهم بضرها.

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم معصومون من هذه الأمراض الخطيرة بعصمة الله.

إلّا أن الإعراض والغفلة عن الله في حالة الرخاء من الأمراض التي قد تصيب الإنسان بوجه عامّ، غير أنّ نسبة وجود ذلك في أفراد الناس متفاوتة، فهي عند أهل الكفر ترتفع إلى قمة الخط البياني، وعند المؤمنين أهل الطاعة والاستقامة تنخفض انخفاضاً عظيماً، حتى لا يبقى منها إلّا بعض الانغماس في مجالات النعمة والترف، التي تنسي الإنسان مراقبتهُ لربّه، بما فيها من لذائذ ومتع، وبما فيها من شهوات ومغريات.

وواقع حال الإنسان هذا هو الذي يفسّر لنا ورود النصوص القرآنية عامّة، فما كان منها من مستوى الكفر كان خاصاً بالكافرين، وما كان منها من مستوى المعاصي أو الغفلات كان عامّاً، ولكل إنسان نصيب منه قل أو كثر.

أما المؤمنون فلا بدّ أن تتحرك في قلوبهم عوامل الإيمان بربّهم وباليوم الآخر، فتخفف من نسبة إعراضهم وغفلاتهم، مهما أبطرتهم النعمة وأنستهم طاعة ربّهم. ويستطيع الإنسان أن ينجو من المستوى المهلك لهذه الصفة إذا كان قوي الإيمان، عظيم المراقبة لله تعالى في كل أحواله، ذاكراً له في السراء والضراء، عاملاً بما يدعوه إيمانه وإسلامه إلى عمله من الصالحات، وله من إخوانه المؤمنين من يوصيه بالحقّ ويوصيه بالصبر.

وهذا الاستثناء للذين آمنوا وعملوا الصالحات قد جاء في نصوص كثيرة، منها النصّان العامّان اللذان في سورة (التين ٩٥) وفي سورة (العصر ١٠٣):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾.

فالذين ينجون من الرّد إلى أسفل سافلين ومن الخسر هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات. مع أن الإنسان لو ترك من غير هذا الدرع الإيماني الواقي لكانت حاله في خسر، ولردّ إلى أسفل سافلين، فالإيمان والعمل الصالح سفينة النجاة.

وصف الإنسان في القرآن بأنه جحود كنود كفور:

استناداً إلى واقع حال الإنسان الذي جاء بيانه في النصوص السابقة كان وصف الإنسان بأنه جحود وكنود وكفور أمراً طبيعياً.

ولذلك نجد أنّ الله تبارك وتعالى قد وصف الإنسان في القرآن في عدّة نصوص بأنّه ظلوم كفّار، وبأنّه كفور، وبأنه كفورٌ مبين، وبأنه كنود، أي كفورٌ جحود للنعمة. وفي نصٍّ منها جاء التعجب من كثرة كفره، ولا يسلم من انطباق هذا الوصف عليهم من الناس إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ونسبة هؤلاء في الناس هي النسبة الأقل.

والمقصود الأول من وصفه بأنه كفورٌ أنه جحود لنعمة الله عليه، مع أنّ نِعم الله عليه أكثر من أن يستطيع إحصاءها. ويلزم من كفر النعمة إنكار المنعم، وإنكار ما جاء من عنده، والتمرد على طاعته، وهذا هو الكفر في الدين، وهو أثر من آثار كفر نعمة الله، ولو أن الإنسان لم يكفر نعمة الله عليه لما كفر به، ولما كفر بحقه عليه، ولقام بواجب الشكر نحوه، فآمن به، وعبده حقّ عبادته، وأطاع أوامره ونواهيه.

١ ــ ففي كون الإنسان ظلوماً كفّاراً لنعم الله عليه، يقول الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾
جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ
تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ
مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فهذا النص يدور حول بيان طائفة من نعم الله الكبرى على الناس، وحول بيان كون الإنسان كفوراً لها ظلوماً لنفسه. فالذين كفروا من الناس قد بدّلوا نعمة الله كفراً، أي قابلوا نعمة الله بالكفر والجحود.

ثمّ عدد الله أنواعاً من النعم الكبرى التي أنعم بها على عباده، فذكر إنزال المطر وإخراج الثمرات، وذكر تسخير الفلك في البحر وتسخير الأنهار، وذكر نعمة استجابته دعاء من دعاه من عباده، ثمّ عمّم فقال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

ووصف الله الإنسان بأنه كفور، فقال تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص نلاحظ أنّ الله تبارك وتعالى عدّد من نعمه أنه سخّر للناس ما في الأرض، وهذا يشمل كل ما يمكن أن ينتفع به الإنسان فيها، وأنه سخّر الفلك تجري في البحر بأمره، وهذه نعمة يعرفها الذين يركبون البحر، أو ينتفعون من جري الفلك فيه، وأنه سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض، فلا تصطدم نجوم السماء وكواكبها بالأرض، إذ تسير كل كرة في مدارها بتقدير العزيز الحكيم. وكل هذه النّعم من رأفة الله بالناس ورحمته لهم.

ثم أشار النص إلى الحكمة من الخلق، وهي ابتلاء الناس في ظروف هذه الحياة الدنيا، والمطلوب في هذا الابتلاء أن يشكر الإنسان نعمة الله عليه، وذلك بعبادته وطاعته، إلاّ أنّ الإنسان كفور، يحبّ نعمة الله ويسعى للحصول عليها، ولكنّه لا يشكرها بل يكفرها، ولذلك ختم الله النص بقوله: ﴿إنّ الإنسان لكفور﴾

ووصف الله الإنسان بأنه كفور مبين، أي واضح كفرانه مكشوف غير مستور، فقال تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

وما كنّا له مقرنين: أي: وما كُنّا له مطيقين، من أقرنتُ الشيء إذا أطقته وقدرت عليه.

ففي هذا النص يعدد الله أيضاً طائفة من نعمه على الناس، فيذكر منها أنه جعل لهم الأرض مهداً صالحة لسكنى الناس عليها، ليست ذات أغوارٍ سحيقة لا تدرك، وليست ذات رؤوس عالية حادة كظهر القنفذ لا تسكن ولا تحرث ولا تزرع، بل هي ممهدة لسكانها، وفيها مسالك وسبل يهتدي فيها السالكون لبلوغ ما يقصدون من جهاتها. ويذكر من هذه النعم نعمة إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض الميتة به، حتى تزدان بنباتها وأشجارها وثمارها. ويذكر من هذه النعم أنه خلق للناس أصناف الأشياء كلّها، وأنه جعل للناس من الفلك والأنعام ما يركبون.

ولكن من الناس من كفروا بنعمة الله، فجعلوا لله من عباده جزءاً، فقالوا: ولد الله، سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

ثمّ ختم الله النص بقوله: ﴿إنّ الإنسان لكفورٌ مبين﴾.

٤ ــ ووصف الله الإنسان بأنه كنود، أي جحود لنعمة الله عليه، وبأنه شهيد على ذلك، أي يعرف من نفسه هذه الصفة، فهو جحود للنعمة مع وعي تامّ لما يصدر عنه من جحود، لا عن جهل ونسيان. والعجيب في أمره أنه يظل يحبّ توارد النعم عليه من المنعم، فهو يأخذها ويطلبها ويحبّها، ويكفر من أنعم عليه بها، قال الله تعالى في سورة (العاديات ١٠٠):

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾.

٥ ــ وقال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ففي حالة النعمة يبطر ويفجر ويكفر، وفي حالة المصيبة يتضجر ويتذمر ويكفر، فهو كفور جحود للنعمة.

٦ ــ وفي التعجب من كثرة كفر الإنسان يقول الله تعالى في سورة (عبس ٨٠):

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ !! ﴿١٧﴾ ﴾.

ــ ١٢ ــ

الإنسان مسؤول عــن عمــله الإرادي ولديه الصفات التي تؤهله لهذه المسؤولية

أثبت الله مسؤولية الإنسان عن عمله الإرادي في نصوص كثيرة، وإثبات مسؤوليته يستلزم اتصافه بالصفات التي تجعله مسؤولاً عن أعماله، منها الإرادة الحرة، والقدرة على معرفة الخير والشر ومعرفة التكليف الذي يوجّه له.

فلنتدبّر دلالات النصوص التي أثبتت مسؤولية الإنسان:

* **أولاً ــ** يقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

ففي هذا النص يبيّن الله تبارك وتعالى مسؤولية الإنسان الشخصية

عن عمله الذي يكسبه، فكل إنسان مسؤول عند الله عن عمله، وقد ألزمه الله طائره في عنقه.

والمراد من الطائر العمل الذي يكسبه الإنسان بإرادته الحرّة، لأن الإنسان إذا عمل عملاً طار منه وغدا مسؤولاً عنه، ومتى طار من الإنسان عمله لم يكن باستطاعته أن يرجعه، ولكن تلزم عنقه المسؤولية بعد طيرانه، فيسأل عنه ويُحاسب عليه.

ولاقتران الطائر بالعمل قصة تتصل بشيء كان عند العرب، فقد كان العرب إذا أرادوا عملاً من الأعمال، أو أرادوا التوجّه لسفر من الأسفار أو نحو ذلك، يتفاءلون بالطيور أو يتشاءمون بها، فيربطون حظوظهم من أعمالهم بسوانح الطيور وبوارحها، فإذا تفاءلوا مضوا، وإذا تشاءموا عدلوا عن قصدهم.

فربّما اتجهوا لقصدهم الذي عزمت عليه إرادتهم، فإذا مرَّ بهم طائر من الطيور معترضاً من أيمن اتجاههم إلى أيسره تفاءلوا به، وزعموا أنّ ما توجّهوا له من عمل هو خير، ويسمّون هذا الطائر سانحاً، لأنه اعترض مقبلاً من جهة اليمين. أما إذا مرّ بهم طائرٌ معترضاً من أيسر اتجاههم إلى أيمنه فإنهم كانوا يتشاءمون به، ويزعمون أن ما توجّهوا له من عمل هو شرّ، ويسمّون هذا الطائر بارحاً، لأنه اعترض مقبلاً من جهة اليسار.

فالطِّيرة عندهم من هذا التشاؤم بالطير البارح، وقد نهى الإسلام عنها كما هو معلوم.

وكان التفاؤل بالسانح من الطيور والتشاؤم بالبارح منها عمل عرب الحجاز، أما عرب نجد فكانوا على العكس، يتفاءلون بالبارح من الطيور لأنه يقابلهم بيمينه، ويتشاءمون بالسانح لأنه يقابلهم بيساره، وهذا ظاهر في شعر أكثر شعرائهم.

فالعرب بهذه الخرافة التي كانت تسيطر عليهم قبل الإسلام، كأنهم قد جعلوا الخير والشرّ مرتبطين بسوانح الطيور وبوارحها، حتى صاروا يطلقون على

العمل الذي يتفاءلون بالخير من ورائه طائراً ميموناً، وعلى العمل الذي يتشاءمون به طائراً مشؤوماً، كأنّ الطير هو المسؤول عن أعمال الخير وعن أعمال الشرّ التي يفعلونها بإراداتهم.

إنّهم يعطّلون بهذه الخرافة الاعتقادية ما وهبهم الله من قدرة فكرية يتدبرون بها الأمور، وفق نظم الأسباب والمسببات، ويعطّلون مسؤولية إرادتهم الحرّة التي تُصدر أوامرها لتنفيذ الأعمال، ومن أجل ذلك ألغى الإسلام هذه الخرافة، وأعلن أنْ لا طِيرَة، وأن الطيرة على من تطيّر، وأنّ الشؤم على من تشاءم، أما الفأل فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحبّه كالتفاؤل بالأسماء الحسنة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكره التشاؤم، لأنّ التفاؤل يساعد النفوس على مضاعفة الجهد للمضي في العمل الذي عزمت عليه الإرادة، والإسلام يكره في الأعمال التردّد والتخاذل، ولذلك قال الله لرسوله:

﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾.

أما التشاؤم فإنه يطفىء جذوة النشاط إلى العمل، ويبطىء الهمة، ويورث التردّد والتخاذل، وهذه الأمور توصل إلى النتائج غير المحبوبة في أكثر أحوالها، فيكون الشؤم على من تشاءم نتيجة لعمله.

ولما ألغى الإسلام الخرافة التي كانت شائعة عند أهل الجاهلية، أعلن أنّ مسؤولية الإنسان ملازمة له، فهي في عنقه الذي تتردد فيه أنفاس حياته، فطائره المسؤول ليس السانح ولا البارح، وإنما هو في عنقه، ملازم لإرادته الحرّة ملازمة حياته له.

فإطلاق كلمة الطائر في هذا النص إطلاق مجازي عن العمل المتعلق بمناط المسؤولية في الإنسان، ومناط المسؤولية في الإنسان إرادته الحرّة الواعية.

فالإنسان بهذا الإعلان القرآني هو المسؤول عن أعمال الخير وأعمال الشرّ التي تصدر عنه وهو حرّ الإرادة.

قال بعض أهل التفسير: طائر الإنسان عمله. وقال بعضهم: طائر الإنسان حظه.

أما القول الأول فهو الذي وضح لنا رجحانه وهو المتفق مع ما جاء في تتمة الآية. وأما القول الثاني فإذا كان مرادهم من الحظّ نصيب الإنسان الذي يناله بعمله، فهو يتضمّن إثبات المسؤولية، وإن كان مرادهم من الحظّ ما ينفرد به القضاء والقدر دون وساطة عمل الإنسان، فما جاء في تتمة الآية لا يؤيد هذا الاتجاه، وهو قوله تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ ثم قوله تعالى بعد ذلك: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

ومهما كان فهمنا للنص فإنّ دلالته العامّة تثبت مسؤولية الإنسان عن أعماله الإرادية في الحياة، وأنّ مناط مسؤوليته أمر داخل فيه وملازم له ملازمة حياته له، ولمّا كانت مسؤوليته تستدعي سؤاله ومحاسبته يوم القيامة ــ وهذا يستدعي تسجيل أعماله الإرادية التي يعملها في حياته، لتكون محاسبته على أساس سجل أعماله ــ قال الله تعالى عقب إعلان المسؤولية: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

وإعلاناً عن مسؤولية الإنسان الشخصية عن أعماله الإرادية، وأنّ أحداً لا يتحمل وزر غيره إلّا أن يكون له فيه كسب، قال الله تعالى في النص: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس من شأنها أن تحمل الوزر بعملها وزر نفس أخرى.

وقوله تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ يستدعي تساؤلاً عن الأسس التي يحاسب بها الإنسان نفسه إذا هو نظر في كتاب عمله؟

ويظهر أن الإنسان إذا نظر في قانون الجزاء الرباني العادل، ونظر في كتاب أعماله التي قدّمها في الحياة الدنيا، استطاع أن يحسب بدقّة ما له وما عليه، فما كان قد نهاه الله عنه وعمله مخالفة لنهي الله عرف أنه مؤاخذ به، وأنه يستحقّ عليه العقاب بالعدل، وما كان قد عمله أو تركه طاعة لله، عرف أنه مثاب عليه بفضل الله، الحسنة بعشر أمثالها في أدنى الجزاء.

وعلى هذا الأساس يستطيع الإنسان محاسبة نفسه على كل صغيرة وكبيرة؟

مسجلة في كتاب عمله، وما يراه مسجّلاً في كتاب عمله يعلمه من نفسه تماماً، ويذكره كما لو كان قد فعله منذ ساعته.

ولمّا كان الإنسان مسؤولاً مسؤولية شخصية عن عمله، وهذه المسؤولية تجعله أمام طريقين:

(أ) أحدهما طريق سعادة.

(ب) والآخر طريق شقاء.

فإذا سلك في طريق السعادة كان من السعداء، وإذا سلك في طريق الشقاء كان من الأشقياء، وطريق السعادة طريق هداية، وطريق الشقاء طريق ضلال.

لـمّا كان الأمر كذلك أعلن النص أنّ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، وأنّ من ضلّ فإنما يضلّ عليها، فقال تعالى: ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها﴾.

أي يهتدي لمصلحة نفسه ونجاتها وسعادتها، ويضلّ جانياً على نفسه جالباً لها الخسران والشقاء، بما يستحقه من عقاب الله بسبب أعماله السيئة.

أما قول الله تعالى في النص: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فهو يعلن مبدأً أساسيّاً من مبادىء قانون الجزاء الربّاني، وهو أنّ كلَّ نفس من شأنها أن تكون مسؤولة تحمل أوزاراً، لا يمكن في قانون العدل الرباني أن تحمل أوزاراً لغيرها ليس لها فيها كسب، وإن كان ذا قربى، فلا يحمل أبٌ من أوزار ابنه شيئاً، ولا يحمل ابن من أوزار أبيه شيئاً، ولا يحمل قرين من أوزار قرينه، ولا حميم من أوزار حميمه، إلاّ أن يكون له كسب فيها، فيحمل إذن أوزار نفسه بهذا الكسب.

والأوزار في اللغة هي الأحمال الثقيلة، ولمّا كان الذنب الذي يفعله الإنسان يشبه الحمل الثقيل فقد أطلق العرب على الذنب وزراً.

ويقال لغة لمن حمل حِملاً ثقيلاً أو أذنب ذنباً كبيراً: وَزَر، يَزِر، فهو وازِر، وهي وازرة.

وهنا نقول: إنّ (وازرة) في النص صفة لموصوف محذوف تقديره: ولا تزر نفس وازرة وزر نفسٍ أخرى.

وأما قول الله تعالى في النص: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ فهو يعلن عن مبدأٍ آخر من مبادىء العقاب الربّاني، وهو أنّ الله تعالى لا يُعذّب عباده على ذنوبهم مع ربّهم في الحياة الدنيا حتى يرسل لهم رسولاً يبيّن لهم طريق هدايتهم وسُبُل غواياتهم.

وهكذا بيَّن هذا النص مسؤولية الإنسان الشخصية عن أعماله الإرادية، وبيّن أن التعذيب على الأوزار شرطه الإعلام عن طريق إرسال الرسول المبلّغ المبشر المنذر.

ونصوص المسؤولية المؤكدة لمضمون هذا النص كثيرة، وكلّها تثبت أنّ الإنسان مسؤول عند ربّه عمّا يعمل بإرادته الحرّة من أعمال.

فمنها النصوص التالية:

يقول الله تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (التكاثر ١٠٢):

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾.

من هذه النصوص يتبيّن لنا أنّ الإنسان يُسأل يوم القيامة عن أعماله، ويسأل عن المنح التي وهبه الله إياها، هل استعملها فيما خلقت له؟ ويسأل عن النعيم، هلْ آمن بخبر الله فيه؟

ويوضح كل ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عُمره فيم أفناه؟ وعن جسده فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟».

ولهذا الحديث روايات وطرق يرتفع بها إلى درجة الصحيح، منها ما رواه الطبراني عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ قال: «لن تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل به؟».

* **ثانياً**: يقول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ

﴿وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

ويتساءل الكثيرون عن الأمانة التي حملها الإنسان، وأبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن من حملها.

وفي الإجابة على هذا التساؤل نقول:

للباحثين في المراد من الأمانة في هذه الآية وجوه من التأويل كثيرة، ولكن يحسن أن نبحث في الإنسان، ونتفكر في استنباط الخصائص التي امتاز بها الإنسان عن غيره، وقد وضعها الله أمانة بين يديه ليحفظها ويؤدي حقوقها، فكان من الإنسان خيانة لها، وعدوان على حقوقها، استجابة لأهوائه وشهواته ووساوس الشياطين، وبذلك صحّ أن يوصف بأنه ظلوم جهول.

ومن الواضح أنّ الإنسان قد امتاز على المخلوقات الأخرى بخصائص التفكير ومعرفة صفات الأشياء، والإرادة الحرّة، وجملة من مطالب النفس وأهوائها وشهواتها، ومقدارٍ ما من القدرة على تنفيذ ما يريد، في مقدارٍ ما من الزمان والمكان، ضمن حدود هذه الحياة الدنيا.

وما امتاز به الإنسان من كل ذلك ممّا يستطيع التصرف فيه بفعل الخير والشرّ، هو أمانة وضعها الله تحت يده، بعد أن منحه الاستعداد الفطري لحمل هذه الأمانة.

وإذْ وضع الله هذه الخصائص أمانة تحت يده، وضع له منهاجاً ليتصرف بالأمانة على وفقه، فإذا تعدّى حدود هذا المنهاج فقد خان الأمانة وظلم، وعرض نفسه للمؤاخذة فكان بذلك جهولاً.

فما تحت يد الإنسان مما يستطيع التصرف فيه، وما في مستطاعه من القوى الظاهرة والباطنة، وما سخّر الله للناس في هذا الكون الكبير مما للإنسان قدرة على التصرف فيه، حتى حياة الإنسان وجسده وفكره، كل ذلك أمانة وضعها الله تحت يده، وجعل له سُلطةً تكوينية عليها، وأنزل له منهجاً تكليفياً طالبه فيه بأن

لا يتصرف بها في فعل شر أو ضر أو معصية أو عدوان، فإذا تصرف بها في شيء من ذلك فقد خان الأمانة التي استأمنه الله عليها، فكان بذلك ظلوماً، وبظلمه عرّض نفسه لعقاب الله فكان بذلك جهولاً.

فمسؤولية إرادة الإنسان الواعية في الحياة، مسؤولية أمانة لما استودعها الله أو أعارها أو وضع سلطتها من قوى وطاقات، سواء أكانت داخلة في جسم الإنسان أو خارجة عنه.

ونتساءل عن المراد من عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، وإبائهنّ أن يحملنها، وإشفاقهنّ منها؟.

ويمكن أن نجيب بأن المراد ــ والله أعلم ــ عدم وجود الاستعداد والقابلية الفطرية لتحمّل الأمانة لدى هذه المخلوقات. وهو نظير ما لو قلت: عرضت الحجر على النار فأبت النار أن تأكله، وعرضت الحطب على النار فاستجابت فأكلته، فمعنى هذا الكلام أنّ النار غير مستعدّة في نظامها الفطري لأن تأكل الحجر، وهي مستعدّة لأن تأكل الحطب. على أنّ فاطر الفطرة وواضع النظام هو الله سبحانه وتعالى.

فهذه المخلوقات الكبيرة رغم كبرها وضخامتها لا تملك استعداداً فطرياً لحمل الأمانة، لأنها لا تملك شروط حمل هذه الأمانة، لذلك فهي تأبى هذا الحمل.

أما الإنسان فإنّه ما كان ليأباه، لأنه يملك الاستعداد الكامل لحمل الأمانة، من أجل ذلك حملها، ويتصل هذا بأن الله قد خلقه في أحسن تقويم.

ولم يكن بحمله للأمانة ظلوماً جهولاً، ولكن بخيانته بعد ذلك في حياته للأمانة كان ظلوماً جهولاً. أما أنه ظلوم فيرجع ذلك لكثرة نسبة خيانته للأمانة، وأما أنه جهول فيرجع إلى أنه لم يتبصر بعواقب ظلمه، ولم يحسب حساباً لمسؤوليته ولم يخش عقاب ربه، فكان بذلك جهولاً ناقص العقل. وهذا هو المشاهد في وصف معظم الناس.

* **ثالثاً**: يقول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ ﴾.

فهذا النص يدل على أن الإنسان في حدود مسؤوليته عن أعماله، إنما يعمل أعماله وهو في حالة وعي كامل لما يعمل، ولغايته مما يعمل، وهو قادر على تمييز الخير والشر فيما يعمل، وقادر على محاسبة نفسه عما عمل، ولو حاول أن يستر نفسه بما يلفّق من أعذار، وبما يرتّب من حجج يبرّر فيها عمله، وبما يجادل به عن نفسه ليبرئها من الخطيئة والإثم والفسوق والعصيان.

فالإنسان على نفسه بصيرة، أي لديه جهاز مشرف على نفسه، وعلى كل ما يصدر عنها من أعمال إرادية. وهذا الجهاز بصيرٌ مدرك واع شديد المراقبة شديد الإحساس، دل على هذا كلمة (بصيرة) فالتاء فيها للمبالغة، والصيغة من صيغ المبالغة، فارتقت الدلالة بهما فكأنه قيل: بصير بمقدار كبير.

وهذا الجهاز الذي خلقه الله في الإنسان يلتقط صوراً كاملة عن أعماله وعن الغاية منها: ويسجلها لديه في سجل المحفوظات، فهو يذكرها من حين لآخر مهما تقادم عليه الزمن، ولئن نسيها وضاعت من وعيه الظاهر فإنها تظل محفوظة في وعيه الباطن، وتطفو على سطح الذاكرة في بعض أحوال الإنسان في الحياة الدنيا، ويتذكرها تذكراً تاماً كاملاً في الحياة الآخرة يوم الحساب، لأن العوامل التي جعلتها في طي النسيان في الحياة الدنيا لا يكون لها وجود يوم القيامة، إذ تزال الغشاوات، وتعود الذّات الإنسانية إلى صفاء فطرتها.

ومن أجل هذا ورد النص في سياق ما ينبأ به الإنسان يوم القيامة مما قدم وأخر من عمله، فهو ينبأ بما عمل وبما لم يعمل مما كان مسؤولاً عن عمله، وهو مع ذلك يعلم هذا من نفسه ويذكره، ويستطيع أن يحاسب نفسه عليه محاسبة صحيحة، لأنه عليم تماماً بأعماله وبمقاصده من أعماله، ويعرض عليه أيضاً كتاب عمله، وهو إن أنصف شاهدٌ على نفسه وعليه شهود من الملائكة

الموكلين بمراقبته، وشهـود من جوارحه وأعضائه التي استخدمها في ذلك، ثم من فوق ذلك علم الله المحيط بكل شيء.

ولولا أن الإنسان يتذكر كل ما قدم وأخر في حياته الأولى، لأنكر كتاب عمله وهو صادق مع نفسه في الإنكار، ولزعم ـ وهو ينال جزاءه ـ أنه مظلوم في معاقبته، لأنه لا يذكر من ماضيه شيئاً. من أجل ذلك أعطى الله الإنسان جهاز التذكر، فهو معه في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، وفي الآخرة يكون أصفى وأوضح، وأبين لكل صغيرة وكبيرة، ولكل عمل ونية.

وقد أثبت الله للإنسان هذا التذكر فقال تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

فقد دل هذا النص على أن الإنسان يتذكر يوم القيامة ما سعى في الحياة الدنيا.

والطامة الكبرى: هي يوم القيامة. قال ابن عباس: سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع.

وقال الله تعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾.

فدل هذا النص على أن الإنسان يتذكر يوم القيامة كلّ شيءٍ سلف في حياته، يتذكر عمله، ويتذكّر النّذر التي جاء بها أنبياء الله ورسله، والتي قرأها أو سمعها فيما أنزل الله من كتاب، ويتذكر المواعظ التي وجهت له في الدنيا،

ويتذكر أوامر الله ونواهيه وترغيباته وترهيباته، ويتذكَّر الحجج والبينات التي كانت كافية لإقناعه إلاّ أنه لم يعبأ بها، إنه يتذكر كل ذلك، ولذلك جاء النص هنا عاماً غير خاصٍ بالعمل.

إلا أن هذا التذكر لا ينفعه في ذكرى، أي لا ينفعه في موعظة يغير فيها نتيجته التي تقررت عليه أوله. لقد انتهت حيـاة الابتلاء، واليوم هو في حياة الجزاء، وأي عمل لا ينفعه وهو في حياة الجزاء، وأية موعظة حينئـذ وأية ذكرى لا تغنيه، لم يبق له إلا الحسرة والندم، لذلك فهو يقول: يا ليتني قدمت لحياتي، أي يا ليتني قدمت العمل الصالح لحياتي هذه التي هي حياة الخلود، حتى أكون من الناجين من عذاب النار، وحتى أكون من السعداء في جنة النعيم.

ـ ١٣ ـ
الإنسان يتبع الظنون والأوهام لتحقيق أمانيه

في سياق الكلام على المشركين يقول الله تعالى في سورة (النجم ٥٣):

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

ففي هذا النص يبين الله تبارك وتعالى مدى تأثير دوافع الإنسان وأهوائه وشهواته في رسم أمانيه، ولو كانت هذه الأماني تخالف الحق والواقع، أو تنافي السلوك الواجب الذي يحقق للإنسان السلامة والنجاة والعاقبة السعيدة، ولو كانت هذه الأماني تنشد المستحيل وتتعلق به.

ولذلك قال تعالى على سبيل الاستفهام التعجبي الإنكاري: ﴿أم للإنسان ما تمنى؟!﴾ أي لا يمكن أن يخضع الحق والواجب لأماني الإنسان، التي هي صور نفسية لديه، ترسمها دوافعه وغرائزه وأهواؤه وشهواته.

والإنسان حينما يريد تحقيق أمانيه في قضايا الحق والباطل، يتبع الظن

الضعيف الذي لا تدعمه أدلة فكرية، ولا أدلة حسية، ولا أدلة خبرية صحيحة، ثم يجعل الظن الضعيف حقيقة يعتقدها، لأن أمانيه تعلقت بها بتأثير دوافعه وأهوائه وشهواته. وحينما يريد تحقيق أمانيه في قضايا السلوك يحاول أن يتخذ المبررات لما تهوى نفسه، ثم يجعل ما يهواه خيراً وإن كان في حقيقة أمره شراً.

ثم هو من أجل تحقيق أمانيه يغمض عينيه عن كل هداية تأتيه، فتكشف له الحق، وتبين له طريق النجاة والسعادة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ عقب قوله: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾.

فهم يهجرون الهداية الواضحة التي جاءتهم من ربهم، سواء منها ما يتعلق بجانب الاعتقاد أو بجانب السلوك، ويغمضون أعينهم عما في هذه الهداية الربانية من حق وخير ونجاة وسعادة لهم، ثم يتبعون الظن الضعيف وما تهوى أنفسهم، ويرسمون من ذلك أماني يطمعون بتحقيقها، مع أنها لا تتحقق، لأن الجانب الاعتقادي منها باطل، والباطل لا يتحول حقاً بالأماني، ولأن الجانب العملي منها ممارسة للشر، والشر لا يكون خيراً بالأماني.

والنجاة من العقاب لا تأتي بمجرد الأماني.

ودخول الجنة لا يأتي بمجرد الأماني.

والباطل لا يصير حقاً بالأماني.

والحق لا يصير باطلاً بالأماني.

والشر لا يصير خيراً بالأماني.

﴿أم للإنسان ما تمنى؟!﴾.

— ١٤ —

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم
ثم هو بعد ذلك في خسر إلا الذين
استثنتهم سورة العصر

أثبت الله أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم أنه في خسر بعد خسر من منزلته ومكانته بسوء عمله، حتى يكون أسفل سافلين، باستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم لا يردون إلى أسفل سافلين، وباستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، فإنهم يحمون أنفسهم من الخسر.

قال الله تعالى في سورة (التين ٩٥):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (العصر ١٠٣):

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾.

فالله جل وعلا قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي منحه أكمل صفات منحها لمن خلق من عباده، فأعطاه سبحانه وتعالى مصغرات من العلم والإرادة الحرة، بالإضافة إلى ما وهبه من الحياة إذ نفخ فيه من روحه، وهذه الصفات في مستواها الأعلى الذي ليس له حدود هي من صفات الله عزوجل، وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته».

ولما خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، خلق له الجنة داراً تناسب تقويمه الذي فضله الله وكرمه، وجعل له في الجنة منزلاً يلائم ما وهبه سبحانه من

كمال، ولكنه سبحانه جعل بلوغ الإنسان إلى منزله الذي أعده له في الجنة منوطاً بأن يقدم الثمن من عمله في الحياة الدنيا، ومنح الله الإنسان طاقة عمل، وقدَّر له أجلاً يبذل فيه الثمن، وأعطاه القدرة التي يعرف بها الخير والشر، والحق والباطل، وأنزل له الشرائع لتعرِّفه الصراط المستقيم الذي يوصله إلى دار كرامته، ووضع ما منحه من خصائص وطاقات وما سخر له في الحياة الدنيا تحت سلطة إرادته الحرة الواعية التي فطره عليها، وأقام في طريقه بعض العقبات من نفسه وأهوائه وشهواته، ليتم بذلك امتحانه.

فرأس مال الإنسان الذي يمكن أن يشتري به سعادته في جنة الخلد، هو عمره في الحياة الدنيا، وما لديه من قدرة على الإيمان والعمل الصالح؛ فإن هو دفع ذلك ثمناً للمقام الكريم والمنزل السعيد الذي أعده الله له في الجنة، حافظ بذلك على المستوى الرفيع الذي خلقه الله عليه، إذ جعله في أحسن تقويم. وإن هو بذل ذلك ثمناً لانحداره، وعمل على مسخ إنسانيته وتشويه صورتها، واتَّبع أهواءه وشهواته ووساوس الشياطين خسر رأس ماله، وخسر في مقابل ذلك المنزل الذي أعده الله له في جنة الخلد، واشترى بدله منزلاً في جهنم دار العذاب.

وبذلك يظهر تماماً أن الإنسان في خُسْرٍ دائم يخسر فيه رأس ماله في الحياة ومنزله في جنة الخلد، ثم جنة الخلد كلها، ويظلّ يتنازل في هذا الخسر عن المستوى الذي جعله الله فيه في أحسن تقويم، حتى يصل إلى درك يكون فيه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنّهم يحافظون على مستوى ما من جنة النعيم بقدر إيمانهم وصالح أعمالهم، ويخسرون من المنازل الرفيعة في الجنة بقدر تقصيراتهم في الأعمال عمّا تستحقه هذه المنازل، وإلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، فإنهم يحمون أنفسهم من الخسر كله، ويحافظون على منازلهم في الجنة، وهي المنازل التي تلائم ما وهبهم الله من كمال، منذ خلقهم في أحسن تقويم.

وجاء في بيان الرسول ﷺ أن الله تبارك وتعالى قد أعدّ لكل إنسان منزلاً

في الجنة ومنزلاً في النار، وأنّ المؤمنين يرثون في الجنة منازل الكافرين، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون﴾..».

فالكافرون يخسرون، والمؤمنون يرثون.

أما الأسباب التي تجعل الإنسان يسير في طريق الخسر، إذا لم يحمه الإيمان والعمل الصالح، ولم يشدّ أزره التواصي بالحقّ والصبر، فهي ترجع إلى أن الإنسان مخلوق عجيب، يمثّل مملكة معقدّةً كبرى داخل جسمه الصغير.

ففي داخل الإنسان حشدٌ كبير من الغرائز والطبائع والشهوات والدوافع النفسية، وهذا الحشد يشبه جماهير الناس ذات المطالب المختلفة ضمن حدود مملكةٍ من الممالك البشرية. ولو تركت جماهير الناس في حالة فوضى، ينطلق كلٌّ منهم وفق أهوائه الخاصّة به، دون أن يجد رادعاً من سلطة حازمة وإدارة حكيمة، لكانت النتيجة خراباً ودماراً وفساداً عريضاً وخسراناً مبيناً. ونظير ذلك يحدث للإنسان داخل مملكته في ذات نفسه، إذا هو ترك جماهير أهوائه وشهواته وغرائزه في حالة فوضى، تنطلق إلى مطالبها الرعناء، دون أن تجد رادعاً من سلطة حازمة، وإرادة عاقلة حكيمة.

إنّ هذه الجماهير داخل النفس الإنسانية ستسوق الإنسان إلى الفساد العريض، والخسران المبين، والعذاب الأليم.

والذي يحمي الإنسان من هذا الخسران إرادته العاقلة التي وهبه الله إياها، ضمن ما وهبه من خصائص، فالإرادة الحرّة في الإنسان هي التي تمثّل في داخله السلطة الإدارية الحاكمة، المسؤولة عن إدارة جمهور أهوائه وشهواته ودوافعه النفسية ومطالب غرائزه، والمسؤولة عن حسن سياستها، وهي تشبه في الممالك الإنسانية ما يسمى بالحكومات الإدارية والسياسية. وحينما تضعف في الإنسان هذه الإرادة، وتخضع للمطالب الرعناء التي تلح بها الجماهير، فإن الفساد يحلّ داخل مملكته، وتكون هذه الجماهير الرعناء هي المستبدة، وقد يسود

في داخل النفس بعض منها، فيكون هو المستبد المسيطر المتحكم بتوجيه الإرادة، ولا غرو في هذه الأحوال غير السليمة أن يسير الإنسان في طريق الخسران.

ويوجد في داخل مملكة الإنسان سلطة هي بمثابة السلطة التشريعية، فهي التي تبحث وتدرس مسالك الحياة، وقد وهبها الخالق الحكيم القدرة على أن تعرف الخير والشرّ والحقّ والباطل، وأنزل الله دينه لعباده، وأنزل فيه ما هو هداية للناس، وبالبحث الفكري وبالاهتداء بما أنزل الله تتضح لهذه السلطة الرؤية السليمة، فتقدم نصائحها وتوجيهاتها وما انتهت إليه من نتائج للإرادة التي هي السلطة التنفيذية، ثم تكون الإرادة الواعية هي المسؤولة عن الاختيار والمسؤولة عن التنفيذ.

ومسؤولية الإنسان في هذه الحياة تلزمه بأن يحسن إدارة مملكته، وبأن يحسن سياستها وتوجيهها لما يبعده عن الخسر ويحقق له الربح العظيم، وعندئذٍ يدخل في زمرة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وعندئذٍ يحافظ على المستوى التكريمي الذي خلقه الله عليه، إذ جعله في أحسن تقويم.

ولا بد أن نلاحظ قيمة التآزر الجماعي للمؤمنين في حماية بعضهم بعضاً من الخسر، إذ يستطيعون بهذا التآزر القائم على التواصي بالحق والتواصي بالصبر أن يحافظوا على مستوى التفضيل الذي فضل الله الإنسان به، فلا يخسروا منه شيئاً، ثم لا يخسروا من منازل تكريمهم في الجنة شيئاً، ولذلك كانت صفات الذين استثناهم الله من الخسر، تجمع الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. أما الصفات التي تحمي من الرد إلى أسفل سافلين فهي الإيمان والعمل الصالح فقط، ولكنّ هذا لا يعني الحماية من الخسارة الجزئية في منازل الجنة، فهذه الخسارة قد تحصل مع الإيمان والعمل الصالح الكافيين لدخول الجنة، فلكلٍّ من النّصين دلالته، مع ترابطهما الكلّي في موضوع واحد.

وقد أقسم الله في سورة (التين) بالتين والزيتون وطور سينين، وأقسم بالعصر في سورة (العصر) إشارة إلى دلالتين:

الأولى: أقسم بالعصر إشارة إلى أنّ الإنسان هو الإنسان في جميع خصائصه مهما اختلفت عليه الأزمنة والعصور.

الثانية: أقسم بالتين والزيتون وطور سينين وهي من مهابط الوحي، إشارة إلى أنّ الوحي قد نزل بالشرائع الرّبانية ليحافظ الإنسان على ما فضله الله به إذ خلقه في أحسن تقويم، فإذا هو اهتدى بهدي شرائع الله لم يُرَدّ إلى أسفل سافلين.

شرح صفات
الذين يحمون أنفسهم من الخسر

الذين استثناهم الله في سورة (العصر) من عموم الإنسان الذي هو في خسر، لهم أربع صفات: الإيمان ـ العمل الصالح ـ التواصي بالحق ـ التواصي بالصبر.

أما الإيمان ـ وهو الصفة الأولى ـ: فهو عنوان الارتقاء الفكري، والثبات العاطفي حول القضايا الكبرى، والتصميم الإرادي في الإنسان.

وهو يشمل جوانب المعرفة الكبرى نحو الوجود والكون والحياة والغاية من خلق الإنسان، وما وراء مرحلة هذه الحياة الدنيا، ويشمل أيضاً الدوافع القلبية نحو كل خير في الحياة، وذلك لأنّ منطلق هذا الإيمان وأساسه هو الإيمان بالله الخالق الواحد الأحد، والإيمان بصفاته العظيمة وأسمائه الحسنى. ومعلوم أنّ الإيمان بالله يصحح الاتجاه من أوّل الطريق، ويرافقه بالتقويم وتصحيح الاتجاه مهما سار في حياته.

وأمّا العمل الصالح ـ وهو الصفة الثانية ـ: فهو عنوان الارتقاء السلوكي في الحياة، مع التزام الطريق القويم الصاعد إلى قمة المجد في العمل،

وهو يشمل كل عمل من أعمال الخير التي يدفع إليها الإيمان، ويدعو إليها الإسلام، فيدخل في العمل الصالح ما جاء في الإسلام من عبادات يقوم بها المسلم، وما جاء فيه من أحكام معاملات مادية ومعاملات سياسية أو أدبية، يطالب الإسلام المسلم بأن يلتزم بها في سلوكه.

وأمّا التواصي بالحق ــ وهو الصفة الثالث ــ: فهو عنوان وظيفة من الوظائف الاجتماعية التي يقوم بها كلّ مسلم، غيرة على إخوانه المسلمين، وحرصاً منه على تعريفهم بالحق، والأخذ بأيديهم إلى الاستمساك به عقيدة وعملاً، وهو يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويشمل النصيحة العامة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والتربية على الفضائل، وتعليم ما يكون به الإنسان مسلماً كاملاً.

والتواصي بالحق يخدم ركن الإيمان وما يستدعيه من كل قضية حقّ.

وأمّا التواصي بالصبر ــ وهو الصفة الرابعة ــ: فهو عنوان وظيفة ثانية من الوظائف الاجتماعية التي يقوم بها المسلم تجاه إخوانه المسلمين.

والتواصي بالصبر يخدم ركن العمل الصالح، وذلك لأنّ الأعمال الصالحة لا يقوم بها الإنسان ما لم يكن عنده من الصبر ما يحمل به عبء مخالفة أهواء النفس وشهواتها.

والصبر إمّا أن يكون صبراً على الطاعات وفعل الخير، وإمّا أن يكون صبراً عن المعاصي وفعل الشرّ، وصبراً في كف النفس وكبحها عن الشهوات المحرمة.

وكبح النفس عن محابّها ورغائبها وشهواتها يحتاج إلى صبر مثل الصبر الذي يتطلبه القيام بالأعمال الإيجابية الشاقة على الأنفس.

والتواصي بالحق والتواصي بالصبر من الصفات التي لا تبرز إلّا ضمن الجماعة، فهما ظاهرتان من ظواهر المجتمع الإسلامي السليم القائم على التعاون والتناصح، ويمثّل في توادّه وتراحمه الجسد الواحد.

يضاف إلى ذلك أنّ الصيغة التي بني عليها فعل التواصي من الصيغ التي تدلّ على المشاركة، فالمسلمون يوصي بعضهم بعضاً بالحق، ويوصي بعضهم بعضاً بالصبر، ويتبادلون ذلك على سبيل المشاركة، وهذا ما يدل عليه فعل: (تواصوا) أي إن كلاً منهم يوصي غيره ويتلقى الوصية من غيره.

والتواصي بالحق والتواصي بالصبر من الوظائف الاجتماعية التي تمثل في المجتمع الإسلامي قوة الدفع إلى الارتقاء في سلّم الكمال، وقوّة الحماية عن الانزلاق إلى دركات النقص، وقوّة الصيانة التي تصون المكاسب التي يحققها المسلمون أفراداً وجماعات، من مكاسب المعارف والفضائل الخلقية والسلوكية.

وحين يتحلى مجتمع ما بصفات الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر فإنه لا بدّ أن يسلم من عوامل الخسر التي تستشري في مجتمع لا يتحلى بهذه الصفات.

فما جاء في سورة (العصر) ينطبق على الإنسان بوصفه واحداً من مجتمع، وعلى المجتمع المؤلف من أفرادٍ من الناس، إلا أنها تبرز الجانب الاجتماعي، لما لِقوّة الجماعة من تأثير على إصلاح الأفراد، ومن تأثير أيضاً على إفسادهم، وهو ما يسمى بقوة الضغط الجماعي، وإن كان الفرد لا يُعفى من كل المسؤولية إذا كان واقعاً تحت تأثير ضغط اجتماعي مفسد، لأنه مسؤول بصفة فردية عن إيمانه بربّه، وعن طاعته له، متى وصل الحق إلى علمه بأية وسيلة من وسائل المعرفة، سواء أكان ذلك عن طريق تبليغ الدعاة، أو كان عن طريق القراءة لكتب المعرفة، أو كان عن طريق التأمل الذاتي، فمتى عرف الإنسان الحقّ، وعرف ما يجب عليه من سلوك كان مسؤولاً عن ذلك بقدر علمه.

فمن عرف عناصر الإيمان عن طريق التأمل الذاتي كان عليه أن يؤمن بها، فإن هو رفض الإيمان بها اتباعاً للهوى كان مسؤولاً عن رفضه ذلك، إلا أن التعذيب على مخالفة أمور الدين من إيمان وعبادة لا يكون إلا بعد إرسال رسول مبلّغ.

أما حقوق المخلوقات فيحاسب عليها ويؤاخذ عليها بقدرها؛ ولذلك يؤاخذ الله البهائم على الظلم، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء إذا نطحتها، لأنها تدرك أن هذا ظلم، وأنه لا حق لها به.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أي إذا هي نطحتها وآذتها بغير حق.

الجلحاء: هي التي لا قرون لها.

□ □ □

الباب الثالث

الرَّسُول ذُو الخُلُق العَظِيم

وتربية القرآن له في مجال السلوك الخلقي

وفيه فصلان :

الفصل الأول : خلق الرسول ﷺ في القرآن وصفاً وتربية .

الفصل الثاني : طائفة مما جاء في السنة من بيان خلقه صلوات الله عليه .

الفصل الأول

خُلُق الرَّسُول ﷺ في القُرآن
وَصْفاً وتربيةً

ـ ١ ـ
ذو الخلق العظيم

وصف الله رسوله محمداً صلوات الله عليه بأنه على خلق عظيم، ووجه له الوصف على سبيل الخطاب الذي يمدحه ويثني عليه فيه؛ فقال تبارك وتعالى في سورة (القلم ٦٨):

﴿ نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾.

فهذا النص القرآني يثبت أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لعلى خلق عظيم، أي: فهو متمكن من أخلاقه العظيمة المثلى، قابض على ناصيتها، وقد دلّ على هذا المعنى الاستعلاء الذي دلّ عليه حرف (على) في: ﴿لعلى خلق عظيم﴾.

وهذا النص يدفعنا بطريقة غير مباشرة إلى دراسة شخصية الرسول ﷺ، بوصفه المثل الإنساني الكامل، لاكتشاف صفاته الخلقية التي يتحلى بها، واعتبارها كتاباً في مكارم الأخلاق مجسّداً في صورة إنسان.

وبدراسة شمائل الرسول صلوات الله عليه، تُعرف مكارم الأخلاق معرفة

تطبيقية عملية، ثم تكون لدى العقلاء الحكماء أمثلةً للاقتداء بها، واتّباع خطواتها.

وبدراسة شمائله تتهيأ أمام الناس القدوة الحسنة، ذات الصفات الخلقية العظيمة، والتي تجذبهم إلى محبتها والاقتداء بها.

وإذ وصف الله رسوله بأنه على خلق عظيم، وجّه المؤمنين إلى الاقتداء به واتخاذه أسوة حسنة، فقال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

وكما نستطيع أن ندرس الذهب كلّه ونعرف خصائصه، إذا نحن درسنا قطعة عظيمة من الذهب الخالص، فإننا نستطيع أن ندرس كلّ مكارم الأخلاق ونتعرف عليها، إذا نحن درسنا شمائل الرسول محمد صلوات الله عليه.

وشمائله المنقولة في الأحاديث الصحيحة الثابتة رسمٌ كلاميٌّ لشخصيته.

وقد ألف عدد من المؤلفين العلماء بالحديث عدة كتب في شمائل المصطفى الخَلْقية والخُلُقية، وسائر تصرفاته السلوكية، والأصل في المسلم أن يدرسها ويتعرف عليها، ليضع نُصب عينيه صورة القدوة الحسنة المثلى، التي جعلها الله للناس المثل الكامل.

لقد كانت حياة الرسول وسيرته بصفة عامة مدرسة تربوية خلقية سلوكية شاملة، حتى الأنماط السلوكية التي لا تظهر فيها أوّل الأمر أسس المفاهيم الخلقية، كانت في حياة الرسول موصولة بأسس المفاهيم الخلقية، ولو من وجه من الوجوه، فكان لها صفة الظواهر الناتجة عن أخلاقٍ راسخة في النفس، متمكنة في أركانها.

ومن البدهي بعد هذا أن يكون الكمال التطبيقي النبوي صورة مماثلة للكمال الذي وجّه القرآن له ورغّب فيه، وهذا ما جعل السيدة عائشة

أم المؤمنين تقول في وصف خلق الرسول ﷺ : «كان خلقه القرآن» أيْ كان خلقه مطابقاً لما وجّه له القرآن من فضائل.

وقد وصفه أصحابه رضوان الله عليهم بأنه أحسن الناس خلقاً، منها ما رواه البخاري ومسلم عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً.

ولذلك كان صلوات الله عليه مزكّياً لمن آمن به واتبعه واقتدى به واهتدى بهديه، بقوله وعمله وأخلاقه، والتزكية التطهير من أدناس الأعمال والأخلاق السيئة والنيات الفاسدة والعقائد والأفكار الباطلة، قال الله تعالى في وصفه في سورة (الجمعة ٦٢):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾.

فجعل الله من صفاته أنه يزكيهم، ولا تكون هذه التزكية بالقول المجرّد، بل لا بد فيها من أن يكون الرسول مثالاً واقعياً حيّاً لما يدعو إليه ممّا تكون به تزكيتهم.

ولمّا كان الرسول ﷺ أعلى مثل في كل صفاته الخُلُقية والسلوكية، كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وبذلك وصفه الله بقوله في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ... ﴿٦﴾ ﴾.

ـ ٢ ـ

الرؤوف الرحيم

ووصف الله رسوله محمداً ﷺ بأنه رؤوف، وبأنه رحيم.

فأنزل عليه قوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾.

فاشتمل هذا النص على وصفه بخلق الرحمة التي أمدّه الله بها، ووصفه بلين الجانب، ثمّ وجهه توجيهاً تربوياً للأخذ بجملة من مكارم الأخلاق وفضائل السلوك.

وكان إنزال هذا النص مع أوائل العهد المدني.

وكان قد أنزل عليه في العهد المكيّ قوله[١] في سورة (التوبة ٩):

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾.

فوصفه الله في هذه الآية بأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين خاصة.

فالنص الذي في سورة (آل عمران) فيه ثناء وتربية، وهذا النصّ السابق نزولاً فيه ثناء عظيم، إذْ جاء فيه استخدام صيغ المبالغة: (رؤوف ـ رحيم).

والرأفة كالرحمة إلاّ أنّها أرق وقيل: هي أشد من الرحمة.

ولنبدأ بتدبر النص الثاني الذي في (التوبة) لأنه يدلّ على ما وصل إليه الرسول في معارج الارتقاء الخلقي.

---

(١) هذه الآية مكية لكنها موضوعة في سورة هي من أواخر التنزيل المدني إذ لم ينزل بعد التوبة من السور إلاّ سورة (النصر).

فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، على أنه صلوات الله عليه ذو رحمة للناس عامّة، إلاّ أنه بالنسبة إلى المؤمنين خاصة رؤوف رحيم بنسبة عالية جدّاً، فرأفته بهم ورحمته لهم عظيمتان، لذلك جاء التعبير بالصيغة الملائمة لواقع وصف الرأفة والرحمة في قلبه ونفسه.

ولما كان الرسول ﷺ رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين كان من مظاهر ذلك وصفان:

الأول: ما جاء في قوله تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾.

الثاني: ما جاء في قوله تعالى: ﴿حريص عليكم﴾.

عزيزٌ عليه ما عنتم: العزيز في اللغة هو القوي ذو الغلبة، تقول العرب في أمثالها: «من عزّ بزّ» أي من غلب سلب، بمعنى غنم الأمتعة والسلاح والثياب. والعنَتُ في اللغة المشقة الشديدة والهلاك والضرر والأذى، والـمُعْنِت: هو كلّ أمرٍ فيه مشقة شديدة، أو يفضي إلى هلاك أو ضرر أو أذى.

فمعنى ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ غالبٌ عليه مشقتكم الشديدة وهلاككم وضرركم وأذاكم، أي غالبٌ على صبره ذلك، ولا يكون غالباً على صبره إلاّ ممّا في قلبه نحوكم من رأفة زائدة، ورحمة زائدة، وذلك لأنّ الألم الذي ينزل به حينما يراكم في عنت أقوى من قوّة احتمال صبره، فهو يغلبه.

حريص عليكم: الحرص في اللغة شدة إرادة الشيء، والمبالغة في الاستمساك به وصيانته وابتغاء النفع والخير له. والعرب تقول: أبوك حريص عليك، أي حريص على نفعك ممعن في ابتغاء الخير لك، مبالغ في الرغبة بصيانتك من كل ما يؤذيك.

فكون الرسول حريصاً على المؤمنين يدل على أنه شديد إرادة النفع وابتغاء الخير لهم، شديد الاستمساك بهم من أجل سعادتهم، وصيانتهم من كل ما يصرفهم عن طريق الجنة، ومن كل ما يؤذيهم ويضرهم في دنياهم وآخرتهم.

وجاء ذكر هذين الوصفين توطئة لتحليته بالدرتين الخلقيتين العظيمتين، هما أنه ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

وحين نتأمل في ظواهر خلق الرأفة والرحمة يتبين لنا أن معظم الفضائل التي تتعدى آثارها النافعة للآخرين، ترجع إلى هذا الخلق، فهي إما فروع له، أو مدفوعة من قبله، أو موجَّهة منه.

فمن هذا الخلق قد يكون العفو والصفح، ومنه قد تكون المعونة، ومنه قد يكون العطاء، ومنه قد يكون التكريم ولين الجانب، ومنه قد تكون المشاركة الوجدانية في الآلام والمشقات، ومنه قد يكون الحرص على جلب المنافع والخيرات للآخرين، ودفع المضار والشرور عنهم، إلى غير ذلك من ظواهر خلقية، فهو جذر تتفرع عنه فضائل خلقية كثيرة، وتتوجه به فضائل سلوكية كثيرة.

لذلك كان عزيزاً عليه ﷺ غالباً لقوة احتماله أن يصيب المسلمين عنتٌ ومشقة في أي أمرٍ من أمورهم، لأنه برأفته ورحمته يشاركهم فيما يشعرون به، فيؤلمه ما يُعنتهم. ولذلك أيضاً كان حريصاً على جلب كل خير لهم ودفع كل ضرّ عنهم، لأنه برأفته ورحمته يَودُّ لهم ذلك ودّاً مقروناً بإلحاح من الإرادة الجازمة، التي تجعله حريصاً عليهم، أي حريصاً على خيرهم، ونفعهم وسعادتهم.

وبسبب ما جعل الله في قلبه من رحمة، كان صلوات الله عليه لينّ الجانب محبَّباً، مالكاً قلوب أتباعه، وهذا ما وصفه الله به بقوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

فالرحمة من أخلاق الرسول صلوات الله عليه، وهي خلق ذو جذور عميقة في النفس، ومحلُّها القلب، ومن آثارها في السلوك الظاهر لين الجانب للناس. ونقيضها غلظ القلب وقساوته، ومن مظاهر هذا النقيض الخشونة في معاملة الناس والسلوك الفظ.

والرحمة خلق مؤلِّف مُحبِّب، ونقيضها خلق منفر مثير للكراهية، فمن آثار الرحمة التأليف، ومن آثار نقيضها التنفير.

وهذا ما دلّ عليه التقابل في الآية بين طرفين «الأول» الرحمة، وبعض ظواهرها، وتأليف القلوب الذي هو من آثارها ولم يصرح به اكتفاء بذكر ما يقابله، «والثاني» غلظ القلب، وبعض ظواهره، وتنفير القلوب الذي هو من آثاره. ونضع هذا التقابل في الموازنة التالية:

١ ـ . . . ـ فبما رحمة من الله ـ لنت لهم (أي فاجتمعوا عليك).
٢ ـ ولو كنت فظّاً ـ غليظ القلب ـ . . . لا نفضوا من حولك.

فجاءت مقابلة الرحمة بغلظ القلب، فدلّت على أن الرحمة خلق في القلب.

وجاءت مقابلة اللين في المعاملة بالفظاظة في المعاملة مع التغيير في الترتيب.

وجاءت مقابلة ائتلاف القلوب عليه بسبب رحمته ولينه لهم، بانفضاض الناس عن غليظ القلب فظّ المعاملة، ولكن اكتفى النص هنا بذكر أحد المتقابلين، لأن الآخر يدل عليه.

ولما كانت الرحمة فضيلة خلقية كان غلظ القلب وقسوته رذيلة خلقية.

أما جاذبية هذا الخلق العظيم في الرسول فقد كانت جاذبية قوية جداً، جعلت القلوب تهفو إليه، وتؤمن به، وتتبعه، وتحبه، وبعض من آمن به قد تخطى عقبات كبرى في نفسه من أنانية وعصبية.

روى الحاكم والبيهقي في دلائل النبوة عن علي رضي الله عنه، أنّ يهودياً يقال له: فلان حَبْر، كان له على رسول الله ﷺ دنانير، فتقاضى[1] النبي ﷺ فقال له: «يا يهودي ما عندي ما أعطيك» قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى

(١) أي: طلب منه الدنانير التي له.

تعطيني، فقال رسول الله ﷺ: «إذاً أجلس معك» فجلس معه، فصلى رسول الله الظهر والعصر والمغرب والعشاء والغداة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهددونه ويتوعدونه، ففطن رسول الله ﷺ ما الذي يصنعون به، فقالوا: يا رسول الله، يهودي يحبسك، فقال رسول الله ﷺ: «منعني ربي أن أظلم معاهداً وغيره» فلمّا ترجل النهار[1] قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة: محمد بن عبدالله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا متزيّ بالفحش ولا قول الخنا، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وهذا ما لي فاحكم فيه بما أراك الله. وكان اليهودي كثير المال.

ودلت الآية على أنّ الرحمة من الأخلاق الفطرية التي يقذفها الله في قلوب عباده، ويقسم لهم منها بمقادير، إذ قال الله فيه: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾.

ويؤيد صحة هذا الفهم ما جاء في كثير من الأحاديث النبوية التي تحدثت عن الرحمة، فمنها الأحاديث التالية:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتقبّلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟».

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد، أن رسول الله ﷺ رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت، ففاضت عينا رسول الله ﷺ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟. قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

٣ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أي: امتد ووضح، وكان هذا في اليوم الثاني.

«إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

ومن مظاهر رحمة الرسول ﷺ بالمؤمنين، وكراهيته أن يتحملوا ما يعنتهم ويشقّ عليهم، نهيه لهم ﷺ عن الوصال في الصوم، وهو أن يواصل الصائم الليل والنهار، ويتبع بذلك اليوم الثاني، وفي هذا روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: نهاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل؟ قال: «إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني».

ومن مظاهر رحمة الرسول ﷺ ما رواه البخاري عن الحارث بن ربعي قال: قال رسول الله ﷺ:

«إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطوّل فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أُمّه».

ومن مظاهر رحمته ﷺ وصيته للأئمة في الصلاة أن يخففوا في صلاتهم، رحمة بالضعفاء والمرضى والشيوخ وذوي الحاجات الذين يقتدون بهم، ويصلون معهم، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء».

ومن مظاهر رحمته ﷺ أنه كان يترك بعض الأعمال من أعمال الخير، وهو يحب أن يعمل به، وذلك خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم، روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت:

«إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به، خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم».

ومن مظاهر رحمته ﷺ بأمته أنه كان يحب لهم التخفيف، ويودّ لهم التيسير في أمور دينهم، ويكره الغلو والتشديد ما وجد إلى ذلك فسحة في شريعة الله التي

أمره الله بتبليغها وتبيينها. وفي ليلة الإسراء والمعراج سأل ربّه التخفيف على أمته في الصلاة، ثم سأله التخفيف، ثم ما زال يسأله ذلك حتى خففها الله من خمسين صلاة في اليوم والليلة إلى خمس صلوات.

وبعد أن وصف الله رسوله في هذا النص بخلق الرحمة أرشده إلى ثلاثة أنواع من السلوك الأمثل لقائد الجماعة، وهذه الأنواع الثلاثة من السلوك هي ظواهر كريمة لخلق الرحمة في كثير من الأحوال، فمن كان في قلبه نسبة عالية من هذا الخلق العظيم فلا غرو أن تتجَلّى في سلوكه هذه الظواهر، وهي:

(أ) العفو عن السيئة.

(ب) الإحسان بالاستغفار، وهو من الشفاعة الحسنة.

(ج) التكريم بالمشورة.

ولما كان رسول الله محمد ﷺ قائد الأمة الخالدة قال الله له في الآية بعد وصفه بخلق الرحمة: ﴿فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر﴾.

الشرح:

* **أولاً**: أمّا العفو عن السيئة بدافع من خلق الرحمة في القلب فمن شأنه أن يملك القلوب، ويستولي عليها بالمحبة، وقد تحقق الرسول ﷺ بما أرشده الله إليه، فكان يعفو عن السيئات التي تمسه، وما كان يغضب إلّا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله.

روى البخاري ومسلم عن أنس خادم رسول الله ﷺ قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌ فجبذه بردائه جبذةً شديدة، ورجع نبي الله ﷺ في نحر الأعرابي، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثمّ أمر له بعطاء».

وروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ لنفسه

شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلّا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيلَ منه شيءُ قط فينتقم من صاحبه، إلّا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله».

وروى الإمام أحمد والترمذي عن عائشة قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح».

وهذا ما ملك به رسول الله قلوب أصحابه، حتى كانوا أطوع له من بنانه، إنهم عرفوا في قلبه الرحمة لهم، والشفقة عليهم، بالتجربة الطويلة الأمد، فكان حبّه في قلوبهم أعظم من حبهم لأنفسهم وأهليهم وأولادهم.

ولم تكن ظاهرة عفوه صلوات الله عليه خاصة بمعاملة من آمن به واتبعه، فقد أوصاه الله أن يعفو ويصفح حتى عن غير المسلمين، ما دام العفو والصفح مظنة لإصلاحهم، أو تخفيف شرورهم، أو تهديم ما في قلوبهم من غيظ وحقد وحسد، أو مظنة لتحقيق مثل ذلك في غيرهم من أهليهم وذراريهم وأقوامهم، أو آخرين يشهدون أو يسمعون.

قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

فهؤلاء يهود المدينة ما زال الرسول يطلع على خائنة منهم، رغم أنهم معاهدون، ومع ذلك فالله يرشد رسوله أن يعفو عنهم ويصفح، إبرازاً لسمة الخلق الإسلامي، ورحمة بهم لعلّ العفو عنهم والصفح يزيل ما في قلوبهم من حسد وعصبية، ويجذبهم لتقبل الإسلام، والدخول في جماعة المسلمين.

وقد بلغ من عفو الرسول وصفحه عن المسيئين إليه من قومه، أنه

لم يسمح لنفسه بأن يدعو عليهم، مع كل ما أصابه وأصاب أصحابه منهم من شدة وأذى.

روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنه قال: «بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟».

وروى البخاري أيضاً عن عبدالله بن عمر، قال: «بينا النبي ﷺ ساجدٌ وحوله ناس من قريش، جاء عقبة بن أبي معيط بسلى[1] جزورٍ فقذفه على ظهر النبي ﷺ ، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة رضي الله عنها، فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع ذلك».

ومع ذلك لم يكن من الرسول ﷺ دعاءٌ على قومه الذين اشتدوا في معاداته وإيذائه.

روى البخاري عن خباب بن الأرت، أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا، فقعد وهو محمرّ الوجه، فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشقّ باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله».

مِشاط: بكسر الميم جمع مشط، ويجمع على أمشاط.

ومن روائع عفو الرسول صلوات الله عليه عفوه عن كبير منافقي المدينة عبدالله بن أبي بن سلول، إذ قال عبدالله بن أبي مستنكراً شجاراً وقع بين أجير لعمر بن الخطاب وسنان الجهني ـ أحد حلفاء الخزرج من الأنصار ـ في

---

(١) السلى: هو الغشاء الذي يولد فيه الولد من الأنعام، وهذا الغشاء الرقيق إذا كان في الأنعام فالعرب تسميه سلى، وإذا كان في الإنسان فيسمونه مشيمة.

غزوة بني المصطلق: أَوقَد فعلوها؟ قد نافرونا[1] وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلّا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أَمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم!!.

جلابيب قريش: لقب أطلقه المشركون على المهاجرين من مكة، ولعله على سبيل الاستعارة إذ شبهوهم بذوات الجلابيب.

وبلغت الرسول مقالته، فقال عمر: يا رسول الله، مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟!. لا، ولكن أذّنْ بالرحيل ــ وكان ذلك في ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها ــ فارتحل الناس، ومشى الرسول بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك، حتى آذتهم الشمس، ثمّ نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم على الأرض حتى وقعوا نياماً.

وعلم عبدالله بن أبـي أن الرسول قد بلغته مقالته، فجاء إليه فحلف له بالله أنه لم يقل ما بلغه عنه، فقبل الرسول منه ظاهره، وعفا عنه، وهو يعلم أنه كاذب، وجاء ولد عبدالله هذا ــ وكان مؤمناً صادق الإيمان ــ إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبـيّ، فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بدّ فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبـي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار!! فقال له رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

---

(١) نافرونا: المنافرة المحاكمة في الحسب والمفاخرة، قال ابن سيدة: كأنما جاءت المنافرة في أول ما استعملت أنهم كانوا يسألون الحاكم أينا أعز نفراً. فيظهر أن مراده: غالبونا بكثرة نفرهم وفاخرونا.

ولمّا مات عبدالله بن أبـي بن سلول جاء ولده إلى رسول الله ﷺ فطلب منه قميصه ليكفّن أباه به، فأعطاه الرسول قميصه وكان ذلك مداراة لمشاعر الولد المؤمن البار بأبيه.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يتحلى بخلق العفو عمّن أساء إليه.

وفي العفو رحمة بالمسيء، وتقديرٌ لجانب ضعفه البشري، وامتثال لأمر الله، وطلب لعفوه وغفرانه، فمن عفا عن الناس عفا الله عنه.

وفي العفو توثيق للروابط الاجتماعية التي تتعرض إلى الوهن والانفصام بسبب إساءة بعضٍ إلى بعض، وجناية بعضهم على بعض.

* ثانياً: وأما الإحسان بالاستغفار الذي أوصى الله به رسوله في قوله: ﴿واستغفر لهم﴾ فهو يمثل روعة المشاركة الوجدانية في غيرة القائد الإمام على أتباعه المذنبين في جنب الله، ورحمته بهم، وإشفاقه عليهم، وحرصه على نجاتهم وسعادتهم، لذلك فهو يقدم شفاعته، فيسأل الله أن يغفر لهم.

فاستغفار الرسول لأمته مظهر من مظاهر رحمته لهم، واستغفار المسلم لأخيه المسلم قد يكون كذلك مظهراً من مظاهر خلق الرحمة في قلبه.

وهذا الاستغفار يمثل صورة من صور الوحدة الجماعية، التي عقدها الله بين المؤمنين بقوله في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . . ﴿١٠﴾ ﴾.

ووثقها الرسول بقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

فالمؤمنون يعلنون باستغفارهم لإخوانهم بين يدي ربّهم أنهم رحماء بهم، فإذا علم الله ذلك منهم وعلم صدقهم في تآخيهم، شملهم برحمته، فأكرم المستغفرين لإخوانهم، وأكرم بكرامتهم إخوانهم، كل ذلك وفق مشيئته وحكمته، ويقول لهؤلاء وهؤلاء أنا أجود وأرحم.

ولما كان الرسول صلوات الله عليه سيّد المؤمنين وإمامهم طلب الله منه أن يستغفر لهم، نظراً إلى أن ذلك من مظاهر رحمته بهم، ولما لذلك من أثر عظيم في تدعيم الرابطة الاجتماعية. ومن النصوص التي أمر الله فيها رسوله بأن يستغفر للمؤمنين قوله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وحين يقترن استغفار الذين ظلموا أنفسهم باستغفار الرسول لهم تتحقق لهم من الله التوبة والرحمة، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

ولكن هذا الاستغفار لا يكون إلا للمؤمنين، فلا يجوز أن يستغفر الرسول ولا غيره لغير من أعلن إسلامه، لأن فيه معارضة للحكم الرباني بأن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

وحين يكون الاستغفار للمنافقين المتظاهرين بالإسلام فإن الله يعذر

المستغفر لهم لجهله، ولكنه تعالى لا يستجيب لدعائه، قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾.

أي: فهو لا يحكم لهم بالهداية بعد أن سلكوا بإراداتهم الحرّة مسلك الكفر والضلال.

* **ثالثاً**: وأما التكريم بالمشورة فقد يكون ظاهرة من ظواهر خلق الرحمة، إذ يداري القائد فيها مشاعر أنصاره ومؤيديه العاملين معه.

يضاف إلى ذلك ما في المشاورة من فوائد عظيمة موضوعية واجتماعية، ففيها يستبصر القائد المشاور بوجهات النظر المختلفة، وقد يهتدي بها إلى وجه الصواب، وفيها تدعيم وتمكين لوحدة الجماعة، التي يشعر فيها الأفراد بأنهم يشاركون في مسؤوليات العمل كلها، ويشاركون بعد ذلك في تحمل النتائج.

فالمشاورة إذن من الظواهر الخلقية الاجتماعية الكريمة، التي يكرّم بها قائد الجماعة أهل المشورة من رعيته، إذ يجعلهم شركاء معه في الرأي، ولا يستبد من دونهم مستعلياً عليهم، مستكبراً برأيه على آرائهم، ومستقلاً بفهمه عن أفهامهم. فالاستبداد بالرأي والاستعلاء والاستكبار أمور تجرح مشاعر الآخرين، وتورث فيها ألماً قد يتحول إلى غضب فحقد فعداوة فكيد، والرحمة والحكمة تستوجبان من الإنسان خلاف ذلك.

ومشاورة الإنسان لأهل الرأي من أجل القضايا التي تخصه من حكمته وحسن تصرفه في الأمور، فهي تبصره بجوانب تخفى عليه مهما كان ذكياً عبقرياً مجرباً، لأن هوى النفس قد يصرف عن الفكر كثيراً من المدركات التي تختلف معه.

وحين ندرس بتفصيل المصالح التي تحققها مشاورة قائد الجماعة، لأهل الرأي والمشورة من جماعته، يتضح لنا ما يلي:

في مشاورة أهل الرأي والبصر النافذ تبصير ولي الأمر بوجوه الرأي المختلفة، وبما لكل منها من حسنات أو سيئات، وبما يحيط بكل منها من احتمالات نجاح أو فشل، وربح أو خسارة ومصلحة أو مفسدة.

إن الإنسان الواحد مهما بلغت به العبقرية لا بد أن يظل عرضة للعجز عن الإحاطة التامة بوجوه الأمور، لا سيما إذا كانت من الأمور السياسية أو الاجتماعية، نظراً إلى أن التبصر الصحيح بتلافيف المجتمعات الإنسانية، ومتعرجات النفوس البشرية، من أعقد الحقائق التي يمكن أن يتوصل إليها الإنسان.

فإذا شاور ولي الأمر أهل الرأي والمشورة من رعيته ضَمِن إدراك أسلم الطرق والأعمال، المحققة لأسلم النتائج وأفضلها.

ويرى بعض الناس أن لولي الأمر في المفاهيم المأخوذة من النصوص الإسلامية أن يأخذ بالرأي الذي يرى فيه الخير، سواءٌ أكان رأي الأكثرية أو رأي الأقلية، أو رأياً آخر لم يعرضه المستشارون، وليس ملزماً بأن يتقيد برأي الأكثرية، لأن الأكثرية ربما يسيطر على أفكارها الرأي الخاطىء، بدافع من الطمع أو الجبن أو غير ذلك، والله تبارك وتعالى قال لرسوله: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ فلم يلزمه بأن يتقيد برأي الأكثرية. وأرى أن هذا خاصٌّ برسول الله صلى الله عليه وسلم، أما من بعده فهم مكلفون العمل بمضمون قول الله عزوجل: ﴿وأمْرُهُم شورى بينهم﴾ أي: يجب عليهم أن يكون أمرهم الذي يقررونه ثمرة شورى بينهم، ولا سبيل بعد إسناد الأمر إلى الشورى إلا العمل برأي الأكثرية لأنه هو الأرجح في نظر المستشارين من أهل الحل والعقد في موضوع الشورى.

ومهما يكن من أمر، فمن الخير لولي الأمر في معظم الأحوال أن يتقيد برأي الأكثرية الصالحة، ومن الخير له إذا كان له رأي مخالف أن يناقشهم

الرأي، ويعمل بالإقناع على ردهم إلى ما يراه صواباً، إذا كان لديه في ذلك حجة قوية، فقد أخذ الرسول ﷺ برأي الأكثرية في الخروج إلى المشركين في غزوة أحد، مع أن رأيه الشخصي ورأي الأقلية قد كان على خلاف ذلك.

ولا غرو أن احتمالات الخطأ في رأي الأكثرية الصالحة أقل من احتمالات الخطأ في رأي الأقلية، أو في رأي آخر يراه ولي الأمر بنفسه. فالأخذ برأي الأكثرية من الأمور المفضلة، التي يحسن بولي الأمر أن يلزم نفسه بها في معظم القضايا، وأخذه برأي الأكثرية يعفيه من مسؤولية الخطأ بعد ذلك، أو يجعلهم شركاء معه في المسؤولية(١).

وحينما يحصل إجماع من أهل الرأي والمشورة على رأي من الآراء، فإن المفاهيم الإسلامية تقضي في مثل هذه الحالة بضرورة الأخذ بالرأي الذي حصل عليه الإجماع حتماً، وذلك لأن النصوص الإسلامية تؤكد وجوب العمل بما يجمع عليه المؤمنون، وتؤكد أن المؤمنين لا يجمعون على ضلالة، وحسب الرأي أرجحية أن لا يختلف في سداده أهل الرأي والمشورة من المسلمين.

وحين نتساءل عن المراد من (الأمر) الذي كلف الله رسوله أن يشاور أصحابه فيه بقوله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾، يظهر لنا أن المراد منه كل أمرٍ من أمور الجماعة التي ترتبط بها مصالح المسلمين بشكل عام، سياسياً كان أو قضائياً أو إدارياً، أو اجتماعياً، أو تنظيمياً، ما يتعلق من ذلك بشؤون السلم أو بشؤون الحرب، مما ليس من الأمور التعبدية البحتة، ومما لم ينزل فيه تشريع وأمر رباني.

وهي الأمور التي يعتبر أولو الأمر هم المسؤولون عن تصريفها وإدارة شؤونها، بما يرون فيه الخير والمصلحة.

أمثلة من مشاورة الرسول لأصحابه:

١ ــ مشاورة الرسول أصحابه في وسيلة الإعلام بدخول وقت الصلاة.

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف في كتابه «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» حول الشورى في باب «النظم السياسية المعاصرة».

قبل أن ينزل تشريع الأذان للصلاة على لسان الوحي، كان المسلمون في المدينة على إثر الهجرة إليها، يجتمعون للصلاة من غير إعلام بدخول وقتها، فكانوا إذا حان وقتها أتوا إليها من غير تذكير، ورأى الرسول أن قضية الإعلام بدخول وقت الصلاة قضية تنظيمية بحتة، فهي كبناء المساجد، ورفع المنارات ونحو ذلك، فرأى أن يستشير أصحابه في هذا الأمر.

فجمع الرسول أصحابه واستشارهم في اتخاذ وسيلة للإعلام بدخول أوقات الصلوات المفروضة، فدارت الآراء حول اتخاذ بوق كبوق اليهـود، أو ناقوس كناقوس النصارى، أو نار توقد عند دخول الوقت، وقال عمر بن الخطاب: أوَ لا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فأقر الرسول ﷺ رأي عمر، وأمر بلالاً بأن ينادي للصلاة.

ورأى عبدالله بن زيد بن عبدربه في منامه من علمه صيغة الأذان فأخبر الرسول ﷺ بها، فقال له الرسول: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال، فألق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى منك صوتاً».

وسمع بذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجرّ رداءه يقول: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل ما أري، فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد».

٢ ــ مشاورة الرسول ﷺ أصحابه في غزوة بدر.

لقد خرج الرسول بطائفة من المسلمين لاعتراض عير قريش العائدة من الشام، حتى إذا كان قريباً من بدر، أتاه الخبر بأن قريشاً خرجت لتمنع عيرها من المسلمين، فعقد الرسول مجلساً استشارياً عاماً، فقال: أشيروا علي أيها الناس، وأخبرهم بمسير قريش في جيشها لمنع عيرها، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»؛ ولكن نقول لك: اذهب

أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه.

ولم يكتف الرسول ﷺ بأقوال هؤلاء المهاجرين، وأراد أن يسمع من الأنصار وهم الكثرة في القوم، فتوجه إلى المسلمين فقال: أشيروا عليّ أنها الناس.

فقام سعد بن معاذ فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: أجل.

قال سعد: فقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسِر بنا على بركات الله.

وانتهت المشاورة بإجماع المسلمين على تفويض الأمر إلى الرسول صلوات الله عليه، فهم معه لا يختلف عليه في الرأي رجلٌ منهم.

٣ ــ مشاورة الرسول ﷺ أصحابه في الخروج إلى غزوة أحد.

لما علم الرسول ﷺ بأن جيش المشركين من قريش قد أقبل يريد غزو المسلمين في المدينة، وأنه عسكر خارج المدينة قرب أُحُد عقد الرسول مجلساً استشارياً عاماً للمسلمين، واستشارهم في الأمر الطارىء، وقال لهم: «فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

واختلف المسلمون في الرأي، فقال شيوخهم وهم القلة: نقيم في المدينة، فإن هم دخلوا علينا قاتلناهم في طرقاتها، ورمتهم النساء والصبيان من فوقهم.

---

(١) برك الغماد: اسم موضع بناحية اليمن، والسفر إليه قد كان سفراً شاقاً تقل فيه السلامة.

واتجه الرسول ﷺ لهذا الرأي، وكره الخروج من المدينة، وكان من المتحمسين لهذا الرأي عبدالله بن أبـي بن سلول زعيم المنافقين.

وأما الفريق الثاني من المسلمين وهم الأكثر عدداً، ومعظمهم من الشبان، ومن الذين فاتهم شهود غزوة بدر فقالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرونَ أنّا جبنّا عنهم وضعفنا.

واستجاب الرسول ﷺ لرأي الفريق الذي هو أكثر عدداً فدخل بيته، ولبس لَأْمَتَه[1] ثم خرج عليهم معلناً بما فعل عزمه على الخروج، فلمّا رأوا ذلك ندموا، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، ثم قالوا: يا رسول الله استكرهناك، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبـيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل.

٤ ــ مشاورة الرسول ﷺ أصحابه في غزوة الخندق، وهي التي تُسمى أيضاً غزوة الأحزاب.

من المعروف في هذه الغزوة التي دبّر اليهود مكايدها، أن العرب المشركين مع اليهود قد تحزبوا ضد المسلمين، ورموهم عن قوسٍ واحدة، وقد تجمعت أحزاب العرب في كتلتين:

الأولى: قريش ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة.

والثانية: غطفان ومن تبعهم من أهل نجد.

وأما يهود بني قريظة فكانوا كتلة ثالثة قابعة من وراء ظهور المسلمين في المدينة.

ولما عظم على المسلمين البلاء، رأى الرسول ﷺ أن يكسر عن طريق المصالحة على مالٍ حلقة من حلقات سلسلة الأحزاب الثلاثة، فأرسل وفداً لمفاوضة كتلة غطفان، على أن يرجعوا مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة، وجرت المفاوضة وقبلت غطفان بهذا العرض، وقبل أن يبتّ الرسول الأمر، عقد مجلساً

---

(١) اللأمَةُ: هي لباس الحرب.

استشارياً دعا إليه زعيمين من زعماء الأنصار، نظراً إلى أن الأمر يخص أهل المدينة بالذات، هما سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فذكر لهما ما أجرى من مفاوضة مع غطفان، وما همّ به.

فقالا له: يا رسول الله، أهذا أمر تحبه فنصنعه؟ أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيء تصنعه لنا؟.

قال الرسول: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة، وكالبوكم[1] من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما.

قال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرةً إلا قِرى أو بيعاً، أفحين أكثر منا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقطع الرسول المفاوضة مع غطفان، وعمل برأي السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

ونلاحظ لدى المقارنة بين أمثلة مشاوراته صلوات الله عليه ما يلي:

١ ــ المشاورة في بدر أسفرت عن إجماع المسلمين على رأي موحّد، وكان هو الرأي الذي يميل إليه الرسول ﷺ. . .

٢ ــ المشاورة في أحد أسفرت عن رأيين متعارضين، وقد أخذ الرسول برأي الأكثرية، استجابة لإلحاحها، وكان رأي الرسول يميل إلى الرأي المخالف.

٣ ــ المشاورة في الخندق أسفرت عن رأي مخالف لما كان الرسول قد اتجه إليه، فشرح الله صدره للرأي الذي قدمه أصحابه، فعمل به.

---

(١) كالبوكم: أي اجتمعوا عليكم، واشتدوا في الحرص على حربكم كما تشتد الكلاب.

هذا: وما أمر الله به رسوله تشمل ظلاله جميع المسلمين، نظراً إلى أنّه من الفضائل التي تعلي شأن كلّ من يتحلى بها، على أن الله تبارك وتعالى قد أمر المسلمين بالتحلي بهذه الفضائل أمراً مباشراً، سيأتي في موضعه إن شاء الله.

ـ ٣ ـ

إن ذلكم كان يؤذي النبـي فيستحيـي منكم

ووصف الله رسوله بأنه كثير الحياء، يناله ما يؤذيه من أصحابه، فيستحيـي أن يجرح مشاعرهم بأن يكفوا عمّا يؤذيه منهم، إذ يتعلق الأمر بـذات نفسه صلوات الله عليه، فمن ذلك أن بعضهم كان يثقل على الرسول ﷺ إذ يجلس عنده في بيت من بيوته، منتظراً وقت حضور الطعام، أو مستأنساً بالحديث بعد الطعام، ويكون الرسول في حاجة إلى أن ينصرف إلى أهله أو إلى بعض شؤونه الخاصة، فيستحيـي أن يطلب من الثقلاء أن ينصرفوا ويدعوه لشأنه الخاصّ.

وفي هذا أنزل الله تعالى قوله يخاطب الذين آمنوا في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غير ناظرين إناه: أي غير منتظرين وقت تناوله، أو وقت نضجه.

ولا مستأنسين لحديث: يظهـر لي أنه معـطوف على محـذوف، أي: لا متثاقلين ولا مستأنسين لحديث.

روى البخاري عن أنس بن مالك قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبـي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت

النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه. ولكن إذا دعيتم فادخلوا. فإذا طعمتم فانتشروا﴾ الآية.

فعلم الله الذين آمنوا ما يجب عليهم من أدب نحو رسول الله ﷺ ، وأبان لهم خُلُقاً عظيماً من أخلاق الرسول، وهو خلق الحياء، فهو يستحيي أن يجرح مشاعرهم، ولو كان ذلك في مقابل ما يكون منهم من عمل يؤذيه.

وجاء في وصف الرسول ﷺ على لسان أصحابه رضوان الله عليهم، أنه كان شديد الحياء، فكان أشد حياءً من العذراء في خدرها. روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.

— ٤ —
والرسول يدعوكم في أخراكم

وألمح القرآن إلى شجاعة الرسول ﷺ وثباته في مواقف البأس الشديد، ففي معركة أحد لما تحولت رياح النصر لصالح المشركين، بسبب مخالفة كتيبة الرماة أوامر الرسول ﷺ ، إذ رأوا أن المسلمين انتصروا وأن المشركين انهزموا، وطمعوا بالغنائم، وتركوا مواقعهم، عندئذ باغتهم المشركون من خلفهم، وفزع المسلمون، واضطربوا، وانهزموا متجهين إلى المرتفعات، يُصعِدون ولا يلوون على أحد، وثبت رسول الله ﷺ ولم يثبت معه إلا قلة، قال البراء بن عازب فيما رواه الإمام أحمد: «فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً» وقال ابن مسعود: «فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به، أفرد النبي ﷺ في تسعة، سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم» وقتل الأنصار السبعة دونه، وكذلك روي عن أنس بن مالك. والقرشيان هما طلحة وسعد بن أبي وقاص وجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله.

وروت عائشة أم المؤمنين عن أبيها رضي الله عنهما قال: «كنت أول من فاء يوم أحد».

وفي ذكر هذه الحادثة قال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴿١٥٣﴾﴾.

ومن شجاعة الرسول ﷺ في هذه المعركة، ما ذكر محمد بن إسحاق قال: لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه (أبـي بن خلف) وهو يقول: لا نجوت إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فقال بعض القوم كما ذكر لي: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً.

وعن عروة بن الزبير أن أبـي بن خلف طعنه الرسول ﷺ بحربته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش!! فذكر لهم قول رسول الله ﷺ «بل أنا أقتل أبيّاً» ثم قال: والذي نفسي بيده، لو كان هذا الذي بـي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، فمات إلى النار ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾.

وثبت الرسول ﷺ يوم حنين، لما انهزم المسلمون عنه أول الأمر، إذ باغتتهم هوازن وثقيف من مكامنها في الشعاب والمضايق، ولم يثبت مع الرسول ﷺ إلا قليل من الآلاف الاثني عشر.

قال ابن إسحاق: وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين أيها الناس؟! هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله.

وبقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وعن العباس بن عبدالمطلب قال: ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من النـاس: أين أيها النـاس؟! فلم أر الناس يلوون عـلى شيء، فقال: يا عباس، اصرخ، يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة، قال: فأجابوا لبيك، لبيك.

وفي بيان شجاعة الرسول ﷺ وثباته في مواقف البأس الشديد، قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: كنا إذا احمرت الحدق، وادْلَهَمَّ الخطب، لذنا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو.

وروى البخـاري ومسلم عن أنس قال: كـان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبـي ﷺ ـ وقد سبق الناس إلى الصوت ـ وهو يقول: «لن تراعوا، لن تراعوا» وهو على فرسٍ لأبـي طلحة عريٍ ما عليه سرجٌ، وفي عنقه سيف، فقال: «لقد وجدته بحراً».

أي وجدت الفرس سريعاً سباقاً.

ـ ٥ ـ

خذ العفو وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين

بهذه الظواهر من السلوك الخلقي أمر الله رسوله محمداً ﷺ ومعه كل مؤمن فقال له في سورة (الأعراف ٧):

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

ينزغنك: النزغ لا يكون إلا في الشر، يقال لغة: لا ينزغنك، أي لا يحركنك إلى الشر، ولا يستخفنك إلى فعله غضب، أوعجلة، أو رغبة جانحة، أو شيطان موسوس.

العرف المعروف، وهو ضد المنكر.

اشتمل هذا النص على توجيه من الله لرسوله ولكل مؤمن بالتحلي بثلاث ظواهر من السلوك الخلقي الحميد وهي:

أولاً: أخذ العفو عن إساءة المسيء.

ثانياً: أمر المسيء بالعرف، إن كان ممن يستجيب لذلك.

ثالثاً: الأعراض عن المسيء إذا كان من الجاهلين الذين لا يستجيبون للأمر بالمعروف.

(أ) أما ظاهرة العفو: فقد سبق شرحها لدى شرح قول الله تعالى لرسوله: ﴿فاعف عنهم﴾.

إلا أن قول الله تعالى لرسوله هنا: ﴿خذ العفو﴾ يشتمل على دلالة بديعة غايةٍ في إعلاء قيمة العفو، بوصفه أحد مكارم الأخلاق، إذ جعل الله العفو بمثابة ثمن عظيم يأخذه صاحب العفو، مقابل الإساءة المؤلمة التي يتلقاها من غيره، فهو جوهرة ثمينة جداً يضيفها إلى عقد مكارم الأخلاق التي يتحلى بها.

وهذا التعبير في إبداعه وروعته يعلن أن الأمور المعنوية تؤخذ كما تؤخذ الأمور المادية، فإذا كان المسيء قد أخذ رذيلة الإساءة، فتحولت في نفسه إلى وخزات في الضمير قد تؤلم ذا الوجدان الحي، فليأخذ المحسن فضيلة العفو، وليتمتع بلذة الشعور بمجد المكرمة، وحلاوة الرحمة والمسامحة، ونعم هذا الثمن العظيم مقابل مس الألم اليسير الذي تفعله الإساءة.

يضاف إلى هذا أن العفو ثوابه عظيم عند الله تعالى، فمن أخذ العفو فقد أخذ هذا الثواب العظيم، فملك به أجراً عند الله لا يستطيع أن يملكه لو سلك مسلكاً آخر غير العفو.

وإذا حللنا الاحتمالات التي يمكن أن يلجأ إليها الإنسان، في المواقف المحرجة التي يتعرض فيها لعدوان غيره عليه، وإيذائه له، لم نجد شيئاً منها يكون سبباً لشيء يؤخذ حقاً غير خطة العفو. أما الاحتمالات الأخرى ففيها خسارة لا ربح، لكن خطة العفو خطة رابحة، والربح أخذ والخسارة نقصان.

والاحتمالات تنحصر فيما يلي:

١ ـ إما أن يقابل العدوان بمثله، وهذا هو الانتقام بالعدل.

٢ ـ وإما أن يقابل العدوان بأشد منه، وهذا انتقام بإجحاف، وهو يولد في المجتمعات شروراً لا حد لها.

٣ ـ وإما أن يعفو، وهذه هي خطة الرشد التي تأمر بها مكارم الأخلاق، لأنها من الفضائل التي تقطع الشرور، وتشيع السلم، وتطفىء نيران الغضب والحمق، وتصغر الجاهل الغضوب الأحمق في نفسه، وتؤلب ضده جماهير العقلاء.

وتظهر لنا قيمة أخذ العفو إذا عرضناهُ في الصورة التمثيلية التالية:

أقام أحد المربين ساحة للامتحان الأخلاقي، وأخبر فريقاً من تلامذته بأنه سيدفع بهم إلى هذه الساحة، وأنهم سيتعرضون فيها لمن يؤذيهم، وأنهم سيجدون أنفسهم في مواجهة هؤلاء المؤذين أمام احتمالات يعملونها.

ففي وسط الساحة وعلى القرب منهم باب يقال له: باب العفو، إذا دخلوا منه خلصوا من احتمال مضاعفة الأذى، وحموا أنفسهم ووجدوا وراء هذا الباب مكاناً رحباً، وقصراً منيفاً، وحدائق وارفات الظلال، ثم يأتي إليهم خدم فيقدمون لهم ما يريدون من مالٍ ونعيم، ويقولون لهم: هذا عندنا ثواب من دخل باب العفو، إذ كان من العافين عن الناس.

وفي أقصى الساحة باب يقال له: باب الانتقام بالعدل، فمن أراد أن ينتقم لنفسه ممن آذاه فإنه سيجد نفسه مضطراً إلى مطاردة من آذاه، حتى يلهث من شدة العدو، ويبذل جهداً في المطاردة، وأخيراً يسبقه من آذاه فيدخل في باب الانتقام بالعدل، فيلاحقه الرجل فيدخل وراءه فيجد نفسه في ساحة العدل، وعندئذٍ قد يتمكن من مقابلته بالمثل، وربما كان المعتدي صاحب شر فيقاوم، وتشتد المعركة، وقد لا يظفر في هذه المعركة صاحب الحق، فلا يستطيع أن ينتقم لنفسه، فإن ظفر وانتقم لنفسه وانتهى الأمر، نظر في ساحة العدل فلم يجد شيئاً يأخذه، فرجع من حيث أتى جاهداً تعباً، لا يحمل ربحاً، ولم يصب متعة ولا مالاً.

وفي أقصى ساحة العدل أبواب يخرج منها المعتدون والمنتقمون بالعدل، فمن لاحق من المنتقمين خصمه من واحدٍ منها ليسرف في الانتقام أكثر من حقه انزلق في وادي الظلم، فأصابه فيه على مقدار ظلمه تهشيم وبلاء، ثم يخرج وهو يحمل أوزاره، وقد عرض نفسه لينتقم منه بمقدار ما زاد على حقه.

وقد أجرى المربي الأخلاقي اختباره على أتقن وجه. فكان من دخل باب العفو من المنعمين المكرمين المحظوظين بالعطاء السخي. وكان من دخل باب الانتقام بالعدل ولم يتجاوز حدود ساحة العدل محروماً من العطاء والتنعيم والتكريم، ورجع بعد خسارة الجهد بخُفَّيْ حنين. وكان من تجاوز ساحة العدل إلى وادي الظلم محروماً من العطاء ومن راحة النفس، ورجع يحمل أوزاره مطلوباً بعد أن كان طالباً.

فأي الثلاثة هو الآخذ الرابح؟ إنه من أخذ العفو، فما أروع قول الله تعالى: ﴿خذ العفو﴾.

(ب) وأما ظاهرة الأمر بالعرف: فهي هنا فضيلة تتبع فضيلة أخذ العفو، فمن الرحمة بالمسيء العفو عنه، وتعليمه فضيلة البر والإحسان بشكل عملي، ثم محاولة إصلاحه بتوجيه النصيحة الطيبة له، وأمره بالمعروف، لعل ذلك يقنعه بالحق وبالخير وبحسن الأخذ بالفضائل، فينقله إلى ما يجب أن يلتزم به من الكف عن الإساءة والظلم والعدوان.

إن من يعفو عن المسيء يقدم له بالعفو وسيلة تربوية عظيمة لإصلاحه وتهذيبه، ويهيئه بذلك لتقبل نصيحته، وذلك لأن من ناله أذى من أحد إخوانه المسلمين فصبر عليه وعفا عنه وسلك طريق الفضيلة المثلى، وأخذ بخطة الرشد، فإنه لا بد أن يرتفع في نفس من آذاه، إذا كان هذا الذي آذاه إنساناً ذا ضمير مؤمن، لأن هذا لا بد أن يحس في قرارة نفسه بأن من عفا عنه مع قدرته على أن ينتقم منه أكرم منه نفساً، وأفضل منه خلقاً، وأعلى منه مكانة، فيتصاغر في نفسه أمام من عفا عنه. ومتى وصل الإنسان إلى مثل هذه الحالة من الشعور كان أكثر استعداداً لتقبل النصيحة لا سيما من قبل الشخص الذي عفا عنه، وقلما يتمرد على نصيحته، إذ سيكون مدفوعاً بدافع تغطية النقص الذي ارتكبه، فيستكين للنصيحة التي يقدمها له من رأى أنه أكمل منه خلقاً. ولما كان الأمر كذلك كانت الفرصة مواتية جداً للأمر بالمعروف.

فعلى من سلك طريق فضيلة العفو أن يغتنم الفرصة فيأمر صاحبه بالمعروف، ما لم يكن صاحبه من الجاهلين أهل الغضب الذين يزيدهم مثل هذا الأمر تمرداً ووقاحة وعناداً، ولكن حكمة الأمر بالمعروف في مثل هذا الموقف تقتضي منه أن يختار الأسلوب والكلام الملائم تماماً للموقف الذي هو فيه، عندئذ يجمع في موقف واحد فضيلتين: فضيلة العفو، وفضيلة الأمر بالعرف، وينتج عن هاتين الفضيلتين خيرٌ كثير.

والسر في اختيار كلمة: (العرف) هنا بدل كلمة: (المعروف) الإشارة من طرف خفي إلى أن الأمر بالمعروف في مثل هذا المقام ينبغي أن يكون رفيقاً مقتضباً، لا عنيفاً ولا مسهباً، لأن الموقف لا يتحمل العنف ولا الإسهاب.

(ج) وأما ظاهرة الإعراض عن الجاهلين: فهي هنا فضيلة تتبع أيضاً فضيلة العفو، وذلك لأنه قد يوجد في المسيئين أقوام جاهلون، يسيئون ولا يقبلون النصيحة، ولا يؤثر فيهم الأمر بالمعروف مهما كان حكيماً، رغم العفو عنهم وعدم مجازاتهم على إساءاتهم، وألطف وسيلة لمعالجة هؤلاء والخلاص من شرورهم الإعراض عنهم، والانصراف عن الأمكنة التي يكونون فيها.

لأن هذا الصنف من الناس لا يناسبه في مثل هذا الموقف الأمر بالعرف، إذ سيجعله يتمادى ويتطاول في غيِّه، ولكن يناسبه الإعراض عنه، حتى يشعر بأنه منبوذ يُتقى شرُّه، فإن كان فيه شيء من خير أصلحه ذلك، وإلا بقي منبوذاً، وصار الناس يتحامون شره وأذاه.

فالإعراض عن الجاهلين ظاهرة خلقية تتبع ظاهرة أخذ العفو.

وهكذا كان توجيه الله لرسوله أن يأخذ العفو، ويأمر بالعرف، ويعرض عن الجاهلين، وكذلك كان خلق الرسول ﷺ.

وهذا التوجيه من الله موجه أيضاً لكل مؤمن أن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين، ولكن أكثر الناس يستخفهم الغضب متى وجهت لهم الإساءة أو الأذية، فيخرجون عن طور الرصانة والثبات، وتتحرك نفوسهم للانتقام ممن أساء إليهم أو آذاهم، وتمتد على بصائرهم غشاوة تحجب عنهم رؤية الفضيلة، ولا يرون إلا إرضاء نفوسهم الراغبة بالانتقام، ولا يمرُّ في خاطرهم إلا البحث عن الوسائل التي تحقق لهم إرضاء نفوسهم. وقد جاءت التربية الإسلامية بعلاج لهذه الحالة، فأعلمت المؤمن أن هذا من نزغات شيطان النفس، وأن باستطاعته أن يطردها بأن يستعيذ بالله، فالاستعاذة بالله سلاح معنوي قوي لطرد نزغ الشيطان عن النفس، وفي ذلك قال الله تعالى في النص بعد الأوامر السابقة:

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾.

وبهذا يشير النص إلى أن ثورة الغضب الدافعة إلى الانتقام الشديد الذي يتجاوز فيه المنتقم حدود الحق، هي من نوازغ الشيطان، وذلك لأن نوازغ الشيطان تغذي دوافع الأنفس، وتنفخ في نارها، وتزيد من أوارها.

والاستعاذة بالله تصرف عن الأنفس الشياطين ونوازغها، إذا كانت استعاذة صادقة خالصة، ومتى انصرفت نوازغ الشيطان كانت دوافع الأنفس واقعة بين طرفين متكافئين، هذا يستدنيها إلى الخير، وذلك يستدنيها إلى الشر،

ثم تأتي نفحات التوفيق الرباني فترجح الاتجاه نحو الخير، وعند ذلك تصح الرؤية، وتنجلي البصيرة، فيدرك صاحبها الخير والكمال ومرضاة الله، وما ينبغي أن يتحلى به المؤمن.

والاستعاذة بالله مفتاح تذكر الله تعالى، وتذكر فضيلة الصبر وفضيلة العفو، وتذكر ما أعد الله من ثواب عظيم للصابرين العافين عن الناس، ومع هذا التذكر أيضاً تنجلي البصيرة، وتزول الغشاوة التي سببتها نزغات الشيطان، فتعود إلى رؤيتها الصحيحة، وعندئذ يسكن هيجان النفس، ويبـرد غليان الغضب، ويؤثر المؤمن المتقي جانب الفضيلة، ويتجه لابتغاء مرضاة الله.

والاستعاذة بالله إذ تفتح أبواب مراقبة الله، تكون سبباً لانشغال ساحة التصور بعناصر القاعدة الإيمانية والواجبات الإسلامية، وانشغال ساحة التصور بذلك يصرف النفس بشكل طبيعي عن النوازغ وما يرافقها من خواطر سيئات ورغبات جانحات، إذ حلت محلها التصورات الخيرة، ورغبات العفو والإحسان وفعل الصالحات، وأخيراً تتلاشى النوازغ أمام دوافع الرحمن، وتبرد النفس وتعود إلى ثباتها واستقامتها وحبها للفضيلة، قال الله تعالى:

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طـائف من الشيطان تـذكروا فـإذا هم مبصرون﴾.

أي فإذا هم مبصرون سبيل رشادهم وسعـادتهم، ومبصرون طـريق الفضيلة الأمثل.

أما إخوان الشياطين فإنهم يصغون إلى وساوسهم، ويستجيبون لنزغاتهم، فيسقـطون في الغي والضلال، وشيـاطينهم ينفخون في نفـوسهم مدداً من النزغات، ويتابعون دفعهم إلى مواقع الغي والضلال، ولا يقفون معهم عند حد، ولا يقصرون عند مستوى من المستويات، حتى يهلكوهم، ثم يسخروهم في إغواء الناس وإضلالهم، وإثارة الفتن والشرور، قال الله تعالى:

﴿وإخوانُهم يَمُدُّونهم في الغي ثم لا يُقْصِرون﴾.

أي وإخوان الشياطين تمدهم شياطينهم في الغي، إذ تقدم لهم مختلف الوساوس والنزغات التي تزين لهم الشر، وتحسن لهم الانغماس في الغي.

ثم لا يقصرون: أي لا يقفون بهم عند حد دون الدرك الأسفل من الهلاك والعذاب.

ـ ٦ ـ

ولربك فاصبر

١ ـ بهذا السلوك الخلقي وهو الصبر أمر الله رسوله محمداً ﷺ، في نحو عشرين موضعاً من القرآن الكريم، منها قول الله في سورة (المدثر ٧٤):

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

أي: لابتغاء مرضاة ربك وحده فاصبر.

٢ ـ ولما واجهه الذين كفروا بالتكذيب والاتهام بأنه شاعر وساحر وكاهن ومجنون، أمره الله بأن يصبر على ما يقولون فقال له في سورة (المزمل ٧٣):

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾.

وقال له في سورة (ق ٥٠):

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾.

وقال له في سورة (ص ٣٨):

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾.

وقال له في سورة (طه ٢٠):

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

وقال له في سورة (الطور ٥٢):

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

فأعطاه الله مع هذه الأوامر بالصبر على ما يقول الذين كفروا، عظة التأسي بمن سبقه من الرسل، ودواء نفسه وقلبه، والسلوك الخلقي الذي يعامل به المكذبين الذين يجرحونه بألوان الاتهامات ويشتمونه بمختلف الشتائم، ثم وعداً ضمنياً بالحفظ والنصر.

(أ) ففي التأسي قال الله له: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾.

(ب) وفي مداواة نفسه وقلبه أمره بأن يسبح بحمد ربه، قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن آناء الليل، وأطراف النهار، وأدبار السجود، ففي هذا التسبيح علاج روحي ونفسي عميق، يفصله عن آلام الأرض ومتاعبها، ويشد صلته بالله، ويزيد من مراقبته له، فيفرغ الله عليه بذلك الطمأنينة والسكينة، وراحة النفس والقلب وسعادتها.

(ج) وفي توجيهه إلى السلوك الخلقي الذي يعامل به المكذبين قال له: ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ أي: لا تقابلهم بالمثل، ولكن أعرض عن مجالس شتائمهم برفق، لتعود إلى نصيحتهم وكأنك لم تسمع منهم شيئاً يؤذيك.

(د) وفي الوعد الضمني بالحفظ والنصر قال الله له: ﴿فإنك بأعيننا﴾ وقال له: ﴿لعلك ترضى﴾.

٣ ــ وصبر الرسول، واتبع ما أمره الله به، ولكن تطلعت نفسه سائلةً وماذا بعد الصبر؟ فقال الله له في سورة (هود ١١):

﴿ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

٤ ــ وجحد الذين كفروا بعذاب يوم الدين، فأمر الله رسوله بأن يصبر عليهم صبراً جميلاً، فقال له في سورة (المعارج ٧٠):

﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾.

٥ ــ وأمعن المكذبون بالرسول في تكذيبه، حتى طلبوا منه تعجيل العذاب لهم، إن كان صادقاً، فأمره الله بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ونهاه عن أن يستعجل لهم العذاب، فقال له في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ . . . ﴿٣٥﴾ ﴾.

ونهاه أيضاً عن أن يكون كصاحب الحوت الذي استعجل لقومه العذاب، وهو يونس عليه السلام، فقال له في سورة (القلم ٦٨):

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ . . . ﴿٤٨﴾ ﴾.

٦ ــ واشتد حرص الرسول على هداية من أصر على الكفر من قومه، وبلغ الحرص في نفسه مبلغ الحزن عليهم من جهة، وضيق الصدر من مكرهم من جهة أخرى، فقال الله له في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

٧ ــ وحاول الذين كفروا والمنافقون أن يثنوا الرسول عن بعض ما أنزل إليه، فقال الله له في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

٨ ــ وطال مدى الصبر، وتساءلت نفس الرسول ونفوس الذين آمنوا معه، متى يتحقق وعد الله بالنصر؟ فقال الله له في سورة (الروم ٣٠):

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

وقال له في سورة (غافر ٤٠):

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

٩ ــ فلقد كان في خلق الرسول الذي فطر عليه خلق الصبر، الذي كان يظهر في تحمله، وحلمه، وأناته. وزاد هذا الخلق ونما في نفس الرسول، بألوان التربية التي أدبه الله بها، وبالتجارب الكثيرة التي مارسها في حياته صلوات الله عليه، فكان أعظم قدوة حسنة للناس في فضيلة خلق الصبر.

وعن خلق الصبر تظهر فضائل كثيرة من فضائل السلوك الخلقي.

ــ ٧ ــ
ولا تمنن تستكثر

من خلق الرسول الجود وحب العطاء فقد كان أجود الناس، ولكن الله وجهه إلى أكمل صور العطاء النابع عن الخلق الأصيل في النفس، وذلك بأن لا يتبع عطاءه بالمن مهما رأى العطاء كثيراً، وبأن لا يستكثر ما يعطيه، فإن من

يحب العطاء في خلقه لا يرى أي عطاء يعطيه كثيراً، إذ في نفسه من الرغبة بالعطاء ما هو أكثر بكثير، لذلك فهو يرى الكثير الذي يعطيه قليلاً، فقال الله له في سورة (المدثر ٧٤): ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾.

أو ولا تعطِ حالة كونك طالباً ممَّنْ تعطيه أكثر ممّا أعطيته، بل أعط ابتغاء مرضاة الله، والمعنى وأعط غير مستكثر.

وفي هذا التوجيه الرباني للرسول توجيه لبلوغ أكمل مراتب الجود الإنساني.

وتحقق الرسول بهذا الخلق العظيم، فلم يكن يمنّ في عطائه، ولم يكن يستكثر عطاء مهما بلغ، ولم يكن يرجو ممّن يعطيه المكافأة بأكثر، ولم يكن يمُنُّ على ربّه بما يبذل في سبيل تبليغ رسالته. وحينما يقلل من مقادير العطاء أو يكثر، فإنما يتبع ما يراه الحكمة والمصلحة، مما يرجو فيه مرضاة الله، دونما بخل أو اتباع هوى.

— ٨ —

واخفض جناحك للمؤمنين

ممّا أدّب الله به رسوله أن يتحلّى بخلق التواضع وخفض الجناح للمؤمنين، فالتواضع يتألّف القلوب، ويملكها بالمحبة، لا سيما إذا كان من عظيم القوم لأتباعه وجنوده والمنتمين إليه. وقد كان الرسول ﷺ ـ كما أدبه الله ـ متواضعاً خافض الجناح لين الجانب، إذا جلس بين أصحابه كان كأحدهم، فيأتي قاصده فلا يعرفه فيقول: أيّكم محمّد، وإذا سار مع أصحابه كان كأحدهم، لا يتعالى ولا يترفّع عليهم، ولا يعطي لنفسه امتيازاً إلّا ما تقتضيه طبيعة القيادة والأمر والنهي.

وفي تأديب الله لرسوله بهذا الأدب قال الله له في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

ثم قال له في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وهذا الأمر الثاني أوسع دائرة من الأمر الأول، لأنّه قد شمل كل المؤمنين، ولو اقتضت ظروف بعضهم أن يخفي أمره أمام المشركين، ولا يعلن اتباعه، ومجاهرة المشركين بالانفصال عنهم والانحياز الكامل لصف الرسول ﷺ. والنصّان مكيّان إلّا أنّ سورة الشعراء أسبق نزولاً من سورة الحجر، وفي هذا التأديب تدّرج في مراتب الكمال.

ومن تواضع النبي ﷺ وبعده عن كل مظاهر الكبر والاستعلاء، ما رواه ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس: أنّ النبي ﷺ كان يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار، لقد رأيته يوم خيبر على حمارٍ خطامه ليف.

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، وقالت: كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

وروى البخاري عن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مَهْنة أهله ــ تعني خدمة أهله ــ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

وروى البخاري عن أنس قال: كانت أَمَةٌ من إماء أهل المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وروى مسلم عن أنس أنّ امرأة كان في عقلها شيءٌ، فقالت: يا رسول الله، إنّ لي إليك حاجة، فقال: «يا أم فلان، انظري أيّ السّكك شئت حتى أقضي لك حاجتك» فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها.

وروى الترمذي عن أنس، أن رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل

لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُرَ مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له.

وروى النسائي والدارمي بإسناد صحيح عن عبدالله بن أبـي أوفى، قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويُقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويُقصّر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي الحاجة.

ـ ٩ ـ
ولا تمدَّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم

ومما أدّب الله به رسوله أن يتحلى بخلق العفة عما في أيدي الناس من زهرة الحياة الدنيا، وأن يقنع بما قسم الله له ولا ينظر إلى ما آتى الله عباده من ذلك مهما كان شأنه.

فكان رسول الله كما أدبه الله أعفَّ خلق الله عما في أيدي الناس، وعن الدنيا بما فيها، وعرضت عليه زينتها فأباها.

وفي تأديب الله لرسوله بهذا الأدب أنزل عليه في المرحلة المكية قوله في سورة (الحجر ١٥):

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴿٨٨﴾ ﴾.

أزواجاً منهم: أي أصنافاً منهم، وهم أهل الغنى والثراء والمترفون.

فلم يمدّ الرسول ﷺ عينه إلى شيء مما آتى الله الناس من متاع الحياة الدنيا، وحول نظره إلى ما ادّخر له في الفردوس الأعلى من مقامٍ كريم ونعيم مقيم، ولم يكن يتمنى لنفسه شيئاً مما في أيدي الناس من متاع الحياة الدنيا، تخلقاً بما أدبه الله به.

ثم أنزل الله عليه في المرحلة المدنية قوله الذي في سورة (طه ٢٠):

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾.

فهذه الآية مدنية مع أن السورة في معظمها مكية، وقد أبان الله في هذه الآية أن متاع الحياة الدنيا وزهرتها مما يعطيه الله بعض عباده ليبتليهم فيه، أي وليس هو تكريماً لهم ولا تشريفاً، ثم قال له: ﴿ورزق ربّك خيرٌ وأبقى﴾.

وفي الصحيح أنّ الرسول ﷺ لما حلف على نسائه أن لا يقربهن شهراً، اعتزل في غرفة صغيرة ليس فيها شيءٌ من متاع الحياة الدنيا، فدخل إليه عمر بن الخطاب فرآه متوسّداً على حصير، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله إنّ كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، فقال: «أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض.

وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقَلِ ما يملأ به بطنه.

الدّقَل: تمرٌ رديء.

— ١٠ —

فاصفح الصفح الجميل

ومما أدّب الله به رسوله أن يتحلى بخلق الصفح، وهو الإعراض عن مواجهة السيئة بمثلها، وقد كان رسول الله ﷺ أجمل الناس صفحاً، يتلقى من قومه الأذى المؤلم فيعرض عن تلويمهم أو تعنيفهم أو مقابلتهم بمثل عملهم، ثم يعود إلى دعوتهم ونصحهم كأنما لم يلق منهم شيئاً.

وفي تأديب الله لرسوله بهذا الأدب أنزل الله عليه في المرحلة المكية قوله في سورة (الحجر ١٥):

﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩ ﴾.

فكان يقابل أذى أهل الشرك بالصفح الجميل، وهو الصفح الذي لا يكون مقروناً بغضب أو كبر أو تذمر من المواقف المؤلمة وكان كما أدبه الله تعالى.

ثم كان يقابل أذاهم بالصفح الجميل، ويعرض قائلاً: سلام.

وفي العهد المدني لقي الرسول ﷺ من يهود أهل المدينة أنواعاً من الخيانة، فأنزل الله عليه قوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣ ﴾.

فصبر الرسول ﷺ عليهم وعفا وصفح، حتى جاء الإذن الرباني بإجلائهم، ومعاقبة ناقضي العهد منهم.

— ١١ —
ادفع بالتي هي أحسن

ومما أدّب الله به رسوله أن يدفع بالتي هي أحسن، أي أن يدفع أية إساءة توجه له، وأية معاملة يقابل بها، وأية كلمة يواجه بها، وأي خلق، وأية خصلة تسوؤه من غيره بالتي هي أحسن، أي بالخصلة التي هي أحسن، وبالكلمة وبالطريقة وبالمعاملة التي هي أحسن، وهذا الأدب الموجه للرسول ﷺ موجه

أيضاً لكل المؤمنين. فأنزل الله على رسوله في العهد المكي قوله في سورة (فصلت ٤١):

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

ثم أنزل عليه في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

فالرسول ﷺ في طريق عودته إلى الله، لا بد أن يجد من قومه ألواناً مما يكره، من سفاهاتهم، وجهالاتهم، وإساءاتهم، من أقوالهم ومن أعمالهم، فهل يدفع ذلك بمثله أو بأعنف منه؟.

الله يقول له: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾. ويقول له: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾.

ولما كان في فطرة ضمير كل إنسان الإحساس بكمال الفضائل الخلقية وجمالها، ونقصان الرذائل الخلقية وقبحها، فلا بد أن يشعر بنقص نفسه وقبح عمله، ولا بد أن يتصاغر في نفسه ولو بعد حين، إذا هو أساء لإنسان فقابله ذلك الإنسان بالعفو والإحسان مع قدرته على أن يقابله بمثل إساءته أو بأشد منها.

فمن صبر على سوء أخلاق من أساء إليه مرة بعد مرة، ولم يقابل سفاهته بالغضب، ولا إيذاءه بمثله، ونصحه برفق، وأبان له أنه قادر على أن ينتقم منه، إلّا أنه آثر أن يدفع بالتي أحسن ــ ابتغاء مرضاة الله، وحرصاً على روابط الأخوة

الإيمانية بين المؤمنين، أو على سلامة الجماعة الواحدة وأمنها ـ فلا بد أن يحرك فيه جذر الحياء الكمين في أعماق نفسه، فيستحيي من إساءاته، ومما بدر منه من خلق سيء، ومعاملة مؤذية. ومع الاستحياء تتصاغر نفسه، فيحاول أن يغطي نقيصته باسترضاء صاحبه، فيتقرب إليه بأسباب المودّة، ويكف عن متابعة إساءته، وتتهدم عداوته التي حركته إلى الإساءة، حتى يكون وليّاً حميماً، أو كأنه بمعاملته ولي حميم.

ولا يشذ عن هذا إلا ممعن في الإجرام، عدو لا يزيل عداوته إكرام ولا إحسان ولا عفو ولا أية فضيلة خلقية، وهذا الشاذ له علاجٌ خاص مستثنى من القاعدة العامة.

ولما كان من شأن الدفع بالتي هي أحسن أن يكون سبباً في تحويل الأعداء إلى أصدقاء قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.

ولكن لا يستطيع ضبط نفسه فيدفع بالتي هي أحسن إساءات من يسيء إليه، إلا إنسان ذو إرادة قوية صبور، قادر على تحمل المكاره، وكظم الغيظ وترك الانتقام، ذو حظ عظيم من الأخلاق الفاضلة، وفي بيان هذا قال الله تعالى: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

ومع ضبط النفس وإيثار الدفع بالتي هي أحسن تأتي وساوس الشيطان ونزغاته، فتحرك النفس إلى الانتقام، وتزينه لها، وتوسوس بأن الشر لا يُدفع إلا بمثله، وبأن الذين يبدأون بالإساءة يجب معاقبتهم بمثل إساءتهم أو بأكثر منها، حتى لا يتجرأوا على الإساءة مرة أخرى، وقد أبان الله الدواء الصارف لهذه الوساوس والنزغات، وهو الاستعاذة بالله من همزات الشياطين، فقال تعالى: ﴿وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾.

وعلّم الله رسوله صيغة الاستعاذة فقال له: ﴿وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إنه هو السميع العليم﴾ بعد الأمر بالاستعاذة بالله دليل

على أن المراد من الاستعاذة ليس مجرد ذكر الاستعاذة باللسان، فالاستعاذة باللسان وحده لا تنفع ولا تدفع عن الإنسان نزغ الشيطان، وإنما الذي ينفع هو الاستعاذة اللسانية المقرونة بصدق الاستعاذة القلبية، وذلك بإحضار معناها في التصور مع اتجاه الإرادة الجازمة لذلك، واللسان مساعد لاستجماع هذه الحالة في داخل النفس.

وعلى هذا نفهم النص على الوجه التالي: فاستعذ بالله بلسانك وبقلبك، فالله هو السميع لما تذكر بلسانك والعليم بما في داخل نفسك، أي فهو عندئذ يستجيب لك فيصرف عنك وساوس الشيطان ونزغاته.

قال الإمام الرازي في قوله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

«قوله تعالى: ﴿إنه سميع عليم﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك. وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر» انتهى.

ويبدو أن مراد الإمام الرازي ليس مجرد العلم بمضمون الاستعاذة، بل العلم مع اتجاه الإرادة وصدقها في طلب الاستعاذة من الله تبارك وتعالى، ولذلك جمع العقل والقلب، وهذا في الحقيقة هو الذي ينفع في كل الأدعية وفي كل الأذكار.

— ١٢ —

ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضَيْق ممّا يمكرون

وفي تأديب الله لرسوله، حتى يكون في حالة نفسية رضية مطمئنة، متوازنة خلقياً بين مختلف المثيرات والمهيجات الانفعالية العاطفية، أنزل الله عليه قوله في سورة (طه ٢٠):

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (النمل ٢٧):

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

فكرر عليه هذا التوجيه التربوي مرتين، وأضاف في المرة الثانية قوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته، ومعهم بنفحات قدسه التي تؤنسهم وتسعدهم وتشرح صدورهم.

والتوازن الخلقي النفسي الذي يربي الله رسوله عليه في هذين النصين إضافة إلى خلق الصبر، يشتمل على عنصرين:

العنصر الأول: أن يجعل لرحمته بقومه حدوداً، وعليه أن لا يتجاوز هذه الحدود، فهو يرحمهم رحمة عظيمة، فيدعوهم إلى هدايتهم ورشادهم وسعادتهم، ويكون حريصاً عليهم، عزيزاً عليه عنتهم، لكنهم إذا اختاروا لأنفسهم سبُل ضلالتهم وتعاستهم وشقائهم، فلهم شأنهم، وعليهم أن يتحملوا نتائج اختيارهم، وإذا كان الأمر كذلك فيجب عليه أن لا يحزن عليهم، فشفقته عليهم لا ينبغي أن تصل إلى منطقة تتعارض فيها مع حكمة ابتلائهم، القائم

على اختيارهم، والمستلزم لعقابهم، فالشفقة عليهم عندئذ في غير محلها، والحزن عليهم عندئذ في غير محله. ويجب عندئذ أن تأتي عاطفة الرضا بالعدل الرباني، والتسليم التام لحكمة الله في خلقه. فمن كان كامل الوعي، جيد المعرفة، حر الإرادة، واختار لنفسه سبيلاً، فعليه أن يتحمل نتائج اختياره، ولا ينبغي أن يكون غيره أشفق عليه من نفسه.

نعم قد تكون الشفقة مع حالة من حالات العذر، كفقدان الوعي، والجهل بالأمر وما يفضي إليه، وفقدان الإرادة الحرّة، لكن إذا لم يكن شيء من ذلك فلماذا يُعذّب الرحيم الرؤوف نفسه من أجل إنسانٍ ركب رأسه عناداً، ولم يشفق على نفسه من العذاب الأليم مع بيانه له، وإرشاده إلى طريق سلامته وسعادته.

ولما كانت رحمة الرسول ﷺ بقومه عظيمة جدّاً، ورأفته بهم عاطفة سائدةً، كان بحاجةٍ إلى جرعات متعددة من التأديب الرباني، لشد لجام عاطفة الرأفة والرحمة، حتى تقف عند الحدود التي يحسن في ميزان الخلق السوي الفاضل أن لا تتجاوزها، فأنزل الله عليه قوله في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

أي أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً تكون أنت يا محمد قادراً على أن تكرهه على الهداية، وقد منحه الله الاختيار ليمتحنه، فيحكم عليه بعد ذلك بالضلال ضمن مشيئته الحكيمة، أو يحكم له بالهداية ضمن مشيئته الحكيمة، الموافقة لمقتضى عدله أو فضله. فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إذا هم اختاروا لأنفسهم سبُل ضلالهم وشقائهم، وساروا إلى نهاياتهم التعيسة.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

لعلّك باخع نفسك: أي لعلك مهلك نفسك وقاتل نفسك حزناً عليهم، لأنهم لم يؤمنوا.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (النمل ٢٧):

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الحجر ١٥):

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴿٨٨﴾﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (لقمان ٣١):

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الكهف ١٨):

﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

أي فلعلك مهلك نفسك أسفاً وحزناً على آثارهم إن لم يؤمنوا بالقرآن وما جاء فيه، وليكن بعلمك أنهم في هذه الحياة الدنيا في موضع الابتلاء، لنبلوهم أيهم أحسن عملاً، ومقتضى الامتحان أن يختار منهم فريق طريقه إلى الجنة، ويختار منهم فريق طريقه إلى النار.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (النمل ٢٧):

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴿٧٠﴾﴾.

وهكذا تكررت على الرسول ﷺ من ربه التوجيهات التربوية في المرحلة المكية ليخفف من شدة عاطفته نحو الذين اختاروا من قومه سبيل الكفر على

سبيل الإيمان، فلا يحزن عليهم، واشتمل هذا التوجيه على الإقناع بأصل الغاية من الخلق.

أما في المرحلة المدنية فقد غدت عاطفة الرسول ﷺ متجهة بقوة للمحافظة على من أسلم واتبعه، حرصاً على قوة المسلمين ورغبة باستعلاء دين الله، وغدت نفسه يشتد فيها الحزن إذا رأى بعض من أسلم يسارع في الكفر، وكان هؤلاء من فئة المنافقين في حقيقة الأمر، فأنزل الله عليه في أوائل العهد المدني قوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه في أواخر العهد المدني قوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ... ﴿٤١﴾ ﴾.

فكانت هذه المتابعة التربوية لضبط عاطفة الرسول ﷺ وتوجيهها ضمن الحدود التي ينبغي أن لا تتعداها، وضبط العواطف من أهم وسائل تكوين الأخلاق الفاضلة، والسجايا الحميدة.

العنصر الثاني: أن لا يكون الرسول ﷺ في ضَيْق مما يمكر الكافرون أي أن لا يكون في غمّ يشدّ على نفسه وقلبه ويضيّق عليهما، ويذهب بانشراح الصدر. وهذا جانب آخر من التربية النفسية ذات التأسيس الخلقي، فمن شأن الإنسان أن يناله هذا الضّيْق كلما شعر بعنف كيد أعدائه وشدة مكرهم له، وهذه الحالة قد تفسد على البصيرة رؤيتها للأمور، فلا ترى المخارج التي تنقذ من دوائر الكيد والمكر.

وصحة الحالة النفسية من عوارض الغمّ والضّيْق تُعطي ثباتاً خلقياً نفسياً، ينتج عنه سلوك خلقي قويم كريم.

ومِثْلُ الرسول ﷺ يكفيه للإقناع أن يقول الله له: ﴿ولاتك في ضَيْق مما يمكرون﴾ ومع ذلك فقد زاده الله إقناعاً بأنه معه ينصره ويؤيده، فقال له: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

ثم زاده إقناعاً بأنه تعالى يفسد مكرهم السيء بمكر من عنده هو في الخير لا في الشر، لأنه عمل خفيٌ يبطل شرَّهم، ويرد عليهم سوء عملهم، ويوقعهم في الحفر التي يحفرونها للرسول والمؤمنين معه، فأنزل عليه قوله في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ومع هذا الإقناع أعطى الله رسوله الدواء الذي يمسح عن صدره الضيق، وهو التسبيح بحمد الله، وكثرة الصلاة والسجود لله، والقيام بعبادة الربّ مع الاستمرار في ذلك، فقال الله له في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

أي حتى يأتيك الموت.

ــ ١٣ ــ
قل: ما أسألكم عليه من أجر

ومما أدب الله به رسوله أن يكون عمله في تأدية رسالته خالصاً لوجه الله تعالى، لا يبتغي به أجراً من الناس.

وسبق أن قد علمنا أن السلوك الأخلاقي الأمثل هو ما كانت الغاية منه اكتساب مرضاة الله تعالى، أما السلوك الأخلاقي الذي يقصد منه تحصيل الأجر من الناس فهو تجارة مادية عاجلة، وهو لا يعبر عن خلقٍ أصيلٍ ثابتٍ في النفس، وإنما يعبر عن تحرك نفسي أو سلوكي في اتجاه المصلحة العاجلة للنفس، فحيثما وجدت هذه المصلحة ــ سواء أكانت خيراً أو شراً ــ تحركت النفس وتحرك السلوك، وعندئذٍ يختلط الخير بالشر، وتختلط فضائل الأخلاق برذائلها. أما ربط السلوك الأخلاقي بابتغاء مرضاة الله فهو الذي يجعله من المكارم دائماً، لأن مرضاة الله لا تتحقق إلا بالخير، ولا تكون إلا في الخير.

وبدأ هذا التأديب للرسول مع أول مراحل الرسالة، ومع وصف الله له بأنه لعلى خلق عظيم، إذ أنزل الله عليه قوله في سورة (القلم ٦٨):

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾.

بنعمة ربك: أي برسالته التي أنعم بها عليك.

وإن لك لأجراً غير ممنون: أي غير مقطوع، إذ هو أجر خالد في جنات النعيم.

فأبان الله له من طرف خفيّ أن عليه أن يخلص لله في تأدية الرسالة، وأن له أجراً على ذلك لا ينقطع عند الله تعالى.

ثم أبان له في السورة نفسها، أن الداعي إلى الله من شأنه أن لا يطالب

الناس بأجر على هدايته لهم، وإرشاده إياهم إلى منهج سعادتهم، حتى يكون أكثر تأثيراً فيهم، إذ يشعرون أنه لا غرض له عندهم، وإلا اتهموه بالغرض فضعف تأثيره في نفوسهم، فقال الله تعالى له فيها:

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ؟! ﴿٤٦﴾ ﴾.

وجاء هذا على صيغة استنكار تكذيبهم له، مع أنه صلوات الله عليه لم يسألهم أجراً.

ثم أمره الله تعالى بأن يواجههم بقوله لهم: ما أسألكم عليه من أجر، حتى يقطع ظنونهم وأوهامهم، التي قد تصور لهم أنه طالب دنيا، مُلْكٍ أو مالٍ، أو زعامة، أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا، فأنزل الله عليه قوله في سورة (ص ٣٨):

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وما أنا من المتكلفين: المتكلف هو الذي يتتبع ما لا يعنيه. والباحث عن الأشياء الغامضة العويصة. والمتتبع للمشقات.

أي ما أسألكم على هذا الأمر الذي أدعوكم إليه وأبذل فيه كل جهدي من أجر قلّ أو كثر، وما أنا فيه من المتتبعين المتكلفين لما لا يعنيهم، بل أنا مكلف من قبل ربي أن أبلغكم وأرشدكم وأعلمكم وأزكيكم، إن هو إلا ذكرٌ للعالمين، ولتعلمُنَّ تحقق أنبائه بعد حين، فلكل نبأ مستقر ينكشف به صدقه إذ يتحقق فيه.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

فأمره الله أن يؤكد للناس أنه لا يسألهم على الأمر الذي يقوم به لخيرهم

وسعادتهم أي أجر، إلا رضا قلبه وسعادة نفسه بهداية من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً يكون فيها من الناجين، ومن أهل جنات النعيم، فهذا من جانبهم يكفيه، أما أجره عند الله فلسوف يعطيه الله حتى يرضيه رضاً تاماً.

ولا يمتنع أن يراد بالاستثناء اتباع الرسول وتعظيمه وتوقيره والصلاة عليه، فهي لمن فعلها سبيل تأخذ بيد سالكها إلى مرضاة الله، فمن اتبع الرسول أحبه الله، ومن عظَّم الرسول ووقره أثابه الله، ومن صلَّى على الرسول مرة صلَّى الله عليه بها عشراً، وهكذا.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

فأبان الله له أن أكثر الناس لا يؤمنون ولو حرص على إيمانهم وهدايتهم، هذا مع أنه لا يسألهم على الأمر الذي يقوم به لخيرهم وسعادتهم من أجر.

ثم أمره الله أن يكرر للناس ويؤكد لهم أنه لا يسألهم على هذا الأمر أجراً، فأنزل عليه قوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

أي موعظة وتذكير بالحق والخير والهداية.

وأصر كثير من قومه على تكذيبه، وعاندوا فلم يهتدوا بهديه، فأنزل الله عليه قوله في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ففي توجيههم أن يقوموا لله متجردين من عصبياتهم وسوابق أفكارهم مثنى وفرادى، تحريرٌ لهم من أمرين آسرين للنفوس البشرية:

الأمر الأول: العصبيات وسوابق الأفكار والأهواء والأغراض الخاصة التي تميل بالأفكار عن سواء السبيل، ومنهج الحق والرشاد، وتحرير الأنفس من هذه إنما يكون بأن يقوموا لله.

الأمر الثاني: الضغط الاجتماعي، والغوغائية الجماعية، والعقل الجمعي الذي تنعدم معه التأملات الفردية الصافية الحرة، وتحرير الأنفس من هذا الأمر إنما يكون بأن يتأمل الباحثون عن الحق مثنى أو فرادى، أما أن يجتمعوا في غوغائية جماهيرية فهذا يفسد صفاء تأملاتهم، ويجعلهم ينساقون انسياقاً ببغاوياً مع شياطين التضليل فيهم.

وفي قول الله لرسوله بعد ذلك: ﴿قل: ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم * إنْ أجري إلا على الله﴾ توجيه إلى تنويع البيان الذي يتضمن أنه لم يطالبهم بأجر في كل المدة السابقة التي جاهد فيها جهاداً صادقاً وهو يدعوهم إلى خيرهم وسعادتهم.

والصيغة التي جاءت في هذا التوجيه تشبه قول الوالد الرحيم بأولاده الخارجين عن طاعته ـ بعد أن يقدم لهم النصح الذي لا هدف له منه إلا أن يكونوا سعداء في ذات أنفسهم ـ:

يا أولادي هذا نصحي لكم، ولا أريد منكم جزاءاً ولا شكوراً، وما أعطيتموني من أجر على تربيتي وحبي لكم وبذلي من أجلكم وإخلاصي لكم فخذوه واستردوه. أي لم آخذ منكم شيئاً ولم تعطوني شيئاً، كل ما عندي لكم هو الإخلاص والحب والحرص على سعادتكم.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الطور ٥٢):

﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ۝٤٠ ﴾.

أي إنك لم تسألهم ولا تسألهم أجراً حتى يجدوا هذا الأجر مغرماً

يستثقلونه، فيصدون من أجل استثقاله عن الاستجابة لك، والإيمان برسالتك، وتصديقك فيما تبلغهم عن ربك.

وكل ما سبق كان في العهد المكي.

ثم أنزل الله على رسوله في العهد المدني قوله في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ (٢٣) ﴾.

قال ابن عباس: أي إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. وقال: لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودّوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم.

وروي عنه أيضاً: لا أسألكم على ما آتيكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى، وأن تتقربوا إليه بطاعته.

وروى البخاري عن سعيد بن جبير أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي، أي تحسنوا إليهم وتبروهم.

وعن زيد بن أرقم أن أهل بيت الرسول ﷺ هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس.

ـ ١٤ ـ
من أوائل ما أدب الله به رسوله
ما جاء في سورتي (الضحى) و (الشرح)

(أ) فأمّا اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث:

اشتملت سورة (الضحى) على ألوانٍ من تربية الله لرسوله محمد ﷺ، وكان ذلك مع أوائل الرسالة.

أبطأ الوحي على الرسول لتربيته، ولتشويقه، فمن ذاق طعم الصلة بالوحي وما يشاهد معه من أمور عالم الغيب اشتدّ عليه انقطاع ذلك عنه. وقال

المشركون: ودَّع محمداً ربه، وصعب الأمر على الرسول، وربما حدثته نفسه أنه قصر في شيء، فأثبت بما حصل له أنه قد حمل مهمة الرسالة حقاً، واضطلع بمسؤولياتها وأحبها، وأعد نفسه لتحمل كل مشقاتها.

فاقتضى الأمر أن ينزل الله عليه من عذب الخطاب، وحلو المناجاة والتكريم، ما يمسح عن نفسه وحشة الانقطاع.

فأقسم له بقِمَّتَيْ ما يشاهد في الأرض من ضياء حلو وظلمة ساكنة، بالضحى والليل إذا سجى، أنه ما ودعه وداعاً نهائياً ولا هجره هجراً مؤقتاً، فقال له:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾.

قلى: في اللغة بمعنى أبغض وبمعنى هجر، وأوثر هنا المعنى الثاني، وجلُّ أهل التفسير على المعنى الأول.

ثم ربط همة قلبه ونفسه بالآخرة وبما فيها من خير عظيم، ووعده بأنه سوف يعطيه فيها حتى يرضى رضاً تاماً، فقال له:

﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ ﴾.

ثم ذكره الله بنعم ثلاث أنعم بها عليه، ليقابلها من جهته بالشكر الملائم لها، فقال له:

﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ ﴾.

هكذا على طريقة الاستفهام التقريري، وجواب الرسول ﷺ عليه: بلى.

لقد هيأ الله له من يؤويه وهو يتيم، وهذا من عناية الله به، وشكر الله على هذه النعمة يظهر تماماً في أن يرعى اليتامى ويرحمهم ولا يقهر أحداً منهم، فقال له في التأديب:

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾.

ونشأ فقيراً لا مال له، فهيأ الله رزقاً أغناه به، وشكرُ الله على هذه النعمة يظهر تماماً في أن يعطي السائل ذا الحاجة إن وجد ما يعطيه، ولا ينهره إن لم يجد، بل يقول له قولاً معروفاً، فقال له في التأديب:

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾.

ونشأ في أمة أمية، بعيدة عن مراكز العلم والحضارة ضالة عن سبيل سعادتها، فلم يكتسب منها علماً ذا شأن، فضلاً عن علم يؤهله لمجد هداية الناس أجمعين، وإرشادهم إلى سبيل سعادتهم، ويظل الجاهل ضالاً عن الطريق، حتى يتعلم فيهتدي إليه. فاصطفاه الله بالنبوة وعلمه وهداه، ثم اصطفاه بالرسالة فكلفه تبليغ الناس وتعليمهم، وهذه أعظم نعمة أنعم بها عليه، وشكر الله على هذه النعمة يكون بأن يحدث الناس بما علمه الله من علوم دينية أوحى بها إليه، وأنعم بها عليه، ليهدي الناس كما هداه الله، فقال له في التأديب:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾.

وقد تخلق الرسول ﷺ بما أدبه الله به، فكان ملجأ اليتامى والسائلين وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

(ب) فإذا فرغت فانْصَبْ وإلى ربك فارغب:

ومما أدّب الله به رسوله محمداً ﷺ ما أمره به وبينه له في سورة (الشرح ٩٤) إذ قال له:

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾.

وقد اشتمل هذا النص على ثلاثة عناصر تربوية أخلاقية.

العنصر الأول: تربية نفسه على الأمل بالمستقبل، وتلقي الأحداث الحاضرة المؤلمة بالرضا والتسليم، وبنفس منشرحة مشحونة بالأمل بما سيأتي، صابرة على العسر الواقع، فالنفس المشحونة بأمل اليسر القادم، يضمر لديها ألم العسر القائم، ومنتظر الفجر القريب لا يشعر بظلمة الليل القاتم.

وهذه التربية تضمنها الإقناع المؤكد بأن مع العسر يسراً، وهذا الإقناع اقترن بدليل مما سبق في أحداث الماضي، وبتأكيد بياني:

أما الدليل مما سبق في أحداث الماضي فهو ما جاء بيانه في صدر السورة، تمهيداً لتقرير قاعدة: ﴿إن مع العسر يسراً﴾ من قواعد سنن الله في ابتلاء خلقه.

فقد سبق أن تعرض الرسول ﷺ في حياته لضيق في صدره، فشرح الله صدره بعد ذلك، فهذا عسر جاء بعده يسر.

وسبق أن شعر الرسول ﷺ بأنه يحمل أثقالاً في حياته شاقة عليه، فوضع الله عنه هذه الأحمال، فرماها الرسول عن نفسه، إذ هيأ الله له من يحملها عنه، أو طرحها الرسول عن ظهره ثقة بكفالة ربه له، وهذا عسر جاء بعده يسر.

وسبق أن كان الرسول ﷺ في قومه خامل الذكر، غير معدود بين العظماء في قومه، فرفع الله ذكره، إذ جعله رسولاً، والرسالة أعظم مكانة يمنحها الله لإنسان. واستمر عطاء الله له في رفع ذكره، حتى اقترن اسم الرسول محمد ﷺ باسم الله في الشهادتين، وفي الأذان، وحتى صارت الصلاة على الرسول ﷺ عبادة واجبة على كل مسلم، فإن كان خمول الذكر حالة عسر، فقد جاء بعده يسر عظيم، برفع ذكره إلى أرفع ما يمكن ذكر لإنسان.

كل هذا قد جاء التمهيد به في قول الله تعالى له:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾.

وأما الإقناع بالتأكيد البياني، فهو ما جاء بيانه في القاعدة التي قررها الله له:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

فقد جاءت هذه القاعدة مؤكدة تأكيداً بيانياً من عدة وجوه:

الأول: التأكيد بأداة التأكيد (إنّ).

الثاني: التأكيد بالجملة الاسمية كما يقول علماء البلاغة.

الثالث: التأكيد بتكرير القاعدة مرتين، وجعل كل منهما آية مستقلة.

الرابع: تعريف العسر وتنكير اليسر، قالوا: والمعرف إذا أعيد كان عين الأول، أما النكرة إذا أعيدت فهي غير الأول، ومن هذا قالوا: عسر بين يسرين، وفي هذا الكلام نظر عند المحققين من علماء البلاغة.

إلّا أن التنكير في اليسر قد يفيد التعظيم والتكثير، فهذا من دلالات التنكير بلاغياً.

العنصر الثاني: تربية الرسول ﷺ على علو الهمة، والاشتغال الدائم بجد في كل نافع مفيد يرضي الله تعالى، سواء أكان ذلك في الدعوة إلى الله، أو الجهاد في سبيله، أو في القيام بالعبادات الخاصة، أو في غير ذلك من كل خير. والغرض أن لا يضيع الرسول ﷺ لحظة من لحظات عمره من دون عمل نافع مفيد إذا كان يستطيع فيها أن يعمل شيئاً يقربه إلى الله تعالى، مما يرضيه سبحانه من الأعمال، ولو كان فيه نصبٌ وتعب على الرسول ﷺ. وفي تربية الله لرسوله على هذا الخلق قال له: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي فإذا فرغت من عمل سابق، فقم بعملٍ جديدٍ تجد فيه نصباً، والنصب هو التعب، وهذا تكليف له بأن لا يركن إلى الراحة والدعة، إذ عليه أن يستغل كل ما يستطيع استغلاله من عمره في عمل نافع يرضي الله، من الأعمال التي أمره الله بأن يحمل أعباءها مما يتعلق بمهمات الرسالة، أو بواجباته الشخصية.

العنصر الثالث: تربية نفس الرسول ﷺ على العفة عما في أيدي الناس، وعدم تعلقها بشيء من ذلك، وربطها بسؤال الله وحده، في كل رغيبة يرغبها من مطالب دنياه وآخرته، وفي تربية الله لرسوله على هذا الخلق قال له: ﴿وإلى ربك فارغب﴾؛ أي فاسأل الله وحده بضراعة وتذلل كل ما تحب من أمور دنياك وآخرتك، ولا تسأل غيره.

يقال لغة: رغب إلى الله أي سأل الله بضراعة، والرغبة الضراعة والمسألة.

وفي حديث الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام جاء: «فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله» أي فيتضرعون إلى الله ويسألونه.

وبهذا الأدب الرباني أدّب الرسول ﷺ أصحابه، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن عبدالله بن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال:

«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ـ ١٥ ـ
وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم

ومما أدب الله به رسوله أن يتخلق بخلق العدل في الحكم، والعدل في الحكم يكون بالحكم بما أنزل الله، فهو الصورة المثلى لتحقيق العدل، أو لتحقيق أقرب الأحكام إلى العدل، مما يستطيع الناس الوصول إليه.

ومجانبة العدل في الحكم إنما تكون باتباع الهوى، أو بترك الحكم بما أنزل الله، وجنوح الفكر عن سواء السبيل.

ولما كان الرسول ﷺ مطهراً من الهوى الذي يميل به إلى الحكم بغير ما أنزل الله، نهاه الله عن أن يتبع أهواء الناس على سبيل المداراة لهم لجلبهم إلى الإسلام، أو لتأليف قلوبهم، فأنزل عليه قوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وقبل هذا حذّر الله رسوله تحذيراً عاماً من اتباع أهواء اليهود والنصارى، تأديباً له على خلق الثبات على الالتزام التام بما ينزل الله عليه، فقال له في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الرعد ١٢):

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وكل هذا في العهد المدني، أما في العهد المكي فقد تنزلت عليه نصوص التأديب في هذا المجال على الوجه التالي:

نزل عليه قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

وقوله فيها أيضاً:

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وما أدب الله به رسوله هو من الأخلاق الواجبة على كل قاضٍ وحاكم، وعلى كل داعٍ إلى الله.

— ١٦ —

وإنْ كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بــآية

ومما أدّب الله به رسوله على خلق الصبر في مجال دعوته وقيامه بمهمّات رسالته، التربية بالإقناع، وبالقدوة الحسنة.

وبعد ذلك وجّه الله له تربية قائمة على افتراض وجود أمرٍ نفسيٍّ غير واقع لدى الرسول ﷺ ، وهذه التربية تعتمد على عنصر التهديد بالتخلّي عنه، إنْ كان إعراض المعرضين عنه أمراً قد كبُر على نفسه، إذ ليس من شأن حامل رسالة ربانيّة أن يكون لنفسه دخلٌ في أمر الرسالة، فهو رسول الله، ومبلّغ عنه، فلا شأن لنفسه في الأمر. وقد كان رسول الله ﷺ كذلك، إلاّ أن تقصّي الاحتمالات يستدعي ذكر الحالات النفسيّة التي قد يتعرض لها الإنسان بوجه عامّ، وإن كان الرسول مطهراً منها.

وفي التأديب بهذه الوسائل قال الله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

فبيّن الله لرسوله أنّه عليم بما يقول المشركون في تكذيبه، وأنه يحزنه كلما سمع منهم تكذيباً له أو رأى منهم إعراضاً عنه.

وإذْ كان حزن الرسول مدفوعاً بدافع حرصه صلوات الله عليه على هدايتهم وسعادتهم، ورغبته بأن ينجح في رسالته التي اصطفاه الله لها، وتألّمه من أن يتّهم بالكذب وهو الصادق الأمين، كان لا بد من معالجة حالته النفسية هذه بالتربية الملائمة، وبمختلف الوسائل المؤثرة.

١ ــ أما الإقناع فقد اشتمل النص هنا منه على بيان حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن المشركين رفضوا ما جاء به الرسول جحوداً بآيات الله التي تشتمل على براهين أنها من عند الله حقاً، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون صدق الرسول فيما يبلّغ عن ربّه. وجحود العارف بصدق الخبر ليس من شأنه أن يحزن المخبر من جهة أنه صعب عليه أن يُتَّهم بالكذب، فاتهامهم له بالكذب قولٌ بأفواههم لم تعتقده قلوبهم، فاحترامهم وتقديرهم لصدقه وأمانته ما نقص منه شيء في قرارة نفوسهم، بل قد زاد بالنبوّة، لكنّهم جحدوا بآيات الله البيّنات المشتملة على براهين صدق الرسول.

والجاحد هو المنكر بلسانه هوىً في نفسه مع علمه بأن ما أنكره حقٌ، وهو بخلاف المكذّب الذي يعتقد ما يقول، فهو بحاجة إلى مزيد من الآيات حتى يقتنع بصدق الخبر، فيؤمن به ولا يظنّه كذباً.

والإقناع بهذه الحقيقة هو ما اشتمل عليه قول الله تعالى في النص: ﴿قد نعلم إنه ليحزنُك الذي يقولون. فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

وروى الترمذي عن علي، أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنّا لا نكذّبك ولكن نكذّب بما جئت به، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

الحقيقة الثانية: أن رسالة الرسول رسالة تبليغ وليست رسالة تحويل أو إكراه للناس على الإيمان، نظراً إلى أن الغاية الأساسية من الخلق الامتحان، والامتحان الصحيح يستلزم أن تكون إراداتُ من يُمتحَنون حُرَّةً تختار بكامل حريتها طريق سعادتها أو طريق شقاوتها، فلا تُكْرَه من قبل المؤمنين على الإيمان، ولا تُكْرَه من قبل الطغاة أو البيئة الفاسدة على الكفر.

ولو كان الغرض التحويل لفعله الله بنفسه خَلْقاً بقضائه وقدره وأمره التكويني، فهو وحده القادر على ذلك، ولو شاء لفعله، ولسلب الناس إراداتهم الحرّة، ولجعلهم مجبورين، ولجمعهم عندئذٍ على الهدى بأمره التكويني: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون﴾ لكن هذا ينافي الغاية الأساسية من الخلق، وعندئذٍ فلا معنى للامتحان.

والإقناع بهذه الحقيقة قد اشتمل عليه قول الله تعالى في النص: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونَنّ من الجاهلين﴾ أي لو شاء تحويلهم إلى الهدى عن غير طريق إراداتهم الحرة واختيارهم الحرّ، لسلبهم إراداتهم واختيارهم، ولجعلهم مجبورين، ولجمعهم عندئذٍ على الهدى. ولكن كلمة الله نافذة في ابتلائهم ﴿ولا مبدّل لكلمات الله﴾.

٢ ــ وأما التربية بالقدوة الحسنة فقد جاءت في بيان حالة الرسل الكثيرين السابقين الذين كذّبتهم أممهم وآذتهم، فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله، وبعض أنباء هؤلاء المرسلين قد نزلت فيها نصوص قبل هذا النص من سورة الأنعام.

وفي التربية بهذه الوسيلة قال الله تعالى له في النص:

﴿ولقد كُذّبت رسُلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا * ولا مبدّل لكلمات الله * ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾.

٣ ــ أما التربية بالتهديد بالتخلي عنه وهي قائمة ــ كما سبق بيانه ــ على افتراض أمر غير واقع استدعى ذكْرَه تقصّي الاحتمالات، وهذا الأمر هو أن يكون قد كبُر على نفس الرسول إعراض المعرضين عنه، فهو يحزن من أجل أن الأمر قد كبُر على نفسه، ومع الإشارة بأن خلق الرسول العظيم يأبى وجود هذا الاحتمال، إذ جاء بعبارة التشكيك التي تشعر بعدم وجود الأمر في الواقع، وهي: ﴿وإن كان كبُر عليك إعراضهم﴾؛ كان لا بد من توجيه التربية التي تثبت نفس الرسول على خلقه، وتعلم كل داع إلى الله من بعده ما يجب أن يتحلى به من خلُق، فقال الله تعالى له: ﴿وإن كان كبُر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء فتأتيهم بآية﴾ أي بآية خارقة تجعلهم يتبعونك ولا يعرضون عنك فافعل. ومعلوم أنه لن يستطيع أن يتخذ نفقاً في الأرض ولا سلّماً في السماء ليأتيهم بالخارقة التي تجعلهم يؤمنون إلا بتمكين الله له، فتوجيه مثل هذا القول فيه معنى التعجيز والتخلّي.

وهذه الشدّة في التربية حول أمر لم يحصل يقصد منها تربية الدعاة إلى الله ولو لم يكونوا رُسلاً، ويقصد منها التحذير من أي ميل نفسيٍّ لدى الرسول قد تشتمّ منه رائحة أي هوى من أهواء النفوس مهما قلّ، إلا ابتغاء مرضاة الله، والعمل بما وجّه له.

ـ ١٧ ـ

ويقولون: هو أذن، قل: أُذُن خيرٍ لكم

وعلّم الله رسوله أدب ردّ الأقوال المؤذية التي تقال فيه، بصرفها عمّا يريد المؤذون إلى معانٍ صالحة لا أذى فيها.

وهذا من رفيع الأدب الذي يعبر عن كمالٍ خلقي أصيل في النفس، إذ لا يدفع السيئة بمثلها، بل يدفع السيئة بالتي هي أحسن.

فمن ذلك مقالة المنافقين فيه: هو أذن، أي هو يتبع ما يقال له دون تحقيق ولا تمحيص ولا تفكير فيه، فيجوز عليه الكذب والخداع وما يقال له من كذب يصدّقه. فعلّمه الله الردّ المهذّب المليء بالأدب الرفيع، الخالي من الانفعال والتأثر الغضبي، فقال له: قل: أذن خير لكم، أي لا أذن شرّ. أي: نعم هو يسمع من الناس أقوالهم بإقبال وسماحة نفس وحسن إصغاء لمن يحدثه، وهذا من أدبه وكمال خلقه، ولكنه لا يكون منه بعد ذلك إلا الخير، فمن كذب عليه ليوقع بإنسان سوءاً، أو ليدفعه إلى تصرف فيه شر أو ضرٌّ أو أذى، لم يتأثر به ولو استمع له، لأنه لا يعمل شيئاً من ذلك إلا وهو على بينة من أمره، فإن جاءه فاسق بنبأ لم يأخذ به حتى يتبينّ، وإن كذب عليه منافق معتذراً عما كان منه من تخلف عن واجب قبل منه ظاهرهُ وهو يعلم أنه كاذب، لأن الله تعالى أمره أن يعامل المنافقين بحسب ظاهرهم، وأن يَكِلَ سرائرهم إلى بارئهم، حتى يكشفوا صفحة نفوسهم، ويظهروا ما يكنّون بأقوالهم أو بأعمالهم.

وإذ كان الرسول ﷺ كذلك فهو أُذُنُ خيرٍ لا أذن شر، مستمعٌ مهذّب لجليسه ومحدثه ذو خُلق عظيم، وعاقل حازم بصير بأمره ذو تصرف حكيم.

وفي ذلك قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

أي ومن المنافقين فريق يؤذون النبي ويقولون عنه: هو أذن يسمع ما يقال له فيجوز عليه الكذب والخداع.

قل يا محمد: هو أذن خير لكم، لا أذن شر، يؤمن بالله فيتقيد بما أمره الله به، ومن ذلك معاملة المنافقين على حسب ظاهرهم، وإن كان يعلم أنهم منافقون، فالوحي قد كان يكشف له المنافقين بأسمائهم وأعيانهم، وهو أيضاً يؤمن للمؤمنين فيصدقهم لأنهم مؤمنون لا يكذبون، ولكنه لا يؤمن للمنافقين ولا للفاسقين. وهو رحمة للذين آمنوا، لأنهم هم الذين حملوا أوعيتهم واغترفوا من بحره، أما المنافقون الذين يؤذون رسول الله فلهم عذاب أليم.

* * *

الفصل الثاني

طائفة ممّا جاء في السُّنَّة من بيان خُلُقه صلوات الله عليه

جاء في السنة وصف مستفيض لأخلاق الرسول ﷺ وشمائله، فمن أحصاها تمثّله من خلالها كأنه قد صاحبه في حياته، وقد استشهدت بطائفة حسنة منها في فصول هذا الكتاب، كلما دعت المناسبة إلى ذلك، وحضرني منها شيء.

وفيما يلي طائفة مشروحة منها، ربما وردت في غير هذا الموضع من هذا الكتاب على سبيل شواهد وأمثلة استدعتها المناسبة:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن جابر، أنه غزا مع النبي ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معهم، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه[١]، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرة[٢]، فعلّق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال:

«إنّ هذا اخترط[٣] عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلْتاً[٤]، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، ثلاثاً» ولم يعاقبه وجلس ﷺ.

---

(١) القائلة: وقت الظهيرة. والعضاه: الشجر الذي له شوك.

(٢) تحت سمرة: أي تحت شجرة كبيرة من هذه الأشجار.

(٣) اخترط السيف: سلّه من غمده.

(٤) صلتاً: مجرّداً جاهزاً للضرب به.

وفي رواية قال جابر: كنّا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلّق بالشجرة، فاخترطه فقال: تخافني؟ قال رسول الله ﷺ: «لا». فقال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله».

وجاء في رواية أخرى: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف، فقال للأعرابي: «من يمنعك مني؟» فقال: كن خير آخذ. فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟». قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى الرجل أصحابه فقال لهم: جئتكم من عند خير الناس!!.

من قصة هذا الحديث تظهر لنا شجاعة الرسول النادرة، فقد استلّ الرجل السيف على الرسول ﷺ وهو نائم، وانتبه الرسول من نومه وفوجىء بمن يريد قتله والسيف مسلول في يده، ليس بينه وبين الهوي إلا عزمة الرجل، وقال له: هل تخافني؟

في هذه اللحظة المفاجئة الحرجة التي ينخلع منها في العادة قلب الشجاع البطل يقول الرسول ﷺ: «لا». عندئذ يعجب الرجل من هذه الشجاعة النادرة، فيقول للرسول: فمن يمنعك مني؟

أي إنّ هذا الثبات لا يصدر إلّا من قلب مطمئن بأنه ممنوع لا يصيبه سوء.

وببرد اليقين بالله يقول الرسول ﷺ: «الله، الله، الله». أي فالله هو القادر على أن يمنعني، ولن يصيبني من المكروه إلا ما قدره علي وقضاه، وإيماناً مني بهذه الحقيقة لست أخافك، لأني أعلم أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً لم يقضه الله عليّ.

ومن وصل إلى هذا اليقين بالله لم يخشَ من أحدٍ سواه، وملك من الشجاعة ما لا يملكه غيره، وهذا ما يظفر به المؤمنون، وعلى مقدار الإيمان ترتفع نسبة الطمأنينة بالله والشجاعة ضد المخيفات المادية مهما كان شأنها.

ومن قصة هذا الحديث يظهر لنا حلم الرسول ﷺ، وذلك أنه لما سقط السيف من يد الرجل هيبة من شجاعة الرسول وأخذ الرسول السيف، لم يبادر صلوات الله عليه إلى الانتقام منه، ولكنه اكتفى أن يقول له: «من يمنعك مني؟» وهذا من حلمه وسعة صدره صلوات الله عليه.

فيقول الرجل: كن خير آخذ. فيظهر هنا خلق العفو في الرسول ﷺ.

ولا يغفل الرسول ﷺ في هذه اللحظة الحرجة عن القيام بواجب الدعوة إلى الله، واستغلال الموقف لصالح الرسالة التي يحملها من ربه، فيقول للرجل: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟».

ولكن الهداية لم تدخل قلب الرجل، فيقول: لا. ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك.

ويعفو الرسول عن الرجل عند المقدرة على الانتقام منه، ويخلي سبيله، بعد أن يدعو أصحابه ويشهدهم على ما جرى بينه وبين الرجل، ليعطيهم درساً عملياً في فضائل الأخلاق لا ينسونه أبداً، يتعلّمون فيه الشجاعة، والحلم، والعفو عند المقدرة.

ولقد ربح الرسول ﷺ لربّه ولنفسه بهذه الأخلاق أكثر بكثير ممّا لو أسرع فانتقم من الرجل فقتله فشفى بقتله نفسه، وقد كان من حقه أن يفعل ذلك لأن خصمه صائل قاتل، ولكنه لم يفعل استجابة لنداء الفضيلة السامية، وبصراً بمواقع الحكمة الرفيعة وعملاً بمقتضاها.

وظهر هذا الربح حينما ذهب الرجل إلى قومه فقال لهم: لقد جئتكم من عند خير الناس، وقص عليهم قصته مع رسول الله ﷺ، وغرس بذلك في قلوبهم محبّته وتعظيمه، ولا غرو أن يكون ذلك مقدمة لانفتاح قلوبهم إلى تصديقه في دعوته، وإيمانهم برسالته، ثم دخولهم ضمن جنده الحاملين لواء الإسلام، والداعين بدعوة الحقّ.

وهذا هو شأن مكارم الأخلاق، إنها تحقق لصاحبها من الربح ما لا يمكن أن يتحقق بشيء آخر، لا من جهة الكمّ ولا من جهة الكيف ولا من جهة النوع.

إنّ إنساناً لا يمكن أن يظفر بمكانة رفيعة لمجد حقيقي عظيم، ما لم يكن لديه رصيد أخلاقي كريم، وعلى مقدار رصيده الأخلاقي يرتقي في مرتبة المجد الحقيقي، أما الأمجاد المزيفة فقد تأتي بها القوة، وقد يأتي بها المال، أو شيء آخر نحو ذلك، إلاّ أنها أمجادٌ أساسها في قلوب الناس النفاق والريـاء والخوف والطمع.

٢ ـ وروى البخاري عن عقبة بن الحارث قال: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلّم ثم قام مسرعاً، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجَر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، قال:

«ذكرت شيئاً من تبرٍ عندنا فكرهت أن يَحْبِسَني فأمرت بقسمته».

وفي رواية للبخاري أيضاً:

«كنت خلّفت في البيت تبراً من الصّدَقة فكرهت أن أُبَيّته».

التبر: قطع ذهب أو فضّة.

من قصة هذا الحديث تظهر لنا أمانة الرسول العظيمة، فمن شـدّة حرصه ﷺ على تأدية الأمانة إلى أهلها كرِه أن يبيّتها عنده ليلةً واحدة، فأسرع هذا الإسراع، لأن التبر الذي كان عنده من أموال الصدقة.

وكشف الرسول ﷺ الأمر الذي دعاه إلى أن يخرج عقب صلاة العصر مسرعاً على الوجه الذي خرج عليه، ليعلّم أصحابه والناس من بعده كيف يكون الحرص على تأدية الأمانة إلى أهلها، لا سيما الأموال العامة التي ليس لها مالك معينٌ، وإنما يستحقها ذوو أوصاف معينة.

وكان خلق الجود وحب العطاء محرضاً مضافاً إلى خلق الأمانة، إذ كثير من الناس الذين يتولون إدارة أموال عامـة قد يكـونون أمنـاء عليها، ولكنّهم لا يتمتعون في أنفسهم بخلق حب العطاء، فتكز نفوسهم عن دفع الأموال إلى مستحقيها، كأنهم يدفعونها صدقة مما يملكون، ولو التقى فيهم خلق حب العطاء

إلى خلق الأمانة لأسرعوا إلى بذل الأموال إلى مستحقيها، وفق المصلحة، ولم تقف عقبة الشحّ في نفوسهم دون ذلك.

ويظهر لنا في هذا الحديث من أخلاق الرسول ﷺ عزمه وحزمه وجده في الأمور وهمته ومبادرته إلى فعل الخير دون تردد.

٣ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

أي ما يسدّ حاجة العيش فقط، فكانت تمرّ الأشهر وما يوقد في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ على طعام، روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير عن عائشة أنّها كانت تقول لعُروة: والله يا ابن اختي إن كنّا لننظُر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلّةٍ في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار.

قال الزبير: قلت: يا خالة، فما كان يعيّشكم؟

قالت: الأسودان، التمر والماء. إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا.

المنائح: جمع منيحة، وهي حلوبٌ من النَّعم، شاةٌ، أو عنز، أو بقرة، أو نحو ذلك، تخصص لإهداء لبنها أو التصدّق به، أو تعار لهذه الغاية وتبقى ملكيتها لأصحابها.

نعم لقد آثر الرسول ﷺ الآخرة على الدنيا، مع أنه ربما أعطى من النعم ما يملأ وادياً بين جبلين.

ومما ورد في إيثار الرسول ﷺ شظف العيش وخشونته، ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض.

وفي رواية عنها: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البرّ ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض.

وعن عبدالله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثّر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟! فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها». أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: لقد رأيت نبيّكم ﷺ وما يجد من الدَّقَل ما يملأ به بطنه.

الدَّقَل: رديء التمر.

٤ ــ وروى البخاري عن سهل بن سعد، أنّ امرأة جاءت إلى النبي ﷺ ببردة منسوجة(١)، فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكَها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال فلان: اكسُنيها، ما أحسنها! فقال: «نعم». فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته وعلمت أنه لا يردّ سائلاً. فقال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني. قال سهلٌ: فكانت كفنه.

ففي قصة هذا الحديث يظهر لنا من أخلاق الرسول ﷺ خلق الإيثار، والإيثار قمة في الجود وحب العطاء.

ويظهر لنا أيضاً حلم الرسول وأناته، ورفقه وتلطفه في إجابة طلب السائل.

٥ ــ وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط أفٍّ، ولا قال لشيءٍ فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيءٍ لم أفعله: ألا فعلت كذا؟

---

(١) ببردة منسوجة: أي بكساء موشى له هُدب.

وهذا يدل على جملة عظيمة من أخلاق الرسول ﷺ ، منها حلمه، وعفوه، وتسامحه، وإغضاؤه عن التقصيرات، وحسن معاشرته للناس جميعاً حتى خادمه الملازم له.

٦ ــ وروى مسلم عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيلَ منه شيءٌ قطُّ فينتقمَ من صاحبه، إلا أن يُنْتَهك شيءٌ من محارم الله فينتقم لله عز وجل.

الانتهاك في اللغة: المبالغة في انتقاص الشيء والأخذ منه، حتى لا يبقى منه إلا القليل، أو حتى يستأصل.

وانتهاك حرمات الله يكون بالمبالغة في تجاوز حدودها، وذلك يكون بارتكاب ما حرمه الله.

فدل هذا الحديث على حلم الرسول ﷺ وعفوه، وتسامحه، وحسن معاشرته، وكمال خلقه.

٧ ــ وروى مسلم عن عائشة قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه.

وهذا يدل على تسامح الرسول ﷺ وعدم تشدده في الأمور، فهو يحب التيسير ولا يحب التعسير، ويحب التخفيف والتلطف، ولا يحب التعقيد ولا التشدد، وهذا من سماحة نفسه؛ ما لم يكن في الأمر إثم، فهو عندئذ يلتزم حدود الله، ويقف عندها، ويستمسك بما توجبه أوامر الله ونواهيه.

ولا بد من ملاحظة الفرق بين الاستمساك بأحكام الدين، وبين التشدد المصحوب بالغلو في الدين، فهذا التشدد منهي عنه، وكثير من الناس يخطئون فيخلطون بين الاستمساك بالحق، وبين التعصب أو التشدد في الدين بغير حق، ويسقط في هذا فريقان:

فريق يتعصب ويتشدد بغير حق، ويجعل هذا تمسكاً بالدين وورعاً محموداً.

وفريق يشنع على المتمسكين بدينهم ضمن أحكام شريعة الله وضمن حدوده، ويسمي تمسكهم هذا تعصباً.

وكلا الفريقين خارجان عن صراط الحق وسنّة رسول الله ﷺ وما أثر من أخلاقه.

وبعض الناس متهاون بدينه، متشدد في توافه أموره الخاصة، أو في الأمور النظامية والشكليات، فإذا عامل الناس عاملهم بالتشدد، وإذا عاشرهم عاشرهم بالتشدد، وحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة، وأراد تحميلهم أثقل الأعمال وأصعبها، مع أن عملاً هيناً آخر قد يقوم مقامها.

وبعض الموظفين الإداريين لا يروق لهم التكليف بأي عمل هين سهل، مهما كان محققاً للغاية المنشودة، ولكنهم يلجأون دائماً إلى التكليف بأعقد الأعمال المضنية وأشدها، لا رغبة بجودة العمل وإتقانه، ولكن رغبة بالتشديد والتعقيد. فإذا راقبته في أمور دينه وربه رأيته من أكثر الناس استهانة بها، وبعداً عن الالتزام بأي واجب، ثم هو مع ذلك يصم المتمسكين بدينهم بأنهم متشددون متعصبون معقدون.

وفي مقابل هذا الفريق نجد فريقاً آخر متشدداً في بعض الفروع الاجتهادية، أكثر من أصول الدين نفسه، فهو يغلو في دين الله غير الحق، ويحمل الناس من أمر دينهم عُسْراً وشدة، على خلاف ما جاء في دين الله من يسر وسهولة وفسحة، وعلى خلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ. وهذا الفريق من الناس ينفر من الدين ولا يحبب به، وقد نجد بعض أفرادٍ من هذا الفريق المتشدد القاسي في بعض الفروع الاجتهادية متساهلاً مستهيناً بأمور أخرى من أمور الدين الأساسية الجوهرية، وذلك حينما يمتحن بما يعارض مصلحته منها.

وواجب الدعاة المخلصين الذين فتح الله بصيرتهم، أن يشدوا هذين الفريقين المتباعدين إلى منهج الوسط، حتى يكونوا على صراط الإسلام الحق، وعلى أخلاق الإسلام القويمة التي ليس فيها إفراط وتفريط.

٨ ــ وروى مسلم عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ أتى على أزواجه

وسوّاق يسوق بهن ـ أي في سفر ـ يقال له: أَنْجَشة، فقال: «ويْحك يا أنجشةُ، رويداً سَوْقَك بالقوارير».

وفي رواية قال أنس: كان لرسول الله ﷺ حادٍ حسنُ الصوت، فقال له رسول الله ﷺ: «رويداً يا أنجشةُ لا تكسر القوارير» يعني ضعفةَ النساء.

فدل هذا الحديث على رقة نفس الرسول ﷺ، ولطف روحه، وتوقد مشاعره، وحنوه على ذوات الضعف، ورقة حاشيته، ومن بديع بلاغته أنه وصف النساء بالقوارير، فأوصى بهن حتى لا يزعجهن العنف في السير.

٩ ـ وروى البخاري ومسلم عن الصعب بن جُثَامة، أنه صاد حمار وحش، فجاء به هدية إلى الرسول ﷺ وكان الرسول محرماً، فلم يقبل هديته، فظن الرجل أن الرسول رد هديته لشيء في نفسه، فتغير وجهه، ففطن الرسول له فقال: «إنّا لم نرده عليك إلا أنّا حُرُم» أي محرمون، والمحرم بحج أو عمرة ليس له أن يصيد ولا أن يقبل هدية صيد.

فمسح الرسول ﷺ ببيانه السريع ما علق في نفس الرجل.

وهذا الحديث يدل على رقة مشاعر الرسول ﷺ، وكمال لطفه، وإحساسه السريع بما تختلج به نفس من يجالسه أو يعامله أو يعاشره.

١٠ ـ وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ[١] نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذةً شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثّرتْ بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمرَ بعطاء!!.

فدلّت قصة هذا الحديث على حلم الرسول ﷺ وعفوه وتسامحه، وجوده، وحُسن تربيته للناس بكمال خلقه، وقوة إرادته في ضبط نفسه.

---

(١) البرد نوع خاص من الثياب.

وكم في ضحكة الرسول ﷺ في وجه الأعرابي الجاهل من معنى يفهمه أهل الذوق الرفيع . . .

١١ ـ وروى البخاري ومسلم عن عائشة: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله تعالى؟!» ثم قام فاختطب ثم قال: «إنما هلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

فرسول الله ﷺ رفيق متسامح في أموره الخاصة، إلا أنه في حدود الله يشتد غضبه مع المؤمنين، لأن هذا هو الحكمة بالنسبة إليهم، أما بالنسبة إلى غيرهم فقد تقضي الحكمة بالدعوة إلى الله بالأسلوب اللين لا بالأسلوب الشديد العنيف.

إنه ﷺ يعطي كل موقف ما يلائمه من الحكمة، وهذا من كمال خلقه في ضبط نفسه.

١٢ ـ وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ وأنا ابن ثمان سنين، خدمته عشر سنين، فما لامني على شيء قط أُتي فيه على يدي، فإن لامني لائم من أهله قال: «دعوه فإنه لو قضي شيء كان».

أتي فيه على يدي: أي أتلف أو كسر أو حصل فيه شيء يكره.

لو قضي شيء كان: أي لو قضيت السلامة لحصلت.

١٣ ـ وروى مسلم عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه

وهو يضحك، فقال: «يا أنيس ذهبت حيث أمرتك؟» قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله.

١٤ ــ وروى البخاري ومسلم عن جابر قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.

وهذا من جوده وسماحة نفسه ﷺ.

١٥ ــ وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان، وكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة.

١٦ ــ وروى مسلم عن أنس، أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا، فوالله إن محمداً ليعطي عطاءً ما يخاف الفقر.

١٧ ــ وروى البخاري عن جبير بن مطعم: بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ مَقْفَله من حنين، فعلقت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمُرَة فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نَعَمٌ لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً».

سمُرَة: أي شجرة من شجر الطلح.
العضاه: الشجر الذي له شوك.

١٨ ــ وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك وإن حجزته لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً مَلِكاً، فنظرت إلى جبريل عليه السلام فأشار إليّ أن ضعْ نفسك».

وفي رواية ابن عباس: فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فأشار جبريل بيده أن تواضع، فقلت: «نبيّاً عبداً».

قالت عائشة: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً؛ يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».
(عن مشكاة المصابيح قال: رواه في شرح السنة)

١٩ ـ وروى البخاري عن أنس قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا لعاناً ولا سبّاباً، كان يقول عند المعتبة: «مالَهُ تَرِب جبينُه؟».

تَرِب جبينه: أي لَصِق جبينه بالتراب.

٢٠ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادعُ على المشركين. قال: «إنّي لم أبعثّ لعّاناً، وإنما بعثت رحمة».

٢١ ـ وروى البخاري عن عائشة قالت: ما رأيت النبي ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، وإنما كان يتبسم.

مستجمعاً ضاحكاً: أي متجهاً بكل فمه للضحك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل ذلك، إنما كان ضحكه التبسم.

٢٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: إنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم؛ كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه.

٢٣ ـ وروى الترمذي عن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام يبيّنه، فصل، يحفظه من جلس إليه.

٢٤ ـ وروى أبو داود عن جابر قال: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل وترسيل.

٢٥ ـ وعن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ طويل الصمت.
(عن مشكاة المصابيح قال: رواه في شرح السنّة)

٢٦ ـ وروى مسلم عن أنس، أن رسول الله ﷺ كُسرت رَبَاعيته يوم أحد، وشُجّ في رأسه، فجعلَ يسْلُتُ الدّم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجّوا رأس نبيّهم وكسروا رباعيته؟».

٢٧ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيّه» يشير إلى رباعيته «اشتدّ غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله».

٢٨ ـ وروى البخاري ومسلم عن عائشة، أنها قالت: يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أحد فقال:

«لقد لقيتُ من قومِكِ، فكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضْتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردّوا عليك وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم».

قال: «فناداني مَلَك الجبال، فسلم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربّك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين». فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

أن أطبق عليهم الأخشبين: أي الجبلين في مكة.

٢٩ ـ وروى مسلم عن أنس قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها.

٣٠ ـ وروى مسلم عن عمر قال: قسم رسول الله ﷺ قسماً، فقلت: يا رسول الله، لَغير هؤلاء كانوا أحق به منهم! قال: «إنهم خيروني بين أن يسألوني بالفحش فأعطيهم، أو يبخلوني، ولست بباخل».

فمن أغراض بذل الرسول ﷺ أغراض تربوية، وأغراض يقصد فيها تأليف قلوب الناس على الإسلام. فمن حديث أنس نلاحظ أن الرسول ﷺ كان يتخذ العطاء الكثير وسيلة لجلب قلوب الناس إلى الإسلام، وحينما كان

أحد هؤلاء يدخل في الإسلام بهذه الوسيلة لا يلبث يسيراً حتى يتعلق قلبه بالإسلام تعلقاً صادقاً، وعندئذ تهون الدنيا في نفسه، فينظر إلى الوسيلة التي كانت قد جلبته نظر العاقل البصير، فلا يراها إلا كما يرى راكب العربة عربته بعد أن توصله إلى قصر عظيم لا تعادل العربة بالنسبة إليه إلا شيئاً قليلاً حقيراً.

وقياساً على هذا العمل النبوي نرى أن من المستحسن في وسائل التربية وطرق الدعوة إلى الله، أن نجلب الشباب إلى الخير برياضة يحبونها، أو رحلة يُسرّون بها، أو دعوة كريمة إلى طعام أو شراب، أو هدية محبوبة، أو طرفة مسلية، أو نحو ذلك مما تميل إليه النفوس من مباحات.

وقد تغدو مثل هذه الوسائل من واجبات الداعي والمربي المسلم، لا سيما حينما يتخذها الأعداء وسائل للصد عن الإسلام، ولجلب الشباب واستدراجهم إلى مواقع الشر. فمن الملاحظ أن دعاة الشر والفساد لا يتركون وسيلة من الوسائل التي تميل إليها النفوس إلا ويستخدمونها لجلب الشباب واستدراجهم إلى الشر، وهم يمهدون لها كل الطرق، ويبعدون عنها كل العقبات، حتى تكون مصايد يصيدون بها ذوي النفوس الضعيفة، إنهم يستخدمون المال، والشهوات، ومطامع الجاه والمنصب، وملذات العين والسمع وغيرهما من الحواس، والرياضات والرحلات والأغاني والأفلام والمجلات والقصص وغير ذلك مما يصعب إحصاؤه.

وباستطاعة الداعي والمربي المسلم أن يستخدم من هذه الوسائل ما كان منها مباحاً لا يتعارض مع الإسلام، ولما كان بذل المال أقوى وسيلة من الوسائل التي كانت تجلب الناس في عصر الرسول ﷺ فقد اعتمد عليه الرسول في وقائع كثيرة من أساليبه التربوية العملية.

وقد أعطى الرسول ﷺ بعض الناس مع أن غيرهم أحق بالعطاء منهم كما جاء في حديث عمر، خوفاً عليهم من أن تسوء حال نفوسهم أمام ثورة المطامع التي التهبت نيرانها فيهم.

□ □ □

الباب الرابع

جَوَامِع مُفرَدَات الأخلاَق وكلّيّاتهَا الكبُرى

وفيه عشرة فصول

مقــدّمة

باستطاعتنا أن نرجع مفردات الأخلاق إلى أصول أو كليات عامة، وأن نعتبر الطائفة العظمى منها فروعاً لهذه الأصول أو الكليات، وربما ترجع بعض مفردات الأخلاق إلى أكثر من أصل من هذه الأصول، أو كليـة من هذه الكليات.

ولدى سَبْر مفردات الأخلاق في استقراء لا ندعي له التمام والكمال، وبعد إجراء تصنيف لها، انكشفت لنا الأصول أو الكليات التالية:

الأصل الأول : حبّ الحق وإيثاره وظواهره السلوكية.

الأصل الثاني : الرحمة وفروعها وظواهرها السلوكية.

الأصل الثالث : المحبة وظواهرها السلوكية.

الأصل الرابع : الدافع الجماعي وفروعه وظواهره السلوكية.

الأصل الخامس : قوّة الإرادة وظواهرها السلوكية.

الأصل السادس : الصبر وفروعه وظواهره السلوكية.

الأصل السابع : حبّ العطاء وفروعه وظواهره السلوكية.

الأصل الثامن : علوّ الهمة وفروعه وظواهره السلوكية.

الأصل التاسع : سماحة النفس وفروعها وظواهرها السلوكية.

ولهذه الأصول التي ترجع إليها مفردات مكارم الأخلاق أضداد ترجع إليها مفردات الرذائل والنقائض الخلقية. وبحث هذه الأصول الكلية بشكل

تفصيلي يستدعي عقد فصلٍ لكل واحد منها، فعقدت في هذا الباب الرابع تسعة فصول، لبحث هذه الأصول، وبيان الفروع والظواهر السلوكية التي ترجع إليها، وقد بذلت ما تيسر لي من جهد لجمع مفردات الأخلاق البسيطة والمركبة، وحاولت ربطها بأصولها وكلياتها العامة بحسب ما ظهر لي. وقد يخالفني في الربط والتصنيف مخالف، ولا ضير في ذلك، فالموضوع يحتمل اختلاف وجهات النظر، لتداخل فروع الأخلاق وأصولها، وتشابك بعضها ببعض، وتفاوت مستويات النظر إليها سطحية وعمقاً، والله الموفق والمسدّد، وهو المعلم والملهم.

* * *

الفصـل الأول

حُبّ الحَقّ وَإيثَارُه وَظوَاهِرُه السُّلوكيّة وَأضْـدَادُ ذٰلِك

— ١ —

ظهر لي بالتأمل التحليلي أنّ من الأصول الخلقية وكلّياتها العامة حبّ الحقّ وإيثاره، وأنّ لهذا الأصل فروعاً أخلاقية متعدّدة، منها الصدق، ومنها العدل، ومنها الوفاء بالعهد والوعد، ومنها الأمانة إلى غير ذلك.

والانحراف عن هذا الأصل الخلقي العام يفضي إلى السقوط في رذائل خلقية متعدّدة، منها الكذب، ومنها الظلم، ومنها الغدر، ومنها الخيانة، ومنها قسوة القلب عن قبول دعوة الحق، إلى غير ذلك.

ولهذا الانحراف أسباب كثيرة، ترجع معظمها إلى الأنانية الذاتية المفرطة، وغلبة الأهواء والشهوات، ويرجع بعضها إلى خبث النفس وكراهيتها للآخرين، ونزغاتها الشيطانية الشريرة.

وباستطاعتنا أن نجد الإشارة إلى هذا الأصل الخلقي العام في طائفة من النصوص الإسلامية.

يقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ ﴾.

فدلّ هذا النص على أن الله قد حبّب إلى قلوب المؤمنين الإيمان، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ومعلوم أن الإيمان هو التصديق بأجل الحقائق الكبرى، فحبّ الإيمان أوّل ظاهرة جليلة الخطر من ظواهر حبّ الحق، إذ الأركان الذي يجب الإيمان بها في الإسلام هي من الحق، وحبّ الإيمان بها حبّ للحق وإيثار له على الباطل. وحبّ الحق يستلزم كراهية الباطل وما يتصل به، وإن تعلّقت به أهواء النفوس وشهواتها، ولمّا كان الكفر والفسوق والعصيان من الباطل، كان من الطبيعي أن تكرهه قلوب المؤمنين الذين أحبّوا الحقّ وآثروه.

ولمّا أحب المؤمنون الحق وآثروه على أهوائهم وشهواتهم آمنوا بالإسلام واتبعوا الهدى.

أمّا الكافرون فقد كرهوا الحقّ الذي يخالف أهواءهم وشهواتهم، فكفروا بالإسلام واتبعوا الشياطين، واتخذوا أهواءهم وشهواتهم آلهة لهم من دون الله، وإذ كرهوا الحقّ كرهوا الداعين إليه والناصحين به، وكان من الطبيعي فيهم أن يحبوا الباطل الموافق لأهوائهم وشهواتهم، ويؤثروا العمى على الهدى، قال الله تعالى يصف ثمود في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

فهؤلاء ثمود قد استحبوا العمى وهو الكفر على الهدى وهو الإيمان، ومعلوم أنّ الكفر التزام بالباطل، والهدى استمساك بالحقّ.

ولما كره الكافرون الحق وأحبوا الباطل كرهوا الدعاة إلى الحقّ والناصحين به، ولذلك خاطب صالح عليه السلام قومه ثمود بقوله: «ولكن لا تحبون الناصحين».

هذا ما قصه الله علينا حكاية لقول صالح بقوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

وكرهوا أيضاً ظهور الحقّ وانتشاره، وكرهوا إحقاق الحق وإبطال الباطل، قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

فهؤلاء المجرمون يكرهون إحقاق الحقّ وإبطال الباطل، لأنّ ذلك يضر بمنافعهم وامتيازاتهم وزعاماتهم القائمة على الباطل، فهم يحبّون ظهور الباطل حرصاً عليها، ويكرهون ظهور الحقّ خوفاً من فواتها.

وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

فالمجرمون في كل زمان يكرهون إحقان الحقّ، لأنه يخالف ما هم عليه من باطل.

ويكره الكافرون بالحقّ أن يمتدّ نوره ويعمّ، لأنهم يريدون أن تظلّ الجماهير الجاهلة مسخّرة لأهوائهم، خاضعة لزعاماتهم الباطلة، ومتى ظهر نور الحق وعمّ انتشاره تيقظت الجماهير المسخّرة لهم من غفلتها، وألقت عن ظهورها أوزار المتحكمين بهم، والمتسلّطين عليهم من المجرمين الكافرين بالحقّ، الظالمين لعباد الله، وفي شأنهم يقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ويقول سبحانه في سورة (الصف ٦١):

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

والمقصود بنور الله هنا نور المعرفة والعلم، ونور رسالة الحق التي أرسل الله رسوله بها، والكافرون يحاولون أن يطفئوا نور هذه الرسالة الحقة بأضاليلهم التي يقولونها بأفواههم، ليغشّوا بهذه الأقوال على عقول أتباعهم فلا يروا نور الحقّ المبين، ونور الله لا تطفئه أفواه المضلّين، ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

ولدى الإحصاء الإنساني نجد أنّ أكثر الناس يكرهون الحقّ، متى صادم أهواءهم وشهواتهم ومصالحهم ومنافعهم ولذاتهم الخاصة، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فأثبت الله في كلٍ من هذين النصين أنّ أكثر الناس للحقّ كارهون، وبين النصّ الأول منهما السبب في كراهيتهم للحق بقوله تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ فدل هذا على أن أهواء نفوسهم الجانحة عن سبيل الهدى هو السبب في كراهيتهم للحق، وحين تسيطر على الإنسان أهواؤه وشهواته تقع عواطفه تحت تأثير هذه السيطرة، فيتجه حبّه

وتتجه كراهيته وفق اتجاه أهوائه وشهواته، لا وفق منطق عقله ومشاعر وجدانه الفطرية الأصيلة السليمة.

وقد نلاحظ أنّ بعض المؤمنين الذين يحبّون الإيمان ويكرهون الكفر، قد يحبّون من دون الكفر أموراً من الباطل تشتهيها نفوسهم أو تميل إليها أهواؤهم، كما نلاحظ أن بعض غير المؤمنين الذين يحبّون الكفر ويكرهون الإيمان، قد يحبّون من دون الإيمان أموراً من الحقّ تميل إليها عواطفهم وفطرهم.

ونستطيع أن نسمّي هذا نزوعاً جزئياً إلى الباطل، وحباً جزئياً له في نفوس الذين يحبون الحقّ ويؤثرونه، ونزوعاً جزئياً إلى الحقّ، وحباً جزئياً له في عواطف الذين يحبون الباطل ويؤثرونه. ومعاصي المؤمنين قد يكون كثير منها ظواهر لهذا الحبّ الجزئي للباطل، بتأثير أهواء نفوسهم وشهواتهم، وفضائل غير المؤمنين قد يكون كثير منها ظواهر لهذا الحبّ الجزئي للحقّ، بتأثير جوانب من فطرهم السليمة، وعواطفهم الإنسانية الكريمة، ونجد الإشارة إلى هذا النزوع الجزئي في قول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مع أن بعض هؤلاء قد كانوا من المؤمنين، إلّا أنهم سقطوا في معصية إشاعة الاتهام الكاذب على أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حتى نزل القرآن ببراءتها وطهارتها.

فحبّ الحقّ وإيثاره خلق ينتج عنه فضائل عظيمة خلقية وسلوكية، وحبّ الباطل وإيثاره خلق ينتج عنه رذائل خلقية وسلوكية فاحشة، إذن فهو أصل من الأصول الأخلاقية العامة، وله فروع متعدّدة، فلنبحث في هذه الفروع بشكل تفصيلي.

— ٢ —

الاعتراف بالحق والإذعان له

من الظواهر التي ترجع إلى خلق حبّ الحق وإيثاره الاعتراف بالحق والإذعان له.

ومن البدهي أنّ من لا يعترف بالحق ولا يذعن له بعد ظهوره له واستبانته لأدلته، محرومٌ من جوهرة عظيمة أساسيّة ورئيسية من جواهر عقد الأخلاق، ومصاب بداء قسوة القلب عن قبول دعوة الحق والاستجابة لنداء الخير والهداية[١].

فلو رأينا إنساناً اتهم بالجنون رجلاً عاقلاً ذكياً حصيفاً، فإننا بالبداهة نصف هذا المتهم الظالم بأنه محروم من خلق كريم، إذ جحد حقيقة واقعة يتصف بها الرجل الذكي العاقل الحصيف، وأثبت له خلافها ممّا ليس فيه، وشتمه بذلك.

فجحود الحق مع العلم بأنه حقّ انحراف خلقي قبيح، والعوامل النفسية الدافعة لهذا الجحود كثيرة، وكلها لا تعدو أن تكون من قبيل الأهواء الجانحة.

ولو أقرضنا إنساناً مبلغاً من المال فجحده وأنكره، فإننا نصفه بأنه آكل لأموال غيره بالباطل، منحرف في خلقه عن المكارم، ولو أنه أدى ما عليه إلاّ أنه جحد المعروف ولم يعترف به، فإننا نصفه أيضاً بأنه جاحد للحقّ، منحرف في خلقه عن المكارم، ناكر للجميل.

وكذلك الذي ينكر فضل ذوي الفضل، ويجحد علم أصحاب العلم، لا سيما إذا كان ذلك يفضي إلى الإضرار بمصالح ذوي الفضل والعلم، إنه لا يفعل شيئاً من ذلك إلاّ محروم من ركن أساسي من أركان الأخلاق الكريمة، وساقط في رذيلة كبرى من الرذائل الخلقية، هي رذيلة جحود الحق وعدم الاعتراف به والإذعان له.

---

(١) سيأتي إن شاء الله شرح قسوة القلب في المفاهيم الإسلامية، عند شرح خلق الرحمة والخلق المناقض لها.

وأكثر خسة وأعظم لؤماً وانحرافاً خلقياً من يجحد فضل أبويه عليه ولا يذعن له، ولا يقوم بما عليه من حقّ لهما.

وأقبح من ذلك من يجحد رسالة رسل الله، ولا يعترف بها، ولا يذعن لها، مع ظهور الأدلة ووضوح البراهين!! ولهذا الجنوح الخلقي الشنيع سمة خاصة عنوانها الكفر.

وأخسّ من ذلك وأشنع وأقبح إنكار وجود الله، وعدم الاعتراف بأنه الخالق الرازق المحيي المميت، الذي يجازي على الخير خيراً وعلى الشر شرّاً، مع أنّ الله تبارك وتعالى قد بث أدلة وجوده وصفاته في كل ما خلق من شيء!! إنّ إنكار وجود الله وإنكار صفاته وعظيم نعمه لؤم وخسة وحقارة بالغة، وسوء خلقي بلغ الدرك الأسفل، لأنه جحود لكبرى حقائق الوجود، وجحود لنعم المنعم بالحياة والعقل والإرادة وسائر ما في الحياة من نعم وخيرات، وجحود للمنعم بالجزاء العظيم على الإيمان به والتزام طاعته. إنّ هذا الجحود يدلّ على انهيار خلقي شنيع.

لقد جاء موسى عليه السلام فرعون وقومه بالآيات البينات فجحدوا بها ظلماً واستعلاءً بغير حق، مع أن أنفسهم قد استيقنتها، فكان جحودهم بها بسبب انحراف خلقي ذميم لديهم، هو الظلم والاستعلاء بغير حق، قال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وبين الله أنه لا يجحد بآياته إلّا كلّ غدّار كفور، فقال تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

الختار: هو الغدار.

والجاحد المشار إليه في هذه الآية جاحد من نوع معين، إنّه حينما تعرّض للأزمات والشدائد دعا ربه وأخلص له الدين، وأعطى العهد على الطاعة والتزام الإيمان الصادق، فلما أنجاه الله رجع فأعلن جحوده بآيات الله، وهذا منتهى الغدر الخسيس، إنه مخلوق مراوغ أعطى عهد الإيمان لينجو، فلما نجا غدر بعهده الذي عاهد الله عليه، ولذلك وصفه الله بأنه ختار ـ أي: غدار ـ ووصفه بأنه كفور، أي: كثير الكفر كثير الجحود للحق، كثير الجحود لنعم الله عليه، والغدر والكفر من أخس الرذائل الخلقية.

ـ ٣ ـ
الصدق

(أ) يعرَّف الصدق بأنه قول الحق، وبأنه القول المطابق للواقع والحقيقة.

ويعرّف بعضهم الصدق بأنه الكلام المطابق لاعتقاد المتكلّم سواء طابق الواقع والحقيقة أو لم يطابق، وهذا التعريف معترض عليه بأنه لو جاز أن نسمي ما طابق اعتقاد المتكلم صدقاً لكان قول المشركين فيما يعتقدون لشركائهم كلاماً صدقاً، مع أنه كذب ظاهر، مخالف للواقع والحقيقة.

وأرى التفريق بين الكلام والمتكلّم: فإذا تحدث الإنسان بخبر ما وكان كلامه الذي قاله مطابقاً لما يعتقد في الموضوع الذي تحدث به ومخالفاً للواقع، فإنه منسجم مع نفسه، وهو في حديثه صادق غير كاذب، إلّا أنّ كلامه هو بحد ذاته كذب. لأنه مخالف للواقع والحقيقة. أما إذا تحدث الإنسان بخبرٍ ما وكان كلامه الذي قاله مخالفاً لما يعتقد في الموضوع الذي تحدث به، ومطابقاً للواقع والحقيقة، فإنه غير منسجم مع نفسه، وهو في حديثه كاذب غير صادق، إلّا أنّ كلامه هو بحد ذاته صدق، لأنه مطابق للواقع والحقيقة. وعلى هذا فقد نصف المتكلم بأنه كاذب لأنه تكلم على خلاف اعتقاده، مع أن كلامه قد يكون

موصوفاً بالصدق لأنه موافق للواقع والحقيقة فلكلٍ من الكلام والمتكلم وصف ملائم لواقع حاله. ومن أمثلة ذلك قول المنافقين المتظاهرين بالإسلام، إذ قالوا بألسنتهم كلاماً حقاً مطابقاً للواقع، وهو كلام بحد ذاته صدق، إلاّ أنهم لا يعتقدونه، فهم كاذبون في إعلانه، ولذلك وصفهم القرآن بأنهم كاذبون، لأنهم منافقون لا يعتقدون ما يقولون، قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

فهؤلاء المنافقون قالوا لرسول الله ﷺ: نشهد إنك لرسول الله، وقولهم هذا كلام حق وصدق، إلاّ أنهم مع ذلك كاذبون لأنهم قالوا كلاماً لا يعتقدونه، ولذلك قال تعالى قبل إعلان أنهم كاذبون: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ ثم قال: ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ وذلك لأنهم لا يعتقدون ما يقولون.

ويرى علماء البلاغة أنّ الله أكذبهم بقولهم: «نشهد» لأنّ معنى نشهد: نقول بألسنتنا ما هو في قلوبنا، وهذا مخالف للحقيقة والواقع، إذ قلوبهم مخالفة لما ذكروه بألسنتهم.

ونقول في جواب هذا: إن كل إنسان يقول بلسانه خبراً على خلاف ما في قلبه من اعتقاد يقدم شهادةً بما يعتقد، سواء أذكر عبارة الشهادة أم لم يذكرها، وبذلك يصح لنا أن نسميه كاذباً.

وفي رأيي ينحل الإشكال حين نفرق في الوصف بين الكلام والمتكلم، فنصف كلاً منهما بما يناسب واقع حاله، فالكلام الصدق هو ما كان مطابقاً للواقع والحقيقة والمتكلم الصادق هو المخبر بما يطابق اعتقاده.

ومن الأدلة الدالة على أن وصف المتكلم بأنه كاذب لا يكون إلا إذا كان المتكلم يعلم من نفسه أنه كاذب، وأنه يقول ما يقول افتراءً يفتريه على الحقيقة، قول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

فجعل الله في هذه الآية مفتري الكذب هم وحدهم الكاذبين، أي: المدانين بما يقولون من أقوال كاذبة، لأنهم يفترونها، فهم يقولونها وهم يعلمون أنها كذب مفترى.

فالإدانة بالكذب إنما تكون مع علم المتكلم بأن ما يقوله كلام كذب مخالف للواقع أو لما يعتقد، ومن شواهد ذلك قول الله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

وقول الله أيضاً في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فهؤلاء من أهل الكتاب يقولون كلاماً كذباً، وهم يعلمون أنه كذب، فهم كاذبون مدانون بالافتراء.

أما قول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

فهؤلاء قد أنكروا البعث من غير دليل، وأقسموا بالله جهد أيمانهم قائلين: لا يبعث الله من يموت، دون أن يكون لهم أي مستند عقلي أو علمي أو خبري يبرر ادعاءهم، بل الحجج العقلية والنقلية تثبت خلاف ما يقولون. فليس من المعقول أن تكون لديهم عقيدة جازمة بأن الله لا يبعث من يموت، حتى يقسموا بالله جهد أيمانهم على ذلك، وحتى نعتبرهم منسجمين مع أنفسهم، لذلك فهم يقولون كلاماً كذباً، وهم مدانون بأنهم كاذبون.

وعلى فرض أنهم يعبرون عن عقيدتهم، فإنهم سيعلمون يوم القيامة أنهم كانوا كاذبين أي: كانوا يقولون كلاماً كذباً مخالفاً للواقع والحقيقة.

(ب) **وكما يكون الصدق والكذب في الأقوال يكونان في الأفعال**، فقد يصدق الناس في تعبيراتهم الفعلية، وقد يكذبون، فإذا كانت تعبيراتهم الفعلية مطابقة في دلالاتها للحقيقة والواقع، فإنها تكون أفعالاً صادقة، وإذا كانت غير مطابقة فإنها تكون أفعالاً كاذبة.

فقد يفعل الإنسان فعلاً يوهم به حدوث شيء لم يحدث، أو يعبر به عن وجود شيء غير موجود، وذلك على سبيل المخادعة بالفعل مثلما تكون المخادعة بالقول، وربما يكون الكذب في الأفعال أشد خطراً وأقوى تأثيراً من الكذب في الأقوال.

ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله لنا من أقوال وأفعال إخوة يوسف عليه السلام، إذ جاؤوا أباهم عشاءً يبكون بكاءً كاذباً، وقالوا ـ كذباً ـ: يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وجاؤوا على قميص يوسف بدم كذب، فجمعوا بين كذب القول وكذب الفعل، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾.

فبكاؤهم فعل كاذب، قصدوا به التعبير لأبيهم عن حزنهم على يوسف الذي أكله الذئب بزعمهم، وهم الجانون عليه إذ ألقوه في الجُبِّ. وقصتهم التي أخبروا عنها قصة مفتراة من عند أنفسهم، والذئب بريء من دم أخيهم، فأقوالهم فيها أقوال كاذبة، وتلطيخهم قميص يوسف بدمٍ شاةٍ ذبحوها ليوهموا به صحة ما زعموه من أكل الذئب له فعل كاذب والدم ليس دم يوسف بل هو دم كذب، وهكذا لفّقوا عدة أكاذيب قولية وفعلية ليستروا بها ما جنوه على أخيهم.

ونستطيع أن نعتبر الأعمال التي يقوم بها المراؤون من قبيل الكذب العملي، وأبلغ منها الأعمال التي يعملها المنافقون ليخادعوا بها المؤمنين فهي من قبيل الكذب العملي، وهي مضافة إلى أكاذيبهم القولية التي زعموا فيها أنهم مسلمون مؤمنون موالون.

أما الأعمال الصادقة فهي الأعمال التي تكون دلالاتها التعبيرية مطابقة لما في نفس فاعلها وقلبه، وهي التي ليس بينها وبين ما يخفيه فاعلها في نفسه وقلبه منافاة ولا تعارض.

فالمجاهد في سبيل الله الصادق في جهاده هو الذي يكون عمله ترجمة صادقة لإيمانه، وتكون نيته مطابقة للدلالة التعبيرية التي دل عليها جهاده.

والحركات التعبيرية الصادقة كإشارات اليد والعين والحاجب والرأس هي الإشارات التي تكون دلالاتها مطابقة للواقع والحقيقة، وكم من إشارة فعلية تقوم مقام القول في دلالتها. ومن الإشارات الفعلية ما هو صادق ومنها ما هو كاذب، وما أكثر ما يكذب الناس بإشاراتهم وبأفعالهم، ولعل الكذب في الأفعال أكثر عند الناس من الكذب في الأقوال.

ولما كان الصدق والكذب مما توصف بهما الأقوال والأفعال كان لنا أن نقول: إن كل ذي دلالة مقصودة إما أن تكون دلالته صادقة وإما أن تكون كاذبة، والصادق منها ما وافق الواقع والحقيقة، والكاذب منها ما خالف الواقع والحقيقة.

ولمّا كان الصدق مطلوباً من المؤمنين في أقوالهم وأعمالهم أمر الله المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، فقال تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

والصادقون هم الذين صدقوا في إسلامهم، وصدقوا في إيمانهم، وصدقوا في أقوالهم، وصدقوا في أعمالهم. وصدقهم في أعمالهم يكون في أن يبتغوا بها وجه الله تعالى، وهي بذلك تكون معبرة عن إيمانهم تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا سمعة ولا نفاق.

(ج) **لا يكون الكذب من الأخلاق الفطرية التي يطبع عليها الإنسان:**

يظهر من ملاحظة الصغار أنهم مفطورون في أساس تكوينهم على حب الحق، وعلى حب الصدق، وأن خلق الكذب لا يكون أصيلاً في طبع الإنسان بحسب فطرته وإنما يكتسبه بعد ذلك في حياته اكتساباً، بعوامل شتى، منها البيئة، ومنها مؤثرات الأهواء والشهوات، ومنها الاعتياد بتكرر الخبرات، ثم تتحول العادة فتكون خلقاً مكتسباً.

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب».

فهذا الحديث يدل على أن الإنسان مفطور في أساس تكوينه على حب الحق، والذي يحب الحق لا يكون خائناً ولا كذاباً، وأن الخيانة والكذب يأتيان إلى أخلاق الناس اكتساباً.

وذكر الحديث المؤمن ولم يذكر الإنسان، إلا أن كل إنسان مفطور على الإيمان، فهو مؤمن بالفطرة، ويفسد فطرته بعد ذلك بإرادته، أو تعمل البيئة على إفساد فطرته، وقد دل على هذا قول الرسول ﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه أو يتركانه مسلماً».

ودل عليه أيضاً قول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ولما كان الإنسان في فطرته أكثر ميلاً إلى الحق والصدق كانت تربيته على حب الحق والتزام الصدق أمراً ميسوراً، يجد من الفطرة مساعدات عليه، وعلى المربين أن يستغلوا ذلك استغلالاً حسناً.

(د) حاجة المجتمع الإنساني إلى سيادة خلق الصدق، والمضار الكثيرة التي يجلبها خلق الكذب:

تبدو لنا حاجة المجتمع الإنساني إلى خلق الصدق، حينما نلاحظ أن شطراً كبيراً من العلاقات الاجتماعية، والمعاملات الإنسانية، تعتمد على صدق الكلمة، فإذا لم تكن الكلمة معبّرة تعبيراً صادقاً عما في نفس قائلها، لم نجد وسيلة أخرى كافية نعرف فيها إرادات الناس، ونعرف فيها حاجاتهم، ونعرف فيها حقيقة أخبارهم.

لولا الثقة بصدق الكلمة لتفككت معظم الروابط الاجتماعية بين الناس، ويكفي أن نتصور مجتمعاً قائماً على الكذب، لندرك مبلغ تفككه، وانعدام صور التعاون بين أفراده.

كيف يكون لمجتمعٍ ما كيانٌ متماسك وأفراده لا يتعاملون فيما بينهم بالصدق؟ وكيف يكون لمثل هذا المجتمع ثروة من ثقافة أو تاريخ أو حضارة؟.

كيف يوثَق بنقل المعارف والعلوم إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإنساني؟.

كيف يوثق بنقل الأخبار والتواريخ إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع؟.

كيف يوثق بالوعود والعهود ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟.

كيف يوثق بالدعاوى والشهادات ودلائل الإثبات القولية ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟.

ما هو مصير مجتمع قائم على الكذب؟ أليس مضيره الانحلال والتفكّك، ثم التخلف الحضاري الشنيع، ثم الخراب والدمار؟ أليس الجهل المخزي أحد سمات هذا المجتمع المنحل؟.

مَثَلٌ في قصة متخيلة:

كذاب ساقته أقداره إلى مدينة الكذابين، دون أن يعلم شيئاً عن حقيقتها ولا عن حقيقة من فيها، وحين وصل إليها وجد نفسه شديد الجوع، منهك القوى، قلق النفس، مضطرب الفؤاد، يريد طعاماً ومناماً وطمأنينة.

فأخذ يبحث عن مطعم يأكل فيه، وعن فندقٍ يأوي إليه، وقال في نفسه: سؤال أهل المدينة أقرب طريق يوصلني إلى مطعم وفندق، فرأى رجلاً مهيباً وسيماً، فقال له: يا سيدي هل تعرف مطعماً نظيفاً جيد الطعام، ترشدني إليه فإني غريب؟.

فقال له الرجل: امضِ في هذا الشارع، فإنك ستجد بعد نحو نصف ميل منعطفاً على اليمين، فتابع المسير في هذا المنعطف، فإذا سرت نصف ميل آخر وجدت المطعم الذي يسرك.

قال: فما اسم هذا المطعم؟.

قال: اسمه مطعم الليل الضاحي.

فسار الرجل وفق البيان الذي تلقاه، وأخذ يبحث عن مطعم الليل الضاحي، فلما قطع المسافة الأولى لم يجد منعطفاً على اليمين، إلا أنه وجد منعطفاً على الشمال، فمضى لعله يجد منعطفاً على اليمين، إلا أنه لم يجد وقد كاد يصل إلى آخر المدينة، فرجع أدراجه وقال في نفسه: لعل الرجل قد أخطأ،

فأخبرني أن المنعطف على اليمين، وهو يريد أن يقول لي: إن المنعطف على الشمال.

فرجع وسار في المنعطف الذي على الشمال حتى بلغ آخره، ولم يجد مطعم الليل الضاحي، وعندئذٍ استوقف رجلاً عجوزاً فقال له: يا سيدي أنا رجل غريب، وإنني أبحث عن مطعم وفندق، وقد سألت في طريقي رجلاً مهيباً وسيماً، فدلني على مطعم الليل الضاحي في هذا الشارع، وأخبرني أنه مطعم نظيف جيد الطعام، وأنا أبحث عنه منذ ساعة، فلم أعثر عليه، فضحك العجوز ضحكة هرمة مضرسة خبيرة، وقال له: إن مطعم الليل الضاحي في أقصى المدينة الشرقي، إلا أنك إذا وصلت إليه وجدت مكتوباً على عتبة بابه: مركز إطفاء المدينة. فسأله عن مطعم آخر، فقال له: ليس في هذه الناحية مطعم ولا فندق، وكل مطاعم المدينة وفنادقها في أقصاها الشرقي، فاركب في هذه المركبة العامة، وانزل في محطة «نفق الأنفاق» فهناك أقصى المدينة الشرقي، وهناك تجد طلبك.

فاستجاب الرجل سريعاً إلى نصيحة الرجل العجوز، فركب المركبة قاصداً محطة «نفق الأنفاق» ثم أخذ يسأل في المركبة وهي سائرة عن المحطة فيضحك الناس من سؤاله، فقال: أليست هذه المركبة سائرة إلى أقصى المدينة الشرقي، فاستغرقوا في الضحك، وهم يقولون: بل هي سائرة إلى أقصى المدينة الغربي.

فنادى: يا أيها الناس دلوني على مطعم وفندق فإني غريب جائع منهك القوى، فجعلوا يكذبون عليه، وكل واحد منهم يدله دلالة مخالفة لدلالة الآخرين. وحار في أمره، وضاق ذرعاً بنفسه وبكل من حوله، وبكل شيء حوله، ثم رمى بنفسه من المركبة، وانطلق هائماً على وجهه، وخرج من المدينة وهو يقول: لعن الله الكذب والكذابين، إن مجتمعاً يسود فيه الكذب مجتمع عذاب وشقاء.

وأعلن توبته من الكذب، وأدرك ضرورة الصدق للمجتمعات الإنسانية، وكان دخوله إلى مدينة الكذابين سبب توبته ووسيلة تربوية له.

(هـ) موقف الإسلام من الصدق والكذب:

ولما كان الصدق ضرورة من ضرورات المجتمع الإنساني، وفضيلة من فضائل السلوك ذات النفع الحضاري العظيم.

ولما كان الكذب عنصر إفساد كبير للمجتمعات الإنسانية، وسبب هدم لأبنيتها الحضارية، وتقطيع لروابطها وصلاتها، ورذيلة من رذائل السلوك ذات الضرر البالغ؛ أمر الإسلام بالصدق، ونهى عن الكذب، وأعلن أن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي، ووضع قواعد تربية هذا المجتمع على الصدق، واتخذ كل الوسائل الكفيلة بغرس هذا الخلق العظيم في نفوس أفراده جميعاً، صغاره وكباره، ورجاله ونسائه.

وفيما يلي بيان لطائفة من النصوص الإسلامية:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

وفي رواية أخرى: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

فدل هذا الحديث على أن الصدق يهدي إلى البر، والبر كلمة جامعة تدل على كل وجوه الخير، ومختلف الأعمال الصالحات، مما هو زائد على فعل الواجبات وترك المحرمات، الأمور التي تقتضيها مرتبة التقوى.

ونتساءل كيف يهدي الصدق إلى مختلف وجوه البر؟ وبالتأمل والتحليل نلاحظ ما يلي:

إذا كان الإنسان صدوقاً أي: كان خلق الصدق أصيلاً في نفسه، فما هو موقفه السلوكي إذا عرف الحق وسئل عنه؟.

إنه لا بد أن يكون موقفه تجاهه الإعلان عنه بصدق، أن يقول: هو حق.

فإذا سئل عن أركان الإيمان بعد أن يعلم أنها حق بالأدلة التي تثبت ذلك؟.

إنه لا بد أن يعلن اعترافه بأنها حق لأنه صادق لا يطاوعه خلقه أن يكذب، مهما كانت أهواؤه جانحة إلى إعلان الجحود والإنكار.

وبهذا يتبين لنا أن الصدق يهدي إلى الإيمان، والإيمان هو القاعدة الأساسية للتقوى وقد هدى إليه خلق الصدق.

ومن كان صدوقاً خُلُقه الصدق فإنه لا يمكن أن يكون منافقاً، لأن الكذب هو العماد الأول للنفاق، والصادق إما أن يؤمن حقاً، ويعلن إسلامه بصدق، وإما أن يتوقف حتى تتبين له الحقيقة، فخلق الصدق يمنعه من أن يظهر الإيمان كذباً، ويبطن الكفر، كما يمنعه من جحود الحق بعد معرفته.

فخلق الصدق يبعد صاحبه عن درك عميق فيه الهلاك والشقاء، ويدنيه إلى صراط السعادة، صراط الجنة، إذ يهدي صاحبه إلى بر الإيمان ويبعده عن فجور الكفر والنفاق.

وبهذا اتضح لنا التسلسل المنطقي في قول الرسول ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة».

ولننتقل إلى مثالٍ توضيحي آخر فنقول: إذا كان الإنسان متحلياً بخلق الصدق، فهل يطاوعه خلقه أن يعطي عهداً وهو كاذب فيه، أو يعد وعداً وهو كاذب فيه؟.

إنه لا يفعل ذلك إلا إذا خالف خلقه، فما دام متحلياً بخلق الصدق فلا بد أن يكون صادق العهد صادق الوعد، والوفاء بالعهد والصدق في الوعد من وجوه البر العظيمة التي توصل إلى أعمال البر ثم إلى رضوان الله والجنة.

وحين يعلن المسلم الصادق شهادة الإسلام، فإنه يعبر عن دخوله بإرادته في جماعة المسلمين، ويعلن عن قبوله ورضاه بأحكام الإسلام، وهذا الإعلان

بمثابة عهد مع الله ومع المسلمين بأن يلتزم في حياته معنى شهادة التوحيد، فلا يجعل مع الله شريكاً في ربوبيته، ولا في ألوهيته، وبأن يلتزم في حياته معنى الشهادة برسالة محمد ﷺ، فلا يرفض شيئاً مما جاء به من أمور الدين، وهذا الإعلان هو أيضاً بمثابة وعد بالتزام الأحكام الإسلامية في حياته العملية.

فمن أعلن إسلامه، فقد أعطى عهداً بأن يلتزم مفاهيم الإسلام في حياته الفكرية الاعتقادية، وأعطى وعداً بأن يلتزم تعاليم الإسلام في حياته العملية، فإذا كان خلق الصدق خلقاً أصيلاً في نفسه، لم يطاوعه خلقه أن يكون واقع حاله على خلاف إعلانه، وبذلك يهديه خلق الصدق إلى مختلف وجوه البر، والبر يأخذ بيد صاحبه إلى رضوان الله وجنته.

وبهذا يتضح لنا أيضاً التسلسل المنطقي في قول الرسول ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة».

ودل هذا الحديث أيضاً على أن خلق الصدق في حياة الإنسان قابل للاكتساب، وقابل للتنمية والترسيخ، عن طريق التدريب العملي المقترن بالارادة الجازمة، فمن مظاهر الإرادة الجازمة تحري الصدق في الأقوال كلها، وفي مختلف وسائل التعبير العملية. والذي يتحرى الصدق لا يسمح لنفسه بأن يلقي كلاماً جزافاً دون تروٍّ ولا بصيرة، ولا يسمح لنفسه بأن يتبع ما ليس له به علم، فيحكم بالظنون التي ليس لها ما يدعمها ويؤيدها من الأدلة الكافية للاثبات أو للنفي، ولا يسمح لنفسه بأن يرائي أو ينافق في أعماله لأنه يحرص على الصدق ويتحرى بإرادته الجازمة الصدق في أقواله وأعماله، وعندئذ يكون صِدِّيقاً، وهذا ما بينه الرسول ﷺ بقوله في الحديث: «وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً» وجاء في رواية أخرى: «ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً».

ودل هذا الحديث على أن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفجور يهدي إلى النار.

والفجور في اللغة هو في أصله الميل والانحراف عن الحق، وفيه معنى

الإقبال الشديد بتدفق إلى ارتكاب القبائح والمعاصي والآثام. فالفاجر هو المائل المنحرف عن طريق الهداية، المنبعث بتدفق وقح ذميم إلى ارتكاب القبائح والمعاصي والآثام، ومن أجل ذلك يطلق الفجور على هذا الانبعاث المتدفق الوقح.

إذن فالبر والفجور ضدان متقابلان، أما البر فهو لفظ جامع يراد به مختلف وجوه الخير وأنواع الطاعات الزائدة على فعل الواجبات وترك المحرمات، وأما الفجور فهو لفظ جامع أيضاً، يراد به الانبعاث في مختلف أعمال الشر وأنواع المعاصي والآثام، والتدفق إلى ارتكاب ما لا يحل للإنسان ارتكابه من عمل.

ونتساءل: كيف يهدي الكذب إلى الفجور؟ وبالتأمل والتحليل نلاحظ ما يلي:

من كان الكذب خلقاً أصيلاً فيه هان عليه أن ينكر الحق ويدعي خلافه، فإذا عرف أن أركان الإيمان حق بعد أن أقيمت له الأدلة البينة، لم يجد حرجاً في نفسه أن ينكرها، ويدعي خلافها كذباً وبهتاناً، استجابة لأهواء نفسه، وتلبية لشهواته. ولم يجد حرجاً في نفسه أيضاً أن يعلن أن معتقداته الباطلة التي يظهر له بطلانها هي معتقدات صحيحة مطابقة للحقيقة والواقع، وهو يعلم أنه يكذب على الحقيقة والواقع، ويحاول أن يقنع الآخرين بأكاذيبه التي يفتريها على الحقيقة والواقع، كل هذا يفعله استجابة لأهواء نفسه، وتلبية لشهواتها.

ومعلوم أن الكفر بأركان الإيمان من أفجر الفجور، وقد ساعد عليه وهدى إليه خلق الكذب، ولو أنه كان صادقاً ــ أي: كان خلق الصدق أصيلاً في نفسه ــ لم يطاوعه خلقه على جحود الحق الذي ظهر له، لكنه كان كذاباً فوجد في نفسه مفراً من وجه الحق بافتراء الكذب.

والمنافق يستطيع أن يتظاهر بالإسلام زوراً وكذباً، ليحميه النفاق من نقمة المسلمين في الدنيا، أو ليظفر بمطامع مادية يشارك فيها المسلمين الصادقين، وقد ساعده على ذلك خلق الكذب، إذ جعله يركب في سلوكه أفجر الفجور،

وهو النفاق، ولما كان النفاق أفجر الفجور كان المنافق في الدرك الأسفل من النار.

وللمنافق علامات ـ أساس معظمها الكذب ـ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا أؤتمن خان.

ولو كان الصدق خلقاً أصيلاً في نفسه لما طاوعه على ركوب هذه الموبقات المهلكات من قبائح السلوك.

ودل هذا الحديث أيضاً على أن خلق الكذب في حياة الإنسان قابل للاكتساب، وقابل للتنمية والترسيخ، عن طريق التدريب العملي المقترن بالإرادة الجازمة، فقد جاء فيه: «وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» وتحري ممارسة الكذب ظاهرة من ظواهر الإرادة الجازمة.

وبتكرار ممارسة الكذب تكتسب العادة، ثم تتحول العادة إلى خلق راسخ، وعندئذ يكتب عند الله كذاباً، ومن غدا كذاباً هانت لديه معظم أعمال الفجور، فدفع به الكذب إلى النار.

٢ ـ وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

وروى الإمام مالك في الموطأ، عن صفوان بن سليم، أنه قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم» فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم»، فقيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا».

فدلت الآية على حصر افتراء الكذب بالذين لا يؤمنون، أما الكذبات العارضات في حياة الإنسان، التي لا تكون افتراء مدبراً مقصوداً، والتي لا تكون عن خلق أصيل ثابت، فربما تقع من المؤمن.

وكذلك دل الحديث على أن المؤمن لا يكون كذاباً، أي: لا يصل إلى

مستوى في تحري الكذب يدمغ فيه بأنه كذاب، خلقه الكذب، أما الكذبات العارضات فليس في الحديث ما يدل على أنها لا تكون من المؤمن، وذلك لأن «كذاب» صيغة مبالغة تدل على تمكن خلق الكذب في نفسه.

فافتراء الكذب وافتعاله عن إصرار وتعمد إنما يفعله الكذابون الذين لا يؤمنون.

٣ ــ وروى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان، عن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ قال: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا عاهدتم، وأدوا إذا أؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم».

فجعل الرسول ﷺ في هذا الحديث الصدق أحد عناصر ست من تحلى بها دخل الجنة، وفي هذا ترغيب عظيم بالتحلي بخلق الصدق.

٤ ــ وروى الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من نتن ما جاء به».

وقد دل هذا الحديث على أن رذيلة الكذب لها رائحة منتنة يشمها الملك المرافق للإنسان، وهذا من خبايا الكون وأسراره، فالأعمال لها روائح، ولها وزن، ولها صور، ولها صفات كثيرة يدركها من لديه أجهزة إدراكها، وما أوتينا من العلم ومن وسائله إلا قليلاً.

٥ ــ وقد يكون الكذب خيانة كبيرة، وذلك حينما تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق، وأنت به كاذب.

روى أبو داود عن سفيان بن أسد الحضرمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت به كاذب».

وقد جعله الرسول ﷺ من قبيل الخيانة، لأن سامعه استأمنه على فكره ومواطن المعرفة عنده، ليجعل فيها الصدق لا ليجعل فيها الكذب، فاستغل

هو هذا الاستسلام والاستئمان، فأخبره بالأكاذيب زاعماً له أنها صدق، فكان عمله هذا خيانة كبيرة.

٦ ـ ومن الكذب أن يحدث الإنسان بكل ما يسمع من أحاديث وأخبار دون تحرير لها ولا تنقيح، لأنه بتهاونه وإهماله وعدم تحريه الصادق من الأخبار يساهم في نشر الأكاذيب وإشاعتها؛ روى الإمام مسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع».

(و) الكذب على الله والرسول:

ومن أشنع صور الكذب الكذب على الله، أو الكذب على الرسول، لأنه افتراء في الدين، وتلاعب بشرائع الله لعباده، وتجرُّؤ عظيم على النار.

ولذلك كان من صفات النبي الأساسية صفة الصدق في تبليغ ما أمره الله بتبليغه، ولما طالب الكافرون رسول الله بتغيير بعض ما أنزل عليه إلى ما يوافق أهواءهم، أنزل الله عليه قوله في سورة (الحاقة ٦٩):

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: لأهلكناه إهلاكاً سريعاً لو أنه كذب علينا ولو في بعض الأقاويل، وذلك لخطورة أمر الكذب على الله من رسول مؤيد من عند الله بالمعجزات.

ومنطق التأييد بالمعجزة يقضي بعصمة الرسول عن الكذب فيما يبلّغ عن ربه.

وافتراء الكذب على الله ولو من آحاد الناس هو من أظلم الظلم، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وفي معرض إنكار تحريم ما لم يحرّمه الله قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

إلى غير ذلك من نصوص قرآنية.

ونظير الكذب على الله الكذب على الرسول، لأن أقوال الرسول حجّة في الدين، ومصدر من مصادر التشريع فيه، فالكذب عليه تلاعب في الدين وافتراء على الله، ولذلك جاء في الحديث المتواتر أنّ الرسول ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار».

ومن يروي الأحاديث الموضوعة، وهو يعلم أنها موضوعة، ثم لا يبيّن وضعها، ولا يذكر أنها مكذوبة على رسول الله ﷺ هو أحد الكاذبين، روى الإمام مسلم عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

وقد تفضل الله على هذه الأمة فقيض لها علماء مخلصين قاموا بأعمال علمية مضنية، حرّروا فيها ما نسب إلى رسول الله ﷺ من أحاديث، وميّزوا ما هو صحيح النسبة إلى رسول الله، وما هو ضعيف النسبة، وما هو موضوع مكذوب عليه.

(ز) الكذب لإضحاك الناس:

روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود والدارمي، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له».

والحكمة من هذا المنع أنه يجرّ إلى وضع أكاذيب ملفقة على أشخاصٍ معينين، يؤذيهم الحديث عنهم، كما أنه يعطي ملكة التدرب على اصطناع الكذب وإشاعته، فيختلط في المجتمع الحقّ بالباطل والباطل بالحق.

وحين تدعو الحاجة إلى وضع أمثلة متخيلة غير واقعة، للعظة أو للترويح عن النفس، أو وضع طرائف ونوادر فيها تسلية أو موعظة، فالذي يظهر لي أنّ الشرط في جوازها أن لا تتناول أشخاصاً معينين، وأن يذكر واضعها ما يشعر بأنها موضوعة مصنوعة، أو يكون مضمونها واضح الوضع والصناعة، كالقصص التي يضعها واضعوها على ألسنة الحيوانات، نظير ما صنع صاحب كتاب «كليلة ودمنة».

فهذا ونحوه لا أرى مانعاً منه ما دام الغرض منه غرضاً مباحاً، مأذوناً به في حكم الشريعة الإسلامية، وهو مما لم يقابل بالإنكار من قبل جمهور علماء المسلمين، إذ هو يُحكى على سبيل الافتراض المتخيل، لا على سبيل أنه أمر واقع فعلاً.

ونستطيع أن نقيس عليه التمثيليات، والقصص المصنوعة، المبين فيها أنها قصص متخيّلة غير واقعة.

(ح) الحالات التي يجوز فيها الكذب:

الأصل في الكذب عدم الجواز، للأسباب التي تمّ بيانها فيما سبق، ولكن توجد حالات يجوز فيها الكذب، تحقيقاً لمصلحة هي أعظم ممّا في الكذب من مضرة، أو دفعاً لضرر هو أشد مما في الكذب من ضرر.

١ ــ فمن الحالات التي يجوز فيها الكذب، الكذب على العدو في حالة حربه للمسلمين، لتضليله، ولإيقاعه في فخّ من فخاخ الخداع الحربي. ولكن

لا يدخل في هذا جواز الكذب عليه بتأمينه أومعاهدته ثم الغدر به، فهذا غير جائز قطعاً، لأن التأمين أو المعاهدة كل منهما يُنهي حالة الحرب القائمة، فيلقي كلٌ من الفريقين حذره الحربي، ويستسلم كلٌ منهما إلى صدق الكلمة، وعندئذٍ يرجع الكذب إلى أصل حكمه، ويكون استخدامه في الكلام محرماً، ولو كان مع العدو.

فمن أمثلة الكذب الجائز على العدو، ما لو وقع مسلم في أسْره، فسأله عن مواقع المسلمين الحربية، أو عن عدد المسلمين، أو عن أسلحتهم وأعتدتهم، فمن واجب المسلم والحالة هذه أن لا يعطي العدو فرصة معرفة ما يمكّنه من النكاية بالمسلمين وكيدهم، بل يكتم عنه الحقيقة، ويعطيه أكاذيب تضلّله وتمكن المسلمين منه، والحرج من الكذب في مثل هذه المواقف سذاجة وغفلة وعدم فهم في الدين.

ولكن إن استطاع أن يتخلص من الموقف المحرج عن طريق التورية، والمواربة في القول، دون اللجوء إلى الكذب الصريح كان خيراً له، إلا أن تكون المصلحة الحربية للمسلمين لا تتحقق إلا بالكذب الصريح فهو الذي ينبغي اللجوء إليه، نظراً إلى المصلحة التي تترتب عليه، وعدم وجود وسيلة أخرى تقوم مقامه من الوسائل التي هي في الأصل مباحة.

ومعلوم أن الحرب خدعة، وكما جاز القتال في الحرب ـ وهو في الأصل محرّم ـ لأن الضرورة دعت إليه، جاز الكذب على العدو في حالة الحرب، وهو في أكثر أحواله أخفّ من القتال. ويؤكد هذه الحقيقة أن كلًّا من الفريقين المتحاربين يضع في حسابه عدم الثقة بأقوال خصمه، ويضع في حسابه أن عدوه لا يترك سبيلاً لمخادعته إلا سلكها، وسلاح الخداع بالأقوال أو بالأفعال أحد أسلحة الحرب الفتّاكة، يعلمها الخبراء بفنون الحرب، ومن أقوال الرسول التي شاعت ضمن الأمثال السائرة قوله: «الحرب خدعة».

٢ ـ ومن الحالات التي يجوز فيها الكذب، أن يتوسط إنسان للإصلاح بين فريقين متخاصمين، ثمّ لا يجد وسيلة للإصلاح بينهما أنجع من أن يركب

مركب الكذب على مقدار الضرورة، أما إذا تسنّى له أن يوري بأقواله دون أن يكذب فهو خير له، وهو الأمر الذي يحبّه الله ورسوله.

روى البخاري ومسلم عن أم كلثوم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً» أي: يذيع أقوالاً للإصلاح بين الناس، ولإزالة ما بينهم من عداوات، وربما كانت هذه الأقوال غير صحيحة.

فهذه الحالة من الحالات التي رخص الإسلام فيها بالكذب على مقدار الضرورة، ومهما أمكن الإصلاح بوسيلة غير وسيلة الكذب من الوسائل المباحة في الأصل فهي الوسيلة التي ينبغي اتخاذها.

٣ ـ ومن الحالات التي يجوز الكذب فيها حديث الرجل لامرأته، وحديث المرأة لزوجها، في الأمور التي تشد أواصر الوفاق، والمودة بينهما، فهذه حالة يتسامح فيها بشيء من الكذب لتوثيق روابط الأسرة، ولإضفاء الأجواء الشاعرية على مجالس الأنس والسمر والغزل بين الزوجين، ففي مثل هذه المجالس تحلو المبالغات وإن كانت كاذبة، وتزداد معطيات المتعة والأنس والصفاء، وهذا ما يعمل الإسلام على تغذيته بين الزوجين.

روى مسلم وأحمد وأبو داود عن أم كلثوم بنت عقبة قالت: «لم أسمع النبي ﷺ يرخّص في شيء من الكذب مما تقول الناس، إلا في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها».

وروى الترمذي عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، ما يحملكم أن تتابعوا على الكذب كتتابع الفراش في النار، الكذب كله على ابن آدم حرام، إلا في ثلاث خصال: رجل كذب على امرأته ليرضيها، ورجل كذب في الحرب فإن الحرب خدعة، ورجل كذب بين مسلِمَين ليصلح بينهما».

والكذبات الثلاث التي كذبها إبراهيم عليه السلام هي من الكذب المباح اثنتان منها في ذات الله، والثالثة فيها تورية للنجاة من جبّارٍ ظالم غاشم، أما الأولى فقوله: «إني سقيم» وأما الثانية فقوله عن تكسير الأصنام: «بل فعله

كبيرهم هذا» وأما الثالثة فقوله للجبّار عن زوجته سارة: «هي أختي» وهو يعني أخته في الإسلام، وليس في شيء من هذه الكذبات ما هو محرم.

ولا يدخل في الكذب المباح ما تكذب به المرأة على ضرتها، إذ تخبرها بأن زوجها اصطفاها بكذا، وأكرمها بكذا، وهو لم يفعل، بل هو كذب محرّم، روى البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها، أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرّة، فهل علي جُناح إنْ تشبّعت من زوجي غير الذي يعطيني[1]؟ فقال النبي ﷺ: «المتشبّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَيْ زور»!! أي: كلابس ثوبي كذب، يكذب بهما على الناس، أحدهما فوق الآخر.

(ط) شهادة الزور:

وفي حياة الناس نوع خطير من الكذب، شديد القبح، سيء الأثر، ألا وهو شهادة الزور.

إن الأصل في الشهادة أن تكون سنداً لجانب الحق، ومعينة للقضاء على إقامة العدل، والحكم على الجناة الذين تنحرف بهم أهواؤهم وشهواتهم، فيظلمون أو يبغون، أو يأكلون أموال الناس بالباطل، فإذا تحولت الشهادة عن وظيفتها، فكانت سنداً للباطل، ومضلّلة للقضاء، حتى يحكم بغير الحق، استناداً إلى ما تضمنته من إثبات، فإنها تحمل حينئذٍ إثم جريمتين كبريين في آن واحد.

الجريمة الأولى: عدم تأديتها وظيفتها الطبيعية الأولى.

الجريمة الثانية: قيامها بجريمة إيجابية، تهضم فيها الحقوق، ويظلم فيها البرآء، ويستعان بها على الإثم والبغي والعدوان.

فهي في هذا كالقاضي الذي بيده سلطة القضاء ليحكم بالعدل، فيحكم بالجور والظلم والعدوان، اتباعاً للهوى، أو طمعاً بعرض من أعراض الحياة الدنيا.

(١) أي: إن تظاهرت بأنه يعطيني أشياء وهو في واقع حاله لم يعطني إيّاها.

وهي أيضاً كالمستأمن الذي يخون من استأمنه.

فالجريمة في كل ذلك بجريمتين، والظلم بظلمين، ولكلٍّ من أصحاب هذه الجرائم كِفْلان من العقاب.

ولذلك قرن الله تبارك وتعالى التحذير من قول الزور بالتحذير من الشرك بالله، فقال تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾.

الزور في اللغة: الكذب والباطل، وأصل مادة الكلمة يدل على معنى الميل، والكذب والباطل ميل عن الحق والصدق.

وقد وصف الله عبادالرحمن بأنهم لا يشهدون الزور، فقال تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢﴾.

وروى البخاري ومسلم عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!!.

وروى أبو داود وابن ماجه، عن خُريم بن فاتك، قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فلما انصرف ــ أي من صلاته ــ قام قائماً فقال: «عدلت شهادةُ الزور بالإشراك بالله» ثلاث مرات، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾[1].

(ي) القذف بالباطل:

ومن أقبح الكذب اتهام البرآء بالفاحشة، وبما لم يرتكبوه من آثام، ففيه ظلم للناس، وعدوان على أعراضهم، وإشاعة للفاحشة والإثم، وتهوين

---

(١) من الآيتين ٣٠ ــ ٣١ من سورة (الحج ٢٢).

لأمرهما، وتشجيع عليهما، وذلك لأن من في نفسه الرغبة بارتكاب الفاحشة والوقوع في الآثام، ولكن يحجبه ويكفّه خوف الفضيحة بين الناس، إذا سمع أقوال الناس بعضهم ببعض، واتهام بعضهم لبعض بمثل ذلك، هان عليه الأمر، وتجرأ على الإثم، ورأى أنه هو والآخرون ممّن يحسّن الناس الظن بهم سواء.

ولذلك وضع الإسلام عقوبة القذف ثمانين جلدة لمن رمى المحصنات ثم لم يثبت أقواله بأربعة شهداء، قال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

واشتد القرآن عليهم باللعن وتقرير العذاب العظيم، فقال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وألمح القرآن إلى أن من أغراض اتهام الناس بالفاحشة الرغبة بأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فقال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وأشد قبحاً من ذلك من يرمي غيره بما فعل هو من إثم وخطيئة، فهو ذو جريمة مزدوجة، إنه مرتكب الإثم ويريد أن يبرىء نفسه بإلقاء التهمة على غيره، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

البهتان: اتهام الرجل بما لم يفعل ومواجهته بذلك بطريقة يبهت فيها، محتاراً كيف يدفع الكذب الصُراح عن نفسه، إذ يأتيه الاتهام الزور بغتة، فيفاجأ به وهو منه بريء، فيبهت.

(ك) الصدق في العهد وفي الوعد والكذب فيهما:

ويكون الصدق والكذب في الوعد والعهد، فمن الناس من يعدون وهم يريدون أن يوفوا بما يعدون به فهم صادقون في وعدهم، ومنهم من يعدون وهم لا يريدون أن يُوفوا بما يعدون به فهم كاذبون في وعدهم. ومن الناس من يعاهدون وهم يريدون أن يوفوا بما يعاهدون عليه، فهم صادقون في عهودهم، ومنهم من يعاهدون وهم لا يريدون أن يوفوا بما يعاهدون عليه فهم في عهودهم كاذبون.

والصدق في الوعد وفي العهد من الفضائل الخلقية التي يتحلى بها المؤمنون، والكذب في الوعد وفي العهد من الرذائل الخلقية التي يجتنبها المؤمنون الصادقون الذين يعملون الصالحات.

ويشترك الوعد والعهد بأن كلاً منهما إخبار بأمرٍ جَزَم المخبر بأن يفعله، ويفترقان بأن العهد يزيد على الوعد بالتوثيق الذي يقدمه صاحب العهد، من أيْمانٍ مؤكّدة.

والمواعدة مشاركة في الوعد بين فريقين، والمعاهدة مشاركة في العهد بين فريقين، فيعد كلٌّ من الفريقين المتواعدين صاحبه بما سيفعل، ويعاهد كلٌّ من الفريقين المتعاهدين صاحبه بما سيفعل.

قال أهل اللغة: والوعد غالباً يكون في الخير، فإذا كان الإخبار في الشر فهو (الإيعاد) وفعله (أوعد).

فمن وعد أو عاهد وكان ناوياً الوفاء بما وعد به أو عاهد عليه ثم لما جاء وقت الوفاء غير رأيه فلم يفِ، فإنه يسمى ناقضاً ناكثاً لوعده أو عهده مخلفاً به، فإذا جاء وقت الوفاء فعجز عنه لسبب من الأسباب فهو معذور بإخلافه.

فليس كل مخلفٍ كاذباً، وإنما المخلف الكاذب من كان عند وعده أو عهده غير عازمٍ على الوفاء، ونقض العهد ونقض الوعد رذيلة خلقية أساسها عدم تأدية الحق الذي يجب بالالتزام، ما لم يكن عدم الوفاء خيراً منه، ففعل ما هو خير هو الأفضل في الإسلام، وذلك لأن الإسلام يحث دائماً على فعل ما هو خير؛ وقد جاء في الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير».

وبمثل ذلك أمر الرسول ﷺ المسلمين أن يفعلوا، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل». أي: وليفعل ما هو خير.

وبمثل ذلك أيضاً أمر الرسول ﷺ عبدالرحمن بن سمرة فيما رواه البخاري ومسلم.

فالإخلاف بالوعد أو بالعهد له أربع أحوال:

الحالة الأولى: التعبير العملي عند حلول أجل الوعد أو العهد عن الكذب في القول منذ إعطاء الوعد أو العهد، وهو في هذا يحمل رذيلة الإخلاف المستند إلى رذيلة الكذب.

الحالة الثانية: النكث والنقض لما أبرمه والتزم به من وعد أو عهد، وهذا يعبر عن ضعف الإرادة وعدم الثبات، وعدم احترام شرف الكلمة وثقة الآخرين بها، وهذا الخلق يفضي بصاحبه إلى النبذ من ملاك جماعة الفضلاء الذين يوثق بهم وبأقوالهم.

الحالة الثالثة: التحول إلى ما هو أفضل وخير عند الله، والانتقال إلى

ما هو أكثر طاعة لله، إلا أن هذه الحالة لا تكون في العهود العامة، التي تدخل فيها حقوق دولية، ولا في العهود التي ترتبط بها حقوق مادية للآخرين من الناس.

أمّا العهد مع الله في التزام أمرٍ من الأمور، فقد تجري المفاضلة بينه وبين غيره، لاختيار ما هو أقرب إلى طاعة الله وتحقيق مرضاته.

الحالة الرابعة: العجز عن الوفاء لسبب من الأسباب، ومن عجز عن الوفاء مع صدق رغبته به وحرصه عليه فهو معذور، لعدم استطاعته.

وأما حالة النسيان فهي من الأمور العامة التي تشمل كل واجب أو مستحب، وتنطبق عليها أحكام النسيان العامة.

وصادق الوعد والعهد هو الذي يكون عازماً على الوفاء منذ إعطائه الوعد أو العهد، ويظل حريصاً على ذلك ما لم يمنعه مانع من التنفيذ يعذر به، أو كان ترك الوفاء استجابة لرغبة من كان الوعد أو العهد من أجله وابتغاء مرضاته أو مسرته.

وعد الله وعهده:

وأمّا وعد الله وعهده فليس لكلٍّ منهما إلاّ حالة واحدة هي الصدق، والوفاء عند حلول الأجل.

أمّا الصدق فلأنه سبحانه يستحيل عليه الكذب، في أية حال من الأحوال، وأما الوفاء فهو أمر تستدعيه حتماً صفات الله المثلى. فهو سبحانه وتعالى حينما يعطي الوعد أو العهد، فإنه يختار بحكمته العظيمة وعلمه المحيط بكل شيء أفضل الأمور التي تستدعيها الحكمة، وعلم الله لا يتخلّف وحكمته لا تنقض ولا تتبدل، ولا يكون في مرادات الله إلاّ الثبات، وسيظل الأفضل هو الأفضل، وسيظل المراد الموعود به هو المراد الأفضل عند حلول أجل التنفيذ. ثم إنّ الله تبارك وتعالى قادر دائماً على تنفيذ ما يريد، وهو على كل شيء قدير، ثم إنه تبارك وتعالى لا يضلّ ولا ينسى، فلا يوجد ما يمنعه سبحانه من تنفيذ وعده أو عهده، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

ووعد الله الرسول وأصحابه في غزوة بدر أن يظفرهم بإحدى الطائفتين ـ العير أو النفير ـ فلم يخلف وعده سبحانه، بل أظفرهم بالنفير أقوى الطائفتين وأشدهما بأساً.

وكلما حقّق المؤمنون شروط وعد الله لهم بالنصر نصرهم الله، وهذه الظاهرة مطردة نشاهدها في كلّ المواقع التي كانت بين المؤمنين وأعدائهم، لكنّهم إذا أخلّوا بشروط النصر فلا وعد لهم عند الله بأن ينصرهم.

أمّا مواعدة الله موسى ثلاثين ليلة ثم زيادتها إلى أربعين، فهي زيادة فضلٍ، تشبه ما لو وعدت إنساناً أن تستضيفه ثلاثين يوماً، ثم زدت ضيافتك له عشرة أخرى، فليس في الوعد السابق نقض ولا تغيير، ولذلك جاء التعبير عن هذه الزيادة المضافة بالإتمام، فقال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

الأمر بالوفاء بالعهد والوعد:

إنّ صدق الوعد والعهد والوفاء بهما من فضائل الأخلاق، ومن روائع الظواهر الحضارية.

أما الكذب في الوعد والعهد وعدم الوفاء بهما فمن رذائل الأخلاق ومن مظاهر التخلف الحضاري، وهما من أخلاق الأمم التي لا تحترم نفسها، ولا تكترث بارتقاء سلّم المجد الإنساني، بل تهون عليها أنفسها هواناً يرضيها بمواقع المهانة والضعة والانحطاط.

ولما أخذ الإسلام بأيدي المسلمين إلى قمم الفضائل ومعارج الحضارة

المثلى، كان من الأخلاق التي حثّ على التحلي بها صدق الوعد والعهد والوفاء بهما، فقال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

وشبّه الله الذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم بالمرأة الحمقاء، التي تغزل غزلها ثم تعود عليه فتنقضه من بعد قوّة أنكاثاً، فقال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ... ﴿٩٢﴾﴾.

ووصف الله المؤمنين في سورة (المعارج ٧٠) ونظيره في سورة (المؤمنون ٢٣) بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وجعل الله الوفاء بالعهد من البر، وأبان أنّ من صفات البررة أنهم موفون بعهدهم إذا عاهدوا، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ... ﴿١٧٧﴾﴾.

ووصف الله أولي الألباب بأنّهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، فقال تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ولمّا كان الوفاء بالعهد من الأخلاق الإيمانية ذات الدرجات الرفيعة أثنى الله على المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وذلك في معرض ذكر أحداث غزوة الأحزاب، فقال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

أمّا المنافقون فقد نقضوا عهودهم في هذه الغزوة، فقال الله تعالى في شأنهم في سورة (الأحزاب ٣٣) أيضاً:

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

والوفاء بالوعد والعهد والصدق فيهما من أخلاق الأنبياء والمرسلين، ومن الأخلاق التي دعت إليها الأديان الربانية كلها، وعنها ورثت الأمم ما تطبقه من فضيلتيهما، وقد أثنى الله على إسماعيل عليه السلام بأنه كان صادق الوعد، فقال تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾.

وكأن الله قد خصص هذا الخلق من أخلاق إسماعيل بالذكر، ليشير إلى أنّ ما عرف عن العرب قبل الإسلام من محافظتهم العامة على خلق صدق الوعد والعهد والوفاء بهما، قد كان ممّا ورثوه عن إسماعيل عليه السلام من الملة الحنيفية.

ومن أمثلة التربية النبوية على فضيلة صدق الوعد، ما رواه أبو داود والبيهقي في شعب الإيمان، عن عبدالله بن عامر فقال: دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: ها، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما أردت أن تعطيه؟» قالت: أردت أن أعطيه تمراً، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنّك لو لم تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة».

فحين نعد أطفالنا بأن نعطيهم أشياء ثم لا نفي لهم بما نعدهم به فإننا نعلمهم على الكذب من جهة، ونعلّمهم على عدم الوفاء بالوعد من جهة أخرى، ونغرس فيهم أيضاً عدم الثقة بنا وبأقوالنا.

ومن روائع قصص صدق الوعد، ما رواه أبو داود عن عبدالله بن أبي الحسماء، قال: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث[1] وبقيت له بقيّة، فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت، فذكرت بعد ثلاث[2] فإذا هو في مكانه، فقال: «لقد شققت علي، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك».

فهذا هو خلق الرسول ﷺ قبل أن يوحى إليه، إنه الإنسان الكامل، ولذلك اصطفاه الله وجعله مبلّغ خاتمة رسالاته للناس، وقد تخرّج في مدرسته أفذاذ في كلّ خلق كريم.

وعرف الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ما كان يخلف أحداً فيما يعده به، فلمّا تولّى الخلافة بعد وفاة الرسول أعلن على المسلمين قوله: من كان له على النبي ﷺ دين أو كانت له قِبَله عدةٌ فليأتنا، فجاءه من كان قد وعده الرسول بعطاء فوفّى عن رسول الله ﷺ وعوده.

روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله قال: لمّا مات رسول الله ﷺ وجاء أبا بكر مالٌ من قبل العلاء بن الحضرمي، فقال أبو بكر: من كان له على النبي ﷺ دين أو كانت له قِبَله عِدَةٌ فليأتنا، قال جابر: فقلت: وعدني

---

(١) أي: جرت بينه وبين النبي مبايعة تجارية قبل النبوة.

(٢) أي: بعد ثلاث ليال على ما يظهر.

رسول الله ﷺ أن يعطيني هكذا، وهكذا، وهكذا، فبسط يديه ثلاث مرّات، قال جابر: فحثا لي أبو بكر حثية فعددتها فإذا هي خمسمائة، وقال: خذ مثليها!!.

وعن أبي جُحيفة قال: «رأيت رسول الله ﷺ أبيض قد شاب، وكان الحسن بن علي يُشبَّه به، وأمر لنا بثلاثة عشر قلوصاً[1] فذهبنا نقبضها، فأتانا موته، فلم يعطونا شيئاً، فلمّا قام أبو بكر قال: من كانت له عند رسول الله ﷺ عِدةٌ فليجىء، فقمت إليه فأخبرته، فأمر لنا بها» رواه الترمذي.

الإخلاف والغدر من صفات المنافقين:

والكذوب في مواعيده أو عهوده، والمخلف لها دون مبرّر شرعي، يلطّخ إنسانيته بعلامة من علامات النفاق، وذلك لأن من صفات المنافق أنه إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر؛ والسبب في ذلك أنه منذ إعطائه عهده أو وعده لا يعزم في نفسه أنه سيفي، بل يريد التخلص من الموقف الذي هو فيه بأكذوبة.

ومن أهل النفاق في عهد الرسول ﷺ من عاهد الله أن يتصدّق ويكون من الصالحين، إذا أغناه الله وآتاه من فضله، فلمّا آتاه الله من فضله بخل وتولّى معرضاً، وتكشفت لدى الامتحان حقيقة نفسه، فأنزل الله قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

لقد كذبوا في عهدهم وأخلفوا الله ما وعدوه، والله يعلم سرّهم

(١) القلوص: الناقة الفتية.

ونجواهم، وهو علّام الغيوب، فكان هذا منهم نفاقاً، وأعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم القيامة.

وذكر كثير من المفسِّرين أنّ هذه الآيات نزلت في «ثعلبة بن حاطب». وقد ورد في قصة ثعلبة حديث رواه ابن جرير عن أبـي أمامة الباهلي، والله أعلم.

البدء بنقض العهد غدر:

والإسلام يعتبر البدء بنقض العهد غدراً، سواء أكان عهداً مع المسلمين أو مع غيرهم.

والغادر يرفع له يوم القيامة لواء فضيحة بقدر غُدرته، يقال: هذه غُدْرَة فلان.

روى البخاري ومسلم عن أنس عن النبـي ﷺ قال: «لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة يعرف به».

وروى مسلم والإمام أحمد عن أبـي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غُدْرَته ألا ولا غادر أعظم غُدرةً من أمير عامّة» وفي رواية عند مسلم زيادة: «يقال: هذه غُدرة فلان».

إنّ أكثر الذنوب يسترها الله يوم القيامة على عباده، حتى لا يفضحهم بها، لكنّ ذنب الغدر عظيم جدّاً، وآثاره خطيرة جداً، لذلك يفضح الله به فاعله يوم القيامة.

ولذلك لم يأذن رسول الله ﷺ لحذيفة بن اليمان وأبيه بأن يخرجوا مع المسلمين لمصادرة قافلة قريش، وهي الغزوة التي انتهت بموقعة بدر الكبرى، لأنّ حذيفة وأباه حينما خرجا مهاجرين إلى المدينة لم يتمكنا من الهجرة حتى أعطيا المشركين عهداً بأن لا يقاتلا مع الرسول وأصحابه.

روى مسلم والإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان قال: «ما منعني أن أشهد بدراً إلاّ أنني خرجت أنا وأبـي، قال: فأخذنا كفّار قريش فقالوا: إنّكم تريدون

محمداً؟ فقلنا: ما نريده، وما نريد إلّا المدينة، قال: فأخذوا منّا عهد الله وميثاقه لننطلق إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا، نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم»!!.

فإذا نقض غير المسلمين عهدهم مع المسلمين جاز للمسلمين حينئذٍ أن ينقضوا عهدهم معهم، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

أي: يحبّ الموفين بعهدهم إذ الوفاء بالعهد من التقوى، وقال الله تعالى فيها أيضاً:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾.

(ل) اليمين الغموس:

ومن أقبح صور الكذب، الكذب الذي يؤكد باليمين، وهو الحلف بالله لتوثيق الكلام الكاذب، وهذه اليمين الكاذبة الفاجرة هي اليمين الغموس، وقد سمّيت بهذا الاسم لأنّها تغمس صاحبها في الإثم الكبير، ثمّ تغمسه في النار. واليمين الغموس من أعظم الكبائر، وإنّما كانت كذلك لأنّ فيها استغلال ثقة المخاطب بأيمان الحالف بالله، وأنه لا يتجرأ على أن يحلف بالله كاذباً، فيصدّقه ويستسلم له، ويعتبر يمينه بقوة البيّنة.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن اليمين الغموس فأجاب بأنها هي اليمين الكاذبة التي يقتطع بها حالفها مال امرىء مسلم بغير حقّ؛ روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنّ النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس» وفي رواية أخرى له أنّ أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله»

قال: ثمّ ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرىءٍ مسلم».

يعني: يقتطع مال امرىء مسلم بيمين هو فيها كاذب.

وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود أنّ النبـي ﷺ قال: «من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال ابن مسعود: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عزّوجلّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧ ﴾(1).

فالذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً هم الذين يبذلون عهد الله وأيمانهم بالله وهم كاذبون، مقابل تحصيلهم شيئاً من متاع الحياة الدنيا، وما أقلّ هذا الثمن الذي يأخذونه ويبذلون في مقابله سعادتهم في الآخرة، بسبب عهودهم وأيمانهم التي يكذبون فيها، وبئست هذه الصفقة الخاسرة يدفعون فيها شيئاً عظيماً ويشترون به ثمناً قليلاً!! إنهم لا خلاق لهم في الآخرة، أي: ليس لهم حظّ ولا نصيب من الخير ولا من السعادة، ولا يكلّمهم الله إعراضاً عنهم، لأنهم اتخذوا أيمانهم بالله وسيلة لمعصية الله، ولا ينظر إليهم نظر رحمة يوم القيامة. ولا يزكيهم، أي: ولا يطهرهم من ذنوبهم وآثامهم بالعفو والغفران، لأنهم لا يستحقون هذا التطهير، ولهم عذاب أليم.

إنّ مرتكب هذا الإثم العظيم يرتكبه ليستزيد من عرض الحياة الدنيا، ولكن لا يزيده الله إلاّ قلّة وفقراً، وهي معاقبة معجّلة من الله له بعكس ما يسعى إليه، فلا هو يصل إلى ما يريد من استكثار من عرض الحياة الدنيا، ولا هو يحافظ على سلامة دينه من كبائر الإثم، هذه هي سنّة الله في عباده.

---

(1) من سورة (آل عمران ٣).

روى البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحّاك، أن الرسول ﷺ قال: «ومن ادّعى دعوى كاذبة ليتكثّر بها لم يزده الله إلاّ قلّة».

لغو اليمين:

واليمين التي يؤاخذ عليها هي اليمين المعقودة في القلب، والمقصودة لتوثيق الكلام، أما ما ينطق به اللسان من أيمان بحكم جريان العادة فلا مؤاخذة عليه، وهو من لغو اليمين، إذ لا يقصد منها الحلف ولا تأكيد القول، وهي كقولهم في غضون الكلام: لا والله وبلى والله.

على أن التربية الإسلامية توجه المسلمين لأنْ ينزّهوا الله تبارك وتعالى عن أن يجعلوه عرضة لأيمانهم، ولو كانوا صادقين في أقوالهم وبارّين متقين؛ قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

اليمين على نية المستحلف:

فإذا ألزم إنسان بيمين لإثبات أمر أو نفيه، فحلفها الحالف دون أن ينويها في قلبه، أو نوى شيئاً آخر غير الذي استحلف عليه، فلا تعتبر من لغو اليمين، بل هي يمين مقصودة، ولكنّ الحالف تحايل في نيته، فهو يؤاخذ عليها، ويعتبر فيها قصد المستحلف لا نية الحالف، روى مسلم عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «يمينك على ما يصدّقك عليه صاحبك» وأنه قال أيضاً: «اليمين على نية المستحلف».

فالكذب في مثل هذه اليمين لا ينفع فيه التحايل في النية، لأنّ المحاسبة فيها تكون بحسب نية المستحلف.

لا كفارة لليمين الكاذبة الفاجرة الغموس:

وإنّ اليمين الكاذبة الفاجرة لا كفارة لها شرعاً، وليس لصاحبها من سبيل

إلا باب التوبة، روى الإمام أحمد عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس ليس لهنّ كفارة: الشرك بالله، وقتل النفس بغير حقّ، وبَهْتُ مؤمن[1]، والفرار يوم الزحف، ويمين صابرة يقتطع بها مالاً بغير حقّ».

اليمين الصابرة: هي اليمين الغموس.

أمّا الكفارة فيؤديها من حلف يميناً عقد قلبه عليها، على أن يفعل شيئاً أو يترك شيئاً، ثم لم يبرّ بيمينه، فهذا هو الذي تلزمه كفارة اليمين، ليتحلّل من التزامه تجاه ربّه، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

ـ ٤ ـ
النفاق

النفاق انحراف خلقي خطير في حياة الفرد، وفي حياة الأمم، وتبدو خطورته الكبيرة حينما نلاحظ أنه يدخل في الدين أعظم القيم في الحياة، وحينما نلاحظ أيضاً آثاره على الحركات الإصلاحيّة الخيّرة، إذ يقوم بعمليات الهدم الشنيع من الداخل، وصاحبه آمن مستأمن لا تراقبه الأعين، ولا تحسب حساباً لمكره ومكايده.

وأبرز ما في النفاق أنه مظهر من مظاهر خلق الكذب، على أننا لدى التحليل نلاحظ أنه سلوك مركب يرجع إلى عناصر خلقية متعدّدة، فإذا جمعنا الجبن، والطمع بالمنافع الدنيوية، وجحود الحق، وخلق الكذب، تولد عنها في

---

(١) أي: اتهامه بما لم يفعله.

سلوك الفرد ما نسميه بالنفاق، ثم يظهر نظير ذلك في سلوك الجماعة حينما تكون فيها هذه العناصر الخلقية المنحرفة عن السبيل الأقوم.

فلولا أن يكون المنافق جباناً، أو صاحب طمع شديد بالمنافع الدنيوية التي يترقبها إذا هو تظاهر بالإسلام، لما سلك مسلك النفاق، ولما كان له وجهان، وجه مع الكافرين، ووجه يخادع به المؤمنين، ولوَجَد الجرأة الكافية على أن يعلن جحوده للمؤمنين، ويقف صراحة في صف الكافرين، لكنّ جبنه الشديد يمنعه من ذلك، فهو يخشى أن يتظاهر بموقفه العدائي للمسلمين، كما أن طمعه الشديد بمشاركته المسلمين في الغنائم التي يظفرون بها من أعدائهم يجعله يتظاهر بأنه منهم. فالجبن والطمع مع خلق الكذب من العوامل الرئيسية التي يتولد عنها النفاق.

ولولا أن يكون المنافق جحوداً للحقّ كنوداً؛ لرَدعه إيمانه وحبه للحق عن سلوك مسلك النفاق في الدين. فالذي يحب الحق، ولا يحلو له الجحود، ولا يطيب له الكنود، لا ينافق وإن كان جباناً أو شديد الطمع، لأنه سيجد فيما يؤمن به من حق مخاوف تردعه عن الباطل، ومطامع تجعله يلتزم سبيل الحق والخير، ويمتص سبيل الحق والخير الديني جبنه وطمعه، فلا يبقى لديه منهما ما ينزع به إلى النفاق.

ولولا أن يكون المنافق كذّاباً ــ أي: لولا أن يكون خلق الكذب أصيلاً في نفسه ــ لما طاوعته نفسه أن يلتزم سبيل النفاق، لأن النفاق عملية كذب دائم في القول والعمل، وهذا لا يستطيعه ولا يحسنه إلا كذاب أشر، ممتهن للكذب جريء عليه وقحٌ في التزامه، قادر على أن يبهت الناس في وجوههم، وذلك بأن يفتري عليهم الأقاويل، ويواجههم بها، ويحلف على ذلك الأيمان المغلظة دون أن يتلجلج أو يتلعثم أو يتلكأ، وعلى مقدار مهارة المنافق في الكذب يكون تعمقه في درك النفاق.

فالنفاق خلق مركب، وليس خلقاً بسيطاً، إنَّه طبخة شيطانية معقدة.

وأخف دركات النفاق أن يتخذ المنافق وجهين، يستعلن بأحدهما، فيرضي

بظاهره جماعة المسلمين، كاتماً عنهم الوجه الآخر، ويستخفي بالآخر ويتآمر به مع الكافرين الصرحاء، مخبراً لهم في السر أنه معهم، وأنه يريد أن يتظاهر بالانضمام إلى المسلمين ليخدم بذلك مصالح أعدائهم، دون أن يحذر المسلمون مكايده التي يدبرها ضدهم وهو ضمن صفوفهم. وهذا الوجه الذي يظهر به لإخوانه الكافرين الشياطين وجهٌ يسرّهم، لأنهم يعتبرونه جاسوساً لهم في صفوف المسلمين، وما يظهر به من الإسلام إنما هو مخادعة للمسلمين، بغية خدمة مصالح أعدائهم.

وأشد من ذلك المنافق الذي يخادع المؤمنين ويخادع أعداءهم معاً، وهو لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، وهذا مزدوج النفاق، ويمكن أن نمثل له بيهودي تظاهر بالإسلام ليخادع المسلمين، ثم يخلو بالمشركين فيسر لهم بأنه سيخدم مصالحهم داخل صفوف المسلمين، مقابل منافع يرجوها من المشركين، ثم إذا خلا بإخوانه الشياطين من اليهود كشف لهم وجهه الحقيقي وقال لهم: إني منكم، وإني أخادع من أجلكم المسلمين والمشركين الوثنيين بوجهين مختلفين.

وقد يوجد منافق مثلث النفاق أو مربعه أو أكثر من ذلك.

ومن الجواسيس الدوليين من يفعلون أكثر من ذلك، وإن خطر هؤلاء المنافقين الماكرين أشد من خطر جيوش كبيرة محاربة، لأنها تحارب من مواقع الحذر، أما المنافقون فيحاربون من مواقع الأمن، وهي المواقع التي لا رقابة فيها وليس فيها تحصينات تدفع مكايد العدو المخالط المداخل.

إنه كاللص المجهول المساكن في الدار الذي تصعب مراقبته، ولذلك كانت عقوبته أشد من عقوبة الكافر المستعلن بعداوته، ولذلك كانت منزلته في الدرك الأسفل من النار.

النفاق في الدين أصليٌّ وطارىء:

تدفع المصلحة الدنيوية بعض الناس إلى أن يتظاهر بالانتساب إلى الإسلام وهو غير مؤمن به من قلبه، فيكون منافقاً منذ الفترة الأولى لإعلانه الإسلام، ثم يستمر على نفاقه، فهذا هو النفاق الأصلي الذي لم يُسبق بإسلام صحيح.

وقد يعلن بعض الناس إسلامهم وهم صادقون غير كاذبين، ثم يطرأ الشكّ على قلوبهم، بعد تعرّضهم لامتحانات مختلفة يمتحن الله بها صدق إيمانهم، فيرتدون عن الإسلام ارتداداً داخلياً، ويخشون إعلان ردتهم ويستمرون على التظاهر بالإسلام، مخافة إجراء أحكام الردّة عليهم، أو مخافة فوات منافع أو مصالح تأتيهم بوصفهم مسلمين، ومن ذلك خسارتهم مكانتهم في مجتمعهم، وتعرضهم للذمّ والنقد والتلويم، إلى غير ذلك من صور الضغط الاجتماعي، فهذا هو النفاق الطارىء الذي طرأ بعد إسلام صحيح.

وقد تتكرر العملية عند بعض الناس بسبب عوارض الشكّ التي تأتي من جراء امتحانات مختلفة، فيرجعون إلى صدق الإسلام، ثم يعودون إلى الكفر في قلوبهم، ويظل ظاهرهم في مختلف الأحوال مستمراً على الإعلان الأول الذي أعلنوا فيه إسلامهم، وهؤلاء يقال فيهم: إنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثمّ ازدادوا كفراً.

وقد دلّ على النفاق الطارىء بعد إسلام صحيح ما وصف الله به طائفة منهم، وذلك في قوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾ يشعر بأنّ النفاق لم يكن من قبل الامتحان بالغنى، وأنه لما حصل الامتحان ونكثوا عهودهم مع الله ولّد ذلك نفاقاً في قلوبهم، أي: ولد كفراً في قلوبهم وردّة داخلية، مع استبقاءٍ في الظاهر للإسلام الذي كانوا قد التزموا به، وإنما استبقوا ظاهر إسلامهم لأنهم خافوا من إدانتهم بالردّة ومن إجراء أحكامها عليهم.

فالردّة عن الإسلام كما تكون ردّة علنية يعلن فيها المرتد كفره الصريح، تكون ردّة مكتومة، وذلك بالكفر القلبـي، مع استمرار التظاهر بالإسلام.

وقد يدل عليه أيضاً قول الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ﴾.

إذ أثبت لهم الإيمان أولاً، وعطف عليه إثبات كفرهم بحرف العطف الدالّ على التراخي، فدلّ على أن كفرهم القلبـي كفرٌ عارض وليس أصلياً، مع أن الحديث عن المنافقين.

ووصف الله طائفة من المنافقين بالتردّد بين الإيمان والكفر أكثر من مرة، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ۝١٣٧ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ﴾.

صفات المنافقين والظواهر السلوكية لخلق النفاق:

لكلّ خلق أو مجموعة أخلاق ظواهر في السلوك تدلّ عليه، مهما حاول صاحب الخلق إخفاء أمره، ومن أسرّ سريرة ألبسه الله منها رداء يكشف عنها ويدلّ عليها. وتكون الظواهر السلوكية مناسبة لقوة دوافع الخلق أو مجموعة الأخلاق.

وكما أنّ المعادن والعناصر والمركبات المادية والثمرات لها ظواهر تكشف عن حقيقتها ـ وهذه الظواهر لا تتخلف، وتكون بمقدار نسبة العناصر أو المعادن أو الموادّ الجوهرية الداخلة فيها ـ فكذلك الأخلاق النفسية، والدوافع الداخلية لا بدّ أن يكون في الظواهر السلوكية ما يدل عليها، باعتبار أن الإنسان في داخله وفي خارجه وحدة متشابكة، يؤثر بعضها ببعض ويتأثّر بعضها ببعض.

وتكاد تكون سنن الأشياء وطبائعها وسُنَن الأحياء وطبائعها متشابهة في قوانينها الكلية.

ولذلك شبه القرآن بعض أنواع من السلوك البشري ببعض أنواع من سلوك الأشياء في الطبيعة.

وقد أفاض القرآن الكريم في بيان صفات المنافقين والظواهر السلوكية

لخلق النفاق في مواطن شتى، حتى عرّى المنافقين من كلّ أغشية الخداع التي يحاولون بها ستر أكاذيبهم وإخفاء نفاقهم.

ففي أوائل سورة (البقرة ٢) جاء الكلام عن صفات المنافقين في ثلاث عشرة آية، بينما جاء الكلام عن صفات المؤمنين في ثلاث آيات، وعن الكافرين الصرحاء في آيتين، وهذا يدل على خطر النفاق والمنافقين البالغ على الدعوة الربانية، وعلى جماعة المسلمين، ولدى التأمل النظري والتجربة الواقعيّة يتبينّ أن المنافقين أشد خطراً ونكاية من الكافرين الصرحاء، لأنهم يكيدون ويمكرون وهم مخالطون مداخلون مأمون جانبهم.

وفي هذا النص المشار إليه من سورة (البقرة) جاء تعريفهم وبيان طائفة من صفاتهم وظواهرهم السلوكية:

١ ـ إنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فيقولون آمنا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين، إذ قلوبهم منكرة جاحدة، فهم يكذبون عن تعمد وإصرار، وليس كذبهم هذا في أمور صغيرة أو عادية، ولكنه كذب في الدين، كذب في العقيدة وفي إعلان منهج الحياة. وفي بيان هذه الظاهرة من ظواهرهم السلوكية، التي هي بمثابة التعريف المميز لهم، يقول الله تعالى في النص:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

٢ ـ إنهم فيما يتظاهرون به من قول أو عمل يقصدون مخادعة الذين آمنوا، ليأمنوا جانبهم، وليأمنوا جانب أعدائهم، ويظفروا بالمغانم والمنافع من كلا الفريقين بحسب تصورهم. وفي بيان هذه الظاهرة من ظواهرهم السلوكية يقول الله تعالى في النص:

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

وقد نتساءل: كيف يتصورون أنهم يخادعون الله مع أن الله مطلع على ما يسرون وما يعلنون؟.

ونجيب بأنهم حينما يخادعون الرسول والمؤمنين بحسب تصورهم فإنما يحاولون في واقع الأمر مخادعة الله، لأن الله مع رسوله والمؤمنين مؤيداً وناصراً،

وكاشفاً لأوليائه خطط أعدائه، فهم في مخادعتهم يكبو بهم ذكاؤهم في حفرةٍ سحيقةٍ من حفر الحماقة والغباء.

وفعل (يخادعون) يدل على أنهم يبالغون جداً في استخدام الخداع ويمعنون فيه، حتى كأن معركة المخادعة التي يشترك فيها الخصمان قائمة بينهم وبين المؤمنين.

هذا ما يقصدونه، ولكنهم في الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، وذلك لأن ما يخدعون به مكشوف كلُّه لله، والله يدبر لهم ما يفسد خداعهم ويعيد شرَّهم عليهم، وينصر رسوله والمؤمنين، فيكون حالهم بذلك كحال من يخدع نفسه، لأن خداعهم يعود عليهم.

إن الذي يخدع من لا يُخدع ويعرض نفسه لعقوبته وانتقامه إنما يخدع نفسه.

٣ ـ في قلوبهم مرض خلقي هو السبب في سلوكهم مسالك النفاق، وهذا المرض عرض طارىء وليس من أصل التكوين الفطري، ولذلك سمّاه الله مرضاً، وكذلك سائر الأمراض. ولدى البحث عن هذا المرض يتبين لنا ما سبق ذكره من الجبن، والطمع الشديد بالمنافع والمغانم الدنيوية، وخلق الجحود والكنود، وخلق الكذب. وفي بيان هذا الوصف من أوصافهم، يقول الله تعالى في النص:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فزادهم الله مرضاً﴾: بيان للعقوبة المعجلة التي يعانون من آلامها عن طريق مرض قلوبهم نفسه، الذي جعلهم يسلكون مسالك النفاق، فعذاب النفس من خلق الخوف الذي يتولد عن الجبن، ويزيده الخوف من انكشاف أمرهم وهتك سترهم، وعذاب النفس الذي يولده الطمع وخوف الحرمان، وعذاب الضمير الذي قد يحدث نتيجة جحود الحق والاستمرار على تلفيق الأكاذيب ومخالفة طبيعة الفطرة، كل ذلك من العقوبات المعجلة التي يعانون من آلامها المتفجرة من داخل أنفسهم، وعن طريق المرض نفسه الذي جعلهم ينافقون.

أما العقوبة المؤجلة فجاء بيانها في قوله تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾.

٤ ــ ومن ظواهرهم السلوكية أنهم يفسدون في الأرض بأقوالهم وأعمالهم، فإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض، بهتوا الحقيقة بكل وقاحة، وجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، دونما حياء ولا تلجلج، وقالوا: إنما نحن مصلحون، وأخذوا يبررون سلوكهم المنافق المفسد بأنه من الأعمال الإصلاحية، وربما كانت غلبة أهوائهم عليهم تجعلهم يتصوَّرون أن ما يفعلونه إنما هو من قبيل الإصلاح ولا إفساد فيه. وفي بيان هذا من أوصافهم يقول الله تعالى في النص:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾.

أي: لا يشعرون أنهم هم المفسدون، بل يتصورون أن خطتهم خطة إصلاح، وقد يشعرون بأن خطة المسلمين خطة إفساد.

٥ ــ ومن ظواهرهم السلوكية أنهم يزعمون لأنفسهم الذكاء ورجاحة العقل، وحسن التصرف في الأمور، للتخلص من المآزق الحرجة التي يواجهونها، ويرون أن المؤمنين الصادقين في إيمانهم أناس سفهاء، ناقصو العقل قليلو التفكير. وفي بيان هذا من أوصافهم يقول الله تعالى في النص:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾.

فلو كشفوا عن حقيقة الأمر لعلموا أنهم هم السفهاء ناقصو العقل قليلو التفكير، لأنهم بما يسلكون يدفعون بأنفسهم إلى مواقع الآلام المعجلة والشقاء الأبدي، ومن أكثر سفاهة ممن يفعل بنفسه مثل ذلك؟

وهذه الظاهرة ملاحظة في كل الذين لا يكترثون بالدين، ولا يقيمون له في نفوسهم وزناً، إنهم يتصورون أن المتدينين ضعفاء العقول ناقصو التفكير،

تؤثر عليهم الأوهام وتستولي عليهم الخرافات، لكن أكثر الناس ذكاءً ورجاحة عقل هم مؤمنون متدينون، يعرفون كيف يبنون في حاضرهم مستقبلهم السعيد، وكيف يحمون أنفسهم من المخاطر المرتقبة. والأنبياء من أذكى الناس وأرجحهم عقولاً، ولئن كان يوجد في المتدينين من هم أقل ذكاء من بعض الذين لا يقيمون وزناً للدين، فإن فطرتهم السليمة أعطتهم شعوراً فطرياً بالحقيقة، فرؤيتهم لها أو إحساسهم بها أصح من رؤية أنصاف الأذكياء الذين رفضوا دين الله لعباده.

ولدى التمحيص نلاحظ أن الذين لا يؤمنون يظل الشك والتخوف يملأ قلوبهم قلقاً واضطراباً، فهم السفهاء ناقصو العقل، وإن كانوا في أعمال الخبث والمكر والكيد أذكياء، فذكاء المجرم لا قيمة له في ميزان العقل الصحيح، ومن أجل ذلك وصفهم الله بأنهم هم السفهاء لا المؤمنون، وأعاد عليهم الوصف الذي وصفوا به المؤمنين.

ولا تخفى نزعة العجب والكبر والاستعلاء والغرور بالنفس، واستنكار دعوتهم إلى الإيمان الصادق، في مقالتهم: «أنؤمن كما آمن السفهاء؟!».

نعم لا يعلمون هذه الحقيقة فيهم، وهم يزعمون أنهم أذكياء جداً، وهذا الزعم يملؤهم غروراً بأنفسهم، والغرور بالنفس يغشي على صاحبه فيخفي عنه وجه الحقيقة.

٦ ـ ومن ظواهرهم السلوكية أن لهم أكثر من وجه، فلهم وجه يستعلنون به إذا لقوا الذين آمنوا، ولهم وجه آخر يتوارون به ولا يظهرونه إلا إلى شياطينهم، أي: إلى إخوانهم الكافرين أمثالهم، أو إلى الموسوسين لهم بأن يسلكوا مسلك النفاق من شياطين الإنس، كاليهود، ويبررون لإخوانهم هذا التلون بأنهم يستهزئون بالمؤمنين، أي: يستغفلونهم، ويخدعونهم، ويغررون بهم، ويترصدون غراتهم، للإيقاع بهم، أو التخلي عنهم في أوقات الشدائد.
وفي بيان هذا من أوصافهم يقول الله تعالى في النص:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وطريقة المنافقين في الاستهزاء طريقة منافقة مستخفية غير مستعلنة، وليست مثل طريقة استهزاء الكافرين الصرحاء، فللكافرين الصرحاء طريقة أخرى في الاستهزاء، هي طريقة الذي يواجه خصمه بهزئه.

وقد يدرك المؤمنون أن المنافقين يستهزئون بهم، وذلك من خلال تصرفاتهم وفلتات ألسنتهم. ومعلوم أن المنافق إذا كان في مجلس من يخدعهم بنفاقه، ورأى أو سمع ما لا يعجبه؛ انفعلت نفسه تجاهه بحركة خفية من حركات الهزء والسخرية، ثم يسارع إلى كتمها وإخفائها لئلا تدل على حقيقته. ومهما يكن من أمر فإن الله مطلع عليهم، وهو ينتصر لأوليائه، فيستهزىء من أعدائه، فيملي لهم، ويمدهم في طغيانهم يعمهون، أي: يترددون متحيرين لا يدرون على أي منهج يسيرون، هذا معنى يعمهون، والعمه أيضاً يكون في الفكر والبصيرة كالعمى في البصر.

ثم جاء في النص الحكم عليهم وتقويم سلوكهم في الحياة، وبيان موقعهم في الظلمات، وكشف واقع الخسران العظيم الذي دفعوا أنفسهم إليه.

٧ ــ ومن ظواهرهم السلوكية أنهم يتخذون أيمانهم الكاذبة جُنةً يقون بها أنفسهم، ويسترون بها أعمالهم المخالفة لما أعلنوه من الإسلام، ويسترون بها جرائمهم وما يخفون من عداء وكراهية.

وفي بيان هذا من أوصافهم يقول الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢ ﴾.

إنهم يعلمون من أنفسهم الكذب، فيتصورون أنَّ الناس لا يُصدِّقونهم، فيسارعون إلى الأيمان الكاذبة الفاجرة، ليقوا بها أنفسهم، ويُغَشُّوا بها على أعين المؤمنين، حتى لا يروا فيهم واقع حالهم الكاذب.

هذه الأيمان الكاذبة يحلفونها ليصدقهم المؤمنون بأنهم منهم، ويحلفونها أيضاً كلما فعلوا أمراً من شأنه أن يكشف نفاقهم.

أما أيمانهم التي يحلفونها ليثبتوا بها أنهم صادقون في إسلامهم غير كاذبين، فقد أوضحها الله تعالى بقوله في سورة (التوبة ٩):

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

إنهم يحلفون، لأنهم يفرقون، أي: يخافون خوفاً شديداً من انكشاف نفاقهم، فلو يجدون ملجأً يلجأون إليه، أومغارات يأوون إليها، أومدخّلاً يتوارون فيه، لولّوا إليه وهم يجمحون، أي: يسرعون في جموح كجموح الخيل، وفي هذا تصوير لحالة فَرَقهم الشديد، وخوفهم من أن تلاحقهم نقمة المسلمين.

ومن أمثلة هذه الظاهرة السلوكية للمنافقين ما يلي:

أولاً: اجتمع نفر من المنافقين، فتكلموا في حق رسول الله ﷺ بما لا ينبغي، مما يؤذيه صلوات الله عليه، فقال بعضهم: لا تفعلوا هذا فإنّا نخاف أن يبلغ ما نقول محمداً فيعْرف أمرنا وينتقم منا، فقال أحدهم وهو (الجُلاس بن سويد): نقول ما شئنا، ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف له على ذلك، فيصدقنا، إنما محمد أذن (أي: هو يبني أحكامه على مقدار ما يسمع من أقوال الناس، فما يبلغه عنّا ننكره ونحلف له الأيمان على ذلك، فيصدقنا ولا يكتشف كذبنا) فأنزل الله في شأنهم قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

ثانياً: كان نفر من المنافقين يوالون اليهود وينقلون إليهم أسرار المؤمنين،

فاجتمعوا ذات مرّة فجعلوا يشتمون الرسول ﷺ فعلم الرسول بهم عن طريق الوحي، وكان في حجرة من حجراته، فقال لجلسائه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبّار، وينظر بعين شيطان، فدخل المنافق (عبدالله بن نبتل) وكان أزرق، وكان من النفر الذين شتموا الرسول ﷺ فقال له الرسول: عَلامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله أنه لم يفعل شيئاً من ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: فعلتَ، فانطلق المنافق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبّوه ولا شتموه، فأنزل الله تعالى قوله في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

ثالثاً: لما دعا الرسول صلوات الله عليه المسلمين للخروج إلى قتال الروم على مشارف الشام، في الغزوة المسمّاة بغزوة تبوك، أخذ المنافقون يتهربون من الخروج إلى هذه الغزوة، فبعضهم جاء إلى رسول الله ﷺ يلفّق له الأعذار ويحلف له، وبعضهم نشط في تثبيط الناس عن الخروج مع الرسول، وكثير منهم توارى عن الأنظار، وتخلّف فلم يشهد الغزوة، ولم يستجب لأمر الرسول، ولكنّه قرّر في نفسه أن يلفّق الأعذار للرسول عند عودته، ويحلف الأيمان المغلظة على ذلك كذباً وفجوراً، وبعضهم خرج مع الرسول وشهد الغزوة كارهاً، يبتغي من خروجه الإفساد والشر بالمسلمين، ودسّ الدسائس وإلقاء الفتن، وتثبيط من يستمع إليه من المسلمين، وإلقاء الريب في قلوبهم، وتوجيه الانتقادات الهمسيّة الخفية لتصرفات الرسول صلوات الله عليه.

٨ ـ ومن صفات المنافقين أن النفاق فيهم قد يتحول من ممارسة غير صادرة عن خلق أصيل في النفس، إلى خُلق يتولد عنه انطماس البصيرة، والطبع على القلوب، حتى لا تجد المعارف الحقيقية والمذكرات بالله واليوم الآخر منافذ تنفذ منها إلى مواطن إدراكها، فهم لا يفقهون ما يسمعونه من دعوة إلى

الحق والخير والهدى، وفي بيان هذا من صفاتهم قال الله تعـالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ﴾.

إنهم لما سلكوا مسلك النفاق، وجعلوه خطّةً دائمة لهم، فتذبذبوا بين ظاهر الإيمان وباطن الكفر، وأتقنوا صناعة التلوّن بعدّة ألوان، واتخاذ عدّة وجوه، ومهروا في ستر أنفسهم بالمظاهر الكاذبة من أقوال وأعمال، أكسبهم ذلك جرأةً على الجريمة، وجرأة على تغطية الجريمة بحلف الأيمان الكاذبة الفاجرة، حتى يظنّهم من يشاهدونهم لأول مرّة أنهم صادقون، لأنهم في أقوالهم الكاذبة وأيمانهم الفاجرة لا يتلجلجون، فالكذب صار خلقاً لهم، وبمثابة الأخلاق الفطرية، فتسبب لهم كل ذلك بإغلاق منافذ قلوبهم المدركة، وبإقفالها، ثم الطبع عليها بالخاتم، إشعـاراً بعدم الإذن بجـواز فتحها، فـانطمست بصـائرهم، فهم لا يفقهون الأمور، ولا يتدبّرونها، ولا يتبصّرون بالنتائج ولا بالعواقب الوخيمة للأعمال الفاسدة المفسدة، لذلك فهم ينطلقون في جرائم نفاقهم بجرأة ووقاحة كأنهم هُداة مصلحون غير مفسدين.

٩ ـــ ومن صفات المنافقين أن ظواهرهم قد تُعجب الناظرين، وأن أقوالهم ترضي السامعين، وفي بيان هذا من صفاتهم قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ . . . ۝٤ ﴾.

فهم يتصنعون الظواهر التي تخدع الأنظار، حتى تظن فيهم خيـراً، ويعتنون بتحسين أجسامهم وتزيين أعمالهم مما يكسبهم وجاهة ومكانـة بين الناس، فلا تدل أجسامهم ولا مظاهرهم على أنهم منافقون أخباث.

وإن يقولوا تسمع لقولهم، لأن لديهم القدرة على تنميق أقوالهم وتزيينها،

فهم إذا تحدثوا استمالوا سامعيهم وأثَّروا فيهم، وقد كان زعيم منافقي المدينة عبدالله بن أبـي بن سلول رجلاً جسيماً فصيحاً.

١٠ ــ ومن صفات المنافقين أنهم إذا حضروا مجالس العلم والموعظة والتذكير بالله حضروا بأجسامهم فقط، وعقولهم وقلوبهم في أودية أهوائهم وشهواتهم وأغراض دنياهم، فكأنهم في هذه المجالس الإسلامية الربانية خُشُبٌ مسنّدة. وفي بيان هذا من صفاتهم قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ... ﴿٤﴾ ﴾.

فكانوا إذا حضروا مجالس الرسول العامة حضروا بأجسامهم فقط، لكنهم بأفكارهم وقلوبهم غائبون، لا يفقهون مما يقول الرسول شيئاً، فحضورهم في هذه المجالس كحضور أعمدة من الخشب مسنّدة على الجدُر حتى لا تسقط، فهي لا تفقه ولا تعي شيئاً مما يجري حولها، ولذلك كانوا يقولون إذا خرجوا من مجلس الرسول: «ماذا قال آنفاً؟» قال الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

١١ ــ ومن صفات المنافقين أنهم في حالة مستمرة من الذعر والقلق والخوف من انكشاف خياناتهم، وفي حالة تخوّف دائم من أن ينكشف كفرهم فيصدُر النداء لقتالهم والنكاية بهم، لذلك فهم يحسبُون كل صيحةٍ مسلّطةً عليهم. وفي بيان هذا من صفاتهم قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

ففي قول الله: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ تعبير بارع ورائع عن حالة

الذعر والقلق التي تلازم قلوبهم، إنهم يتحيّرون ويتردّدون ويضطربون وهم يسيرون في طريق الخيانة والمخادعة، والخائن المخادع من شأنه أن يستولي عليه الذعر والقلق، فهو على طول طريق الخيانة خائف جبان رعديد حذِرٌ من كل شيء، إنه يخشى ظلّه إذا اتبعه، ويخشى الطائر إذ نفر منه، وربما علق ثوبه بعود شجرة فظنّ أن الطلب قد أدركه، ويحسبُ كل صيحة يسمعها أنها تنادي بالقبض عليه، لمحاسبته ومعاقبته على خيانته التي يسير في طريقها ظالماً آثماً.

ولا بدّ أن تكون عداوة هؤلاء الخائنين الخائفين أشدّ من عداوة الكافرين المجاهرين بكفرهم وبعداوتهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿هم العدوّ فاحذرهم﴾ أي: هم البالغون بعداوتهم الدرجة القصوى، وهم الذين تجب المبالغة في الحذر منهم؛ بترقّب كل حركة من حركاتهم، ومراقبة كل تصرف من تصرفاتهم، قاتلهم الله وأخزاهم وأفشل خططهم.

أنّى يؤفكون؟! أي: كيف يصرفون عن طريق الحق، طريق الهداية والرشاد، فيسلكون سبل الكفر والضلال، سبُل النفاق والخيانة والمخادعة؟!.

١٢ ـ ومن صفاتهم أنهم لا بدّ أن تصدر عنهم تصرفات قولية أو عملية تدل على نفاقهم، وأنهم في قلوبهم منكرون كافرون، وفيما يلي عرض لطائفة من مواقفهم:

(أ) ففي غزوة أُحد انخذلوا عن الرسول ﷺ ولم يستكملوا مسيرتهم، فدل ذلك على نفاقهم، وكان من عادة زعيمهم عبدالله بن أبـي بن سلول قبل هذه الغزوة إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبدالله بن أبـي فقال: أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس!!.

فلما كان منه ما كان من خذل فعْليّ للرسول في أُحد، وجاء يوم الجمعة، قام عبدالله بن أبـي يفعل مثلما كان يفعل، فأسكته المسلمون وأخذوا بثيابه من نواحيه، وقالوا له: اجلس أي عدوّ الله، لست لذلك بأهل، فخرج مقهوراً ذليلاً يتخطى رقاب الناس، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد، فقال له:

ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي، فأنزل الله قوله في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾.

إنه إذا غفر لهم فقد قرّر بغفرانه أنهم من أهل الهداية، لكنهم في واقع أمرهم من أهل الضلالة والفسق، والله لا يهدي القوم الفاسقين، فلا يحكم لهم بالهداية وهم في قلوبهم وإراداتهم الجازمة كافرون فاسقون، ولا يقضي لهم في حكمه العادل بأنهم مهديُّون، فلا يجعلهم في زمرة الذين اهتدوا.

(ب) وفي غزوة بني المصطلق جرى شجار بين أجير لعمر بن الخطاب، وهو من بني غفار، وبين سنان بن وبَر الجهني، وهو حليف الخزرج، فاستغل عبدالله بن أبي بن سلول هذا الشجار وهو خزرجي، وكان عنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم وهو غلامٌ حدث السنّ، فقال ابن أبيّ: أَوَ قد فعلوها؟ قد نافرونا[1] وكاثرونا في بلادنا والله ما أعدنا وجلابيب[2] قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم، فأنزل الله قوله في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى

(١) نافرونا: فاخرونا وغالبونا في نفرهم.

(٢) جلابيب قريش: لقب أطلقه المشركون على المهاجرين من مكة إلى المدينة، كأنهم شبهوهم بذوات الجلابيب.

ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

وهذه هي خطة المنافقين في كل زمانٍ ومكانٍ، يعمدون إلى محاربة المسلمين الصادقين في أرزاقهم، ليتفرقوا عن زعمائهم المخلصين في الدعوة إلى الله.

وعلم الرسول بما قال زعيم المنافقين ابن أبي، إذ أخبره زيد بن أرقم بما سمع منه، وكان عند الرسول ﷺ عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، مُرْ به عَبَّاد بن بِشْر فليقتله، فأجابه رسول الله ﷺ بقوله: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لا ولكن أذّن بالرحيل» وكان ذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتحل فيها، فارتحل الناس. ولما ركب الرسول مرتحلاً لقيه أسيد بن حُضير، فحيّاه بتحيّة النبوة وسلّم عليه، ثم قال: يا نبي الله والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم»؟! قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبدالله بن أبـي»؛ قال أسيد بن حُضير: وماذا قال؟ فقال الرسول ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ» قال أسيد: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز. وعلم ابن أبـيّ أن الرسول بلغه ما قال بين جماعته، فجاء إلى الرسول فحلف له بالله أنه ما قال الكلام الذي بلغه عنه، وهي عادة المنافقين في ستر جرائمهم بحلف الأيمان الكاذبة الفاجرة، ليتقوا بها عقوبة ما يرتكبون.

ثمّ جاء إلى رسول الله ﷺ ولد عبدالله بن أبـي، وكان هذا الولد مؤمناً صادقاً، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل أبـي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمرني به، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبـيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال له رسول الله ﷺ: «بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

(ج) وفي غزوة بدر الكبرى توقع المنافقون أن تحل بالمؤمنين الذين خرجوا مع الرسول هزيمة منكرة، لقلة عددهم وعدّتهم، فجعلوا يقولون: غرّ هؤلاء دينهم، ولكن الله أيدّ المؤمنين بنصره المبين، فأثبت للمنافقين أن المؤمنين الصادقين لم يغُرَّهم دينهم، بل نصح لهم، وأخذ بأيديهم إلى صراط الهداية والسعادة والمجد العظيم، وأثبت لهم أن أهل النفاق هم الذين غرتهم أهواؤهم وشهواتهم ومصالحهم الدنيوية العاجلة، وغرتهم وساوس شياطينهم.

وفي بيان هذه المقالة التي أطلقها المنافقون قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

(د) هذا الموقف المتواري من مواقف النفاق يدل على أنّ طبيعة النفاق من شأنها أن تدفع المنافقين إلى اتخاذ موقف من مواقف الكفر، مهما حاولوا كتم ما في نفوسهم وإخفاءه بما يتظاهرون به من إسلام، لا سيما حينما يمتحن إسلامهم في ميدان الجهاد بالنفس أو بالمال في سبيل الله.

وقد كشف الله هذه الصفة من صفات المنافقين، وأوضح أنّ لهم علامات تميزهم، في تصرفاتهم، وفي ملامح وجوههم عند سماع شيء يكرهونه من أمور الدين، وفي لحن أقوالهم التي تنفلت من ألسنتهم دون أن يستطيعوا ضبطها وحجزها، وذلك لشدّة ضغط ما ينفعل في قلوبهم ونفوسهم، مما يحاولون إخفاءه خشية انكشاف أمرهم. إنه لما نزلت آيات محكمات دُعي فيها المسلمون إلى القتال في سبيل الله، تألم منها المنافقون، وكرهوها، وصعب عليهم أن يجاهروا برفضها، لأن ذلك يكشف نفاقهم، فانفعلت نفوسهم انفعالات كراهية ظهرت في وجوههم وفي نظراتهم، وهذا ما أوضحه الله بقوله في سورة (محمد ٤٧):

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا

ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت السورة﴾ أي: لولا أنزلت سورة نؤمر فيها بالقتال. ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: المنافقين. ﴿فأولى لهم﴾ أي: فويل لهم، وهلاك لهم.

إن هذا اللون من الاختبار يصلح لأن يكون من روائع الاختبارات النفسية، الكاشفة لما تنطوي عليه القلوب والنفوس، فهو يعتمد على إلقاء المثير القوي، وملاحظة أثر ذلك في تعبيرات الوجه وتلوناته، وفي نظرات الأعين. فهؤلاء المنافقون حين أُمروا بالقتال أمراً ربانيّاً في آيات محكمات ولم يستطيعوا مناقشة هذا الأمر، لأنه منزل من عند الله، بدا أثر كراهيتهم ذلك على وجوههم، فجعلوا ينظرون إلى الرسول ﷺ نظر المغشي عليه من الموت، وفي هذا تصوير بديع لحالة زوغان البصر وكلاحة الوجه وصفرته، التي تنتابهم حين امتحانهم بأوامر القتال الجازمة.

وكثيراً ما لا يقتصر الأمر على حدود انفعالات تظهر أماراتها على الوجوه وفي نظرات الأعين، بل تتعدى ذلك إلى أقوال تحمل أمارات أقوى، وتصرفات عملية تحمل دلالات أبين وأوضح، وقد أوضح الله ذلك بقوله في سورة (محمد ٤٧):

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾.

فبعد أن عرضت سورة محمد ــ المسماة أيضاً بسورة القتال ــ ما لدى المنافقين من مفارقات بين الأقوال والأعمال، وبعد أن ذكرت طائفة من شؤونهم ووعظتهم وقرّعتهم وهدّدتهم، أنذرتهم بأن يفضح الله نفاقهم، فيخرج أضغان

قلوبهم، ويدلّ عليهم بعلاماتهم؛ فقال الله تعالى لرسوله: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنّهم في لحن القول﴾.

أمّا معرفتهم في لحن القول فهي المعرفة التي تُتصيّد ممّا يظهر من فلتات أقوالهم، ومن بعض الكلام الذي ينطلق من ألسنتهم دون إرادة واعية منهم، وإنما ينطلق بسبب الضغط النفسي الذي يعانونه، من مخالفة ظواهرهم لبواطنهم.

وهكذا كلّ ذي شخصية مزدوجة يحاول أن يتصنّع لإحداهما بظواهر الأعمال، ويحاول أن يرضي الأخرى بخفايا الأعمال، لا بدّ أن تضغط عليه شخصيته الحقيقية، فتبرز في أعماله الظاهرة ما يدلّ عليها، ممّا يرضيها، مهما حاول ضبط نفسه، وكتمان مشاعره.

فما في داخل الشعور لا بد أن يظهر له أثر على ظاهر الشعور ولا بد أن يظهر له أثر في واقع السلوك، وهذه الظواهر تدلّ عليه، وإن كانت على سبيل الفلتات، التي تنزلق في غفلات القوى الواعية الضابطة، المتصنعة بالظواهر، وفق الدواعي، التي ألزمت صاحبها أن يسلك مسلك النفاق.

(هـ) وفي غزوة الأحزاب (الخندق) كان للمنافقين مواقف تدلّ على نفاقهم، منها ما يلي:

لّما اشتد الأمر على المسلمين وطال حصار الأحزاب لهم، قال المنافق معتب بن قشير بين إخوانه: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ما هذا إلا وعد غرور، وفيه وفي أمثاله أنزل الله تعالى قوله في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

وهكذا لا يدع المنافقون فرصة يدسون فيها أراجيفهم وأقوالهم المخذِّلة للمؤمنين إلاّ انتهزوها، لكن الله تبارك وتعالى ردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا

من المسلمين في هذه الغزوة نيلاً، رغم تحزّب أحزابهم، وكثرة جموعهم، وكفى الله المؤمنين القتال، وحقّق الله لرسوله ما وعده من تأييد ونصر، وأخزى الكافرين والمنافقين وأشياعهم.

وأيضاً أخذ بعض المنافقين يتململون من طول الحصار، والمسلمون معسكرون خارج المدينة، يفصل الخندق بينهم وبين الأحزاب، وأخذوا أيضاً يطلقون الأراجيف، وينادون بالرجوع إلى مساكنهم، والتخلي عن موقع المواجهة للعدو الغازي، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ . . . ﴿١٣﴾ ﴾.

ومما يثير الانتباه أنهم أطلقوا اسم يثرب، إيثاراً للاسم الجاهلي على الاسم الإسلامي وهو (المدينة) وهذا يدل على نفسيتهم المرتبطة بجاهليتهم وكفرهم.

أما مطلقو هذه المقالة من المنافقين فقيل: أوس بن قَيْظيّ وأتباعه، وقيل: عبدالله بن أبـي بن سلول وأشياعه.

ومن مواقفهم في هذه الغزوة أيضاً، أن فريقاً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فطلبوا منه أن يأذن لهم بالرجوع إلى مساكنهم داخل المدينة، زاعمين أن بيوتهم عورة، أي: مكشوفة للعدو غير محصنة، فهم يخشون على أهليهم من مداهمة العدو على حين غرة، والواقع أنها ليست كما زعموا، ولكنهم يريدون الفرار من المعركة، وخذل المسلمين، وتمكين عدوهم منهم، فتظاهروا بهذه التعلّة، وفي بيان هذا الموقف من مواقفهم قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾.

ونظراً إلى أنهم جبناء غير مؤمنين بقضية المسلمين أصلاً قال الله في شأنهم عقب الآية السابقة:

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾.

إنهم لا قضية لهم يدافعون عنها ويقاتلون من أجلها مع المسلمين إلاّ منافعهم الخاصة الدنيوية، كالمغانم التي يطمعون بها إذا تحقق النصر للمسلمين.

ومن مواقفهم في هذه الغزوة أيضاً: لما قرّر الرسول ﷺ حفر الخندق ودعا المسلمين جميعاً للاشتراك بهذا العمل الدفاعي الكبير، تداركاً للأمر قبل مداهمة العدو، جعل رجال من المنافقين يتباطأون عن القيام بما يجب عليهم من العمل، ويتظاهرون بالقيام ببعض الأعمال الخفيفة الضعيفة، ستراً لنفاقهم، وكلما سنحت لهم فرصة غفلت فيها عنهم الأعين تسللوا إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن منه. وقد يلوذ بعضهم ببعض إذ يستأذن فريق منهم الرسول ﷺ فيخرج مع هذا الفريق آخرون من غير إذن، متوارين بالذين استأذنوا وقد أشار القرآن إلى هذا الموقف من مواقفهم بقول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

فحذر الله سبحانه وتعالى من مخالفة أمر الرسول ﷺ وحذر من ترك الأمر الجامع للمسلمين إلا بإذن من القيادة الإسلامية، وذلك لأن مفارقة الأمر الجامع تخذيل وتوهين للقوى، إلا ما كان منه في حدود الإذن الذي تراقب فيه مصلحة المسلمين العامة.

ومن مواقفهم في هذه الغزوة أيضاً، أن فريقاً منهم تركوا مواقعهم مع المسلمين؛ وتسللوا إلى مساكنهم داخل المدينة، ثم لم يكتفوا بهذا العمل الخائن، بل جعلوا يرسلون إلى أخوانهم الذين بقوا مع المسلمين أن يتركوا مواقعهم ويأتوا إليهم، تخذيلاً للرسول، وجبناً عن مواجهة العدو، وظلوا على حالتهم تلك إلى

ما بعد انصراف الأحزاب عن حصار المدينة، إذ كانوا يحسبون الأحزاب لم يذهبوا بعد، فهم مختبئون في بيوتهم لفرط جبنهم وخورهم، ويريدون تخذيل إخوانهم أيضاً عن الرسول والمؤمنين، وإن يأت الأحزاب مرة ثانية يود هؤلاء المنافقون أن لا يكونوا في المدينة أصلاً، وأنهم بادون في الأعراب يسألون من بعيد عن أنباء المسلمين، وفي بيان هذا الموقف من مواقفهم قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى
يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ
لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ
عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

فالمنافقون أشحة على المؤمنين بأنفسهم وأموالهم، لأنهم لا يؤمنون بقضية المؤمنين.

وهم في مواقف الخوف جبناء خوّارون، ينظرون إلى قيادة المؤمنين التي تأمرهم بالقتال نظر الخائف الرعديد، فتدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت. وحينما يذهب موقف الخوف ويأمنون ويأتي توزيع الغنائم؛ يطلقون ألسنتهم الحادة الساخنة المؤذية الجارحة للمؤمنين، بغية نيل أكبر نصيب من الغنائم، كأنهم هم الذين كانوا أبطال معركة الجهاد، والمحرزين للنصر؛ إنهم أشحة على المال، يحبونه ويحرصون عليه، مع أنهم قد كانوا يقومون بأعمال التثبيط والتخذيل، ولكن الله يحبط أعمالهم فلا يجعل لها تأثيراً على المؤمنين.

(و) وفي غزوة «تبوك» كان للمنافقين مواقف تدل على نفاقهم، فمنها ما يلي:

لما دعا الرسول صلوات الله عليه المسلمين للخروج إلى القتال وغزو الروم على مشارف الشام، أخذ المنافقون يتهربون من الخروج، فبعضهم جاء إلى رسول الله ﷺ يلفّق الأعذار ويحلف له، وبعضهم نشط في تثبيط الناس عن الخروج مع الرسول، وكثير منهم توارى عن الأنظار وتخلّف فلم يشهد هذه الغزوة ولم يستجب لأمر الرسول، ولكنه قرر في نفسه أن يلفّق الأعذار له حين عودته، ويحلف الأيمان المغلظة على ذلك كذباً وفجوراً. وخرج منهم من خرج كارهاً، ويبتغي من خروجه الإفساد والشر بالمسلمين، ودس الدسائس، وإلقاء الفتن، وتثبيط من يستمع إليه من المسلمين الصادقين، وإلقاء الريب في قلوبهم، وتوجيه الانتقادات الهمسية الخفية لتصرفات الرسول ﷺ.

وأذن الرسول لمن اعتذر له منهم عن الخروج، وعاتبه الله على ذلك عتاباً رقيقاً رفيقاً، وأبان له أنّ التريث قد كان أرجح له في الاجتهاد، حتى يبت قراره وقد تبينّ له الصادقون والكاذبون، وفي ذلك قال الله له في سورة (التوبة ٩):

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

أي: لا مؤاخذة عليك في اجتهادك لأنك مأذون به، ولكن كان الأولى بك أن لا تستعجل بالإذن لهم؛ فهلاّ تريثت في إعطاء الإذن لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين.

ثم أكد الله تعالى أن الحكمة تقضي بالتريث بقوله عقب الآية السابقة:

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

فدل على أن الذين يستأذنون الرسول ﷺ في التخلف عن الخروج معه إلى الجهاد إنما هم المنافقون الكاذبون في أعذارهم، أما المؤمنون الصادقون فهم في

العادة لا يستأذنون، وإذا كانوا من أهل الأعذار الصحيحة فإن الحكم الإسلامي صريح في إعفائهم، إذ لا حرج عليهم في التخلف وهم لا يزيدون على أن يكشفوا للرسول أحوالهم دون أن يقولوا له: ائذن لنا، ملحّين في طلب الإذن لهم، فإذا رأى الرسول ﷺ أحوالهم تستدعي تخلفهم أعلن لهم أن لا حرج عليهم في أن يتخلفوا.

فالمبادرة إلى طلب الإذن في التخلف عن الخروج مع الرسول إلى القتال، مظنة تدل على كذب هؤلاء المبادرين، وأنهم منافقون يحاولون تغطية موقفهم بالأعذار الباطلة، فالإسراع بالإذن لهم اجتهاد مقبول، ولكن كمال الحكمة يقضي بالتريث، وهذا من التربية الإلهية للرسول على بعض قواعد العمل الإداري الحكيم.

ثم كشف الله من دلائل نفاقهم وكذبهم في أعذارهم أنهم لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدّةً ما، فقال تعالى عقب الآية السابقة:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾.

ثم أبان الله أن مصلحة المسلمين تقضي بأن لا يخرجوا معهم لنفاقهم، فهم لو خرجوا ما زادوا المسلمين عدداً ولا قوة، بل زادوهم إفساداً، ولأسرعوا بينهم يبغونهم الفتنة، فقال تعالى:

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي: ما زادوكم إلا فساداً.

﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾ أي: ولأسرعوا داخل صفوفكم يبغون فتنتكم عن دينكم.

إنهم لو كانوا مؤمنين صادقين لأحب الله انبعاثهم حتى يكون لهم ثواب إعلاء كلمة الله، لكنهم لما كانوا منافقين كره الله أن يشاركوا المؤمنين الصادقين في القتال، لئلا ينسب إليهم فضل في تحقيق النصر، ولأنهم لو خرجوا مع المؤمنين الصادقين لم يزيدوهم قوة، وإنما يزيدونهم فساداً، ويسرعون خلال صفوف المسلمين لفتنتهم عن دينهم، ومعلوم أنه لا بد أن يوجد في جمهور المسلمين من يستمع إليهم، ويتأثروا بأقوالهم، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾.

ومن الذين استأذنوا (الجدّ بن قيس) أحد بني سلِمَة وكان من أغنياء المنافقين. جاء في كتب السيرة أن رسول الله ﷺ بينما كان يتجهز لغزو الروم قال للجد بن قيس: يا جدّ هل لك العام في جلاد بني الأصفر ـ يعني الروم ـ؟ فقال الجد بن قيس: يا رسول الله ائذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله، وقال له: قد أذنت لك. فأنزل الله قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

فاعتذار هذا وتهربه من واجب الجهاد هو سقوط في الفتنة، وتعرض لعذاب جهنم.

وأراد الجد بن قيس تغطية نفاقه ببذل شيء من ماله، فقال للرسول ﷺ: ولكن أعينك بمالي، فأنزل الله قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: أنفقوا أموالكم التزاماً بما يجب عليكم إنفاقه إذ أعلنتم الإسلام

ولو كنتم كاذبين، ولن يتقبل الله منكم ما تنفقون، فلن يثيبكم عليه، سواءٌ أأنفقتم طائعين أم أنفقتم كارهين، سينتفع المسلمون بأموالكم، ولا تنتفعون أنتم بثواب أعمالكم. والسبب في ذلك أنهم في دخيلة نفوسهم كافرون، ولذلك قال الله تعالى في عقب الآية السابقة:

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أما موقف المثبطين الذين كانوا يقومون بأعمال خائنة ضد خروج المسلمين إلى غزو الروم؛ فقد جاء من أعمالهم في كتب السيرة النبوية أن ناساً من المنافقين قبل غزوة تبوك، أخذوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، وكان بيته عند موضع اسمه «جاسوم»، وجعلوا يثبطون الناس عن الخروج مع رسول الله ﷺ فعلم الرسول بما يفعلون، فبعث إليهم طلحة بن عبيدالله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة ما أمره به رسول الله ﷺ، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فاراً، فانكسرت رجله، واقتحم الآخرون الذين كانوا في بيت سويلم اليهودي فأفلتوا من العقاب. وقد نزل في شأن المثبطين الذين كانوا يقولون لا تنفروا في الحرّ، قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وأما الذين خرجوا كارهين بغية الإفساد والدس والفتنة، فقد جاء من أعمالهم في كتب السيرة، أنه لما وصل الرسول بالمسلمين إلى الحِجر ـ أرض ثمود قوم صالح عليه السلام، الذين أهلكهم الله لتكذيبهم رسوله ـ غطى وجهه بثوبه، واستحث راحلته، ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم. فلما أصبح الناس ولا ماء معهم، شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، وكان في المسلمين رجل من المنافقين يسير مع الرسول حيث سار، فلما أغاث الله المسلمين بدعاء رسوله، قال له جماعته ـ وكانوا يعرفون النفاق فيه ـ: ويحك هل بعد هذا شيء؟ فقال لهم: سحابة مارة!! فأكد بذلك نفاقه.

وبينما كان الرسول ﷺ في بعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله رجل من أصحابه اسمه عُمارة بن حزم، وكان في رحل عمارة رجل منافق اسمه (زيد بن اللُّصيت القينقاعي) من يهود بني قينقاع، فقال وهو في رحل عمارة: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟! فنزل الوحي وأخبر الرسول ﷺ بمقالة هذا المنافق، فقال الرسول وعُمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاؤوا بها. فرجع عمارة إلى رحله، فقال: عجب من شيء حدّثناه رسول الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال المنافق زيد بن اللصيت، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إلي عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، اخرج أي عدو الله من رحلي فلا تصحبني.

وروي أن الرسول ﷺ لما كان في طريقه سائراً بالمسلمين إلى غزوة تبوك كان بين يديه ركب من المنافقين يستهزئون سرّاً فيما بينهم بالقرآن وبالرسول

صلوات الله عليه، ويقول بعضهم: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام وقصورها، هيهات هيهات، يقولون هذا الكلام على سبيل السخرية والاستهزاء.

وأطلع الله رسوله على أمرهم، فقال الرسول للمسلمين حوله: احبسوا عليّ هذا الركب، فاستوقفهم المسلمون، فأتاهم الرسول فقال لهم: أأنتم قلتم كذا وكذا، للكلام الذي كانوا يقولونه على سبيل الاستهزاء، فقالوا: يا نبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر!! فأنزل الله قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ إشارة إلى توبة بعضهم عن نفاقه، قال محمد بن إسحق: لقد عفي عن رجل واحد منهم اسمه: يحيى بن حمير الأشجعي، فإنه لما نزلت الآية في شأنهم تاب عن نفاقه وقال: أنا لا أزال أسمع آية تقشعر منها الجلود، وتَجِبُ منها القلوب (أي: تخفق وتضطرب) اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسّلت، أنا كفنّت، أنا دفنت. وقد استجاب الله دعاءه إذ صدق في توبته، فخرج في عهد أبي بكر إلى قتال أهل الردة مع المسلمين فقاتل حتى قتل. قال محمد بن إسحق: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا عُرف مصرعه غيره.

ومما كان من المنافقين في غزوة تبوك، أن همّ فريق من الذين خرجوا مع الرسول منهم بأن يفتكوا به اغتيالاً في وقت غرة المسلمين فأتمر خمسة عشر رجلاً منهم أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته إذا هو تسنّم العقبة بالليل. وكان عمار بن ياسر آخذاً بخطام راحلة الرسول ﷺ يقودها، وحذيفة بن

اليمان خلفها يسوقها، فبينما هما يسيران في ركاب راحلة الرسول إذ سمع حذيفة بن اليمان وقع أخفاف الإبل، وقعقعة سلاح النفر من المنافقين، يحاولون القدوم لمزاحمة راحلة الرسول ﷺ فالتفت فإذا قوم متلثمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فخافوا انقضاض المسلمين عليهم فهربوا.

ويظهر أنهم قد وصلوا إلى مرحلة نفذ فيها صبرهم، وضاق فيها ذرعهم، فإلى متى وهم ينافقون، ويتصنعون أمام المسلمين بالتزام الإسلام على خلاف ما في قلوبهم، ويتربصون الدوائر بالرسول وبالمؤمنين معه، ويقدّرون في أنفسهم أن حركة الإسلام ستفشل، وينقضون عليها لافتراسها من داخل صفوف المسلمين. ولكن الانتصارات قد أخذت تواكب مسيرتها في تصاعد مطرد، ثم لم يقف الأمر عند حدود الانتصار على المشركين واليهود داخل حدود النفوذ العربي، فهذه الدائرة قد أخذت تتسع، وهذا الجيش الإسلامي قد بدأ يطرق أبواب الامبراطورية الرومانية عند مشارف الشام، فإلى متى والمنافقون قابعون؟!.

لقد هموا بقتل الرسول، ولكنهم هموا بما لم ينالوا، ولَنْ ينالوا، فالله وعد رسوله بأن يحفظه من الناس.

وكثرت الآيات التي نزلت في المنافقين المتخلفين، خلال هذه الغزوة التي استمرت رحلتها قرابة شهرين، فقال (الجلاس بن سويد) وكان أحد المنافقين الذين خرجوا مع الرسول ﷺ: لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذي خلفناهم ــ وهم سادتنا وأشرافنا ــ فنحن شرٌّ من الحمير.

فلتة من فلتات اللسان كشف بها الرجل نفاقه، فانبرى له أحد المؤمنين من الأنصار، واسمه عامر بن قيس الأنصاري، فقال له: والله إن محمداً لصادق، وأنت شر من الذي ذكرت، فبلغ رسولَ الله ﷺ ما كان من الجلاس بن سويد، فاستدعاه للمحاكمة، فحلف بالله أنه لم يقل كلمته التي قالها، على عادة المنافقين في اللجوء إلى الأيمان الكاذبة، فرفع عامر بن قيس الأنصاري يديه داعياً الله فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب.

فأنزل الله مشيراً إلى مقالة (الجلاس بن سويد) وإلى حادثة همّ المنافقين بقتل الرسول قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

فإشارة إلى مقالة (الجلاس) قال الله تعالى: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ وإشارة إلى ما كان من الذين همّوا بقتل الرسول، قال الله تعالى: ﴿وهمّوا بما لم ينالوا﴾.

وأبان الله أنه لا يوجد أي سبب لنقمتهم على الإسلام وعلى الرسول، بل توجد أسباب داعية إلى حب الله والرسول وتركهم لنفاقهم وتعلقهم بالإسلام، فقد أغناهم الله ورسوله من فضله؛ فقال تعالى في الآية: ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾. وقد جاء تأكيد نفي وجود أي سبب لنقمتهم على طريقة الاستثناء بما يؤكد عموم المستثنى منه، وهذا من لطائف البيان، ونظيره تأكيد المدح باستثناء يزيد في المدح، ويسمى عند البلاغيين «تأكيد المدح بما يشبه الذم».

ومن هذا يتبين لنا أن مصلحة المؤمنين الحربية تقضي بعدم اشتراك المنافقين معه في مواقع القتال، لأنهم سيكونون عبء إفساد، لا قوة قتال نافعة، وهم دائماً عوامل مشجعة على الوهن، وهم دائماً طلائع المنهزمين، متى ظهرت بوادر ضعف يسير، وهم يمثلون دائماً كتلة عصاة الأوامر، ومنهم تصدر دسائس الفتنة، وعنهم تنجم مؤامرات الخيانة مع العدّو، وهم دائماً أول المتهالكين على الغنائم بطمع وشره كبيرين، إذا كتب الله النصر، وهم الذين يخاصمون بوقاحة

لنيل أفضل أسهم المغانم والاستئثار بها من دون المستحقين الآخرين، وهم الذين يظهر فيهم الغلول، وهم الذين يوجهون الانتقادات اللاذعة على القيادة في تصرفاتها مهما كانت حكيمة وبارعة، وهكذا إلى آخر جدول الإفساد.

ومن أجل ذلك اصطفى طالوت خلاصة المؤمنين من بني إسرائيل ليقاتل بهم القوم الجبارين في الأرض المقدسة، وقد امتحنهم امتحاناً قاسياً فكانوا هم المطيعين له.

وأمّا الذين تخلفوا من المنافقين عن غزوة تبوك دون استئذان، فقد أقبلوا بعد عودة الرسول إلى المدينة يحلفون له أنهم ما تخلفوا إلا بعذر منعهم من الخروج، فقبل الرسول أعذارهم، وهو يعلم كذبهم ونفاقهم.

١٣ ـ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين تركهم التحاكم إلى الله والرسول، وتحاكمهم إلى الطاغوت، طمعاً بأن يكون حكم الطاغوت لمصلحتهم، وقد دلّ على هذه الظاهرة من ظواهرهم قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ
رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ
فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

إنّ التحاكم إلى غير حكم الله والرسول مع وجود حكم الله أو حكم رسوله تحاكم إلى الطاغوت، والمسلم منذ يعلن إسلامه يعطي عهداً بقبول

أحكام الله وأحكام الرسول مهما كانت مخالفة لأهوائه الخاصة، وما دام المنافق غير مؤمن إيماناً صادقاً فإنه لا يجد في نفسه دافعاً لالتزام أحكام الله والرسول، فلا بدّ أن يميل إلى التحاكم إلى غير أحكام الله حينما يرى أنها قد تكون أرضى لهواه.

فمن أمثلة ذلك ما روي عن ابن عباس أنّ منافقاً اختصم مع يهودي في أمر، فعرف اليهودي أن الحقّ في جانبه، فدعاه إلى رسول الله ﷺ ليقضي بينهما، علماً منه بأنّ الرسول لا يقضي إلّا بالحقّ الذي يراه، أمّا المنافق فدعاه إلى قاضٍ من قضاة اليهود يقال له: (كعب بن الأشرف) ليقضي بينهما، ظناً منه أنّ هذا القاضي من اليهود سيمالىء المسلم المنافق ويحكم له بالباطل، وأصرّ اليهودي على أن يتحاكما إلى محمد صلوات الله عليه، فتحاكما إليه، فقضى رسول الله ﷺ لليهودي لأنّ الحقّ معه. فلم يرضَ المنافق بحكم رسول الله ﷺ ودعا اليهودي إلى عمر بن الخطّاب ليحكم بينهما، فوافق اليهودي لعلمه بأنّ عمر بن الخطاب لن يرضى بغير حكم رسول الله بديلاً، فلما قدما إليه خرج إليهما فتحاكما إليه، فقال اليهودي: يا ابن الخطّاب لقد احتكمنا إلى محمد فقضى لي، فلم يرض هذا بقضائه، فقال عمر للرجل: أهكذا؟ قال الرجل: نعم يا ابن الخطّاب، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى مات، ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسوله.

وحين لا يقبل المنافقون حكم الله ورسوله، ويفتضح نفاقهم، يأتون بأعذارهم الكاذبة الملفقة، ويحلفون الأيمان لتبرئة أنفسهم، ويقولون: إننا لم نرد مخالفة الرسول في أحكامه وأقضيته، وإنما أردنا التوفيق والمصالحة، وأردنا الإحسان لكلٍ من الفريقين المتخاصمين، وهذا ما دلّ عليه النصّ بقوله تعالى: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلّا إحساناً وتوفيقا * أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ أي: خاطبهم سراً بحقيقة حالهم وما يخفون من نفاق.

١٤ ــ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين، متابعتهم الكافرين الصرحاء في الاندفاع وراء الأوهام والخرافات، واعتقادها، والترويج لها كأنها حقائق ثابتة، في حين أنهم يبدون تشككهم بالحقائق الواضحة البينة، ويتوقفون دون التسليم بها، تذرعاً بأن التحقيق العلمي وأصالة الرأي يستوجبان التريث والأناة، وعدم التسليم، قبل ثبوت الحقيقة ثبوتاً ملموساً محساً.

وهم في هذا الموقف المتناقض يرفضون الحقّ ويؤمنون بالباطل، وما أكثر الخرافات التي تسيطر على عقولهم ونفوسهم!!.

والسبب في ذلك أنّ من لم يأخذ بالحقائق الواضحة التي تقوم عليها دلائل العقل، فلا بدّ أن يترك في نفسه فراغاً كبيراً للأوهام والخرافات، التي تتسلل في ظلمات النفس تسلّل اللصوص، وفيها تتخذ زوايا تبني فيها بيوتها الواهنة، من خيوط وهميّة أو ضعيفة، فقد يتشاءمون أو يتطيرون من أشياء، وينسبون إليها حظوظ السعادة أو الشقاء، وقد يؤمنون بأقوال المنجمين الذين يرجمون بالغيب، وقد يستسلمون لدجال يقرأ لهم خطوط الأكف، أو يعبث بالرمل، ويكذب عليهم، وقد يصدقون دجالة تقرأ لهم غيوبهم وأرزاقهم وما سيحدث لهم في فناجين القهوة، أو نحو ذلك من وسائل وخدع شيطانية!!.

ومن أمثلة هذه الظاهرة موقفهم من حادثة الجدب التي تعرّضت له المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، ضمن نظام الأسباب الكونية العامة.

وقد استغل اليهود هذه الحادثة وتابعهم المنافقون لما في قلوبهم من مرض، فأخذوا يتشاءمون ويتطيرون برسول الله ﷺ، ويزعمون أنّ ذلك قد كان بسبب مقدمه عليهم، متجاهلين النظام الكوني العام، وأنّ الله هو الذي يصرّف أمور الكون كلّها وفق مقتضى حكمته، وأن ما يصيب الناس من نعم تسرّهم أو مصائب تَسُوؤهم فلّله فيه حكمة، إما الابتلاء، وإما الجزاء، وإما التربية والتأديب.

إنهم قد تركوا الحقيقة المشرقة، وتعلقوا بأوهام التشاؤم والتطير، وهي أمور لا أساس لها في منطق العقل ولا في منطق الواقع، وقد أعلن الإسلام

بطلانها، وأبان أنها من خرافات الجاهلية التي تعلق بنفوس الناس، حين تفرغ هذه النفوس من حقائق المعتقدات الصحيحة، والأسباب المنطقية.

وقد أشار القرآن إلى موقفهم هذا بقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

فبين الله في هذا النص أنّ النعم والمصائب كلّها من عند الله، ينزلها على عباده وفق حكمته، أمّا النعم فمن محض فضل الله، وأما المصائب فبسبب من الناس أنفسهم، ولمصلحة اقتضاها واقع حالهم، من جزاء أو تربية أو ابتلاء.

فمن مقالاتهم التي أطلقوها في التشاؤم والتطير من الرسول صلوات الله عليه قولهم: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه.

لقد فعلوا مثلما فعل آل فرعون من قبل، إذ تطيروا بموسى ومن معه، لّما عاقبهم الله بالسنين ونقص من الثمرات ليتذكروا، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

أي: إنما أقدار ما يصيبهم من مصائب عند الله، فهو الذي يصيبهم بها وفق حكمته، فلا شأن للآخرين بها، ولكن أكثرهم لا يعلمون أسرار حكم الله فيما تجري به مقاديره، ولا يعلمون أن هذه المصائب مذكّرات لهم بالله حتى يؤمنوا به ويتبعوا رسُله.

وقالت ثمود لرسولهم صالح عليه السلام مثل مقالة آل فرعون لموسى ومن معه، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: بل أنتم تمتحنون بما يصيبكم من مصائب دنيوية وتختبرون لعلكم تتذكرون وترجعون إلى ربكم، فتستغفرونه من ذنوبكم، وعند ذلك يرحمكم فيرفع عنكم ما نزل بكم من مصائب.

وكذلك قال أصحاب القرية الذين أرسل الله لهم ثلاثة رسل، فكذبوهم، فذكرهم الله بنذر العذاب، فتطيروا برسل ربهم، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

أي: تطيرتم بنا لأن الله ذكّركم بشيء من المصائب التي مسّكم بها حتى ترجعوا إليه فتؤمنوا به وبرسله، فطائركم معكم، وهو ما لديكم من أسباب استدعت تذكيركم ببعض صنوف الجزاء الدنيوي المعجّل.

١٥ ـ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين، أنهم إذا دُعوا إلى أمر فيه مخاطرة ما، ويتطلّب مقداراً ما من الشجاعة والإقدام، جبنوا وتخاذلوا وتباطؤوا وتأخروا عن المساهمة، ووقفوا يترقبون النتائج بعيداً عن ساحة المعركة، فإذا كانت النتائج غير سارّة تبجّحوا بسداد رأيهم، وحسن تقديرهم للأمور، وأعلنوا فرحهم بنعمة التخلّف عن تأدية الواجب، وإذا كانت النتائج سارّة للمؤمنين الذين استبسلوا وأقدموا وجاهدوا في سبيل الله، فنالوا مجد النصر ورزق الغنيمة، أخذت الندامة والحسرة تأكل قلوبهم، إذ فاتهم النصيب من الغنيمة التي أصابها المؤمنون المنتصرون، وفي بيان هذه الظاهرة السلوكية من ظواهرهم يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

فهذا الفريق من الناس منافق جبان، يتباطأ ويتثاقل عن الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، حينما يُدعى المسلمون إلى ذلك، فهو يترقب النتيجة ويتجاذبه دافعان هما الخوف والطمع، فإن أصابت المسلمين في جهادهم مصيبة قال: قد أنعم الله عليّ بالعقل السديد والرأي الرشيد، فلم أشهد معهم هذه المعركة، فنجوت ممّا أصابهم، وإن أصابهم فضل من الله بالنصر والغنيمة قال: يا ليتني كنت معهم فأفوز بنصيبي من الغنيمة، وأنال حظي من المال الذي ظفروا به، وهذا هو الفوز العظيم في نظره، ونسي أنه كان قبل المعركة من القوم، وأنه دُعي مثل دعوتهم، وأنّ ما بين المسلمين من مودّة كان يفرض عليه أن لا يتخلّى عنهم، ولا يبطىء عن مشاركتهم في التعرض إلى مواقع المصيبة التي تعرضوا لها، ليشاركهم ويقاسمهم الغنائم التي أصابوها.

١٦ ـ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين، أنهم إذا ألجأتهم الظروف، فخرجوا مع المؤمنين إلى معركة من معارك القتال، وستروا

بذلك نفاقهم، ثم أصابهم أذى في سبيل الله، تضجروا وتذمروا، وجعلوا ما يصيبهم وفق سنن الحياة العامة، والتي تستدعيها المعارك الإنسانية الخاضعة لقوانين ثابتة، مثل عذاب الله الذي ينزله على سبيل العقاب فإذا جاءهم نصر من الله تسابقوا إلى الظفر بالمغانم، مع أنهم لا يعملون في الجهاد إلا أضعف الأعمال وعلى سبيل المراآة، ويقولون عند تقاسم الغنائم بعبارة مؤكدة: إنا كنا معكم نقاتل بصدق وإخلاص مثل قتالكم، لكن الله عليم بما في صدورهم من كفر وما في سلوكهم من نفاق. وفي بيان هذه الظاهرة السلوكية من ظواهرهم يقول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

فمن الوسائل الكاشفة لنفاق المنافقين امتحانهم بالأذى في سبيل الله، فالمنافق يجعل فتنة الناس التي تدخل ضمن القوانين والسنن الثابتة كعذاب الله، فيتضجر ويتذمر، ويوجه اللوم لخطة الجهاد في سبيل الله من أساسها، فيرجف بعد ذلك ويثبط، وحينما يأتي النصر من الله يبادر المنافق معلناً أنه كان من الدعاة الأوائل، وكان منذ البداية في الصف الأول المتقدم، ومن الطلائع الذين تحقق بسببهم النصر.

وهذا واضح في سلوك المنافقين دائماً، في كل زمان وفي كل مكان، ويظهر أن طبيعة النفاق تستدعي ذلك.

١٧ ــ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين، أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وفي بيان هذه الظاهرة من ظواهرهم يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن

دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

إنهم يوالون الكافرين ليتقووا بهم، ويأتون إلى المؤمنين فيتظاهرون أمامهم بالإيمان ليأمنوا جانبهم.

والذين يوالون الكافرين، ويجتمعون إليهم في مجالس مودة، لا بد أن يسمعوا منهم دسّاً على المسلمين وطعناً في الإسلام، وتجريحاً واستهزاء، ولا يسكت عن ذلك ويرضى به إلاّ منافق، أما المؤمن فإنه إما أن يناضل ويكافح، وإما أن يفارق مجالسهم معلناً استنكاره وسخطه.

وفي قوله تعالى في النص: ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ إعلان خطير يبين الله فيه أن الذين يخالطون الكافرين فيسمعون منهم الكفر بآيات الله، والاستهزاء بها، فلا يفارقون على أضعف الإيمان مجالسهم، فإنهم مثلهم في الكفر، وإنهم يكشفون عن حالة النفاق التي يتصفون بها، وسيجمعهم الله مع الكافرين في جهنم، كما اجتمعوا معهم في الدنيا على مجالس الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

وأما قوله تعالى في النص: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ فلعله يشير إلى قوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

١٨ ـ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين تربص الصياد الذي ينتظر الغِرَّات، وينتهز الفرص، فإذا كان النصر للمؤمنين قالوا

لهم: ألم نكن معكم؟ وإذا أصاب الكافرون من المؤمنين شيئاً قالوا للكافرين: ألم نُحط بكم حماية لكم، ونمنعكم من المؤمنين؟ فهم يعملون على الانتفاع من كلا الفريقين، واللعب على الحبلين، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وفي بيان هذا من ظواهرهم يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: ألم نحط بكم لحمايتكم.

وهذه الظاهرة السلوكية تدخل تحت عنصر المخادعة الذي يدخل في تركيب خلق النفاق، ولذلك قال تعالى في النص: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ أي: رادّ خداعهم عليهم، ومعاقب لهم بعقاب من جنس عملهم.

١٩ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، أنهم إذا قاموا إلى الصلاة مراآة للناس قاموا كُسالى، وأنهم لا يذكرونُ الله إلا قليلاً، والسبب في ذلك أنهم لا يؤمنون بفائدة الصلاة ولولا دافع الرياء لم يفعلوها، على أن صلتهم بالله أصلاً ولو عن طريق الإسلام صلة ضعيفة جداً، فهم لا يذكرون الله إلا قليلاً. وفي بيان هذا من ظواهرهم قال الله تعالى في النص السابق: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾.

فقد أبان الله في هذا النص من سورة (النساء) أربع صفات من صفات المنافقين:

١ ـ أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

٢ ـ أنهم يتربصون بالمؤمنين الدوائر.

٣ ـ أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس.

٤ ـ أنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً.

ثم ختم الله النص بتحذير المؤمنين من أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وببيان عقاب المنافقين الشديد، وموقعهم من النار فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾.

٢٠ ـ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، **أنّ موقفهم في مواطن الطمع** موقف الطامع الشره الحسود، إنْ أعطوا رضوا، **وإن لم يُعطوا سخطوا وتذمروا،** وأخذوا يُنْحون باللائمة على القيادة، فيلمزونها بعدم العدل، **وقد كان هذا فعلاً** من ظواهر بعض المنافقين، فكانوا يلمزون رسول الله **في توزيع الصدقات،** فيتهمونه بالتحيز وعدم العدل في التوزيع، وفيهم أنزل الله تعالى **قوله في سورة** (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

إن المنافقين لا يرضون حتى يأخذوا النصيب الأوفى ولو كانوا غير مستحقين، ويطمعون بأن يكون لهم نصيب من الصدقات، ولو لم يكونوا من الأصناف الثمانية الذين تصرف لهم الصدقات. ودخولهم في المؤلفة قلوبهم وعطاؤهم بناء على ذلك يرجع إلى ما يراه إمام المسلمين من مصلحة، فإن رأى المصلحة الإسلامية بإعطائهم أعطاهم وإلا لم يُعطِهم.

٢١ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، على عكس طريقة المؤمنين تماماً.

٢٢ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، أنهم بخلاء، إذا دُعوا إلى البذل الواجب قبضوا أيديهم، وأمسكوا فلم ينفقوا.

وقد أبان الله هاتين الظاهرتين من ظواهرهم بقوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

فمن صفات المنافقين التي تزيدهم رجساً على رجسهم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، انسجاماً مع ما في قلوبهم من جحود لعناصر الإيمان، ولما تدعو إليه هذه العناصر من فعل للخيرات والصالحات، وترك للمنكرات.

وهم فوق كل أرجاسهم أنانيون ماديون بخلاء، إذا دعوا إلى البذل من أموالهم في سبيل الله بخلوا، فقبضوا أيديهم وأمسكوا ولم يبذلوا.

إنهم نسوا الله، إذ شغلتهم عن ذكر الله ومراقبته والتفكر في آلائه معاصيهم وآثامهم وخواطر نفاقهم وأهوائهم وشهواتهم ومخاوفهم ومطامعهم الدنيوية، والمحاولات الدائمة لتغطية نفاقهم.

فنسيهم الله، أي: ضرب صفحاً عن العناية بهم، ورعاية شؤونهم، فتركهم لأنفسهم يتخبطون في ظلمات الحيرة والتردد والضلالة، ويتقلبون في أوحال الخوف والقلق والآلام النفسية.

والأصل في معنى النسيان غياب المعلوم عن مركز التذكر، ومتى غاب عنه لزم إهمال شأنه وعدم العناية به، فالمراد في نسبة النسيان إلى الله تعالى هذا اللازم لا حقيقة معنى النسيان، وذلك لأن الله تبارك وتعالى لا يضل ولا ينسى،

وقد جاء التعبير عن إهمالهم وتركهم لأنفسهم وعدم العناية بهم بلفظ النسيان على سبيل المشاكلة اللفظية لما يفعل المنافقون من نسيانهم لربهم، فليس معنى النسيان الحقيقي هنا مراداً، وإنما المراد ما يلزم عن النسيان.

ثم قرر الله تعالى في آخر الآية أن المنافقين هم الفاسقون، فحصر الفسق فيهم على سبيل المبالغة، فكأنهم قد استنفدوا بآثامهم كل عناصر الفسق حتى لم يبقوا منها لغيرهم شيئاً، وهذا من أساليب البلاغة القرآنية.

ثم أتبع الله هذه الآية بآية وعيد شديد للمنافقين، فقال تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

وقد جاء الوعيد على صيغة الوعد لتأكيد عدم الإخلاف فيما جرى الوعيد به، وذلك لأن من شأن العظماء أن لا يخلفوا بالوعد، مهما دعاهم الأمر إلى الإخلاف، بخلاف الوعيد فقد يميل كرمهم إلى العفو عنه، ولما كان المنافقون والكافرون لا يستحقون العفو أصلاً، حسُن في وعيدهم أن يعطى عنوان الوعد الذي من شأنه الوفاء به قطعاً.

أما عناصر هذا الوعيد فهي ثلاثة:

الأول: أن لهم نار جهنم يخلدون فيها، وحسب عذابها عذاباً.

الثاني: أنهم مطرودون من رحمة الله.

الثالث: أن لهم عذاباً مقيماً في داخل أنفسهم، فهو لا يرحل عنهم، وهذا العذاب ملازم لنفاقهم وكفرهم، فهو عذاب يتعاقب عليهم في الدنيا، ويرافقهم بعنف بعد الموت في البرزخ، ويُلقي فيهم ثقله الشديد يوم القيامة، أما عذاب الدنيا فيأتيهم على صور كثيرة: منها القلق، والحيرة، وآلام النفس، وعذاب الضمير، وعدم الشعور بالراحة، وعدم الاستمتاع الهنيء بمتاع الحياة الدنيا،

والاشتغال بمتاعب الجمع والمنع والحرمان، والخوف على المال والنفس، والخوف من المصير.

٢٣ ـ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، الكذب في الوعد وفي العهد، والإخلاف فيهما، ونقضهما بغير حق.

فالنفاق يلجىء إلى الأخذ بهذا السلوك الشائن من ظواهر الانحراف الخلقي، وذلك لأن ظاهر الإسلام قد يقتضي إعطاء الوعد الكاذب، أو تقديم العهد الكاذب، وباطن الكفر قد يقتضي الإخلاف في الوعد وفي العهد ونقضهما، تلبية لدواعيه، فيعطي المنافق وعده أو يقدم عهده للاستفادة من الموقف الذي دعاه إلى ذلك، ولستر نفاقه، ثم إذا جاء وقت تنفيذ الوعد دعاه كفره إلى الإخلاف، وقام في نفسه أن باستطاعته تقديم معاذيره المختلفة، وعمدته في ذلك اللجوء إلى خطة الكذب.

وقد ثبت في الصحيح عن الرسول ﷺ أن من علامات المنافق أنه إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» رواه البخاري ومسلم، وزاد في رواية لمسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ومن أخلف عهده مع الله فأعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ما روي أن (ثعلبة بن حاطب) أتى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال له عليه الصلاة والسلام: يا ثعلبة، قليل تؤدي حقه خير من كثير لا تطيقه، فراجع ثعلبة رسول الله ﷺ وقال له: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطينّ كل ذي حقٍ حقه، فدعا له الرسول ﷺ أن يرزقه الله. قالوا: فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت نماء سريعاً، وتكاثرت تكاثراً عظيماً حتى ضاقت بها

المدينة، فاستاقها فنزل بها وادياً، وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل له: كثر ماله حتى لا يسعه وادٍ، فقال الرسول: يا ويح ثعلبة!!.

وقد بعث الرسول ﷺ مصدِّقَيْن[1] لأخذ الصّدَقات من ذوي الغنى، فانطلق المصدِّقان فاستقبلهما المسلمون بصدقاتهم، ولما مرّا بثعلبة سألاه زكاة ماله، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ الذي فيه الفرائض، فتنكر ثعلبة للأمر، وقال في نفسه: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ثم قال للمصدِّقَيْن: ارجعا حتى أرى رأيي، فعاد الرجلان إلى رسول الله ﷺ فقال لهما قبل أن يكلماه: يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، مرتين، فأنزل الله فيه أربع آيات، هي قوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ثم إن ثعلبة جاء بالصدقة إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول: إن الله منعني أن أقبل منك، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه، فقال له عليه الصلاة والسلام: هذا عملك، أمرتك فلم تطعني، وظل الرسول حياته لا يقبل الصدقة من ثعلبة.

قالوا: ثم إن ثعلبة جاء بصدقته إلى أبي بكر في خلافته فلم يقبلها منه، ثم جاء بها إلى عمر في خلافته فلم يقبلها منه، ثم هلك ثعلبة في عهد عثمان.

كذا رُوي، والله أعلم، على أنّ النصّ القرآني يدلّ على حالة إنسان كان منه مثل ما ورد في قصة ثعلبة.

---

(١) المصدق: جابي الصدقة، أي: جابي الزكاة.

٢٤ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، لمز العاملين في أعمالهم، وتجريح مقاصدهم، ومن ذلك ازدراؤهم بذلَ المقلّين، واتهامهم في نياتهم وغاياتهم، وانتقادهم بذل المكثرين، واتهامهم في نياتهم وغاياتهم، فلا ينجو منهم مكثر في عطائه ولا مقل.

ويرجع هذا السلوك فيهم إلى عدة أسباب: منها تغطية النقص الذي هم فيه، ومنها التثبيط عن عمل الخير، ومنها قياس الناس في غاياتهم على أنفسهم.

إنهم لا يفعلون الخير، ثم يصدّون الناس عن فعل الخير باللمز والتجريح.

وقد كشف القرآن هذه الظاهرة من الظواهر السلوكية للمنافقين، فقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾.

اللمز: هو التجريح الخفي، يقال لغة: لمزه إذا عابه بأمر من الأمور.

المطّوعون: هم المتطوعون، أدغمت التاء بالطاء، وهم الذين يعملون أعمال الخير على سبيل الإحسان والتبرع، دون أن تكون واجبة عليهم.

فمن صفات المنافقين أنهم يلمزون الذين يفعلون الخير، ثم لا يكتفون باللمز بل يزيدون عليه السخرية، فيسخرون من الذين يتطوعون بالصدقات القليلة، التي هي غاية ما يستطيعون بذله، ويحتقرون صدقاتهم التي يقدمونها، ومثل الصدقات سائر أعمال الخير. أما الذين يقدمون الكثير متطوعين به فإنهم يلمزونهم على سبيل التجريح في غاياتهم ومقاصدهم، فيتهمونهم بأنهم يراؤون الناس، أو بأن غرضهم الشهرة أو الفخر أو ثناء الناس عليهم أو نحو ذلك.

فمن أمثلة ذلك ما روي أن رسول الله ﷺ حثَّ المسلمين على التطوع بالصدقة ذات مرة، فأتى عبدالرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب، وقيل:

أتى بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله، لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت لعيالي أربعة، فقال له رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت.

وتطوع عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، ثم جاء أبو عقيل الأنصاري وكان رجلاً فقيراً، فتطوع بصاعٍ من تمر، وقال: بت ليلتي أجر بالجرير[1] على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات ففعل.

فأخذ المنافقون يلمزون هؤلاء المتصدقين، فقالوا: ما أعطى عبدالرحمن بن عوف وعاصم بن عدي إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحب أن يُذَكِّر بنفسه ليُعطى من الصدقات.

٢٥ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، تدبير المؤامرات ضد المسلمين، أو المشاركة فيها، أو الاستجابة لمدبريها.

والسبب في ذلك أنهم عنصر دخيل، يقهر دوافعه الداخلية على إخفاء تعبيراتها، وكتمها، وعدم السماح لها بأن تبرز إلى سطح السلوك الظاهر، وهذه العملية مؤلمة للنفوس لما فيها من كبت للمشاعر، وضغط لها داخل الجوانح، لذلك فهي تحاول التخلص مما هي فيه بأية وسيلة، وبأية مكيدة، فتعمل على تدبير مكيدة تتخلص بها من عناصر القوة التي تعاملها بالنفاق لأنها تخشى بأسها.

ومن أمثلة هذه الظاهرة لدى المنافقين في عصر الرسول صلوات الله عليه قصة مسجد الضرار، التي دبرها أبو عامر الراهب مع فريق من منافقي المدينة من جهة، والامبراطورية الرومية من جهة أخرى، للانقضاض على المسلمين سرّاً وهم عن أعدائهم المخالطين لهم غافلون.

كان أبو عامر الراهب واسمه (عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان)

(١) الجرير: الحبل، أي: أجر بالحبل على أجرةٍ هي صاعان من تمر.

أحد بني ضُبيعة، خزرجياً من أهل يثرب، وقد تنصر قبل الإسلام، وكان ذا مكانة في قومه، فلما هاجر الرسول ﷺ إليها أعلن عداءه له، وأخذ يؤلّب عليه من يستطيع صده عن الإسلام من قومه، فلما لم يظفر بما يريد داخل المدينة، خرج إلى مكة، فحث قريشاً على محاربة المسلمين في المدينة، بعد أن رأى انتصار المسلمين عليهم في غزوة بدر، وكان قد حلف ليحاربنّ محمداً مع كل من يحاربه، وقال لكفّار قريش في تحريضه لهم على محاربة المسلمين: إن لي أنصاراً في يثرب من قومي، إذا رأوني لم يختلف عليّ منهم رجلان.

وخرج مع قريش لحرب الرسول والمسلمين معه، وكانت الموقعة موقعة أحد، قالوا: ولما التقى المسلمون والمشركون في أحد، كان أبو عامر هذا أول من لقي المسلمين من جيش عدوهم، ليستحث قومه في صفوف المسلمين على طاعته ومناصرته وخذل الرسول، وكان معه الأحابيش[1] وعبيد أهل مكة، فوقف ينادي: يا معشر الخزرج، أنا أبو عامر.

فأجابوه بقولهم: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق.

فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ثم أخذ يقاتل المسلمين قتالاً شديداً، ولما حميت المعركة أخذ يرمي المسلمين بالحجارة، تعبيراً عن شدة حقده، ورجع بعد معركة أحد إلى مكة وفي قلبه من الحقد ما فيه.

ولما تم للرسول ﷺ فتح مكة، وخرج الرسول لإخضاع الطائف وما حولها، انضم أبو عامر إلى قبائل هوازن وثقيف ونصر وجُشم وسعد بن بكر وناسٍ من بني هلال، فقاتل المسلمين يوم حنين.

وانتصر المسلمون يوم حنين، ويئس أبو عامر عدو الله والرسول من الاعتماد على قوات الشرك داخل الحدود العربية، فقرر أن يستعين على المسلمين بهرقل ملك الروم في الشام، وأن يستنصر به عليهم، ورجا أن يرسل هرقل معه

---

(١) الأحابيش: حلفاء قريش.

جنداً من جند الروم، لمقاتلة المسلمين في المدينة، وذلك بمؤامرة سرية حاول تدبيرها مع فريق من المنافقين في المدينة، فركب جنح الظلام وسافر إلى هرقل.

واتفق مع سادته على أن يرسلوا معه جنداً من جند قيصر لمحاربة محمد وأصحابه، بعملية انقضاض ماكرة خبيثة على عاصمة الإسلام والمسلمين.

وبغية إحكام هذه المؤامرة، وحتى تكون حملةً خاطفة سرية لا حرباً علنية، أخذ أبو عامر يراسل خلصاءه من المنافقين في المدينة، ويُسر لهم بالأمر الذي تم الاتفاق عليه مع قيصر، ويأمرهم بأن يستعدوا بما استطاعوا من قوة وسلاح، وأن يبنوا قاعدة سرية في ضاحية المدينة، لا ينتبه إليها المسلمون، ولتكن هذه القاعدة السرية مسجداً يبنيه المنافقون ويجتمعون فيه، متخذين لإقامة هذا المسجد المبررات أمام الرسول ﷺ حتى يأذن لهم بإقامته.

فاجتمع نفر من المنافقين من بني غنم بن عوف، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم خِذام بن خالد، وثعلبة بن حاطب، ومُعتب بن قشير، وأبو حَبيبة بن الأزعر، وعباد بن حنيف، وآخرون، فقرروا إقامة مسجدهم هذا قريباً من مسجد قباء، تنفيذاً لخطة المؤامرة، وقد تم بناؤه بينما كان الرسول ﷺ على أهبة السفر إلى غزوة تبوك، فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا له: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا وتصلي لنا فيه.

فقال لهم الرسول: «إني على جناح سفر وحال شُغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه» وخرج رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى غزوة تبوك دون أن يصلي لهم في مسجدهم هذا، وبينما هو قافل منها عائداً إلى المدينة نزل عليه الوحي وأخبره بخبر المؤامرة، وحال المسجد الذي بناه المنافقون في قباء.

وأنزل الله على رسوله في شأن هذا المسجد قرآناً، ونهاه عن أن يصلي للمنافقين فيه، ووصفه بأنه مسجد ضرار.

ولما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة أتاه أصحاب مسجد الضرار فسألوه أن

يأتي مسجدهم ويصلي لهم فيه، فدعا صلوات الله عليه مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه.

فانطلقوا مسرعين حتى أتوا مسجد الضرار فهدموه وحرقوه، وانكشفت مكيدة المنافقين، وتم وأدها في مهدها، وتوقفت مكايد أبي عامر، ثم هلك في الشام في قنسرين.

أما ما نزل من قرآن في شأن مسجد الضرار، فقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ
أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ
أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ
شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ
بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ففي الآية الأولى من هذا النص دلالة واضحة على أن فريقاً من المنافقين هم الذين أقاموا هذا المسجد ضمن خطة المكيدة المدبرة.

وقد وصف الله غايتهم من إقامة هذا المسجد بأربع صفات، يمكن منها تصور أبعاد المؤامرة الخائنة، وهذه الصفات هي:

الصفة الأولى: كون هذا المسجد مسجداً ضراراً، أي: الغاية منه المضارّة، وذلك بأن يكون وسيلة لإيقاع الضرر بالمسلمين، حينما تستكمل المؤامرة الخائنة عناصرها، ثم تأخذ سبيلها إلى التنفيذ.

الصفة الثانية: كون الغاية منه تمكين الكفر الذي في قلوبهم، وذلك لأنهم إذا اتخذوا مكاناً خاصاً بهم باسم مسجد، فإنهم يستطيعون وهم مستورون أن يتلاعبوا بعباداتهم وفق أهوائهم، ويستطيعون أن يتساروا فيه بدسائس الكفر وأقواله كما يشاؤون، وهذا من أعمال الكفر التي يضيفونها إلى ما يبطنون من شر.

الصفة الثالثة: كون الغاية من إقامته التفريق بين المؤمنين، وذلك لأن المؤمنين كانوا يصلون في مسجد قباء، فأراد المنافقون تفريق صف المؤمنين، ووجدوا في إقامة مسجد الضرار ما يحقق لهم غايتهم هذه.

الصفة الرابعة: كون الغاية من إقامته الإرصاد لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الراهب، وذلك بإعداد العدة اللازمة لقتال المسلمين، وبانتظار الوقت الملائم لتنفيذ مؤامرة الانقضاض على المسلمين في المدينة، حينما يأتي أبو عامر ومعه جندٌ من جند قيصر.

وهذه المعاني مستفادة من كلمة الإرصاد، لأن الإرصاد في اللغة يأتي بمعنى الإعداد، ويأتي بمعنى الانتظار، تقول لغة: أرصدت له الأمر إذا أعددته له منتظراً الوقت الذي يأتي فيه أو يلائمه. ففي الإرصاد معنى الإعداد والتهيئة ومعنى الانتظار، وأصل الرصد الترقب النبيه.

ومن هذا يتضح لنا أن في الآية الأولى من هذا النص إشارة إلى قصة المؤامرة كلها ودلالة على أهم عناصرها بأخصر عبارة.

ولما كشف الله مكيدتهم أخذوا ــ كعادة المنافقين ــ يحلفون الأيمان الكاذبة الفاجرة على أنهم لم يريدوا إلا الإرادة الحسنى، وذلك ما كانوا قد تعللوا به من أنهم قد بنوا مسجدهم هذا لذي العلة والحاجة والليلة الممطرة.

وفي قول الله لرسوله: ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ توجيه ضمني لهدمه ومحو أثره، وذلك لأن الله تبارك وتعالى إذا لم يأذن لرسوله بالصلاة فيه فغيره من المسلمين كذلك. فهو إذن ليس مسجداً مأذوناً به ولا معترفاً به، وحينئذٍ لا يبقى له من

الصفات إلا أنه وكرٌ لتآمر المنافقين فوجب هدمه ومحو أثره، وكذلك كل ما كان على شاكلته، مما ظاهره الخير وباطنه الشر.

وأتبع الله قصة مسجد الضرار بالإشادة بمسجد التقوى الذي كان قد بناه المؤمنون المتطهرون الصادقون في قباء، وأسسه رسول الله ﷺ أول ما قدم مهاجراً من مكة، وكان أول من وضع حجراً في قبلته، ثم جاء أبو بكر فوضع حجراً، ثم أخذ الناس في البنيان، فكان أول مسجد بني في الإسلام.

واستمرت الريبة في قلوب بناة مسجد الضرار تقضّ مضاجعهم بعد انكشاف أمر خيانتهم فهم في خوف دائم وقلق مستمر، لأنهم يتوقعون أن يقرر الرسول ﷺ معاقبتهم، فينقض عليهم المؤمنون ويجهزوا عليهم. ولن ينتهي هذا الرعب الذي يطحن قلوبهم حتى تنقطع قلوبهم خوفاً وهلعاً مما يتوقعونه من مصير، أو حتى تأتيهم آجالهم، فخيانتهم قد كانت عظيمة، فيها كفر، وفيها تآمر خبيث مع دولة كبيرة معادية لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿لا يزال بنيانُهم الذي بَنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾.

من علامات المنافقين في بيان الرسول ﷺ:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وفي رواية: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

وفي رواية: «وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر».

اشتمل هذا الحديث على التحذير من أمور هي من رذائل الأخلاق، وهي من علامات المنافقين، لأنها من صفات النفاق:

الرذيلة الأولى: الكذب.

الرذيلة الثانية: إخلاف الوعد.

الرذيلة الثالثة: خيانة الأمانة.

الرذيلة الرابعة: الغدر.

الرذيلة الخامسة: المخاصمة الفاجرة.

ودل كلام الرسول ﷺ على أن من اجتمعت فيه هذه الرذائل كانت علامات دالة على أنه منافق، أي لم يدخل الإيمان الصادق إلى قلبه، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم.

وحين نكتشف رذائل المنافق عن طريق التحليل نجد أن أبرزها وأخطرها وأخبثها هي هذه الرذائل.

فأول رذيلة خلقية يلجأ إليها المنافق ليستُر كفره وعدم استجابته لنداء الإيمان، هي رذيلة الكذب، فهو يتظاهر بأنه مسلم، فيعلن ذلك بلسانه، ويشهد الله على ما في قلبه، وهو في ذلك كاذب، يتنازعه عاملان نفسيان هما الخوف والطمع. وطبيعي أن تكون هذه الرذيلة علامة يُسجلها الراصد على الشخص الذي يدنس نفسه وسلوكه بها، ليستدل منها على نفاقه، أو على وجود خصلة فيه من خصال النفاق، ومن لا يكون كذاباً لا يعرف كيف ينافق.

والرذيلة الخلقية الثانية التي يلجأ إليها المنافق هي رذيلة إخلاف الوعد، وإخلاف الوعد قد يكون صورة من صور الكذب، وذلك إذا كان الإخلاف مقصوداً عند إعطاء الوعد، إذ يكون إخباراً كاذباً عما يريد فعله في المستقبل، فيقول: سأفعل كذا وهو يريد أن يفعل خلافه، فهو كاذب منذ إعطاء الوعد. أما إذا كان الإخلاف غير مقصود عند إعطاء الوعد فإنه يكون حينئذ من قبيل عدم حفظ ما استؤمن عليه، وعدم تنفيذ ما التزم به تجاه الآخرين.

وكون الإخلاف بالوعد من علامات النفاق، يظهر لنا حينما نلاحظ أن طبيعة النفاق تلجىء المنافق إلى أن يعد مواعيد لا يريد ابتداءً الوفاء بها، ولكن مقتضى ما زعم بأنه مسلم يفرض عليه أن يتابع ستر نفاقه بإعطائه الوعود الكاذبة، حتى إذا حان موعد الوفاء تهرب منه محاولاً ستر نفسه بالمعاذير الكاذبة، هذا إذا ظل مضطراً إلى التظاهر بخلاف حقيقته. أما إذا ذهبت هذه الضرورة فإنه يعلن بوقاحة أنه كان كاذباً، وأنه ما كان في الأصل يريد الوفاء بوعده.

والمنافق أيضاً حينما يشهد شهادة الإسلام فإنه يعطي عهداً ووعداً بالتزام

أحكام الإسلام وشرائعه ضمن شهادته، وكل ذلك كذب لا يريد من قلبه الوفاء به، ولكنه يريد أن يخادع به المسلمين.

والرذيلة الخلقية الثالثة التي هي من علامات النفاق هي رذيلة خيانة الأمانة. ومن الطبيعي أن يكون المنافق خائناً فيما يُستأمن عليه، إذ يزعم أنه أحد القوم، وأنه عضو من أعضائهم، وأنه موالٍ لهم ومناصر وهو في حقيقة حاله على خلاف ذلك. وحينما يتظاهر بانتسابه وولائه للقوم وأنه عضو من أعضائهم، فإنه يضع نفسه موضع المستأمن على أموالهم وأعراضهم، وأسرارهم وجميع مقدراتهم؛ ومن الطبيعي أن يستسلم القوم لمن أصبح عضواً منهم، فيستأمنوه على أمورهم العامة، وكثير من أمورهم الخاصة، مع أنه في حقيقة أمره منافق، وهو عدو لمن نافق لهم، يضمر لهم المكايد ويدبر لهم الدسائس، ولذلك كان من الطبيعي أن يستغل استئمانهم له واستسلامهم لولائه، فيخونهم ويغدر بهم.

فالخيانة رذيلة من الرذائل التي ترافق النفاق وتصاحبه في أحوال كثيرة، ولذلك كانت من العلامات الدالة عليه.

وحينما تجتمع في الإنسان رذائل الكذب والإخلاف في الوعد والخيانة عند الاستئمان، فإن أبرز خصائص النفاق تكون مجتمعة فيه.

وحينما يهون على الإنسان اجتماع هذه الرذائل كلها في أخلاقه، فإن انغماسه في أرجاس النفاق بكل خصائصه يكون أمراً هيناً عليه، ولا يمنعه منه مانع أخلاقي، لأنه إنسان لا يملك من فضائل الأخلاق ما يصده عن النفاق.

والرذيلة الخلقية الرابعة التي هي من علامات النفاق هي رذيلة الغدر، وطبعي في المنافق أن يكون غداراً، لأنه يعاهد كاذباً، فمتى سنحت له فرصة الغدر غدر.

والرذيلة الخلقية الخامسة التي هي من علامات النفاق هي أنه إذا خاصم فجر، أي اتخذ كل الوسائل الفاجرة ومنها الأيمان الكاذبة الفاجرة، ليغلب خصمه بالباطل. وصدق رسول الله ﷺ.

موقف المؤمنين من المنافقين:

لجأ الرسول صلوات الله عليه إلى سياسة معاملة المنافقين بحسب ظاهرهم فلم يحاكم أحداً منهم بحسب باطنه، وهذا هو واجب الحكم والقضاء الشرعي.

ولجأ الرسول أيضاً إلى سياسة العفو عما يبدو منهم مما يدل على نفاقهم، ما داموا يستخفون بعدواتهم لله ورسوله والمؤمنين، ويقدمون اعتذارهم عما يبدو منهم، أو يحلفون الأيمان الكاذبة على إنكار ما نسب إليهم، أو على سلامة نيتهم، وآثر الرسول ﷺ أن يلجأ إلى هذه السياسة لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ومن أسلم معه، فيكون ذلك سبباً في نفرتهم عن الدخول في الإسلام، وهم ما زالوا بالنسبة إلى هذا الدين بين الشك واليقين.

ولكن لما تصاعدت أعمال المنافقين الدالة على نفاقهم، إذ طالت عليهم مدة الإنظار، وإذ أخذ اليأس من تقهقر الإسلام يدب إلى قلوبهم، وإذ رأوا بوادر الانطلاق إلى دق أبواب الامبراطورية الرومانية، عندئذ أخذت الحملة الإعلامية القرآنية تتكثف ضدهم بقدر تصاعد ظواهر نفاقهم.

فلدى تتبع الحملة القرآنية العنيفة ضد الذين تخلفوا من المنافقين، فلم يخرجوا مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، نلاحظ أنها بمثابة مقدمات لإعلان الحرب المسلحة ضدهم، وبمثابة التمهيد لتغيير سياسة التغاضي عنهم وعن أعمالهم. فالمسلمون قد غدوا قوة مؤهلة لحمل الإسلام إلى شعوب الأرض، وكسر أسوار الامبراطوريات الكبرى، والوقت لم يَعُد وقت مداراة المنافقين المعوّقين من داخل الصفوف، وقد آن أوان محاسبتهم على نفاقهم، ومجاهدتهم مثل جهاد الكافرين المجاهرين بكفرهم.

ولئن كانت المدّة الأولى تقتضي غض النظر عنهم، ريثما يقوى المسلمون وتشتد شوكتهم، ورجاء أن يستقيم بعضهم ويتوب من نفاقه، فإن المسلمين بعد أن أصبحت لهم قوة تفكر بغزو الروم صاروا بغنى عن مداراة منافقيهم، وغدت المصلحة الإسلامية تقضي بالمحاسبة الشديدة على كل مظاهر النفاق، وتمييز المنافقين عن المسلمين، ومحاربتهم ومجاهدتهم كالكافرين الصرحاء.

أما وقد صعّد المنافقون أعمالهم العدائية للإسلام والمسلمين فإن الحكمة اقتضت إنذارهم أولاً بأنهم إن لم ينتهوا فسيتم إعلان الحرب ضدهم وإغراء الرسول بقتالهم، وكان ذلك عقب غزوة الأحزاب. ثم لما لم يردعهم الإنذار بالوعيد، فإن الحكمة اقتضت تنجيز إعلان الحرب عليهم، وأمر الرسول بمجاهدتهم، وكان ذلك عقب تخلُّف من تخلف منهم عن غزوة تبوك، والأعمال التي كانت منهم في تلك الآونة.

أما الإنذار بأنهم إن لم ينتهوا فسيتم إعلان الحرب ضدهم وإغراء الرسول بقتالهم فإننا نجده في قول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

فخاطب الله رسوله في هذا النص، بأنه إن لم ينته المنافقون عن أعمالهم الدالة على نفاقهم، والتي تعبر في سلوكهم عن كفرهم الكمين في قلوبهم، لنغرينك بهم، أي: لنحرضنك على مقاتلتهم ومطاردتهم وإجلائهم، وذلك على سبيل إغرائك بالانتقام منهم، على ما كان منهم من إيذاءٍ لك ومخالفة، ومناهضة مقنعة للإسلام والمسلمين.

﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾: أي ثم لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، وهذا بمثابة نتيجة طبيعية للتحريض على مقاتلتهم، ونبذهم من صفوف المجتمع الإسلامي الذي ينافقون له.

وقد أكد الله معنى طردهم من صفوف المسلمين بإعلان طردهم من رحمته سبحانه وتعالى، فقال تعالى: ﴿ملعونين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ أي: حينما يغري الله

رسوله والمؤمنين بمقاتلتهم، فيعامهم معاملة الأعداء الذين يجاهرون بعداوتهم، فسيكون الانتقام منهم أقسى وأشد نكاية من الكافرين الصرحاء، فأينما وجدوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً عنيفاً، فلا يقبل منهم بعدئذ توبة، لأنهم قد امتحنوا فأظهروا أنهم كذابون، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وختم الله هذا الإنذار بقوله: ﴿سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾ للدلالة على أن من سنن الله الحكيمة التي لا تبديل لها، أنه متى بلغ المنافقون من أية أمة من الأمم مبلغاً من الكيد للرسالة الربانية، صار فيه بقاؤهم بين صفوف المؤمنين خطراً على سير الدعوة وانتشارها، أو معوقاً ظاهراً لتقدمها، فإن الله ينزل أمره لرسُله بمقاتلتهم، وبمطاردتهم حتى القضاء عليهم واستئصال شأفتهم، وذلك لأن خطرهم حينئذٍ يكون أشد من خطر الكافرين المجاهرين بعداوتهم. ولكن، ما دام نفاقهم لم يصل إلى هذه الدرجة من الخطورة فإن من سنّة الله تبارك وتعالى أن لا يأذن لرسله بمقاتلتهم مقاتلة جماعية تستأصلهم، حتى لا يأخذ الناس بعضهم بعضاً بالظنة.

وأما تنجيز إعلان الحرب عليهم وأمر الرسول بمجاهدتهم عقب تخلف من تخلف منهم عن غزوة تبوك، والأعمال التي كانت منهم في تلك الآونة، فنجده في قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ ﴾.

فدعا الله رسوله في هذه الآية إلى مجاهدة الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم، فدل هذا على أن المنافقين قد وصلوا إلى حالة انكشف فيها نفاقهم تماماً، بتصاعد الأعمال الدالة عليه منهم، فكان ذلك مقتضياً أن يعاملوا معاملة الكافرين الصرحاء.

ولو أنهم لم يكشفوا صفحتهم بما يدل على كفرهم من أعمال، لما دعا الله رسوله إلى مجاهدتهم والإغلاظ عليهم، لأن أحكام شريعته المستمرة تقضي بأن

لا تُحاسب القيادة الإسلامية الناس على ما في قلوبهم، حتى يظهر في أعمالهم ما يدل عليها دلالة واضحة، وأمرُ المحاسبة على ما في القلوب متروك لله جل وعلا.

يضاف إلى ذلك ما ذكرناه آنفاً من أن المسلمين قد وصلوا إلى مرحلة يستطيعون فيها الاستغناء عن مداراة المنافقين، ولا يؤثر على دعوتهم فيها أن يحاسبوا المنافقين حساباً عسيراً. كما أن المنافقين قد صعّدوا أعمالهم العدائية للإسلام والمسلمين، إذ بدأوا يشعرون بأن سندهم قد تقوض نهائياً داخل الحدود العربية، ولم يبق لهم إلا أمل واحد، وهو أن يأتيهم الدعم من وراء الحدود، وبدأ بعضهم يطمع بدعم الامبراطورية الرومانية، أو أجرائها من العرب الغسانيين، ليخلصوهم من هذه القوة الكبيرة التي أصبحت للمسلمين، ولكن الذي أطار صوابهم أن يدعوهم الرسول ﷺ إلى قتال هذه القوة التي يترقبون أن تكون هي السند لهم.

وقد أخذ التمهيد للدعوة إلى مجاهدة المنافقين يبرز في شن الحملة الإعلامية ضدهم، بذكر مواقفهم، وفضح أعمالهم التي كانوا يتوارون بها.

وأتبع الله دعوة الرسول إلى مجاهدتهم ببيان الأسباب الداعية إلى ذلك، فذكر طائفة من أعمالهم الكاشفة لنفاقهم وكفرهم، في تسع آيات من سورة (التوبة) عقب الآية السابقة.

ثم كلف الله رسوله أن يباشر تنفيذ خطتي عزلٍ للمنافقين عقب عودته إلى المدينة من غزوة تبوك سالماً:

* **الخطة الأولى**: عزل من تخلف منهم عن الغزوة عزلاً عسكرياً وطردهم من مكان الاعتبار بين صفوف المسلمين، وذلك بمنعهم عن الخروج إلى القتال مع الرسول ﷺ وبشطب أسمائهم من ديوان المجاهدين.

* **الخطة الثانية**: عزل موتاهم من سجل موتى المسلمين، وذلك بأن لا يصلي الرسول ﷺ على أحد منهم مات أبداً، وبأن لا يقوم على قبره للدعاء له، فالاستغفار لهم لا يفيدهم.

أما العزل العسكري فقد أمر الله رسوله به في قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ففي هذا إعلان عزلهم عن المشاركة في أي قتال يقوم به الرسول ﷺ، وفي هذا العزل إبعاد لهم عن بعض مواقع المسلمين، وفيه تمهيد لتمييزهم بالمراقبة، ثم لتوجيه الضربة القاصمة لظهورهم متى لزم الأمر.

وأما عزل موتاهم من سجل موتى المسلمين، الذي هو أشد قسوة على المنافقين من العزل العسكري، وأبلغ في طردهم من صفوف المؤمنين، فقد أمر الله رسوله به في قوله له في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

وظاهر في هذا الإعلان طردهم النهائي من صفوف المسلمين، بعد الذي كان منهم.

وهكذا تم عزل المتخلفين عن الجهاد من المنافقين عزلاً عسكرياً، وتم شطب أسمائهم من ديوان المجاهدين، ثم أتبع ذلك بإعلان عزل موتاهم من سجل موتى المسلمين، بنهي الرسول ﷺ عن أن يصلي على أحد منهم مات أبداً، أو أن يقوم على قبره للدفن أو الدعاء، والسبب في ذلك أنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا وهم فاسقون.

ثم قنّط الله رسوله من رجاء إصلاحهم بعد أن مردوا على النفاق، فقال في الآية التالية من سورة (التوبة ٩):

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

وذلك أنه ربما يقوم في نفس الرسول ﷺ أملٌ بأن يصلح هؤلاء المنافقون، رغم التجارب العديدة التي اكتوى بها منهم، وبذلك تتوجه قوتهم في المال والرجال فتكون عوناً صحيحاً للإسلام والمسلمين، ولكن الله قد علم من حالهم أنهم قوم مردوا على النفاق، وأنه لا رجاء من صلاح أحوالهم، فقنّط رسوله منهم، وقال له: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾.

ثم تتابعت الآيات في السورة تبين أسباب وضع المنافقين في هذا الموضع الذي غدوا فيه معزولين، يترقبون أن يجاهدهم الرسول كما يجاهد الكافرين المجاهرين بكفرهم.

عقاب المنافقين في الآخرة:

تطبيقاً لسنّة الجزاء الرباني الذي هو من جنس العمل، يلقى المنافقون يوم القيامة عذابهم في صورة تشبه عملهم في الدنيا، إنهم يوم القيامة في الظلمات لا نور لهم، لأنهم كانوا محرومين من نور الإيمان الصادق في الدنيا، ويرون المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، يهديهم إلى الجنة دار النعيم، فيحاول المنافقون السير في نور المؤمنين كما كانوا في الدنيا يسيرون معهم نفاقاً، إلا أنهم لا يستطيعون مسايرتهم، يثقلهم كفرهم، ويظلم عليهم ما قدموا من سيئات، فيقولون للذين آمنوا: انتظرونا لنقتبس من نوركم، فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً من أعمالكم الصالحات، فإذا التفتوا وراءهم ضرب بينهم وبين المؤمنين بسورٍ له باب لا يدخله إلا الذين آمنوا، وهذا السور له باطن وظاهر، أما باطنه وهو ما يقع في جهة المؤمنين ففيه الرحمة، فيه دار النعيم، جنات تجري من تحتها الأنهار، وأما ظاهره وهو ما يقع في جهة الكافرين والمنافقين فيأتي من قبله العذاب، عذاب نار جهنم.

فينادي المنافقون من ظاهر السور المؤمنين وهم في باطنه: ألم نكن معكم في الدنيا فلماذا لا نكون معكم في الآخرة؟.

فيقول لهم المؤمنون: بلى، كنتم معنا في الظاهر، ولكن لم تكونوا معنا في الحقيقة، لقد فتنتم أنفسكم بالكفر، وتربصتم في مواقع الكافرين، وارتبتم فيما

أنزل الله على رسوله، وغرتكم الأماني التي كنتم تتمنونها بسلوككم مسلك النفاق، ولبثتم على حالتكم هذه حتى جاءكم الموت، وأنتم مغترون بوساوس الشيطان.

وفي بيان هذا الذي يكون لهم، وحكاية هذا الحوار الذي يجري بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة، يقول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾.

وإذ يدخلون النار يدفعون إلى الدرك الأسفل منها، لأن كفرهم قد صاحبه مخادعة للمؤمنين ومكر بهم، فهم بسبب هذا أسوأ حالاً من الكافرين الصرحاء المجاهرين في كفرهم. وفي بيان مصيرهم إلى الدرك الأسفل من النار يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾.

ـ ٥ ـ

العـــدل

العدل هو أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره، وأحكام العدل وتطبيقاته إنما هي تنفيذ لما يقتضيه الحق.

ولدى التأمل الدقيق يتبين لنا أن معظم العلاقات المادية وغير المادية بين الناس لها من الحق أصول ثابتة، وحين يتم التقيد بما في هذه الأصول من حق بالعمل أو القول أو الحكم أو وضع القوانين والنظم فذلك هو العدل، إذ بهذا يتساوى الحق والتطبيق العملي، أو يتساوى الحق والقول المبين له، أو يتساوى الحق والحكم المقرر له، أو يتساوى الحق والقانون أو النظام المحدد له.

تعريف العدل:

وعلى هذا نستطيع أن نعرف العدل: بأنه إعطاء كل ذي حق ما يعادل حقه ويساويه دون زيادة ولا نقصان.

ويمكن أن نعرفه: بأنه المساواة بين التصرف وبين ما يقتضيه الحق دون زيادة ولا نقصان.

ومن أجل ذلك كان الميزان رمزاً لإقامة العدل.

وقد لا يقتصر الميزان ـ الذي هو رمز لإقامة العدل ـ على كفتين متقابلتين لوزن الشيء الواحد، بل ربما يكون ميزاناً ذا كفتين أو أكثر من كل جهة من شطري الدائرة الأفقية، وكل كفة في جهة مقادير الحق تقابلها كفة في جهة التقويم بالعدل، ولا تستقيم إشارة العدل ما لم تعادل كل كفة شقيقتها المقابلة لها في الميزان.

ومن عجيب أمر ميزان العدل أن للحق فيه موجباً وسالباً، أما موجب الحق فهو ثقل يرجح الكفة التي يوضع فيها، ولا يتحقق العدل إلا بوضع ثقلٍ معادلٍ له في الكفة المقابلة لها. وأما سالب الحق فهو قوة تطيش بالكفة إلى جهة العلو جاذبةً لها، وبذلك تنخفض الكفة المقابلة لها، ولا يتحقق العدل في هذه

الحالة إلا بوضع قوة في الكفة المقابلة من شأنها أن تجذبها إلى ارتفاع حتى تتعادل الكفتان، وتستقيم في الميزان إشارة العدل.

فهو ميزان يزن الموجب والسالب، أي: يزن الواجب والحرام، يـزن ما هو حق ويزن ما ليس بحق، وتعمل فيه الحركتان الموجبة والسالبة.

ولما كان العدل مرتبطاً بالحق كان لا بد لنا من ملاحظة أن حقوقاً متعددة الجهات قد تتوارد على شيء واحد، وأن لكل جهة منها مقداراً من الحق ذا نسبة خاصة من المجموع الكلي.

ونحاول ضرب مثل موضح للفكرة ومقرِّب للحقيقة، بأن نقول:

إن المال الذي يكتسبه الفرد تتوارد عليه عدة حقوق.

الحق الأول: حق الشخص الذي اكتسبه.

الحق الثاني: حق أصحاب النفقة الواجبة فيه، كزوجة مكتسب المال، وأولاده الصغار، وأصوله وفروعه الفقراء.

الحق الثالث: حق الجماعة والمرافق العامة فيه.

الحق الرابع: حق الفقراء والمساكين ومن يلحق بهم.

وقد تم تحديد هذه الحقوق المختلفة من قبل صاحب الحق كله في كل شيء في الوجود، وهو الله تبارك وتعالى.

فإذا وضعنا ثقل كل حق من هذه الحقوق الأربعة في كفة من كفات ميزان العدل، فسنجد أربع كفات قد رجحت، وكان رجحان كل كفة منها بمقدار ثقل الحق الذي وضع فيها، وهذه الكفات الأربع قد قابلها أربع كفات طائشات، إذ تتطلب كل واحدة منها عطاء في النظـام معادلاً لمقدار ثقل الحق المقابل لها.

وإذْ قد وصلنا إلى هذه المرحلة فإن علينا أن ننظر في نظام الإسلام المتعلق بهذا الموضوع.

وهنا يبدو لنا أن الإسلام قد أعطى كاسب المال من الطرق المشروعة حق

التملك، ولكنه تملك يُلزم معه بدفع سائر الحقوق المتعلقة بهذا المال، فيده عليه يدُ مستأمن ذي و لاية، فإذا خان الأمانة أخذت منه الحقوق بالقوة، من قبل ذي الولاية الأعلى، وكان عُرضة للعقاب.

وأعطى الإسلام من تجب لهم النفقة حقهم من النفقة بالعدل، ووضع المادة التي تمنحهم هذا الحق في الكفة المقابلة لشقيقتها التي وضع فيها ثقل حقهم.

وأعطى الجماعة من المال حصة المرافق العامة، وذلك بالعدل الذي لا إجحاف فيه على حق كاسب المال.

وأعطى الفقراء والمساكين ومن يلحق بهم من المال حصتهم بالعدل أيضاً.

وهكذا بالتوزيع العادل تعادلت الكفات المتراجحة في طرفي الميزان، وبتعادلها جميعاً استقامت إشارة العدل العامة.

شبهة المساواة العامة في مفهوم العدل:

يمكر بعض الماكرين، ويتسرع بعض المنخدعين، فينادون بالمساواة العامة بين الناس جميعاً في كل أمور الحياة، ويرون أن ذلك من العدل.

وهذا خطأ فادح، يؤدي إلى تحقيق أنواع وصور شنيعة من الظلم، تحت شعار العدل، وذلك لأن حقوق الناس في الأصل غير متساوية، فكيف تكون المساواة بينهم من العدل، مع تفاوتهم في الحقوق.

كيف يكون من العدل مساواة الناقص للكامل؟ كيف يكون من العدل التسوية بين المحسن والمسيء؟ كيف يكون من العدل التسوية بين المسلم والمجرم؟ كيف يكون من العدل التسوية بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟.

إن التسوية بين هذه الأمور المتفاوتة في أصلها مجانبة للعدل، وظلم للحق لا ترتضيه العقول.

إن خديعة المساواة يلزم منها أن يعطي المدرس طلابه تقديراً متساوياً،

مهما كان وضع كلٍ منهم، وعندئذٍ ينال المقصر الكسول مثل الدرجة التي ينالها السابق المجد، وهذا ظلم لحق العلم، وظلم لحق السابق المجد.

إن ميزان العدل يزن قيم الأشياء وقيم الأعمال بالاستناد إلى قواعد الحق، فمتى تساوت كفتا الميزان استقامت إشارة العدل، والذي يريد أن يسوي بين الأمور رغم اختلاف قيمتها الذاتية، مثله كمثل من يسوي في القيمة بين الذهب والحجر، على أساس تكافئهما في الثقل المادي، فيضع ذهباً بإحدى كفتي الميزان، ويضع في الكفة الأخرى مثل ثقله حجراً عادياً.

إن العدل عمل شديد الدقة، يحتاج إلى بصر نافذ، ومهارة فائقة، وخبرة بالأشياء والأعمال، ومعرفة بقيمها الذاتية، وإلا اختل ميزان العدل وجار، وجنح صاحبه إلى ظلم كبير شنيع.

وقد يكون من السهل معرفة العدل بين خصمين، لأحدهما دَيْن على الآخر. والمدين غير منكر، فيحكم القاضي بالعدل حين يكلف المدين أن يؤدي ما عليه لدائنه، ومن السهل أيضاً أن نعرف بوجه عام أن من العدل إعطاء كل ذي حق حقه أو ما يعادل حقه ويساويه، ولكن تتعقد المشكلة حين تعرض الحوادث والقضايا، وتخفى جوانب كثيرة منها، ويكون على القاضي فيها أن يحكم بالعدل.

وكثيراً ما يصعب على واضعي الأنظمة والقوانين استبانة وجه العدل في الأمور التي يريدون أن يضعوا لها أنظمة وقوانين، وكم يضعون أحكاماً عامة ثم يلاحظون لدى التطبيق أنها أحكام جائرة ظالمة، وأن العدل يقضي بتعديلها.

ولا بد أن نلاحظ في هذا المقام، أن الشريعة الإسلامية قد وضعت لنا في أحكامها المقاييس والصنجات، التي نقيس بها ونزن قيم الأشياء والأعمال بالاستناد إلى قواعد الحق، فإذا قسنا أو وزنا بها وزناً صحيحاً عرفنا بتوفيق الله وتسديده وجه العدل، ومن أجل ذلك ذخرت الشريعة الإسلامية بأحكام العدل التفصيلية حتى نحسن القياس والوزن.

ومن أجل ذلك أيضاً نبهت نصوص الشريعة الإسلامية على ارتباط ميزان العدل بمقاييس الحق، فمنها قول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

فمن هذا النص نلاحظ أن ميزان العدل مرتبط ارتباطاً أساسياً بمقاييس الحق وموازينه، وعلى مقاييس الحق وموازينه تتم عملية الوزن الصحيح الذي يظهر فيه وجه العدل.

ومثل الشريعة الإسلامية في هذا شرائع الله السابقة التي أنزلها على رسله، قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فرسل الله جميعاً جاؤوا بالبينات، وأنزل الله معهم الكتاب للهداية، وأنزل معهم ميزان العدل، ليقوم الناس بالقسط.

ولما كانت الهداية وإقامة العدل بحاجة إلى قوة مادية تكبح عدوان أعدائهما ذكر الله الحديد، وأعطاه صفةَ أنه منزل من لدنه، لأن الحديد هو أداة القوة المادية وسلاحها المؤدب والمحارب، فقال تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾.

وامتن الله بأن في الحديد منافع أخرى للناس، إضافة إلى منافعه في إقامة العدل بين الناس، وفي الجهاد في سبيل الله لهداية الخلق إلى الحق.

وهكذا دلنا هذا النص على أن الشرائع الربانية كلها قد جاء فيها التوجيه لاستخدام القوة المادية، لإقامة العدل، والجهاد في سبيل الله، بغية ردع الظالمين

الآثمين المعتدين، الذين يظلمون الناس ويقاومون الحق، ويحمون أنفسهم بسلطان القوة المادية.

العدل من صفات محبي الحق ومن صفات المؤمنين:

ولما كان العدل أحد فروع خلق حب الحق وإيثاره، وأثراً تطبيقياً من آثاره، كان لا بد أن نجد الذين يحبون الحق ويؤثرونه قوماً متصفين بخلق العدل، ولذلك نرى أهل الإيمان الصادقين أهل عدل، إذ جعلهم حبهم للحق يؤمنون به؛ فإيمانهم به يدفعهم إلى إقامة العدل، والحكم بالعدل، والشهادة بالعدل، ومعاملة الناس بالعدل، والقول بالعدل، والكتابة بالعدل، إلى غير ذلك مما يدخل فيه العدل والجور.

ولذلك لما أمر الله بالعدل وبالقسط خاطب بأمره الذين آمنوا، إشعاراً بأن العدل من لوازم الإيمان، وبهذا نستطيع أن نفهم التشابك المنطقي بين حب الحق وإيثاره والإيمان وظاهرة العدل.

وحينما يتحول العدل من كونه أثراً من آثار حب الحق، أو ثمرة من ثمرات الإيمان، إلى كونه ظاهرة عملية متكررة في سلوك الفرد، كلما اقتضى الحق والإيمان العمل بالعدل، فإنه يكون حينئذ خلقاً من أخلاقه المتمكنة فيه، وذلك بسبب تكرر التدرب العملي عليه، وعدم الاستجابة لنوازع النفس وشهواتها، وأهوائها، ونوازغ شياطين الإنس والجن.

أما أمر الله الذين آمنوا بالعدل وبالقسط فنجده في نصوص قرآنية متعددة، منها قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

شنآن قوم: بغض قوم. القسط: هو العدل.

من الملاحظ تنوع التعبير في هذين النصين، ففي آية النساء، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾ وفي آية المائدة، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾.

وأرى أن السر في ذلك هو إرادة الدلالة على أن كلًا من القوامة والشهادة يجب أن يكون بالعدل ويجب أن يكون لله، أي: مُبْتَغىً به وجه الله تعالى، فكانت الدلالة على ذلك عن طريق التنويع في التعبير على هذا الشكل من ألطف الدلالات وأعذبها بياناً.

وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾: أمرٌ للمؤمنين بأن يكون العدل خلقاً من أخلاقهم، وذلك لأن صيغة (قوَّام) هي صيغة مبالغة لقائم، فإذا قلنا: فلانٌ قوَّام بالعدل، دل هذا القول على أن القيام بالعدل من الأخلاق المتمكنة فيه، فكلما اقتضاه الحق والواجب أن يعمل بالعدل فإنه يعمل بالعدل، فيكون القيام بالعدل من سجاياه، وحين نرى إنساناً يعمل بالعدل في كل الأحوال التي يستدعي الحق والواجب العمل فيها بالعدل فإننا نقول دون تردد: إن العدل خلقٌ من أخلاقه.

إذن فالله تبارك وتعالى يأمر الذين آمنوا بأن يكون العدل خلقاً ثابتاً من أخلاقهم.

العدل من الأسس العامة لأحكام الشرائع الربانية:

حين نبحث عن الأسس العامة لأحكام الشرائع الربانية يتبين لنا أن العدل أحد هذه الأسس، لا سيما ما يتعلق من أحكام الشرائع بتنظيم علاقات

الناس المادية والأدبية والسياسية، لضمان حقوقهم، ومصالحهم، فمستند هذه الأحكام مما تدعو إليه وتقتضيه مكارم الأخلاق.

وفي النص الكلي الجامع يقول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

ومن هذا يظهر لنا، أن الشريعة الإسلامية حين قررت أحكامها ونظمها المنظمة لعلاقات الناس المادية والأدبية والسياسية؛ راعت فيها أن مكارم الأخلاق توجبها أو تحسنها، وتحرم أضدادها، أو تقبحها، فهي نظم بوصفها أحكاماً منظمة، وهي عند تطبيق الأفراد قد تكون أيضاً ظواهر سلوكية لأخلاق كريمة متمكنة في نفوسهم، وعند تدريب المؤمنين عليها تهدف التربية الإسلامية إلى جعلها فيهم أخلاقاً مكتسبة.

ولدى تحليل الترابط وتوجيه الأطراف يتبين لنا ما يلي:

١ ـ العدل ظاهرة من ظواهر تطبيق الحق.

٢ ـ فإذا قررت وجوبه الأحكام والشرائع أو تواضع عليه الناس كان نظاماً أو قانوناً.

٣ ـ وإذا أحبته القلوب والنفوس حباً موجهاً للسلوك ومتحكماً فيه، كان خلقاً.

٤ ـ وإذا كان الدافع لتطبيقه لدى الأفراد الخوف من مخالفة النظام، ومما يترتب على المخالفة من عقاب، كان تطبيقاً للنظام، ويمكن بالتكرار والالتزام الدائم أن يتحول فيكون خلقاً بعد أن يكون عادة.

٥ ـ وإذا كان الدافع لتطبيقه باعثاً خلقياً أصيلاً في النفس، كان ظاهرة خلقية، ومتى كان كذلك فلا بد أن يكون مكيناً في السلوك.

٦ ـ وإذا ابتغيت به مرضاة الله كان ديناً وعبادة لله وطاعة له وسبباً في اكتساب الأجر العظيم عنده.

المجالات التي يدخل فيها العدل:

إن المجالات التي يدخل فيها العدل أو الجور والظلم كثيرة، فمنها المجالات التالية:

(أ) الولاية على الناس، سواء أكانت ولاية خاصة أو ولاية عامة، فيجب أن تتبع فيها قواعد العدل التي أمرت بها شريعة الله لعباده.

ومن العدل في الولاية إسناد الأعمال إلى أهلها الأكفياء للقيام بها، أما إسنادها إلى غير أهلها الأكفياء فمجانبة لسبيل العدل.

ومن العدل في الولاية إعطاء المستحقين ومنع غير المستحقين، وإتاحة الفرص لجميع الأفراد بحسب كفاياتهم.

(ب) القضاء، فيجب أن تتبع في القضاء قواعد العدل التي أمرت بها شريعة الله لعباده.

ويكون في الفصل بين الخصماء بإعطاء كل ذي حق حقه أو ما يساويه، وبإلزام الذي عليه الحق بأن يدفعه أو يدفع ما يساويه إلى مستحقه.

ويكون بالتسوية بين الخصماء في مجلس القضاء.

ويكون بإقامة الحدود والجزاءات والقصاص بالمقدار الذي يكافىء ذنب المذنب، ويكافىء حق الله على عباده، أو حق الناس على الناس.

(ج) الشهادة، فيجب أن تكون الشهادة بالعدل، وذلك بأن يشهد الشاهد شهادة مساوية لما رأى أو سمع في الأمر الذي يشهد به.

(د) الكتابة، فيجب أن يكتب كاتب الحقوق بالعدل، وذلك بأن يكتب كتابة مساوية تماماً لما يمليه عليه أصحاب العلاقة فيها، ومساوية للحق الذي يعلمه فيها.

(هـ) معاملة الزوجات، فيجب أن يعامل الرجل زوجاته بالعدل، وذلك بأن يعطي كلاً منهن نصيبها من النفقة والسكن والمبيت بالعدل.

(و) معاملة الأولاد، ويكون العدل في معاملة الأولاد بالتسوية بينهم بالعطاء، والتربية، والبِشْر، وغير ذلك مما يملكه الإنسان.

(ز) الكيل والميزان، ويكـون العدل في الكيـل والوزن بـأن يكيل ذو الكيل ويزن ذو الوزن بالقسطاس المستقيم، وبما يساوي الحق الذي تم عليه التراضي.

(ح) الأنساب، ويكون العدل في الأنساب بأن ينسب الإنسان إلى أبيه الذي ولده، لا إلى آخر يتبناه، فنسبته إلى غير أبيه شهادة كاذبة، غير مساوية للواقع، وتفضي هذه النسبة الكاذبة إلى استيلائه على ما لا حق له به من ميراث وغيره، وهذا عدوان على أصحاب الحقوق، ومجانبة ظاهرة لمقتضى العدل، ولذلك قال الله في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: هو أعدل عند الله.

(ط) الإصلاح بين الفئات المتقاتلة من المسلمين، فيجب اتباع قواعد العدل في الإصلاح بين الناس.

إلى غير ذلك من أمور تتطلب عدلاً بقدر حقوق أصحاب الحقوق فيها.

نصوص إسلامية في الأمر بالعدل:

لدى تتبع القرآن الكريم وأقوال الرسول صلوات الله عليه نجد نصوصاً كثيرة تأمر بالعدل، فمنها ما هو عام، ومنها ما هو خاص في مجال من المجالات التي يدخل فيها العدل والجور.

وفيما يلي طائفة من هذه النصوص مع تدبر ما اشتملت عليه من دلالات:

١ ــ يخاطب الله رسوله بقوله في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ . . . ۝١٥ ﴾.

فقد أمر الله رسوله محمداً في هذا النص بأن يعلن أن الله قد أمره بإقامة شرائع الإسلام وأحكامه ليعدل بين الناس.

ففي جملة: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ محذوف يمكن تقديره على الوجه التالي: وأمرت بإقامة شرائع الإسلام وأحكامه لأعدل بينكم، أو وأمرت بأوامر كثيرة لأعدل بينكم. والغرض من هذا الحذف إرادة العموم، وذلك حتى يعم المأمور به كل النصوص الربانية التي يحقق تطبيقها مبدأ العدل.

وقد دل هذا النص على أن شرائع الإسلام وأحكامه إذا أقيمت كما أمر الله تحقق مبدأ العدل بين الناس، لما فيها من مراعاة للعدل الذي هو من أجلّ الأصول العامة التي يقضي العقل السديد بضرورة مراعاتها، في جميع النظم والأحكام والشرائع التي تنظم معاملات الناس.

٢ ــ ويخاطب الله الذين آمنوا بقوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

لا يجرمنكم: لا يحملنّكم. شنآن قوم: بغض قوم.

فالله تعالى يكلف الذين آمنوا أن يكونوا قوامين لله، أي: يبتغون مرضاة الله في قوامتهم، ومرضاته إنما تتحقق باتباع أوامره واجتناب نواهيه، والله يأمر بالعدل، وينهى عن البغي.

ويكلف الذين آمنوا أيضاً أن يكونوا شهداء بالقسط، أي: بالعدل.

فالمؤمنون مأمورون بأن يكونوا في أحكامهم وأقضيتهم ورعايتهم لمن تحت أيديهم وفي سائر شؤونهم قوامين لله، لا لأنفسهم وشهواتهم، وما توسوس به الشياطين. وهذه مسؤولية عظيمة في الحياة، يضعها الله في أعناق المؤمنين، ومهما

أعطاهم الله سلطة قوامة على الناس فعليهم أن يكونوا قوامين لتنفيذ شريعة الله التي تأمر بإقامة العدل.

وصيغة (قوَّامين) تشعر بضرورة المبالغة والحرص الشديد على التزام أحكام الله في سلطة القوامة، لأنها من صيغ المبالغة.

وإذا كانوا قوامين لله، أي: قوامين على الناس لتنفيذ شريعة الله التي تأمر بالعدل، فإن عليهم أن يكونوا شهداء بالقسط، كلما كان تثبيت الحق متوقفاً على شهادة يشهدون بها. وفي أداء الشهادة يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

ونهى الله الذين آمنوا أن يحملهم بغضهم لقوم على أن لا يعدلوا معهم، فقال تعالى في الآية: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا﴾.

وفي استخدام كلمة «لا يجرمنكم» بمعنى «لا يحملنكم» إشعارٌ بأن الدافع إلى ترك العدل فيه ما يحمل على ارتكاب جريمة الظلم أو الجور أو العدوان، وذلك لأن من يبغض قوماً فيحمله بغضه على أن يكون ظالماً لهم، أو جائراً عليهم، أو معتدياً على حقوقهم، في قوله، أو فعله، أو حكمه وقضائه، لا بد أن يركب مركب الجريمة. فإذا مزجنا شيئاً من معنى الجريمة في عبارة «لا يحملنكم» كانت مساوية لعبارة «لا يجرمنكم».

وفي استخدام كلمة «شنآن» بمعنى البغض إشعارٌ بأن البغض بغض شديد مضطرب متحرك، يغلي في القلوب فيحمل على الجور أو الظلم أو العدوان، فالقرآن لم يستعمل كلمة البغض لأنها تصدق بالقليل منه والكثير، والساكن منه والمتحرك، وإنما استعمل كلمة «شنآن» ولم يستعمل مصدراً آخر من المادة نفسها، إذ يقال لغة: «شنأه شَنْأً وشَنْأَةً» إذا أبغضه، وإنما استعمل مصدر «شنآن» بهذه الصيغة الطويلة الدالة على الحركة والاضطراب.

ولدى التحليل يتبين لنا أن الدافع إلى مجانبة العدل إما عاطفة كراهية للجهة التي جرى الظلم أو الجور ضدها، وإما عاطفة حب أو شفقة، أو عصبية للجهة التي جرى الظلم أو الجور من أجلها، وقد حذر هذا النص من أن تحمل عاطفة الكراهية مهما كانت شديدة على تجاوز واجب العدل. وسيأتي في آية النساء التحذير من أن تحمل العواطف الأخرى على تجاوز واجب العدل.

ثم قال تعالى مؤكداً الأمر بالعدل: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾.

وفي كون العدل مع الأعداء الذين نبغضهم أقرب للتقوى احتمالان:

الأول: أن يكون أقرب إلى كمال التقوى، وذلك لأن كمال التقوى يتطلب أموراً كثيرة، منها هذا العدل، والأخذ بكل واحد من هذه الأمور يقرب من منطقة التقوى الكاملة.

الثاني: أن يكون أقرب إلى أصل التقوى فعلاً من ترك العدل مع الأعداء ملاحظين في ذلك مصلحة للإسلام وجماعة المسلمين، وذلك لأنه قد يشتبه على ولي الأمر من المسلمين في قضية من القضايا المتعلقة بعدوٍ من أعدائهم، هل التزام سبيل العدل معه أرضى لله؟ أو ظلمه هو أرضى لله باعتباره معادياً لدين الله؟ وأمام هذا الاشتباه يعطي الله منهج الحل فيقول: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: مهما لاحظتم أن ظلمه لا يتنافى مع التقوى فالعدل معه أقرب للتقوى.

ولا يخفى أن من ثمرات هذا العدل ترغيب أعداء الإسلام بالدخول فيه، والإيمان بأنه هو الدين الحق، وكم من حادثة عدل حكم فيها قاضي المسلمين لغير المسلم على المسلم اتباعاً للحق، فكانت السبب في تحبيبه بالإسلام ثم في إسلامه.

ويبدو هذا الوجه قوياً راجحاً، وأنه هو المراد، والله أعلم.

ومن تطبيقات المؤمنين لذلك: ما كان من (عبدالله بن رواحة) لمّا بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق

بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم!!

فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

ثم أمر الله بالتقوى في كل الأحوال، وفي كل الشؤون، ومعلوم أن قضية العدل واحدة منها، فقال تعالى: ﴿واتقوا الله﴾.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ وفي هذا إشارة ضمنية إلى قانون الجزاء، وذلك لأن التذكير بأن الله خبير بما يعمل الناس في مثل هذا المقام، يشعر بأنه سيجازيهم على أعمالهم، ولن يضيع عليه شيء من أمورهم.

٣ ــ ويخاطب الله الذين آمنوا بقوله تبارك وتعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

صدر هذه الآية كصدر آية المائدة السابقة بفارق واحد، هو تبادل كلمتين فيه مواضعهما هما: بالقسط ــ لله.

كونوا قوامين لله شهداء بالقسط... (آية المائدة).

كونوا قوامين بالقسط شهداء لله... (آية النساء).

والسر في هذا هو الدلالة على الإلزام بأن تكون القوامة والشهادة كلاهما لله وبالقسط، فالمؤمنون مأمورون بأن يكونوا قوامين لله وبالقسط، وبأن يكونوا شهداء لله وبالقسط، وذلك لأنه ربما يكون القسط لغير الله، فيكون حسناً في الحياة الدنيا، ولكن لا ثواب له عند الله، لأنه لم يبتغ به وجهه.

ومراعاة للأسلوب البياني البديع، جاءت الآيتان على هذا الشكل من التنويع، ليؤخذ من مجموعهما الدلالة المطلوبة، وهذا من التكامل في النصوص القرآنية.

ومما يدهش في أسس التعاليم الإسلامية أن المؤمنين مطالبون بأن يكونوا قوامين لله وبالقسط وشهداء لله وبالقسط، ولو كان ذلك ضد أنفسهم أو الوالدين والأقربين، فأي إنصاف أعظم من هذا الإنصاف، وأي عدل أجل من هذا العدل وأروع، وأي قوامة في العالم أقدس من هذه القوامة المؤمنة بالله.

وإذ عالجت آية المائدة دافع البغض والكراهية الذي يحرض على مجانبة سبيل العدل، فقد عالجت آية النساء التي نتدبرها الآن دوافع الحب والشفقة والعصبية، التي تحرض أيضاً على مجانبة سبيل العدل. ومن أبرز أمثلة الحب حب الإنسان نفسه ووالديه والأقربين، ومن أبرز أمثلة العصبية عصبية الإنسان لوالديه والأقربين، ومن أبرز أمثلة الشفقة شفقة الإنسان على الأقربين الفقراء، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾.

فالمؤمن الصادق الإيمان يكون قواماً لله وبالقسط، ويشهد لله وبالقسط، ولو كان ضد نفسه، أو والديه، أو الأقربين.

ولّما كان من أسباب المحاباة التي تدفع إلى مجانبة سبيل العدل الشفقة على الخصم الفقير، قال تعالى: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾.

فقد يكون صاحب الحق الواضح غنياً ويكون خصمه فقيراً ذا حاجة، وفي هذه الحال قد ينحاز الحاكم أو القاضي أو الشاهد إلى جانب الفقير شفقة عليه، وهو يعلم أن الغني هو صاحب الحق، وهذه خديعة شيطانية لتبرير الجور والظلم، إن الحق هو الذي يجب اتباعه، ولا يجوز أن يكون الجور وسيلة لمساعدة الفقراء ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ فالله أولى وأحق بتقدير حال كلٍّ من الخصمين غنياً كان أو فقيراً.

ثم قال تعالى: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي: فلا تتبعوا هوى أنفسكم متجاوزين ما يجب عليكم من العدل، زاعمين أنكم تفعلون خيراً، فالحق أحق أن يتبع، فالجارّ المقدر قبل (أن يعدلوا) هو (عن) الدال على معنى التجاوز.

ويختم الله الآية بالتعريض بالعقاب لمن يلوي رأسه عن أمر الله بالتزام سبيل العدل، أو يعرض إعراضاً كلياً، بأن يؤتي عُرضه، أي: جانبه. فيقول سبحانه: ﴿وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وإن تلووا أو تعرضوا﴾ تحذير من أمرين:

الأول: اللَّيُّ في الشهادة أو الحكم، وهو التحريف والتغيير، من قولهم: لوى الشيء إذا فتله وغيّر استقامته.

والثاني: الإعراض، ويكون بكتمان الشهادة، أو الحكم بغير العدل.

٤ ــ ويخاطب الله الذين آمنوا بقوله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾﴾.

فهذه الآية تلزم كل من يتولى حكماً بين الناس أن يحكم بالعدل، أما المراد بالأمانات التي يجب تأديتها إلى أهلها فهي كل الأمانات وفي مقدمتها أمانات ولاية أمور المسلمين، فالله تعالى يأمر الذين آمنوا في هذا المجال بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، أي: بأن يؤدوا ولاية أمور المسلمين إلى من هم أكفياء لها، قادرون على ضبطها وحسن إدارتها، وصيانة حقوق الناس، وإقامة العدل بينهم، وقادرون على جمع كلمتهم وتوحيد صفهم وصدِّ عدوهم، وإقامة شرع الله، ونشر دينه في الناس.

ومن تأدية الأمانات إلى أهلها أن يقوم أصحاب الولاية الكبرى بإسناد الولايات الصغرى إلى أهلها الأكفياء لها، دون محاباة ولا اتباع هوى.

فاشتملت الآية على بيان الوظيفة الأولى للرعية، وهي أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وذلك بأن يبايعوا الأكفياء للولاية العامة الكبرى. واشتملت على بيان الوظيفةالأولى والوظيفة الثانية للراعي. أما الأولى فهي أن يؤدي الأمانات إلى أهلها بإسناد الولايات الصغرى إلى أهلها الأكفياء لها الأمناء عليها، وأما الثانية فهي أن يحكم بين الناس بالعدل.

وجاء الترتيب في الآية وفق الترتيب الطبيعي، فالرعية عامة هي السلطة الأولى للتولية، فإذا وسد الأمر إلى الرعاة كانوا هم أصحاب سلطة الحكم والإدارة.

والسر في تسمية الولاية على الناس أمانة، أن الولاية تحتاج إلى أكبر مقدار من الأمانة، فهي مسؤولية لا تعادلها مسؤولية أخرى.

إذا كانت وديعة المال تحتاج إلى أمانة من يودع عنده، حتى سمى الناس المال المودع أمانة، وإذا كانت الشركة تحتاج إلى أمانة، وإذا كانت العارية تحتاج إلى أمانة، وإذا كانت الأعراض والأرواح تحتاج إلى أمانة، فما بالك بمن يوضع تحت سلطته العامة أموال الناس وأرواحهم وأعراضهم ومساكنهم وبلادهم وقوتهم وسائر مقدراتهم، ويكون باستطاعته بحكم سلطانه تنفيذ ما يريد.

ولمّا كانت الولاية العامة من أعظم المسؤوليات في الحياة، وكانت دواعي الإغراء بمجانبة سبيل العدل وخيانة الأمانة فيها من أشد الدواعي وأقواها، كان ثواب الإمام العادل من أعظم الأجور عند الله، وكانت فضيلة العدل منه من أعظم الفضائل.

ولذلك جاء ذكر الإمام العادل في أول الأصناف الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وبعد أن أمر الله الذين آمنوا بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل؛ أثنى على ما تضمنه هذان الأمران، وأبان أنه موعظة مفيدة ونافعة، وذلك لما في أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل من

دوام لوحدة الجماعة، وبقاء للحكم وصيانته وسلامته، وحمايته من أعدائه المفسدين، فقال تبارك وتعالى: ﴿إن الله نعمّا يعظكم به﴾.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ إشعاراً بأن الله سميع لشكاوى المظلومين الذين لا يُعاملون بالعدل، بصير بأعمال الظالمين الجائرين، وفي هذا تعريض بقانون الجزاء الإلهي الذي لا يفلت منه ظالم ولا جائر.

٥ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالقسط في الكيل والميزان، وبالعدل في القول ولو كان يُدين بالحق ذا قربى.

(أ) أما القسط في الكيل والميزان فهو أمر يوجبه الحق، والعدل في هذا المجال مرتبط بالحق كشأن ارتباط العدل بالحق في كل الأمور، فمن ثبت له حقٌّ بمقدار من الكيل أو مقدار من الوزن وجب أن يوفى له بالقسط دون وكس ولا نقص.

فحين يتم ــ مثلاً ــ التراضي الحرّ بين المتبايعين على مقدار ما كيلاً كان أو وزناً، فإن حق كل من المتبايعين تحدد بما تم عليه التراضي، وحينئذ يجب أن يكون الكيل أو الوزن بالمقدار المعادل تماماً لما ثبت عليه الحق، وما زاد عليه فهو عطاءٌ من قبل الباذل، وهو إحسانٌ يؤجر عليه، سواء أكان من السلعة المشتراة أو من الثمن المحدد لها، أما النقص فهو إخسار وتطفيف وظلم، وقد أنذر الله المطففين بالعذاب الأليم فقال تعالى في سورة (المطففين ٨٣):

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

والتطفيف يعاقب الله عليه بعقوبتين: عقوبة معجلة في الدنيا كمحق البركة وتسليط المتلفات للمال، وعقوبة مؤجلة إلى يوم الجزاء الأكبر، إذ يقيم الله يومئذ كمال عدله في خلقه.

وفي قول الله تعالى في الآية: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وذلك بجعل الكيل وافياً بحق من يكال له، وبجعل الوزن وافياً بحق من يوزن له، من غير بخس أيّ مقدار مهما قل، كيلاً أو وزناً. يقال لغة: أوفى البائع الكيل والميزان إذا أتمهما ولم ينقص منهما شيئاً.

ولكن قد لا يستطيع الإنسان أن يكون موفياً على الحقيقة في كل كيل أو وزن، لدقة المكيل أو الموزون، أو لكثرته وعظمه، أو لعدم وجود المكيال أو الميزان المحرر تماماً، وعندئذ يكون معذوراً لعدم استطاعته، وخروج الأمر عن دائرة التكليف ولذلك قال الله تعالى في عقب هذا الأمر: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾.

ونظير الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط الوارد في هذه الآية ما جاء في قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

إلا أن في هذه الآية توجيهاً خاصاً إلى ضرورة كون الموازين مضبوطة قويمة، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ وذلك لأن القسطاس اسم لأعدل الموازين وأقومها، ومنه يستفاد ضرورة كون المكاييل كذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ فيه إلماح إلى نقطتين:

الأولى: أن إيفاء الكيل والميزان من أعمال الخير، وذلك لما فيه من تأدية الحقوق إلى أهلها، وهو من الخير، ولما يترتب عليه من خير في التعايش الجماعي بين الناس، ثم لما ينجم عنه من ثواب عند الله هو خير.

الثانية: أن إيفاء الكيل والميزان أحسن تأويلاً، أي: أحسن ترجيعاً في عاقبة أمره، وذلك لأن كل عمل في الحياة له تأويل، أي: ترجيع على فاعله، وترجيع فعل الخير خير، وترجيع فعل الشر شر، إلا أن ترجيع فعل الخير مضاعف كماً وكيفاً، إذ هو مشمول بالفضل الرباني.

أما ترجيع فعل الشر فشر مماثل له، إذ هو مشمول بقانون العدل الرباني.

وقد عُرف قوم شعيب عليه السلام ــ وهم سكان مدين ــ بأنهم كانوا من المطففين الذين يظلمون الناس في الكيل والميزان، وقد جاء في القرآن بيان هذا من عملهم في ثلاثة مواضع، منها قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

(ب) وأما العدل في القول فهو أمر يوجبه الحق أيضاً في كل قول يدخل فيه العدل والظلم، كالعدل في الشهادة، والعدل في إصدار الأحكام، والعدل في مخاطبة الجماعة؛ وذلك بإعطاء كل واحد منهم ما يستحق من خطاب، وغير ذلك. ولمّا كان القول مجالاً يدخل فيه العدل والظلم أمر الله بالعدل في القول، في آية الأنعام التي نتدبرها، فقال تعالى: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾.

أي: ولو كان من نتكلم له أو عليه ذا قربى، فلا يجوز أن يدفعنا حبه أو التعصب له إلى أن نجانب سبيل العدل، سواء بالزيادة على الحق، أو بالنقصان منه.

ثم أمر الله في الآية بالوفاء بعهده، فقال تعالى: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾.

ومن الوفاء بعهد الله العمل بشرائعه بعد إعلان الإسلام الذي هو عهد مع الله على الطاعة.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ فدل على أن هذه الأوامر قد تضمنت وصايا بفضائل تدركها العقول، وتشعر بحسنها الضمائر، ولا تحتاج أكثر من تذكير بها، وتنبيه عليها، فليست من الأمور الخفية أو الغيبية التي تحتاج إلى تعليم، بل من الأمور المدركة التي تحتاج الغفلة عنها إلى تذكير ﴿لعلكم تذكرون﴾.

٦ ــ ويقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ . . . ﴿٢٨٢﴾ ﴾.

لمّا كان العدل يدخل في مجال الكتابة، ككتابة صكوك العقود والمداينات والمعاملات والمعاهدات، وغير ذلك من أمور كثيرة، أمر الله تعالى كاتب الحقوق أن يكتب بالعدل، فقال تعالى: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾.

ولم تقتصر الآية على تكليف الكاتب أن يكتب بالعدل، بل كلفت الذي عليه الحق أن يملي أقواله على الكاتب مراعياً جانب العدل فيما يمليه، فلا يبخس من الحق الذي عليه شيئاً؛ فإن كان غير أهلٍ لأن يملي فوليّه هو الذي يملي عنه، وعلى الولي في إملائه أن يراعي جانب العدل أيضاً.

ولمّا كان من العدل لتثبيت الحقوق، كتابة الأمور الكبيرة والصغيرة المتعلقة بعقود المداينات ونحوها، وجّه الله لضرورة كتابة هذه التفصيلات، فقال تبارك وتعالى في تتمة الآية السابقة المعروفة بآية المداينة:

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ . . . ﴿٢٨٢﴾ ﴾.

وتزداد روعة هذا التوجيه حينما نلاحظ الأسباب الداعية إليه وهي الأسباب التي لخصتها الآية بثلاث نقاط:

الأولى: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ذلكم أقسط عند الله﴾ أي: أكثر التزاماً بالقسط، وهو العدل، لأن ذكر جميع التفصيلات يحدد الحقيقة تماماً، ويبعد عن الخلاف في المستقبل.

الثانية: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وأقوم للشهادة﴾ أي: أكثر تقويماً وتعديلاً لشهادة الشهود، عند التحمل، وعند دعوتهم لأداء الشهادة إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

الثالثة: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وأدنى أن لا ترتابوا﴾ أي: إن كتابة كل صغيرة وكبيرة في العقود والصكوك من شأنها أن تصرف عنكم الشكوك في المستقبل وذلك لأن الإنسان كثير النسيان، فإذا لم يسجل الحقوق دخل الشك إلى قلبه.

٧ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

«تفيء إلى أمر الله»: أي ترجع عن بغيها وظلمها إلى أمر الله بالعدل والاستقامة، والفيء في اللغة هو الرجوع، ولذلك يسمى الظل بعد الظهر فيأً، لأنه يرجع من جهة المغرب إلى جهة المشرق.

فمن المجالات التي يدخل فيها واجب العدل الإصلاح بين الفئات المتنازعة المتقاتلة من المسلمين، ويكون العدل في الإصلاح هذا بالمحافظة على حق كلٍّ من الطائفتين، بلا جور على إحداهما انحيازاً للأخرى من غير حق.

وإلحاحاً على جانب العدل في هذا الإصلاح قال الله تعالى: ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾.

والأمر بالقسط هو أمر بالعدل، والمؤمن حريص على أن يظفر بحب الله له ﴿إن الله يحب المقسطين﴾.

٨ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

فوجه الله لضرورة العدل في الشهادة، لأنها من وسائل تثبيت الحقوق وضمانها، وأرشد إلى ضرورة إشهاد شهيدين اثنين ذوي عدلٍ، في كل الأمور التي تستدعي إثبات حقوق فيها، وتستدعي ضمانها.

فهذا حل عقد الزواج قد أرشد الله فيه إلى ضرورة الإشهاد، وأن يكون الشاهدان ذوي عدل من المسلمين، ومثل ذلك الإشهاد في المداينات، والإشهاد في الوصايا، والإشهاد في عقود النكاح، والإشهاد في البيوع الكبيرة ونحو ذلك.

ويشترط في الشهود: أن يكونوا من المعروفين بأنهم ذوو عدل توافرت فيهم العدالة في السلوك، وذوو عدل في أحكامهم وأقوالهم، وشهاداتهم، وغير ذلك.

٩ ــ ويقول الله تعالى لرسوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ . . . ﴿٢٩﴾ ﴾.

فأمر الله رسوله أن يعلن للناس، أن الله ربه قد أمر بالقسط، فالله هو الحق، ويأمر بالحق، والعدل مرجعه الحق فهو يأمر به جل وعلا.

ـ ٦ ـ
الأمـــانـــة

تعريف بالأمانة:

الأمانة أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره، وهي ضد الخيانة.

والأمانة في جانبها النفسي خلق ثابت في النفس يعف به الإنسان عما ليس له به حق، وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس، ويؤدي به ما عليه أو لديه من حق لغيره، وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس.

فمن تهيأ له أن يهضم ديناً عليه دون أن يكون لدى الدائن ما يثبت به حقه، فعف عن ذلك ولم يفعل وأدى ما عليه من حقٍّ كاملاً غير منقوص فهو أمين حقاً.

ومن تهيأت له فرصة اختلاس أموال غيره دون أن يشعر به أحد من الناس، ودون أن يكون عرضة لاكتشاف لصوصيته، فعف عن ذلك ولم يفعل، فإنما ذلك أثر من آثار الأمانة في نفسه.

ومن كان يؤدي الودائع التي عنده لأصحابها، مع أن أصحابها لا يملكون وثائق بها عليه، فهو أيضاً إنما يفعل ذلك بدافع خلق الأمانة الذي يتحلى به.

ولا تقتصر الأمانة على العفة عن الأموال، بل العفة عن كل ما ليس للإنسان به حق هي أيضاً داخلة في حدود الأمانة، أو أثر من آثارها.

فالعفة عن العدوان على الأعراض من الأمانة، والعفة عن العدوان على الحقوق العلمية من الأمانة، والعفة عن الغش وتطفيف الكيل والميزان من الأمانة، والعفة عن الغلول[1] من الأمانة، وتبليغ الرسائل الكتابية أو اللفظية إلى أصحابها من الأمانة، وتأدية حق النصيحة لكل مسلم من الأمانة، وتأدية

---

(١) الغلول: هو العدوان على الأموال العامة للمسلمين.

حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمانة. وتأدية العبد حق ربه عليه من الأمانة، كالعبادات المفروضة والطاعة الواجبة، وكف العبد نفسه عما حرم الله عليه من الأمانة، لأن العبد المكلف مستأمن على ما وضع الله بين يديه وما وضع تحت سلطته من أشياء، سواء أكانت داخلة في حدود ذاته أو خارجة عنها، فالحق في كل ذلك هو لله وقد استأمن الله عباده عليها، فأذن لهمْ بأشياء وحرم عليهم أشياء، فمن تجاوز حدود الإذن الإلهي فاعتدى على ما ليس به حق فقد خان الأمانة، فالطاعة لله من الأمانة، والمعصية لله من الخيانة.

ومن الأمانة إعطاء كل ذي حق حقه، فالعدل من الأمانة، والجور والظلم من الخيانة. ومن الأمانة الاهتمام بأن يحفظ المستأمنون ما تحت أيديهم من حقوق لغيرهم، حتى يؤدوها إلى أصحابها وهي على حالتها حينما استؤمنوا عليها، ما لم يكن مرور الزمن يغير منها بصفة طبيعية معلومة.

وهكذا تتعدد مجالات خلق الأمانة وتتسع دوائرها.

ولمّا كانت الأمانة مرتبطة بمبدأ الحق كان من يحب الحق ويؤثره يجد نفسه مدفوعاً لأن يكون أميناً على حقوق الآخرين، وإن تحركت مطامعه أو شهواته للاستيلاء عليها.

والأمانة مصدر كالأمان، والأمان من الأمن وهو ضد الخوف، وحين تنعدم مسببات الخوف يحصل الأمان في النفوس. ولمّا كان الأمين إنساناً مأمون الجانب لا يُخشى عدوانه على حقوق غيره كانت ساحته ساحة أمان، ليس فيها أي مثير للخوف على المال، أو على العرض، أو على الحياة، ولذلك سميت الخصلة التي يتحلى بها الأمين على حقوق الآخرين أمانة، ولمّا كانت هذه الخصلة داخلة في ميدان الأخلاق كانت إحدى الفروع الأخلاقية، ولمّا كان أساسها الحق كانت إحدى الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره.

وقد ظهر لنا من تعريف الأمانة أنها تشتمل على ثلاثة عناصر:

الأول: عفة الأمين عمّا ليس له به حق.

الثاني: تأدية الأمين ما يجب عليه من حقٍّ لغيره.

الثالث: اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه من حقوق غيره، وعدم التفريط بها والتهاون بشأنها.

موقف الإسلام من خلق الأمانة:

لقد فرض الإسلام على المسلمين الأخذ بخلق الأمانة، وحرم عليهم أن يسلكوا مسلك الخيانة، فمن كان أميناً كان مطيعاً لربه في إسلامه، ومن كان خائناً كان عاصياً لربه في إسلامه، وربما وصل إلى حالة كان فيها مجروح الإسلام والإيمان.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

«بوائقه» أي: غوائله وخياناته.

وروى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

وروى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه قال: قلّما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

فربط رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث الأمانة وكون الإنسان مأمون الجانب بالإيمان، وجعل عدم الأمانة مؤثرة في صحة الإيمان.

وجعل الرسول صلوات الله عليه الخيانة من علامات النفاق فمن ذلك ما روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

وما روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال

رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

فالأمانة من صفات المؤمنين، وهي من صفات محبي الحق.

الأمانة من أبرز أخلاق الرسل:

من الملاحظ في أسس العقيدة أن الأمانة من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأنها شرط أساسي لاصطفائهم بالرسالة، فلولا أن يكونوا أمناء لما استأمنهم الله على رسالاته لخلقه.

ففي شأن هود عليه السلام يقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

فعرض هود لقومه من صفاته أنه أمين، وهذه الصفة من صفاته لا بد أن تكون معروفة لديهم قبل أن يبعثه الله رسولاً، ومن شأن الأمين أن يكون موثوقاً به في نقل الأخبار وتبليغ الرسالات.

ويقص الله علينا قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام في سورة (الشعراء) ويخبرنا بأن كل رسولٍ من هؤلاء قد قال لقومه: «إني لكم رسول أمين».

ورسولنا محمد ﷺ قد كان في قومه قبل الرسالة وبعدها مشهوراً بينهم بأنه الأمين، فكان خلق الأمانة من الأخلاق الظاهرة البارزة فيه صلوات الله عليه، حتى كان الناس يختارونه لحفظ ودائعهم عنده، ولما هاجر صلوات الله عليه وكَّل علي بن أبي طالب برد الودائع إلى أصحابها.

وجبريل عليه السلام أمين الوحي، وقد وصفه الله بذلك في قوله في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

ولولا صفة الأمانة فيه لما حصلت الثقة بما يبلغ عن الله من شرائع، ولما اصطفاه الله لحمل رسالاته إلى رسله من البشر.

وكذلك حال الرسل من البشر، لولا صفة الأمانة فيهم لما حصلت الثقة بما يبلغون عن ربهم، ولما اصطفاهم الله لحمل رسالاته للناس.

المجالات التي تدخل فيها الأمانة:

والمجالات التي تدخل فيها الأمانة والخيانة كثيرة، منها المجالات التالية:

(أ) **الأموال**، فمن الأمانة العفة عما ليس للإنسان به حق من المال، وتأدية ما عليه من حق لذويه، وتأدية ما تحت يده منه لأصحاب الحق فيه. وتدخل في البيوع والديون والمواريث والودائع والرهون والعواري والوصايا وأنواع الولايات الكبرى والصغرى وغير ذلك.

(ب) **الأعراض**، فمن الأمانة في الأعراض العفة عما ليس للإنسان به حق منها، وكف النفس واللسان عن نيل شيء منها بسوء، كالقذف والغيبة.

(ج) **الأجسام والأرواح**، فمن الأمانة في الأجسام والأرواح كف النفس واليد عن التعرض لها بسوء من قتل أو جرح أو ضرٍّ أو أذى.

(د) **المعارف والعلوم**، فمن الأمانة في المعارف والعلوم تأديتها دون تحريف أو تغيير، ونسبة الأقوال إلى أصحابها وعدم انتحال الإنسان ما لغيره منها.

(هـ) **الولاية**، فمن الأمانة في الولاية تأدية الحقوق إلى أهلها، وإسناد الأعمال إلى مستحقيلها الأكفياء لها، وحفظ أموال الناس وأجسامهم وأرواحهم

وعقولهم وصيانتها مما يؤذيها أو يضرّ بها، وحفظ الدين الذي ارتضاه الله لعباده من أن يناله أحد بسوء، وحفظ أسرار الدولة وكل ما ينبغي كتمانه من أن يتسرب إلى الأعداء، إلى غير ذلك من أمور.

(و) **الشهادة**، وتكون الأمانة في الشهادة بتحملها بحسب ما هي عليه في الواقع، وبأدائها دون تحريف أو تغيير أو زيادة أو نقصان.

(ز) **القضاء**، وتكون الأمانة في القضاء بإصدار الأحكام وفق أحكام العدل التي استؤمن القاضي عليها، وفوض الأمر فيها إليه.

(ح) **الكتابة**، وتكون الأمانة في الكتابة بأن تكون على وفق ما يمليه مميلها، وعلى وفق الأصل الذي تنسخ عنه، فلا يكون فيها تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص، وإذا كانت من إنشاء كاتبها فالأمانة فيها أن تكون مضامينها خالية من الكذب والتلاعب بالحقائق، إلى غير ذلك.

(ط) **الأسرار**، التي يستأمن الإنسان على حفظها وعدم إفشائها، وتكون الأمانة فيها بكتمانها.

(ي) **الرسالات**، وتكون الأمانة فيها بتبليغها إلى أهلها تامة غير منقوصة ولا مزيد عليها وعلى وفق رغبة محملها، سواء أكانت رسالة لفظية أو كتابية أو عملية.

(ك) **السمع والبصر وسائر الحواس**، وتكون الأمانة فيها بكفها عن العدوان على أصحاب الحقوق، وبحفظها عن معصية الله فيها، وبتوجيهها للقيام بما يجب فيها من أعمال، فاستراق السمع خيانة، واستراق النظر إلى ما لا يحل النظر إليه خيانة، واستراق اللمس المحرم خيانة، وهكذا.

إلى غير ذلك من أمور.

خلق الأمانة فطريّ ومكتسب:

لدى البحث نلاحظ أن الأمانة ذات جذور أصلية في فطرة الإنسان،

وذلك لأن الأمانة مرتبطة بالحق كما عرفنا، والأصل في فطرة الإنسان إقراره بالحق، وكراهيته العدوان على حقوق الآخرين، والأمانة فرع عن هذا الأصل.

ثم تأتي التربية الخلقية القويمة التي ينشأ عليها الإنسان فتدعم أصل فطرته، حتى تصبح الأمانة لديه خلقاً بارزاً قوياً فعالاً، بعد أن كانت ميلاً فطرياً لا يزيد على أنه يعطي ترجيحاً يسيراً، كما قد تأتي التربية المفسدة فتحول هذه الفطرة عن أصولها، وتغذي الإنسان بخلق آخر مناف لخلق الأمانة.

فالأمانة في الأصل تمثل ميلاً فطرياً في الإنسان قابلاً للتنمية، حتى يكون خلقاً قوياً فعالاً راسخاً في النفس، مؤثراً في السلوك، وذلك بالتربية والتدريب، فهي فطرية في بزورها، مكتسبة فيما وراء ذلك.

هذا ما تكشفه الملاحظة، ثم إن النصوص الإسلامية تدل عليها، فمنها نصوص عامة، ومنها نصوص خاصة بخلق الأمانة.

* **أما النصوص العامة فمنها ما يلي:**

(أ) قول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» أي: على الإيمان ومستلزمات الإيمان، ولمّا كان الإيمان التزاماً بالحق، وكانت الأمانة فرعاً من فروع حب الحق وإيثاره، كان الأصل في فطرة الإنسان ميله إلى الأمانة.

(ب) ما جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين» أي: إن الأصل في فطرتهم أنهم حنفاء ميالون إلى الحق والاعتراف به، والعمل بما يستلزمه، ولكن الشياطين اجتالتهم بعد ذلك، أي: استهوتهم واستخفتهم، فحولتهم عن أصل فطرتهم المائلة إلى الحق والخير، فجالوا مع الشياطين في أودية الهوى والشر.

(ج) قول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

فهذه الآية تدل على أن الأصل في الفطرة التي فطر الله الناس عليها هي

الميل نحو الدين القيم، والدين القيم يشمل جوانب الإيمان، ومستلزمات الإيمان من أخلاق وأنواع سلوك.

* **وأما النصوص الخاصة فمنها ما يلي:**

روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة. ثم حدثنا رسول الله ﷺ عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبراً وليس فيه شيء» ثم أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم حصى، فدحرجه على رجله، ثم قال: «فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

فقول الرسول ﷺ: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال» يشعر بأنها خلق من الأخلاق الفطرية في الإنسان، فهي في جذر قلوب الرجال، ولا تكون بهذا العمق في كيان الإنسان ما لم تكن ذات جذور فطرية، كما أن التعبير بكلمة (نزلت) يشعر بأنها أمر فطري من عند خالق القلوب.

ويؤيد هذا قول الرسول بعد ذلك: «ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة» ففي هذا القول دلالة على أن الإرشاد القرآني إلى الأمانة والإرشاد النبوي إليها، قد جاءا بعد تغلغل الأمانة في جذر قلوب الرجال، ولا يكون هذا السبق إلا سبقاً فطرياً.

أما ما حدّث به الرسول عن رفع الأمانة، فقد دل على ارتباط الأمانة بالإيمان، وإن هذا الرفع إنما يأتي بسبب ضعف الإيمان في الناس أو فقده، وسبب ذلك أن من فقد الإيمان الذي هو أكبر حق في الوجود، فلا بد أن تنهار الأمانة من قلبه، وهي رعاية لحقوق تأتي في الرتبة دون الإيمان، وهما في الأساس يعتمدان على حب الحق وإيثاره.

وقول الرسول: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت» يصور بقايا الخلق في القلوب عند حالات التغير المفاجىء، بتأثير التيارات الاجتماعية، والضلالات الفكرية، والانحرافات السلوكية، إذ تبقى رواسب الأخلاق بقايا يسيرة قليلة الشأن غير فعالة في توجيه السلوك.

والوكت: هو الأثر اليسير للشيء، أو الأثر اليسير في الشيء، والوكتة في العين: نقطة حمراء في بياضها، أو نقطة بيضاء في سوادها.

وقول الرسول ﷺ: «ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء» يصور مرحلة من مراحل الانهيار الخلقي، وذلك بأن تصبح الأمانة اسماً لا مسمى له في القلوب، ولا أثر له في السلوك، ويصبح الحديث عنها كلاماً فقط، ليس له حقيقة في الواقع، فإذا نظرت إلى مظهر الكلام عنها والدعاوى حولها وجدتها منتفخة كبيرة، ثم إذا غمزتها في واقع تطبيقي عملي وجدتها فارغة خواء، كالنفطات التي تنتبر على الجلد من الحروق، وهذه النفطات تسمى مجلاً.

وهذا التصوير النبوي فيه من الإبداع البلاغي مقدار عظيم، ويكاد يصور الواقع تماماً.

نصوص إسلامية في الأمانة:

لدى تتبع آيات القرآن الكريم، وأقوال الرسول صلوات الله عليه نجد نصوصاً كثيرة تأمر بالأمانة، فمنها ما هو عام، ومنها ما هو خاص في مجال من المجالات التي تدخل فيها الأمانة والخيانة.

وفيما يلي طائفة من هذه النصوص، مع تدبر ما اشتملت عليه من دلالات:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

ونتساءل عن الأمانة التي حملها الإنسان، وأبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وخِفْنَ من حملها؟

وفي الإجابة على هذا التساؤل نقول: للباحثين في المراد من الأمانة في هذه الآية وجوه من التأويل كثيرة، ولكن يحسن أن نبحث في الإنسان، ونتفكر في استنباط الخصائص التي امتاز بها عن غيره، وقد وضعها الله أمانة بين يديه، ليحفظها، ويؤدي حقوقها، فكان من الإنسان خيانة لها، وعدوان على حقوقها، استجابة لأهوائه وشهواته ووساوس الشياطين، وبذلك صح أن يوصف بأنه ظلوم جهول.

من الواضح أن الإنسان قد امتاز عن المخلوقات الأخرى بخصائص التفكير ومعرفة صفات الأشياء والعقل والإرادة الحرة، وجملة من مطالب النفس وأهوائها وشهواتها، ومقدار ما من القدرة على تنفيذ ما يريد، في مقدار ما من الزمان والمكان، ضمن حدود هذه الحياة الدنيا.

وما امتاز به الإنسان من كل ذلك ممّا يستطيع التصرف فيه بفعل الخير أو بفعل الشر، هو أمانة وضعها الله تحت يده، بعد أن منحه الاستعداد الفطري لحمل هذه الأمانة.

وإذ وضع الله هذه الخصائص أمانة تحت يده وضع له منهاجاً ليتصرف بالأمانةعلى وفقه، فإذا تعدى حدود هذا المنهاج فقد خان الأمانة وظلم، وعرض نفسه للمؤاخذة، فكان بذلك جهولاً.

إن ما تحت يد الإنسان مما يستطيع التصرف فيه ودائع وعواري استأمنه عليها مالكها، ألا وهو خالقها وبارئها ومصورها، وممدها بالوجود والبقاء، فعلى

الإنسان أن يؤدي حقوق هذه الودائع والعواري، وعليه أن يحفظها، ويستعملها فيما أذن له به من استأمنه عليها.

لقد جعل الله ما في مستطاع الإنسان من القوى الظاهرة والباطنة أمانة تحت يده، فهو يستطيع التصرف بها حسب إرادته، ولكنّه مطالبٌ بأن لا يتصرف بها في فعل شر أو ضر أو معصية أو عدوان، فإذا تصرف بها في فعل شيء من ذلك فقد خان فيما استأمنه الله عليه.

فمن القوى التي تخضع بإذن الله لسلطان إرادة الإنسان فيتصرف بها كما يشاء؛ قوى الجوارح على العمل والتصرف بالأشياء التي تقع في متناولها. منها قوة البصر، وهذه القوة إذا استعملها الإنسان في تتبع عورات الناس على سبيل التجسس المحرم، فقد خان فيما استأمنه الله عليه، أما إذا استعملها في النظر في آلاء الله ومظاهر قدرته وفيما أذن الله له به، فإنه يكون قد حفظ الأمانة، ولكن ما أكثر ما يخون الإنسان في قوة بصره، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومنها قوة اللسان، فإذا استعمل الإنسان قوة لسانه على النطق في الدعوة إلى الخير، وفي قول الخير والبر والمعروف، وفي كل ما أذن له به مالكه الحقيقي وهو الله تبارك وتعالى، فقد أثبت أنه صاحب أمانة، أما إذا استعمل لسانه في الدعوة إلى الكفر والعصيان، وفي قول الشر والإثم والمنكر ونشر الأكاذيب والأضاليل، فإنه يبرهن على نفسه بأنه خائن فيما استأمنه الله عليه وليس بأمين.

ومنها قوة التفكير وقوة الحيلة في تصريف الأمور، فإذا استعمل الإنسان قوة تفكيره وحيلته فيما فيه عدوان على حق الله صاحب هذه القوة ومالكها الحقيقي، والقادر على انتزاعها متى شاء، أو استعملها فيما فيه ظلم أو عدوان على أحد من خلق الله، أو في أي أمر لا يرضي الله تعالى، فهو خائن فيما استأمنه الله عليه، وجعله وديعة أو عارية بين يديه، أما إذا استعمل هذه القوة في طاعة الله وفيما أذن له به، فإنه يبرهن بذلك على أنه أمين وليس بخائن.

ومن القوى التي تخضع لسلطان إرادة الإنسان فيتصرف بها كما يشاء هذه

الأشياء الكثيرة في هذا الكون مما للإنسان قدرة على التصرف فيه، هي أيضاً ودائع أو عواري استأمن الله الناس عليها، وطلب منهم أن يحفظوها، وينتفعوا بها ضمن المنهاج الذي رسمه لهم مالكها الحقيقي، فإذا تصرفوا بها على غير ما أوصى به الله، فقد خانوا ما استأمنهم الله عليه.

والحياة وديعة عند الناس، وأي عدوان عليها بغير إذن مالكها ومودعها خيانة وأية خيانة، والمحافظة عليها ورعايتها وصيانتها مما يؤذيها حتى يستردها مودعها مما توجبه الأمانة، فالمنتحر خائن لما استأمنه الله عليه، وقاتل النفس بغير حق خائن لما استأمنه الله عليه، ولذلك كان قابيل أول خائن في الناس لوديعة الحياة، إذ قتل أخاه هابيل استجابة لنوازع الشهوة والحسد والغضب.

وبهذا المعنى الموسع لمفهوم الأمانة نستطيع أن نقول: إن مسؤولية إرادة الإنسان في الحياة هي مسؤولية أمانة لما استودعها الله أو أعارها من قوى وطاقات أخضعها لتصرفها، سواء أكانت داخلة في جسم الإنسان أو خارجة عنه.

أما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وإباؤهن أن يحملنها وإشفاقهن منها: فهو فيما أرى ـ والله أعلم ـ عدم وجود الاستعداد والقابلية الفطرية لتحمل الأمانة لدى هذه المخلوقات، فهو كما لو قلت: عرضت الحجر على النار فأبت النار أن تأكله، وعرضت الحطب على النار فاستجابت النار فأكلته، فإن معنى هذا الكلام أن النار غير مستعدة في قانونها الفطري لأن تأكل الحجر وهي مستعدة لأن تأكل الحطب. ونظيره أن تقول: عرضت كتلة الرصاص على الماء فأبى الماء أن يحمل كتلة الرصاص، فإننا نفهم من هذا القول أن الماء ليس فيه استعداد فطري لحمل كتلة الرصاص، فإذا وضعت فيه غاصت حتى تصل إلى القعر وتستقر على اليابسة، ولو كان بدل كتلة الرصاص لوح من الخشب فإن الماء حينئذ لا يأبى حمله، لأنه مستعد في تكوينه الفطري لحمله.

وكذلك عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فهذه المخلوقات الكبيرة رغم كبرها وضخامتها لا تملك استعداداً فطرياً لحمل الأمانة، لأنها

لا تملك إرادة حرة حتى تختبر أمانتها أو خيانتها، فلذلك تأبى هذا الحمل، نظراً إلى عدم استعدادها الفطري له، أما الإنسان فإنه ما كان ليأباه، لأنه يملك الاستعداد الكامل لحمل الأمانة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فأبينَ أن يحملنَها وحملها الإنسان﴾.

أما قوله تعالى عقب ذلك في وصف الإنسان: ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ فليس ذلك من أجل أنه حمل الأمانة، ولكن من أجل أنه خان الأمانة بعد أن حملها، وهذا ما هو مشاهد في سلوكه، إنه لما حمل الأمانة إذ توافر لديه الاستعداد الفطري لحملها، لم يرع حقوقها، بل ظلم فيها، وتعدى حقوق ذوي الحقوق، وفرط فيها، وتهاون بشأنها، وخالف وصايا مالك الودائع والعواري، وعصى أوامره، فأثبت بخياناته أنه ظلوم. ثم إنه تغافل عن المصير السيء الذي أعده الله للظالمين، فأثبت بتغافله عن العقاب الأليم أنه جهول، فهذا وصف للإنسان بعد خيانته بالظلم والعدوان. ولما كان معظم الناس ما بين كافر بربه، أو عاصٍ مؤمن، صح تعميم هذا الوصف عليه على سبيل التغليب. ويدل على أن هذا المعنى هو المعنى المراد، قول الله تعالى في الآية التالية: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾.

في هذه الآية نلاحظ أن الله تعالى يأمر أمراً جازماً بتأدية الأمانات كلها إلى أهلها.

وقد عرفنا من تدبر النص السابق، أن كل ما هو تحت سلطة إرادة الإنسان من قوى وطاقات وأشياء يستطيع التصرف فيها بأي نوع من أنواع التصرف، وكذلك كل ما تحت متناول يده أو واقع تحت سلطته من إنسان

أو حيوان أو غير ذلك، هي ودائع أو عواري استأمنه الله عليها، فتأدية حقوقها التي فرضها الله، وعدم العدوان عليها أو ظلمها، أمانة. أما هضم حقوقها أو العدوان عليها والظلم فيها، فهو خيانة.

فقوله تعالى: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ يفيد وجوب تأدية جميع أنواع الأمانات التي تقع تحت سلطة كلٍّ واحدٍ منا إلى أهلها، أي: إلى أصحابها ومستحقيها. وسميت الودائع والعواري الربانية التي وضعها الله في حوزة الإنسان وتحت سلطته أمانات، لأنها لا تؤدى إلى أصحابها ومستحقيها إلا بخلق الأمانة، فخلق الأمانة هو الخلق المسؤول عن تأدية الودائع والعواري إلى أهلها، وعن إعطاء الحقوق إلى مستحقيها. وهذه الأمانات تشمل كما عرفنا جميع الحقوق المتعلقة بذمم الناس، سواء أكانت حقوقاً لله، أو حقوقاً لخلقه، وسواء أكانت حقوقاً اعتقادية أو قولية أو فعلية، ويدخل في ذلك إعطاء الحكم إلى أهله، وتأديته إلى أربابه، بالتولية عن طريق البيعة، أو بإسناد أنواع الحكم والقضاء إلى الأجدر بها، والأكفياء للقيام بها. ثم إن الحكم والسلطان هو أمانة أيضاً، ولذلك رأى طائفة من المفسرين أن المراد بتأدية الأمانات إلى أهلها في هذه الآية إسناد الحكم إلى أهله الأكفياء له، ولكن إبقاء النص على عمومه يجعل هذا مشمولاً به ويدخل فيه أيضاً جميع أنواع الأمانات، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام على الآية بمناسبة العدل.

وقد جاءت نصوص متعددة في أقوال رسول الله صلوات الله عليه تبين أن إسناد الحكم إلى أهله أمانة، وأن الحكم بنفسه هو أمانة أيضاً، فمنها النصوص التالية:

(أ) روى الإمام مسلم عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذرّ إنّك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها».

فسمى رسول الله ﷺ الولاية في هذا الحديث أمانة، لأن تأدية حقها

بالعدل، وعدم الاستغلال الشخصي فيها، واليقظة على مصالح الناس، كل ذلك لا يكون إلا بخلق الأمانة.

(ب) وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: بينما كان النبي ﷺ يحدث، إذ جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ فقال رسول الله ﷺ : «إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

(ج) وروى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

فهذا الحديث يدل على أن سلطة التولية أمانة، بدليل أن تأديتها إلى غير أهلها خيانة.

ومن الأمانة أن لا يطلب الولاية من ليس كفؤاً لها، وحين يكون المجتمع مجتمعاً إسلامياً سليماً فالواجب فيه أن لا يسأل الإمارة أحد، وأن تترك الحرية التامة للمجتمع أن يبايع الأصلح من أهل الكفاية للحكم، وتترك الحرية التامة للحاكم أن يختار عماله الأكفياء دون أي مؤثرات أو مطالب ملحّة. ولذلك نهى رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن سمرة عن طلب الإمارة، روى البخاري ومسلم عن عبدالرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ : «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها».

ففي هذا الحديث توجيهان: توجيه للمرشحين للإمارة، وتوجيه لمن بأيديهم سلطة منحها، فالذين بأيديهم سلطة منحها مسؤولون عن تولية الأفضل الأكفأ، والمرشحون لها ملزمون بأن لا يتنطحوا لها، ولا يسعوا في الحصول عليها من أجل أنفسهم، حتى تأتيهم من غير مسألة، وعندئذ يعينهم الله عليها، هذا ما لم يتنازع عليها الذين يفسدون فيها ولا يخشون الله.

وحين تقضي الأعمال التنظيمية اشتراط الترشيح الذي يعرب فيه الرجل عن استعداده القيام بمهام الولاية فلا مانع من الترشيح فيما أرى والله أعلم.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة».

أي: إنها آسرة محبوبة، شأنها كشأن المرضعة للرضيع، ولكن عاقبتها بعد الفطام والانفصال عنها عاقبة وخيمة، ما لم يكن الذي تولاها أميناً فيها، مؤدياً حقوقها.

وأما طلب يوسف عليه السلام الإمارة لنفسه من عزيز مصر، فله عدة مبررات: منها أن المجتمع مجتمع غير إسلامي، ومنها أنه رأى في نفسه القدرة والأمانة على الولاية، فقال له: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» ومنها أنه أراد أن يستفيد من سلطانه في الحكم إقامة حكم الله، ونشر دينه.

أما سياسة سيدنا محمد ﷺ في الحكم وفي تولية الأمراء، فقد كانت سياسة الناصح الأمين، الذي تدفعه إلى اختيار ما يختارمنهم أمانَتُه وخوفُه من الله، ودينُه، وغيرتُه على مصالح المسلمين العامة والخاصة، وبصرُهُ النافذ في كفايات أصحابه، وفي خصائصهم، وأخلاقهم، ومهاراتهم.

وقد كان صلوات الله عليه في المعارك والغزوات والسرايا يدفع إلى القيادات الجزئية من يتفرس فيهم القدرة عليها، فيضعهم موضع الاختبار والتجربة، ويتابعهم بملاحظاته، ويرصد حركاتهم رصد الفاحص الحاذق، فمن وجده أهلاً للقيادة أسند إليه فيما بعد أمانة أعظم وأجسم، وحمّله من أعباء الإمارة ما يقدر على حمله، ويستطيع أن يكون فيه ناجحاً ناصحاً أميناً.

وكان من سياسة الرسول ﷺ أن لا يوسّد الأمر من يطمع به طمعاً يدفعه إلى طلبه، ولا من يحرص عليه، لأن أمر الولاية مسؤولية عظيمة، لا يتهالك عليها إلا من هو طامع بأن يَلِغ فيها ويجر لنفسه وذويه منافعها.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحدهما: يا رسول الله أمّرنا على

بعض ما ولاك الله، وقال الآخر مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إنا والله لا نولّي هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه» وفي رواية أن الرسول ﷺ قال: «لا نستعمل على عملنا من أراده».

وربما يكون الإنسان كارهاً للولاية والإمارة قبل أن يتولى، فإذا تولى افتتن، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ فيما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «تجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه».

وهذه السياسة النبوية الحكيمة الرشيدة، هي التي تضمن الأمن والاستقرار واستقامة الأمور، واطراد تقدم الأمة.

إن اختيار الأكفياء للإدارة والحكم أمرٌ عسير وليس بيسير، فمن ألهمه الله حسن الاختيار فقد أعطاه الله نعمة عظيمة، وشده إلى خير جسيم.

٣ ــ ويقول الله تعالى في بيان صفات المفلحين في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

ويصف الله المصلين بمثل ذلك فيقول في سورة (المعارج ٧٠):

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

فهذان النصّان عامّان، يدخل فيهما كل أنواع ما يجب على الإنسان أداؤه من حقوق هو مستأمن عليها، وملزم بأدائها لذوي الحقوق فيها، سواء أكانت حقوقاً لله تبارك وتعالى أو لخلقه.

٤ ــ ويقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

فأرشد الله تبارك وتعالى في هذه الآية إلى واجب الأمانة في مجال الحقوق المالية، ولئن كان النص في سياقه يحدد موضوع المداينات فإنه في عمومه يمتد إلى سائر الحقوق المالية التي تكون بين الناس، ومنها الودائع والعواري، والوصايا، وغيرها.

٥ ـ ويقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

هذا النص القرآني يبين حال فريقين من أهل الكتاب:

أما الفريق الأول فهو فريق يتمتع بقسط كبير من خلق الأمانة في الأموال، لأن التعاليم الدينية عند أهل الكتاب تفرض عليهم أن يكونوا أمناء مع الذين يوافقونهم في الدين ومع الذين يخالفونهم في الدين، وهذه تعاليم عامة في الأديان الربانية كلها، فهذا الفريق من أهل الكتاب يلتزم بتعاليم دينه، فيتحلى بخلق الأمانة في الأموال.

وأما الفريق الثاني من أهل الكتاب، فهو فريق لا أمانة له، إنهم قوم يعاملون الذين يخالفونهم في الدين على أساس استحلال أموالهم، ويزعم هؤلاء أن الله أباح لهم العدوان على أموال الذين يخالفونهم في الدين، ويكذبون على الله في ذلك وهم يعلمون، أي: يعلمون أنهم كاذبون على الله في هذا. ويغلب وجود هذا الخلق في اليهود، لأنهم هم الذين قد وضعوا هذا التفريق بين الأمم، فميزوا أنفسهم على الناس جميعاً، وقسموا الناس إلى يهود وأميين، فقالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، أي: ليس علينا في خيانة غير اليهود من الأمم الأخرى وفي أكل أموالهم بالباطل حرج، ولا تتوجه علينا سبيل من سبل المؤاخذة أو العتاب، أو ليس علينا سبيل تلزمنا بأن نكون أمناء مع الأميين، فإذا كنا أمناء معهم كان هذا إحساناً منا وليس أمراً واجباً.

قالوا: ومن الأمثلة على أمانة بعض أهل الكتاب ما كان من عبدالله بن سلام قبل أن يُسلم، وكان من يهود يثرب، وقد استودعه قرشيٌ من المشركين ألفاً ومئتي أوقية ذهباً، فلما طلب القرشي منه أمانته أداها إليه، لأنه كان صادقاً في يهوديته. ولذلك لما رأى الرسول ﷺ وعلم صدق نبوته ورسالته دخل في الإسلام، وأخلص واستقام، مع أنه كان حبراً من أحبار يهود، وعالماً من علمائهم، وذا مكانة كبيرة في قومه، فضحى بمكانته وبزعامته الدينية، ودخل في أصحاب الرسول ﷺ، ولكن أمثاله قليلون نادرون.

ومن الأمثلة على خيانة الفريق الآخر من أهل الكتاب، وهم الكثرة الكاثرة من اليهود: ما روي أن فنحاص بن عازوراء ـ وكان يهودياً ـ استودعه قرشيٌ ديناراً، فجحده وأنكره، فلم يكن أميناً عليه.

على أن الحوادث الفردية من هذا القبيل لا تتعلق بها أهمية كبيرة، لأنها قد توجد في كل أمة، ولكن الشيء الخطير الذي نبّهت الآية عليه، هو افتراء الخائنين منهم على الله، بأنه ليس عليهم في الأميين سبيل، فلهم أن يأكلوا حقوقهم وأموالهم بغير حق، وهذا الحكم معروف عند اليهود، مكتوب في تلمودهم، وفي مقررات قياداتهم الشريرة، لذلك فهم يرابون لاستغلال أموال كل الأمم من غير اليهود، ويغشّون، ويخونون، ويسرقون، ويثيرون الحروب اللعينة الشريرة، وهم يستبيحون ذلك استباحة دينية، لخدمة مصالحهم اليهودية القومية، فلا يتورعون عن أية جريمة مهلكة لأية أمة من أمم الأرض، إذا كانت تحقق لهم مصلحة مهما كانت وضيعة حقيرة غير إنسانية.

ودائع الأسرار والأحاديث:

من حق من استأمنك على سره أن تحفظه له فلا تفشيه، وحديثه لك وسره عندك أمانة، والأمانة يجب حفظها، وعدم تعريضها للسلب أو النهب أو السرقة، وإفشاء السر خيانة لمن استودعه.

روى الترمذي وأبو داود عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة».

أي: ما حدث به مما يسوؤه إعلانه هو أمانة استودعها سرٌّ من ألقى إليه الحديث وهذه الأمانة يجب حفظها وعدم إفشائها، ولذلك كان من المعروف عند الناس أنهم إذا أرادوا أن يوصوا جلساءهم بحفظ ما يجري في مجالسهم وعدم إفشائه يقولون: المجالس بالأمانات، وهذا القول مأخوذ من كلام الرسول ﷺ.

روى أبو داود عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «المجالس بالأمانة، إلاّ ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مالٍ بغير حق».

المجالس بالأمانة: أي المجالس تعقد بالأمانة على ما يجري فيها، أو المجالس ملزمة للمشتركين فيها بالأمانة، أو نحو ذلك.

وإذ يقرر الرسول صلوات الله عليه أن المجالس بالأمانة يستثني منها ثلاثة مجالس:

المجلس الأول: مجلس سفك فيه دم حرام، فهذا يجب الشهادة به، ولا يجوز كتمه، بل كتمه خيانة عامة، وخيانة لأولياء القتيل، وخيانة لحق الله.

ومجلس من هذا النوع لا حرمة له، ولا أمانة له، لأن أصحابه قد خانوا الله فيما استأمنهم عليه، وخانوا أخاهم فاعتدوا على حياته، ولم يكونوا أمناء عليها، فكيف يكون لهم حق في حفظ سر مجلسهم.

المجلس الثاني: مجلس كان فيه اعتداء على عرضٍ حرام، ومجلس من هذا النوع لا حرمة له، ولا أمانة له، بشرط أن يتوافر للشاهد به نصاب الشهود الأربعة، لئلا يدان بالقذف، فحق الله هو الأحق بالأمانة عليه وأدائه كما أمر الله.

المجلس الثالث: مجلس اعتدي فيه على مالٍ بغير حق، فهذا مجلس لا حرمة له أيضاً ولا أمانة له.

ونستطيع أن نقيس على هذه المجالس ما كان شبيهاً بها، فمن ذلك المجالس التي تدبر فيها المؤامرات ضد المسلمين، فهذه مجالس لا حرمة لها، بل

التستر عليها خيانة عظمى للأمانة التي استؤمن عليها كل فرد من أفراد المسلمين، وهي أن يكون حافظاً راعياً لجماعة المسلمين، أميناً على مصالحهم، وعيناً يقظة ساهرة تراقب مكايد أعدائهم، ومؤامرات الذين يتآمرون ضدهم، ضد دينهم، أو ضدّ جماعتهم، أو ضدّ قادتهم الصالحين.

فإذا استثنينا هذه المجالس استطعنا أن ندمغ من يفشي أسرار المجالس التي لا شرّ فيها ولا إثم بالخيانة، وحينما يكون إفشاؤها يفضي إلى أضرار جسيمة فإنّ من يفشيها يتحمل جريرة كلّ الأضرار التي تستتبع إفشاءها، لا سيما إذا كانت أسراراً ترتبط بها مصالح عامة المسلمين، وكان إفشاؤها يضرّ بهذه المصالح العامة، وعندئذٍ تكون خيانة عظمى، لا خيانة فردية جزئية. ولذلك لمّا شعر أبو لبابة بأنّ خيانته قد كانت من قبيل الخيانة العظمى شدّ نفسه إلى سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ.

وقصة أبي لبابة في خيانته، أنه لمّا خان يهود بني قريظة رسولَ الله والمسلمين في غزوة الأحزاب، وتواطأوا مع المشركين على أن ينقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ وينقضّوا على المسلمين من وراء ظهورهم من داخل المدينة، وأفسد الله مكيدتهم، وردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، خرج رسول الله ﷺ فحاصر يهود بني قريظة في حصونهم خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر لنستشيره في أمرنا، وكان مناصحاً لهم قبل الإسلام. فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلمّا رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال أبو لبابة بلسانه: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، كناية عن الذبح، فخان بذلك سرّ رسول الله ﷺ وأمانته التي استؤمن عليها، رعاية لصداقته لهم في الجاهلية، وكانت هذه خيانة منه للمسلمين، فالموقف موقف حرب، والأمر خطير، ولم يكن ذلك عن نفاق لديه، فقد قال أبو لبابة عن نفسه: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ بعد الذي كان منه، حتى أتى المسجد فشدّ نفسه إلى عمود من أعمدته، وقال: والله لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مّما صنعت. وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبداً، ولا يُرى في بلد خان الله ورسوله فيه أبداً. وطالت غيبته على رسول الله ﷺ فاستبطأه، فأبلغه المسلمون خبره، فقال صلوات الله عليه: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأمّا إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

ولبث على هذه الحالة ست أو تسع ليالٍ تأتيه امرأته في كلّ وقت صلاة، فتحلّ قيده فيصلي، ثمّ يعود فيرتبط بالجذع، حتى تاب الله عليه، وأنزل فيه قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

وكان رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة، والوقت وقت السحر، فقالت أم سلمة: يا رسول الله أفلا أبشره؟ قال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها فقالت: يا أبا لبابة أبشر، فقد تاب الله عليك، فثار المسلمون إليه ليطلقوه، فأبى إلا أن يطلقه رسول الله ﷺ بيده، فلمّا خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح أطلقه.

فقال: يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أن تصدّق به».

وكان الله عزّ وجلّ قد أنزل النهي عن الخيانة فقال تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

الخيانة

من خلال تصورنا للأمانة بأنواعها نستطيع أن نعرف الخيانة بأنواعها، وذلك لأنّ الخيانة هي ضدّ الأمانة.

(أ) فإذا نظرنا إلى الأمانة الكبرى التي علّقها الله بالإنسان، وهي الأمانة على ما جعل تحت سلطة إرادته من قوى وطاقات، وطلب منه مراعاة حقوقها التي جعلها الله لها، استطعنا أن ندرك أنّ أيّ إخلال بحقوق ما استأمننا الله عليه هو خيانة، ولذلك نهى الله عن هذا النوع من الخيانة، كما نهى عن خيانة الأمانات كلها، وذلك في قوله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقد تضمنت هذه الآية النهي عن خيانة الله، وهي الإخلال بحقوق ما استأمننا عليه، وأعطيناه فيه عهد الأمانة منذ أعلنّا الإسلام والتزمنا به.

وتضمنت أيضاً النهي عن خيانة الرسول ﷺ، لأنّ حقوقه تابعة لحقوق الله، ومن حقوقه على المؤمنين برسالته اتباع شريعته، وعدم معصية ما أمر به أو نهى عنه.

وتضمنت أخيراً النهي عن خيانة الأمانات كلها، فتشمل ما يتعلق بحقوق كل ذي حق، نحن مستأمنون عليه. ولا بدّ أن نلاحظ أنّ خيانة حقوق خلق الله هي خيانة لهم، وخيانة لله تعالى أيضاً، وذلك لأن من حق الله علينا أن لا نخون أحداً من خلقه.

ثمّ إنّ حقوق الله على عباده ذات مراتب، فما كان منها في المرتبة الأولى التي يكفر الجاحد بها فإنّ خيانتها من أقبح أنواع الخيانات، أمّا الحقوق الأخرى التي تتضمن تكاليف عملية في فعل أو ترك، فهذه تتأرجح هي وخيانة حقوق الناس شدّة وضعفاً، وبعض كلٍ منها قد يكون أقبح من بعضٍ آخر. على أنّ حقوق الله الخالصة مشمولة بكرم الله وعفوه وغفرانه، أمّا حقوق الناس فمقرونة

بشحهم وضيق نفوسهم، وعدل الله هو الذي يحميها، وبناء على ذلك يقول العلماء: حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق الناس مبنية على المشاحة، إلّا حق الإيمان بالله فهو أعظم الحقوق كلها، ولذلك أعلن الله من قواعد الجزاء التي يجازي بها عباده يوم الدين، أنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

(ب) ووصف الله اليهود إلّا قليلاً منهم بأنهم أهل خيانة، فقال تعالى لرسوله في سورة (المائدة ٥):

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ . . . ﴿١٣﴾﴾.

فهذه الآية تدل على أن الخيانة من الصفات التي تبرز في اليهود بين حين وآخر، فالخيانة شأنهم وديدنهم، وطريقتهم في معاملة الناس.

فمن خياناتهم محاولتهم اغتيال الرسول وقد كان بينه وبينهم عهد أمان.

ومن خياناتهم تواطؤهم مع الأحزاب، وقد كان بينهم وبين الرسول عهد أمان.

(ج) ولمّا كان أمر خيانة العهود والمواثيق أمراً خطيراً، أمر الله رسوله بأن يعلن للكافرين نبذ عهدهم، ويشعرهم بأن يستعدوا للمواجهة على صعيد سواء لا خيانة فيه ولا غدر، متى خاف الرسول من خيانتهم وغدرهم ومحاولتهم أن يأخذوا المسلمين على حين غرّة، بينما هم في عهد أمان مشترك، فقال الله تعالى له في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

فالمسلمون يعلنون للكافرين إلغاء عهودهم وينبذونها إليهم متى رأوا أمارات الخيانة والغدر ظاهرة في تصرفاتهم، وذلك حتى لا يستغلّ عدوهم طيبتهم ووفاءهم فيأخذهم على حين غرّة. ولكن لا يجوز للمسلمين أن ينقضوا

عهودهم دون سابق إعلام وإنذار، ثم عليهم بعد الإعلام أن يتركوا لعدوهم فرصة يتدبرون بها أمرهم، ويأخذون بها حذرهم واحتياطاتهم، هذا ما لم تكن البادرة من قبل عدوهم، فإن كانت بادرة النقض من قبل العدو فللمسلمين حينئذ أن يقابلوا النقض بالنقض دفاعاً عن أنفسهم.

(د) ولكن ليس لنا إذا تخوّفنا من خيانة من دخل في الإسلام تعوّذاً من القتل أن نرفض إسلامه ولا نقبله منه، بل نقبل إسلامه، ونعامله معاملة المسلمين تماماً، ولكن لنا أن نضعه تحت المراقبة الخفية وربما كان هذا واجباً، يمكّن إهماله الأعداء من المكر وتدبير المكايد، فإن بدا من تصرفاته ما يشعر بأنه يدبر خيانة عاقبناه على أساس أنه مسلم، وعلى قدر خيانته.

روى البخاري ومسلم عن المقداد بن عمرو، أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله ـ (وفي رواية): فلمّا أهويت لأقتله قال: لا إله إلّا الله ـ أأقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تقتله» فقال: يا رسول الله، إنه قطع إحدى يدي، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال».

فقرّر الرسول في هذا أن من أسلم عصم دمه إلّا بحق الإسلام، وأنه بإسلامه اكتسب كل حقوق المسلم، وأنّه ليس لمسلم أن يقاتله على اعتبار أنه كافر تظاهر بإعلان الإسلام فراراً من القتل، فمن قتله من المسلمين بعد أن سمع منه كلمة الشهادة فهو قاتل لمسلم، وهو يستحق النار بقتله ظلماً وعدواناً.

ويؤكد هذا ما رواه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى أناس من جهينة، فأتيت إلى رجل منهم فذهبت أطعنه، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فقتلته، فجئت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أقتلته وقد شهد أن لا إله إلا الله،» قلت: يا رسول الله إنما فعل ذلك تعوذاً (أي: ليحمي نفسه من القتل) قال: «فهلّا شققت عن قلبه».

وفي رواية عند مسلم، أنّ رسول الله ﷺ قال: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قاله مراراً.

ويفهم من هذا التأنيب الشديد.

قد يقال: إنّ هذه السياسة قد تعرّض المسلمين لورطات خطيرة، بسبب أنّ أعداءهم قد يخادعونهم بما يتظاهرون به، والجواب على ذلك بأنهم إذا صدقوا مع الله فإنّ الله سيمكنهم من الذين يريدون خيانتهم ومخادعتهم، وهذا ما طمأن الله به رسوله في شأن الأسرى الذين أسلموا في ظروف الأسر، فقال له في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

ولكن ليس معنى حماية من أسلم ونحن نظن أنه قد أسلم نفاقاً أن نسلمه قيادة إسلامية، أو أن نأمنه أمناً كاملاً، بل الواجب أن نكون على حذر كامل ويقظة تامة منه، وإن أعطيناه حقوقه الإسلامية العامة.

(هـ) من قصص الخيانة قصة جرت في عهد الرسول ﷺ، فكشفها الله، وأنزل فيها قرآناً، وخلاصة هذه القصة فيما يلي:

كان طعمة بن بشير بن أبيرق من مسلمة الأنصار، وكان بشير أبو طعمة هذا من المعروفين بالنفاق، قالوا: فنقب طعمة جداراً لرفاعة بن زيد وسرق له درعين ودقيقاً، وكان في جراب الدقيق خرق فجعل ينتثر منه الدقيق، وكان ذلك أثراً مادياً دل على اللصوص. وعرف رفاعة بن زيد وأهله أن بني أبيرق هم الذين سرقوا الدرعين والدقيق، فجاء قتادة بن النعمان ابن أخي رفاعة بن زيد إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه بني أبيرق وما كان منهم من سرقة، وشاع أمر بني أبيرق في المدينة، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أسيد بن عروة بن أبيرق، فقال يا رسول الله: إن هؤلاء قد عمدوا إلى أهل بيتٍ هم أهل صلاح ودين، فاتهموهم بالسرقة، ورموهم بها من غير بينة، وأخذ يجادل عن ذويه.

فتنكر الرسول ﷺ لقتادة بن النعمان ورفاعة بن زيد، لأنهم قد اتهموا بني أبيرق دون بينة، فأنزل الله عليه ما بيّن له فيه خيانة اللصوص، ونهاه عن أن

يدافع عنهم، أو يجادل لتبرئتهم، فهم مدينون بالخيانة، لا سيما وأمارتها تشير إليهم.

ثم لم يقتصر أمر بني أبيرق على إنكار ما كان منهم من جناية، وإنما رموا بها بريئاً فألصقوا به التهمة، وهذا البريء هو لبيد بن سهل، إذ قال بنو أبيرق: لسنا السارقين، ولكن السارق لبيد بن سهل. فلما أنزل الله ما أنزل، وبرّأ لبيداً من التهمة، هرب السارق من بني أبيرق إلى مكة، ثم هرب إلى خيبر، ثم إنه نقب بيتاً ذات ليلة ليسرق، فسقط الحائط عليه فمات.

أما الآيات التي نزلت بصدد هذه الحادثة، فهي قول الله تعالى لرسوله في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن
لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ
مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ
سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ
إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ
إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ
وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا
يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن
تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

لقد عالج هذا النص القرآني كل العناصر التي اشتملت عليها أحداث

سرقة طعمة بن بشير بن أبيرق، مهتماً بما يتصل بها من أحكام ونصائح وتوجيهات دينية وقضائية وإدارية للرسول ﷺ وللمسلمين.

يبدأ النص بمخاطبة الله للرسول ﷺ فيقول له: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾.

فحدد الله لرسوله في هذه الآية مسؤوليته القضائية، وسبيله في إصدار أحكامه وأقضيته على الناس أو لهم، وحذره من الاندفاع بأكاذيب الخائنين وتضليلاتهم.

وتوجب المسؤولية القضائية تحري الحكم بالحق، والقضاء به حيث كان، وذلك بالاستناد إلى مبادىء الحق التي أنزلها الله في القرآن، وبتتبع وجه الحق في القضية المطروحة بين يدي القضاء، ثم الحكم بما استقر عليه رأي القاضي بعد اجتهاده وتحريه، فما يصل إليه القاضي في اجتهاده هو الأمر الذي يريه الله إياه، إذا سلك السبيل التي أرشد الله إليها للتعرف على وجه الحق، ويمكن تلخيصها بثلاثة عناصر:

الأول: الاستناد إلى مبادىء الحق التي أنزلها الله في الكتاب.

الثاني: تتبع وجه الحق في القضية المطروحة بين يدي القضاء بالاستناد إلى الأدلة والبيانات والأمارات.

الثالث: التحري التام والاجتهاد الكافي ثم الحكم بما أراه الله.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ ينهى الله فيه الرسول ثم المؤمنين، عن أن يخاصموا لصالح الخائنين، وذلك بالدفاع عنهم أو الحكم ببراءتهم، مع وجود بعض الأمارات الدالة على خيانتهم، وقد عرفنا أن سرقة بني أبيرق التي نزل النص بمناسبتها قد كان فيها أمارة الدقيق المنتثر من الدار المسروق منها إلى دارهم وهذه الأمارة تسوغ لهم توجيه أصابع الاتهام ضد الذين لصقت بهم اللوثة، وإن كانت غير كافية للإدانة، إلا أنها توجه الأنظار لمتابعة البحث.

وقد أرشد الله رسوله إلى الموقف الذي عليه أن يتخذه بوجه عام، ما دام في القضية أمارات، وكشف له حقيقة خيانة الذين لم تثبت لديه إدانتهم، وأنب الذين جادلوا عن الخائنين من ذويهم، وأبان أنهم قد ظلموا أنفسهم بذلك، ثم حذر من الكبيرة الكبرى، وهي أن يرتكب المذنب خطيئة أو إثماً ثم يرمي به بريئاً، ووصف ذلك بأنه بهتان وإثم مبين.

وقوله تعالى: ﴿يختانون أنفسهم﴾ أي: يخونون أنفسهم، إلا أن «يختانون» فيها زيادة في المعنى مأخوذة من زيادة في بناء اللفظ، أي: يخونون أنفسهم وهم يعلمون أنهم خائنون، وقد جعلهم الله خائنين لأنفسهم لأن ضرر خيانتهم يعود عليهم.

ويؤنب الله الخوَّانين بقوله: ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ ويحذرهم من عاقبة الخيانة بقوله: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾.

وأما الذين أخذوا يجادلون عن بني أبيرق من ذويهم وأقربائهم فقد خاطبهم الله بقوله: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة؟ أم من يكون عليهم وكيلاً؟﴾.

وفتح الله للجميع باب الأمل بالتوبة فقال تبارك وتعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.

فالسارق في الحادثة قد عمل سوءاً، والمجادل عنه قد ظلم نفسه.

— ٧ —

الرجوع إلى الحقّ

الرجوع إلى الحق بعد معرفته واستبانة أمره من الظواهر السلوكية لخلق حب الحق وإيثاره.

والرجوع إلى الحق فضيلة من الفضائل التي دعا إليها الإسلام، وحث

على الالتزام بها، وعمل على تربية المسلمين عليها، لذلك فهو من الفضائل التي يتحلى بها المؤمنون.

وضد خلق الرجوع إلى الحق خلق الإصرار على الباطل، رغم انجلاء الغموض، ووضوح وجه الحق، وهذا لا يكون إلا من انحراف خلقي شائن، مدفوع بعوامل نفسية شتى، يدخل فيها الكبر، والاستعلاء، وحب الغلبة ولو بالباطل، وخوف الظهور بمظهر ارتكاب الخطأ، والاعتزاز الآثم، والاستكبار عن قبول الحق الآتي من قبل الأشخاص الآخرين، والأنانية المفرطة التي تحبّ الاستئثار بكل مجد.

والرجوع إلى الحق فضيلة خلقية راقية توجد عند أصحاب الفطر العالية من الناس، لأنهم بفطرهم العالية لا يجدون في نفوسهم ما يصرفهم عن الاستجابة للحق والرجوع إليه، فلا أنانية تصرفهم، ولا عصبية تصدهم، ولا عزة آثمة تحجبهم عن رؤية الحق، وأما الأهواء والنوازع النفسية فإنهم يستطيعون أن يجدوا سبيلاً إلى مداراتها في ظل الاعتراف بالحق والرجوع إليه.

فالذين بادروا فاستجابوا لدعوة الحق التي جاء بها الرسول ﷺ، وهجروا ما كانوا عليه من باطل، قد كانوا أصحاب فطر عالية، لأنهم استطاعوا أن يطرحوا عصبياتهم جانباً، وينبذوا أنانياتهم الخاصة، ويستهينوا بمصالحهم مع قومهم، ويتبعوا رسول الله ﷺ، حين رأوا أن دعوته هي دعوة الحق، وأن ما كانوا عليه في جاهليتهم باطل.

فمن أمثلة هؤلاء أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، لقد كان وجيهاً في قومه، وذا مكانة، ولمّا رأى دعوة محمد ﷺ هي الحق بادر إلى الأخذ بها، وطرح كل المعتقدات التقليدية التي عليها قومه والتي كان منتسباً إليها بحكم انتسابه إلى قومه، وكان المفروض أن يتعصب إليها كما تعصب إليها معظم قومه، إلا أن فطرته العالية جعلته يستهين بالعوامل العصبية التي تسيطر على النفوس، وجعلته يرجع إلى الحق ولو كانت الطريق التي سيسلكها طريقاً ليس فيها غيره وغير من هداه السبيل، ولو كانت الجماهير البشرية تتدافع في طريق أخرى، وجعلته أيضاً

يستهين بمصالحه الخاصة مع قومه، لأنه لا يستطيع أن يقبل الباطل ويسير في ركابه، مهما كانت مصالحه الدنيوية ومنافعه المادية مرتبطة به، فالحق عند أصحاب الفطر العالية أحق أن يتبع، ولو كان في اتباعه تحمل صنوف من الأذى على أيدي المبطلين.

وهذا ما جعل أبا بكر رضي الله عنه نموذجاً مثالياً لاتباع الحق والرجوع إليه، في كل أدوار حياته مع الرسول ﷺ، وكذلك حينما تسلم خلافة المسلمين بعده.

ومن أمثلة هؤلاء أيضاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لقد كان من أصحاب الفطر العالية، رجّاعاً إلى الحق وقّافاً عنده، وقد كان يستطيع أن يدوس نفسه وعزتها وكبرياءها بقدميه، ويستطيع أن يعلن ذلك على رؤوس الأشهاد متى ظهر له أن الحق في غير الأمر الذي كان يقول أو يأمر به، وكان في ذلك نموذجاً فريداً.

وقصة إسلامه تدل على فطرته العالية في حبه للحق ووقوفه عنده، ورجوعه إليه، وفيما يلي حكاية لها، مما قصه عمر عن نفسه:

أخرج البزّار والبيهقي والطبراني وأبو نعيم في الحلية، عن عمر بن الخطاب قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينما أنا في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من قريش، فقال لي: أين تريد يا ابن الخطاب؟ فقلت: أريد إلهي وإلهي وإلهي (أي: أريد التوجه إلى آلهتي من الأوثان) قال: عجباً لك يا ابن الخطاب، إنك تزعم أنك كذلك وقد دخل عليك الأمر في بيتك.

قال: فقلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد أسلمت.

قال: فرجعت مغضباً حتى قرعت الباب ــ وقد كان رسول الله ﷺ إذا أسلم الرجل والرجلان ممن لا شيء له ضمّهما رسول الله ﷺ إلى الرجل الذي في يده السعة، فينالا من فضل طعامه، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين ــ

فلما قرعت الباب قيل: من هذا؟ قلت: عمر، فتبادروا فاختفوا مني، وقد كانوا يقرؤون في صحيفة بين أيديهم تركوها أو نسوها، فقامت أختي تفتح الباب، فقلت: يا عدوة نفسها صبوتِ؟ وضربتها بشيء في يدي على رأسها، فسال الدم، فلما رأت الدم بكت، فقالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعله فقد صبوت.

قال: ودخلت حتى جلست على السرير، فنظرت إلى الصحيفة وسط البيت، فقلت: ما هذا؟ ناولينيها، فقالت: لست من أهلها، أنت لا تطهر من الجنابة، وهذا كتاب لا يمسه إلا المطهرون، فما زلت بها حتى ناولتنيها، ففتحتها فإذا فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم» فلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت، فألقيت الصحيفة، ثم رجعت إلى نفسي فتناولتها، فإذا فيها:

«سبّح لله ما في السماوات والأرض».

فلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت، ثم رجعت إلى نفسي، فقرأتها، حتى بلغت «آمنوا بالله ورسوله» إلى آخر الآية[1]، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال عمر: فخرجوا إلي متبادرين وكبروا وقالوا: أبشر يا ابن الخطاب فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال: اللهم أعز دينك بأحب الرجلين إليك،

---

(١) الآيات هي أوائل سورة الحديد إلى آخر الآية السابعة: ﴿سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (١) له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير (٢) هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم (٣) هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير (٤) له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور (٥) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور (٦) آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٧)﴾.

إما أبو جهل بن هشام، وإما عمر بن الخطاب، وإنا نـرجو أن تكـون دعوة رسول الله ﷺ لك[1].

ومن روائع رجوع عمر بن الخطاب إلى الحق ما جاء في أخباره أنه رأى ذات يوم وهو خليفة للمسلمين، أن يصدر أمراً بتحديد المهور ليمنع المغالاة فيها، ويسهل أمر الزواج، ويخفف من أعباء تأسيس الأسرة، حتى يقبل الشباب على الزواج، وتنحل بذلك مشكلات اجتماعية، ناجمة عن عضل البنات بسبب اشتراط المهور الغالية، فخطب في المسلمين ووجه للناس أمراً بما رآه، وكان له فيه وجه من الاجتهاد سديد، فقامت امرأة فقالت له: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله تعالى يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ فقال عمر: امرأة خاصمت عمر فخصمته. وفي رواية بلفظ: امرأة أصابت ورجل أخطأ.

ولولا أن ابن الخطاب رجّاع بفطرته إلى الحق الذي ينكشف له، لوجد تخريجات فقهية تبرر ما كان قد ذهب إليه، ولكنه لم يفعل ولم يستكبر عن إعلان رجوعه إلى ما ظهر له من حق، ولم يجد في إعلانه خطأه على رؤوس الأشهاد أي حرج أو ضيق في نفسه[2].

وقد شهد رسول الله ﷺ لعمر بأن الله جعل الحق على لسانه وقلبه، وبأن الشيطان ما لقيه سالكاً طريقاً إلا سلك طريقاً غير طريقه.

روى الترمذي عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه».

وروى أبو داود عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به».

وروى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص، أن رسول الله ﷺ قال

---

(١) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي.

(٢) من عجيب مفاهيم التقدمية الحديثة أنها تجعل الرجوع إلى الحق والفضيلة رجعية مذمومة، مع أن الرجوع إلى الحق من أنفس الفضائل التي يتمتع بها الإنسان العاقل المتحضر، الذي يعشق المجد، ويسعى في الارتقاء إلى الكمالات.

لعمر: «إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك».

ومن أمثلة الرجاعين إلى الحق أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، ومن قصص رجوعه إلى الحق ما روي أنه تغاضب ذات يوم مع بلال الحبشي مولى أبي بكر، وتطور النزاع بينهما، إلى أن أخذت الحدة أبا ذر، فقال لبلال: يا ابن السوداء، فشكاه بلال إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله لأبي ذر: طفّ الكيل، أتعيّره بأمّه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، قال أبو ذر: على ساعتي هذه من كبر السن[1]؟ فقال له الرسول ﷺ: «نعم هم إخوانكم».

أي: والأخوة تستلزم التحقق بمعنى إلغاء الفوارق العرقية واللونية ونحوها من الأمور.

فندم أبو ذر لما كان منه، ورجع إلى الحق، وأعلن توبته، حتى إنه أمر بلالاً أن يطأه على وجهه استرضاء له مما عيره به من سواد أمه.

التربية الإسلامية على خلق الرجوع إلى الحق:

لقد اعتنت التربية الإسلامية بتربية المسلمين على خلق الرجوع إلى الحق وعدم التمادي في الباطل، واستثارت فيهم بواعث الإيمان الدافعة إلى التزام الحق وعدم الخروج عن دائرته.

لذلك كان من الفضائل الخلقية التي يتحلى بها المؤمن الصادق وقوفه عند حدود الحق، وحين ينزلق بعوامل الخطأ أو الغلط أو غير ذلك إلى مواقع الباطل، فإنه يجد نفسه مدفوعاً إلى الرجوع إلى الحق، ولو اضطره ذلك أن يصارع نفسه وهواه، ويصرعهما بقوة إرادته، ولو كلفه ذلك قهر أنانيته وكبريائه وعزته وأنفته الآثمة، إنه بصدق إيمانه وسمو خلقه يخضع للحق، ويستجيب له، ويرجع إليه متى استبان له وظهر.

---

(١) لعل أبا ذر ظن أن الرسول ﷺ قصد بالجاهلية ما يعتري الشباب من طيش يخرجهم عن حد الاعتدال، فقال ما قال.

وقد كان الرسول ﷺ في هذا وفي سائر الفضائل قدوة حسنة للمؤمنين، وكان أصحابه الذين اهتدوا بهديه قدوة حسنـة لمن وراءهم، ونحن نعلم ما للأسوة الحسنة من أثر عظيم في مجال التربية الخلقية والسلوكية.

فمن أمثلة التربية النبوية على الرجوع إلى الحق ما كان من الرسول ﷺ في غزوة بدر، إذ نزل في موقع ليس هو الأفضل في الخطة الحربية المثلى، وأمر المسلمين بنزوله، فقال له أحد أصحابه وهو الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال رسول الله ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغوِّر ماوراءه من القُلُب(١)، ثم نبني على الماء حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فرجع رسول الله ﷺ عن رأيه إلى رأي الحباب بن المنذر، وقال له: لقد أشرت بالرأي، ونهض سريعاً، ونهض من معه من المسلمين، وعمل برأي الحباب رجوعاً إلى ما هو أفضل، ولم يجد حرجاً في نفسه أن يتراجع عن رأيه، ويعمل برأي أحد أتباعه صلوات الله عليه، وقد أعطى الرسول أصحابه في هذا درساً عملياً في فضيلة الرجوع إلى الحق.

ومن أمثلة التربية النبوية على الرجوع إلى الحق، ما كان من الرسول ﷺ في شأن ترك تأبير النخل للقاحها: وذلك أنه مرّ على طائفة من أصحابه في نخيلهم، فرآهم يلقحون النخل لتنضج ثمارها، فبدا له أنّ هذا اللقاح قد يحصل دون أن يفعله الناس ودون أن تتخذ له الأسباب المادية. وربما كان صلوات الله عليه في تلك الحالة مستغرقاً في مشاهدة أفعال الخالق التي لا تعوزها الأسباب، فذكر لهم أنه لا يرى ضرورة لهذا التأبير، إذ قال: لو لم تفعلوا لصلحت، وظن أهل النخل أن هذا من الرسول ﷺ تعليم ديني واجب الاتباع، فتركوا التأبير، فلم تنضج ثمار النخل إذ فقدت لقاحها، فعلم بذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

(١) أي: نطمر ما وراءه من منازل إلى ماء بدر.

ورجع بذلك الرسول ﷺ عن رأيه، لأنه كان من عنده، ولم يكن تعليماً تشريعياً، ولا علماً ربانياً أوحى الله به إليه.

ولعل الله أجرى لرسوله مثل هذا لئلا يستكبر مسلم مؤمن بعد رسول الله ﷺ عن الرجوع إلى الحق متى ظهر له، فهذا أكمل البشر معرفة وأرفعهم مكانة وذكراً قد يخطىء في بعض أمور الدنيا، ثم يرجع إلى الصواب متى ظهر له، ويعلن رجوعه إليه، دون أن يجد في نفسه غضاضة من ذلك. وهذا أسلوب رائع من أساليب التربية الربانية للمؤمنين، إذ وضع الله أمامهم القدوة الحسنة التي تقدم لهم الفضائل في صيغة عملية تحمل أفضل صورة تطبيقية للحكم والنصائح والوصايا القولية.

ومن التربية الإسلامية على الرجوع إلى الحق، ما جاء في النصوص الدينية من توجيه مَنْ حلف على شيء ثم رأى غيره خيراً منه، أن يكفّر عن يمينه ويأتي الذي هو خير.

روى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليكفر عن يمينه وليفعل».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالرحمن بن سمرة، أن الرسول ﷺ قال له: «وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك وأتِ الذي هو خير».

ففي هذا إرشاد عظيم إلى الرجوع إلى الأفضل الأحسن، ولو نتج عنه إلغاء قسم وثق به الأمر الذي يحسن الرجوع عنه إلى غيره، فكيف بالرجوع عن الباطل إلى الحق؟

وقد يدعو الأمر إلى مقاتلة الجانحين عن الحق لإرجاعهم إليه، ولو كانوا مسلمين، ومن ذلك قتال الطائفة الباغية بين طائفتين من المسلمين، حتى ترجع إلى أمر الله، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

«تفيء إلى أمر الله»: أي ترجع إلى أمر الله، وأمر الله هو الحق.

فهذا النص القرآني يأمر جماعة المؤمنين بمقاتلة الفئة الباغية حتى ترجع إلى الحق، وهي تربية قسرية على الرجوع إلى الحق، متى كان التمادي في الباطل بغياً وظلماً.

من الرجوع إلى الحق التوبة إلى الله:

ولا يخفى أن التوبة من الذنوب عمل من أعمال الرجوع إلى الحق، وحث النصوص الإسلامية على التوبة والأوب والإنابة هو حث على الرجوع إلى الحق وعدم التمادي في الباطل، وفي ممارسة التوبة من الذنوب تدريب دائم عليه.

إن بني آدم خطاؤون، كثيرو الانحراف عن سواء السبيل، كلما كبت فيهم الإرادة، وضعفت عن ضبط القيادة، وانحرفت بهم عجلات مركبة الحياة عن سواء سبيل الهداية، لذلك كانوا بحاجة مستمرة إلى تجديد التوبة والإنابة إلى الله، إذ الذنوب والمعاصي تبعدهم عن الله، والتوبة تردهم وترجعهم إليه.

ويستعمل للدلالة على معنى الرجوع إلى طاعة الله ومراقبته بعد معصيته أو التقصير في التقرب منه أو الغفلة عنه؛ كلمات: (تاب ـ آب ـ أناب) ومشتقاتها، فيقال: تاب من ذنبه، وآب إلى رشده، وأناب إلى ربه. ولئن كانت هذه الألفاظ تدل على مطلق معنى الرجوع في أصل وضعها إلا أن الاستعمالات القرآنية وغيرها تجعلها خاصة في الرجوع المحمود، والرجوع المحمود هو رجوع إلى الحق، فمن ذلك النصوص التالية:

﴿ويهدي إليه من أناب﴾، ﴿وخر راكعاً وأناب﴾، ﴿إن إبراهيم لأواه حليم منيب﴾، ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾، ﴿إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾، ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾، ﴿ومن

تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾، ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ إلى غير ذلك من النصوص.

وحين نتساءل: لم سمي الإقبال على الله رجوعاً، واستعمل للدلالة عليه كلمات: (تاب ــ وآب ــ وأناب) ومشتقاتها؟ بدا لنا في الجواب أن كل أنواع الانحراف الإنساني، إنما هو ابتعاد عن مواقع الفطرة السليمة التي فطر الله الإنسان عليها، وهي مواقع الإيمان والطاعة لله والقرب منه، وهي مواقع التكريم الذي كرم الله به الإنسان منذ خلقه وعلمه وأمر الملائكة بالسجود له. فكل دنوٍ من مواقع هذه الفطرة السليمة بعد الابتعاد عنها هو في حقيقة الأمر رجوع، ولمّا كان الانحراف عن مواقع الفطرة الأولى للإنسان ابتعاداً إلى جهة المنحدرات فالهاوية السحيقة فنار جهنم بعيدة الغور، كان الرجوع إلى مواقع الفطرة رجوعاً صاعداً إلى مراتب الكمال الإنساني فمنازل النعيم في دار الخلود، فرضوان من العلي الحميد.

فالرجوع صاعدٌ إلى كل مجد رفيع وعز منيع، والتقدم إلى معاصي الله تقدم في المنحدرات إلى الحضيض السحيق، وهو انتكاس وخزي.

وقد أثنى الله على التوابين والأوابين والمنيبين إليه وهم الرجاعون إلى طاعته، مستغفرين من ذنوبهم التي ينزلقون إليها كلما ضعفت إراداتهم عن مقاومة أهوائهم وشهواتهم، إذ يتيقظون، فيستغفرون، فيؤوبون إلى الله نادمين، عازمين على أن لا يعودوا إلى مواقع الإثم والخطيئة.

وفتح أبواب التوبة للناس من مظاهر الواقعية في الإسلام، وذلك لأن الإنسان عرضة بحسب تكوينه لأحوال الضعف التي ينـزلق بها في مـزالق المعاصي، وطريق التوبة هو السبيل الوحيد لرجعته إلى سبيل الاستقامة ومواقع التقوى، ولولا فتح باب التوبة لم ينج أحد إلا من عصمه الله بعصمة من عنده، ولذلك دعا الله عباده ليتوبوا إليه، وأعلن أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، وأنه يحب التوابين، وأنه يريد أن يتوب على عباده.

ولولا أن باب التوبة مفتوح لكل العصاة لتحول العاصي الذي ييأس من التوبة والغفران إلى أكبر مجرم طاغ وأخبث شيطان.

شروط قبول التوبة:

ذكر العلماء شروط قبول التوبة ونلخص منها فيما يلي ما تؤيده النصوص:

(أ) إذا كانت التوبة من معصية لا تتعلق بحق إنسان فلقبولها شروط خمسة وهي:

الشرط الأول: أن يقلع المذنب عن المعصية.

الشرط الثاني: أن يندم على فعلها.

الشرط الثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً.

الشرط الرابع: أن تكون التوبة قبل أن يحضر الموت، فإذا حضر الموت، وبلغت الروح الحلقوم لم تقبل التوبة حينئذ.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة قبل أن تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها أقفل باب التوبة، وكذلك إذا خرج الدجّال، أو خرجت دابة الأرض، كما ثبت في الصحيح. وقد جمعت ذلك مما رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(ب) وإذا كانت التوبة من معصية تتعلق بحق إنسان فلقبولها شرط سادس يضاف إلى الشروط الخمسة السابقة: وهو أن يؤدي لصاحب الحق حقه أو نظير حقه، أو يحصل على مسامحته وعفوه من غير إكراه.

فإذا تعذر عليه أن يسترضي أصحاب الحقوق، صدق في توبته، وسأل الله أن يتولى عنه إرضاءهم، وحين يعلم الله صدق توبته وعجزه عن تأدية الحقوق لأهلها، فإن الله يتولى عنه يوم القيامة إرضاءهم ويغفر له.

وتصح التوبة الصادقة المستوفية لكل شروطها من كل الذنوب مهما كان شأنها فمن صدق في توبته غفر الله له، ولو كانت ذنوبه من أكبر الكبائر، كالكفر بالله، والإشراك به، والقتل، والسرقة، والزنى، وغير ذلك من الذنوب، ما لم تنته مدّة الابتلاء بحضور الموت، أو بطلوع الشمس من مغربها، أو بخروج الدجال، أو خروج دابّة الأرض.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.

ففي هذا النص دلالة صريحة وواضحة، على أن الذي يعمل السيئات ويؤخر توبته منها حتى ينتهي أجله، ويحضره الموت، فإذا حضر الموت قال: إني تبت الآن، فإن توبته حينئذٍ لا تصح ولا تقبل.

ولذلك لم يقبل الله إيمان فرعون، لأنه لم يقل كلمة الإيمان حتى أدركه الغرق وأيقن بالهلاك، ورأى آية الله بنجاة موسى ومن معه من بني إسرائيل، إن إيمانه حينئذ لم ينفعه، وقال الله له: آلآن وقد عصيت من قبل!! قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

وقد أوضح الرسول ﷺ أن الحالة التي لا تقبل التوبة فيها إذا حضر الموت، أن تكون الروح في حالة النزع وتبلغ الغرغرة، أي: تبلغ الروح الحلقوم.

روى الترمذي وابن ماجه عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

والدليل على أن باب التوبة يقفل إذا طلعت الشمس من مغربها، عدة

نصوص، منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

ومنها ما رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

وقد أشار القرآن إلى ذلك في قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

وقد جاء تفسير ذلك في كلام الرسول ﷺ بأن باب التوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من مغربها، فإذا ظهرت هذه الآية من آيات الساعة لا ينفع نفساً إيمانها، إذا لم تكن آمنت من قبل، ولا ينفعها عملها إذا لم تكن كسبت فيما سبق عملاً صالحاً، وعندئذٍ ينقطع قبول الإيمان وقبول العمل الصالح وقبول التوبة، وذلك لأن ظهور هذه الآية من آيات الساعة هو بمثابة حلول الأجل وحضور إنذارات الموت التي ينقطع بها قبول التوبة والإيمان والعمل، إذ تنتهي به مدّة الامتحان، وتبدأ أولى مراحل زمن الجزاء.

أقسام عصاة المؤمنين بالنسبة إلى التوبة:

يقسم القرآن العصاة من المؤمنين إلى ثلاثة أقسام:

* **القسم الأول**: عصاة مؤمنون يفعلون السوء بجهالة من الجهالات النفسية، التي تضعف معها إراداتهم، ثم يتوبون من قريب ويصلحون نفوسهم وسلوكهم، وهؤلاء قد وعدهم الله وعداً قاطعاً بأن يتوب عليهم، وجعل ذلك قضاء قضى به سبحانه وتعالى على نفسه إذ كتب على نفسه الرحمة، وقد دل على ذلك قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ ﴾.

فقد جعل الله في هذه الآية التوبة على هذا القسم من العصاة وعداً عليه حقاً، وأبان فيها المراد من قوله تعالى: ﴿ثم تاب من بعده﴾ في آية (الأنعام ٦) المكية بأن هذه البعديَّة ينبغي أن تكون من قريب إذ جاء فيها خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤ ﴾.

فهذه الآية توضح أن الله قد كتب على نفسه الرحمة فألزم بها نفسه، وفسرت الآية هذه الرحمة التي كتبها الله على نفسه بقبول توبة من عمل من المؤمنين سوءاً بجهالة، ثم تاب من بعده وأصلح نفسه وسلوكه.

وحين يقبل الله التوبة من التائبين الصادقين في توبتهم فيتوب عليهم، هل يكفر عنهم سيئاتهم؟

وذلك لأن قبول التوبة أمر، وتكفير السيئات أمرٌ آخر، فالتوبة عودة إلى ديوان الطائعين، وقبولها قبول العودة إلى هذا الديوان، أما تكفير السيئات فيعني ستر حالة الذنب نهائياً وعدم المحاسبة عليها.

ونجيب على هذا السؤال بما يلي:

١ ــ أما التوبة من الكفر بالإسلام فهي تجبُّ ما قبلها فضلاً من الله وكرماً، ففي الصحيح عن الرسول ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما قبله».

٢ ــ وأما توبة المؤمنين من ذنوبهم وسيئاتهم فإن صاحبها استغفار

أو كانت من اللمم والصغائر أو تبعها إصلاح واستقامة غفرها الله، للنصوص الواردة في ذلك، وإن لم يصاحبها استغفار وكانت من الكبائر ولم يتبعها إصلاح واستقامة فقد أعطى الله المؤمنين رجاء بأن يكفرها عنهم إذا تابوا إلى الله توبة نصوحاً، فقال تعالى في سورة (التحريم ٦٦):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

والترجية بـ (عسى) من كريم رحيم تفيد تحقّق الوقوع غالباً.

* القسم الثاني: عصاة مؤمنون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، واعترفوا بذنوبهم، ولكن دون أن تكون منهم توبة واستقامة.

وهؤلاء لم يعطهم الله وعداً قاطعاً بأن يتوب عليهم ويغفر لهم، ولكن أعطاهم رجاء بذلك، وقد دل على هذا الرجاء قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

فأمر التوبة على عصاة هذا القسم متردد بين الخوف والرجاء إذ لم يكن منهم توبة صحيحة، ولكن الظاهر أنه لا بد أن يكون منهم استغفار من ذنوبهم، وهو ما يشير إليه ضمناً قول الله تعالى في الآية: ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ فالمعترف بذنبه، يغلب من حاله أن يطلب من ربه العفو والغفران، ولو لم يكن مع استغفاره توبة وندم وعزم على عدم العودة إلى الذنب، ولذلك كثرت النصوص التي تدعو المذنبين إلى أن يستغفروا ربهم.

وحين نتساءل: هل الرجاء بالعفو والمغفرة بالنسبة إلى هذا القسم من

العصاة هو الأرجح؟ أو توقع العقاب هو الأرجح؟ فخير جواب يظهر لنا أن الله عليم حكيم، يعلم ما في القلوب والنفوس، فيعطي كل فرد ما يلائم واقعه القلبي والنفسي من المغفرة أو العقوبة.

ويرى جمهور العلماء أن الخوف من العقاب هو الذي ينبغي أن يكون ماثلاً في تصور الذين ما زال لديهم أمل طويل في الحياة، وأن الطمع بالعفو والغفران هو الذي ينبغي أن يكون ماثلاً في تصور الذين يتوقعون قرب آجالهم وأن شمس حياتهم آذنت بالغروب، على أنّ الترجية بـ(عسى) من الكريم الرحيم تفيد تحقق الوقوع غالباً كما سبق بيانه.

* القسم الثالث: عصاة مؤمنون أسرفوا جداً على أنفسهم، فلم يتوبوا ولم يعترفوا بذنوبهم، لأن أفكارهم ضائعة في أوحال المعصية، وإراداتهم مشتتة في عاتيات الأهواء.

ورجاء هؤلاء بالمغفرة ضعيف، ولكنه غير منقطع نهائياً، وتوقع العقوبة هو الأرجح بالنسبة إليهم، وقد دل على ذلك قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

مُرْجَون: مؤخّرون، من الإرجاء وهو التأخير.

أي: فهم مؤخّرون لأمر الله، والله بعلمه يحيط بما في قلوبهم ونفوسهم من خير وشرّ، ويحيط بظروفهم الاجتماعية، وبالأمور التي جعلتهم ينزلقون في المعصية، وهو بحكمته يضع كلًّا من عفوه أو عقابه في الموضع الملائم، لا يظلم أحداً مثقال ذرّة، وجانب فضله ورحمته سبحانه أرجح وأسبق في كل الأحوال من جانب عدله وسخطه.

هذه هي الأقسام الثلاثة لعصاة المؤمنين أخذاً من مفاهيم النصوص القرآنية، وقد ظهر لنا أن مرتبة التوابين أعلى المراتب بين عصاة المؤمنين، بل هي

أعلى المراتب بين المؤمنين جميعاً، لأنه لا يخلو مؤمن ـ باستثناء المعصومين ـ من معصية ولو صغيرة، ويجب عليه أن يتوب منها، فإذا تاب دخل في زمرة التائبين، والمؤمن العاصي الذي لا يتوب يضيف إلى معاصيه معصية ترك واجب التوبة، ولذلك جاء في النصوص الإسلامية الحث والتشجيع على التوبة بنسبة كبيرة.

منها قول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه».

ومنها ما روى البخاري عن الحارث بن سُوَيْد قال: حدثنا عبدالله بن مسعود حديثين: أحدهما عن رسول الله ﷺ، والآخر عن نفسه، قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا ـ أي بيده ـ فذبّه عنه. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرضٍ دَوِّيّة مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه.

فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده».

والتائبون المؤمنون تدعو الملائكة لهم بالغفران، قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ

مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

مستويات التوبة:

لما كانت التوبة رجوعاً إلى الله من مواقع البعد عنه بسبب المعاصي والذنوب، أو المخالفات والتقصيرات، أو الغفلات واشتغال النفس والفكر والقلب بغير مراقبة الله والتفكر فيه، كانت ذات مستويات متفاوتات.

فأدناها التوبة من الكفر والشرك، وهي توبة ترفع إلى مستوى الإيمان.

وفوقها التوبة من الكبائر، وهي توبة ترفع إلى بعض درجات التقوى.

وفوقها التوبة من الصغائر وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات التقوى.

وفوقها التوبة من المكروهات وترك المندوبات، وهي توبة ترفع إلى درجات البر.

وفوقها التوبة من التقصيرات عن درجات الكمال الإنساني في السلوك، وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات الإحسان.

وفوقها التوبة من الغفلات عن الله والاشتغال بغير مراقبته والتفكر فيه، وهي توبة ترفع إلى مرتبة المقربين.

ولهذه المستويات درجات يرتقي فيها التائبون بحسب ما يكون منهم من توبة إلى الله.

وتوبة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من مستوى التوبة العليا، واستغفارهم هو من شعورهم بتقصيرهم عن بلوغ أعلى درجاتها، فكلما وجدوا من أنفسهم أي تقصير ينزل بهم عن المرتقى الرفيع الذي ينشدونه تابوا إلى الله واستغفروا وأنابوا، ولذلك ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يستغفر الله ويتوب إليه في كل يوم أكثر من سبعين مرة.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه أكثر من سبعين مرة».

وروى مسلم عن الأغرّ المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة».

وروى مسلم عن الأغرّ المزني أيضاً، أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

«إنه ليُغان على قلبي» أصل الغين في اللغة الغيم، ويراد من الغين الذي يعتري القلوب: الحُجُب الرقيقة المعنوية التي تغشاها، فتجعلها تفتر عن مراقبة الله وذكره، فيكون الاستغفار صارفاً لهذه الحجب التي تشبه السحب، ويكون بمثابة جلاء للقلوب، وعندئذٍ تستقبل القلوب أنوار الله دون أن يكون بينها وبينها حجب تحجبها.

فتوبة الله على رسوله من هذا المستوى، وبها يكتسب الرسول ﷺ زيادة في القرب، وارتقاء في درجات المرتبة العليا، وعليها يحمل قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

وكذلك كانت توبة موسى عليه السلام، حينما ذهب إلى مناجاة ربه وسأله فقال: ربّ أرني أنظر إليك، وهو ما قصه الله علينا بقوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ

جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

فقد تاب موسى عليه السلام من طلبه النظر إلى ربه في حياته الدنيا إذ كان الأكمل في حقه أن لا يطلب مثل هذا الطلب، بعد أن اصطفاه بالنبوة والرسالة دون طلب منه.

ومن هذا الباب كانت توبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فيما قصه الله علينا بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

وإذا كان هذا حال الرسل فكيف يجب أن يكون حال غيرهم؟.

إن من واجب الناس جميعاً أن يكونوا توابين إلى الله، لأنهم جميعاً خطاؤون، روى الترمذي وابن ماجه والدارمي بإسناد حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

ولذلك دعا الله عباده إلى أن يستغفروه ويتوبوا إليه، ودعا الرسل الناس إلى أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه.

منها قول الله تعالى لرسوله في سورة (فصلت ٤١):

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ
وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (المزمل ٧٣):

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

ويقص الله علينا في سورة هود أن نوحاً وهوداً وشعيباً ومحمداً عليهم الصلاة والسلام طلبوا من أممهم أن يستغفروا ربهم ليغفر لهم.

تدبر طائفة من نصوص الرجوع إلى الله والتوبة إليه:

*** نصوص في الأوب:**

١ ـ يقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنه سبحانه وتعالى غفور للرجاعين إلى طاعته، بعد تجاوزهم إلى مواقع معصيته، ووصفهم بالأوابين على صيغة المبالغة يدل على أنهم يجددون باستمرار رجوعهم إلى الله كلما ابتعدوا عن طريق طاعته والاستقامة على شريعته، ولما كانوا كذلك كان الله لهم غفوراً، فهو يمنحهم من غفرانه قدراً كبيراً يناسب كثرة رجوعهم إليه.

ولكن الله إنما يتقبلهم باسمه الغفور إذا كانوا صالحين في نفوسهم، فالقضية مشروطة بأن يكونوا صالحين ﴿إن يكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾.

والمراد من الصلاح هنا صلاح النفوس والقلوب، فمن كانت نفسه من الداخل صالحة وكان قلبه صالحاً فإنه هو الذي يستحق أن يتقبله الله باسمه الغفور، كلما كبا في المعصية بضعفه الإنساني، ثم آب إلى ربه ورجع إلى طاعته مستغفراً من ذنبه. أما من كانت نفسه متمردة شريرة غير صالحة، وكانت غير عازمة بصدق على الرجعة الصحيحة إلى الله، فإن أوبته الظاهرة بلسانه أو بعمله إلى الطاعة لا تنفعه، ولذلك قال الله تعالى في صدر الآية: ﴿ربكم أعلم بما في

نفوسكم﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ فدل ذلك على أن المراد من الصلاح صلاح النفوس والقلوب.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

لقد أثنى الله في هذه الآية على داود عليه السلام بأنه أواب، أي: رجاع إلى الله تواب، مع أنه ذو أيد، أي: ذو قوة في الأرض وسلطان، ومن طبيعة القوة أنها تغري بالتمادي في المخالفة أو الغفلة، ولكن داود عليه السلام رسول معصوم لا تغريه القوة، فهو في تصاعد مستمر إلى الله.

٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾.

فأثنى على سليمان بمثل ما أثنى به على أبيه داود عليهما الصلاة والسلام.

٤ ــ وأثنى الله تبارك وتعالى على أيوب عليه السلام بمثل ذلك، فقال في معرض الحديث عنه في سورة (ص ٣٨):

﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

* **نصوص في الإنابة:**

٥ ــ ويقول الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فوعد الله الأوابين الذين يخشون الرحمن بالغيب ويأتون إليه بقلب منيب بأن لهم الجنة، إذ تقرب لهم تكريماً، وجزاء بما كانوا يعملون.

وهذا الوعد لكل أواب حفيظ، أما الأواب فهو كما عرفنا الرجاع إلى الله،

وأما الحفيظ، فيمكن أن يكون المراد منه أحد وجوه ثلاثة أوجهها أولها:

الوجه الأول: أنه حفيظ لإيمانه وعهده لربه.

الوجه الثاني: أنه حفيظ لتوبته من النقض والتغيير.

الوجه الثالث: أنه حفيظ لأوامر الله ونواهيه حريص على طاعة الله فيها.

٦ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

ففي هذا النص ينادي الله عباده الذين أسرفوا على أنفسهم أن ينيبوا إليه بالطاعة والعمل الصالح، وأن يستغفروه ولا يقنطوا من رحمته، ويطمعهم بأنه يغفر الذنوب جميعاً.

فأبواب الرجاء مفتوحة للذين أسرفوا على أنفسهم بموجب قوله تعالى: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً﴾.

ولكن ذلك في حكمة الله لا يكون إلا إذا كان من المسرفين على أنفسهم رجعةٌ إلى ربّهم، وإنابةٌ إليه، وإسلامٌ له، أمّا من دون ذلك فالعذاب هو الجزاء المقرر، الذي لا يجدون من ينصرهم وينقذهم منه.

ومن لطائف هذا النصّ أنّ الله تبارك وتعالى ينادي فيه عباده الذين أسرفوا على أنفسهم بحرف نداء البعيد (يا) إشارة إلى أنهم بإسرافهم على أنفسهم قد ابتعدوا عن الله، فهو يناديهم ليرجعوا إليه، ويقربوا منه بالتوبة والعمل الصالح، ثم ينهاهم عن القنوط من رحمته، ويؤكد لهم أنّ الله يغفر الذنوب جميعاً.

٧ ــ ويوصي الله الإنسان بأن يتبع سبيل من أناب إليه، فيقول تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ . . . ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: واتبع سبيل المؤمنين، لأنهم هم الذين أنابوا إليه، أي: رجعوا إليه بالإيمان والعمل الصالح والتوبة من الذنوب كلما سقطوا فيها.

٨ ـ ويقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

فحصر الله في هذا النص التذكر بمن ينيب، فقال تعالى: ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ وذلك لأن الآيات الكونية المنبثة في هذا الكون الكبير، والنعم الكثيرة العظيمة التي يفيضها الله علينا، إنما هي مذكرة بما يجب على الإنسان تجاه ربه من طاعة وشكر، ومراقبة وخشية، ولكنه لا يتذكر هذا التذكر إلا من يرجع بقلبه إلى ربه وينيب إليه، أما من يظل معرضاً متمادياً في بعده عن الله، فإن بينه وبين هذا التذكر حجاباً أو حجباً، إنه لا يخطر في باله ولا يملأ قلبه إلا ما يرضي أهواءه وشهواته ومطامع نفسه الدنيوية العاجلة، فهو عن الذكرى محجوب.

٩ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾.

فالاجتباء وهو الاصطفاء يختص الله به من يشاء بحكمته، وهذه المرتبة تكون للمصطفين الأخيار ﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾، ومن دونها تأتي مرتبة من يهديه الله إليه، أي: يقضي له بالهداية، ويوفقه إلى الارتقاء في معارجها، وهذه المرتبة يمنحها الله من ينيب إليه، أي: يرجع إليه بالإيمان والتوبة من الذنوب.

١٠ ـ ويقول الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ

بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

ففي هذه الآية بيان أن الآيات الكونية إنما ينتفع بدلالاتها من ينيب إلى ربه.

١١ ــ ويقول الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾.

فالعبد المنيب إلى ربه، الراغب بالتعرف على الحقيقة ليؤمن بها، هو الذي يجد في هذه الآيات الكونية تبصرة وذكرى.

١٢ ــ لكن من لم ترجعه إلى الله ظواهر الآيات ولا فيوض النعمة ولا خلجات الضمير، فإن مس الضر سيجعله ينيب إلى ربه ليكشف عنه ذلك، قال الله تبارك وتعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

لكن هذا الرجوع إلى الله عند مس الضر هو من صفات الإنسان مهما بلغ به الكفر والعناد، إنه في هذه الحالة ينيب إلى ربه، فيدعوه ويلتجىء إليه، حتى إذا كشف الله عنه الضر عاد إلى كفره وعناده وشركه بربه.

إن من لا يكون في قلبه إنابة إلى الله في حالة الرخاء فإن إنابته إليه في حالة الشدة لا تنفعه يوم القيامة، لأنها إنابة ضرورة ملجئة، لا إنابة اختيار حر.

لذلك فإن الله تبارك وتعالى يمتحن عباده في الدنيا بالشدة والرخاء، فمن رجع إلى الله في الشدة، ثم كان مثل ذلك حينما يكشف الله عنه الضر فهو الذي يوفقه الله ويهديه، ومن كان رجوعه إلى الله في أحوال الشدة فقط، ثم لا يكون مثل ذلك إذا كشف الله عنه ما به من ضر، فإنه عبد جحود كفور، يمتعه الله في الدنيا متاعاً قليلاً بما يفتح له من نعم، ثم يبعده عن رحمته ويجعله من أصحاب النار.

وحكمة الله في الامتحان بالسراء بعد الامتحان بالضراء لاختبار الصادقين في الإنابة إلى الله، قد دلت عليها عدة نصوص، منها قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ إشعار بأن الامتحان بالنعم بعد الامتحان بالمصائب هو الذي يكشف حقيقة الرجعة إلى الله، هل هي رجعة المضطر أم هي رجعة الطائع المختار الذي ذكرته بالله المصيبة.

وقوله تعالى: ﴿حتى عفَوْا﴾ أي: حتى كثروا وكثرت خيراتهم ونعمهم، وأغراهم ما وصلوا إليه بنسيان الله، ونسيان سلطانه في كونه، لذلك فإنهم يرجعون أمر تقلب الأحوال إلى أنها ظواهر طبيعية، أو مصادفات كونية، فيقولون: قد مس آباءنا من قبل الضراء والسراء، فما أصابنا منها إنما هو ظواهر طبيعية مماثلة لما مس آباءنا من قبل منها، ويعودون إلى كفرهم، فيأخذهم الله بالعذاب بغتة وهم لا يشعرون.

١٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ففي هذا النص يذكر الله تبارك وتعالى الذين ينيبون إليه في حالة مس الضر، فإذا كشف الله عنهم رجعوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكفر بنعم الله عليهم، ويشير إلى فريق آخر هو فريق المؤمنين الذين ينيبون إلى ربهم في حالة مس الضر، ثم يستمرون على إنابتهم إلى ربهم إذا كشف الله عنهم الضر، فيتعرفون إلى الله في الرخاء وينيبون إليه، كما تعرفوا إليه وأنابوا إليه في الشدة دل على هذا قوله تعالى: ﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ أي: وفريق آخر ليسوا كذلك.

فالإنابة إلى الله في حالة الضر يشترك فيها المؤمنون والكافرون، أما الإنابة إلى الله في الضراء والسراء فهي إنابة خاصة بالمؤمنين. على أن الإنابة الخاصة بالمؤمنين ذات درجات بعضها فوق بعض، ودرجاتها تتناسب مع مقادير الطاعة والاستقامة، وعلى مقدار نسبة الرجوع إلى الله، فالإنابة الدنيا تتمثل باجتناب عبادة الطاغوت وبالإيمان بالله، ويأتي فوقها إنابة الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، واجتهدوا في الأعمال الصالحات، ويأتي في الدرجة العليا إنابة الأنبياء والمرسلين، فإن نسبة رجوعهم إلى الله ودنوهم منه أرقى النسب وأعلاها.

١٤ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾.

فهؤلاء بإنابتهم اجتنبوا عبادة الطاغوت وآمنوا بالله، فكانت لهم البشرى بدخول الجنة، وهذا النوع من الإنابة إلى الله الذي يقتصر على الإيمان بالله واجتناب عبادة الطاغوت هو من أدنى درجات الإنابة إلى الله.

١٥ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فهؤلاء بإنابتهم إلى الله آمنوا بالله وعملوا الصالحات، ووصلوا إلى مستوى تطمئن فيه قلوبهم بذكر الله، فكان لهم طوبى وحسن مآب، ويظهر أن هذا النوع من الإنابة إلى الله أعلى درجة من النوع الذي دلت عليه الآية السابقة من سورة الزمر.

١٦ ــ ويقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

فوصف الله إبراهيم في هذه الآية بأنه حليم، ووصفه بأنه أواه، أي: كثير الدعاء، أو كثير التوجع خشية من الله، ووصفه بأنه منيب، أي: راجع إلى الله بالطاعات والقربات والمراقبات، وهذه الإنابة وصف ملازم له، ولذلك كان خليل الرحمن. ولا غرو أن مستوى إنابة الرسل إلى ربهم من أعلى المستويات، ودرجتها من أرفع الدرجات.

١٧ ــ وفي معرض الحديث عن شعيب عليه السلام يقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

فأعلن شعيب لقومه أن توفيقه لا يكون إلا بالله، وأن توكله على الله وحده، وأن إنابته إلى الله وحده.

١٨ ــ وفي معرض الحديث عن داود عليه السلام يقول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

إنه لما عرف أن الله قد امتحنه في قضية الخصمين اللذين تسوّرا عليه المحراب، استغفر ربه، وخر راكعاً إليه، وأناب إنابة التائب الوجل.

وكذلك فعل ابنه سليمان عليه السلام في امتحان امتحنه الله به.

وهكذا ظهر لنا من تتبع النصوص القرآنية في الإنابة أنها قد استعملت في الرجوع إلى الله، ولمّا كان الرجوع إلى الله رجوعاً إلى الحق ـ لأن الله هو الحق، ولأن دينه دين الحق، ولأن ما يقضي به هو الحق ـ كانت الإنابة من أسمى ظواهر فضيلة الرجوع إلى الحق.

* **نصوص في التوبة:**

تاب العبد إلى ربه: أي عاد إلى الله من ذنب قد اقترفه، وتاب الله عليه: أي عاد الله عليه بالمغفرة والعفو. وتوبة الله على عبده تعني قبول الله توبة عبده إليه فإذا قبلها عاد إليه بإكرامه ورحمته فغفر له ذنبه وعفا عنه.

وقد جمع القرآن بين توبة العبد إلى ربه وتوبة الله عليه في عدة نصوص:

١٩ ـ يقول الله تعالى في معرض الحديث عن أهل الكتاب في سورة (البقرة ٢):

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

ففتح الله باب الرجاء لأهل الكتاب، أن يتوبوا إلى الله، ويصلحوا، ويبينوا الحق الذي يكتمونه، فإذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم، إنه هو التواب الرحيم.

٢٠ ـ ويقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

ففتح الله باب التوبة في هذه الآية لمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، أي: أصلح نفسه وأصلح سلوكه، وحين يعلم الله صدق توبته وإصلاحه لنفسه وعمله فإنه يتوب عليه، أي: يعود عليه بفضله ورحمته وفيوض عطاءاته.

ويلاحظ أن لفظ التوبة حينما تكون التوبة من جهة العبد يتعدى بحرف (إلى) أما حينما تكون من جهة الرب فإنه يتعدى بحرف (على)، والسر في ذلك أن توبة العبد المذنب إلى ربه رجوع إلى الله مقترن بخضوع وتضرع وتذلل، فناسبه أن يكون التعدي بحرف (إلى) أما التوبة من جهة الله، فهي تفضل من الله على عبده بفتح أبواب رحمته والتوفيق إلى الاستقامة، فناسبه أن يكون التعدي بحرف (على) فرجوع الله إلى عبده رجوع تفضُّل وإنعام عليه، وهو العلي الكريم.

٢١ ـ وكان أول التائبين من البشر أبوهم آدم عليه السلام، لأنه أول بشر ربَّاني عصى، فتاب إلى ربه من ذنبه، فتاب الله عليه، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

٢٢ ـ وينادي الله الذين آمنوا أن يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً، فيقول تبارك وتعالى في سورة (التحريم ٦٦):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

التوبة النصوح: هي التوبة الصادقة الخالصة، التي يعزم التائب فيها على أن لا يعود إلى الذنب. وعرّف الحسن التوبة النصوح بقوله: هي ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وعزم على أن لا يعود. ونَصُوح على وزن فعول، وهي من صيغ المبالغة.

٢٣ ــ ويدعو الله الذين آمنوا جميعاً أن يتوبوا إليه، فقال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وقد جاءت هذه الدعوة إلى التوبة في سياق الأمر بالغض من الأبصار، وحفظ الفروج، ونهي النساء عن التهتك، وأمرهن بالاحتشام. وكأن في دعوة جميع المؤمنين إلى التوبة عقب الوصايا المتعلقة بغض الأبصار وحفظ الفروج ونهي النساء عن إبداء زينتهن لغير المحارم إلا ما ظهر منها، تلويحاً بأن الاستقامة التامة في هذا المجال مفقودة أو نادرة؛ ويؤكد هذا قول الله تعالى في سياق ذكر حادثة الإفك في سورة (النور ٢٤) نفسها:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

أي: لولا فضل الله عليكم بالحفظ ورحمته إيّاكم بالعفو والغفران ما طهر أحد منكم من أدناس المعصية والإثم في هذا المجال، ولسقط الجميع من ثقوب الغربال، ولجاؤوا ربهم مثقلين من ذنوبهم بأوزار وأحمال.

٢٤ ــ ويوجه الله رسوله لدعوة المشركين إلى التوبة من شركهم فيقول تبارك وتعالى في مطلع سورة (هود ١١):

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾.

ونلاحظ في هذا النص أن الانتقال من مواقع الشرك إلى مواقع الإيمان لتحقيق الرجوع المطلوب إلى الله، يحتاج أولاً إلى عملية تفريغ من كل أعمال الشرك بالله، وهذا يكون بطرح عبادة غير الله، ويحتاج ثانياً إلى إلقاء أوزار الماضي، وهذا يكون بالاستغفار، وفي المرحلة الثالثة تكون التوبة إلى الله والرجعة إليه رجعة قلب فارغ من الأغيار، يسعى إلى الامتلاء بالإيمان الخالص الصادق، ورجعة جوارح غير مثقلة بالأوزار، فهي تسعى خفيفة للقيام بكل عمل صالح يرضي الله تعالى، ويحقق الثواب العظيم عنده.

٢٥ ـ وكذلك دعا الرسل أقوامهم، وقد قص الله علينا دعوة هود قومه، فقال تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢ ﴾.

فأمر هود عليه السلام قومه بعبادة الله وحده، ودعاهم إلى أن يستغفروا الله من ذنوبهم، ثم يتوبوا إليه، أي: يرجعوا إليه تعالى بالطاعة والعمل الصالح.

٢٦ ـ والتوبة النصوح المقبولة عند الله تعالى هي التوبة التي يرافقها ويسايرها إصلاح واستقامة على الطاعة، وإذ كتب الله على نفسه الرحمة فإنه تبارك وتعالى يغفر لهؤلاء التائبين، وهو الغفور الرحيم، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤ ﴾.

فالوعد بالمغفرة والرحمة لمن عمل سوءاً بجهالة من الذين آمنوا مشروط بتوبة المذنب من بعد ذنبه، وبإصلاحه نفسه وسلوكه؛ وإصلاحه يكون بتعديل انحرافه، واستقامته على الطريقة التي شرعها الله لعباده.

وإذا عاد إلى المعصية مرة ثانية، فليعد إلى الاستغفار والتوبة بعدها، وليفعل ذلك كلما انزلق به ضعفه فهوى في المعصية، فإنه يجد الله غفوراً رحيماً، ما دام في كل مرة يتوب توبة صادقة يعزم فيها على أن لا يعود إلى المعصية، ولا يعتبر هذا منه تلاعباً، أما المتلاعب فهو الذي يقول بلسانه ما ليس في دخيلة نفسه، وذلك بأن يكون في قرارة نفسه غير عازم على الإقلاع عن الذنب، ثم يقول بلسانه: اللهم إني تبت إليك، فهذه توبة لسانية فقط غير مصحوبة بنية صادقة في القلب فلا ينظر الله إليها، وهذا ما دل عليه قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

فالله تبارك وتعالى ينظر إلى صدق التوبة في النفوس والقلوب، فمن الداخل يكون الصلاح أو الفساد، وأما الظاهر فهو تعبير فقط، وقد يكون التعبير صادقاً، وقد يكون كاذباً، وحينما يكون كاذباً فإنه لا قيمة له. وتوبة الله على عبده فضل من الله عليه، وهذا الفضل متروك لأمر الله وحكمته، فإن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، ولكن الله تعالى قد وعد الصادقين في توبتهم أن يتوب عليهم، ووعد الله حق لا يتخلف.

٢٧ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

وقد دلت هذه الآية على أن العمل الصالح بعد التوبة هو البرهان الواقعي الدال على صدق التوبة، وعلى كونها توبة نصوحاً، وهو ما نفهمه من قوله تعالى

فيها: ﴿فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: يتوب إلى الله متاباً صحيحاً صادقاً، وهو المتاب الذي يقبله الله فيتوب به على عبده.

٢٨ ـ وفي شأن المؤمنين الثلاثة الذين تخلفوا عن الرسول ﷺ فلم يخرجوا معه في غزوة تبوك، يقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

فقد كان من هؤلاء الثلاثة أنهم اعترفوا بذنبهم، وبينوا أنهم لم يكن لهم عذر في التخلف، فأعلن الرسول ﷺ مقاطعتهم، وأمر المسلمين بذلك، فتوجهوا إلى الله مستغفرين من ذنبهم تائبين لربهم، وظلوا على حالتهم هذه خمسين ليلة، وهم يلتجئون إلى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم، فأنزل الله على رسوله أنه تاب عليهم، إذ علم الله صدق توبتهم.

وبعد أن أعلن الله توبته عليهم، وألحقهم في ذلك بالنبي والمهاجرين والأنصار الذين خرجوا مع الرسول في ساعة العسرة (أي: في غزوة تبوك) قال الله تعالى: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ فدل هذا على أن الله بعد توبته الأولى عليهم التي كانت عقب توبتهم واستغفارهم تاب عليهم توبة أسمى، أي: أقبل عليهم بفيض عطائه وأمدهم بلطائف أنواره ليتوبوا إليه توبة أسمى من توبتهم الأولى، أي: ليرجعوا إليه سبحانه بمزيد من الأعمال الصالحات، ومزيد من المراقبة والإخلاص، حتى يكونوا من المحسنين، فيرتقوا بذلك إلى مرتبة الإحسان.

ونستطيع أن نقول: إن بين توبة العبد إلى ربه وتوبة الله عليه، نسبة تشبه

ما يكون بين الإنسان وبين ظله من المرآة، فظله في المرآة يبتعد عنه بمقدار ابتعاده عنها، ويقترب منه بمقدار اقترابه منها، إلا أن فضل الله تكون نسبته أكثر في حالة تقرب العبد إلى ربه، دل على هذا ما جاء في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخاري عن أنس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال:

«إذا تقرب العبد إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إليَّ ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة».

فالتوبة كما سبق بيانه ذات مستويات، وكلما كانت نسبة الرجوع إلى الله نسبة أكبر كان القرب من الله أعظم.

٢٩ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟

فقال: لا، فقتله فكمّل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟

فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبده معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية في الصحيح: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له».

إنه لمّا كان صادقاً في توبته، وجاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى ربه، قبل الله توبته، وكان الراهب الذي أفتاه بأنه لا توبة له مخطئاً في اجتهاده، جاهلاً بحكم الله في شأن قبول الله توبة العباد ما لم يحضر أحدهم الموت قبل أن يتوب.

إنه لولا أن باب التوبة مفتوح لكل العصاة، لتحول العاصي اليائس من التوبة والغفران إلى أكبر طاغ، وأخبث شيطان.

ولذلك كانت أصول التربية السليمة تقضي بعدم التيئيس من الإصلاح، وبعدم التقنيط من الرجعة إلى الاستقامة، مهما تمادى صاحب المخالفات في مخالفته وانحرافه، وإذا اقتضى الأمر معاقبته فإنه يعاقب ومع ذلك يفتح له رجاء التوبة والإصلاح حتى آخر مرحلة من حياته، قبل أن تبلغ روحه الحلقوم.

٣٠ ــ وروى مسلم عن عمران بن الحصين الخزاعي، أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا رسول الله، أصبت حداً فأقمه عليّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: «أحسن إليها فإذا وضعت فأتني بها» ففعل. فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل؟».

حقاً إنها لتوبة عظيمة، إذ جادت بنفسها، وقدمت جسدها للعذاب حتى الموت، ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأية توبة أعظم من هذه التوبة؟ إنه ليس فوق مثل هذه التوبة العظيمة توبة من معصية.

ربنا اغفر لنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

— ٨ —

الانحراف عن الحق
أقسامــه وأسبابــه وعلاجــه

الانحراف عن الحق أياً كان ظلم، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والظلم قد يكون من ظواهر الانحراف عن الحق وقسوة القلب عن قبول دعوته، وقد يكون من ظواهر فقدان خلق الرحمة وقسوة القلب الناجمة عن ذلك[١].

أقسام الانحراف عن الحق:

ينقسم الانحراف عن الحق إلى قمسين:

القسم الأول: الانحراف عن الحق في المفاهيم الفكرية.

القسم الثاني: الانحراف عن الحق في التطبيقات السلوكية.

* **أما الانحراف عن الحق في المفاهيم الفكرية فيرجع إلى عدة أسباب:**

(أ) فمنه ما يكون ناشئاً عن خطأ فكري بحت، أدى إليه غموض الحقيقة، أو قصور النظر، أو جهل بطريقة البحث السليم، أو حصر التفكير في جانب من جوانب البحث حيث الحقيقة موزعة في جوانب شتى من الساحة، وبذلك لا تستبين الحقيقة على وجهها الصحيح، فيكون الانحراف عن الحق.

وقد يكون المخطىء في هذا السبب مخلصاً في طلب الحقيقة، إلا أنه لم يسلك السبيل الموصلة إليها، لعجزه وضعف قدرته أو لتقصيره وتهاونه واستعجاله النتيجة.

(ب) ومنه ما يكون ناشئاً عن اتباع غير بصير وتقليد أعمى، دفع إليه تعصب ذميم، أو ثقة عمياء، أو تعطيل لأدوات البحث والمعرفة، وكل ذلك ينشأ عن جهل أو تقصير أو هوى.

---

(١) سيأتي شرح الظلم عند شرح الظواهر المناقضة لخلق الرحمة.

(ج) ومنه ما يكون الباعث عليه هوى من أهواء النفس، أو شهوة من شهواتها، أو مطلب من مطالبها، فتزين له أهواؤه وشهواته ومطالبه صورة من صور الباطل، فتجعله ينادي بأنها هي الحق، وكثيراً ما يحس بأنها مزينة له زوراً وبهتاناً، ولكنه يتغافل عن الحقيقة ويصرف نظره عنها، حتى لا تظهر له فتنغص عليه لذاته، وتعكر عليه صفو أهوائه وشهواته.

والغالب في أصحاب الانحراف أنهم لا يكونون مخلصين في طلب الحقيقة والبحث عنها، ولكنهم يحاولون أن يجدوا لانحرافهم في السلوك فلسفة فكرية مزينة بالأصباغ والألوان الفكرية الخادعة، ليبرروا بها انحرافهم، وهؤلاء عبّاد أهوائهم وشهواتهم، ومن الصعب جداً إرجاعهم إلى الحق عن طريق إقناعهم به، وتبصيرهم بوجهه المشرق، إذ هم مكابرون مجرمون، وليسوا بجاهلين ولا ضالين سبيل الحق.

*** وأما الانحراف عن الحق في التطبيقات السلوكية فيرجع إلى أحد سببين:**

الأول: الانحراف عن الحق في المفاهيم الفكرية.

الثاني: غلبة الأهواء والشهوات ودوافع النفس، على سلطان الإرادة، والانحراف بهذا السبب وحده لا يشكل خطراً كبيراً على الحق، ما لم يعم وينتشر وتمتد ظلمته إلى البصيرة، فتغشي عليها، وتطمس عنها وجه الحق فلا تراه.

والمنحرف عن الحق في التطبيقات السلوكية بغلبة الأهواء والشهوات ودوافع النفس، كثيراً ما يكون صيداً قريب المنال من أيدي المجرمين الشياطين، الذين يزينون الباطل الخادم لأغراضهم، فيوقعونه في شباكهم، ويسخرونه في سبلهم، ويزينون له الباطل بفلسفاتهم الملونة الخادعة حتى يعتقدها ويؤمن بها ويقاتل من أجلها، وعندئذ يكون أداة طيعة في أيديهم، وسلاحاً من أسلحتهم، وجندياً مسخراً لأهوائهم.

وأكثر جنود الشياطين المجرمين، هم من المنحرفين عن الحق في تطبيقاتهم السلوكية، بغلبة الأهواء والشهوات ودوافع الأنفس، ومن المنحرفين عن الحق في

المفاهيم الفكرية، الذين نشأ انحرافهم بسبب خطأ فكري بحت، أو بسبب تقليد أعمى واتباع غير بصير.

أما المنحرفون عن الحق في المفاهيم الفكرية، تأثراً بأهواء نفوسهم وشهواتها، فهم في الغالب الشياطين المجرمون من البشر، وهم في الغالب قادة حزب الشيطان، ولهؤلاء مكايد كثيرة، قد يستطيعون بها تسخير بعض أصحاب الحق أنفسهم. وطريقتهم أن يبحثوا عن مغامز الضعف في الإنسان، فيضغطوا عليها، أو يمسكوا بها، ثم يسوقونه متدرجين به، من مواطن الضعف فيه، إلى مواقع الخطيئة، ثم إلى مواقع الإثم الكبير، ثم إلى مواقع الفجور، ثم يدفعون به إلى مواقع الانحراف الفكري عن الحق، وعندئذ يهوي هوياً سحيقاً، فيكون مع المجرمين، جندياً من جنودهم، أو قائداً من قادتهم.

ويمثل الانحراف عن الحقّ في المفاهيم الفكرية تأثراً بأهواء النفوس وشهواتها أقصى انحراف خلقي وأعمقه، لأنّ صاحب هذا الانحراف لا يريد رؤية الحقّ، ولا يسعى في طلبه، ولكنّه يحاول جاهداً أن يجد في المفاهيم الفكرية فلسفة مزيّنة بالأصباغ والألوان الخادعة، حتى يبرّر بها انحرافه، وحتى يستطيع خدع الناس بها، وسوقهم إلى سُبُل الضلالة، ومن ثمَّ ينتهي به الحال إلى التزام منحرفات فكريّة باطلة، وحين لا يجد أيّة حجّة يغالط بها ليطمس وجه الحقّ، فإنه يلجأ إلى إعلان التكذيب بالحق وادّعاء أنه إفك، دون أيّة حجّة يحتج بها، وهذا ما بيّنه الله من أخلاق الكافرين المعاندين الكابرين، قال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

فهم يكذبون بكتاب الله، ويقذفونه بأنه إفك، لمجرد أنهم لم يهتدوا به ولم يتّبعوه، ولا يقدّمون أيّة حجّة تؤيّد ادّعاءهم، لأنهم لا يملكون شيئاً من ذلك، وهذا يعبّر عن مدى انحرافهم الخلقي الذميم.

* * *

العــلاج:

١ ـ قد يكون من العسير جداً علاج المنحرفين عن الحق في مفاهيمهم الفكرية، تأثراً بأهواء نفوسهم وشهواتها، واستجابة لانحرافهم الخلقي.

وقد لا يكون لهم دواء إلاّ البتر أو العزل الكلّي عن المجتمع، على أن من واجب دعاة الحقّ أن يبصّروهم به عن طريق الإقناع بالبـراهين والحجـج الدامغة، وبالأساليب الحكيمة وعن طريق الترغيب والترهيب، لإقامة الحجّة عليهم، وعسى أن يستجيب منهم ذو خير، وينتفع برؤية الحقّ منهم منتفع، ويخاف من مخالفته خائف، ويطمع باتباعه طامع.

٢ ـ أما المنحرفون عن الحقّ في مفاهيمهم الفكرية بسبب خطأ فكري بحت ـ وهم مخلصون في طلب الحقيقة ـ أو بسبب اتباع غير بصير وتقليد أعمى، فمسؤولية أصحاب الحق الدعاة إليه في اتخاذ الوسائل المختلفة لعلاجهم مسؤولية كبرى، لأن الأمل بإصلاحهم وإقناعهم بالحقّ كبير.

ويبدأ داعي الحقّ بالتودّد والتأنيس، حتى يـزيل حجـابَ الوحشـة، ويستدرج إلى الألفة، ويكتسب الثقة.

ثم ينتقل إلى استخدام الطرائق الحكيمة للتبصير بوجه الحقّ، ومن الخير أن يتخذ طريق الإقناع والمناقشة الهادئة الحكيمة.

فإنْ كان المنحرف عن الحقّ صادقاً فعلاً في طلب الحقّ والبحث عنه، إلاّ أنه أخطأ سبيله إليه، فإنه سيسهل إقناعه متى عرفت سلسلته الفكرية التي انتهت به إلى الخطأ. وعندئذٍ يُبصَّر بالمزالق التي جعلته ينحرف فكرياً، ويؤخذ بيده إلى سواء سبيل البحث، فإذا وصل إلى معرفة الحقّ عن طريق المناقشة، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام امتحان خلقي، بعد أن اجتاز مرحلة تحوّل فكري.

(أ) فإن كان من ذوي الخلق الكريم رجّاعاً إلى الحقّ سارع فأعلن رجوعه إلى الحقّ وأخذه به، دون أن يجد عقبات في نفسه تصدّه عنه.

(ب) وإن كان في أخلاقه انحراف أو كبر أو عناد أو تعصّب أو عجب

بالنفس أو نحو ذلك، صعب عليه أن يعلن رجوعه إلى الحقّ واعترافه به، وصار له شأن آخر بعد سقوطه في الخطأ والتزامه له، وقامت في نفسه عقبات منعته من الرجوع إلى الحق، رغم أنه كان مخلصاً في طلب الحق أولاً.

وتختلف ظواهر سلوك هذا الصنف من الناس تبعاً لاختلاف نسب ما في نفوسهم من منحرفات خلقية، فمن متربص قليلاً، ومن متربص طويلاً، ومن محتال مراوغ ليوفق بين إرضاء ضميره وإرضاء نفسه، ومن مصرّ مكابر يعجز عن اجتياز عقبات نفسه. وهكذا فمن الناس من يتهرب من إعلان رجوعه إلى الحقّ، ويحاول تعليق البحث، ثم يتراجع تراجعاً ضمنياً على مراحل، حتى إذا نسي الناس موقفه السابق أخذ يعلن مذهبه الجديد موهماً بإعلانه أنه هو ما كان يراه قديماً، وأنّ شيئاً لم يتغيّر لديه.

ومن الناس من يطوي البحث طيّاً نهائياً، فلا يعلن ـ ولو بعد حين ـ رجوعه إلى الحق، ويسكت عن رأيه القديم الذي انكشف له بطلانه.

ومن الناس من إذا عُرّف بالحق فلم يستجب له ولم يرجع إليه، ثم قيل له: اتق الله، ووجد لديه القوة والقدرة على أن ينتقم ممن يذكره بالله ويأمره بالتقوى، أخذته العزّة بالإثم فانتقم. وربما يكون في حالة ضعفه وعجزه ليّن الجانب، ناعم الملمس، حسن القول، يعجب الناس كلامه، ويزعم لهم أنّ ما يقوله بلسانه مطابق لما في قلبه، ويقدّم أحلى المواعيد، ويُشهد الله على ما في قلبه، فإذا ظفر بالقوّة قلب ظهر المجن وسعى في الأرض فساداً.

وقد ذكر الله هذا الصنف من الناس بقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ألدّ الخصام: أشدّ الخصوم خصومة، وأكثرهم جدلاً وإصراراً على موقفه. أو أعوج الخصومة، فالألدّ في اللغة الأعوج.

ومن الناس من يصر على باطله عناداً، حتى إذا نسي الناس موقفه ورأيه وما كان يقوله، تبنّى الحق على أنه هو رأيه الذي اهتدى إليه بفكره، ولم يرشده أحد إليه.

ومن الناس من يرى الحقّ بعد أن يقام له الدليل عليه، ولكن يتابع جدله بالباطل، تغطية لموقفه، واستكباراً عن قبول الحقّ من غيره، ولئلا يقال: إنّه كان مخطئاً ثمّ اعترف بخطئه، فتُخدش عند الناس كبرياؤه، وتجرح عنجهيته وعظمته، وقد يُسمّي ذلك كرامة وهي ليست من الكرامة في شيء، إلاّ أنّ خلقه قد امتحن في موقف من مواقف أنانيته المستكبرة، فلم يستطع أن يجتاز عقبة نفسه القاسية.

ولمعالجة أقسام هذا الصنف من الناس طرائق وأساليب شتى تحتاج إلى ذكاء كثير، وحكمة وافرة، وصبر كبير، ونفس طويل، ولا يستطيع اتخاذها والصبر عليها إلاّ قلّة من الناس.

وهي في معظمها حيل حكيمة تستدرج من كان من أقسام هذا الصنف من حيث لا يشعر، حتى يعلن الحقّ بنفسه، ظانّاً أنّ أحداً لم يفرضه عليه، ولم يكن له فضل بتبصيره به، وإنما وصل إليه ببحثه.

ومن الخير لداعي الحقّ والدالّ عليه ــ متى عرف أنّ وجه الحق قد أشرق في فكر من يقنعه به ــ أن يكفّ عنه، ويتركه فترة من الزمن، وليحذر من إحراجه بأية كلمة تمسّ جانب كبره وعجبه بنفسه، إنه سيجده بعد حين من الذين ينادون بالحقّ الذي بصّره به، ومن الذين يدعون إليه، لأنّ كرامته الموهومة لم تُمسّ بما يجرحها، بخلاف ما لو غمز جوانب نفسه المستكبرة بشيء يجرحها، فإنه حيئنذٍ يدفعه إلى الإصرار على باطله، من حيث يريد إقناعه بالحقّ.

وبعض دعاة الحق يقعون في خطأ كبير فاحش حينما يستثيرون من يريدون

إقناعه بالحق، شيئاً من جوانب نفسه المعاندة المستكبرة، فيدفعون به إلى أن يصرّ على الباطل بعناد واستكبار، وربّما كانوا هم بإثارتهم له ضحيّة شيطان من شياطين أنفسهم، وعبيد هوى من أهوائها، ولو كانوا ينصرون الحقّ ويدعون إليه،فليتقوا الله في اختيار وسائل وأساليب الدعوة المجدية المؤثرة النافعة التي ترضي الله تعالى، ولا يكونوا عوناً لشيطان صاحب الباطل، بل عليهم أن يكونوا عوناً له ولإرادة الخير فيه ولضمير الحق لديه على نفسه وهواه وشيطانه.

فمن واجب دعاة الحقّ أن يلاحظوا طباع الناس المختلفة، ويعاملوا كل ذي طبع بما يلائمه من وسائل الإصلاح، وعليهم أن يضعوا في حسابهم أنّ في الناس معاندين مستكبرين، إذا استثيروا من مغامز عنادهم واستكبارهم أصروا على باطِلهم ولو انكشف لكلّ ذي عين.

يحكى أنّ رجلين اصطحبا في طريق، وكان أحدهما عنيداً مستكبراً، إذا رأى رأياً أو أخطأ خطأ تعصّب له، ولو تبينّ له أنّ الحق على خلافه، فبينما هما يسيران بدا لهما من بعيد حيوان على الأرض، فساءل بعضهما بعضاً: ما هذا؟ فرأى العنيد منهما أنه جَدْيٌ صغير أسود، ورأى صاحبه أنه غراب، واختلفا ولزم كلّ منهما رأيه. واستثار من رأى أنه غراب في صاحبه ما لديه من كبر وعناد، بعد أن تشارطا، ثم أخذ حجراً فرماه إلى جهة الحيوان فطار وعلا في الجوّ، وظهر أنه غراب، فقال العنيد منهما لصاحبه: إنه جديٌ ولو طار.

على الرغم ممّا في القصة من مبالغة، إلاّ أنه يوجد كثير من الناس يصرون على باطلهم مثل هذا الإصرار، حينما يستثارون من مغامز العناد والاستكبار ولو وضح الحق لديهم مثل ضوء النهار.

ومن قصص العناد المضخمة التي يحكي فيها الناس صورة الإصرار على الباطل، قصة أبـي عناد:

يحكى أنّ فلاّحاً اشتهر في قومه بالعناد العجيب والإصرار على الخطأ، حتى صار يضرب فيه المثل بالعناد والإصرار على الخطأ، وأطلق القوم عليه كنية أبـي عناد.

وكان لأبـي عناد مزرعـة زرع فيها بطيخاً، فنمت عنده واحدة منهنّ نموّاً كبيراً، فقال في نفسه: إنّ هذه تصلح لأن أقدّمها هديّة للأمير، وهو يكرمني عليها، فحملها للأمير على دابّته، وطلب الدخول إليه ليقدّم له تحفة مزرعته، والجميع يعرفونه بخلقه، فلمّا قدّم هديته أراد الأمير أن يحاوره ويمازحه، فقال له: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله، هذه البطّيخة كبيرة جدّاً، فكيف نقـطعها يا أبا عناد؟

فأخطأ أبو عناد وقال: يا سيدي الأمير هذه تُقطَّع بالمقراض ــ أراد أن يقول: بالسكين ــ فأخطأ لسانه فقال: بالمقراض، فأصرّ على الخطأ بعناد.

فقال له الأمير: لعلّك أخطأت يا أبا عنـاد، فأنت تـريد أن تقـول: بالسكين، فسبق لسانك فقلت: بالمقراض.

قال: لا أيها الأمير، هذه لا تقطَّع إلا بالمقراض، وأصرّ أبو عناد على خطئه.

فحاوره الأمير هو وحاشيته وداوروه ليرجع إلى الصواب، فلم يرجع، وظلّ مصرّاً على ما قال.

قال الأمير: خذوه وغرّقوه في البحر شيئاً فشيئاً ليرجع عن خطئه، فأخذوه ورموه في مكان من البحر، وجعلوا يسألونه: بماذا؟ فيقول: بالمقراض، وظلّ هكذا حتى وصل الماء إلى فمه، وهو يقول: بالمقراض، فغمسوا رأسه بالماء فرفع يده عالياً وجعل يشير بأصبعيه بمثل حركة المقراض فتحاً وضمّاً.

فلما رأى الأمير منه ذلك استغرق في الضحك، وقال: أخرجوه إنّ أبا عناد لن يرجع عن خطئه ولو لقي حتفه، ثم أكرمه على هديته، وانصرف الرجل.

إنّ ظاهرة العناد والإصرار على الخطأ ولو ظهر وجه الحقّ، ترجع إلى خلق الكبر والعجب، وقسوة النفس والقلب، وقد ترجع إلى خلق الحسد، وقد ترافق ذلك حماقة وضعف في الإدراك، وقد ترجع إلى غير ذلك من أهواء النفس وشهواتها.

وبعض الناس قد يسبب لهم كبرهم وعنادهم الكفر والجحود بالله، ثم العذاب الأليم في نار جهنم.

وأخفُّ أقسام المستكبرين المعاندين من يراوغ فيقر بالحق في نفسه، ولكنه يحاول أن لا يظهر للآخرين أنه كان على خطأ فاستبان له الحقّ فرجع إليه.

ـ ٩ ـ

بواعث جحود الحق والكفر به مــــع ظهــوره ووضــوح أدلتــه

إذا لم يكن جحود الحق ناشئاً عن خطأ فكري صوَّر لدى الجاحد الحقَّ باطلاً والباطل حقاً، فإنّ جحود الحقّ عندئذٍ يرجع إلى انحراف خلقي في النفس.

وباستطاعتنا أن نضع أيدينا على عدّة عناصر من عناصر الانحراف الخلقي، الدافعة إلى جحود الحقّ والكفر به مع ظهوره ووضوح أدلته.

فمنها ما يلي:

١ ـ **الكبر والعجب بالنفس.**

٢ ـ **الرغبة بالفجور استجابة لأهواء النفس وشهواتها.**

٣ ـ **الحقــد.**

٤ ـ **الحســد.**

٥ ـ **كراهية الداعي إلى الحق.**

٦ ـ **التقليد الأعمى والتعصب الذميم.**

٧ ـ **نوازغ نفسية أخرى كالغضب، والطمع، والخوف.**

وسنعالج إن شاء الله فيما يلي شرح أهم هذه العوامل الدافعة إلى جحود الحق والكفر به.

(١) الكبر والعجب النفس:

الكبر والعجب بالنفس داء من أدواء النفس الخطيرة، التي تمثل انحرافاً خلقياً يجنح بالإنسان عن سبيل الحق. والكبر والعجب بالنفس من أبرز وأخطر العوامل التي تدفع إلى الانحراف في المفاهيم الفكرية، وذلك لأنه متى نفخ الكبر والعجب بالنفس في أنف المستكبر المغرور، واستوليا على عقله وإرادته، ساقاه بعنفٍ شديدٍ وتمرد لئيم إلى غمط الحق وطمس معالمه، ثم إلى انتحال صور من الباطل يعمل على تزيينها وتحسينها بالأقوال المزخرفة، والحجج المزينة بالألوان والأصباغ، وهي في حقيقة حالها أشبه ما تكون بأخشاب المسارح ورسومها وستورها، مظاهر خادعة ولكن لا حقيقة لها.

* * *

تعريف الكبر:

يرجع الكبر في جذوره النفسية إلى الشعور المغرور بالاستعلاء الذاتي على الأقران والنظراء، وعلى المكانة التي يجد المستكبر نفسه فيها داخل مجتمعه، ويرجع إلى الرغبة بإشعار الآخرين بالامتياز عليهم، ولو لم يكن لهذا الامتياز وجود في الواقع فهو انتفاخ بغير حقّ، وتطاول بغير حقّ، وتعالٍ بغير حقّ، وتصغير للآخرين بغير حق، أو تصغير مالَهُم بغير حق.

ويرجع أيضاً إلى الرغبة الجامحة في عدم الخضوع لأحد، ويقترن بهذه الرغبة الشعور الجاهل المغرور بالاستغناء الذاتي.

فله عدة أسباب نفسية تنبع من منابع الأنانية المفرطة:

السبب الأول: الرغبة بعدم الخضوع لأحد، وتمتد هذه الرغبة في أقصى مداها إلى التمرد على طاعة الله الخالق الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وبيده الحياة والموت، والنفع والضر، وهو على كل شيء قدير. ومع هذه الرغبة الحمقاء يأتي الشعور النفسي الجاهل المغرور باستغناء المستكبر بذاته، ومتى عظم هذا الشعور واستولى على جوانب النفس تولد عنه في سلوك المستكبر الطغيان ﴿إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ ولا ينمو هذا الشعور ويعظم إلاّ وفي العقل نقص، وفي الإدراك قصور، وقد ينشأ ذلك عن حجب كثيفة من

الرغبات النفسية الجامحة، تحجب البصيرة عن إدراك كثير من الحقائق التي تخالف هواها.

السبب الثاني: الطموح الجامح إلى الامتياز على الآخرين، والرغبة المجنونة باحتلال المرتبة المتفوقة ولو بغير حقّ، ومع إرادة هذا العلوّ في الأرض ولو بغير حقّ يأتي الشعور الجاهل المغرور بالاستعلاء الذاتي. ومستكبر من هذا النوع يجد أنّ من حقه على المجتمع أن يمنحه هذا الامتياز والتفوق، وأن يعترف له به، وحين لا يعطيه المجتمع هذا الحقّ الذي رآه هو لنفسه يحقد عليه، ويبدو منه تصرفات عجيبة حمقاء تجاهه.

أو يأتي الشعور الجاهل المغرور بأنه يستطيع أن ينال ما يطمح إليه عن طريق الاستكبار.

إن مستكبراً من هذا النوع لا يريد أن يعرف أنّ طريق المجد صعب، وأنه طريق صاعد لا يرتقي إلاّ بشق الأنفس، وبجهاد طويل، وكفاية فطرية.

إنّ مستكبراً من هذا النوع تزين له نفسه أن يختصر الطريق، فيستكبر انتفاخاً، بدل أن يكدح لنيل المجد بالتزود بالصفات والخصائص الحقيقية، وبدل أن يرضى بنوع المجد ومقدار المجد الذي يمكن أن توصله إليه خصائصه الفطرية والكسبية.

إنّ مستكبراً من هذا النوع، لا يريد أن يعرف أنّ طلب الإنسان لأمر ليس هو مؤهلاً له معاكسة لسنة الحياة، ولطبائع الأشياء، بل تزين له نفسه أنّ الاستكبار من الطرق التي تمكنه من أن يعتلي مرتبة مجد ليس هو مؤهلاً لها في خصائصه الفطرية أو المكتسبة، فيكون مثله كمثل الهرّ الذي ينتفخ ليشعر خصمه بأنه أسد، أو كمثل الشاة التي تلبس جلد النمر، أو كمثل الزبد الذي يربو على الماء ويتعالى مستكبراً منتفخاً، ثم يذهب جفاء مطروحاً لا قيمة له، ولا كيان له.

إن طلب المجد عن طريق الاستكبار غباء شديد، إذ الصلة بين المجد

والاستكبار منقطعة تماماً، ولا يتصلان إلّا في وهم المستكبر، أو خرافة الخيال، أو أحاديث مرضى العقول.

السبب الثالث: الرغبة بإخفاء ما يشعر به المستكبر من نقص في ذاته أو في عمله وهو حريص على أن يكون في أعين الناس كبيراً، وأن لا يكتشفوا نقصه.

ومع هذه الرغبة، يأتي السلوك الغبيّ لتغطية النقص بعملية الانتفاخ والاستكبار، فيفضح بهذا السلوك نفسه، إذ يوجه أنظار الناس إليه باحثين عن حقيقة حاله. والناس أذكياء، لا تخفى عليهم محاولات المستكبر، ولا تخفى عليهم أهدافه، إنهم بسرعة يكشفونه ويستبينون نقصه، فيحتقرونه، ويستصغرون عقله، ويرونه مصاباً بداء مركب النقص.

ولقد كان باستطاعته أن يستر نقصه بالتواضع، ولين الجانب، والتحبب إلى الناس، والصمت فيما يجهل، والبعد عن التحديات، والاعتذار عما لا يحسن، وعدم الادعاءات الباطلة.

* * *

تعريف الرسول للكبر:

وقد عرف الرسول ﷺ الكبر بأبرز مظاهره في السلوك، روى مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إنّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس».

فعرّف الرسول الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس. وهو تعريف له بأبرز مظاهره السيئة في السلوك. ونشرح هذا التعريف النبوي فنقول:

البطر: يستعمل في عدة معانٍ، ففي المشي والحركة والعمل يدلّ على التبختر والخيلاء والخروج عن حدّ الاعتدال والاتزان في ذلك. والبطر عند مفاجأة النعمة يدل على التصرف المعبر عن الدهش والحيرة وقلة الاحتمال. والبطر عند دوام النعمة الكثيرة يدلّ على الطغيان فيها والخروج عن حدّ

الاعتدال إلى الإسراف والتبذير والاستهانة. والبطر في أحوال المسرة يدلّ على شدة المرح والإفراط فيه. والبطر عند مواجهة الحق يكون بالاستعلاء عليه والاستكبار عن قبوله والتقريط في شأنه، والاستهانة به، وكما أنّ بطر النعمة يكون بالاستهانة بها والطغيان فيها، والتعالي عليها، كذلك بطر الحق يكون جحوداً له، وتفريطاً فيه، واستهانة بشأنه، والحقّ من أعظم النعم التي تساق إلى الإنسان، والتي يجب أن تقابل منه بالاحترام والقبول والشكران، فبطر الحقّ يعني جحود الحق، مع الاستهانة به، والاستعلاء عن قبوله، وهذا أقبح صور الكبر.

ولكن كيف نتصور أن يكون عدم قبول الإنسان للحقّ نوعاً من أنواع الكبر أو مظهراً من مظاهره؟

وفي الإجابة على هذا التساؤل نقدّم أمثلة عملية كاشفة: إننا نجد كثيراً من ذوي المكانة أو الرياسة أو السلطان في قومهم، إذا عرض عليهم مَنْ هو دونهم في المكانة أو الرياسة أو السلطان أمراً هو حقّ لا شك فيه، ولكنه جاء مخالفاً لرأيهم أو لما كانوا قرروه أو عملوا به، جحدوه، وأنكروه، واحتقروه، واستصغروا صاحبه، وأصروا على مخالفته، وإن ظهر لهم أنه حق، وربما كانت مصلحتهم الخاصة في جانب الحقّ، لا في جانب الباطل الذي أصروا عليه. هذا الصنف من الناس موجود بكثرة، وكثيراً ما نجده في المستويات العادية، وفي الدوائر الإنسانية الصغرى، في الأسرة، في المدرسة، في مكتب العمل، بين الزملاء.

وحين لا يكون رفض الحق وعدم الأخذ به ناشئاً عن هوى نفسيّ خاصّ لا يأتي إلاّ من جهة الباطل، فإننا لا نجد مبرراً له إلاّ استكبار الجاحدين عن قبول الحقّ الصادر عن غير رأيهم.

وإذا أردنا أن نحلل طيوف أنفسهم تحليلاً دقيقاً، وتغلغلنا في البحث إلى أعماق مشكلتهم النفسية ظهر لنا كبر نفوسهم بأقبح صورة.

إن الذي تأتيه فكرة الحقّ من الآخرين، فيرفضها، ثم يقاومها، دون أن

يكون له هوىً خاصّ في مخالفتها لذاتها، ولو أنها كانت من نتاج رأيه لكان من الداعين لها، والمفاخرين بها، والمتعالين بين الناس بأنه هو صاحبها ومبتكرها، لا يفعل ما يفعله إلّا بدافع من الكبر القبيح في نفسه.

إنّ المحذور الذي يخشاه إذا هو تقبل الحقّ الصادر عن غيره أن ينال المجد ذلك الذي صدر عنه الحقّ أو دعا إليه، فيكبر به عند الناس، وينازعه مكانةً اجتماعية يطلبها لنفسه.

على أن هذا المحذور لا يعدو أنه نسيج من الأوهام، ولو أنه عقل وتبصر بحقيقة الأمر، لعرف أنّ المجد الذي يظفر به حينما يقبل الحقّ ويرجع إليه من أيّ مصدرٍ أتى أجلّ وأعظم مما يريد المحافظة عليه لنفسه.

فالاستكبار خطة غبية وفاشلة لنيل المجد والمحافظة عليه بين الناس، وذلك لأنّ الناس الآخرين مثله، يعرفون دوافع النفوس، ويحقرون في نفوسهم المستكبرين، ويستصغرونهم، ويعطون المجد الحقيقي للذين يقبلون الحقّ ويرجعون إليه، ولا يستكبرون عنه. الناس يكرهون المستكبرين، ويحبون المتواضعين موطَّئي الأكناف، ويعطون المجد الحقيقي للذين يحبونهم، أما الذين يستكبرون عليهم فيستصغرونهم ويحتقرونهم، وهذا من الجزاء الرباني الساري ضمن سنن الله الاجتماعية التي فطر الله الناس عليها.

يضاف إلى ذلك أنّ الله تبارك وتعالى ييسر للذين يتواضعون ابتغاء مرضاته ما يرفعهم ويعلي أقدارهم، ويضع في طرق المستكبرين عقبات تصدّهم عن بلوغ المجد، ومزالق تزلق بهم إلى المهانة والصغار، فمن استكبر على الحقّ وضعه الله، ومن تواضع لله رفعه الله.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن عمر قال ــ وهو على المنبر ــ: يا أيها الناس تواضعوا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبر وضعه الله، فهو في أعين الناس صغير، وفي نفسه كبير، حتى لهو أهون عليهم من كلبٍ أو خنزير».

إن المجد الذي ناله عمر بن الخطاب بقبوله الحق، ورجوعه إليه، وعدم استكباره في نفسه بما وصل إليه من سلطان لم يكن ليظفر بعشر معشاره لو كان مستكبراً عنيداً، مغروراً بنفسه، معجباً برأيه.

ومن لطائف خوف عمر على نفسه من الكبر، ومن العجب بالنفس، ومن الخيلاء، أنه ركب ذات يوم برذوناً، فجعل هذا البرذون يتبختر به، فأخذ يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي.

وقصته حين مقدمه في فتح بيت المقدس، وما كان فيها من مظاهر تواضعه لله وعدم استكباره في الأرض، قصة معروفة مشهورة، وهي من روائع قصص العظماء، إذ كان يتناوب الركوب هو وخادمه، وكانت النوبة الأخيرة قبيل الوصول أن يركب خادمه الناقة ويكون هو الذي يقودها ماشياً، ووصل إلى القوم وهو يقوم بنوبته هذه، فلم يقلل ذلك من مجد عمر رضي الله عنه، بل زاده مجداً إلى مجد، ومكانة إلى مكانة.

لقد تعلم عمر من الرسول صلوات الله عليه كيف يكون تواضع الفاتحين.

هذا بطر الحق، وهو الجزء الأول من التعريف الذي عرف الرسول ﷺ به الكبر. ويتلخص بطر الحق بأنه جحود الحق مع استهانة به واستعلاء عليه، إرضاء للنفس الأنانية المستكبرة، التي تريد الاستئثار بالمجد والكبرياء في الأرض، وتستعلي عن اتباع غيرها وطاعته، مهما كان الحق والخير في جانبه، وتستعلي عن الرجوع إلى الحق وإن تبيّن لها خطؤها، عناداً وإصراراً على الباطل، وترى أنها أكبر من أن تستجيب لدعوة الحق من غيرها، وأكبر من أن يخفى عنها أمرٌ ويعلمه آخرون.

أما الجزء الثاني من التعريف الذي عرف به الرسول الكبر، وهو «غمط الناس».

الغمط: هو الاحتقار، والازدراء، والاستصغار، وعدم مقابلة الإحسان بالشكر.

فغمط الناس هو احتقارهم، واستصغارهم، والازدراء بهم، والاستهانة بأقدارهم، وعدم شكرهم على إحسانهم، والترفع عن الثناء عليهم بفضائلهم، وعدم الاعتراف بحقوقهم الأدبية وصفاتهم الفاضلة. ويصل طغيان هذا الغمط في أقصى مدِّه إلى محاولة حرب الناس لهدم فضائلهم، وطمس كمالاتهم، وتحقيرهم وتصغيرهم بين الناس بالكذب والزور والبهتان، بغية احتفاظ المستكبر بالمكانة الاجتماعية لنفسه دون الآخرين. فهو إذا لم يستطع أن يعتلي مكانة المجد بكمالاته، فليعلها بتحطيم كمالات الآخرين، وتهديم مكاناتهم الاجتماعية، هكذا تأمره نفسه الشريرة الأنانية المستكبرة.

وعلى مقدار ما يكون في نفس المستكبر من كبر، وحرمان من خشية الله، وعدم تقدير لعواقب الأمور، يكون غمطه للناس، ويخف ذلك متى تناقص الكبر، أو حصلت نسبة من خشية الله، أو كان صاحب هذا الخلق عاقلاً حصيفاً يحسن تقدير عواقب الأمور ونتائجها. ومتى عظمت الخشية من الله، واستقام العقل في تقديره للعواقب، صلح حال الإنسان، وشفي من مرض الاستكبار بغير حق، ووجد أن المجد العظيم الذي يحققه بطاعة الله، والتواضع ابتغاء مرضاته، أجل وأعظم بكثير من المجد الذي تصبو إليه نفسه، ويحاول السعي إليه عن طريق الاستكبار الذي لا يوصل بحالٍ من الأحوال إلى المجد الذي يريده، ولكنه متى سار فيه أشواطاً انهار به، فوجد نفسه في مواقع الضّعة والمهانة والذلة، ورأى الناس يعاقبونه على كبره بالاحتقار والاستصغار.

* * *

تحذير الإسلام من الكبر والغرور بالنفس:

تبيّن لنا أن الكبر من أقبح الانحرافات الخلقية وأسوئها، وأنه قد يدفع بصاحبه إلى جحود خالقه والاستكبار على طاعته، ولذلك شدّد الإسلام في تحريمه والتحذير منه، وشدّد اللائمة على المستكبرين، وأوعدهم بالعقاب الشديد، كما رغب بالتواضع وحث عليه، ومجّد المتواضعين وأثنى عليهم، ووعدهم بالثواب الجزيل.

وفيما يلي طائفة من النصوص الإسلامية في هذا المجال:

١ ـ روى الترمذي بإسناد حسن عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون».

قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيقهون؟ قال: «المتكبرون».

والمتشدقون هم الذين يتكلمون بملء أفواههم، ويتصنعون القول تصنّعاً مع التعاظم به والتعالي على الناس، فيرجع إلى دافع الكبر.

ومن هذا الحديث نلاحظ أن أبغض المؤمنين إلى رسول الله وأبعدهم منه مجلساً يوم القيامة المتكبرون.

٢ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار».

فالعقوبة الأخروية المقررة لمن ينازع الله تبارك وتعالى في صفتيه الكبرياء والعظمة أن يقذف في النار.

٣ ـ وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

٤ ـ المتواضعون لله هينون لينون، وبذلك جاء وصف المؤمنين، روى الترمذي مرسلاً عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون هينون لينون، كالجمل الأُنُف، إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ».

٥ ـ وروى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن رسول الله ﷺ قال: «يحشر المتكبرون أمثال الذرّ يوم القيامة في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجنٍ في جهنم يسمى (بَوْلَس) تعلوهم نار الأنيار، يُسقَوْن من عصارة أهل النار طِينة الخبال».

الأنيار: جمع النار. ونار الأنيار: أي أشد لهب النار، وتصغير المتكبرين في عذاب يوم القيامة، وإذلالهم من كل مكان، عقاب لهم من جنس عملهم.

٦ ــ وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم».

أي: لا يزال يذهب بنفسه مستكبراً منتفخاً متعالياً على خلق الله، متعاظماً بنفسه، حتى يرى أنه فوق الناس في خصائصه الفكرية، أو في خصائصه الجسدية، أو في أعراقه وأمجاده، أو في أتباعه وأولاده، أو في أمواله وأجناده، أو في مكانته في قومه، ويظل يتعالى بنفسه حتى يطغى ويكون جبّاراً من الجبارين، وعندئذٍ يقصمه الله.

إن هذا الحديث يصور حالة تدرج المستكبر في سلّم الاستكبار والانتفاخ، حتى يكون جباراً من الجبارين، وأنه في أول حاله قد لا يكون كذلك. وهذا ما يشاهد في بعض الناس حينما يملكون بعض القوى المادية، التي تمكنهم من بسط سلطانهم في الأرض، إنهم يبدأون بداية صغرى، ثم يترقون في درجات الكبر درجة بعد درجة، حتى يبلغوا الدرجة القصوى، والسبب في ذلك تزايد عامل الغرور بالنفس، حينما تساعدهم الظروف على التسلط، وينفخ في رؤوسهم المتملقون، والمنافقون، والمداحون.

٧ ــ وروى البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتلٍّ جوّاظٍ مستكبر».

العتل: هو الجافي شديد الخصومة بالباطل.

الجوّاظ: الجموع المنوع، أو هو المختال المتكبر، أو هو الفاجر.

٨ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذّاب، وعائل مستكبر».

أي: فقير مستكبر؛ وذلك لأن الفقير من شأنه أن يخفض الجناح،

ولا يستكبر مع فقره إلّا من ازداد لديه خلق الكبر زيادة جعلته منطمس البصيرة عن إدراك واقعه الذي يقتضي منه أن لا يكون مستكبراً.

٩ ــ وروى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد».

١٠ ــ وأبان الله تبارك وتعالى أنه لا يؤمن بآيات الله عند تذكيره بها إلا الذين يخضعون لربهم ويسبحون بحمده وهم لا يستكبرون، فلا يمنعهم كبر في صدورهم عن الخضوع لله والتسبيح بحمده، قال الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

فدل بهذا على أن عامل الكبر أخطر العوامل الصارفة عن الإيمان بالله وبآياته.

١١ ــ وأثنى الله على الملائكة بأنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾.

١٢ ــ وروى مسلم عن سلمة بن عمرو بن الأكوع: أن رجلاً أكل عند

رسول الله ﷺ بشماله، فقال له: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع. قال: «لا استطعت» ما منعه إلاّ الكبر، فما رفعها إلى فيه.

فهذا الرجل الذي أمره الرسول ﷺ بأن يأكل بيده اليمنى فلم يفعل، واعتذر بأنه لا يستطيع، إنما منعه الكبر أن يطيع الرسول ﷺ فيما أمره به، لذلك قال له الرسول ﷺ: «لا استطعت» فكان جزاء كبره وكذبه أنه صار عاجزاً فعلاً عن أن يرفع يده إلى فيه بعد ذلك.

ففي الحديث أمران:

الأول: استنكار الكبر الذي يمنع صاحبه من الطاعة، واستقباحه وتوجيه الذمّ والعقوبة لصاحبه.

ومعلوم أن الكبر من أقبح الأخلاق التي يقاومها الإسلام، وينهى المسلمين عنها، وهو أخبث عنصر يقذف بصاحبه إلى درك الكفر والجحود والعصيان.

الثاني: استنكار الكذب واستقباحه، وقد دفع الرجل إلى الكذب إرادته تغطية كبره.

١٣ ــ وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبّةٍ من خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبّةٍ من خردل من كبر».

فدلّت هذه الأقوال النبوية على أن المستكبرين أبعد الناس عن الجنة، وأن الكبر والكفر قرينان، إذ لا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر.

ولكن ليس المراد من الكبر ما يشمل رغبة الإنسان بأن يكون مظهره أنيقاً ولباسه حسناً، بل المراد منه كما فسره الرسول ﷺ بطر الحق وغمط الناس. وقد سبق تفسير هذا التعريف النبوي، ففرق الرسول ﷺ بين الكبر وبين المظاهر الجمالية التي قد يدفع إليها الكبر، وقد يدفع إليه حب الجمال والرغبة بالأناقة، وعندئذٍ لا تكون من قبيل الكبر ولا دالة عليه.

والكبر الذي يحرم المستكبر من دخول الجنة، هو الكبر عن الإيمان بالله وبما جاء من عنده وبكل ما أمر بالإيمان به، والكبر عن طاعة الله وكل من أمر الله بطاعته. أما كبر الناس على الناس دون أن يؤثر ذلك على قضيتي الإيمان والطاعة لله فهو من المعاصي الكبرى، ومن الكبائر، إلا أنه لا يخرج من دائرة الإيمان والإسلام إلى دائرة الكفر والحرمان من دخول الجنة.

١٤ ــ وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكليكما علي ملؤها».

١٥ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حُلّة تعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ، رأسه يختال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

يتجلجل: يغوص وينزل.

فدلت النصوص على أن الكبر داء يجر إلى أوخم العواقب.

* * *

فضل التواضع ابتغاء مرضاة الله:

وإذْ حرمت النصوص الإسلامية الاستكبار بغير حق، وأبانت أن الكبر من قبائح أخلاق الإنسان، حثّت على التواضع ابتغاء مرضاة الله ورغبت فيه، وأبانت أن من تواضع الله كافأه الله على تواضعه بالرفعة: «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله». وهذا من سنن الله في عباده، كما أن من استكبر وتعالى على خلق الله أذلّه الله.

ومن الملاحظ أن الناس يحبون المتواضع ويألفونه، ويكرهون المستكبر ويأنفون عنه ولا يألفونه، والسر في ذلك أن المتواضع ينزل نفسه إلى مستوى جلسائه فيعيش معهم بوداعة وانطلاق، ويعيشون معه بمثل ذلك، فيتم بينه وبينهم الإلف والوئام، وذلك يولد المحبّـة، بخلاف المستكبر، فإنه يرفع نفسه

فوق مستوى جلسائه، فيعيش وحده في جوّه النفسي المتعاظم، ويحيط نفسه بسياج شائك، لا وداعة فيه ولا انطلاق، وحين يرى جلساؤه ومعاشروه ذلك منه يبتعدون عنه بنفوسهم فلا يألفونه، ويرونه يضع نفسه فوقهم فيكرهونه. فكلتا الثمرتين من النتائج الطبيعية لكلا العملين.

يضاف إلى ذلك أن المتواضع لا يثير في الناس دافع المنافسة فيكون مألوفاً محبوباً، بخلاف المستكبر فهو يثير في الآخرين دافع المنافسة بقوة، فيكون مكروهاً غير مألوف للنفوس، لا سيما إذا كان هو في نظرهم دون المكانة التي يرفع نفسه إليها.

ولما كان التواضع من الأخلاق التي تملك القلوب بالمحبة، أمر الله رسوله بأن يخفض جناحه للمؤمنين، مع أنه ﷺ رفيع المكانة في نفسه، عظيم المنزلة عند الله، فقال الله تعالى لـه في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾.

فكان صلوات الله وسلامه عليه يخفض جناحه للمؤمنين، فلا يتعاظم عليهم ولا يستكبر، ويجلس بينهم كواحد منهم، حتى يدخل عليه وهـو في أصحابه من لا يعرفه فيقول: أيُّكم محمد؟.

وربما كانت توقفه الأَمَة وتأخذ بيده ليقضي حاجة لها؛ روى البخاري عن أنس قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبـي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وكان من تواضعه تحببه إلى الصغار بالسلام عليهم والمسح على رؤوسهم ووجوهم، روى البخاري ومسلم عن أنس، أنه مرّ على صبيانٍ فسلّم عليهم وقال: كان النبـي ﷺ يفعله.

وروى مسلم عن جابر بن سَمُرة قال: صلّيت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى (أي صلاة الظهر) ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان،

فجعل يمسح خدّي أحدهم واحداً واحداً. قال: وأما أنا فمسح خدّي. قال: فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار.

من جؤنة عطار: أي من السلة التي يضع فيها متاعه وعطره.

ولما للتواضع من أثر اجتماعي كبير أوحى الله إلى رسوله بأن يأمر بالمسلمين بأن يتواضعوا. روى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد».

ومن تواضع الرسول وسماحة نفسه صلوات الله عليه، أنه كان يشارك أهله في البيت مهنتهنّ وأعمالهن، روى البخاري عن الأسود بن يزيد قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

في مهنة أهله: تعني في خدمة أهله.

ومن تواضع الرسول ﷺ أنه قطع خطبته مرة لتعليم جاهل غريب، وأقبل عليه، حتى إذا انتهى منه عاد إلى ما كان فيه، روى مسلم عن تميم بن أُسيد قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه؟ فأقبل عليّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأُتي بكرسي فقعد عليه وجعل يعلمني ممّا علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها.

ومن تواضع الرسول ﷺ أنه ما كان يستكبر عن طعام يدعى إليه مهما قلّت قيمته، تألفاً لقلوب المؤمنين، وتكريماً لهم، وتربية لهم على فضيلة التواضع، وتعظيماً لنعمة الله، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت».

* * *

آثار الكبر في السلوك:

ويتولد عن داء الكبر الذي تصاب به النفوس أنواع قبيحة من السلوك الداخلي والخارجي.

فالمستكبر قد يجحد الحق الذي لغيره، ولا يعترف له به، لأنه لا يريد أن يخضع لغيره، أو لا يريد أن يفوق عليه أو يساويه في الامتياز أحد. وحين لا يملك تغيير الواقع فما عليه إلاّ أن يستره بغمطه وجحوده وتنقيصه، وبالتعالي عليه في تصرفات وأعمال من شأنها إشعار الآخرين بأنه ذو امتياز أسمى مما لغيره.

وقد يصل المستكبر إلى مستوى بالغ في الإجرام، إذ يعمل على قتل ما لدى غيره من خصائص تمتاز على ما لديه منها، أو قتل غيره وصرفه من الوجود نهائياً حتى لا يكون له منافساً.

ومتى تمادت الأنفس في استكبارها وغرورها أصابها مسٌّ من الطغيان، وكان كبرها أشبه ما يكون بالطوفان. وطوفان الكبر قد يصل في أقصى مدّه إلى جحود الله والاستكبار عن عبادته وطاعته، وتحدي قوته وقدرته، وجلاله وقهره لعباده، ويقف في أدنى مدّه عند حدود احتقار الناس والازدراء بهم، واستصغارهم، والاستهانة بما عندهم والتعالي عليهم.

والغرور بالنفس ينفخ في صدور المستكبرين حتى يروا أنفسهم عظماء كبراء، وهم في واقع حالهم صغار جداً. إن شعورهم حول أنفسهم شعور هوائي صنعته الأوهام، لا يصاحبه نماءٌ حقيقي فيما تملكه ذات المستكبر من خصائص وقوى معنوية أو مادية.

وربما يُغَشِّي الكبر على البصائر فيعميها عن رؤية الحق حقاً والباطل باطلاً، ومن أجل ذلك تتمادى في طغيانها. وما يزال الغرور بالنفس ينتفخ وينتفخ، وتنتفخ النفس به، حتى تنفجر وتتمزق، أو تصطدم بما يهشمها ويحطمها ويمزقها، وهذا من السنن الربانية الدائمة التي تقدم شواهدها من الواقع الإنساني، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ومن آثار الكبر في السلوك الظاهر، الهزء والسخرية بالآخرين، واحتقار الناس وازدراؤهم، وحركات: الغمز، والهمز، واللمز، والتعيير، والتنقيص وقد يكون من آثاره أيضاً الغيبة، وفضح العيوب، وكشف نقائص الناس.

ومن آثاره أيضاً التبختر والخيلاء والمرح في المشية، وتصعير الخد، والإعراض عن حديث المتحدث، والنظر الشذر إلى الناس، وجرّ الثوب من الخيلاء، والتطاول في الجسم، والتقعر في الكلام والتشدق فيه، والإجابة بحركات الوجه أو اليدين أو غيرهما من الجسم، كرفع الحاجبين، وغمز العين، وشد الحنك، ومط الشفاه، وإشارة اليد، وإدارة الظهر، والالتفات بالعنق، ورفع الرأس أو خفضه.

ومن آثاره أيضاً الترفع عن مجالسة ضعفاء القوم وفقرائهم ومساكينهم، والترفع عن محادثتهم ومؤاكلتهم ومشاربتهم. ومنها التعصب للرأي والعناد على الباطل رغم وضوح الحقّ، وهكذا إلى أمور كثيرة جداً.

وقد عالج الإسلام آثار الكبر في السلوك، ووجّه إلى الآداب الإسلامية والفضائل السلوكية في هذا المجال، ونورد فيما يلي طائفة من هذه المعالجة:

١ ـ الاستكبار عن الإيمان بالله وعبادته: ولقد أولى القرآن الكريم هذه الظاهرة من ظواهر الكبر عناية عظيمة، ووجّه لها اهتماماً كبيراً، وسنتبين مبلغ ذلك عند الكلام على الذين استكبروا، فكفروا واستنكفوا عن عبادة ربهم، ونقتصر هنا على قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وقوله فيها أيضاً:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

فأبان الله في هذه النصوص ما لداء الكبر من تأثير قد يبلغ بصاحبه إلى مستوى التكذيب بآيات الله وهي حق، والاستكبار عن اتباع ما جاء فيها من أوامر ونواه، والاستنكاف عن عبادة الله.

وأبان الله أن الأطهار الأبرار الكاملين من عباده لا يستنكفون عن عبادته والخضوع له، فالمسيح عيسى ابن مريم لن يستنكف عن أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقربون لا يستنكفون عن عبادته والخضوع له.

ثم أبان الله عاقبة المستكبرين عن الإيمان به وعن عبادته، فأولئك يعذبهم الله عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وأولئك محجوبون عن السماء ومعارج الارتقاء، فلا تفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة، ولهم من جهنم مكان معدٌ لهم ممهد لعذابهم، وتنزل من فوقهم غواشٍ من العذاب.

وكذلك جزاء المجرمين والظالمين.

٢ ــ تصعير الخدّ للناس والمرح ومشية الخيلاء: ولقد عرض القرآن النهي عن هذه الظاهرة من ظواهر الكبر في السلوك ضمن وصايا لقمان لابنه، وقد ذكرها الله مؤيداً لها ومشيداً بحكمة لقمان، ففي سياق ذكر وصايا لقمان لابنه يقول الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

أما تصغير الخدّ للناس فهو إمالة الوجه عنهم على سبيل الإعراض عن استكبار، وأصل الصَّعر ميل في الوجه، وقيل: هو ميل في الخد خاصة، وقيل: هو ميل في العنق وانقلابٌ في الوجه إلى أحد الشقين. وقد اشتهر عند العرب قولهم: صعر فلان خده وصاعره إذا أماله من الكبر، قال الشاعر العربي جرير بن عبدالمسيح، المعروف بلقبه (المتلمِّس):

وكنّا إذا الجبّار صعَّر خدّه ... أقمنا له من دَرْئه فتقوّما

أي: كنّا إذا أمال متكبر خده أذللناه حتى يتقوم ميله. من درئه: أي من عوجه، فالدرء: هو العوج في القناة وفي العصا وفي غير ذلك.

وقياساً على تصعير الخدّ نستطيع أن نقول: إنّ كلّ إعراض عن الناس على سبيل الكبر يدخل في ضمن هذه الظاهرة، سواء أكان ذلك في الخدّ، أو في الوجه كلّه، أو في الجسم كله، لأن المعنى في كل ذلك واحد، ولذلك فسّر الفرّاء تصعير الخدّ الوارد في النص بالإعراض من الكبر، وعلى نحو ذلك فسّره غيره، وهذا التعميم يدلّ عليه الغرض العام من النهي.

وأما المشي في الأرض على وجه المرح والاختيال استكباراً على الناس وافتخاراً، وتعالياً عليهم، فهو عمل يبغضه الله ورسوله، إلا إذا كان من ورائه تحقيق غرض مشروع، كالتبختر في مواطن قتال أعداء الله، لإلقاء الوهن والذعر في قلوبهم، مع ابتغاء مرضاة الله في ذلك.

والمرح يأتي في اللغة بمعنى شدة الفرح والنشاط، حتى يجاوز قدره، ويأتي أيضاً بمعنى التبختر والاختيال. فقوله: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾: بمعنى ولا تمش في الأرض مشية تبختر واختيال، ولذلك ختم الله الآية بما يناسب هذا

المعنى، فقال تعالى: ﴿إنّ الله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي: لا يحب كل مختال على الناس، مستكبر عليهم بمشيته بينهم أو بإعراضه عنهم، ولا يحب كل فخور على الناس بنفسه، أو بما آتاه الله من قوة، أو مال، أو نسب، أو جاه، أو ذكاء قلب، أو جمال وجه وحسن طلعة.

ومن المعروف أن الامتياز بالخصائص ينبه عرق الصلف، ويغذي جرثومته، ولذلك قال العرب في الحكمة السائرة: آفة الظَّرف الصلف. والظرف في اللسان البلاغة وحسن المنطق، وفي الوجه حسن الصورة، وفي القلب الذكاء وسرعة الخاطر، أمّا الصلف فهو المبالغة في تصنع الظرف حتى يصل إلى درجة الكبر على خلق الله، والاستعلاء عليهم بميزة الظرف.

وقد نهى الله عن مشية المرح بقوله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

وإذْ نهى الله في هذه الآية عن مشية الخيلاء، كشف للمستكبر واقع حاله الصغير، فأبان له أنه حين يضرب الأرض برجله، ويتطاول مستعلياً بقامته على الناس، لن يستطيع أن يخرق الأرض أو أن يبلغ الجبال طولاً، وفي هذا إمعان إشاري بتحقير المستكبر؛ فالأرض التي يمشي عليها أصلب من قوته، والصخور الجامدة المكدّسة جبالاً أطول من قامته مهما تطاول، فلا يزعمن أن شدة الوطء أو تطاول الجسم يمنحانه عِظماً حقيقياً، إنه يقول له فيما أشار به إليه:

مهلاً بنفسك أيها المستكبر المتبختر، إلى أين أنت ذاهب بنفسك متطاولاً بجسمك، إلى جهة الأرض فترفسها بقدميك، وإلى جهة السماء فتنطحها برأسك، هوّن عليك، إنك لن تستطيع أن تخرق الأرض مهما تبخترت عليها، إنك إن تحديتها هشمت جسمك وحطمته. ثم إنك لن تبلُغ الجبال طولاً، مع أنها مهما علت في جسمها عن مستوى الأرض فهي أقل قيمة من الإنسان الذي فضله الله بكمالاته، فلا تحاول أن تكسب المجد بالتبختر والخيلاء على خلق الله، إنّ المجد الإنساني لا يكون بطول الأجسام ولا بعرضها، ولا بتبخترها وضربها الأرض بأقدامها حين مشيها.

يا لهذا من تبكيت للمستكبرين بديع ورائع، إنه يقول لهم: تواضعوا لله، واخفضوا أجنحتكم للمؤمنين من عباد الله، فرب ضعيف مستضعف مدفوع بالأبواب هو عند الله أفضل منكم، وأعظم مجداً وأعلى مكانة، وما تفعلونه لن ينفعكم شيئاً في تحصيل المجد الذي تريدونه لأنفسكم، ولن يعلي أقداركم عند الله أو عند الناس.

لو عقل المستكبرون الذين يختالون ويمشون في الأرض مرحاً لعرفوا أن هذا العمل يصغرهم ويقلل من شأنهم عند الله وعند الناس، فالله لا يحب الذين يستكبرون على عباده، ولا يحب الذين يريدون علواً في الأرض، والناس أيضاً يكرهون من يستكبر عليهم، ويكرهون كل ظاهرة تدل على الكبر في الأنفس إذا رأوها من غيرهم. أمّا المتواضع من غير ضعة ولا مذلّة ولا طلب للدنيا، والهين اللين موطأ الأكناف فإن الناس يحبونه ويألفونه، وإنّ الله يحبه ويكرمه ويرفع قدره. ولذلك جاء في وصف عباد الرحمن أنهم يمشون على الأرض هوناً، أي: مشياً رفيقاً متسماً بالسكينة والوقار، غير مختالين ولا مستكبرين، ولما كان هذا الوصف أوّل وصف يكتشفه المتعرف على عباد الرحمن صدّر الله به ذكر أوصافهم، فقال تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

أي: لم يقابلوهم بجهل مماثل لجهلهم، بل أعرضوا مسلّمين عليهم سلام الانصراف.

٣ ــ إطالة الثوب وجره على الأرض على سبيل الكبر: إن هذه الظاهرة قد تكون في تقاليد بعض الشعوب وأعرافهم دالة على الكبر والعجب بالنفس، وعندئذ تكون عملاً غير محمود. أمّا إذا لم تكن هذه الدلالة متعارفاً عليها فإن إطالة الثوب حينئذٍ لا تكون من الأعمال غير المحمودة، وهي حينئذ تشبه إطالة النساء ثيابهن لغرض الستر والاحتشام. وقد كان في عرف العرب أنّ من أطال من الرجال إزاره وجرّه على الأرض كان ذلك دليلاً على كبره وعجبه بنفسه.

فالحكم في هذه الظاهرة قد يتبع العرف السائد كما يتبع أيضاً نية الفاعل وقصده، فمن أطال ثوبه لغرض صحيح غير الكبر لم يؤاخذ على عمله، ومن أطاله بقصد الكبر كان مؤاخذاً عليه. ونحن نعلم أن بعض البلاد الباردة قد تكون إطالة الثياب فيها حاجة مناخية يقصد منها دفع البرد، وعندئذ يكون تقصير الثوب فيها إلى نصف الساق عملاً مخالفاً للعرف السائد، وسلوكاً شاذاً يلفت الأنظار.

فالعرف السائد في المجتمع مع النية والغاية أصلان يرتبط بهما حكم إطالة الثياب إباحة أو منعاً على سبيل التحريم أو على سبيل الكراهة، والعلة في المنع ما في العمل من دلالة على الكبر، ومعلوم في أحكام الشريعة أنها تدور مع عللها وجوداً وعدماً إذا كان لها علل ظاهرة مقررة في الشريعة.

وقد فرق الرسول صلوات الله عليه بين جر الثوب على سبيل الخيلاء وجرّه على غير سبيل الخيلاء، روى البخاري عن عبدالله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: «من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» فقال أبو بكر: يا رسول الله إنّ إزاري يسترخي إلّا أن أتعاهده، فقال رسول الله ﷺ: «إنّك لست ممن يفعله خيلاء».

ففي هذا الحديث دليل على أنّ قصد الخيلاء والكبر على الناس بجر الثوب هو الذي يجعل العمل محرماً؛ إذ قيد الرسول ﷺ جرّ الثوب بقيد أن يكون على سبيل الخيلاء، فحين ينعدم هذا القصد في حالة من الأحوال، أو كان معنى الخيلاء لا يفهم أساساً في عرف بعض الناس من جرّ الثوب، فإنّ حكم التحريم لا يتوجه أصلاً.

ويؤكد ما جاء في هذا الحديث ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطراً».

أي: جره كبراً أو خيلاء.

وما رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «الإسبال في الإزار والقميص والعمامة، من جرّ شيئاً خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة».

فجعل الرسول ﷺ ذلك مقيداً بقصد الخيلاء.

ولما كان إسبال الإزار في عرف العرب دليلاً على الخيلاء، قال الرسول ﷺ لبعض أصحابه وهو جابر بن سُلَيم: «إياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة». من حديث رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح.

وهذا المنع خاص في الرجال، أما النساء فيستحب لهن إطالة ثيابهن لستر مفاتنهن، ولا يعتبر ذلك منهن دليلاً على الكبر والخيلاء، ويدل على هذا ما رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» فقالت أم سلمة: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: «يرخين شبراً» قالت: إذن تنكشف أقدامهن، قال: «فيرخينه ذراعاً لا يزدن».

وبهذه المناسبة نلاحظ أنه قد استحدثت مظاهر كثيرة في الأزياء دالة على الخيلاء والتفاخر، وهي أكثر خطراً وضرراً من إطالة الثياب وإسبالها، من ذلك أشكال الثياب وأصنافها وأنواعها وما يبذل في الحصول عليها من أموال كثيرة إسرافاً وتبذيراً، بقصد التفاخر والتعاظم والخيلاء، للنساء والرجال، وقد يلاحظ عند النساء بنسبة أكبر.

ويعاني الناس كثيراً من آثار هذه المشكلة الكبرى التي غزتنا بها المدنية الحديثة، فالناس يتحملون عنتاً كبيراً وأعباء ضخمة من مشكلة التسابق العنيف، في ميدان التفاخر والتكاثر في الثياب والألبسة النسائية، وما يستحدث فيها كل يوم من أشكال وأنواع وأصناف، لا تلبث قليلاً حتى تمسي قديمة ملغاة، غير صالحة للظهور بها في الحفلات والمجتمعات. وربما نجد الفقيرة منهن تملك في خزانتها من الثياب ما يكفيها سنوات عديدة، وتحاول جهدها وبأية وسيلة أن تسابق في ميدان التفاخر والتكاثر، لتساير أحدث المبتكرات، وتفاخر بامتلاك شيء منها، وتجاري بذلك جاراتها وصديقاتها وثريات بيئتها وتحمّل ولي أمرها والمنفق عليها عنتاً شديداً، لترضي غرورها واستكبارها، ونزوعها إلى التفاخر على صواحبها. وهذا من الأمور التي تدفع الرجال إلى اكتساب الأموال من غير

الطرق التي أذن الله بها، ومن الأمور التي أشاعت في الناس سيئة الإسراف والتبذير وعندئذ تتعقّد المشكلة تعقداً كبيراً وتصعب الحياة في جو مشحون بالتفاخر والتكاثر والخيلاء، والتبذير والإسراف الكثيرين.

والسبب في ذلك كله دافع الكبر وحبّ الاستعلاء، ولذلك نهى الإسلام عن التفاخر على أي وجه كان. روى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ :

«إنّ الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحد، ولا يفخر أحد على أحد».

وقد دلنا هذا الحديث على أنّ الكبر وترك فضيلة التواضع له نتيجتان في المجتمع :

الأولى: بغي الناس بعضهم على بعض.

الثانية: تفاخر بعض الناس على بعض وإيذاؤهم في ذلك، ولهذه ذيول وعواقب كثيرة السوء.

٤ ـ الاستهزاء والسخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، وما يلحق بهذه الخصال القبيحة من مظاهر في السلوك لخلق الكبر في النفوس:

إن الإسلام ذمّ هذه الخصال وقبّح شأنها، ونهى عنها، وحذّر من ارتكاب إثمها والولوغ في رِجسها. واهتماماً بخطرها على وحدة المجتمع، وما تولده من فرقة وتقاطع وخصام، تولى القرآن الكريم بالذات النهي عنها والتحذير منها، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

إنّ الإنسان حينما ينفخ في نفسه الغرور، فيرى أنه كبير عظيم، ويرى غيره من الناس أصغر منه وأقل شأناً، فإنه يشعر نحوه بنوع من الاستعلاء، وهذا الشعور يجعله يترفع عن الذين يستصغرهم، فإذا أحوجته الظروف الاجتماعية إلى التّماسّ معهم، فإنه يجد نفسه مدفوعاً إلى إبراز استعلائه عليهم بأنانية مستكبرة، وهنا يعبث الشيطان بنفسه، أو تعبث نوازع الكبر، فيحاول أن يتصيد أي شيء لتحقيرهم وتصغيرهم في المجتمع الذي أحوجه إلى التماسّ معهم، أو المشاركة لهم في قول أو عمل أو أي مجالٍ من المجالات، فإذا ظفر بعيب في الجسم، أو بعيب في القول، أو بنقصٍ في الرأي، أو بمخالفة للمعتاد في الحركة أو المشي أو اللباس، أسرع إلى لفت الأنظار إليه والاستهزاء به والسخرية منه، وإذا لم يظفر بشيء من ذلك حاول أن يتصيد من أسمائهم أو ألقابهم ما يكون مثاراً للهزء والسخرية، فإذا لم يظفر بشيء من ذلك تصنع مثيرات الهزء والسخرية تصنعاً دون أي أساس لها من الواقع، كل ذلك يفعله ظلماً وعدواناً إرضاء لاستكباره واستعلائه بنفسه.

وقد يلتقي مع دافع الكبر لوجود ظواهر الاستهزاء والسخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، دوافع أخرى، كالحسد، والحقد والعداوة أياً كان سببها والرغبة بالضحك والتسلية، والشعور بالنقص.

وقد توجد هذه الظواهر بتأثير دوافع غير دافع الكبر ودون أن يكون دافع الكبر مشاركاً لها.

والهزء والسخرية في اللغة مترادفان، وكل منهما يطلق على ما يطلق عليه الآخر.

وأمّا اللمز: فهو الإشارة على سبيل التحقير والتنقيص ببعض حركات الوجه، مع كلام خفي يتضمن ذلك بحضور من يراد تحقيره وتنقيصه.

وأما الهمز: فهو نظير اللمز، ولكن في غيبة من يراد تحقيره وتنقيصه، ودون اشتراط إخفاء الكلام.

والأصل في اللّمز والهمز الطعن والضرب الماديان، ثمّ استعملا في الطعن والضرب المعنويّان.

وهما من الظواهر التي قد يدفع إليها خلق الكبر والاستعلاء على الناس، فالغاية منهما كالغاية من الهزء والسخرية.

وأمّا التنابز بالألقاب: فهو التداعي بالألقاب التي فيها إساءة وذمّ، وذلك بأن يطلق إنسان على إنسان لقباً يُشعر بذمٍ له، أو فيه تحقير أو تنقيص، أو غضّ من كرامته، أو خفض من مكانته.

يقال لغة: نَبَزَهُ يَنْبِزُه نَبْزاً إذا لقّبه بلقب ما، ويكثر إستعمال النَّبْز في ألقاب الذمّ، ويسمّى اللّقب نَبَزاً وجمعه أنباز.

وهنا نلاحظ أنّ بعض الناس يظلمون إخوانهم، فينبزونهم بألقاب قبيحة، ليخفضوا من شأنهم بين الناس، ويحاولون أن يجعلوا هذه الأنبازَ القبيحة لاصقة فيهم، إذلالاً لهم وتحقيراً.

وفي ضوء ما عرفنا سابقاً نستطيع أن نقول: إنّ التنابز بالألقاب قد يكون ظاهرة من ظواهر الكبر الذي له جذور دفينة في النفوس، فهو يدفع إلى تحقير الآخرين وتصغيرهم وخفض مكاناتهم ظلماً وعدواناً، أو يجعل صاحبه في أدنى الأحوال يُسرّ بذلك ويرتاح له إذا حصل، ولو لم يكن هو الظالم به. ويظهر ذلك في مثل قول بعضهم: لم أفعله ولم يسؤني، ويظهر أيضاً في المشاركة بالضحك أو الإعجاب أو نحوهما، والذي يشارك في شيء من ذلك يشارك في تحمّل الإثم.

إنّ الذي يهزأ أو يسخر من أخيه المسلم، أو يلمزه، أو يهمزه، أو ينبزه بلقب قبيح يكرهه، أو يشارك في شيء من ذلك بضحك أو إعجاب أو ارتياح، يعتبر في نظر الشرع مرتكب عمل من أعمال الفسوق، لأنه ظالم حقّ أخيه المسلم عليه، ولذلك قال الله تعالى في الآية: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ أي: بئس أن يطلق عليهم أنهم فاسقون، فيوصفوا بهذا الوصف بعد أن تحلّوا بأنهم مؤمنون.

وفي قوله تعالى في الآية: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ إشعارٌ بوحدة جماعة المسلمين، فهم كجسد واحد، فمن آذى نفس أخيه فكأنما آذى نفسه.

٥ ــ الترفع عن مجالسة الفقراء والمساكين والضعفة من الناس: فمن ظواهر الكبر الطبقي ترفع فريق من ذوي الغنى والجاه أو الحسب والنسب، عن مجالسة الفقراء والمساكين والضعفة من الناس، حتى يجعلهم هذا الكبر جفاةً لخير كثير لمجرّد وجود فريق من الناس يرون أنهم يقعون من دونهم في المستوى الفكري أو العلمي، أو في الطبقة الاجتماعية.

وهذا الكبر الطبقي الذي قاومه الإسلام قد كان السبب في صدّ كثير من الناس عن الإسلام، وهو يصدّ كثيراً من الناس عن حضور مجالس العلم ومجالس العبادة ومجالس الخير العامة.

لقد أنف فريق من ذوي الوجاهة والمكانة من المشركين أن يجلسوا مع رسول الله ﷺ لاستماع ما عنده، بسبب وجود عبيد وفقراء ومساكين من المسلمين يجلسون عند رسول الله ﷺ ويلازمون مجامع الخير والعلم والذكر، فطلبوا منه صلوات الله عليه أن يطردهم من مجالسه، أو يخصّص مجالس للرؤساء وذوي المكانة حتى يجتمعوا به فيها، فتكون لهم مزيتهم الطبقية بين العرب، فنهاه الله تبارك وتعالى عن تلبية مطالب هؤلاء المستكبرين عن مجالسة مساكين المسلمين وفقرائهم، أمثال خبّاب وعمّار بن ياسر وسلمان الفارسي وصهيب الرّومي وبلال الحبشي.

وفي هذا روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ــ وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل، وبلالٌ ورجلان لستُ أسميهما ــ فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ

مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

وروي أن عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عديّ، والحارث بن نوفل، وعمرو بن نوفل، وأشراف بني عبد مناف من رؤساء المشركين، أتوا أبا طالب عمّ الرسول ﷺ، فقالوا: يا أبا طالب، لو أنّ ابن أخيك محمداً يطرد موالينا وحلفاءنا، وهم عبيدنا وعتقاؤنا، لكان أعظم في صدورنا، وأدنى لاتباعنا إياه، فأتى أبو طالب إلى النبي ﷺ فحدّثه بالذي كلّموه به، فقال عمر لرسول الله ﷺ: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلى ما يصيرون، فنهاه الله عن إجابة طلبهم، ونزل في ذلك قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

وروي أن خباباً وسلمان قالا: فينا نزلت هذه الآية، إذ جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، وعباس بن مرداس، وذووهم من المؤلفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ جالساً مع أناس من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم وأنفوا من مجالستهم، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، لو جلست في صدر المسجد، ونفيت عنا هؤلاء، فجالسناك، وحادثناك، وأخذنا عنك، فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين، قالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا معك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإنّ وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، فقال رسول الله ﷺ: نعم. قالوا: فاكتب لنا

كتاباً، فدعا بالصحيفة وبعلي رضي الله عنه ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل بالآية، فرمى صلوات الله عليه بالصحيفة ودعانا، فأتيناه وجلسنا عنده، وكنا ندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام، فلما نزل قوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ ﴾.

ترك القيام عنا، حتى نكون نحن الذين نقوم عنه.

فالله تبارك وتعالى يأمر رسوله ﷺ بأن يصبر نفسه مع فقراء المؤمنين وضعفائهم، وذلك بأن لا ينصرف عنهم كراهيةً لمجالستهم بسبب حالتهم الاجتماعية، وينهاه عن أن يصرف نظره عنهم إلى غيرهم مريداً لزينة الحياة الدنيا، وفي هذا إلزام له بأن يكون متواضعاً لهم، مؤانساً، مجالساً، معلماً، وأباً رحيماً، حانياً عليهم، رؤوفاً بهم، خافضاً جناحه لهم، غير مستكبر عليهم. أما زينة الحياة الدنيا التي نهاه الله عن إرادتها في هذا المجال فالذي يبدو من السياق ــ والله أعلم ــ أن لا يتطلع إلى مجالسة الأشراف والأغنياء وأهل المكانات الاجتماعية العالية، منصرفاً عن فقراء المؤمنين وضعفائهم، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه. ولما كان أصحاب الكبر الطبقي يطلبون من الرسول ﷺ أن يطرد الضعفاء والفقراء عن مجالسه، ويتخذون ذلك تعلّة يبررون بها إعراضهم عنه، ولما كان حرص الرسول ﷺ على جلب الأشراف والأغنياء للإسلام قد يزين له الاستجابة لطلبهم، قال الله له: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ أي: وكان أمره ضياعاً وهلاكاً، أو وكان أمره متجاوزاً الحدّ، والكبر الطبقي الصارف عن الهدى تجاوز كبير عن الحد الذي تقبله العقول السليمة، والحقوق الإنسانية المثلى.

أما ما جاء فيما رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص، من أن الرسول ﷺ

وقع في نفسه شيء، فحدث نفسه، إذ قال له المشركون: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، فأنزل الله عليه قوله: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم...﴾ الآية.

فالظاهر أنه كان نوعاً من ملاينة ذوي المكانة والجاه حتى يدخلوا في الإسلام، وكان ما أنزل الله عليه عندئذ توجيهاً له أن لا ينظر إلى المكانات الطبقية التي تواضع عليها الناس، وسيطرت على مفاهيمهم.

إنه لم يكن في نفس الرسول ﷺ شعور بأي تمييز طبقي، إلا أن رغبته بإسلام كبراء القوم ربما جعلته يحدث نفسه بأن هؤلاء إذا أسلموا أسلم معهم جماهير كثيرة من أقوامهم، وطمعاً بإسلامهم ربما حدث نفسه بملاينتهم بعض الشيء، وبتلبية بعض مطالبهم، كما جاء في بعض الروايات، لكن مثل هذه الملاينة قد يفهم منها عدم معارضة المفاهيم الجاهلية الطبقية في مسيرة الدعوة، فحذر الله رسوله من الاستجابة لمطالب كبراء المشركين في طرد ضعفاء المؤمنين، إصراراً على إلغاء الطبقيات الجاهلية.

ونظير ذلك معاتبة الله له من أجل الأعمى ابن أم مكتوم، لأنه تولّى عنه اشتغالاً بدعوة كبراء المشركين إلى الإسلام.

وتبدو واضحة نفثات الكبر الطبقي في مقالة كبراء المشركين عن ضعفاء المؤمنين: «لو كان خيراً ما سبقونا إليه» كأن السبق إلى الأخذ بالخير من خصائص الكبراء والأغنياء، وأما غيرهم فيجب أن يكونوا دائماً متخلفين عنهم وتابعين لهم، وقد ذكر الله مقالتهم هذه بقوله في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

إن العنجهية الجاهلية المستكبرة لتنضح من مقالتهم هذه نضحاً غير شريف، وكل إناء بالذي فيه ينضح، وإذ لم يهتدوا بهذا القرآن ولم يتبعوه، فسيقولون عنه: هذا إفك قديم، ليبرروا إعراضهم عنه ورفضهم لاتباعه،

وكذلك كل من رفض اتباع حق حاول تغطية رفضه لاتباع الحق باتهام الحق نفسه بأنه باطل.

وقد سبق مستكبرو قوم نوح مستكبري مشركي العرب في مقالتهم إذ قالوا لنبيهم: (وما نراك اتّبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) وإذ طالبوه بأن يطرد هؤلاء الأراذل عن مجالسته، وجعلوا ذلك تَعِلَّة برروا بها كفرهم به وتكذيبهم له. وهم يعنون بالأراذل ناقصي المكانة الاجتماعية كالفقراء والضعفاء، ويزعمون أن هؤلاء متسرعون لا عقل عندهم ولا روية لهم، يتبعون بادي الرأي، أي: ظاهر الرأي وأوله، دون أن يكون منهم تدبر وتعمق في الفكر، ويكتفون بما بدا لهم من رأي فيتبعونه، فمن العقل أن لا نسير في الطريق الذي يسيرون فيه.

ونجد الإخبار عن مقالة مستكبري قوم نوح في قول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وفي قول الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ؟ ﴿١١١﴾ ﴾.

فأطلقوا بمقالتهم نفثة الكبر الطبقي في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء.

ومن أمثلة الكبر الطبقي قول مشركي قريش: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أي: مكة والطائف، قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

ومن أمثلة الكبر الطبقي، ما كان من بني إسرائيل حينما طلبوا من نبيهم حزقيل أن يعين لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، قال: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا؟ قالوا: وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا؟! قال لهم: إن الله قد جعل لكم طالوت ملكاً ـ ولم يكن طالوت من السبط ذي المكانة الطبقية الرفيعة في أسباط بني إسرائيل ـ فقالوا له معترضين: أنى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه؟ قال لهم نبيهم: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم.

وهكذا كان اعتراضهم ناشئاً عن كبرهم الطبقي.

* * *

تربية نبوية لانتزاع جذور الكبر الطبقي:

وفي تربية الرسول ﷺ أصحابه على انتزاع جذور الكبر الطبقي من نفوسهم، وإلغاء التفاضل بغير التقوى والعمل الصالح والصفات الشخصية ذات الاعتبار في المفاهيم الإسلامية:

١ ـ روى مسلم عن عائذ بن عمرو المزني ـ وهو رجل من أهل بيعة الرضوان ـ أن أبا سفيان أتى على سَلْمان وصهيب وبلالٍ في نفر، فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريشٍ وسيدهم؟؟! فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال:

«يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك».

فأتاهم فقال: يا إخوتاه، آغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي.

آغضبتكم: أي أأغضبتكم؟ بتسهيل الهمزة الثانية.

٢ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه».

أشعث أغبر: أي ملبد الشعر مغبره.

٣ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن امرأة سوداء كانت تَقُمُّ المسجد، أو شاباً، ففقدها أو فقده رسول الله ﷺ فسأل عنها أو عنه، فقالوا: مات، قال:

«أفلا كنتم آذنتموني به». فكأنهم صغّروا أمرها أو أمره، فقال:

«دلوني على قبره». فدلوه، فصلى عليه ثم قال:

«إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم».

تَقُمُّ المسجد: أي تزيل القمامة والأوساخ منه.

آذنتموني به: أي أعلمتوني به.

من هذه الأحاديث يتبين لنا أن الإسلام ألغى مفاهيم التفاضل الطبقي على أساس المال والحسب، أو الأصل والنسب، أو الولاية والمنصب، أو اللون والعرق، وعمل على تربية المسلمين على ذلك، وغرسه في أخلاقهم الاجتماعية.

فإذا خرج بعض المسلمين عن هذا المبدأ الاجتماعي العظيم في الإسلام فذلك لنزعة جاهلية فيه، ومتابعة لأهواء الأنفس، واغترار بزخرف الحياة الدنيا ومظاهرها التي لا قيمة لها في الحقيقة.

وعلى هذه المفاهيم الإسلامية في إلغاء التفاضل الطبقي الجاهلي ربَّى

الرسول ﷺ أصحابه، فمن ذلك تخويف الرسول ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه من غضب الله، إذا هو أغضب بعض ضعفاء المؤمنين، في تلويم يسير وجّهه أبو بكر لهم، لأن هذا التلويم كان فيه رائحة مشاعر التفاضل الطبقي، مع أن الإسلام قد ألغاه وسوى بين المسلمين. وربما كان أبو بكر قد رأى أنه ليس من الأدب الاجتماعي أن يوجه هؤلاء النفر من المؤمنين ما وجهوه من كلام ضد شيخ قريش وسيدهم، حتى لا تتحرك فيه النزعة الجاهلية، وحتى يظل قلبه مؤلفاً على الإسلام.

ومن ذلك تأديب الرسول ﷺ لأبـي ذر رضي الله عنه، في تغاضبه مع بلال الحبشي رضي الله عنه.

فقد تغاضب أبو ذر وهو عربـي من غفار مع بلال الحبشي مولى أبـي بكر رضي الله عنهم، وتطور النزاع بينهما إلى أن أخذت أبا ذرّ الحدّة، فقال لبلال: يا ابن السوداء. فشكاه بلال إلى النبـي ﷺ، فقال رسول الله لأبـي ذرّ: طفّ الكيل، أتعيره بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية.

قال أبو ذر: على ساعتي هذه من كبر السن؟ ـ ظاناً أن قصد الرسول بالجاهلية ما يعتري الشباب من طيش يخرجهم عن حد الاعتدال ـ فقال له الرسول صلوات الله عليه: «نعم هم إخوانكم» أي والأخوة تستلزم التحقق بمعنى إلغاء فوارق العرق واللون واللغة والطبقة الاجتماعية.

فندم أبو ذر رضي الله عنه وتاب، حتى إنه أمر بلالاً أن يطأه على وجهه، مبالغة منه في إعلان التوبة والندم، واسترضاء لبلال مما عيره به من سواد أمه.

وهكذا رفع الإسلام من شأن الضعفاء في المجتمع، حتى سوّاهم بغيرهم من ذوي المكانات، وحصر التفاضل بالعناصر الشخصية الذاتيـة من علم وعمل، وأبان أن التفاضل عند الله بالتقوى والعمل الصالح: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وبناء على هذا فرب أشعث أغبر يزدريه الناس فيدفعون الأبواب في

وجهه، هو صاحب مكانة عظيمة عند الله بسبب تقواه، فلو أقسم على الله في أمر من الأمور، فقال مثلاً: والله ليحدثن هذا الأمر، اعتماداً على أنّ الله سوف لا يخيب ثقته به، لأبرّ الله قسمه.

وفي تربية الرسول ﷺ العملية للمسلمين كان يشعرهم دائماً باهتمامه وعنايته بشأن فقراء المسلمين وضعفائهم، فمن ذلك قصته مع المرأة الفقيرة السوداء التي كانت تقم المسجد، فلما ماتت ودفنت دون إعلامه بشأنها، عاتب أصحابه على كتم موتها عنه، وسعى إلى قبرها وصلى عليها. وتردّد راوي الحديث هل هي امرأة أو رجل.

ورغم كل ألوان التربية الإسلامية في هذا الموضوع، يظل من الصعب على الناس أن يتحرروا من تأثير مظاهر الحياة الدنيا وما يملك الناس منها، لدى تقرير بعضهم قيمة بعضٍ الاجتماعية.

فرغم إلحاح التربية الإسلامية وتعاليم نصوصها على أن التفاضل بين الناس ينبغي أن يقتصر على التفاضل في القيم الحقيقية ــ وهي التي تستند إلى مقدار العلم والعمل الصالح والخصائص ذات الفضل الحقيقي ــ يظلّ الناس مشدودين إلى الأرضيات والمظاهر الخادعات، كالمال والحسب، والعرق والنسب، والمنصب والجاه، فإذا نظروا في أقدار الناس الاجتماعية وضعوا هذه الأمور وما شابهها نُصب أعينهم، وقاسوا أقدار الناس بها، وقوّموهم على مقدار ما يملكون منها.

وليس هذا جديداً في الناس، بل هم كذلك في كل عصر وفي كل مصر، وفي كل قوم وفي كل أمة، وقد جاء الإسلام فهدّم من هذه المفاهيم الخاطئة تهديماً كثيراً، وعمل على تربية المسلمين تربية عملية تحرّرهم من سلطان هذه المفاهيم على نفوسهم ومشاعرهم. وربما امتحن الرسول ﷺ بعض أصحابه ليرى مدى تحرّرهم من سلطان هذه المفاهيم، فإذا وجد أنهم ما زالوا غير متحررين منها صحّح لهم مفاهيمهم، وأرشدهم إلى المقياس الحقيقي الذي يجب أن تقاس به أقدار الناس، وإلى الصفات الذاتية التي بها يتفاضلون حقاً.

فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي قال: مرّ رجلٌ على النبـي ﷺ، فقال لرجل عنده جالس:

«ما رأيُكَ في هذا؟».

فقال: رجلٌ من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يشفّع. فسكت رسول الله ﷺ.

ثم مرّ رجلٌ، فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟».

فقال: يا رسول الله، هذا رجلٌ من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يشفّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ:

«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

أي هذا الذي تقول في شأنه بحسب مقياسك المادي ما تقول من نزول في قيمته الاجتماعية، هو خير من ملء الأرض من مثل ذلك الرجل الذي عظمت من شأنه وقدره بين الناس.

فصحّح الرسول ﷺ نظر الرجل إلى الأمور، ووجهه ضمناً للمقياس الحقيقي الذي تقاس به الفضائل، وتقوّم به أقدار الناس، بعد أن امتحن مدى تأثير المفاهيم الإسلامية في هذا المجال على نفسه. ورأى أنه لم يستطع أن يتحرّر من المفاهيم غير الإسلامية، ذات السلطان القوي على نفوس الناس بحكم العادات والتقاليد، وبتأثير المظاهر الخادعة، وتعلق النفوس بزينة الحياة الدنيا.

وقد أبان الرسول ﷺ أن قيم الحياة الدنيا ومفاهيمها الخاصة بها تتلاشى عند الله يوم القيامة، فلا جاه يـومئذ من جـاه الدنيـا ولا نسب، ولا مال ولا نشب، ولا منـــاصب ولا وزارات، ولا ملك ولا إمـارات، ولا جبّـــارون ولا طغاة، ولا متكبرون ولا عتاة، ولكن إيمان وتقوى وعمل صالح وإخلاص في ابتغاء مرضاة الله.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

«إنه ليأتي الرجلُ العظيم السّمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة».

فالعِظَم والسِّمَن وضخامة الأجسام وما يشبه ذلك من مظاهر ليس لها ثقل في ميزان قيم الناس وأقدارهم يوم القيامة.

إن الموازين تختلف، فلكل نوع من الأنواع ولكل جنس من الأجناس ميزان يزن خصائصه، فالميزان الذي توزن به البقول، لا يشبه الميزان الذي توزن به العقول. والميزان الذي توزن به الأقطان، لا يشبه الميزان الذي يوزن به الوجدان. وما توزن به الأحمال، غير الذي توزن به الأعمال.

وكذلك في الماديات، فموازين للحرارة، وأخرى للكثافة، وغيرها للضغط، وهكذا. وكل واحد منها لا يحسّ بأية قيمة من القيم التي يحسّ بها الآخر.

وميزان يوم القيامة لا يثقله إلّا الإيمان والتقوى والعمل الصالح الخالص لوجه الله عز وجل. ومن أجل ذلك يأتي الرجل العظيم السمين الضخم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، لأنه لا يحمل من القيم المعتبرة عند الله ما يثقل به ميزانه. ويومئذ تكون القيم التي كان الناس يفتخرون بها في الدنيا قيماً مزيّفة خادعة لا وزن لها.

وفي طليعة من تَخِفُّ موازينهم يوم القيامة الجبارون والمتكبرون، وهؤلاء تهوي رؤوسهم في جهنم. وفي طليعة من تثقل موازينهم يوم القيامة فقراء المؤمنين ومساكينهم إذا كانوا صالحين.

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال:

«احتجت الجنّة والنار، فقالت النار: فيّ الجبّارون والمتكبرون. وقالت الجنّة: فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى الله بينهما: إنّك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنّك النار عذابي أعذّب بك من أشاء، ولكليكما عليّ ملؤها».

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ
حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

أمّه هاوية: أي أمّ رأسه هاوية في نار جهنم. أو المصير الذي ينتهي إليه فيكون بمثابة أمّه التي يرجع إليها عند الفزع هي (هاوية) المفسرة بأنها نار حامية؛ فتكون هاوية على هذا اسماً من أسماء النار، أعاذنا الله منها، وجعلنا ممّن ثقلت موازينهم.

* * *

أمثلة من المستكبرين الذين صرفهم كبرهم عن اتباع الحق:

نستعرض فيما يلي أمثلة من الذين رفضوا الطاعة واتباع الحق بدافعٍ من كبر نفوسهم:

١ ــ لقد كان تمردُ إبليس عن طاعة ربه، وانحيازه إلى تَهْلُكَة الكفر، من آثار خُلُق الكبرِ في نفسه، والعُجْب بعنصريته، فالباعث له على الكفر انحراف خلقي جرثومته الكبر والعجبُ بالنفس، هذه حقيقة دلّتنا عليها نصوص قرآنية كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

فبيّن الله تبارك وتعالى أنّ الباعث لإبليس على الكفر قد كان استكباره عمّا أمره الله به من السجود لآدم.

لقد أبى أن يسجد، وكان هذا مظهراً في السلوك، ولقد استكبر في نفسه، وكان هذا هو الدافع والمحرك له حتى أبى، ولذلك قال الله تعالى في الآية: ﴿أبى واستكبر﴾ فدلّ بهذا على الخُلُق الدافع والمظهر السلوكي له.

وجاء بيان هذا الدافع النفسي فقط دون ذكر مظهر الإباء، في قول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

رُوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

لقد جرّ إبليس إلى هذا المنحدر السحيق واللعنة الكبرى استكباره وعُجْبه بنفسه، وإصرارهُ على باطله، وعدمُ توبته ورجوعه إلى الحقّ، وكانت عقوبته من جنس ذنبه، إذ طرده الله من مواطن رحمته وجعله من الصاغرين، قال تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

وقد اتبع إبليسَ في سنته السيئة هذه كثيرٌ من الذين كفروا من الناس.

٢ ــ وكان السبب الأعظم في كفر فرعون وجنوده استكبارهم في الأرض بغير الحق، دلّ على هذا قول الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى
يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ
مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ
ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وأكد القرآن أمر استكبار فرعون وملئه في عدّة نصوص، نظراً إلى أنّ

الكبر قد كان يمثل العامل الرئيسي الخطير في كفرهم، من ذلك قول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقد عرفنا أن عاقبة استكبارهم كانت إهلاكاً وإذلالاً، ويوم القيامة لهم عذاب مهين، وصغَار شديد.

٣ ــ وثمود ــ وهم من القبائل العربية البائدة ــ أرسل الله لهم صالحاً نبياً ورسولاً، فاستكبر قادتهم عن اتباعه، فكذّبوه وكفروا به، واتّبعهم في ذلك بعض المستضعفين، قال الله تعالى في سياق الحديث عنهم في سورة (الأعراف ٧):

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

٤ ــ وأهل مدين قومُ شعيبٍ كذلك، فقد استكبر قادتهم وزعماؤهم

عن اتّباع شعيب عليه السلام، فكذبوه وكفروا بربّهم، قال الله تعالى في سياق الحديث عنهم وعن رسولهم في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ؟ ﴿٨٨﴾ ﴾.

٥ ـ وعادٌ ـ وهم من القبائل العربية البائدة ـ كذلك فقد استكبروا في الأرض بعد الحقّ، وكذّبوا رسولهم هوداً عليه السلام، قال الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

ونلمح أن معاقبتهم بعذاب الخزي يلائم استكبارهم في الأرض بغير الحقّ.

٦ ـ وقوم نوح من قبلُ كانوا كذلك، فالأمم تتشابه في تصرفاتها، وتحكمها سنن واحدة، وإن اختلفت في وسائلها وبعض أعمالها ومظاهر سلوكها، تبعاً لاختلاف بيئاتها وتقاليدها ومفاهيمها، وقد أخبرنا الله عنهم بقوله في سورة (نوح ٧١):

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾.

وهكذا لم يترك نوح عليه السلام وسيلة من الوسائل النافعة في الدعوة إلاّ

اتخذها، إلّا أن قومه قد صدّهم عن اتباعه عوامل نفسية مختلفة، أبرزها وأخطرها الكبر.

٧ ــ وبنو إسرائيل أصابهم داء الكبر الذي أصاب من قبلهم بالإضافة إلى انحرافات خلقية أخرى صرفتهم عن الاستجابة للحق، ولذلك خاطب الله اليهود بقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

فقد وصفهم الله في هذا النصّ بأنّ المحرض لهم على الكفر برسلهم استكبارهم عن الطاعة، إذ تأتيهم رسلهم بما يخالف أهواء نفوسهم. ويظهر أنّ نزعة الاستكبار كانت داء عظماء يهود، وأحبارهم، وذوي الرياسات الدينية فيهم من فريسيين وكتبة وكهنة. ورغم ما عانوه في تاريخهم الطويل من ذلّ وهوان، إلّا أنّ عقدة الكبر ــ التي تستند إلى زعمهم أنهم شعب الله المختار وأنهم أبناءُ الله وأحباؤه ــ لا تفارقهم مهما كانوا في مواقع الذل والضعة والمسكنة، وقد قابلوا رسلهم من بني إسرائيل بهذا الكبر، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون.

ولما جاء الإسلام ودعاهم الرسول ﷺ إلى الإيمان به تحركت فيهم عدّة منحرفات خلقية، منها الحسد، ومنها نزعة الكبر، وتظهر نزعة الكبر في قولهم: «قلوبنا غُلْف» كناية عن عدم حاجتهم إلى علوم ومعارف دينية تأتيهم، كأنهم يقولون للرسول في هذا: لسنا بحاجة إلى العلوم والمعارف الدينية التي عندك، إذ عندنا من العلوم الدينية ما ملأ قلوبنا، حتى صارت لا متّسع فيها لواردات جديدة، وحتى صارت مغلّفة كما تغلف السلع والأمتعة والبضائع ويختم عليها لتسفيرها، فتمسي غير قابلة لإضافة جديدة إليها، فهي صماء عن سماع ما تدعوننا إليه. ولما كان غرضهم إعلان امتلاء قلوبهم بالمعارف والعلوم الدينية

رد الله دعواهم هذه بقوله: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي: إن صدودهم عن تلقي ما جاء به الرسول من كتاب الله والحكمة، إنّما هو لعنة أصابتهم من الله بسبب كفرهم الذي أصرّوا عليه، واختاروه لأنفسهم طريقة حياة، قبل بعثة محمد وبعد بعثته. فإصرارهم على الكفر وعنادهم هو الذي سبّب لهم اللعنة، وهذه اللعنة قد جعلت قلوبهم غلفاً صمّاء لا تقبل المعرفة، ولا تستجيب لدعوة الهداية، ففي هذا إقرار بأن قلوبهم غلْف، ولكن لا على معنى امتلائها بالمعرفة الدينية كما زعموا، وإنما على معنى إصابتها باللعنة بسبب إصرارهم على الكفر وعنادهم، وهذا تحويل بديع استغلّ فيه قولهم الذي اعترفوا به، وهو لون أدبيٌّ رائع.

٨ ــ وفي الملة الآخرة والرسالة الخاتمة، نجد أمثلة كثيرة وشواهد متعددة من الذين استنكفوا عن اتباع الحقّ والإيمان بمحمد ﷺ بدافع الكبر في نفوسهم.

لقد رأى فريق من مشركي العرب محمداً بشراً مثلهم، فاستكبروا عن اتباعه وقالوا: لولا أنزل علينا الملائكة، أو نرى الله ربّنا فهو يلقننا الشريعة التي ارتضاها لنا، فنحن لا نتبع بشراً مثلنا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. ونما في نفوسهم هذا الاستكبار نمواً عجيباً شاذّاً، حتى ظلموا الحقّ به وعتوا عتواً كبيراً، وقد وصف الله واقعهم هذا فقال لرسوله محمد ﷺ في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

وقال مشركو قريش للحق لما جاءهم واستكبروا عن اتباعه مقالتين:

قالوا في أولاهما: هذا القرآن سحر.

وقالوا في الثانية: هذا أمر افتراه محمد.

فعلم الله رسوله طريقة محاجّتهم، مشيراً إلى عامل الاستكبار، الدافع إلى الإنكار، فقال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

فكشف الله في هذا النص الدافع الذي دفع هؤلاء الذين كفروا، وأبان أنه دافع الكبر.

أما مقالتهم عن القرآن: هذا سحر؛ فهي مقالة ساقطة من ذاتها، لا تحتاج إلى حجة دفاع، لأنّ واقع حال القرآن المستمر في تأثيره يكذب هذه المقالة ويسقطها، وكل من استمع إلى القرآن وتدبر آياته، وأعمل فكره في استنباط ما اشتمل عليه من معانٍ أدرك بداهة أنه ليس من السحر، وأنه لا شبه بينه وبين السحر مطلقاً في جوهره وحقيقته.

وأما مقالتهم: هذا قرآن افتراه محمد من عنده، ولم يأت به من عند الله، فتتلخص الحجج التي علَّم الله رسوله أن يدفعها بها فيما يلي:

(أ) لو أني افتريته على الله بعد أن أيدني بآياته ومعجزاته، لما تركني ربي أستمر في الافتراء عليه دون أن يعاقبني، لأنه حكيم، فإذ لم يظهر أثر لهذه المعاقبة فإني لست مفترياً له حتماً، بل أنا مبلغ له عن ربي، ولو أنه أراد معاقبتي على افترائي فهل لي سند يحميني من عقاب ربي؟! إنكم قومي، وأنتم الذين تدافعون عني إذا أراد أحدٌ من الناس أن يمسني بسوء، لكنكم لا تملكون لي من الله شيئاً إذا أراد عقابي، فكيف أفتري عليه، وأنسب إليه كلاماً لم يقله، ولم يأمرني بتبليغه، في الوقت الذي يؤيدني بمعجزاته وآياته؟! وإمداده لي بالتأييد دون ملاحقتي بالعقاب شهادةٌ منه لي بأني لم أفتر عليه، وبأني صادق فيما أبلغ

عنه، وهذه الشهادة تتضمن تكذيبكم في مقالاتكم التي تفيضون فيها، وتندفعون بها مجرحين لي، إنّ ربـي عليم بها. هذا ما أشار إليه ـ والله أعلم ـ قوله تعالى: ﴿قل: إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً * وهو أعلم بما تفيضون فيه * كفى به شهيداً بيني وبينكم * وهو الغفور الرحيم﴾ أي: فإذا تبتم من مقالتكم غفر الله لكم ورحمكم.

(ب) لست بدعاً من الرسل فجميع الرسل الذين جاؤوا من قبلي كانوا بشراً، ولم يكونوا من الملائكة، وكثيرٌ من الرسل قد جاؤوا من عند ربهم بكلام من كلامه، فبلغوه لأقوامهم. هؤلاء بنو إسرائيل جاءهم رسل من عند ربهم فبلغوهم كتباً منزلة من لدنه، فصدقوا بها، فما بالكم استكبرتم عن التصديق بكتاب منزل من عند ربكم. وإني بطبيعتي البشرية لا أمتاز عليكم بمعرفة الغيب معرفة ذاتية، حتى تجعلوا ما جاء في القرآن من كشف لبعض حقائق الغيب ممّا امتازت به خصائصي الذاتية، فإني ما أدري ما يفعل بـي ولا بكم، إلا ما يطلعني الله عليه عن طريق الوحي، فأنا أتبع ما يوحى إلي. وما أنا بالنسبة إليكم إلا نذيرٌ مبين، أنذركم عاقبة كفركم وإنكاركم لكتاب ربكم، واعلموا أنكم إذا استكبرتم وظلمتم فإنّ الله سوف لا يغفر لكم ولا يرحمكم، لأنه لا يغفر إلا لمن اهتدى، وهو لا يهدي القوم الظالمين، فلا يحكم لهم بالهداية وقد ظلموا بالكفر والاستكبار عن الطاعة. وهذا ما دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿قل: ما كنت بدعاً من الرسل * وما أدري ما يفعل بـي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين * قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به * وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم * إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

ومن الأمثلة الواقعية لدى مشركي قريش ما كان من الوليد بن المغيرة أنه بعد أن عرف مجد القرآن، وتبين صوراً من إعجازه، قال لقومه بني مخزوم: «والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى».

فقال قومه بعد أن سمعوا منه ذلك: صبأ والله الوليد، والله لتصبأن قريشٌ بعده، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد عنده، فكلمه ساعةً بما أثار حميته الجاهلية وكبره، فخرج الوليد على نادي قومه فقال: تزعمون أنّ محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قطّ؟ وتزعمون أنه كذّاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل هذه الأسئلة: اللهمَّ لا. ثم قالوا له: فما هو إذن؟.

ففكر الوليد في نفسه، وقدّر أمراً يمكن أن يجد له فيه حجةً باطلة تقبل، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فليكن ما يقوله من قبيل السحر، وهو ينقله عن السحرة.

فارتجّ نادي قومه فرحاً، وتفرقوا معجبين بمقالته، متعجبين منه.

فأنزل الله قوله في سورة (المدثر ٧٤):

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

ونلاحظ في هذا النص أن الله تبارك وتعالى يلفت النظر إلى عاملين أساسيين في نفس الوليد، كانا هما الباعث له على الكفر والتكذيب، هما: الكبر، ومعاندة الحق.

فالكبر في نفس الوليد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ثم أدبر واستكبر﴾ ففعل مثلما فعل إبليس من قبل إذْ أبـى واستكبر.

والعناد في خلق الوليد وهو من الانحرافات الخلقية المرافقة لخلق الكبر، أو هو مظهر من مظاهره، قد دل عليه قوله تعالى: ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾.

وإشارات هذا النص تدل على أن الوليد بن المغيرة قد كان ذا فكر عميق، ورأي حصيف في قومه، لكنه لم يستخدمه في الخير، إنما استخدمه في الشر، وفي تصيّد زخرف القول الذي أراد به دعم جانب الباطل، ولذلك قال تعالى: ﴿إنه فكر وقدّر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر﴾.

أمّا قوله تعالى: ﴿ثمّ نظر * ثمّ عبس وبسر * ثمّ أدبر واستكبر * فقال: إن هذا إلاّ سحرٌ يؤثر * إنْ هذا إلاّ قول البشر﴾.

فيشتمل على صورة تمثل حالة الوليد النفسية، بين الحقيقة التي ظهرت له من خلال آيات القرآن، والباطل الذي يدفعه إليه كبره وعناده. إنّ الحقيقة المكروهة حينما تظهر للمعانـد المستكبر تجعله يثبت نظره مشدوهاً، ثمّ بعد هذا الانبهار الذي يصيبه يكفهرّ وجهه، ويعبس غيظاً وحنقاً، لا سيما حينما لا يجد لمقاومة الحقّ إلاّ حججاً واهية ملفقة، وتطول أناته في العبوس المصحوب بالكدر النفسي، وهذا ما دلّ عليه الإتباع في قوله تعالى: ﴿ثمّ عبس وبسر﴾ إذ الغرض من بسر تأكيد العبوس. فإذا طال أمده في هذا الحال المكفهر، لم يجد إلا الفرار من الموقف بالإدبار، والتعويض عن النقص بالعناد والاستكبار، وطرح باطل القول المزخرف بالحجج الضعيفة، باعتباره السلاح المتيسر من الأسلحة المهذبة في أيدي المبطلين، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ثم أدبر واستكبر * فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر﴾.

إنها لصورة كلامية عجيبة، تجسّد الأحاسيس النفسية المتحركة، في بيانات قولية رائعة.

* * *

سلوك المستكبرين عن اتباع الحق في تبرير واقعهم ولتكثير السالكـين في طريقهم:

يتخذ المستكبرون عن اتباع الحق وسائل كثيرة يبررون فيها رفضهم لاتباع الحق، ووسائل عديدة يضلون بها الناس، بغية تقوية جبهتهم، وتكثير سواد أنصارهم وأتباعهم، أو السائرين على مثل طريقتهم.

فمن هذه الوسائل: الجدال بالباطل وتنميق زخرف القول، ومنها الهزء

والسخرية بالحق ودعاته وأنصاره، ومنها استدراج جماهير أقوامهم إلى مجامع اللهو واللعب ومراتع الشهوات ليصرفوهم عن استماع الحقّ ويصدوهم عن سبيل الله.

وقد أبان القرآن ذلك من وسائلهم:

(أ) أما جدالهم بالباطل، فقد بينه الله بقوله في سورة (غافر ٤٠):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إنْ في صدورهم إلا كبر﴾: أي ما في صدورهم إلا كبر.

ففي هذه الآية تصوير بديع للكبر الحاجب للذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم.

فهم يجادلون بالباطل ليُدْحضوا به الحق، لأن كبرهم عن اتباعه قد زاد عن مواقع قلوبهم حتى ملأ صدورهم كلها، فكأن صدورهم قد خلت من كل شيء إلاّ من الكبر، وكأن كبرهم قد زاحم كل شيء في صدورهم، واحتلّ مكانه ﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾.

ولكن هذا الكبر الذي في صدورهم ما هم ببالغيه، أي: واقعهم لا يبلغ مهما اجتهدوا وعملوا في تحصيل المجد ما في صدورهم عن أنفسهم من أوهام استكبروا بها.

فهم بين الكبر في نفوسهم وواقع حالهم على طرفي نقيض، إنّ كبرهم يجعلهم ينتفخون في نفوسهم، حتى يتصوروا توهماً أنهم يعلون على كل مجد، وواقع حالهم يتصاغر بهم حتى يضعهم في مواقعهم التي هم عليها في حقيقة حالهم، فهم بين متناقضَيْن من واقع حالهم وأوهامهم عن أنفسهم، كشفه الله في الصورة البديعة التي وصفهم بها: ﴿إن في صدورهم إلا كبرٌ ما هم ببالغيه﴾.

وداء الكبر هذا قد ينمو نمواً قاتلاً حتى يعمي البصيرة، ويجعل القلوب لا تعي شيئاً إلا ما يرضي كبر الأنفس، وهذا ما عبر القرآن عنه بالطبع على القلوب، قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ ﴾.

إن هذا الطبع على كل قلب المتكبر الجبار يدل على انطماس بصيرته كلها بسبب الكبر، فهو لا يعي من الحق شيئاً، ما دام يمس جانب كبره.

ويؤكد معنى الطبع على القلوب بسبب الكبر قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

(ب) وأما الهزء والسخرية، والصد عن آيات الله بالملهيات والمسليات والاستدراج إلى مراتع الشهوات، فقد بينه الله في نصوص كثيرة.

منها قول الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

فهذا فريق مستكبر من أعداء الحق، يبذل من ماله ووقته وفكره، ليصرف

الناس عن الهداية، ويتخذ لذلك وسائل شتّى من الملهيات والمسليات السمعية والبصرية وغيرها، فيملأ بها أوقات الذين يريد إضلالهم، ويستنفذ بها طاقاتهم الفكرية والنفسية والجسدية، فإذا وُجّهت له نصيحة طيبة، أو موعظة حسنة، أعرض عنها إعراض المشمئز المستنكر، وانصرف مستكبراً عن سماع الخير، وأصرّ على تماديه في باطله.

وهذا الفريق يتخذ خطة أخرى لتبرير عدم استجابته للحق، ولصدّ غيره عن اتباعه، هي خطة الهزء والسخرية، كأن الحق الذي يدعو الدين الناس إليه قد بلغ من الضحالة والسخف والسفاهة مبلغاً يسمح لهم بأن يستهزئوا به ويسخروا منه.

وكثيراً ما نرى أعداء الحق يستخدمون سلاح الهزء والسخرية لصرف ضعفاء الإرادة عن سلوك سبيل الهداية، والتزام شريعة الله، إنهم إذا رأوا مسلماً مؤمناً يقوم ببعض ما يوجبه عليه الإسلام ـ كالصلاة أو الحشمة أو البعد عن الفواحش والمنكرات ـ سلقوه بألسنة حداد من الهزء والسخرية وكل لاذع من القول؛ ويخترعون لذلك ألفاظاً شتى يُحَمِّلونها معاني تُشعِر بأنها أمور قبيحة جداً، فإذا وُضعت تحت البحث تبين أنها فارغة جوفاء، وهم إذا رأوا ملتزماً بخلقه ودينه نضحوه بعبارات مختلفة، فقالوا: رجعي، متعصب، متزمت، جامد، شيخ، سخيف، قديم، متخلف، أو نحو هذه العبارات. ويهزؤون بالأخلاق الفاضلة، والمكارم الحميدة، والعفة، والقيام بالفروض الدينية، وينعتونها بصفات الرجعية والتخلف والجمود ونحو ذلك.

ومنها قول الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

فهذا فريقٌ أفّاك أثيم، إذا تليت عليه آيات الله ـ وفيها الحق المبين ـ ولّى منصرفاً عنها، مستكبراً عن طاعة الله، كأن لم يسمعها، وكأن في أذنيه وقراً

يمنعه من سماع الحق، ثم إذا علم على سبيل المصادفة شيئاً من آيات الله المنزلة اتخذها هزواً، فأخذ يلوك لسانه بها مستهزئاً ساخراً منها.

فبشره إذن أيها المبشر بعذاب أليم، ومع أن العذاب الأليم لا يكون الإخبار عنه بشارة، إلّا أنّ اللائق به أن يعاقب على استهزائه بالاستهزاء، فيقدم له الإنذار في ثوب بشارة.

وله عذاب مهين مُذِلّ عقاباً له على كبره الذي رفض بسببه اتّباع الحق.

* * *

نظرات بين الكبر بحق وبغير حق وبين عزة نفس المؤمن وعزته بالله:

جاء في القرآن تقييد الاستكبار الذي يعاقب أهله يوم القيامة بعذاب الهون بقيد كونه استكباراً بغير الحق، فقال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فهم يقال لهم هذا الكلام إذ يعرضون على النار، ويجازون عذاب الهون، عقاباً لهم على استكبارهم بغير الحق، وعذاب الهون هو عذاب إذلالٍ وإهانة، وهذا النوع من العذاب يناسب استكبارهم في الأرض بغير الحق، فهو جزاء من جنس الذنب.

ونبهنا تقييد الاستكبار بكونه بغير الحق على أنه قد يوجد استكبار بالحق، والاستكبار بالحق لا يكون أمراً مذموماً، ولما كان الله جلّ وعلا أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم كان تكبره سبحانه بحق، فهو محمود منه، لذلك جاء في أسمائه الحسنى أنه المتكبر العزيز الجبار، فهو بهذا يثبت لنفسه صفات حقيقية هي له.

وإنما كان الاستكبار من المخلوق مذموماً لأن المستكبر يضع بكبره نفسه فوق الموضع الذي يستحقه، فهو باستكباره يظلم الحقيقة، ويعتدي عليها. وحينما يتعلق ذلك بحقوق الناس، فإن استكباره يجعله يغمط حقهم ويظلمهم

مادياً أو معنوياً. وحينما يتعلق استكباره بحقوق الله، فإن استكباره يدفعه إلى إنكار حقوق الله عليه، وإنكار نعمة الله عليه، ثم يدفعه إلى الترفع عن عبادته، ثم يدفعه إلى إنكار وجود الله تبارك وتعالى، وإلى الإلحاد به وبكمال صفاته.

أما حينما يكون التكبر تكبُّراً بالحق، وذلك كاعتزاز المؤمن بعزة الله، وتقويه بقوة الله، على الكافرين الذين يعتزون ويستكبرون بقواهم المادية، وبشياطينهم ودهاتهم، فإنه يكون تكبراً محموداً، لأنه لا عدوان فيه على الحق، وإنما فيه إذلال للباطل، الذي هو ذليل بطبعه. ولذلك جاء في وصف الذين يحبهم الله ويحبونه أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ ﴾.

ولما جعل أبو دُجانة رضي الله عنه يتبختر في غزوة أحد بين الصفين، وقد عصب رأسه بعصابته الحمراء إعلاماً بأنه سيقاتل قتال الموت، قال له رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

ومن التكبر غير المذموم ما يكون لمعالجة المتكبرين وتصغير نفوسهم المستكبرة بغير حق، وتأديبهم حتى يعرفوا مواقعهم، فهو مظهر من المظاهر التي يكون الغرض منها التربية والتأديب، بشرط أن لا يكون في واقع حاله تكبراً قلبياً. ومثله بعض الأعمال التي لا يقصد منها فاعلها التكبر على خلق الله، وإنما يكون له فيها مقصد آخر، كمظاهر الأناقة في الملبس والمشي والحركة والجمال في المظهر، فقد يكون الباعث عليها الكبر وقد لا يكون. وقد دل على هذا ما رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس».

وقد سبق شرح هذا الحديث في تعريف الكبر.

ولما كانت إرادة العلو في الأرض ناتجة عن الاستكبار بغير الحق، جعل الله مجد الدار الآخرة ونعيمها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. فقال تبارك وتعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

وحينما يطلب الإسلام من المسلمين أن يكونوا هم الظاهرين في الأرض وهم العالين، فإنما يطلب منهم ذلك ليقيموا العدل الذي أمر الله به عباده، وليعلوا كلمة الله في الأرض، ولينشروا دينه، وليقاوموا أعداء الحق وناشري الضلال، وليس من أجل إرضاء الأهواء في نفوسهم بأن يكونوا هم العالين في الأرض، إن هذا ليس مطلباً إسلامياً بحد ذاته، وإنما هو وسيلة لغاية، فالمسلمون يعتلون عرش السلطان، ولكن مع تواضع لله، وحرص كامل على تطبيق شريعة الله والعدل بين الناس، ومع عدم الترفع عن ضعفائهم وفقرائهم، وذوي الحاجات فيهم.

بخلاف الذين لا يؤمنون بالله، فإن همهم الأعظم أن تكون لهم الكبرياء في الأرض، وهم لا يفهمون غير ذلك، ومن أجل ذلك لم يفهم فرعون وحاشيته إلّا أن موسى وهارون قد جاءا طالبين الكبرياء في الأرض، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فقد كان تخوف فرعون وملئه من هارون وموسى تخوفاً على موقعهم الذي لهم فيه الكبرياء في الأرض.

على أن الاستكبار النفسي وما يتصل به من تفاخر لا يعدو لدى التحقيق أنه من قبيل اللذات الوهمية التي تجر لصاحبها متاعب كثيرة في الحياة الدنيا، فضلاً عما تجره من شرور وعواقب وخيمة.

وقد مثل القرآن مختلف زينات الحياة الدنيا ولذاتها بالنبات الذي يخضر فترة قصيرة من الزمن، ثم يصفر ثم يكون حطاماً، فليس من شأن المؤمن العاقل أن يعلق كل همه بها، ويتحمل ما تجره وراءها من عواقب مؤلمة، فقال تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

فمثل الحياة الدنيا كمثل النبات، الذي يخضر بالغيث، فيعجب الكفار (أي: الزراع) نباته، فإذا مر عليه زمن يسير ذهبت خضرته ونضرته، فيصفر، ثم يدركه الجفاف الشديد، فيتحطم، وينتقل النص سريعاً من المثل إلى الممثل له، ويرتب الحكم على المثل كأنه عين الممثل له، فيقول تبارك وتعالى فيه: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ فيقرر أنواعاً ثلاثة من نتيجة الحساب يوم القيامة، بعد تحطيم أجسام الحياة الدنيا، وبعد البعث للجزاء، وهذه الأنواع الثلاثة هي:

أولاً: العذاب الشديد لمستحقي العذاب.

ثانياً: المغفرة من الله للمؤمنين العصاة، الذين تقضي الحكمة الإلهية بمنحهم العفو والغفران.

ثالثاً: الرضوان من الله، وذلك بالنعيم المقيم في الجنة دار النعيم، لمستحقي هذا الرضوان من المتقين.

والاستكبار شيء وعزة نفس المؤمن وعزته بالله شيء آخر، فالأول ــ كما عرفنا ــ سلوك قبيح، سواء أكان في داخل النفس أو في ظاهر العمل، أما الثاني فهو أمر محمود وسلوك حسنٌ مأجور.

كم من مواقف لا يحسن فيها التواضع ولا الخضوع، بل تجب فيها عزة النفس لا عن كبر ولا عن عجب، ولكن عن اعتزاز بالله، وثقة به، وتوكل عليه، واستغناء بجوده وعطائه، وقناعة بما يولي من نعم. وهذا السلوك الخلقي قد يشتبه بالكبر في بعض الأحوال ولكنه ليس منه.

إن فضيلة خلق عزة النفس بالله وتعاليها عن مواطن الذل من أجل الدنيا من فضائل أخلاق المؤمنين. فالمؤمن يكون متواضعاً لله متذللاً لإخوانه المؤمنين غير مستكبر على خلق الله، ولكنه مع ذلك يكون عزيز النفس بالله، لا يهين نفسه لتحصيل دنيا، أو استرضاء أرباب المال أو السلطان لجلب المنافع المادية عن طرقهم ــ فهو أرفع من هذا ــ ولكن اعتزازاً بالله وثقة به، وتوكلاً عليه، واستغناء بما عنده عما عند عبيده الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وإيماناً بحكمته في عطائه وفي لون امتحانه، وقناعة بما وهبه من نعم، وبما منحه من تكريم.

إن من يؤمن بالله ويشرف نفسه بعبوديته له لا يسمح لنفسه بأن تذل إلا حيث يكون التذلل والخضوع جالباً لمرضاة الله تعالى، ومحققاً لمصلحة اجتماعية أو نفسية يهدف لتحقيقها الإسلام. وحين يأمر الله المسلم بأن يكون عزيز النفس بربه، فكرامته الإنسانية المعتزة بالله تفرض عليه أن يكون مترفعاً عن مواطن المهانة والذلة والصغار. ولما كانت العزّة ــ (أي: الشدة والقوة) ــ التي يرافقها ترفع عن الضعة والمهانة والصغار هي لله تعالى كان المؤمنون الصادقون هم أهل العزة الحقيقية، قال الله تبارك وتعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

فالذين يوالون غير المؤمنين اعتزازاً بهم، واستناداً إلى قوتهم، فيخضعون لهم ويذلون لسلطانهم، ويرضون الدنية في دينهم، يسلكون غير سبيل المؤمنين.

إن ابتغاء العزة عند غير المؤمنين هو من صفات المنافقين الذين لا يؤمنون بالله وبعزته إيماناً حقاً، مع أن القوة والغلبة والسلطان لله وحده، وهو الذي يهب منها عباده وفق حكمته، ويسلبها عن عباده وفق حكمته، وهذا ما بيّنه الله بقوله جلّ وعلا في سورة (النساء ٤):

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾.

فالمؤمن المعتز بالله الذي له العزة جميعاً لا يخضع ولا يذل ولا يحني رأسه إلا لله، أو لمن أمر الله بالتذلل له مودة وبراً، فيكون ذلك حينئذٍ من طاعة الله والخضوع لأوامره.

من ذلك الخضوع والتذلل للوالدين، وكذلك الخضوع والتذلل للمؤمنين، ولكن لا عن ذلة ومهانة وضعة وطلب للدنيا، وسعي وراء المنافع الدنيوية، بل عن مودة ورحمة وابتغاء لمرضاة الله، وفرق كبير بين الأمرين.

فالتذلل للوالدين رحمة بهما وبراً لهما قد أمر الله به في قوله عز وجل في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ بيان شافٍ كافٍ في أنّ هذا التذلل للوالدين ليس تذلل مهانة ولا ضعة، ولكنه تذلل من الرحمة بهما.

وتذلل المؤمنين بعضهم لبعض هو أيضاً تذلل مودة ورحمة، وهو التواضع

ابتغاء مرضاة الله، فليس تذلل مهانة ولا ضعة، ولا طلب للدنيا، إنه تذلل متبادل، وسماحة كريمة في الأخوة والتعامل الأدبـي والمادي، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فقد جعل الله تبادل التذلل، أي: التواضع، بين المؤمنين من المحامد التي يحمدون بها عند الله، ولكنهم على الكافرين أعزة باعتزازهم بالله، يجاهدون بقوة في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، أي: لا يخافون من أي ضغط اجتماعي يأتي على صورة تلويم وتثريب، لأنهم ينصرون دين الله، ويستنصرون بالله، فهم أعزة في نفوسهم على الباطل وكل أسلحة الباطل المادية والمعنوية، فإذا تذللوا فإنما يتذللون ابتغاء مرضاة الله، لأن الله أمرهم به، لإشاعة التواد والتراحم بين المؤمنين.

قد يقال: لم جاء التصريح بأن يكون التذلل للوالدين من الرحمة، ولم يأت نظير ذلك في جانب التذلل للمؤمنين، ففي جانب الوالدين قال الله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ وفي جانب المؤمنين قال الله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين﴾؟؟ فما السر في ذلك؟

ونقول في الجواب: إن التذلل للوالدين هو من طرف واحد وليس أمراً متبادلاً، فاقتضى التصريح بأن يكون تذللاً من الرحمة. أما التذلل بين المؤمنين فهو عمل متبادل، وليس من فريق منهم لفريق آخر، فهو لا يكون إلا من المودة والرحمة بطبيعته. يضاف إلى ذلك أننا إذا أمعنا النظر في قوله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين﴾ وجدناه يشتمل على الدلالة المطلوبة. وذلك لأن الأصل في مادة (ذل) أن تتعدى بحرف (اللام) لا بحرف (على) فيقال لغة: «ذل له» ولا يقال: «ذل عليه» لكن التعبير القرآني جاء بالتعدية بعلى «أذلة على المؤمنين» والسر في ذلك

أن الذل يستدعي الانخفاض، وحرف (على) يستدعي الاستعلاء، فإذا جمع بينهما في تركيب متكامل كان المعنى يدل على أن التذلل المطلوب ليس تذللاً من ضعة ولا مهانة، ولكنه تذلل مع رفعة وعزة نفس، وهذا لا يكون إلا على سبيل إعطاء التذلل من عطف ورحمة، فالعبارة القرآنية على تقدير: أذلة عطفاً على المؤمنين. فهو تذلل عطف وحنو، مع عزة نفس واستغناء بالله، لا تذلل مهانة وضعة وحقارة نفس وطمع بمنافع دنيوية.

وتفريقاً بين التذلل من العطف والمودة والرحمة مع عزة النفس بالله، وبين التذلل من المهانة لتحصيل الدنيا، نجد نصوصاً إسلامية تنهى عن التذلل لغير الله لتحصيل دنيا، ونصوصاً أخرى تأمر بالتواضع لله، ونصوصاً أخرى تأمر بإنزال الناس منازلهم وإعطائهم ما يستحقون من احترام وتقدير.

فمن ذلك ما رواه الطبراني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من جلس إلى غني فتضعضع له لدنيا تصيبه ذهب ثلثا دينه ودخل النار».

وفي احترام ذوي المكانات وإعطائهم أقدارهم أخرج الإمام الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط».

وأخرج الإمام مسلم وأبو داود عن عائشة قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم». وهذا لا يكون إلا بإعطائهم حقهم من التقدير والاحترام.

والتربية القرآنية توجه إلى ذلك أيضاً، منها تعليم الله موسى عليه السلام كيف يخاطب فرعون: «هل لك إلى أن تزكى» بهذه المقدمة الطويلة التي جاء بعدها عرض التزكية.

* * *

عاقبة المستكبرين:

من خلال استعراضنا لخلق الكبر، ولآثاره في الأنفس وفي السلوك، وما يفضي إليه هذا الخلق الذميم من غمط للحق وظلم للناس وجحود لله

واستكبار عن طاعته وإعراض عن آياته، ندرك سر العقاب الشديد الذي أعده الله للمتكبرين، والمهانة والمذلة والصغار التي تصيبهم يوم الدين، إلا إذا تابوا قبل فوات الأوان.

(أ) يقول الله تبارك وتعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

داخرين: أي: صاغرين أذلاء.

إنهم لما استكبروا عن عبادة الله في الدنيا عوقبوا على ذلك بالذلة والصغار في نار جهنم، وهو جزاء من جنس عملهم.

إن الله أمرهم أن يدعوه ليستجيب لهم، فاستكبروا عن عبادته بالدعاء له، فدلت هذه الآية على أن الدعاء من العبادة، وقد ورد أن الدعاء مخ العبادة، لأن الداعي لا يدعو ربه إلا وهو خاضع له، متذلل بين يديه، يتضرع لجنابه، مؤمن بأنه سميع مجيب قدير، وكل هذه المعاني من عناصر العبادة الحقيقية لله تعالى.

(ب) ويقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

فالذين كفروا يساقون إلى جهنم زمراً بحسب أنواع كفرهم، وبحسب مستويات كفرهم، وبحسب فئاتهم وزمرهم في الدنيا. وقد دل النص على أنهم

كانوا متكبرين في الدنيـا، فكانت جهنم مثوى عذاب لهم ﴿فبئس مثـوى المتكبرين﴾.

(ج) ويقول الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ ﴾.

إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، لأنهم كانوا كفرة مستكبرين، وكانوا فوق ذلك منافقين كذابين مراوغين.

(د) ويقول الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠ ﴾.

إن حوار الكافرين قبل دفعهم إلى العذاب أو عند دفعهم إلى العذاب أمرٌ اقتضاه إبراز صورة العدل الإلهي، فهم يقال لهم يوم الدين: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تفسقون.

فالجزاء بعذاب الهون عقاب لهم على جرمين كانا منهم في الدنيا:

الأول: أنهم كانوا يستكبرون في الأرض بغير الحق، وعذاب الهون يناسب جرمهم هذا.

الثاني: أنهم كانوا يفسقون.

(هـ) ويقول الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

﴿ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مكر الليل والنهار: أي مكر في الليل والنهار.

مشهد حواري من مشاهد يوم الدين، مما سيجري من حوار بين الظالمين، بين الذين كانوا مستضعفين في الدنيا منهم وقادتهم الذين كانوا مستكبرين عليهم فأطاعوهم، فضلوا بضلالهم، وكانوا ظالمين مثل ظلمهم.

حوار يصور كيف يحاول الأتباع يوم الدين طرح مسؤولية ضلالهم وكفرهم وظلمهم على قادتهم الذين اتبعوهم، وما يرد به الذين كانوا قادتهم في الدنيا، إذ يبينون لهم أن اتباعهم لهم قد كان بمحض إرادتهم، فمسؤوليتهم عن ضلالهم مسؤولية شخصية، ولولا أنهم كانوا مجرمين في دخيلة نفوسهم ما تأثروا بهم ولا اتبعوهم، فهم لم يكرهوهم على أن يسلكوا مسلك الجريمة. فيرد الاتباع على القادة المجرمين بذكر بينات من وقائع الأحوال التي كانت في الدنيا، وبذكر الأمور التي كانوا يستخدمونها لإغوائهم وصدهم عن الهدى، وهي أمور تتسم بالمكر الدائم في الليل والنهار، وفيها أيضاً استغلال سلطة القيادة التي توجه أمرها ونهيها للأتباع.

ويأتي الحكم الرباني بتجريم المستكبرين والمستضعفين معاً، لأن كفر كل منهم كان ثمرة لمسؤوليته الشخصية، فإذا رأوا العذاب أسر كل منهم ندامته على ما فرط في جنب الله، ويلقى كل منهم جزاء عمله.

ويحمل القادة المضلون المستكبرون ـ الذين كانوا يأمرون المستضعفين بالكفر بالله ـ أوزارهم وأوزاراً أخرى مثل أوزار الذين أضلوهم، دون أن

ينقص شيء من أوزار أولئك، وذلك لأن قادة الضلال يرتكبون في الأساس جريمتين، فهم يجازون عليهما:

الجريمة الأولى: اختيارهم لأنفسهم سبيل الضلال.

الجريمة الثانية: سعيهم لإغواء الناس وإضلالهم، وهم في هذا السعي يقومون بأعمال خبيثة أقوى وأشد من أعمال شياطين الجن.

إن كيد شياطين الجن كيد ضعيف لا يتجاوز حدود الوسوسة الخفية، أما كيد شياطين الإنس فهو كيد قوي، فيه وسائل شتى تضعف أمامها نفوس كثيرة. ولكن هذا لا يخفف من مسؤولية الإنسان الشخصية عما يكسبه بإرادته الحرة من ضلال هو به عالم، وهو له عارف.

ونتتبّع عناصر الحوار الذي اشتمل عليه النص الذي نتدبّره بالتحليل والبيان:

المشهد العام مشهد الظالمين وهم موقوفون عند ربهم يوم الحساب، لمقاضاتهم على ما كان منهم من ظلم في الدنيا، إذ كفروا بالله وجعلوا له أنداداً ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾.

هذه هي اللقطة الأولى.

اللقطة الثانيـة من هذا المشهد: **حوار يجري بين جمع من الظالمين، يقول بعضهم لبعض قولاً، فيتلقى من قبيله رداً عليه، هذه يصورها قوله تعالى: ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾.**

اللقطة الثالثة: **تبرز من جمع الظالمين فريقاً كانوا مستضعفين في الدنيا، وهم يقولون للذين كانوا قادتهم وزعماءهم: لولا أنتم لكنا مؤمنين، وهذه اللقطة يصورها قوله تعالى: ﴿يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ وذلك في محاولة دفع المسؤولية عن نفوسهم، وطرحها على قادتهم وزعمائهم، في محكمة العدل الربانية.**

اللقطة الرابعة: **تبرز جانباً من دفاع القادة والزعماء، في محاولة للتخلي عن**

مسؤوليتهم في ضلال أتباعهم، فحسبهم مسؤوليتهم عن ضلال أنفسهم، وحسبهم عذابهم عن جرائمهم الخاصة بهم. ويتلخص دفاعهم بإنكار أن يكونوا صدوا أتباعهم عن الهدى بعد إذ جاءهم، وبتحميل الأتباع مسؤولية اختيارهم بأنفسهم سبيل الجريمة، وهذه اللقطة من المشهد يصورها قوله تعالى: ﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين﴾.

اللقطة الخامسة: تبرز رد الأتباع على إنكار القادة والزعماء، وهذا الرد يشتمل على تقديم وثائق وبينات، تدين القادة والزعماء بأنهم كانوا يعملون على إضلال أتباعهم، وصدهم عن الهدى، وهذه الوثائق والبينات مسجلة عليهم في سجل أعمالهم لا يستطيعون إنكارها، فهي وقائع ثابتة عليهم، وهي تتلخص بأنهم كانوا يأمرون أتباعهم بأن يكفروا بالله ويجعلوا له أنداداً، وبأنهم كانوا يحيطون ذلك بالمكر الدائم، وتدبير وسائل الإضلال في خفاء، فهم يسرون بها ماكرين ليلاً نهاراً، وهذه اللقطة من المشهد يصورها قوله تعالى: ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار * إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾.

ويصدر الحكم على المتبوعين وعلى الأتباع بالتجريم، ولكن هذه اللقطة مطوية تدل عليها لقطة تابعة لها، وهي نتيجة عنها، وهذه اللقطة التابعة تبرز مشهد المتبوعين والأتباع وقد أخفوا ندمهم على ما فرطوا في جنب الله، بعد أن صدر الحكم عليهم جميعاً بأنهم مجرمون، ورأوا أن العذاب نازل بهم لا محالة، وهذه اللقطة يصورها قوله تعالى: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾.

واللقطة الأخيرة: تبرز سوق الأتباع والمتبوعين إلى العذاب بعد وضع الأغلال في أعناقهم، وهذه اللقطة الأخيرة يصورها قوله تعالى: ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾.

ويسدل الستار بإعلان مبدأ من مبادىء العدل الرباني، فيقول الله عز وجل: ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾.

* * *

(٢) الرغبة بالفجور استجابة لأهواء النفس وشهواتها:

قد يكون جحود الحق ناشئاً عن الرغبة بالفجور، وهو التدفق الوقح إلى فعل الشرور والآثام، وهذه الرغبة تأتي استجابة إرادية لأهواء النفس وشهواتها.

وقد ذكر القرآن هذا السبب من أسباب جحود بعض الناس للحق، فقال الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

فهو يريد أن يفجر فيما يستقبل من حياته، فيفعل ما يهوى وما يشتهي من شر وضر، وإثم وعدوان، وظلم وطغيان، دون أن يشعر في نفسه بعقبة خوف من المصير، ودون أن يشعر في أعماق وجدانه بوخز من ضمير، فيقول منكراً يوم الدين: «أيّان يوم القيامة؟» أي: متى يكون يوم القيامة؟ وهذا سؤال متعنت مستبعد منكر، فهو يعتمد في رفضه يوم الدين على مجرد الاستبعاد، ويورد هذا الاستبعاد على طريقة الاستفهام عن زمن هذا اليوم.

وواقع حال فجور الجاحدين وطغيانهم يشهد بأن إرادة الفجور هي التي دفعتهم إلى التكذيب بيوم الدين، ولذلك وصف الله تعالى الذين يكذبون بالآخرة ولا يؤمنون، بأنهم عن الصراط لناكبون، أي هم عن الصراط الذي يلزمهم بفعل الخير وترك الشر منحرفون وخارجون، وهو صراط الإسلام، ووصفهم بأنهم في طغيانهم يعمهون، ووصفهم بأنهم قساة القلوب ظالمون، يَدُعُّون اليتيم ولا يحضّون على طعام المسكين، ووصفهم بأن من خلائقهم الاعتداء والمبالغة في الإثم، كل هذه الصفات نجدها في مجموعة النصوص التالية:

(أ) قال الله تعالى في سورة (المطففين ٨٣):

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾.

(ب) وقال الله تعالى في سورة (الماعون ١٠٧):

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾.

يدع اليتيم: أي يدفعه بعنف وجفوة، فيقهره ولا يطعمه ولا يكرمه ولا يحسن إليه.

(ج) وقال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

عن الصراط لناكبون: أي عن طريق الإسلام الذي هو الصراط الحق لعادلون جائرون منحرفون. يقال: نكب عن الطريق إذا عدل عنها.

إذا هم فيه مبلسون: أي يائسون من النجاة، ساكنون سكون الذعر القاتل لكل حركة هرب أو دفاع.

فالرغبة بالفجور استجابة لأهواء النفس وشهواتها من الأسباب الدافعة إلى جحود الحق، والتمرد على اتباعه.

أما أهواء النفس وشهواتها فهي من دون العقل الإيماني حمقاء رعناء جاهلة تندفع اندفاعاً بهيماً أعشى، وهي في أغلب حالاتها تميل إلى اغتنام اللذات العاجلة، ولو كان من ورائها مضار وآلام كثيرة آجلة، وتميل إلى زخرف الحياة الدنيا وزينتها وتفاخرها، ولو كان في ذلك سخط الله ومعصيته. فمن طبع أهواء النفوس أنها تؤثر العاجلة وتذر الآخرة، ما لم يضبطها ضابط من العقل الصحيح الراجح، المقرون بالإرادة الحازمة، أو ضابط من الإيمان الراسخ والدين المهيمن على النفس، والمتغلغل في أعماق القلب والوجدان.

لذلك كان اتباع الأهواء والشهوات من الأسباب المضلة المبعدة عن صراط الله المستقيم، والمفضية بالإنسان إلى مواقع تهلكته.

ولذلك كانت الأهواء والشهوات من الوسائل التي تستغلها الشياطين للإغواء فتدغدغها وتثيرها، وتوجهها للانحراف عن صراط الله، ولا تـزال تسيطر عليها شيئاًفشيئاً، حتى تكون أسلحة فتاكة في أيديها. فقد تستدرج الإنسان عن طريق أهوائه وشهواته حتى تدفع به إلى جحود الحق، والكفر بالله، بعد أن تعبر به جسور المعاصي والآثـام، وتبدأ سلسلة الاستدراج بأن تعبر به جسور صغائر الذنوب، ثم تنتقل به إلى عبور جسور بعض كبائر الذنوب، ثم تنتقل به إلى عبور جسور الكبائر الكبرى، ثم تدفع به إلى مواقع الكفر.

لكن المؤمن يستطيع أن يطوع أهواء نفسه فيجعلها تتعلق بفعل الخير وابتغاء مرضاة الله، للظفر بالخيرات الآجلة، والسلامة من موبقات المتـع والشهوات العاجلة المحرمة، وذلك بالتـدريب الطويـل المقرون بـاستحضار التصورات الإيمانية ومراقبة الله، وتذكر ما أعد الله من ثواب عظيم للمتقين والمحسنين.

ويستطيع المؤمن أن يسلك بنفسه وأهوائها صاعداً بها في معارج الكمال، ومحولاً أنظارها عن التعلق بالمحقرات الفانيات، إلى التعلق بالعظائم والكمالات الخالدات، ولذلك جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وهذا هو التصعيد لأهواء الأنفس وشهواتها، بغية الارتقاء بها عن مستوى المتع واللذات العاجلة، إلى مستوى الخيرات والسعادات الآجلة، ولا يتم هـذا ما لم تخضع النفوس للتدريبات الإيمانية الإسلامية القاسية الطويلة المدى، مع تجديد استحضار التصـورات الإيمانية باستمرار.

ولمّا كان الأصل في أهواء النفوس وشهواتها أنها حمقاء رعناء ميالة إلى حب العاجلة وعدم التطلع إلى الآخرة، حذرنا الله من اتباعها، وجعل عقولنـا وإراداتنا مسؤولة عن حسن قيادتها، وشد أعنّتها، حتى لا تجمح إلى مواقع الإثم

والشر والعصيان، فالفجور فالطغيان، فالكفر والتمرد على اتباع الحق وطاعة الرحمن.

فمن نصوص التحذير من اتباع الهوى ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ففي هذه الآية بين الله أن من الأسباب الموصلة إلى الظلم والموقعة فيه اتباع الأهواء، والظلم مظهر من مظاهر مجانبة الحق. وباتباع الظالمين أهواء نفوسهم ضلوا، فحكم الله عليهم بالضلالة حكماً عادلاً، فمن يستطيع أن يحكم بهداية من حكم الله عليه بالضلالة؟! ومن يستطيع أن ينصره من عقاب الله؟! لا أحد.

(ب) وقول الله تعالى يخاطب رسوله محمداً ﷺ في سورة (القصص ٢٨):

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: فإن لم يستجيبوا لك يا محمد فيما تدعوهم إليه من الحق، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، فسبب انصرافهم عن الاستجابة للحق إنما هو اتباعهم أهواء نفوسهم.

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله؟!.

أي: لا أحد أكثر منه ضلالاً، لأن الهوى الذي لا يعصمه هدى من الله مضل حتماً عن صراط الله، وقاذف بصاحبه إلى مواقع الظلم، والله لا يهدي القوم الظالمين، أي: لا يحكم لهم بالهداية، بعد أن اختاروا لأنفسهم أن يكونوا ظالمين.

(ج) وقول الله تعالى في معرض الحديث عن المؤمنين والكافرين في سورة (محمد ٤٧):

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

أي: لا يستوي المؤمنون الذين هم على بينة من ربهم والكافرون الذين زُين لهم سوء أعمالهم، واتبعوا أهواءهم.

فعلّة نفوسهم التي سببت لهم جحود الحق والكفر به أنهم اتبعوا أهواءهم.

(د) وقول الله تعالى في معرض الحديث عن المنافقين في سورة (محمد ٤٧):

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

فهؤلاء المنافقون يجلسون مجالس العلم الرباني، ويستمعون لأقوال الرسول، ولكن قلوبهم مطبوع عليها، فهم لا يفقهون مما يستمعون بآذانهم شيئاً. وعلة نفوسهم التي انحرفت بهم عن الحق أنهم اتبعوا أهواءهم، لذلك فإن الله يجري فيهم سنته القاضية بأن من اتبع هواه فضل بذلك أصابه الطبع على قلبه، فهو لا يفقه ما يلقى عليه من هداية وإرشاد، لأنه لا يستمع إليه استماع باحث عن دلالته، أو لا يُصْغي إليه سمعَه أصلاً.

(هـ) وقول الله تعالى في سورة (القمر ٥٤):

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾.

فهؤلاء الذين كذبوا برسالة محمد صلوات الله عليه إن يروا آية عظيمة من

آيات الله كآية انشقاق القمر لرسول الله ﷺ يعرضوا عنها، ولا يصدقوا بدلالتها، ويقولوا: سحر مستمر، أي هذه الآيات هي من قبيل السحر الذي يأتي به محمد بصفة متكررة دائمة، أو هو من قبيل السحر القوي الذي بلغ حد التأثير في أجرام السماء.

وعلة نفوسهم أنهم اتبعوا أهواءهم، ألا فليعلموا أنه لا يضيع من تكذيبهم واتباعهم أهواءهم شيء، فكل أمر يجري منهم ومن غيرهم مستقر في علم الله وفي سجل صحائفهم سيحاسبون عليه بالعدل.

* * *

(٣) الحـــقـــد:

وقد يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن الحقد.

والحقد هو العداوة الدفينة في القلب، والعداوة هي كراهية يصاحبها رغبة بالانتقام من الشخص المكروه إلى حد إفنائه وإلغائه من الوجود.

ومن مرادفات الحقد تقريباً: كلمة الغل، فالغل هو العداوة المتغلغلة في القلب. ومن مرادفاته أيضاً: الضغن، والشحناء فهي جميعها كلمات تدور حول معنى واحد أو معانٍ متقاربة، ترجع بوجه عام إلى معنى العداوة، مع بعض فروق في الدلالات.

وكم دفع الحقد كثيراً من الأفراد والأمم إلى جحود الحق، والتمرد على الاعتراف به أو اتباعه.

وقد امتدت دولة الإسلام بقوة الحق والعدل والجهاد، واكتسحت عقائد بالية، وصهرت شعوباً كبرى، وقوضت إلى الأبد دولاً ذات شأن قديم كدولة فارس، وشتتت ديانات محرفة سابقة، فألقى كل ذلك أحقاداً سوداء على الإسلام والمسلمين في قلوب بعض المتعصبين لقومياتهم ومعتقداتهم ودولهم التي جرفها الإسلام بنوره المبين فيما جرف، أو نال منها نيلاً، فأفقدهم بذلك زعاماتهم الدينية أو السياسية في الأرض.

ونشأ من جراء هذه الأحقاد السوداء مؤامرات عديدة مقنعة وسافرة على

الإسلام والمسلمين، في أحقاب التاريخ الإسلامي المتتابعة، وما يزال العالم الإسلامي يكتوي بنيران هذه المؤامرات المختلفة في أشكالها وألوانها وأساليبها. فمنها ما يحمل حرباً فكرية مسلحة بألوان شتى من المكر والخديعة، ومنها يحمل حرباً مادية مسلحة بكل قوة مادية مريعة، بغية تهديم الحق الذي جاء به الإسلام، فكان به مجد العرب وسائر الشعوب التي استجابت لدعوته، وبغية تفتيت وحدة المسلمين المتماسكة التي فيها سر قوتهم العظمى التي أذهلت الأمم والشعوب حقبة من الدهر، فهم ما يفتأون يخشون أن تعود هذه الوحدة الكبرى للمسلمين، وأن يعود ذلك الإيمان الصادق إلى قلوبهم.

ما للعاقل وللحقد؟!

إن الحقد حمل ثقيل يتعب حامله، يحمله الجاهل في صدره فيشقي به نفسه، ويفسد به فكره، ويشغل به باله، ويقض به مضجعه، ويكثر به همه وغمه. إنه كحمل من أحمال الشوك الملتهب الحار، المحشو بصخور ثقيلة محمية تنفث السموم التي تلتهب منها الصدور. ويظل الجاهل الأحمق يحمل هذا الحمل الخبيث مهما حل أو ارتحل، حتى يشفي حقده بالانتقام ممن يحقد عليه.

* وحين نحلل الحقد إلى عناصره نجده يتألف من العناصر التالية:

الأول: الكراهية الشديدة إلى حد البغض العنيف.

الثاني: الرغبة بالانتقام وبإنزال السوء بمن يكرهه الحاقد.

الثالث: إمساك العنصرين السابقين في قرارة النفس، وتغذيتهما بالأوهام والتصورات، أو بمثيرات جديدة للكراهية والرغبة بالانتقام، وتركهما يربوان ويتفاعلان مع الزمن، فمن تفاعلهما واتحادهما وتناميهما وتغلغلهما داخل النفس يتكون ما نسميه بالحقد أو الغلّ أو نحو ذلك من أسماء.

والحقد يعيش على حساب كثير من الفضائل وجوانب الخير داخل النفوس. إنه يأكل كثيراً من فضائل النفوس فيربو على حسابها.

فما أشبهه بالخرَّاج الداخلي الذي يأكل اللحم السليم والدم النقي، ويتلف الأعصاب، وينخر العظام حتى يصل إلى نقيها فيلتهمه.

الحقـد داءٌ دفـين لـيس يحـمله ... إلاّ جهـول مليء النفس بـالعلل
مـالي وللحقـد يشقيني وأحـمله ... إني إذن لغبـيٌّ فـاقـد الحيـل؟!
سلامة الصدر أهنا لي وأرحب لي ... ومركب المجد أحلى لي من الزلل
إن نمتُ نمتُ قرير العين ناعمها ... وإن صحوت فوجه السعد يبسم لي
وأمتـطي لمراقي المجـد مـركبتي ... لا حقد يوهن من سعيـي ومن عملي
مبـرّأ القلب من حقـدٍ يبـطّئني ... أما الحقود ففي بؤس وفي خطل

إنه ليس من صفات المؤمنين أن يحملوا الحقد في صدورهم، وذلك لأن الأصل في صدورهم أن تكون مملوءة بالمحبة وإرادة الخير للآخرين، ومتى امتلأت القلوب بالمحبة وإرادة الخير للآخرين لم يجد الغل مكاناً فيها ينزل فيه، ولئن مرت الكراهية أو البغضاء فيها عابرة سبيل فإنها لا تستطيع أن تجد فيها شاغراً تقيم فيه. إن هذه العوارض القذرة غريبة عن صدور المؤمنين وقلوبهم، وتظل دائماً غريبة لا تستطيع أن تجد لها فيها وطناً.

في سورة الحشر تحدثت الآيات عن المهاجرين والأنصار وأثنت عليهم، ثم تحدثت عن المؤمنين الذين جاؤوا من بعدهم، فوصفتهم بأنهم يدعون بالمغفرة لأنفسهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، ويسألون ربهم أن لا يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا، قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

إن الأخوة الإيمانية والغل لا يجتمعان في قلب واحد، إن عاطفة المؤمن نحو إخوانه المؤمنين تتدفق بالمحبة، فكيف يجد الغل إلى هذه العاطفة الكريمة سبيلاً؟! إنهما أمران لا يجتمعان. قد ينال المؤمن من أخيه أذى، وقد يكرهه لذلك أو يعاديه انتصاراً لنفسه، ولكن هذه العوارض لا تستمر في قلب المؤمن، فهي لا تتحول إلى عداوة دفينة في القلب، وحقد وغل متغلغل في الصدر، يتربص الدوائر بأخيه المؤمن، بل يجد المسامحة والعفو أهنأ له وأسعد وأرضى لله، وإن ناله من أخيه ما يكره من ضرٍ أو أذى.

بهذه الأخلاق الكريمة يتحلى المؤمن الفاضل، وبهذه الفضائل الكريمة تتحول العداوات الشخصية إلى مودات جماعية، قال الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

ولمّا كانت الجنة دار سعادة ونعيم عام وشامل كان لا بد لأصحابها من أن يكونوا مبرئين من كل حقد وغلّ، ومن كل علة خلقية تسبب لهم آلاماً وأكداراً. وقد وصف الله أهل دار النعيم يوم القيامة بأنهم مبرؤون من كل غل، وما كان من غل في صدورهم في الدنيا فإن الله ينزعه منها متى دخلوا الجنة، قال الله تعالى في وصف أصحاب الجنة في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

* * *

(٤) الحسد:

وقد يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن الحسد.

والحسد من الرذائل الخلقية ذات النتائج النفسية والاجتماعية السيئة جداً على الأفراد وعلى الجماعات، وهو داءٌ دوي إذا أصاب النفس الإنسانية أضناها وأشقاها، وجعلها مصدر أذىً للآخرين الذين امتحنهم الله بفضائل من نعمه ومزيد من عطائه.

والحسد من شر معاصي القلوب، ومعاصي القلوب أشد إثماً من كثير من معاصي الجوارح، نظراً إلى آثارها الخطيرة في السلوك.

وعلة داء الحسد ترجع إلى إفراط في الأنانية وحب الذات، مع ضعف في الإيمان بكمال حكمة الله تعالى، الأمر الذي يفضي إلى الاعتراض على الله في حكمته التي وزع على مقتضاها عطاءه بين خلقه ليبلوهم فيما آتاهم، فضرره من هذه الناحية يمس جانب الإيمان ويؤثر عليه.

وداء الحسد داءٌ قديم في الناس، روى الإمام أحمد والترمذي عن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».

والحسد منازل ودركات بعضها أحط من بعض وأشد:

(أ) وأهون الحسد الحسدُ المأذون به شرعاً، وهو حسد الغبطة، ومنزلة حسد الغبطة أن يرى الإنسان ما وهب الله غيره من نعمة حقيقية فيتمنى لنفسه من فضل الله مثلها، دون أن يريد في قلبه زوال النعمة عن صاحبها.

وهذه المنزلة لا يكاد يسلم منها أحد، إذ هي من الدوافع الفطرية الطبيعية

التي لا يملك الإنسان دفعها، والتي تعتبر من الحوافز التي تدفع الإنسان إلى طلب الكمال الذي يمكن الوصول إليه، لذلك كان الحرج مرفوعاً عنها، فلا يؤاخذ الإنسان على ما يكون منه في مستواها.

ولكن للحسد المأذون به في حدود هذه المنزلة ضابطان يصونان عن الانحراف إلى ما لا خير فيه، وعن الانسياق وراء التمنيات الشاغلة للفكر، والقاتلة للعمر، من غير فائدة ترجى، ولا منفعة يمكن الوصول إليها:

الضابط الأول: ألا تكون النعمة من الخصائص التي اصطفى الله بها بعض خلقه بالتكوين الفطري، أو بالمنح الخاصة التي لا تأتي عن طريق السعي والكسب الإنساني.

وذلك لأن شغل الفكر والنفس بتمنيات من هذا القبيل مضيعة للوقت، ومقتلة للعمر، ومجلبة للحسرات، ومزلقة من المزالق التي تهوى بالنفوس والقلوب إلى دركات الحسد الضار الذميم. وهذه التمنيات الضائعات تفسد على الإنسان حياته، إذ يعيش مع نفسه فيما يسمى بأحلام اليقظة، فيتحول من إنسان كادح عامل صاحب جد، إلى إنسان ساهم حالم خامل كسول، يرضى من حياته بأن يكون في أحلامه وأوهامه على صهوات النجوم، بينما هو في واقع حاله في الأوحال وتحت الرجوم. وبعض الناس يتجه إلى طريق التعويض، وقد يكون التعويض بارتكاب كبائر شنيعة.

فمن الناس من يتمنى مثلاً أن يصطفيه الله بالنبوة، وهذا لا يأتي عن طريق الاكتساب، إذ هو من الخصائص التي يختص الله بها بعض عباده، وحين يشتد التمني ويملأ ساحة الفكر والنفس لديه، وهو لا يملك تحقيق ما تمنى، يركب مركب الكذب، فيدعي النبوة، أو يدعي الولاية والكرامات، وربما بالغ في هذا حتى زعم للناس أن الولاية التي وصل إليها هي أعلى من مرتبة النبوة.

ومن الناس من يتمنى لنفسه كمالاً من الكمالات الفطرية التي لا يملك الإنسان اكتسابها، كالجمال، والقوة، والذكاء، وفصاحة اللسان، ونحو هذه الكمالات الفطرية. وحين يشتد هذا التمني لديه، ويملأ ساحة فكره ونفسه،

يتجه إلى طريق التعويض؛ فقد يحاول أن يبرز ذاته بالاستكبار، أو بالافتخار على الناس بالمال والجاه، أو بالحسب والنسب، أو بالخزعبلات الغيبية، كالسحر والكهانة وما أشبههما.

وما أكثر حيل التعويض في الناس، إنها حيل تشمل مجالات الحياة كلها. ويهون الأمر بل قد يحسن إذا كان التعويض في طريق لا شر فيه ولا ضر، أما القباحة والشناعة والانحطاط الخلقي، فإنها تكون مرافقة للتعويض بسلوك مسالك الكذب والإفساد والشر والضر والأذى ومعصية الله جل وعلا.

الضابط الثاني: أن تكون النعمة التي يستطاع كسبها بالسعي الإنساني من النعم التي تنفع الإنسان في آخرته، أما مظاهر النعمة التي هي من زينة الحياة الدنيا، فهي في نظر الشرع ونظر العقلاء مجالات لامتحان إرادة الإنسان في هذه الحياة، هل يشكُر أم يكفر، فإذا لم تستخدم في طاعة الله بل استخدمت في معصيته كانت نقمة لا نعمة، وعندئذ لا يحسد عليها صاحبها مطلقاً، مهما كان شأنها عظيماً في الدنيا وهل يحسد أصحاب البلايا على بلاياهم وأصحاب المصائب على مصائبهم ؟؟!!.

وأمثلة ظواهر النعم التي لا يُحسد عليها أصحابها كثيرة مالئة حياة الناس، فذو مال كثير يستخدم ماله في شر نفسه وضرّها، وفي إيذاء الناس والإضرار بهم، لا يحسد على ماله المقترن بحالته هذه، لقد كان الفقر له مع الاستقامة خيراً له وأسعد. وذات جمال بارع، غدت لكل فاسق وطامع، حتى صارت ممتهنة حقيرة، وبؤرة للأوجاع والأمراض المؤلمة الخطيرة، لا تحسد على جمالها المقترن بحالتها هذه، ولقد كان القبح لها مع صيانتها وسلامتها خيراً لها وأسعد. وذو ذكاء عظيم وعلم كثير يستخدمه في الشر والأذى والإضرار بنفسه وبالناس، لا يحسد على ذكائه وعلمه المقترنين بحالته هذه، ولقد كان الجهل وضعف الذكاء مع الاستقامة والسلامة خيراً له وأحمد. وذو سلطان يظلم في سلطانه ولا يعدل، ويهلك الحرث والنسل وهو لا يعقل، لا يحسد على سلطانه المقترن بحالته هذه، ولقد كان الذل والضعف مع السلامة من الظلم والطغيان خيراً له وأرشد، وقد

تجب مجاهدته لإزالة سلطانه منعاً لأذاه، ودفعاً لشره وضرّه ـ لا حسداً ـ وكذلك نظراؤه.

وهذان الضابطان نستطيع استنباطهما مما جاء في كلام الرسول ﷺ.

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار».

أي: ينفق منه في سبيل الله.

فمن هذين النصّين نستطيع أن نستنبط أن لحسد الغبطة ضابطين:

(أ) أن تكون النعمة مما يمكن اكتسابه بالسعي والعمل.

(ب) أن تكون النعمة مما ينفع الإنسان في آخرته ويكسبه مرضاة ربه.

ويدلّ أيضاً على هذين الضابطين دليلان قرآنيان:

الدليل الأول: لما أنزل الله قسمة المواريث جعل نصيب الذكر مثل حظ الأنثيين، مراعاة لمسؤوليات الذكر في الحياة، فهو المسؤول عن معظم النفقات داخل الأسرة، متى كان قادراً، فقالت النساء على سبيل الحسد المتضمن الاعتراض على قسمة الله في شريعته التي لا يملك الناس تبديلها: نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد، لأننا من الضعفاء، والرجال أقوياء وأقدر على طلب المعاش منّا، فأنزل الله تعالى قوله في سورة (النساء ٤):

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

فأبان الله تبارك وتعالى أن التفضيل في أنصبة المواريث بين الذكور والإناث تابع للتفضيل في أصل الخصائص التكوينية، وفي طبيعة نظام الحياة الاجتماعية.

والشريعة المنزلة من لدن حكيم خبير لا يمكن أن تكون مخالفة للحكمة التي يقتضيها الواقع.

فتمني النساء ما فضل الله به الرجال عليهن في الميراث هو من قبيل تمني الأشياء التي لا يمكن اكتسابها بالسعي والعمل، لأن هذا التفضيل تابع لأصل الخصائص التكوينية الفطرية، وللنظام الأكمل الذي تقتضيه طبيعة الحياة الاجتماعية.

فقوله تعالى في الآية: ﴿للرجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبن﴾ بمثابة التعليل للنهي عن هذا التمني الذي تمنّاه النساء. إذن نصيب الرجال المقدّر في تشريع المواريث تابع لطبيعة أعمالهم التي يكتسبونها بحسب مسؤولياتهم، ونصيب النساء المقدّر في تشريع المواريث تابع أيضاً لطبيعة أعمالهن التي يكتسبنها بحسب مسؤولياتهن. وهذه أمور من السنّن الثابتة في التكوين الطبيعي للناس، فلا يملك صنف النساء تعديلها بالسعي والعمل، وأيّ تَمَنٍّ من هذا القبيل هو من باب الحسد المنهي عنه.

وقوله تعالى في الآية بعد النهي عن هذا التمني: ﴿واسألوا الله من فضله﴾ يتضمن تحويلاً رفيعاً لأماني النفوس وتوجيهها لمحض فضل الله، وقطع نظرها عمّا في أيدي الناس من نعم فضّلهم الله بها لحِكَمٍ هو بها عليم، ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿إنّ الله كان بكلّ شيءٍ عليماً﴾.

هذا الدليل دلّ بوضوح على الضابط الأول لحسد الغبطة المأذون به، وهو أن تكون النعمة مما يمكن اكتسابه بالسعي والعمل.

الدليل الثاني: من المعروف أنّ قارون كان رجلاً عظيم الغنى من بني إسرائيل، ومن قوم موسى، وقد ذكر الله في القرآن الكريم أنه آتاه من

الكنوز شيئاً عظيماً تنوء العصبة من الرجال بحمل مفاتيحه، ولكن هذا الإنسان قد أطغاه المال والشعور بالاستغناء، فبغى على موسى والمؤمنين معه، فلم يكن الغنى نعمة له، بل كان نقمة عليه، إذ كان سبباً في طغيانه، ثم هلاكه، ثمّ في شقائه الأبدي.

لقد خرج قارون ذات يوم على قومه في زينته وخيلائه وفخره، يتعاظم بما لديه من غنىً كثير، فرآه بنو إسرائيل في موكبه الذي يحسده عليه أهل الدنيا وطلّابها، ولا يحسده عليه العقلاء المؤمنون طلاب الآخرة.

أمّا الأوّلون فقالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنّه لذو حظٍّ عظيم.

وأمّا العقلاء المؤمنون الذين أوتوا العلم فقالوا: ويلكم ثواب الآخرة خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقّاها إلّا الصابرون.

وبعد زمن يسير انتقم الله من قارون، فخسف به وبداره الأرض وأهلكه إهلاكاً قاسياً فيه عظة لمن يذّكر.

فأصبح طُلاب الدنيا الذين كانوا تمنّوا مكانه بالأمس يذعنون لحكمة الله في بسط الرزق وتضييقه، ويعلنون فرحهم بأنّ الله قد منّ عليهم إذ لم يجعلهم مثل قارون في الغنى، لأنّ غناه كان وبالاً عليه، إذ كان غنىً مطغياً غير مقترن بطاعة الله والإنفاق في سبيله، مع أنّ الذين حسدوه من قبل قد كان حسدهم من باب حسد الغبطة، إذ تمنّوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، ولكنّ النعمة التي أوتيها قارون لم تكن نعمة مقرونة من قِبَله بما ينفعه في آخرته ويكسبه مرضاة ربه.

وإذ قصّ الله علينا هذه القصة، دلّنا ضمناً على أنّ النعمة التي لا تنفع الإنسان في آخرته ولا تكسبه مرضاة ربّه، هي نقمة ووبالٌ على صاحبها، فهي ليست من النعم التي يحسد الإنسان عليها. وكذلك فهمنا الضابط الثاني لحسد الغبطة المأذون به شرعاً، وهو أن تكون النعمة مما ينفع الإنسان في آخرته ويكسبه مرضاة ربه.

أمّا النصّ القرآني الذي تضمن هذه القصة فهو قول الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن
كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾
قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ
هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ
فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ
لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا
كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ
تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ
وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ
ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ــ ويكأنه لا يفلح الكافرون: أصلها على الراجح «ويْ كأنّ»، وكلمة (وي) تستعمل عند العرب لدى التنبه على الخطأ وإظهار التندم. وتستعمل للتعجب.

فالإنسان السويّ المؤمن المتقيد بحدود الله قد يغبط ضمن حدود هذين الضابطين صاحب النعمة على نعمته، وهو يريد دوامها له، ويدعو الله له بذلك، ولا يسرّه زوالها عنه.

(ب) ويأتي من دون حسد الغبطة دركات كلّها مذمومة وقبيحة، وبعضها

أشدّ قبحاً ونكراً من بعض، وأخفها تمني مثل ما للمحسود دون تحقق شرطي حسد الغبطة المأذون به، ثم يأتي من دونها ثلاث دركات:

أولاً: فمن هذه الدركات الخبيثة القبيحة أن يتمنّى الحاسد انتقال النعمة من المحسود إليه، لتكون له من دون صاحبها الذي أنعم الله عليه بها ليبلوه، أيشكر أم يكفر؟ وتتولّد هذه الدركة من اقتران الحسد بالطمع حتى يتمنّى الحاسد انتقال النعمة من المحسود إليه.

ويتضمن هذا التمنّي القبيح الاعتراض على قسمة الله تعالى، وعلى حكمته فيما يعطي وفيما يمنع، وقد أحسن الشاعر في بيان هذا المعنى إذ قال:

ألا قل لمن بات لي حاسداً   أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه   بأنك لم ترض لي ما وهب

وقد يتضمن أيضاً هذا التمني القبيح شعوراً خبيثاً نحو الآخرين بالكراهية والحقد، لأنّ الله زادهم من نعمه. وهذا الشعور يمثل انحرافاً خلقيّاً أنانياً ممعناً في الانحطاط عن المستوى الإنساني الكريم، ولو كان لديه شعور بالمحبة تجاه الآخرين لم يحسدهم حسداً يتمنّى فيه زوال النعمة عنهم وانتقالها إليه، ليستأثر بها من دونهم.

ماذا يستفيد هذا الحاسد؟! إنه يحمّل نفسه وقلبه أثقال آلام الحرمان، ويوقد فيهما نيران الغيرة، ويعيش مع نفسه في بركانٍ من التعاسة والشقاء، لأنه لا ينظر إلى كنوز الله الملأى وبحر عطائه العظيم، ولا يعلّق قلبه بطلب ما عند الله من فضل، ولكن تضيق عينه، وتضيق نفسه، فلا ينظر إلاّ إلى ما في أيدي الناس من نعم، فتدفعه أنانيته المقيتة إلى حبّ الاستئثار بكلّ نعمة، وتمنّي كلّ النعم له وحده، وكراهية ذوي النعم.

ولا سبيل إلى إرضاء هذا الحاسد، إلاّ بأن تزول النعمة عن المحسود، فما له إذن إلاّ أن يموت بغيظه وكمده، وحسبه عقاباً أن يشقي نفسه بآلام حسده، ويجني لقلبه التعاسة والبلاء، وأن يفني عمره وفكره في الأماني الضائعات، ويكوي قلبه بجمرات الحسرات.

لو أنّ إنساناً بَقَرَ بَطْنَ نفسه بيديه، وملأه جمراً متوهجاً، ومشى به على تثاقل، متحملاً لذعاته وآلامه، سَعْياً إلى عدوّه، ليُحْرِقَ لَـهُ بعض متاعـه ورياشه، بما أخفى في بطنه من جَمْر، لما كانَ أَغْبَـى وأَجْهلَ من حسودٍ يحمل الحسد في قلبه لذي نِعمَةٍ أنْعم الله بها عليه، فيغدو تعيساً يتقلّبُ في آلام شقائه من داء حسده، بينما يرفلُ ذو النعمة في أثواب السعادة بفضل الله.

ما أخبث داء الحسـد! إنّه ليُعمِي بصيرة الحاسد، ويجعله كالهائم يمشي على غير هدى، فما يزال في مَسِيره يتعثّر، وفي ظلماته يتخبَّط ويتكسّر.

يتمنّى لنفسه السعادة، فيقيم بينه وبينها حجاباً مشقياً له من حسـده الخبيث.

ومتى بدأ الحسدُ يأكُلُ قلب الحاسد قامت في نفسه عداوة للمحسود، وحقد قاتلٌ له، دون أن يكون للمحسود كسبٌ في ذلك، إلاّ أنه منْعَمٌ عليه من ربّه.

والعداوة والحقد الناشئان عن الحسد يولّدان في نفس الحاسد الرغبة في كيد المحسود، والإضرار به، وإيقاع الشرّ فيه.

ثانياً: ويأتي من دون الدركة السابقة دركة أحط وأخس وأشدّ قبحاً وخبثاً منها، وهي أن يتمنى الحاسد زوال النعمة عن المحسود، ولو لم تنتقل إليه، فهو إذْ لا يستطيع نقل النعمة إلى نفسه يريد زوالها عن أخيه، حتى لا يمتاز عليه بها، أو حتى لا يناظره فيها إذا كان لديه مثلها. فقد يكون الحسود يملك مثل النعمة التي يحسد الآخرين عليها، ولكنه يريد زوالها عن الآخرين، حتى ينفرد هو بأنّ أحداً غيره لا يوجد لديه مثل النعمة التي عنده. فهو لا مصلحة له من زوال النعمة عمّن يحسدهم إلاّ حبّ الانفراد بين الناس بامتلاك ما يتميزّ به عليهم، فهو حسد مقرون بالكبر، وقد يكون الدافـع إليه مجـرّد الكراهيـة للآخرين، فهو خالص لوجه الشيطان.

ومن اقتران الحسد بالكبر الذي لا يرضي النفس معه إلاّ أن تنفرد من دون الناس بما يجعلها تتفاخر وتتباهى به على الآخرين، وكأنه لا يرى صاحب النعمة أهلاً لها، أو من اقتران الحسد بالكراهية للآخرين والحقد عليهم، يتولّد

تمنّي زوال النعمة عن الآخرين، ولو لم يكن للحاسد مصلحة بأن تنتقل النعمة إليه، فهو يشعر باللّذة إذا وجد من يكرههم أو يحقد عليهم في الألم والحرمان، أو في النقص والخسران.

وقد تكون هذه الدركة ناتجة عن اقتران الحسد بالشحّ المفرط، إذ تشح نفس الحسود بما عند الله من نعم، فيؤلمه أن يجود الله بها على أحدٍ من الناس سواه، فإذا رأى شيئاً منها وصل إلى غيره كزّت نفسه، فكأنه هو الذي يعطيها من خزائنه، وهذه الحالة النفسية المعقّدة التي تنتابه تجعله يتمنّى زوال النعمة عمن يحسده.

فهو حسد مع كبر، أو حسد مع كراهية، أو حسد مع شحّ.

وصاحب هذا الحسد يرثى لحاله، إنّ ناره تأكل قلبه، حتى تقتله، ولذلك اشتهر في الحكم السائرة قولهم: لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله!!

وقد أحسن الشاعر في وصف هذا الداء إذ قال:

اصبر على حسد الحسـ ـود فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

ومن الطرائف ما ترويه كتب الأدب من أنّ متحاسدين استدعاهما أحد الأمراء فقال لهما: أيكما طلب مني طلباً فإني أعطيه إيّاه، ثمّ أعطي صاحبه ضعفه، فصار يدفع كلٌ منهما صاحبه حتى يكون هو البادىء بالطلب، وطال الوقت بهما وهما يتدافعان، حتى أحرجهما الأمير بالتهديد بالقتل، فلم يجد أحدهما طريقاً يرضي به حسده إلاّ بأن يطلب من الأمير أن يقلع عينه، ليقلع الأمير بعد ذلك عيني صاحبه.

ثالثاً: ويأتي من دون الدركة الثانية دركة ثالثة أخس منها وأحقر وأخبث؛ وأكثر لؤماً وشراً، وهي دركة لا تقف عند حدود تمني القلب ولكنها تزيد عليه باتخاذ الوسائل والأسباب لإزالة النعمة عن صاحبها، أو طمس مظاهرها بالدسائس والمكايد، والمجاهرة بالعداوة، والجحود وغمط الحق، والظلم

والعدوان، والإصابة بالعين، وهكذا إلى جميع وسائل الكيد التي يكيد بها الحاسدون الظالمون الآثمون.

والعناصر التي تتكون منها هذه الدركة هي العناصر التي تتكون منها الدركة السابقة بإضافة عنصر الرغبة بالعدوان إلى مستوى التنفيذ، وممارسة ذلك بالعمل الإرادي.

وقد يكون في نفس بعض الحسودين طاقة مشعة مؤثرة تنطلق عندما يشتد حسدهم، فتؤثر بضرٍّ ما على المحسود ضمن سنن الله الكونية، وهذا ما يسمّى بالإصابة بالعين. وقد ثبت أنّ العين حقّ.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حقّ» أي: الإصابة بالعين حقّ.

وروى مسلم عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «العين حقّ، فلو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا» أي: إذا طُلب من العائن أن يغسل أطرافه ليؤخذ الماء ويصب منه على المصاب بالعين لزمه أن يستجيب للطلب.

وثبت أنّ جبريل عليه السلام كان يرقي رسول الله ﷺ بأن يشفيه من شرّ حاسد إذا حسد ومن شرّ كلّ ذي عين.

روى مسلم عن عائشة أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل قال: «باسم الله يُبْريك، ومن كلّ داءٍ يشفيك، ومن شرّ حاسد إذا حسد، وشرّ كلّ ذي عين».

وروى مسلم عن أبي سعيد أنّ جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم، قال: «باسم الله أرقيك، من كلّ شيء يؤذيك، من شرّ كلّ نفسٍ، أو عينِ حاسدٍ يشفيك، باسم الله أرقيك».

وثبت في الأدعية النبوية قول الرسول ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامة، من كلّ شيطان وهامّة، ومن كلّ عين لامّة».

وكان الرسول ﷺ يعوّذ بهذا الدعاء الحسن والحسين.

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن أسماء بنت عميس، قالت: يا رسول الله، إنّ وُلْدَ جعفر تسرع إليهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم، فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «أمر النبي ﷺ أن نسترقي من العين».

وروى البخاري ومسلم عن أم سلمة أنّ النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سُعْفة (أي: صفرة) فقال: «استرقوا لها فإن بها النظرة».

وروى الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلت أخذ بهما وترك ما سواهما».

فقول الله تعالى في سورة الفلق: ﴿ومن شرّ حاسدٍ إذا حسد﴾ يشمل شرور الحاسدين التي يفعلونها بألسنتهم، وأيديهم، ومكايدهم، وشرورهم التي تكون من توجّه قوى خاصة فيهم حينما يصيبون بالعين.

وكان أعداء الرسول ﷺ من كبار المشركين يرون ما يتحلّى به الرسول من كمالات يمتاز عليهم بها، وما أنزل الله عليه من قرآن عظيم معجز لهم، فيحسدونه، حتى كادت أعينهم بتأثيرها تصيبه، لا سيما حينما سمعوا منه القرآن، إلا أن الله عصمه، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (القلم ٦٨):

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ . . . ﴿٥١﴾ ﴾.

لَيزلقونك بأبصارهم: أي ليصيبونك بأعينهم، فيزيلونك عن مقامك الذي جعله الله لك؛ كمن يزلق وتزلّ قدمه عن مكان ناعم أملس فيسقط.

وثبت في الصحيح أنّ الرسول ﷺ طلب من عامر بن ربيعة أن يغتسل

لسهل بن حُنيف إذ أصابه بالعين؛ فلما فعل عامر ما أمره به الرسول ﷺ؛ ذهب عن سهل ما يجد.

عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد فتاة مخبّأة ــ أي: مخبّأة في خدرها ــ قال: فَلَبَّط سهل، فأُتي رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله هل لك في سهل بن حُنيف؟ والله ما يرفع رأسه، فقال: «هل تتهمون له أحداً» فقالوا: نتّهم عامر بن ربيعة، قال: فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغلّظ عليه، وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه، ألا برّكت (أي: هلاّ دعوت له بالبركة) اغتسل له» فغسل له عامرٌ وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبته، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره في قدح، ثمّ صَبّ عليه، فراح مع الناس ليس به بأس».

رواه في شرح السنة، ورواه مالك وفي روايته قال: «إنّ العين حقٌّ توضّأ له»[1].

ولا بدّ أن نعلم أنّ الإصابة بالعين سبب من الأسباب الكونية، والأسباب الكونية لا تفعل إلاّ ضمن دائرة القضاء والقدر.

هذه هي دركات الحسد، ولكل دركةٍ منها مستويات بعضها أشدّ من بعض، وأخسّ المستويات وأقبحها ما يوصل إلى الكفر بالله والتمرّد على أوامره ونواهيه بالجحود والكنود، والتصميم على الظلم والبغي، وهذا ما انتهى إليه إبليس لعنه الله.

ولما لداء الحسد من عواقب اجتماعية سيئة جداً، ولما فيه من تأثير سيء على دين الحاسد وإيمانه، اشتد الإسلام في النهي عنه والتحذير منه.

ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً» رواه البخاري.

---

(١) مشكاة المصابيح رقم (٤٥٦٢) وعلق عليه الألباني بأنه صحيح الإسناد.

وروى النسائي في باب الجهاد عن أبي هريرة ضمن حديث طويل أنّ الرسول ﷺ قال: «ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد».

وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إيّاكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

* * *

آثار الحسد في المجتمع:

حين يدفع الحسد الحاسدين إلى ارتكاب مركب الجريمة ينجم عنه في المجتمع شرور كبرى، منها الغيبة، والنميمة، والبغي، والعدوان، والظلم، والاتهام الباطل، وافتراء الكذب، والجور في الحكم، والسرقة، والغش، والقتل، وهكذا إلى كل جريمة قبيحة منكرة. ويتفاوت الحاسدون في مدى ارتكابهم للجرائم، ويكون لكل منهم نسبة تساير ضعف إيمانه، وقلة دينه وخوفه من ربّه.

وما من ذي نعمة إلّا كان له حاسدون، وكان له من حاسديه ظالمون آثمون، دبّروا له المكايد، وافتروا عليه الفرى، ومكروا به أيّما مكر.

فذو نعمة في عقله وعلمه، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين ذي سلطان، بالكذب والبهتان، فناله من حسدهم بلاءٌ وهمّ، أو حزن وغمّ.

وذو نعمة في سلطانه ومجده، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين أقرانه، أو بينه وبين رعيته، بالكذب والبهتان، والظلم والعدوان، فناله من حسدهم همٌّ وغمّ، وحزن وبلاء.

وذو نعمة في ماله وتجارته، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين زبائنه وشركائه، أو بينه وبين ذي سلطان، بالكذب والبهتان، والظلم والعدوان، فناله من حسدهم بلاء وهم، أو حزن وغم.

وذو نعمة في دعوته إلى الله، وجهاده في سبيل الله، وإخلاصه في نصحه، وصدقه في عمله، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين إخوانه وأحبابه، وتلامذته وأصحابه بالكذب والبهتان، والظلم والعدوان، فناله من حسدهم بلاء وهم، أو حزن وغمّ.

وكم من زوجين حبيبين، يظلّلهما سرادق السعادة والهناء، ويمتعهما نعيم المودّة والصفاء، ويمدّهما العطاء الكريم بالصحة والرخاء، كان لهما حاسدون واشون، أفسدوا ما بينهما بالكذب والبهتان، والظلم والعدوان، فنالهما من حسدهم بلاء وهمّ، أوحزن وغمّ، وربّما منيا بمُرّ الفراق وشرّ الطلاق.

وكم من أصحاب متآخين في الله، متصافين متحابين، يجتمعون على الله ويفترقون عليه، قد ائتلفوا بينهم ائتلاف حبّات عقد اللؤلؤ النظيم، لا يمرّ النسيم فيما بينهم إلّا بعطر، ولا تطلع الشمس عليهم إلّا بزهر، ولا يسبل الليل عليهم ستره إلّا بصفاء، ولا يمرّ الزمان على أحدهم إلّا بوفاء، قد دخل بينهم حاسدون واشون، أفسدوا ما بينهم بالغيبة والنميمة، كذباً وبهتاناً، وظلماً وعدواناً، فنالهم من حسد حاسديهم همٌّ وبلاء، وعداوة وبغضاء، ثمّ تفرّقوا تفرّق الأعداء.

وكم من والدٍ أفسده مكر الحاسدين على ولده، فبات غاضباً عليه بعد أن كان راضياً عنه.

وكم من ولد أفسده الحاسدون على أبيه، فبات عاقّاً له بعد أن كان باراً به.

وكم من محصنة عفيفة شريفة، زنّاها الحاسدون والحاسدات، وأشاعوا عنها من الفواحش ما لم تفعل، فدفعوها إلى عقوبة الحدّ، أوأساؤوا سمعتها، ودنّسوا شرفها كذباً وبهتاناً، وهي مما افتروا أطهر من ماء السماء، أو هي في طهارتها كطهر الحور العين، اللّاتي لم يطمثهنّ إنس ولا جانّ، وكم من محصن عفيف شريف، فعل به الحاسدون مثل ذلك.

وكم من أمين خوّنه الحاسدون والحاسدات، فأردوه بالخيانة. وكم من صادق رماه الحاسدون بالكذب. وكم من عالم طعنه الحاسدون بالجهل. وكم من عاقل غمزه الحاسدون بالحماقة. وكم من رزين لمزه الحاسدون بالطيش. وكم من عادل شيّع عنه الحاسدون أنه جائر ظالم. وكم من صاحب خلق كريم وصفه الحاسدون بالنفاق. وكم من داع إلى الحق صادق مخلص وصفه

الحاسدون بالرياء، أو بأنه تاجر طالب جاهٍ أو مال. وكم من جميل قبّحه الحاسدون وشوّهوه. وكم من قويّ أضعفه الحاسدون وأوهنوه. وكم من ثريّ كاده الحاسدون ومكروا به حتى نزل به الفقر. وكم من ذي جاه وسلطان ما زال به الحاسدون حتى أذلّوه. وكم من ذي شجاعة وبأس وبطولة، مكر به الحاسدون حتى قتلوه، وكم من نبيٍّ أوقع به حاسدوه حتى قتلوه أو أخرجوه من بلاده.

كلّ هذا له شواهد وأمثلة كثيرة في أحداث التاريخ، وما يزال التاريخ يسجّل منها أحداثاً وأمثلة كثيرة، في كلّ حقبة من الزمن، وفي كلّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية.

وهكذا يقطع الحسد وشائج المودّات، وصلات القرابات، ويفسد الصداقات، ويولّد في الناس العداوات، ويفكك أفراد المجتمع، ويباعد بين الجماعات.

إن مثل الحسد كمثل مقراض خبيث، يمشي بين الناس فيقطّع الأربطة التي تصل بعضهم ببعض على أساس من الأخوّة والمودّة. وكمثل معول خبيث، يهدم في بنيان الجماعات، ويقتلع أسس المودّات والصداقات، ويضع مكانها بذور العداوة والبغضاء والحقد.

في حين أن التربية الأخلاقية الإسلامية تبني المجتمع الإسلامي على أساس الأخوة، ذات الأربطة المتينة التي تجعل المجتمع بمثابة جسد واحد.

هذه لمحة عن آثار الحسد في المجتمع. أمّا أضراره على قلب الحسود ونفسه فيمكن تلخيصها بما يلي:

١ ــ إنه نوع من الاعتراض على أفعال الله تعالى، واتهام الله جلّ وعلا في حكمته العالية، والتطاول إلى مقام يجب على المؤمن أن يقف دونه موقف الأدب والرضا والتسليم، فهو يتنافى مع الإيمان، لذلك فهو والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد، كما جاء في حديث الرسول ﷺ.

٢ ــ ما يمسّ قلب الحسود ونفسه من آلام تقض مضجعه، وتجعله مهموماً مغموماً، يعاني كمده، وتمزّقَ نفسه، وحزنَ فؤاده، إذ تطحن أعصابه المتوترة المتصلّبة آلامُ الحرمان والغيرة، وآلام النهم المصدود، والشره المردود، والطمع الموصود، والجماح المكبوح، والفؤاد المجروح.

* * *

أمثلة وشواهد:

١ ــ حسد إبليس ــ وهو من الجن ــ آدم عليه السلام أول إنسان خلقه الله من هذه السلالة البشرية. وقد بلغ الحسد بإبليس مبلغ التورط في الكفر والتمرّد على طاعة أمر الله، إذ اقترن في نفسه برذيلة خلقية أخرى، هي الكبر والعجب بالنفس، فكان مصيره اللّعن والطرد عن رحمة الله، وكان مصيره أيضاً الانطلاق في الإفساد والكيد لآدم وذريّته من بعده، حتى يكونوا من الغاوين، ومن أصحاب الجحيم، ويكونوا شركاءه في العذاب الأليم.

ومع إبليس جنود كثيرون من شياطين الجنّ والإنس، أكل الحسد قلوبهم فانطلقوا يُغوون الناس، ويفسدون في الأرض.

إنّ العلة النفسية الأولى لدى إبليس قد كانت علة الكبر، ثمّ لمّا ظهر فضل آدم بالعلم والمعرفة واكتشاف خصائص الأشياء وسماتها أكلت نيران الحسد قلبه على آدم وذريته، فأعلن عداوته لهم، وقرّر أن يتابعهم بالإغواء والتضليل، حتى يوقعهم في الهلاك والشقاء الأبدي، إذا استجابوا له فكفروا بربهم وعصوا أوامره ونواهيه.

وكان حسد إبليس من مستوى أخسّ دركات الحسد، إذ تولّد عنه وعن خلق الكبر معه البغضُ والعداء الشديد، والرغبةُ بإهلاك المحسود وتحطيمه، ودفعه إلى دركات الجحيم.

٢ ــ قصة ابْنَيْ آدم التي قصّها الله علينا في القرآن، وذكر المؤرخون أن اسمهما قابيل وهابيل.

قالوا: إنّ قابيل وهابيل من أبناء آدم عليه السلام، وكانت حواء تلد في كلّ حمل توأمين، أحدهما ذكر والآخر أنثى، وكان آدم يزوج أبناءه من بناته،

بحسب شريعة الرب حينئذ، ولكنه كان لا يزوج توأمين ذكراً وأنثى بعضهما من بعض، وإنما كان يفصل بين التوائم، فمن أراد أن يتزوج منهم فعليه أن يختار من شقيقاته غير التي كان معها في بطن أمّه في حمل واحد.

لكن قابيل أراد أن يتزوج بتوأمته، على خلاف نظام الزواج الذي كان في المدّة الأولى للتكاثر الإنساني، بينما كان نصيبه توأمة أخيه هابيل، ونصيب هابيل توأمة قابيل، وتمرّد قابيل على النظام، وصمّم على أن يتزوج بتوأمته، ويمنع أخاه هابيل عن الزواج منها، ورفض الزواج من توأمة هابيل، استحساناً لتوأمته.

فأمرهما أبوهما آدم عليه السلام أن يقرّب كلٌّ منهما لله قرباناً، فمن تقبّل الله منه قربانه كان أحق بالزواج من هذه الأخت المتنازع عليها ومن لم يتقبل الله قربانه فعليه أن يكفّ، فقرّب كلّ منهما لله قرباناً، فنظر الله إلى قلبيهما فتقبل قربان هابيل، ولم يتقبّل قربان قابيل، وثبت الحقّ لمن تقبّل الله قربانه. وأكل الحسد قلب قابيل، وحقد على أخيه، وأراد أن يتخلص منه بالقتل، وواجهه بالأمر، فقال له: لأقتلنّك. قال هابيل: إنّما يتقبّل الله من المتقين، لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله ربّ العالمين.

وإذ حسد قابيل هابيل، وحقد عليه، وهدّده بالقتل، طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله، ليخلو له الجوّ فيتزوّج بتوأمته التي استحسنها لنفسه، فأصبح بقتله من الخاسرين، ولم يجد من أخيه دفاعاً، وكان قابيل مثلاً لذوي النفوس الشريرة المجرمة، وكان هابيل مثلاً لذوي النفوس الخيّرة المسالمة.

ثم عانى قابيل مشكلة مواراة جثة أخيه، ولم يدر كيف يخفيها، فحملها، وجعل ينتقل بها من مكان إلى آخر، ويخشى افتضاح أمره، فبعث الله غراباً، فوقف بالقرب منه، وجعل الغراب يبحث في الأرض، حتى احتفر حفرة، فلمّا أتمّها دفن جثة غراب ميّت فيها، عندئذٍ قال قابيل: يا ويلتا، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، فأواري سوأة أخي؟! وعندئذٍ عظم الإثم في نفسه، وأصبح من النادمين على خطيئته، لقد جرّه الحسد الخبيث، حتى ركب مركب الجريمة الكبرى، فقتل أخاه، وعصى ربّه.

هذه القصة ذكر القرآن معظمها، وأشار في طيّ الكلام إلى ما لم يذكره منها، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (٣١) ﴾.

وجاء في كلام الرسول ﷺ في شأن هذا القاتل الأوّل من ابني آدم، ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنّه أوّل من سنّ القتل».

كفل من دمها: نصيب إثم إهراق دمها ظلماً وعدواناً، لأنّ ابن آدم هذا أول من سنّ القتل في هذه السلالة البشرية.

وقاعدة الجزاء الربّاني في تحمّل الإنسان إثم عمله السيء وإثماً مثل إثم عمل كلّ عاملٍ تأثر به، وفي اغتنامه ثواب عمله الصالح وثواباً مثل ثواب عمل كلّ عامل اقتدى به وتأثر به، معلنة في نصوص كثيرة، منها قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقصَ ذلك من أوزارهم شيئاً». من حديث طويل رواه مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي.

ونلاحظ في قصة قابيل وهابيل أن الصالح منهما أراد أن يعلّم أخاه معنى الخير، ويشعره بفضل المتقين، ويبعد عنه لواعج الحقد والغضب، ويخفف من

داء الحسد لديه، وقد كان يستبعد جداً أن يكون منه قتل فعلي، دلّ على هذا قوله: «لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله ربّ العالمين»، وذلك لأنّ (إنْ) الشرطية تفيد أنّ ما يأتي بعدها أمرٌ مشكوك به، بخلاف ما لو جاء بدلها كلمة (إذا) فهي تستعمل لدى البلغاء في الأمور التي يترجّح وقوعها.

ولعل هابيل أراد أن يستغلّ داء الحسد لدى أخيه كي يصرفه عن ارتكاب الجريمة، ويوجه طمعه لما أعدّ الله للمتقين في جنات النعيم، فقال له: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار» ولو أنّ قابيل عَقل لأثارَ ذلك حسده فعلاً، فكف عن القتل حتى لا يفضله في أجر الآخرة ونعيمها. وهي طريقة من المعالجة النفسية بارعة جداً، إذ فيها استغلال داء الحسد نفسه لتحويله عن الشر إلى الخير، إلاّ أنّ هذا العلاج لم ينفع أيضاً في إصلاح قابيل، لأنه كان دنياوياً، فلم ينظر إلى الآخرة ودركات جحيمها ودرجات نعيمها، وظلّ يعاني من دائه حتى قتل أخاه.

٣ ــ قصة حسد أولاد يعقوب عليه السلام لأخيهم يوسف عليه السلام، إذ جعلهم الحسد يركبون مركب الجريمة، ويكيدون لأخيهم من أبيهم كيداً كبيراً، وقد قص الله علينا في القرآن قصة يوسف وما كان من حسد إخوته له.

يعقوب وهو إسرائيل عيه السلام ولد له اثنا عشر ولداً ذكراً من أربع نسوةٍ تزوّج بهنّ.

ستة منهم أمهم (لَيْئة) زوجة يعقوب الأولى، وهي ابنة خاله (لابان) وهم:

١ ــ رأوبين الولد البكر ليعقوب
٢ ــ شمعون
٣ ــ لاوي
٤ ــ يهوذا
٥ ــ يسّاكر
٦ ــ زبولون

هؤلاء أشقاء أمهم (لَيْئة)

واثنان منهم أمّهما (بِلْهَة) وكانت جارية، وهما:

١ ــ دان
٢ ــ نفتالي

هما شقيقان أمهما (بلهة)

واثنان منهم أمّهما (زلفة) وكانت جارية أيضاً، وهما:

١ ــ جاد
٢ ــ أشير

هما شقيقان أمهما (زلفة)

والأخيران منهم أمّهما (راحيل) وهي أخت (ليئة) الصغرى فهي ابنة خال يعقوب، وكان الجمع بين الأختين جائزاً في الشريعة المنزلة على إبراهيم عليه السلام، والأخيران هما:

١ ــ يوسف عليه السلام
٢ ــ بنيامين

هما شقيقان أمهما (راحيل)

وكان يوسف وشقيقه بنيامين أصغر الإخوة، وكان يوسف أحبّ أولاد يعقوب إلى قلبه، ويليه شقيقه الأصغر بنيامين. وكان يعقوب يلاحظ في يوسف أمارات النجابة، ويحسّ بأنه سيكون وارث النبوة من بين إخوته، وأنّ الله

سيجتبيه ويفضله، ولذلك كان أثيراً عنده، وكان محلّ رعايته الزائدة، ولا يكاد يستطيع مفارقته أو غيابه عنه.

وهذا ما أثار حسد سائر الإخوة عليهما، وانْصَبَّ الأمر بشدّة على يوسف، لأنه كان محلّ الحظوة الكبرى، وأكبر الشقيقين.

وصرّح الإخوة فيما بينهم بما يدل على حسدهم لهما، وجاء في القرآن ذكر مقالتهم في ذلك، فقال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

وأحسّ يعقوب بأن الحسد يأكل قلوب الإخوة على يوسف وأخيه، وأدرك أنهم لو عرفوا أن يوسف سيكون المفضل عليهم بالعطاء الإلهي في المستقبل حين يبلغ أشدّه لكادوهُ أيّما كيد، ولمكروا به أيّما مكر، ليتخلّصوا منه ومن سبقه عليهم، غافلين عن أنّ القضاء الربّاني لا يُعاند. ولذلك لمّا رأى يوسف ـ على حداثة سنّه ـ الرؤيا المنامية المشهورة، إذ رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له، فأوّلها له أبوه بأنه سيبلغ مجداً ورفعة يخضع له فيهما جميع إخوته حتى أبوه وقرينة أبيه اللذين جاء رمزهما في الرؤيا بالشمس والقمر، وأوصاه أبوه بأن لا يقص رؤياه هذه على إخوته، لئلا يكيدوا له كيداً كبيراً مستجيبين فيه لوساوس الشيطان، هذا ما قصّه الله علينا بقوله في سورة (يوسف ١٢):

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾.

ومن هذه الوصية نستفيد استحسان كتمان دلائل النعمة القادمة والمبشرات بها، لئلا تثير حسد الحاسدين، وتحرّضهم على فعل الشرور وتدبير المكايد.

واشتد حرص يعقوب على يوسف بعد هذه الرؤيا، وزاد شغفاً وعناية به، الأمر الذي ضاعف من حسد الإخوة.

وعندئذٍ تحوّل الحسد فيهم إلى مستوى تدبير مكيدة التخلص من يوسف، فائتمروا فيما بينهم على قتله، أو طرحه في البرية في مكان خالٍ حتى تأكله السباع، لولا أن أخفهم حسداً وأخشاهم لله نصحهم بأن يلقوه في بئر من آبار البرية الواقعة على طريق القوافل، لتلتقطه إحدى القوافل وتذهب به، وبذلك يتخلصون منه، دون أن يرتكبوا الجريمة الكبرى جريمة القتل ظلماً وعدواناً. قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

واستقر رأيهم على أن يتخلصوا من يوسف بهذه الطريقة، وكان لا بد لهم من حيلة يحتالونها على أبيهم حتى يبعدوا يوسف عن نظره ومراقبته إذ كان لا يأمنهم عليه. ففاجأوا أباهم بالعتاب الشديد لأنه لا يأمنهم عليه مع أنهم إخوته وهم له ناصحون، ولأنه لا يبعثه معهم إذ يخرجون إلى المراتع والمراعي. فاعتذر يعقوب بأنه يحزنه فراقه، وبأنه صغير يخاف عليه أن يأكله الذئب، فأظهروا لأبيهم قدرتهم على حمايته، فهم عصبة، ولن يستطيع الذئب أن يصل إليه.

قال الله تعالى في بيان ذلك في سورة (يوسف ١٢):

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا

غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أراد يعقوب أن لا يصرح لهم بأنه لا يأمنهم عليه، فاعتذر لهم بأنه يحزنه فراقه، فأجج بذلك حسدهم، وذكر لهم أنه يخاف أن يأكله الذئب، فتصيدوا هذا التخوف لديه ليقولوا له فيما بعد: لقد أكله الذئب.

وأخذوه، ونفذوا مكيدتهم، وألقوه في الجب، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وهكذا نفَّذ الإخوة العشرة جريمتهم في أخيهم الغلام الصغير الذي لا حول له ولا حيلة.

وعادوا مساءً إلى أبيهم بدموع كاذبة، ودم كذب، وأقوال كاذبة، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وبهذه الجريمة النكراء داوى الإخوة داء الحسد الذي أكل قلوبهم. ولكنهم ما عرفوا أنّ طريق المجد الذي قضاه الله ليوسف عليه السلام كان من نافذة

الجبّ الذي رماه فيه إخوته وهم له حاسدون، وأنهم بعد حين سيذهبون إليه ساجدين، وهو متربع على سرير السلطان في مصر.

فليمت الحاسد بغيظه، ففضل الله كثيراً ما يأتي على أيدي الحاسدين، وبوسيلة المكر التي هم لها يمكرون.

وقد أحسن الشاعر إذ قال:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

٤ ـ وكان داء الحسد من أكبر العوامل التي جعلت اليهود ينكرون الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام، ولذلك حاولوا التخلص منه، لولا أن نجاه الله فرفعه إليه، وألقى شبهه على من دلّ عليه.

وكان داء الحسد من أكبر العوامل التي جعلت اليهود أنفسهم ينكرون الحق الذي جاء به محمد صلوات الله عليه، وبالحسد تآمروا عليه وعلى دعوته في حياته، ثمّ تابعوا تآمرهم على الإسلام في جميع عصور التاريخ الإسلامي.

لقد حسدوا محمداً رسول الله لأنه كان من العرب، ولم يكن من بني إسرائيل، وقد اصطفاه الله فأنزل عليه خاتمة رسالات السماء وأشملها وأعمّها، وكانوا يعلمون من أنباء كتبهم وبشائرها أنّ رسولاً سيأتي ويستعلن به دين الله من جبال فاران (وهي جبال مكة) فلمّا جاءهم ما عرفوا حسدوه، فركبوا مركب الجريمة الكبرى، فكفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

كان يهود المدينة يقولون للأوس والخزرج قبل ظهور أمر الرسول محمد ﷺ : إنّ نبيّاً مبعوث الآن، قد أظلّ زمانه، سنتبعه، ونقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، وكانوا يسألون الله أن يفتح عليهم به. فلمّا جاءهم، وهاجر إلى المدينة، وعرفوا صدقه، حسدوه إذ لم يكن من بني إسرائيل، فدفعهم حسدهم إلى الكفر برسالته ومناصبته العداوة، قال الله تعالى في معرض الحديث عنهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ دلّ على أن الحسد هو السبب الذي جعلهم يكفرون برسالة محمد ﷺ وذلك لأن أصل معنى البغي في اللغة الحسد (ذكر هذا بعض علماء اللغة)، ثم سُمّي الظلم بغياً على سبيل التوسع في دلالات الألفاظ، لأن الحاسد الآثم الذي لا يخشى الله يظلم المحسود جهده، بغية زوال نعمة الله عنه.

فهؤلاء اليهود باعوا أنفسهم للشقاء الأبدي، مقابل أن يكفروا بما أنزل الله على محمد ﷺ حسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباؤوا بغضب من الله جديد، مركب على غضب سابق جرّه عليهم كفرهم بالرسالات السابقة وتحريفهم لها، ورضاهم بما أجرم آباؤهم وأجدادهم من قبل، واتباعهم على ضلالهم، وإصرارهم على الباطل.

وقال الله تعالى أيضاً بشأن اليهود في سورة (النساء ٤):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

ففي هذا النص يوجه الله التوبيخ الشديد للذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وهم اليهود، كما يدل عليهم سبب نزول النص، وسياق الآيات فيه.

ولإيمان اليهود بالجبت والطاغوت(١) قصة: وذلك أنه لمّا أُجلي يهود بني النضير عن المدينة، واستوطن من استوطن منهم خيبر، ذهب زعماؤهم يؤلبون قريشاً وسائر القبائل العربية المشركة على الرسول ﷺ والمسلمين معه في المدينة، وحزّبوا الأحزاب ضدهم، وجمعوهم لحربهم، وحينما كانوا يفاوضون زعماء قريش على ذلك، قالت لهم قريش: أنتم أهل الكتاب الأول، وقد جاء محمد ومعه كتابٌ يقول: إنه من عند الله، وقد كذّبناه وكفرنا به، فمن منّا على حق؟

قال لهم زعماء يهود: أنتم أقرب إلى الحق وأهدى سبيلاً من الذين آمنوا بمحمد!! مع أنهم يعرفون محمداً، وصفاته، وصدقه في دعوته، كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم يكتمون الحق وهم يعلمون.

فهم بقولهم هذا للمشركين الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت، قد آمنوا معهم بالجبت والطاغوت.

وكون اليهود يعرفون صدق محمد ﷺ حقّ المعرفة لانطباق صفات الرسول المبشر به في كتبهم عليه انطباقاً تاماً، قد دمغهم الله به في قوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وداء الحسد في اليهود الذين أصرّوا على الكفر والتكذيب لم يشفه أن يرتكبوا جريمة الكفر فقط، بل دفعهم هذا الداء إلى اتخاذ الوسائل المختلفة

---

(١) الجبت: كلّ ما عبد من دون الله، وقيل: هي كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك. **والطاغوت**: الشيطان، وكل رأس في الضلال، وكل معبود من دون الله، وهو لفظ يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

ليردّوا الذين آمنوا عن إيمانهم فيكونوا كافرين، وهذه هي خطتهم الإجرامية الكبرى التي يسيرون عليها في كل أرض يكون لهم فيها مدخلٌ وقدرة على الحركة، بله المواطن التي يكون لهم فيها نفوذ أو سلطان. وقد دمغهم القرآن بهذه الصفة، فقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ... ﴿١٠٩﴾﴾.

وسلالاتهم اليوم يعملون على طريقة آبائهم الأولين، فيريدون إفساد العالم، وإخراج الناس من الإيمان إلى الكفر، ومن الهداية إلى الضلالة، ومن صراط السعادة والهناء، إلى سبل العذاب والشقاء.

والعوامل النفسية فيهم ذات أصول واحدة، لقد كانت حسداً خبيثاً، فتحول إلى حقد دفين على كل شعوب الأرض لا سيما المسلمون.

* * *

علاج داء الحسد:

١ ـ على الحاسد أن يساهم هو نفسه في معالجة دائه، وتبدأ عملية العلاج الصحيح بأن يصحّح الإنسان مفاهيمه بالقناعات الكافية المتصلة بقواعد الإيمان وأسسه الفكرية، فمتى استقامت في داخل النفس الإنسانية المفاهيم الإيمانية الكبرى، وهيمنت فيه على مراكز الشعور ومرابض الوجدان ومواطن العواطف، استقام اتجاه سفينته النفسية في خضم بحر الأهواء والشهوات والمطامع والدوافع والانفعالات.

ويتم تصحيح هذه المفاهيم بتربية الإيمان بالله تعالى وبصفاته العلية، وبحسن الفهم عن الله والتبصر بعظيم حكمته جلّ وعلا، في عطائه ومنعه، وخفضه ورفعه، وإعزازه وإذلاله، وفي كل ما تجري به مقاديره. وبالتبصير بأن حكمة الله العظيمة لا تفارق قضاءه وقدره، وبالتبصر أيضاً بأن الأصل في النعم والمصائب في ظروف الحياة الدنيا أنها مجالات امتحان واختبار، وأنّ الحرمان قد يكون خيراً للإنسان من العطاء، وأن المصيبة قد تكون خيراً له من النعمة،

بالنظر إلى عواقب كل منهما. وأن الله العليم الحكيم هو الذي يعلم ما هو خير لنا فيقدّره لنا بفضله، وما أكثر ما نجهل وجه الخير لأنفسنا، وكثيراً ما نكره ما هو لنا خيرٌ، وكثيراً ما نحب ما هو لنا شر، والله يعلم حقائق الأمور، ونحن نغتر بظواهرها وزينتها.

ومتى صحّ الفهم عن الله على هذا الوجه اطمأن قلب الإنسان، وغشيته السكينة، وتنزلت عليه الرحمة، وعرف أن الخير كل الخير مرتبط بما يقضيه الله له من مصيبة أو نعمة، وبما تجري به مقاديره.

وعندئذٍ يقطع نظره عن الناس، فلا ينظر إلى ما وهبهم الله من نعم وعطايا، لأنه استقام فهمه عن الله، فعلم أنها صور من صور الابتلاء، وليست صوراً من صور التكريم، ومتى انقطع نظره عن الناس لم تتهيج في نفسه عوامل الحسد.

٢ ــ ثم يأتي علاج التدريب العملي على كفّ البصر عمّا وهب الله الناس من نعم، وما فضلهم به من عطايا وهبات، وذلك بحصر التطلع الدائم إلى عظيم فضل الله، وبحور خزائنه التي لا تنفد. وقد أرشد القرآن إلى هذا العلاج بقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

وبقول الله جل وعلا يؤدب رسوله ﷺ في سورة (الحجر ١٥):

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وبقوله له أيضاً في سورة (طه ٢):

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

أزواجاً منهم: أي أصنافاً منهم، وهم الأغنياء والكبراء وذوو المكانات الاجتماعية بين الناس، ونحوهم.

ففي هذه النصوص نهيٌ عن الحسد ومدّ الأعين، وتوجيه إلى سؤال الله من فضله.

٣ ـ ومع علاج التدريب العملي يأتي علاج التحويل والتصعيد، ويكون هذا العلاج بتعليق النفس بمجال تجارة أجلّ وأعظم من كلّ ما في الدنيا من نعم ومتع ولذات، ألا وهو مجال العمل للدار الآخرة، فمتى تعلقت النفس المؤمنة بهذا المجال أخذت سبيلها للسبق فيه، بالمجاهدة والكدح الدائب بصالح العمل، بغية نيل أعظم الدرجات في الآخرة، فهي درجات تنال بالكسب المفتوح لكل عامل على نسبة سواء. وهذا المجال لا مزاحمة فيه ولا معارضة، والسبق فيه يعتمد على ما في القلوب من تقوى وإخلاص لله في العمل، ولئن كانت الدنيا لا تتسع لأطماع الجميع فالآخرة تتسع لطمع كل طامع ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

٤ ـ وتوجد وسيلة وقائية يمكن أن تقي من الإصابة بداء الحسد، وهي وسيلة التربيةمنذ الطفولة على التخفيف من الشعور بالأنانية المفرطة، وذلك باتخاذ الوسائل التي تربّـي في الناشىء حب الآخرين، وعدم النظر إلى ما عندهم بطمع ورغبة بالاستيلاء، والتي تغذّي فيه احترام حقوق الآخرين التي وهبهم الله إياها.

والأدب الإسلامي المطلوب حينما يرى الإنسان شيئاً لغيره فيستحسنه، أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وأن يدعو لصاحب النعمة بالبركة، فإذا لم يفعل وشعر بأن بصره قد كان له أثر سيء فليتوضأ وفق الطريقة التي سبق بيانها في الحديث، وليصب الماء على من حسده من خلف، وليرم ما فضل على

الأرض من وراء ظهره، فلعل ذلك أن يرفع الأذى عنه، كما ثبت في الصحيح: «وإذا استغسلتم فاغسلوا».

* * *

(٥) كراهية الداعي إلى الحق:

وقد يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن كراهية شخص الداعي إلى الحق.

ولذلك صان الله رسله من المنفرات التي تُكَرِّه الناس بهم، وحلّاهم بالصفات التي تحبِّب الناس بهم، حتى لا يكون في ذواتهم أيّ عامل له تأثير عكسي على سير دعوتهم وامتدادها واستجابة الناس لها.

إن الإناء الجميل النظيف يساعد على تحريك الشهوة وانفتاح النفس لتناول الطعام الذي فيه، بخلاف الإناء القبيح القذر، فإنه يسدّ النفس ويصدّ الشهوة عن تناول الطعام الذي فيه، ولو كان الطعام بذاته شهياً لذيذاً.

لقد كان رسول الله ﷺ في ذاته إنساناً محبباً للقلوب مَهيباً، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، بهذا وصفه أصحابه رضوان الله عليهم. وكان أجمل الناس خَلْقاً، وكان أحسن الناس خُلقاً، وبذلك استكمل كل العناصر التي تحبب الإنسان إلى الناس، فلم يكن الرسول ﷺ مكروهاً من النـاس لشخصه.

وكان صالح عليه السلام في قومه ــ قبل أن يبعثه الله رسولاً إليهم ــ مرجوّاً لكل رأي سديد وعمل رشيد، بما حلّاه الله به من صفات، ولذلك قال له قومه بعد البعثة كما أخبرنا الله في سورة (هود ١١):

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

وكذلك كان سائر رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

فواجب الداعي إلى الحق أن يتحلى بالصفات التي تحبب الناس به، حتى لا تكون كراهيتهم له صادة لهم عن اتباع الحق والاستجابة لدعوته.

* * *

(٦) التقليد الأعمى والتعصب الذميم:

وكثيراً ما يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن التقليد الأعمى والتعصب الذميم لقوم أو قادة ملتزمين جانب الباطل.

وينشأ عن التقليد الأعمى ظلمات في النفس تحجب البصيرة عن رؤية نور الحق، فلا يرى المقلِّد إلاّ عمل من يقلده، ورأي من يقلده، والسبل التي يسير فيها من يقلّده، كالأعمى الغبي الذي يقوده في الطريق قائد يثق هو به، فهو يتبعه ولو قاده أو ساقه إلى هلاكه.

ويتولد التقليد الأعمى من ضعف الثقة بالنفس مضافاً إليه عامل الثقة العمياء بالشخص المتبوع، أو الجماعة أو القوم المتبوعين، وهذه الثقة تأتي من دافع المحبة، أو من دافع الهوى، أو من قناعة غير مستندة إلى أسس عقلية وعلمية صحيحة، أو من دافع الأنانية في التابع حينما يكون المتبوع من أصوله، أو من قومه، أو من بيئته، أو من ساكني وطنه.

وغريزة التقليد هي في الأصل غريزة حسنة نافعة، يكتسب بها الناشىء من بيئته كثيراً من المعارف والمهارات والعادات والأخلاق الحسنة، التي توصل إليها الناس بعد تجارب القرون الكثيرة الأولى. لكن المفروض في الإنسان السوي الذكي العاقل المبدع أن لا يجمُد عند حدود التقليد، وإلاّ وقفت الإنسانية عن التقدم والارتقاء إلى ما هو أكمل وأفضل وأحسن، وأن لا يمسك بمذهب التقليد كلّما اكتشف أنّ ما يقلده أمر باطل، أو أن غيره أفضل منه وأحسن. فالإرادة الإنسانية يجب أن تكون تابعة للحق الذي يقضي به منطق العقل وتجارب العلم، ولما هو أفضل وأحسن وأكمل في منطق العقل وتجارب العلم أيضاً.

وهنا يقع كثير من الناس فريسة عدم التمييز بين التقليد المحمود والتقليد المذموم. ويتخفف كثير من الناس من أعباء البحث والنظر، وتطوير المعرفة إلى ما هو أحسن، فيقعد مع القاعدين، ويرضى لنفسه بأن يكون في كل شؤونه مقلّداً، ودفاعاً عن نفسه فيما ارتضاه من خطة التقليد دون بصر ولا نظر؛ تتولد

لديه عصبية خاصة نابعة من منابع الأنانية، يتعصب فيها لكل رأي أو عمل أو مذهب أو سبيل لمتبوعه الذي يتابعه على طريقة التقليد الأعمى، ويحاول أن يجد المبررات لذلك مهما كانت مبررات تافهة مردودة في منطق العقل وتجارب العلم.

إن الإنسان لينشأ في بيئة من البيئات الاجتماعية، فيكتسب منها معارف ومهارات وعادات وأخلاقاً كثيرة، ومن هذه المكتسبات ما هو حق ومنها ما هو باطل، ومنها أيضاً ما هو صالح ومنها ما هو فاسد، وبمقتضى نشوئه في هذه البيئة يتكوّن في نفسه إلف لها مهما كان وضعها. وإذ يعتبر نفسه جزءاً من هذه البيئة الاجتماعية يتكون لديه بدافع الأنانية خلق التعصب لأهله وعشيرته وقومه وسائر من هم في بيئته، وجميع ما هو في بيئته من مفاهيم وعادات وأخلاق؛ لأنه بتعصبه هذا يدافع عن كيانه الذاتي من وجهة نظره المنحرفة عن منهج الحق، ومنهج التفكير السليم، دون أن يسمح لعقله المتجرد عن مؤثرات البيئة أن يبحث ويناقش ويميز بين الحق والباطل والصالح والفاسد.

ويمكن أن نقول: إنّ في طليعة الضلالات الاعتقادية المنتشرة في جماهير كثيرة وشعوب كبرى؛ الاعتقادات والمفاهيم الوراثية المتمكنة في الأنفس بسبب التعصب لما كان عليه الأسلاف، سواءٌ أكان لها حظّ من النظر أو لم يكن لها منه نصيب غير أوهام ووساوس شياطين.

وبالتتبع نلاحظ أن كثيراً من شعوب الأرض ليس لها أية حجة فيما تتمسك به من معتقدات تافهة غير كونها معتقدات ورثوها عن أسلافهم من قومهم، فاقتدوا بهم، وتعصبوا لهم، وساروا على آثارهم، وما أكثر ما نجد في البشر من هؤلاء المقلدين المتعصبين لعقائدهم الموروثة دون بصر ولا نظر.

فمنهم الشعوب الوثنية التي نرى منها مئات الملايين في الصين والهند وإفريقيا وغيرها، على الرغم من أن العقائد الوثنية الخرافية لا تعيش في نور العلم والحضارة، وإنّما يكون لها تأثيرها على البدائيين في الأمم التي تعيش في الأجواء المظلمة من الجهل والتخلف الفكري والحضاري، ولكنه لما أضيف إلى

هذه المعتقدات الباطلة عنصر التعصب الأعمى والتقليد لما كان عليه الأسلاف، أمكنها أن تعيش في عصور العلم والنور والحضارة الإنسانية على الرغم من تفاهتها الظاهرة.

ومنهم أيضاً أمم الأنبياء من قبل، والأمة العربية قبل بعثة محمد ﷺ فإنّ الرسول لمّا دعاهم إلى الحق وأقام عليهم الحجج والبراهين القاطعة عارضوا دعوته بحجتهم التافهة التي ليس لها وزن في منظار العقل السليم، فقالوا له: إنا وجدنا آباءنا على أمّة ـ أي: على طريقة ـ وإنّا على آثارهم مهتدون. وقالوا له أيضاً: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا.

وهل يصح في نظر العقل أن يستمسكوا بمعتقدات آبائهم وطرائف آبائهم في السلوك لمجرّد التقليد الذي لا بصر فيه ولا نظر؟! ولنفرض أنّ آباءهم لم يؤتوا حظاً من العقل أو من الهداية، أو أنّهم اتبعوا أهواءهم ووساوس الشياطين، أفيتبعونهم على عمىً وجهل؛ وقد يكون في تقليدهم لهم الهلاك والدمار؟!

وقد ناقش القرآن المقلّدين تقليداً أعمى، المتعصبين لما كان عليه آباؤهم وأسلافهم، وذمّ طريقتهم، وأبان فسادها من الناحية العقلية المنطقية، ومن الناحية الواقعية، وفيما يلي طائفة من العرض القرآني لمذهب التقليد الأعمى المتعصب الفاسد عقلياً وعلمياً وواقعياً:

١ ـ واجه كفّار العرب دعوة الرسول محمد ﷺ إلى اتباع ما أنزل الله بقولهم: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فأبان الله لهم فساد هذا المذهب التقليدي الأعمى بقوله: أَوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟! وبقوله: أَوَلو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون؟! وبقوله: أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟؟!!

أي: أفهم يلتزمون اتباع ما كان عليه آباؤهم ولو كان آباؤهم محرومين من العقل نهائياً، ومحرومين من نور الهداية إلى الحق وسواء السبيل ومحرومين من العلم ومن المعرفة الهادية؟؟!!

إنّ هذا الأمر عجيب مستنكر أن يصدر من العقلاء الذين لديهم قليل من العقل والتفكير والنظر في عواقب الأمور.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟؟!! ﴿١٧٠﴾ ﴾.

ألفينا: وجدنا.

وقال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟؟!! ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

فإذْ لا سند لتقليدهم من عقل، ولا من علم، لم يبق لهم إلاّ أنّ الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير، فهم يتبعونه إلى شقائهم، ويتحملون مسؤوليتهم كاملة.

٢ ــ وأبان الله لرسوله محمد ﷺ أنه ما من رسول أرسله الله من قبله في قرية إلاّ قال له مترفوها ــ وهم أغنياء أهلها ووجهاؤهم وكبراؤهم ــ: «إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون» أي: إنا وجدنا آباءنا على ملّة ودين وطريقة اعتقاد وسلوك، وإنّا على آثارهم مقتدون.

وعلّم الله رسوله أن يقول لهم في نقاش عقلي سلمي سليم: أَوَ لَوْ جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم؟؟!!

أي: أفأنتم تصرّون على تقليد آبائكم فيما وجدتموهم عليه، ولو جاءكم ما هو أهدى منه وأرشد؟؟!!

إنّ هذا لأمر عجيب مستنكر أن يصدر من العقلاء الذين لديهم قليل من العقل والتفكير والنظر في عواقب الأمور.

قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ؟!... ﴿٢٤﴾﴾

أمّة: دين وملّة وطريقة.

ولّما اقتدوا بآبائهم زعموا أنّهم باقتدائهم هذا مهتدون، فقالوا: وإنا على آثارهم مهتدون، أي: مقتدون مهتدون، وهذا الزعم غير مدعّم بدليل عقلي ولا بدليل علمي، إنما هو تقليد أعمى زيّنته العصبية، واتباع الأهواء.

وجعل بعضهم يحذر بعضاً فيقولون: ﴿ما هذا إلاّ رجل يريد أن يصُدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم﴾ كما جاء في سورة (سبأ ٣٤) الآية (٤٣).

٣ ــ وكانت حجة قوم إبراهيم عليه السلام في عبادتهم للأصنام أنهم وجدوا آباءهم يفعلون مثل ذلك، فقلّدوهم في طريقتهم.

قال الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ

يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ
يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى
ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وهكذا أقام لهم إبراهيم عليه السلام الحجّة على فساد طريقتهم في عبادة الأصنام فدلّهم بذلك على فساد التقليد الأعمى الذي تابعوا فيه آباءهم.

وقال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾
قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا
لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

وهكذا أقام لهم إبراهيم الدليل العقلي والدليل العملي الواقعي على فساد طريقتهم في عبادة الأصنام، فدلّهم بذلك أيضاً على فساد التقليد الأعمى الذي تابعوا فيه آباءهم.

٤ ــ واستنكر فرعون وملؤه دعوة موسى، على أساس أنه يريد بها صرفهم عمّا وجدوا عليه آباءهم، كأن طريقة الأسلاف هي الطريقة القويمة التي يجب اتباعها دائماً مهما كان واقع حالها مخالفاً لمنطق العقل وتجارب العلم.

قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وكذلك فعلت من قبل ثمود، إذ قالوا لنبيّهم صالح عليه السلام: ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟!﴾ كما جاء في سورة (هود ١١) الآية (٦٢).

وكذلك فعل قوم شعيب عليه السلام، إذ قالوا له: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا؟!﴾ كما جاء في سورة (هود ١١) الآية (٨٧):

ومثل ذلك قال قوم هود له، كما جاء في سورة (الأعراف ٧).

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

٥ ــ ووصف الله بني آدم بأنهم يبرّرون فعلهم للفواحش بأنّهم قد وجدوا عليها آباءهم، فهم يقلّدونهم في ذلك، مع أنّ التقليد لا يعفي المقلّد من المسؤولية الشخصية. ثم ينتقلون من ذلك إلى الكذب على الله، فيفترون على الله لما يفعلون من فواحش أحكاماً دينية تأمرهم بها، أو تأذن لهم بفعلها، قال الله تعالى في معرض الحديث عن بني آدم في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

٦ ــ وذكر الله أنّ كلّ الأمم قد قالت لرسلها مثل هذه المقالة، مستنكرة دعوة الرسل بأنها تصدّ عمّا كان يعبد آباؤهم، فالعلّة في الناس متشابهة، لأن قلوبهم ونفوسهم وعوامل انحرافهم متشابهة، قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ

أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾
۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم
مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ
أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

* * *

(٧) نوازع نفسية مختلفة، كالغضب والطمع والخوف:

وقد يكون جحود الحقّ ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن الغضب الذي ينطمس معه وجه الحقيقة، أو عن الطمع الذي قد يُعمي بصيرة صاحبه فلا يرى الحق، أو عن الخوف الذي قد يؤثر في النفس مثل تأثير الطمع أو أكثر.

لذلك كان على داعي الحق أن ينتظر مَنْ يدعوه حتى تهدأ ثورة غضبه إذا وجده غضبان. وأن يهدىء روعه ويؤمنه مما يخاف إذا وجده في حالة خوف. وأن يداري شدة طمعه فيرضيه له ببعض المرضيات حتى يفتح نفسه لقبول الحق.

وهذا ما اعتمدت عليه التربية الإسلامية في أساليب الدعوة إلى الله، وجمع الخلق على الحقّ.

وقد كان الرسول ﷺ يعطي أقواماً عطاءً جزيلاً لما يرى في قلوبهم من الطمع والهلع، فيتألف بذلك قلوبهم، ويحبب إليها اتباع الحقّ وسلوك سبيل الهدى.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال: إنّ ناساً من الأنصار قالوا حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فحُدِّث لرسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبّة من أدم، ولم يدعُ معهم أحداً غيرهم؛ فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟؟» فقال فقهاؤهم: أمّا ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأمّا أناسٌ منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويدع الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ:

«إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟» قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا.

* * *

الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي:

وقد يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي.

وذلك أنه قد تبرق في ذهن المغرور بنفسه بارقة من فكرة تمرُّ في خياله أو في توهمه، فيلبسها غروره ثوباً لمّاعاً مزركشاً مزخرفاً، فتحلو في نفسه وتزدان، ثم يتجسّم توهمه بها حتى تمسي عقيدة راسخة لديه، دون أن يَزِنَها بميزان الحجة والبرهان والمناقشة المنطقية السليمة، ودون أن يقيسها بمقاييس العلم الصحيحة، وقد يسعى مبشراً بها بين السذّج وضعفاء التفكير والجاهلين؛ بزخرف من القول، وقد يستخدم قوة شخصيته للتأثير عليهم، ثم قد يكون له مؤيّدون وأنصار يتابعونه على ضلالته التي انخدع هو بها بعامل الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي.

ويطغى الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي حتى يكون حجاباً كثيفاً يحجب بصيرة الإنسان عن رؤية الحق.

ومتى أمست الفكرة الباطلة جزءاً من كيان الإنسان صَعُب عليه أن يتنازل عنها ولو انكشف له وجه الحق بعد ذلك، إلاّ عند محبـي الحقّ وطلاّبه بصدق، فإنهم لا تمنعهم أنانية ولا عصبية ولا إلف عن الرجوع إليه، وهجر ما كانوا عليه، وإعلان أنهم كانوا مخطئين.

وقد نشأ في التاريخ فرق متعدّدة تحمل مذاهب فكرية سقيمة، منحرفة عن المنهج الفكري السليم، وذلك بسبب إصابة واحد أو جماعة من الناس بمرض الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي، ثم كان منه ــ ومن عوامل أخرى ــ ضلالة موروثة يعسر التخلّص منها، ما لم يتحرّر المنتسبون إلى هذه الفرق الضالة من مواريثهم الاعتقادية، بمناقشة عقائدهم مناقشة فكرية سليمة مؤيدة بالحجج المنطقية، والبراهين العلمية الصحيحة.

* * *

ضعف العقل وضعف الإرادة:

قد ينشأ من الضعف العقلي عقائد باطلة وأفكار منحرفة فاسدة، فتكون هذه العقائد والأفكار سدوداً في النفس تمنع من رؤية الحقّ المنير، فيجحدُ أصحابها الحقّ ويرفضون اتباعه والعمل به. وحين تغدو الأفكار والعقائد الباطلة مواريث قومية تأتي العصبيات وعوامل الإلف فتمكن لها في النفوس، فلو عرف أصحابها أنهم على باطل وخطأ لم يدعوها تعصباً لها، لأنها قد غدت في تصوراتهم الفاسدة جزءاً من كيانهم، مع أنّ الإنسان العاقل المنصف اللألمعي نزّاع إلى الحقّ دائماً حيث كان الحق، ورجاع إليه ولو خالف نفسه وهواه.

وقد ينشأ من ضعف الإرادة أنها تستخذي أمام ذوي سلطة سياسية أو اجتماعية أو روحية، أو أمام شخصيّة قوية لها تأثير على نفوس الآخرين؛ وعندئذ تتعطّل القوى الفكرية، ويغدو ضعفاء الإرادة إمّعةً وأتباعاً لمن يستطيع أن يفرض سلطانه عليهم.

ومتى استسلم إنسان بإراداته لذي إرادة قوية، ومكنه من السيطرة عليه، استطاع ذو الإرادة القوية حينئذ أن يتلاعب بمفاهيم فريسته وعقائده وسلوكه على ما يشتهي ويهوى.

وبهذا السبب نلاحظ الجمهور الكبير من الأتباع الذي تعطّلت إراداتهم الشخصية يعتقدون ما يمليه عليهم سادتهم وقادتهم، دون أن يعملوا أفكارهم ببحث حر، أو مناقشة منطقية سديدة، سواء أكان ذلك حقاً أو باطلاً، خيراً أو شراً.

وسوف لن يغنيهم من الحق شيئاً يوم القيامة أن يقولوا: «ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا».

وينبئنا القرآن أنّ فرعون لما استطاع أن يؤثر على قومه بقوة إرادته ونفوذ سلطانه، استطاع أن يقول لهم كما جاء في سورة (غافر ٤٠):

﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ولمّا كان قوم فرعون في مستوى من الخفة وضعف الإرادة يستطيع معه أن يفرض عليهم طاعته، قال الله في شأنه وشأنهم في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

وضعفاء الرأي ضعفاء الإرادة يتخفّفون من مسؤولية البحث ورؤية طريقهم في الحياة، فيقولون: نحن مع الناس إنْ أحسنوا أحسنا، وإن أساؤوا أسأنا.

وقد سمى الرسول ﷺ من كان من هذا الصنف إمعة، روى الترمذي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا». قال الترمذي: حديث حسن غريب.

فالإمّعة: هو الذي لا رأي له ولا عزم، فهو يتابع غيره على رأيه، ولا يثبت على شيء.

وهذه من الصفات القبيحة الضارة في الإنسان، ومن الأخلاق التي لا يرضى الإسلام أن تكون من أخلاق المؤمنين به.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني
الإنسان في دائرة الدلالات القرآنية

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

الرسول ذو الخلق العظيم وتربية القرآن له في مجال السلوك الخلقي

الفصل الأول: خلق الرسول ﷺ في القرآن وصفاً وتربية

الباب الرابع
جوامع مفردات الأخلاق وكلياتها الكبرى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

إلى هنا ينتهي الجزء الأول

من كتاب الأخلاق الإسلامية وأسسها

وسوف يليه ــ إن شاء الله ــ الجزء الثاني، وأوله:

الرحمـــة وفروعهـــا وظواهرهـــا السلوكية وأضدادها

آثار المؤلف

أولاً:

أ - سلسلة (في طريق الإسلام).

١ - العقيدة الإسلامية وأسسها (مجلد كبير).

٢ - الأخلاق الإسلامية وأسسها (مجلدان كبيران).

٣ - أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها (مجلد متوسط).

ثانياً:

ب - في سلسلة أعداء الإسلام:

١ - مكايد يهودية عبر التاريخ.

٢ - صراع مع الملاحدة حتى العظم.

٣ - أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير - الاستشراق - الاستعمار).

٤ - الكيد الأحمر.

٥ - غزو في الصميم.

٦ - كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة.

قيد الإعداد:

٧ - النفاق والمنافقون.

ثالثاً:

جـ ـ سلسلة (من أدب الدعوة الإسلامية).

١ ـ آمنت بالله (شعر).

٢ ـ ترنيمات إسلامية (شعر).

٣ ـ مبادىء في الأدب والدعوة.

٤ ـ ديوان أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة (شعر).

رابعاً:

د ـ كتب متنوعة:

١ ـ ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة.

٢ ـ تفسير سورة الرعد (دراسة أدبية وفكرية ولغوية).

٣ ـ روائع من أقوال الرسول ﷺ (دراسة أدبية وفكرية ولغوية).

٤ ـ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل.

٥ ـ الأمثال القرآنية.

٦ ـ الوجيزة في العقيدة الإسلامية.

٧ ـ الأمة الربانية الواحدة.

٨ ـ بصائر للمسلم المعاصر.

٩ ـ الصيام ورمضان في السنّة والقرآن.

١٠ ـ براهين وأدلة إيمانية.

١٢ ـ نوح عليه السلام.

١٣ ـ تدبُّر سورة الفرقان.

اقــرأ للمؤلــف

في آخر ما أخرج للناس من كتب

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَقَوْمُه

في القُرْآن المَجِيد

دراسة

في طَرِيقِ التَّفْسِيرِ المَوْضُوعِي

تَدَبُّرُ سُورَةِ الفُرْقَان

في وحدة موضوع

وهي السورة الثانية والأربعون بحسب ترتيب النزول

تدبُّر بمنهج كتاب

قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل

دار القلم
دمشق